

جَنَرَانِ شَامِيَّةٌ

عَضُو مَشَارِك ، جَمِيعَةُ دَرَسَاتِ
الشَّرْقِ الْاَوْسَطِ لِأَمِيرِكَا الشَّمَالِيَّةِ

الإسلام

هل يقدم للعالم
نظرية للحكم

دار الأبحاث والنشر

ص.ب. ٥٥٠٢٥ - ميدان الفيل - لبنان

دار الأبحاث والنشر
ص. ب. ٥٥٠٢٥
سن القيل، لبنان



The Research and Publishing House
P.O. Box 55025
Sin el Fil, Lebanon

and

6111 Du Boise Ave.
Suite 14 H
Montreal, Qc., H3S 2V8
Canada

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

Includes Index
ISBN 0-921632-00-2

المؤلف

وُلد المؤلف في دمشق عام ١٩١٤ وقال درجة ماستر في العلوم السياسية من الجامعة الأميركية في بيروت ثم ليسانس في الحقوق. يتقن العربية والإنكليزية والفرنسية.

اشترك بتأسيس «حركة القوميين العرب» في منتصف الثلاثينات في الجامعة الأميركية حيث كان منشأها.

انتدبت الحكومة السورية عام ١٩٤٧ لمثلها في وفد ضم السيد نصري المفلوف (نائب وزير لبناني)، والسيد أكرم زعيتر من كبار الوطنيين الفلسطينيين لشرح القضية الفلسطينية في دول أميركا اللاتينية. رأس وفداً فلسطينياً نائباً عام ١٩٦٢ مندوباً من الهيئة العربية العليا إلى الدول الأميركية. ثم حضر الوفد جلسات الأمم المتحدة في نيويورك بشهر نوفمبر ١٩٦٢.

ترشح للنيابة عن مدينة دمشق في انتخابات ١٩٤٩.

على أثر الانقلابات السورية المتكررة انتقل إلى بيروت سنة ١٩٥٤ وانتخب سكرتيراً تنفيذياً لمؤتمر خريجي الجامعة الأميركية الذي عقد دورته الأولى في بيروت سنة ١٩٥٥ وعقد دورته الثانية في القدس سنة ١٩٥٦ تحت اسم «مؤتمر الخريجين العرب».

كان المعلق الرئيسي في صحيفة «الحيلة» البيروتية من عام ١٩٥٤ إلى حين اغتيال صاحبها المرحوم كامل مروءة.

أسس «دار الأبحاث والنشر» في بيروت سنة ١٩٦٦ وأصدر موسوعة وسجل العالم العربي، باللغتين العربية والإنكليزية بالإضافة إلى نحو ثلاثين كتاباً مؤلفاً ومترجماً.

أصدر في السنوات القليلة الماضية باللغة الإنكليزية ثلاثة كتب سنوية عن المملكة العربية السعودية (١٩٧٩ - ١٩٨٣) وكتاباً رابعاً عن الخطة الخمسية الثالثة للمملكة السعودية (١٩٨٠ - ١٩٨٥).

انتخبته «جمعية دراسات الشرق الأوسط» في أميركا الشمالية عضواً مشاركاً تقديراً لأهميته موسوعة وسجل العالم العربي».

كتب أخرى للمؤلف
صدرت من " دار الأبحاث والنشر "

سجل العالم العربي، سلسلة فصلية من ١٩٦٦-١٩٧٤، ٢٣ مجلد، بالعربية
والانكليزية

" تضايانا العربية " ١٩٦٦

" يا عقلاء العرب اتحدوا ! " سلسلة من عشرة كتب، ١٩٦٧

" الاشتراكية المصرية والقضية الفلسطينية "، ١٩٦٨

" الاشتراكية الثورية في التطبيق " سلسلة من سبعة كتب، ١٩٦٩

" آل سعود، ماضيهم ومستقبلهم " ١٩٨٦

" مزرعة الحيوانات " لجورج أورويل، مترجم

" العالم عام ١٩٨٤ " لجورج أورويل، مترجم

" رجل دين في موسكو " لجيوفاني غويراشي، مترجم

Record of the Arab World, 1966-1974, 23 volumes

Saudi Arabia Yearbooks 1979-1983

المواضيع

الفصل الاول : المجتمع العربي في عصر النبوة

الفصل الثاني : النبي في المدينة

الفصل الثالث : منابع الدين ومبادئ الحكم

الفصل الرابع : السياسة في عهد الخلفاء الراشدين

الفصل الخامس : السياسة في عهد الدولة الاموية

الفصل السادس : تغير المجتمع في العصر العباسي

الفصل السابع : السياسة في الدولة العباسية

الفصل الثامن : الفتوحات والانظمة السياسية

الفصل التاسع : الفتوحات العثمانية

الفصل العاشر : رد أوروبا على الفتوحات الاسلامية

الخاتمة

محتويات الكتاب

فهرس الاسماء

لائحة المراجع

المقدمة

ان أنظمة الحكم القائمة اليوم في العالم سواء كانت ديمقراطية، او دكتاتورية، او شيوعية، او غيرها، لم يبلغ احدها حد الكمال في تلبية حاجات الناس الروحية والمادية.

وقد شاهدنا في اواخر عام ١٩٨٩ احداثا تاريخية خطيرة في الاتحاد السوفياتي ودول أوروبا الشرقية ذات النظام الشيوعي بينت امرين هامين في مجالي الاقتصاد والسياسة.

ففي الاقتصاد اعترف الاتحاد السوفياتي ودول أوروبا الشرقية بفساد نظام احتكار الدولة لوسائل الانتاج والتوزيع الذي فرضته التعاليم الشيوعية الماركسية، ومعزوه من قلبية حاجات المواطنين الحياتية فتدخلوا عنه وبحاولوا الان الانتقال الى النظام الاقتصادي الحر القائم على الملكية الفردية، والمبادرة الشخصية، والتنافس بين المنتجين، كل دولة بالشكل الذي يلائم اوضاعها.

وفي السياسة عبرت الشعوب عن تمسكها بالحيوات الانسانية والسياسية التي كبتتها الدكتاتورية الشيوعية، بمجرد ارتفاع التهديد العسكري السوفياتي عنها، فسارعت فقلب حكوماتها بمظاهرات شعبية سلمية لعدا رومانبا، وتعيد لتنظيم حياتها على الاسس الديمقراطية التي تحترم حرية الانسان، وحقه بالمشاركة بحكم بلده عن طريق مؤسسات سياسية حرة وثابتة، وبموجب دستور واضح يحدد كيفية انتخاب الحكام وصلاحياتهم، ويحمي حقوق السكان وحياتهم من تعسف شخص او حزب او جماعة متسلطة. ويعني هذا رفض جميع اشكال الحكم التي تستأثر بالسلطة بموجب نظام الحزب الواحد، وتعتمد في تثبيت حكمها على اجهزة المخابرات التي تقمع الحريات، وعلى انتخابات مزورة تعطيلها شرعية مزيفة، بما يعني رفضا لجميع الأنظمة الدكتاتورية مهما تعددت اشكالها وتسمياتها.

ان الاحداث التاريخية المثيرة التي حصلت في الاتحاد السوفياتي وفي دول اوربا الشرقية اثبتت ان النظام الشيوعي الماركسي في نواحيه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لم يعد خيارا واردا في تطلعات الشعوب للتواقة الى الرقي والحرية، ولم يعد امامها الا النظام الديمقراطي المستمد من اسس فلسفية ونظرية مشتركة، مع تعددية في اشكال الحكم حسب اوضاع كل شعب واختياره.

لقد توصلت الشعوب الاوروبية الى هذه النتيجة، مع تعدد اجناسها ولغاتها، وتباعد مواطنها، وشدة الخلافات القومية بينها، لان جامعا مشتركا يوحد بين ثقافتها وينظم نمط تفكيرها. ويكون عقليتها هو انتماؤها الى اصول واحدة نابعة من التراث الهيليني - المسيحي.

وقد نجد في المجتمعات الغربية تيارات فكرية تعتمد من الدين، وتعاديه احيانا، لكنها تبقى متأثرة بالقيم التي نشأت من هذا التراث.

لكن أنظمة الديمقراطية الغربية ليست ايضا في المستوى المرغوب. وفي العالم شعوب اخرى ذات اديان وثقافات وذهنيات مختلفة قد لا تجد في تلك الأنظمة السياسية والاجتماعية ما يتوافق مع تطلعاتها وساجاتها وميولها وهي ترى ان في المجتمعات الغربية، خصوصا في اميركا الشمالية، معالم تاخر وانحطاط يتمثل بمظاهر من اهمها : تفكك العائلة كوحدة اجتماعية، فقدان قواعد الانضباط ضمن العائلة والمجتمع، التخلي عن القيم الدينية في العلاقات الخاصة والعامة، عدم اكتراث الفرد بما يصيب الاخرين، في حين ان هذه الاخلاقيات هي اساس تكوين اي مجتمع صالح. يضاف الى ذلك التراخي الملحوظ في الترابط الاجتماعي بين المواطنين لان الدولة قلصت دور التعاون الطوعي بينهم ورئت في اذهانهم الاعتماد الكلي على الخدمات الاجتماعية التي تكفلت بتقديمها. ولم يطل الوقت حتى عاجزت عن تقديم ما وعدت به رغم الضرائب الفاحشة التي تستوفيها فنشأ من كل ذلك مجتمع مفكك المعرى، يعتبر كل انسان فيه ان تحقيق اغراضه الخاصة هو همه الاول في الحياة ويتقدم على كل ما سواه.

وقد بلغ هؤوس هذه المجتمعات بالحرية الفردية ان التوازن اختل بين حقوق الفرد وحقوق المجتمع، وضاع الشعور بالمسؤولية، وعمت فكرة انتشرت

بين الناس معادية للمقاييس الاخلاقية التي كانت سائدة، روج لها للمجتمع
الاكاديمي اليساري ووسائل الاعلام المتأثرة بنفوذها مما أدّى الى وضع قوانين
متطرفة لحماية حقوق الفرد صارت حين تطبيقها في القضاء تراعي المجرم
تفضيلا على الضحية فاستدحل الاجرام وعجزت الدولة عن ضبطه حتى اصبح
المواطن الشريف لا يأمن على حياته وماله من اعتداء يبتقى دون عقاب.

فهل هناك خيار ثالث بين الدكتاتورية الفاشلة وبين النظام الغربي
المنفلش؟ وهل يتوجب علينا ان نقبل الحياة الغربية بكل حسناتها ومساوئها
اذا اردنا اقتباس التقدم العلمي الذي طوّره الغرب؟

يبدو لنا ان اليابان وكوريا الجنوبية ونايوان وسنغافورة وغيرها اجابت
على السؤال الثاني بالنفي وبيّنت انه يوجد خيار ثالث بين النظامين الشيوعي
الدكتاتوري والديمقراطي الغربي. فقد اخذت هذه الدول من الغرب العلوم
والتكنولوجيا ونافسته بها دون ان تتخلي عن ثقافتها وتقاليدها، بل ان
احتفاظها بتراثها كان من اسباب نجاحها وتفوقها.

ونحن في الشرق الاوسط نعيش في محيط ذي ثقافة اسلامية . والاسلام
قوة روحية هائلة وحيّة تستأثر بمقلوب تابعيها ومشاعريهم ربما اكثر مما
تستطيع ان تدعيه الان الاديان الاخرى فمن الطبيعي ان يرفض المسلمون
بانشاء نظام حكم مختلف يستمد مبادئه من تعاليم الاسلام ومن ثقافته
وتاريخه. ويعتبر كثير من المسلمين ان الاسلام جاء فعلا بنظرية سياسية
مستقلة تصلح لكل عصر ولهذا العصر. ومهتنا في هذا الكتاب ان نفتش
عن هذه النظرية ونستكشف معالمها ان وُجدت.

في هذا الموضوع نجد تيارين يتجادبان المسلمين حاليا : تيار يعتقد
ان الاسلام دين ودولة اي انه نظم دولة بالاضافة الى كونه ديننا مساويا. وهو
برأيهم قد شرع للدولة واجباتها بموجب اوامر الهية لا تجوز مخالفتها.
بالاضافة الى ذلك، فان الفقهاء برأيهم قد استنبطوا في القرنين الثامن
والتاسع، الاجتهادات الكافية والواقفة في جميع المواضيع التي يمكن ان تعرض
للشريعة بما فيه النظام السياسي، فأغلقوا باب الاجتهاد ولا يشعرون بحاجة الى
فتحه . في هذا الفريق فئات ناشطة تسمى حثيثا في مختلف البلاد الاسلامية
لاعادة الحكم الاسلامي والدولة الاسلامية كما كانت في القرن السابع أيام

الخلفاء الراشدين إذ أنهم يؤمنون أن هذه الدولة وحدها هي التي توفر
الهناء والسعادة للبشرية جمعاء. وغالباً ما تترافق هذه الدعوة مع عداء
واضح للغرب في سياسته وثقافته وعلومه فيرفضون التعامل معه في كل هذه
الوجوه خلافاً لما فعله أجدادهم في القرن التاسع حين اقتبسوا من العلوم
الفارسية واليونانية وطوّروا حضارة إسلامية رائعة سنأتي على ذكرها.

بين المسلمين فريق آخر من المتحررين ليس عندهم تصوّر واضح لنظام
إسلامي معيّن لكنهم منفتحون على اقتباس ما يفيد من الأنظمة الأخرى،
وبهم قبل كل شيء. اقتباس العلوم والمعارف الحديثة للتهوض بالمجتمع
الإسلامي باعتبار أن الحضارة تراث عالمي شائع يخترق منها من يريد
ويضيف إليها إذا استطاع. هؤلاء المتحررون يقولون إن اجتهادات الفقهاء
السابقين تأثرت بالمحيط والجو السائد حينئذ ولو عرضت ذات المسائل
لفقهاء هذه الأيام لربما استنبطوا من الشريعة حلولاً مختلفة. لذلك يرون أنه
لا بد من فتح باب الاجتهاد واسعاً لمعالجة المشاكل الحديثة ومنها ما يتعلق
بنظرية الحكم. أنه الصراع بين 'أهل العقل' و 'أهل النقل' الذي قام في
القرن التاسع يتكرر في عصرنا بعد اثني عشر قرناً.

نظراً لأهمية الخلاف بين التيارين في بحثنا رأينا أن نأخذ من كلام كل
فريق ما يعتبر من اتجاهه. اخترنا من التيار الأصولي السيدين سيد قطب
وعبد القادر عودة من زعماء الإخوان المسلمين في مصر، والدكتور عبد الله
النفيسي وهو باحث في القضايا الإسلامية في الكويت، والشيخ محمد محمود
مندورة الأستاذ في جامعة الملك سعود في الرياض وهو مصري.

واخترنا من التيار المتحرر الدكتور غازي القصيبي وهو أديب وشاعر
وإداري ممتاز وأفضل من يمثل الطبقة الجديدة المتنورة والمتعلمة في الدولة
السلفية التي هي المملكة العربية السعودية. وهو يُعتبر بالإضافة إلى ذلك من
الطبقة الحاكمة في الدولة السعودية إذ تولى وزارة الاقتصاد ثم وزارة الصحة
في عهد الملك فيصل وأوائل عهد الملك فهد.

اخترنا أيضاً من هذا التيار الدكتور زكي بدوي رئيس الكلية الإسلامية
في لندن، والشيخ خالد محمد خالد وهو كاتب إسلامي صاحب مؤلفات
كثيرة وشهيرة.

نبدأ بالتيتار الاصولي حيث يقول الاستاذ سيد قطب :
'يقدم الاسلام للبشرية نموذجا من النظام المتكامل لا نجد مثله في ابي نظام
عرفته الارض من قبل الاسلام ومن بعد. والاسلام لا يحاول ولم يحاول ان
يقلد نظاما من النظم، او ان يعقد بينه وبينها صلة او مشابهة، بل اختار
طريقه متفرداً فذاً، وقدم للانسانية علاجاً كاملاً لمشكلاتها'. (١)

ويقول ايضا : 'ان اسلوب التفكير الاسلامي القائم على الغايات الخلقية
للاعمال لا يستطيع الالتقاء باسلوب التفكير الغربي القائم على الغايات التفعمية
للاخلاق. وهذا ما يجب علينا ان نحسب حسابه ونعمل لعمل لتحقيق حياة
اسلامية سليمة فلا نحاول ترقيع هذه الحياة باستعارات نستوردها من الخارج
لان هذه الرقع لن تستقيم مع نسيج فكرنا الاصيل'. (٢)

يتابع الاستاذ سيد قطب قائلا : 'لا يجوز ان نتخذ الفكرة الغربية
وسيلتنا لحياء الفكرة الاسلامية. فلا بد اولاً من التخلص من طريقة التفكير
الغربية، ولا بد من اتخاذ طريقة تفكير اسلامية ذاتية لنضمن ان يجيء
النتاج خالصاً غير هجين'. ثم يقول، ان الصراع الحقيقي الصحيح ليس بين
كتلتي الشرق والغرب، انه بين الاسلام وبين الكتلتين الغربية والشرقية جميعاً.
ان الاسلام هو القوة الحقيقية التي يحسب لها العسكريون كل حساب'. (٣)

هذا الكلام يعيدنا الى القرنين السابع والثامن عندما اندفع المسلمون
يخضعون العالم لنشر الاسلام 'بالجهاد' وحاربوا الامبراطوريتين الفارسية في
المشرق، والبيزنطية في المغرب. بعد اثني عشر قرناً تقوم فئات تدعو المسلمين
الى الجهاد والى اتخاذ موقف عدائي مماثل ضد العالمين الغربي والشيوعي في
الوقت الذي اختل فيه ميزان القوى بشكل فادح لصالح غير المسلمين.

سيأخذ كثير من الناس هذا الكلام على محصل التفاخر والمبالغة لحفز
الهمم ولا يجدونه كلاماً جدياً جديراً بالاهتمام. لكن ما هو أشد خطراً على
المسلمين في هذا التفكير هو الدعوة الى 'نبذ طريقة التفكير الغربية واتخاذ
طريقة أخرى اسلامية' دون شرح معنى 'طريقة التفكير الاسلامية' وكيف
تختلف عن الطريقة الغربية. إذ المعروف عن التفكير الغربي انه تفكير علمي
مبني على الملاحظة والتجربة والاستقراء وتحكيم العقل، وهو اساس التقدم
العلمي الذي حققته المدنية الغربية في القرون الاربع الماضية، وهو اسلوب

تفكير متاح لجميع البشر يستخدمه جميع علماء العالم على اختلاف اجناسهم واديانهم. فهل الدعوة الى طريقة تفكير مخالفة تعني انها ستكون طريقة غيبية وغير علمية. هذا ما لم يشره التقليديون.

ويقول الاستاذ عبد القادر مودة من زعماء الاخوان المسلمين في مصر: "ان كل من يحاول الادعاء بان نظام الحكم الاسلامي يماثل نظاما معيناً من انظمة الحكم التي عرفها العالم قديماً وحديثاً فانما يتكلف ويدّعي ما لا يعلم. فالنظام الاسلامي فريد في نوعه اوجده الاسلام ولم يحاول احد ان يقلّد المسلمين فيه، بل ان المسلمين انفسهم لم يطبقوا النظام الاسلامي بعد وفاة النبي الا في عهد الخلفاء الراشدين، ثم حولت الاهواء هذا النظام الالهي الى ملك عضوض لا يتورع ان يعطل احكام الاسلام. واذا كان من اخصّ صفات الحكومة الاسلامية انها حكومة شورية فانها لا تشبه بشيء الحكومات النيابية. والشورية لا تشبه في شكلها ولا نوعها ولا الغرض منها تلك الشورية التي تقوم عليها الحكومات النيابية". (١٤)

يضيف الدكتور عبد الله النفيسي الى ذلك في فضائل النظام الاسلامي "ان الحقوق السياسية للأفراد في ظلّ الشريعة الاسلامية اكبر واخطر واشمل من الحقوق السياسية الممنوحة لهم في ظلّ الديمقراطية". (١٥)

ننتقل الى موقف فريق المتحررين الذي يعتبر عنه الاقوال التالية :
كتب الدكتور غازي القصيبي تحت عنوان "نحن والحضارة الغربية" :
اقرأ بين الآونة والاخرى مقالات إنشائية عاطفية تتحدث عن سموم الغرب ويريق المدتية الزائف وتنتهي بدعوة صريحة او مبطنه الى مقاطعة الحضارة الغربية. مقاطعة كاملة.

اول ما نلاحظه على هذه الدعوة انها غير عملية. بوسعنا ان نبغض الحضارة الغربية او نحبها، لكن ليس بوسعنا ان ننكر انها لعبت دوراً حاسماً في تطور البشرية وحققت من التقدم المادي والعلمي ما لم تحققه حضارة قبلها. وليس بوسعنا ان نزعج اننا نستطيع العيش بدون متجزئاتها العلمية والتكنولوجية او ننكر انها تلعب دوراً كبيراً في حياتنا اليومية.
ان دعوة رفض الحضارة الغربية تنبع اولا وقبل كل شيء من خوف

على الدين والتقاليد والعادات. وهذا الخوف امر مشروع اذا لم نسرف فيه فقد بقي الاسلام عبر اشد المحن وسيبقى. واقتباس بعض الجوانب الايجابية في الحضارة الغربية لن يضير الدين في شيء. وحتى التقاليد والعادات لا خوف عليها من الاقتباس المتبصر. لقد نقلت اليابان التكنولوجيا الغربية والاساليب الاقتصادية دون ان تفقد طابعها المميز او عاداتها الخاصة.

وفي الحضارة الغربية جوانب لا مناص من اقتباسها اذا اردنا التخلص من تخلفنا الراهن. اذ ان كل ما يتم من تقدم في علم الطب، وفي هندسة الصواريخ، وفي نظريات الاقتصاد، وفي تحسين الكفاية الانتاجية يتم في الغرب وعلى يد علماء غربيين يتحدثون بلغات غربية، فاما ان نقايمهم او نبقي متخلفين عن ركب المدنية وقد علمتنا حرب حزيران ١٩٦٧ ان ثمن هذا التخلف قد يكون كرامتنا وارضيتنا واستقلالنا السياسي.

وهناك جوانب في الحضارة الغربية يحسن بنا ان نلتم بها تشمل التراث في السياسة والفلسفة والادب والقانون. والواقع ان الخلاف الذي يثور حول الحضارة الغربية انما يثور حول هذه الجوانب بالذات.

لقد ضرب فقهاءنا الاولون مثلاً رائعاً لكيفية مواجهة تحديات العصر بنجاحهم في ان يفسروا الشريعة ويستنبطوا منها القواعد لتنظيم ما يعرض لهم من مشاكل. غير اننا اليوم لا نستطيع ان نكتفي بالتراث الفقهي السابق. فاولئك لم يشهدوا الباخرة ولا الطائرة، ولا الصعود الى القمر، ولا الكمبيوتر لذلك لم يتركوا لنا قواعد اسلامية في هذه المواضع وما يشابهها.

يجب ان لا يمنعنا من هذا التفاعل بالخوف من الغزو الفكري الغربي الذي ينسب اليه البعض كل ما يعرفه المسلمون من تأخر. والواقع ان من الاقرب الى الدقة القول ان حالة التأخر التي تعيشها المجتمعات الاسلامية هي التي تجعل من السهل غزوها فكرياً، ان عدونا الاكبر هو التخلف وهذا العدو اخطر علينا من اي غزو فكري غريب. (انتهى) (١٦)

وكتب الدكتور زكي البدوي رئيس الكلية الاسلامية في لندن بموضوع "الاسلام والغرب" :

الحق اننا نقف حيارى بين تيارين متعارضين، تيار يدعو للعودة الى الماضي عوداً كاملاً نلغي فيه الحاضر ونجمد المستقبل، وتيار اخر يدعو الى

البناء الماضي ونبذ التاريخ والدخول في خضم الحضارة الحديثة غير مثقلين بتراث غريب على العصر وعلى روح العلم والصناعة.

وقد يبشرك أنصار العودة الى القديم بقرب انهيار الحضارة الحديثة لانها كما يزعمون حضارة مادية عاتية ستقتلها نخستها المادية وعطشها الروحي، وعندئذ سيعلو الاسلام بلا تعب ولا مشقة. ونحن ان صدقنا هذا السخف، ليس علينا الا ان نضمخ عيوننا عاما او عامين، او ربما الف عام او الفين، فاذا بحضارة الغرب وقد انهارت واذا العالم ياتينا طوعا او كرها ليعب من روحياتنا الفاسدة ما يرد عليه الحياة.

هذا الكلام وامثاله اضغاث احلام. فحضارة الغرب فيها كل عناصر الاستقرار والقوة، واهمها قوتها على نقد نفسها وتحليل ما يحيط بها ورسم الخطط المناسبة.

ثم ان الغرب ليس اكثر مادية منا وليس اقل روحانية. لم تنفق ما أنعم الله به علينا من مال لم نبذل فيه جهدا، في احط انواع المتع البدنية واللذات الحسية؟ فابن هذه الروحية الفاسدة؟ ثم ألم يرق الغرب المادي بالبذل لمساعدة الجوعى في افريقيا وكلهم ارجلهم مسلمون؟ أهذا من مظاهر مادية الغرب؟

ان علة العلل في صجرنا عن مواجهة الحضارة الغربية تأتي من اننا نفكر بمواطننا لا بمقولنا فنحلهم ولا نخطط. ان حالتنا في العصر الحاضر تختلف اختلافا كبيرا عن عصر الرسالة وقد يكون حلها لذلك مختلفا. لكن هذا الحل ليس غريبا عن الكتاب بل هو من صميم صلبه.

هذا هو التصور الحق للاسلام، إسلام الاصابة والتجديد، الاستمرار مع التطور، الوحي مع العقل، وهذا هو التصور الذي به نستطيع ان نواجه حضارة الغرب مواجهة عالمية بايمان، ومعتقد به، ومباحته في شئون العالم ومظاهر الطبيعة حبا في العلم وطاعة لله. (انتهى) (٧)

لعل ابلغ ما يوضح الفرق بين متحى المتحررين والتقليديين الحادثة التالية. فقد نشر الشيخ خالد محمد خالد في جريدة "الشرق الاوسط" الصادرة في لندن سلسلة من خمسة مقالات بعنوان "الديمقراطية والاسلام :

قضية ننتظر الفهم الصحيح^١ بين فيها ان الديمقراطية من حيث كونها نظاما سياسيا، تدعو الى نفس المبادئ التي يدعو اليها الاسلام الذي "يحفل بالنصوص والمشاهد والوقائع التي لا تؤكد ثقّله للديمقراطية فحسب، بل تؤكد ايضا اختياره لها واشاره لها وحضه عليها".

لم يلبث ان انبرى لدحض هذه النظرية الشيخ محمد محمود مندورة وهو استاذ مصري يدرس في جامعة الملك سعود في الرياض فقال :
ان الاسس التي تقوم عليها الديمقراطية هي ما يلي :
اولا ، فصل الدين عن الحياة.

ثانيا ، ان الأمة هي مصدر التشريع والسلطات ، وهي التي تضع الانظمة والتشريعات (بحكم الاكثرية).

ثالثا ، تقديس الحريات الفردية وضمانها مثل حرية العقيدة ، وحرية الراي ، وحرية الملكية ، والحرية الشخصية.

وهذا كله ، يقول الشيخ مندورة ، مخالف للاسلام جملة وتفصيلا ، فليس في الاسلام فصل للدين عن الحياة ، والحاكمية لله وحده ، ومصادر التشريع فيه معروفة.

يتابع الشيخ مندورة قائلا ، ليس في الاسلام تقديس للحرية بمفهومها الموجود في الديمقراطية. فلا يستطيع المسلم ان يغير دينه مثلا ، وليس في الاسلام حرية الملكية الفردية.

وليست في الاسلام الحرية الشخصية بمفهومها في الديمقراطية ، والخلاصة هي ان الديمقراطية ليست من الاسلام في شيء وانها تخالف الاسلام مخالفة صريحة لا يشك فيها أحد .

وينتهي الشيخ مندورة قائلا : ان مفهوم الديمقراطية وجميع ما يتبنى عليه من احكام ورسائير وما ينبثق عنه من أنظمة تتنافى تماما مع الفكر الاسلامي . (انتهى) (١)

ان هذا الاختلاف العميق بين المسلمين حول جوهر الحكم الاسلامي امر خطير لا يحله الا المسلمون فيما بينهم. ومع ذلك نشارك في البحث ليس تأييدا لفريق على آخر بل استطلاعا لحقيقة "النظرية السياسية في الاسلام".

وثبوت التاكيد ان اهتمامنا بالموضوع ليس تطفلاً على ابحاث اسلامية كما انه ليس بحثاً أكاديمياً في المطلق ذلك اننا في الشرق الاوسط نعيش في محيط غالبية اسلامية ومن حقنا كمواطنين في احدى دوله ان نحاول التعرف على طبيعة الحكم الذي يُحتمل ان نعيش في ظلّه.

ونحن ندرك حساسية بعض المسلمين تجاه من يبحث امورا ذات صلة بالاسلام من غير المسلمين. لكن ما ذنبنا ما دام بعضهم يصّر على القول ان الدين والدولة متحدّين في الاسلام؟ أو لا يحق لنا ان نستكشف طبيعة النظام الذي يمكن ان يحكمنا؟ وقد اخذ بحثنا واقعية ملحّة بعد قيام الدولة الاسلامية في ايران ونشاط المنظمات الاصولية حالياً في عدة بلاد عربية وكلها تعطي مثالا مما يمكن ان يكون عليه نظام مماثل في بلادنا.

سنحاول استكشاف ما اذا كان الاسلام قد جاء بنظرية سياسية متكاملة يمكن ان يتناولها الفريق الاول ويطبّقها في هذا العصر، او ان الاسلام اعطى دلالات وإشارات فقط يمكن الاسترشاد بها لبناء نظام سياسي حديث يتوافق مع متطلبات هذا العصر. ونعني بالنظرية السياسية تلك المبادئ والقوانين والانظمة التي تبين نوع الحكم، هل هو حكم ديني ثيوقراطي، او مدني ديمقراطي، او دكتاتوري يعتمد على القوة العسكرية وعلى أجهزة المخابرات، وكيف يجري تنصيب الحاكم وهل ذلك وراثي او انتخابي او سلطوي اغتصابي، وما هي علاقة الحاكم بالحكوميين، وحدود سلطته تجاه حرياتهم، وما هي المؤسسات السياسية الثابتة التي يشارك المواطنون من خلالها بالحكم ويراقبون تصرفات الحكام ويحاسبنهم، وما هي التدابير الدستورية لعزل الحاكم اذا اساء.

وبما ان الاسلام دين ذو انتشار عالمي، وهو قوة تؤثر في مصائر المسلمين وغير المسلمين على السواء فلا يمكن ان يقتصر بحث قضاياه على المسلمين وحدهم، بل ان من مصلحة المسلمين ان يفهم غير المسلمين الاسلام ليعرفوا كيف يتعاملون معه ومع بعضهم البعض.

ان بحثنا لن يلامس المعتقدات الدينية والعبادات والاحكام والمعاملات من قريب او بعيد فنحن نقبل الوحي كما أنزل ولا نناقش به، اما التصرف السياسي والاجتهاد في مواضيع الحكم بعد النبوة ابتداءً من عهد الخلفاء

الراشدين وما بعده فهو بنظرنا باب مفتوح للبحث والمناقشة لانه ينظر في تصرفات اشخاص هم بشر كسائر الناس مهما ارتفعت مكانتهم. وقد يتضايق البعض من نقاشنا حول الخلفاء الراشدين والصحابة الذين اقرلهم البعض منزلة تقارب القداسة. ولعل ضيقهم يزول متى تيقنوا ان معلوماتنا مستمدة من مراجع اسلامية موثوقة.

يتوجه كتابنا ايضا الى الجساعات غير الاسلامية التي تعيش ضمن الاكثرية الاسلامية في المشرق الاوسط. هؤلاء، حسب اطلاحي، لا يعرفون كثيرا عن الاسلام رغم انهم عاشوا اجيالاً في محيطه. وقد وجدنا من المفيد ان نطلمهم باختصار، في الفصلين الاول والثاني، على الدعوة الاسلامية منذ نشونها في مكة الى وفاة النبي في المدينة لانها وضعت الاساس الديني والثقافي للمجتمعات الاسلامية اللاحقة. ولا يمكن، بنظرنا، فهم الاسلام الحالي اذا لم نفهم منشاه، كما اننا لانستطيع فهم الدين المسيحي اذا لم نطلع على احوال المحيط اليهودي الذي نشأ فيه المسيح في فلسطين وبشر برسالته.

بعد عهد النبوة، بدأنا نستقصي "النظرية السياسية في الاسلام" على خطين متوازيين. ذهبنا في الفصل الثالث الى "منابع الدين" واستهدينا بآيات عالجت نواحي من مواضيع ذات صلة بالسياسة والحكم. لكن ذلك لم يشكل نظرية سياسية متكاملة لان اهتمام "المنابع" انصرف بطبيعة الحال الى الدين وترك تنظيم الحكم الى الاجيال اللاحقة على امل ان ينظم كل جيل حكمه حسب مقتضيات ظروفه وعصره، فكان لا بد لنا ان نتابع استكشاف "النظرية" من تصرفات الخلفاء والسلاطين.

وقد افردنا لكل عهد فصلاً خاصاً ابتداءً من الخلفاء الراشدين، الى الامويين، ثم العباسيين. ثم تشعب الموضوع مع ضعف سلطة الخلافة المركزية ونشوء دول ودويلات اسلامية عديدة فتابعنا استقصاء النظرية في تصرف حكّام هذه الدول المتفرقة في الفصل الثامن.

وكان لنا من ذلك غرض آخر. فما يعرفه أكثر الناس عن التاريخ الاسلامي (الذي يطيب للبعض ان يسميه "التاريخ العربي") يتوقف غالباً عند نهاية العهد العباسي الاول اي نحو سنة ٨٦٠ فيكون قد دام نحو ٢٢٠ سنة بعد وفاة الرسول. لكن حكم الاسلام دام الف سنة بعد ذلك في ممالك متفرقة

تمتد من الهند الى غرب أوروبا من ضمنها الدولة العثمانية التي عثرت اطلال من أمة خلافة إسلامية سابقة فاستحققت ان تفرد لها الفصل التاسع.

ان استعراضنا للدول والدويلات الإسلامية بشكل مختصر استقصاءاً لأنظمة الحكم فيها، يفيد القارئ من ناحية أخرى اذ يعطيه لمحة من تاريخها، الذي هو بالحقيقة تاريخ الإسلام السياسي، يستطيع بعدها ان يتوسع في معلوماته اذا اراد، بالرجوع الى المصادر المطولة.

نستعرض في الفصل العاشر رد أوروبا على التوسع الإسلامي وتقليص امتداده واحتلال الطار الإسلامي كثيرة في القرنين التاسع عشر والعشرين دام الى نهاية الحرب العالمية الثانية، تبعه ظهور الدول المستقلة وبذلك ندخل العصر الحالي.

نأمل ان نكون ساهمنا في التعرف على "النظرية السياسية في الإسلام" من الاطلاع على المبادئ السياسية ومن متابعة اشكال الحكم الذي ساد في بلاد مختلفة الشعوب والثقافات امتدت من الهند الى اسبانيا في ازمان مختلفة، لا يجمع بينها الا الدين والثقافة الإسلامية، نسي ان يساعدنا ذلك على ادراك ما يمكن ان يكون عليه حكم إسلامي يقوم في هذا العصر في بلادنا او في جوارنا.

مونتريال، كندا، مايو (ايار) ١٩٩٠

جبران شامية

حيثما استطاعوا. ولم تكن العلاقة بين سكان الواحات والبدو ودية. بالإضافة إلى الواحات، نشأت تجمعات سكنية أكبر إما حول مياه أغزر وزراعة أوسع كيثرب والطائف، أو لأنها رقعت على طريق القوافل التجارية كمكة، أو لاجتماع السببين. كانت تجتاز الجزيرة العربية قوافل تنقل البضائع ذهاباً وإياباً من بلاد الهند وفارس، ومن بلاد الشام والروم، وتتبع طريقين رئيسيين أحدهما يتأخم الخليج الفارسي ويتجه نحو العراق ثم يتجه غرباً إلى شواطئ البحر المتوسط، والثاني يسير بمحاذاة البحر الأحمر إلى السويس ثم إلى الإسكندرية على البحر المتوسط. وكانت هذه القوافل مصدر رزق لسكان الجزيرة فالقبائل تتقاضى منها رسوماً لحمايتها، وأحياناً تنهبها، وسكان الواحات يبيعون ويشتررون .

من هذه المراكز التجارية برزت مكة التي تقع في وادي محاط بالجهال لكنه يتمتع بثلاثة منافذ تصله بطريق إلى اليمن، وآخر إلى جدة على ساحل البحر الأحمر، والثالث يتجه شمالاً إلى فلسطين .

كانت مكة بالإضافة إلى مركزها التجاري، مركزاً دينياً يحج إليها العرب كل عام لوجود الكعبة فيها وهي تضم الحجر الأسود وأصنام القبائل فيشكل ذلك مورداً سنوياً مهماً لسكانها، وقد اصطاح العرب منذ أقدم القصور على تحريم اللزو والافتثال أربعة أشهر من كل عام ليحجوا إلى مكة وهم آمنون .

سكان مكة : تقول كتب السير أنه كانت تسكن منطقة مكة وشعابها ويطاحيها قبائل مبعثرة وإن قُصِّيَ بن كلاب جمع هذه القبائل تحت زعامته في منتصف القرن الخامس وسُمِّيَ هذا التجمع "قريش" وتعني هذه اللفظة لغوياً "تجمع الناس" وقُصِّيَ هذا هو الجد الرابع للنبي محمد.

دار الندوة

نظم المكيون أمورهم حول "دار الندوة" وهو المجلس الذي يدير الحياة السياسية والاقتصادية والقضائية في المدينة ويتألف من كبار أهل مكة فلا يتم أمر من أمور البلد إلا باتفاق أعضاء الندوة، ولا تقضي قريش بأمر خارج الندوة - ١١١

نظراً إلى أهمية مورد الحج في حياة سكان مكة فإن أعضاء الندوة كانوا

حيثما استطاعوا، ولم تكن العلاقة بين سكان الواحات والبدر ودية. بالإضافة إلى الواحات، نشأت تجمعات سكنية أكبر إما حول مياه اغزر وزراعة اوسع كمشرب والطائف، أو لأنها وقعت على طريق القوافل التجارية كمكة، أو لاجتماع السببين. كانت تجتاز الجزيرة العربية قوافل تنقل البضائع ذهابا وإيابا من بلاد الهند وفارس، ومن بلاد الشام والروم، وتتبع طريقين رئيسيين أحدهما يتأخم الخليج الفارسي ويتجه نحو العراق ثم يشبه غربا إلى شواطئ البحر المتوسط، والثاني يسير بمحاذاة البحر الأحمر إلى السويس ثم إلى الإسكندرية على البحر المتوسط. وكانت هذه القوافل مصدر رزق لسكان الجزيرة فالبائل تتقاضى منها رسوما لحمايتها، وأحيانا نهبتها، وسكان الواحات يبيعون ويشتررون -

من هذه المراكز التجارية برزت مكة التي تقع في وادي محاط بالجبال لكنه يتمتع بثلاثة منافذ قصيلة بطريق إلى اليمن، وآخر إلى جدة على ساحل البحر الأحمر، والثالث يتجه شمالا إلى فلسطين -

كانت مكة بالإضافة إلى مركزها التجاري، مركزا دينيا يحج إليها العرب كل عام لوجود الكعبة فيها وهي تضم الحجر الأسود وأصنام القبائل فيشكل ذلك موردا سنويا مهما لسكانها، وقد اصططح العرب منذ أقدم القصور على تحريم الغزو والقتال أربعة أشهر من كل عام ليصحبوا إلى مكة وهم آمنون -

سكان مكة : تقول كتب السير أنه كانت تسكن منطقة مكة وشعابها وبطاحها قبائل مبعثرة وإن قصي بن كلاب جمع هذه القبائل تحت زعامته في منتصف القرن الخامس وسُمي هذا التجمع 'قريش' وتعني هذه اللفظة لغويا 'تجمع الناس' وقُصني هذا هو الجد الرابع للنبي محمد.

دار الندوة

نظم المكين أمورهم حول 'دار الندوة' وهو المجلس الذي يدير الحياة السياسية والاقتصادية والقضائية في المدينة ويتألف من كبار أهل مكة فلا يتم أمر من أمور البلد إلا باتفاق أعضاء الندوة، ولا تقضي قريش بأمر خارج الندوة - (١)

نظرا إلى أهمية مورد الحج في حياة سكان مكة فإن أعضاء الندوة كانوا

ينظمون الشئون المتعلقة بهذا الموسم اي الحجابة وتعني حيازة مفاتيح البيت الحرام وخدمته، والسقاية وهي توفير الماء والنيبذ للحجاج، والرغادة وهي توفير الطعام لهم، كما كانوا يعينون شخصا لقيادة الجيش اذا خرجت قريش للحرب .

نظمت "الندوة" ايضا تجارة المكيين الواسعة فقد كانت لهم رحلتان تجاريتان رئيسيتان في السنة : رحلة الشتاء لليمن، ورحلة الصيف الى بلاد الشام، عدا رحلات اخرى متفرقة لانهاء مختلفة، وكان هاشم ابن عبد مناف الذي ينتسب اليه الهاشميون اول من سنّ الرحلتين لقريش. وقد تنظمت الرحلات الكبيرة على شكل ما نسميه الان "تعاونيات" او "شركات مساهمة" مفتوحة لجميع السكان فقد كان باستطاعة من اراد من اهل مكة ان يشارك بهذه التجارة فيدفع من المال ما يشاء حسب قدرته فتعم منافعتها نسبة كبيرة من السكان وكان يبلغ حجم القافلة احيانا ألفي بعير وتزيد قيمتها عن خمسين الف دينار وكانت تجارة مكة السنوية تساوي نحو مائة وستين الف جنيه ذهباً.

حلف الفضول

اهتمت قريش ايضا بضعفائها فتداومت قبائلها الى حلف فتعاقدوا على ان لا يجدوا بكة مظلوما من اهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى تُردّ عليه مظلمته. فسمت قريش ذلك الحلف "حلف الفضول" قال فيه الرسول بعد ذلك "لقد شهدت حلفا لا احب نقضه" (٢١)، وهذا يشير الى درجة متقدمة من الوعي والتنظيم الاجتماعي لدى اهل "الندوة".

العصبية العربية

يجب التاكيد ان التركيب الاجتماعي في البادية والمدن الحجازية كمكة ومثرب والطائف كان قائما على العصبية بين القبائل، والعصبية بين العائلات، والعصبية بين فروع العائلة الواحدة كما حدث بين الامويين والهاشميين من اولاد قصي فقد اختلف امية بن عبد شمس جد الخليفة معاوية بن ابي

سفيان مع عه هاشم ابن قُصَيٍّ في القرن الخامس فبدأت العداوة بين الهاشميين والامويين التي استمرت عدة قرون. ولم يختلف مجتمع المدن عن مجتمع البادية لأن المدن نفسها كانت مؤلفة من تجمع قبائل.

وقد نقل العرب عصبيتهم الى الاقطار الجديدة التي افتتحوها وسكنوها وبقيت ملازمة لهم حتى بعد أن تركوا البداوة وتحضرُوا واسلموا فكانت آفة تكبت العرب عبر تاريخهم بانقسامات وخصومات حادة زعمت كيائهم وغلبت الامم الاخرى عليهم. يقول ابن خلدون في وصفها : "إن العصبية المستندة الى قرابة الدم من أخص خصائص العرب ولا بد للحاكم من عصبية تمكنه من تأسيس السلطة السياسية وتساعد على حمل الناس على الطاعة والنظام واحترام الحقوق والواجبات. ويتميز آخر، فإن العصبية هي منشأ الرئاسة والسلطان وتكون الرئاسة دائما لأهل العصبية. فالرئاسة لا تكون الا بالغلب، والغلب لا يكون الا بالعصبية. ويتابع ابن خلدون قائلا : إن الدعوة الدينية أشراً في قيام الدولة، لكن الدعوة الدينية نفسها لا يمكن أن تتحقق دون عصبية قائمة على الدم. ولا يكفي أن يكون القائد من عصبية كبيرة بل ينبغي أن يكون من نسل أقوى فرع من تلك العصبية الكبيرة". (٢١٠)

يعلق الدكتور طه حسين على كلام ابن خلدون فيقول : "إن التاريخ لم يذكر قط شعباً يفوق الشعب العربي في الاستمسك بعصبيته وتقديم صلة الرحم (قرابة الدم) على ما سواها من الصلات. إن تاريخ العرب قبل الاسلام ويعده ليس الا سلسلة طويلة من الخصومات بين القبائل وهي خصومات منشأها الحقيقي تلك العصبية التي دفعت الى حد التعصب. يقول المثل العربي "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً" فلا عجب اذا كان ابن خلدون يعلق على العصبية أهمية عظمى ويعتبرها العامل الجوهرى لقوة المجتمع السياسي". إن هذه العصبية الناشئة عن القرى ورابطة الدم، وضرورة أن يكون القائد أو الزعيم من عصبية كبيرة، وأن يكون من نسل أقوى فرع من تلك العصبية الكبيرة، أمور يخلق الانسان بها ولا يمكن اكتسابها. وقد رافقت العصبية خلال أخرى لازمت التاريخ الاسلامي هي الأنفة والتعالي والتفاخر بالانساب والقبيلة عبر الشعراء عنها قبل الاسلام ويعده في اشعار كثيرة تذكر بعض أمثالها :

قال الشاعر عمر بن كلثوم يهجو كسرى ملك الفرس :
 ملأنا البرّ حتى ضاق عنا وماء البحر نملأه سفينا
 إذا بلغ الفطام لنا صبي تحرّ له الجبابر ساجدينا
 وقال الغزواني يتفاخر على منالسه جرير :
 أولئك أخوالي فجنني بمثلهم إذا جمعتنا يا جوهر المجالس
 وقال المتنبي :

الخيال والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم
 أنا الذي نظر الأمي إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم
 وقال آخر:

أنا من دانت الرقاب له فقوتها بالسيف حتى استقلت
 وقال الحجاج بن يوسف يهدد أهل العراق :
 أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضغ العمامة تعرفوني

لم يكن أبو بكر وعمر أصحاب مصيبة عائلية قوية، لكنهما ذهبا إلى سقيفة بني ساعدة أثناء وفاة النبي ينازعان الانصار باسم العصبية القرشية على من تكون الولاية بعد الرسول. لم يتكلم المجتمعون بالشخص الأكثر أهلية لقيادة المسلمين بل وجدوا من الطبيعي أن يتكلموا كجماعتين متنافستين كل رهنط يريد الخلافة لجماعته. أما من يتسلم السلطة ضمن الجماعة فأمر تتنازع عليه الجماعة فيما بينها. وقد تغلبت قريش وأبعدت الخلافة عن الانصار إلى الأبد ولم يرتفع لهؤلاء شأن بعد ذلك.

وقد قصوف أبو بكر وعمر من ضمن مفهوم العصبية وخصا قريشا بالمنافع ولم يعتبروا ذلك مخالفاً بدعوة الاسلام إلى العدل والمساواة.

عندما تولى عثمان بن عفان الخلافة وهو أموي من آل عبد شمس لقوى عائلات قريش وأشباهها الذين كانت لهم الزعامة قبل الاسلام، وجد من الطبيعي أن يخص بني أمية بالمنافع وأن يميزهم على سائر قريش. ولما اعترض عليه بعض الصحابة أجابهم 'إن لي قرابة ورحما'.

في الخلاف بين الامام علي ومعاوية استغللت العصبية بين بني هاشم والامويين فانحازت قبائل علي وأخرى لماوية، وكثير منها لم يتحزب لهذا أو

لذلك بل لقبيلته مقابل قبيلة أخرى طلبا لغنم أو ثفاخرا وأنفة جاهلية، وكان
تعاليم الاسلام التي شددت على محاربة العصبية الجاهلية وعلى جمع المسلمين
كتلة متحدة في محاربة الكفار بقيت نهوضا جامدة لم تنفذ الى القلوب.

تغلب الامويون واقتصوا بشي هاشم من الخلافة والحكم. وفي عهدهم
تعززت العصبية العربية فقد ميزوا العنصر العربي واحتقروا الموالي الذين
أسلموا من غير العرب، واستفحلت العصبية بين القحطانييين والعدنانييين
اليمنيين والقيسيين أي عرب الجنوب وعرب الشمال، ثم بين القبائل
داخل كل فريق. ونقل العرب خلافتهم الى البلاد التي فتحوها شرقا وغربا
مما كان سببا رئيسيا في إضعاف الدولة الأموية.

في العهد العباسي اعتمد الخلفاء على العنصر الفارسي وأهلوا العرب
فأضيفت الى العصبية بين العرب عصبية جنسية أخرى بين العنصرين العربي
والفارسي عُبِّرَ عنها بالشعوبية، فصار الفرس يتفاخرون على العرب بملوكهم
وتاريخهم وحضارتهم ويستهنون ببداوة العرب. وانتقل الحكم من العرب الى
الفرس فضعف شأن العرب عموما. ودام الحال نحو قرنين الى أن جاءت
موجات البدو التركية من أواسط آسيا وانتزعت الحكم والنفوذ من العرب
والفرس على السواء. وسنرى تفصيل كل ذلك في الفصول اللاحقة.

الاحاديث في الجؤمية

انتشار الوثنية : كانت عبادة الاصنام هي الاكثر انتشارا بين القبائل
العربية وكان العرب يتمبّدون لها ويقدمون القرابين. وكان لكل قبيلة صنم
تعبده كما كان في أكثر البيوت أصنام. أهم أصنام العرب كان هبتل كبير
الالهة وساكن الكعبة وحوله نحو ثلاثمائة صنم آخر منهم أساف، ونائلة،
واللات، والعزى، ومناة. ولم يكن البدو يكثرلون كثيرا بالدين وكان ايمانهم
سطحيا قبل الاسلام وبمده لذلك نزلت الآية : "الاعراب أشد كفرا ونفاقا
وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله". (٢١) لكن مجتمع مكة لم يكن
بعيدا عن المعرفة بالله فقد كان اليهود والنصارى منتشرين في مدن الجزيرة
وبواديها يتمبّدون ويتجولون ويتاجرون ويحتكون بسكان المدن والبادية.
وبتأثير هذا الاختلاط جرى على اللسان في الجاهلية لفظ "اللهم" وهو يشير

الى الله تعالى، وانتشرت أسماء عبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن مثل عبد الله والد النبي محمد وعبد الله ابن جحش وأخيه عبيد الله ابننا همة الرسول، وعبد الله ابن الزبير وعبد الرحمن ابن هوف وطلحة ابن عبيد الله وغيرهم مما يدل على شيوع ذكر الله واسم الرحمن في الجاهلية.

اليهودية

الى جانب الوثنية كانت هناك مراكز لليهودية والنصرانية، فاليمن انتقلت من الوثنية الى اليهودية على يد الملك ذي نواس الحبشي، وانتشرت النصرانية في نجران وجوارها فغزاها ذو نواس وقتل أهلها في معركة الاخدود التي ورد ذكرها في القرآن. وقد استجار من بقي من سكان نجران بملك الروم فطلب هذا من حليفه نجاشي الحبشة أن ينصرهم لقربه من اليمن فأرسل قائده أبرهة الأشرم الذي قضى على ذي نواس وحكم اليمن ونشر المسيحية فيها. بقيت اليمن تحت حكم الاحباش اثنين وسبعين سنة ثم احتلها الفرس وظلت تحت حكمهم الى الفتح الاسلامي.

إن تعاقب هذه الغزوات ذات الطابع الديني على اليمن وقربها من سواحل الحبشة واستمرار العلاقات التجارية بين البلدين ترك تجمعات مسيحية كبيرة في البلاد الى جانب تجمعات يهودية بالاضافة الى الوثنيين. ولعل الفرس تركوا فيها أيضا بعضا من المجوسية. وكان لليهودية أيضا أتباع اغنياء في المدينة وخيبر وقَدَّك ووادي القرى وتيماء والبحرين وفي قبائل بني غازية وبني عريض وغيرها من القبائل البدوية كما سيأتي. (٥)

النصرانية

أما النصرانية فكان لها فرق مذهبية مختلفة منتشرة في سكان الجزيرة العربية تبعا لانتشارها في الجوار القريب أي في العراق وفي بلاد الشام. أهم هذه الفرق في الجزيرة اثنتان هما النسطورية واليعقوبية. نشأت النسطورية في آسيا الصغرى وسوريا وكانت أهم مراكزها الدينية في الرها (أورفة) حاليا، ونصيبين في شمال شرق سوريا، والحيرة في العراق، وجنديسابور في خوزستان. من هذه المراكز امتدت النسطورية الى الجزيرة العربية وبقيت

النسطورية مزدهرة بعد استيلاء المسلمين على سوريا والعراق وفارس وكان لها في نهاية القرن العاشر ميلادي خمس عشرة أبرشية في بلاد الخلافة الإسلامية وخمس أبرشيات خارجها في الهند والصين والآبرشية هي منطقة إدارية كنسية تضم عددا من المدن والقرى والكنائس تحت إدارة أسقف أو مطران. وقد قام النساطرة بدور رئيسي في تكوين الثقافة الإسلامية إذ كانوا مع اليعاقبة، أقدر من ترجم العلوم اليونانية إلى السريانية والعربية وسنفضل ذلك في فصل لاحق، لكن غزوات تيمورلنك في القرن الرابع عشر قضت على النسطورة وبقيت منهم إلى الآن طائفة صغيرة تعرف باسم الطائفة الاشورية كان موطنها في شمال العراق ثم هاجرت في الثلاثينات إلى سوريا وأقامت في منطقة الحسكة وتفرق أتباعها بعد ذلك في مدن سوريا ولبنان وبلاد أخرى في الشرق الأوسط والمهاجر.

أما الطائفة اليمقوية فأسسها في الرها الأسقف يعقوب برادوس الذي توفي سنة 578 م ونُسبت الطائفة إلى اسمه وهم يعترفون بطبيعة واحدة للمسيح ويعرف كنسيتهم الآن باسم "الكنيسة السورية اليمقوية" وقد حافظوا على اللغة السريانية في صلواتهم وهي لغة قريبة جدا من الآرامية التي كانت لغة للمسيح وتلاميذه.

يتفق أقباط مصر والاحباش والأرمن مع اليعاقبة بالاعتراف بطبيعة واحدة للمسيح. وقد حافظ اليعاقبة على العلوم اليونانية خصوصا علم الطب والكيمياء والطبيعة وترجموها إلى العربية كالنسطورة وكانت أهم مراكزهم العلمية مدرسة الإسكندرية.

في بلاد العرب كانت اليمقوية منتشرة في غسان وسائر قبائل الشام، كذلك كانت لهم صوامع في وادي القرى. وكانت نجران أهم مواطنهم بسبب اتصال سكانها بالحبيشة، وهي ييمقوية، أكثر من اتصالهم بالروم.

اشتهر من رؤساء العرب النصارى قس بن ساعدة الأيادي ويقال أنه كان قس نجران. وكان القسس والرهبان يزورون أسواق العرب يبعثون ويُبشرون فانتشرت تعاليمهم.^{٢١}

إلى جانب هاتين الطائفتين كانت توجد فرق نصرانية أخرى صغيرة اندثرت منها فرقة تدعى "الاييوية" وتعني بالعبرانية "الرجال الفقراء" وهم

من اليهود المتنصرين اشتهروا بالزهد والتقشف والابتعاد عن اكل اللحوم وقد تبعوا الانجيل متى ثم وضعوا انجيلهم الخاص المعروف باسم "الانجيل حسب العبرانيين" ووصفوا المسيح بأنه "ابن الانسان". وقد بالغوا بالتاكيد على المبادئ اليهودية في الديانة المسيحية. أهمية هذه الفرقة في بحثنا أنها كانت، على ما يقال، معروفة ومنتشرة في مكة وقد انتسب اليها عدد من الكبراء بينهم القس ورقة بن نوفل ابن عم خديجة زوجة النبي الذي ترجم "الانجيل حسب العبرانيين" من العبرية الى العربية، وعبيد الله ابن جحش ابن عمه محمد، وعثمان بن الحويرث، وغيرهم، (١٧)

يقول بعض الباحثين ان نصرانية ورقة بن نوفل وزملائه تنكر الوهية المسيح وبنوكة الله، ورفض صلبه وقيامته، وترى في المسيح نبيا عظيما من الانبياء، لكنه رجل كسافر الرجال جاءه الوحي بعد معموديته على يد يوحنا المعمدان، ويجدر التنويه ان الجامع المسكونية المسيحية منذ القرن الرابع اعتبرت الفرق النسطورية واليعقوبية والايونية وغيرها من الفرق المسيحية بمثابة هرطقات مرفوضة لان عقائدها تختلف عن العقائد المسيحية السائدة حاليا في الكنيستين الارثوذكسية والكاثوليكية.

يذكر المؤرخون المسلمون انتشار النصرانية في القبائل دون تحديد طائفتها فيقول ابن قتيبة : "كانت النصرانية في ربيعة وفسان وبعض قضاة". (١٨) ويذكر اليعقوبي : "نصر تميم وربيعة وبني تغلب وطى ومذحج وبهراء وسليخ وتنبوخ ولخم". (١٩) ويشهد الجاحظ : "كانت النصرانية قد وجدت سبيلها في تغلب وشيبان وعبد القيس وقضاة وسليخ والعباد وتنبوخ ولخم وعاملة وجذام". (٢٠)

الجاهلية والامة

لقد سمي العصر الذي سبق الاسلام "الجاهلية" ونسبوا اليه الاغراق في التافه والجهل بجميع اوجه المعارف والآداب. كما استعمل البعض كلمة "الامية" ليستنتج ان القراءة والكتابة لم تكن معروفة او منتشرة في ذلك الزمن. وهذا صحيح بالنسبة لعامة العرب وبالنسبة للبدو على الاخص. فقد بقيت القراءة والكتابة والمعارف والآداب قصرا على الخاصة حتى بعد انتشار الاسلام

والى أجيال بعده كما كان الوضع في بلاد أخرى كثيرة. لكن ذلك لا يعني أنه لم يكن بين العرب قبل الاسلام حكماء وشعراء وكتبة ومفكرون واهتمام بالادب. فاشعار 'الجاهلية' لا تزال تُدرس في مدارسنا، واهتمام اولئك العرب بالاداب دعاهم الى عقد 'سوق عكاظ' حيث كان يتبارى الشعراء في موسم سنوي وكانت القصائد الفائزة تُعلّق على استار الكعبة فسميت 'المعلقات' وهذا يعني أنها كانت مكتوبة، وأن الشعراء أو بعضهم كانوا يحسنون الكتابة. ولا تزال الامثال سائرة عن حِكَم نُقلت الينا من تلك العهود كما أن الخطب الادبية للقسّ بن ساعدة وغيره كتبت وما زالت محفوظة.

الخلاصة، أن كلمة الجاهلية بؤى الاستاذ احمد امين ليست من الجهل الذي ضد العلم بل من الجهل الذي هو السفه والغضب والانفة. فكلمة الجاهلية تدل على الخفة والانفة والمفاخرة وهي أمور اوضح ما كانت في حياة العرب قبل الاسلام فسمي العصر الجاهلي. أما الاسلام فعماذ الخضوع لله والانقياد له* (١١١).

أما القراءة والكتابة فتخبرنا كتب السير أن ورقة بن نوفل ابن عم خديجة بنت خويلد وقريب النبي محمد ترجم الانجيل من العبرية الى العربية وكان قسًا نصرانيًا. وتعلّم علي بن ابي طالب القراءة والكتابة قبل الاسلام ثم كتب 'نهج البلاغة' بعدما أسلم ولا يزال كتابه من اعمدة الادب العربي ومن الطبيعى أنه لم يكن الوحيد في مكة الذي تعلم القراءة والكتابة فقد كان هناك من علّمه ومن تعلّم معه .

وقد نشأ محمد في بيت ابي طالب والد علي ومن المستبعد أن يتعلم علي ويبقى محمد جاهلا بدليل أنه لما اشتد المرض عليه قال من حوله :
'أبشوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتابا لا تضلّوا بعده أبدا' . (١٢١)
وقد قلنا أن مكة كانت مجتمعا تجاريا وكذلك كانت بعض مدن اليمن والخليج. والتجارة تستلزم تدوين اصناف البضائع واسعارها ثم أسعار بيعها ومداخيلها ليتبين الربح من الخسارة. فحيث توجد التجارة يوجد التدوين والحساب. وقد كان تجار قريش يدوتون ويحسبون، أو يستخدمون كتابا من الحاسبين بحيث نشأت طبقة من المدوتين والحاسبة.
كذلك كان بين الصحابة من كتب بعض آيات القرآن على الحجر

والعظام وسعف النخل التي جُمعت بعدئذ في مصحف عثمان بن عفان. وكان النبي قد استعان بعدد من أصحابه في المدينة على تحرير الكتب والرسائل إلى القبائل وإلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام، وقد فك أسار بعض أسرى بدر مقابل قيامهم بتعليم الكتابة للنصارى في المدينة. (١١٢)

وتذكر كتب السيرة عددا من الذين كان النبي يكلفهم بالكتابة وتنقيح الناس في أمور الدين منهم : عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وخالد بن سعيد، وأبان بن سعيد، والعلاء بن الحضرمي، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان، وحنظلة الأسدي. (١١٣)

ربما أن الصلاة عند اليهود والنصارى تستلزم أن يقرأ الكاهن شيئا من التوراة أو الانجيل على المصلين عند كل صلاة، فإن القراءة كانت غالبا موجودة حيثما وجدت بيعة يهودية أو نصرانية وكاهن يقوم بخدمة للرعية. فالامية في ذلك الزمن إذن لا تعني عدم معرفة القراءة والكتابة بل تعني أن الأميين هم من ليس لهم كتاب منزل، فاليهود أبناء اسحق بن ابراهيم وكذلك النصارى "كتاييون" في حين أن العرب أبناء اسماعيل "أميون". يقول الشهرستاني : "كان أهل الكتاب ينصرون دين الأسباط ويذهبون مذهب بني اسرائيل، والاميون كانوا ينصرون دين القبائل ويذهبون مذهب بني اسماعيل. (١١٤)

التواريخ العربية

لم يهتم المؤرخون العرب بتدقيق تاريخ حصول الأحداث أو لم يستطيعوا ذلك ربما لأن أول كتب السيرة، وهي المصدر الرئيسي للمعلومات عن حياة النبي، كتبت بعد قرنين من عصره فكان التثبت من التواريخ عسيرا. من ذلك أن المؤرخين اختلفوا في العام الذي ولد فيه النبي. فقال ابن عباس أنه عام الفيل (٥٧٠ م). وقال آخرون أنه ولد قبل ذلك بخمس عشرة سنة. (١١٥)

من هؤلاء المستشرق الاب هنري لامانس الذي يعتقد أن سن محمد يجب أن تقل ببضع عشرة سنة عما تذكره كتب السيرة ويستند في ذلك إلى أنه عندما أعلن محمد نبوته كان أبو بكر الشخص الوحيد المسن بين أتباعه ليس في الصحابة أشعث سوى أبي بكر. (١١٦)

وتستمر عدم الدقة التاريخية فلا يُعرف تاريخ زواج محمد من خديجة
وتاريخ ولادة أطفاله، وتاريخ زيجاته إلا تخميناً.
ظهرت أيضاً خلال هذه الفترة الطويلة ما بين زمن النبي وبين تدوين
كتب السيرة مطامع سياسية وفرق دينية متعددة أدخلت على سيرة النبي
أشياء كثيرة كما وُضعت فيها آلاف الأحاديث المكذوبة. (١٤١) "وقد أضافت
أكثر كتب السيرة إلى حياة النبي ما لا يصدق العقل ولا حاجة إليه في ثبوت
الرسالة" (١٤٢)، لكل ذلك يجب النظر إلى تواريخ تلك الفترة بحذر.

نسب الرسول

يقول ابن هشام (١٤٣) أن عبد المطلب وابنه عبد الله مرا برقية أخت ورقة
بن نوفل فعرضت نفسها على عبد الله ليتزوجها فلم يفعل، ثم زوجه والده
من آمنه بنت وهب فحملت منه بمحمد. مكث عبد الله معها ثلاثة أيام ثم
أرسله والده إلى المدينة بتجارة حيث مرض وتوفي قبل أن يولد محمد.
لما ولد محمد انتظرت والدته آمنه مجيء المراضع من بني سعد لتدفع
به إلى أحدهم لارضاعه وتربيته في البادية على عادة أشراف مكة. وجاءت
المراضع إلى مكة لكنهن أعرضن عن محمد باعتباره يتيماً لا يُرجى البر من
أهله، وذهبت كلّهن فأمّل من أهله الخير. ألا أن أحدهم لم تجد من
الغنياء من يدفع إليها بطفل فمادت إلى محمد وانطلقت به إلى البادية. (١٤٤)
أقام محمد في بني سعد إلى الخامسة من عمره ثم عاد إلى أمه
فكفله جده عبد المطلب وهو من أسباط قريش. وتوفيت أمه بعد ثلاث سنوات
وهي عائدة بابنها من زيارة لأخواله بني النجار في المدينة. وتوفي عبد المطلب
بعدها بقليل ومحمد لا يزال في الثامنة من عمره وأصبح يتيم الأبوين فكفله
عمه أبو طالب وكان "كثير العيال قليل المال". (١٤٥) وكان عمه الآخر العباس
أكثر إخوته مالا لكنه كان حريصاً على ماله فلم يتعهد محمداً. (١٤٦)
كانت طفولة محمد قاسية. فقد فقد والدته بعد والده وتيتم، وانتقل
من كفالة جده إلى كفالة عمه الذي عمره بحيه لكنه لم يكن ميسور الحال. ولا
تذكر السيرة كثيراً عن فترة طفولته. ولما أصبح شاباً سعى له عمه مع خديجة
بنت خويلد من بني أسد وهي قريشية كانت من أوفر أهل مكة غني وكانت

تتعالى التجارة فجعلت لمحمد حصّة وشغلته بتجارها مع الشام على عادة
أشراف قريش أعضاء "دار الندوة" الذين كانوا يشكلون طبقة أرستقراطية في
مكة يقيضون على أمور الحكم والمال ويجهزون بأموالهم القوافل التجارية
المتجهة إلى اليمن والجزيرة والشام وفارس ويجنون من ذلك أرباحا حسنة .

زواج محمد من خديجة

بعد مدة وجدت خديجة في محمد صدقا واستقامة وراق لها فأرسلت
خادمتها نفيسة تعرض نفسها عليه للزواج. (١٤) وابتهج محمد بالخبر فما كان
يأمل أن تفتح أمامه أبواب الرغد والثراء بمثل هذه السرعة فهرع مع أعمامه
يخطبونها. واعترض بعض ذويها على زواجها من "يتيم قريش" فما زالت
خديجة بهم حتى وافقوا. وعقد زواجهما ورقة بن نوفل ابن عم خديجة. لكن
تاريخ الزواج غير معروف إلا تخمينيا وكذلك سن الزوجين.

يقول ابن هشام في ذلك : لما بلغ الرسول خمسا وعشرين سنة، وقيل
ثلاثين، كما قيل سبعا وثلاثين، تزوج خديجة وكان سنها إذ ذاك أربعين
سنة وقيل خمسا وأربعين. وكانت تزوجت أبا هالة بن زارة التميمي فولدت
له صبيًا وبناتًا. ولما توفي تزوجت عتيق بن عابد المخزومي فولدت له بنتًا
اسمها هند. (٢٥) ولا نجد ذكرًا لهؤلاء الأولاد وما صارت إليه حالهم بعدما
تزوجها الرسول. وإذا صح أن سن خديجة كان أربعين أو خمسا وأربعين
وانجبت لمحمد ثمانية أولاد فذلك يعني أنها بقيت تنجب إلى منتصف سن
الخمسين وهذا أمر نادر حصوله من ناحية طبية.

عاش محمد مع خديجة بطعامينة ودعة فقد أصبحت أمور الحياة
ميسورة له كما جاء في سورة الضحى : "ولسوف يعطيك ربك فترضى. ألم
يجدك يتيما فآرى ووجدك ضالا فهدى، ووجدك عائلا فأغنى". وأصبح
باستطاعة محمد أن ينصرف إلى التفكير والتأمل. أنجبت له خديجة ثمانية
أولاد هم : القاسم، والطيب، والطاهر، وعبد الله، وزينب، ورقية، وأم كلثوم،
وفاطمة. أما الذكور فماتوا وهم صغار، وأما الإناث فبُلغن وتزوجن وولدن.
١٣٦١ ولم يُعرف عن محمد أنه تعاطى عملا بعد زواجه أو أنه ذهب في تجارة
تمويلها خديجة كما سبق له أن فعل، بل بقي ساكنا راضيا بقرىها لم يعكر

صفو حياته الا وفاة ابنائه المذكور، وصار وضعه المالي يمكنه من الانضمام الى المجتمع المكي الارستقراطي الذي يزهله له نسبه والانتساب الى "دار الندوة" التي امتنعت عليه فيما سبق لضيق ذات يده. لكنه لم يرغب بذلك اذ كانت تجذبه تطلعات وتاملات اسى.

التحفة في مكة

كان في مكة جماعة ممن رفضوا عبادة الاصنام وكانوا يصعدون فترة من الوقت كل سنة الى جبل حراء قرب مكة حيث ينقطعون للتأمل والعبادة ويسمون ذلك "التحفة" او "التحنث". من هؤلاء المتحنثين ورقة بن نوفل ابن عم خديجة، وعبيد الله ابن جحش ابن عمه محمد (فهو ابن امية بنت عبد المطلب عمه محمد)، وعثمان بن الحويرث ابن عم خديجة، وزيد بن عمر وغيرهم. وكان ورقة بن نوفل قسًا نصرانيًا، ويرجح أن يكون رئيس طائفة اليبوسية في مكة حسب وصف الكتب الاسلاميه من أنه "كان يكتب بالعبودية من الانجيل وأنه اعتزل عبادة الاوثان وقرأ الكتب وامتنع عن اكل الذبائح". ومن الذين تنصروا من اقرباء محمد عبيد الله ابن جحش أثناء هجرة المسلمين الى الحبشة. وعندما توفي عبيد الله تزوج محمد امرأته زينب وقد كانت عارفة بالنصرانية عن طريق زوجها. أما عثمان بن الحويرث فقد سار الى قيصر ملك الروم وتنصر وحسنت منزلته. (١٢١)

لا بد أن يكون محمد قد استمع الى احاديث اقربائه واقرباء خديجة حول ما كانوا يفكرون به عن الوجود الالهي وعلاقة الانسان به ولربما شاركهم محمد بهذه الاحاديث والمناقشات في السنوات التي سبقت الوحي فقد كان قريبًا من هذا المحيط المتنصر منذ حداثة ويعد زواجه من خديجة. من ذلك أنه لما عادت به مرضعته من البادية وتمره خمس سنوات افتقدته والدته وارسلت من يبحث عنه فوجه اليها ابن عمها ورقة بن نوفل (١٢٢) ويجمع نسب ورقة بنسب محمد عند قصي بن كلاب الجد الثالث لورقة وخديجة والجد الرابع لمحمد. وورقة هو الذي عقد زواج محمد على خديجة، وما أنه قس فلا يمكن أن يكون عقد الزواج على الطريقة الوثنية. "ولطالما سمعت خديجة من قريبها ورقة تراثيل الحثين الى النبي انقبيل". (١٢٣) وعندما نزل أول الوحي

على محمد وأصابته الورشة والخوف انطلقت به خديجة الى ورقة ليهدى من ورقه ويطمئنه ولم تلجأ الى غير ورقة. (٢٠١) وعندما توفي ورقة بعد ثلاث سنوات من بدء الوحي وقد تقدم به السن وفقد بصره قال فيه النبي كقد رأيت القس في الجنة وعليه ثياب الحرير*. (٢٠٢)

نزول الوحي

تذكر كتب السيرة أن محمداً كان يتحنف في غار بأعلى جبل حراء قرب مكة شهراً من كل سنة ولا تذكر إذا كان يتحنف وحده أو مع من ذكرناهم أو مع غيرهم.

بقي محمد على ذلك الى أن جاءه الوحي وأمره بالنبشير بالآيات وكان عمره أربعين سنة نحو عام ٦١٠ وبقي يبشر برسالته سرا نحو ست سنوات ويظن أنه أعلن دعوه سنة ٦١٦.

عندها بدأت الأمور تتمتع بينه وبين أقرانه من أشرف قريش. فقد كان هؤلاء مصلحة مادية ومعنوية في الحفاظ على الوضع الراهن. وهم كجميع المتفعين من أوضاع معينة خريصون على الاحتفاظ بما لذّيتهم ويكرهون التغيير، فلما جاء واحد منهم، ومن أضعفهم، يدعو الى المساواة بين جميع الناس فيهدد زعامتهم وكبريائهم، ويحث على تدمير الاصنام، وكان الحج إليها مورد رزق لأهل مكة يعلي شأن البلد، ويبشر بدين جديد ربما لم يفهموه في بادئ الأمر لكنهم أدركوا سريعا أن نجاح الدعوة ينقل الزعامة منهم الى النبي الجديد، لكل ذلك كان من الطبيعي أن يقاوم أشرف مكة من أحفاد قصي بن كلاب دعوة قريبهم، وكان الامويون أولاد عبد شمس، وعلى رأسهم أبو سفيان (والد الخليفة معاوية)، من أشدهم مقاومة فهو لم يدخل في الاسلام إلا بعد أن انتشر الدين الجديد وانتصر.

لم يكن حظ محمد مع بني هاشم أفضل، فعمه أبو طالب الذي كفله ورباه مات ولم يقبل دعوة محمد وقال له أنه يريد البقاء على دين آبائه (٢٢١) لكنه بقي يدافع عن محمد بسبب العصبة العائلية الى حين وفاته، ورفض عمه العباس دعوة الاسلام فقد كان تاجرا يخشى ما يجره الاسلام على تجارتهم من مضرة الى أن وصل جيش المسلمين الى ضواحي مكة. (٢٢٢) ومثل ذلك أبو

سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم محمد، وعبد الله بن أبي أمية ابن المغيرة ابن عمته. (٢٤)

أما عمه الآخر أبو لهب فحارب الدعوة بمنف ركان شديد الايذاء لمحمد الى حين وفاته. وتأخر عمر بن الخطاب من بني عدي الذي لعب ذلك الدور الكبير في تاريخ الاسلام بقبول الدين الجديد الى ما قبل هجرة النبي الى المدينة بثلاث أو أربع سنين.

كيفية نزول الوحي

نقلت عائشة عن محمد أنه كان نائما في غار حراء عندما سمع صوتا يأمره قائلا : "اقرأ باسم ربك الذي خلق . . . " (سورة العلق) فكان هذا أول الوحي وبدء الرسالة وعُرفت ليلة ذلك اليوم بعد ذلك باسم "ليلة القدر" (سورة القدر) وكانت ليلة السابع والعشرين من رمضان ٦١٠. وموت فترة من الزمن ثم سمع صوتا يناديه للمرة الثانية فاضطرب ودخل على خديجة وهو يرتعد ويقول "زقلوني" كان به حتى فنزلت الآية : "يا أيها المدثر قم فانذر" (سورة المدثر، الآية الأولى وما يليها) فجزعت خديجة وانطلقت به الى ابن عمها القس ورقة بن نوفل وقالت له اسمع من ابن أخيك. واستوضح ورقة محمدا فأخبره فقال ورقة "أبشر ثم أبشر فإني أشهد أنك أنت الذي بشر بك ابن مريم وأنتك على مثل داموس موسى وأنتك نبي مرسل". (٢٥)

كانت الاصوات التي سمها محمد تختلف عليه ومنها ما يأتي أسيانا مثل "صلصلة الاجراس" الى أن جاءت السور المدنية فإذا الصوت واحد واضح فتأكد محمد أن الصوت صوت جبريل. (٢٦)

كانت خديجة أول من آمن بمحمد. وآمن بعدها ابن عمه علي بن أبي طالب وكان عمره نحو عشر سنوات، ثم زيد بن حارثة مولى النبي، وبعده أبو بكر بن أبي قحافة التيمي. وجعل أبو بكر يدعو الى الاسلام سرا من وثق به من قومه وكان الزاهدون في الدنيا والعبيد والمستضعفون أشد على الاسلام اقبالاً. (٢٧) أما أشوان قريش وزعماءها فاشتدوا بالعداء للمسلمين حتى لم يعودوا يطيقوا الاضطهاد فنصحهم النبي أن يهاجروا الى بلاد الحبشة المسيحية "فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله

لكم فرجا مما أنتم فيه".

كان في الهجرة الأولى بعض كبار الصحابة : عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت النبي، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبد الأسد وزوجته أم سلمة من بني مخزوم، وعبد الله ابن جحش وأخوه عبيد الله ومعه امرأته أم نجيبية بنت أبي سفيان بن حرب، وغيرهم فكان جميع من لحق بأرض الحبشة ثلاثة وثمانون رجلا مدا النساء والأطفال. (١٨١) لما قابل المسلمون النجاشي تلوا عليه "سورة مريم" عن بشارة مريم ومولد المسيح وهي قريبة جدا مما جاء في الإنجيل فرحب بهم وأمنهم. وكانت هذه هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة تبعها هجرة ثانية لم يرجع المسلمون منها إلا بعد انتقال النبي إلى المدينة .

جدير بالذكر أن كتب السيرة التي هي المصدر الأساسي للمعلومات عن حياة محمد وأولها وأهمها سيرة ابن اسحق وسيرة ابن هشام، وضعت بعد زمن طويل من وفاة النبي كما ذكرنا فقد توفي ابن اسحق عام ٧٦٨ أي بعد مائة وست وثلاثين سنة، وتوفي ابن هشام عام ٨٢٤ أي بعد مائتي سنة من وفاة النبي. ويلاحظ أن كتب السيرة ظهرت في الفترة نفسها التي جمع فيها "الحديث" أي في منتصف القرن التاسع ميلادي وتعرضت لآفات العوامل والمؤثرات التي تعرض لها "الحديث" وربما ينطبق عليها من حيث الصحة والمصادقية ما ينطبق على الحديث.

الأسراء والمعراج

قال ابن هشام (٢١١) روى النبي : بينما أنا نائم إذ جاءني جبريل فهزني بقدمه وأخذ بمضدي فقصت معه. وأخذني إلى باب المسجد فإذا بدابة بيضاء بين البغل والحصار في فخذيه جناحان فحملني عليه. ومضى جبريل معي حتى انتهينا إلى بيت المقدس فوجدت فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء. فصلى النبي بهم ثم انصرف إلى مكة.

وتابع الرسول : لما فرغت مما كان في بيت المقدس أتني بالمعراج فاصعدني صاحبي (جبريل) فيه حتى انتهى بي إلى باب من أبواب السماء ثم

تلقفتني الملائكة.

فلما أصبح الصباح قصّ النبي على الناس في المسجد ما جرى فلم يصدقه الا القليل وارتدّ كثيرين ممن كان أسلم لانتهت رواية ابن هشام .

حياة النبي العائلية

نعالج هذا الموضوع لانه المصدر الوحيد الذي وصلنا عن أوضاع العائلة الإسلامية في مجتمع النبوة وهو المثال الذي يحاول أن يحتذيه الداعون الى الرجوع للسلف الصالح .

ننقسم حياة النبي العائلية الى دورين : الدور الذي قضاه مع خديجة ومدته تزيد عن عشرين سنة، فقد توفيت قبل الهجرة الى المدينة بثلاث سنين ولم يُشرك محمد معها امرأة أخرى طيلة حياتها مع أنها كانت قد تجاوزت سن الصبا بكثير.

اما الدور الثاني فيمتد أربع عشرة سنة من وفاة خديجة الى وفاة النبي وفيه تزوّج محمد من أربع عشرة امرأة ودخل بثلاث عشرة وجمع بين إحدى عشرة وتوفي عن تسع (١١) أي بمعدل زوجة جديد كل ثمانية أو تسعة أشهر.

كان أول من تزوّج محمد في مكة بعد وفاة خديجة، سودة بنت زمعة، ثم عائشة بنت أبي بكر وكان عمرها ست أو سبع سنين وكانت مخطوبة لشاب آخر لكن أباهما فسخ الخطبة لما لاحظ ميل النبي إليها، وبنى بها محمد بعد مقدمه المدينة بثمانية أشهر وكان عمرها نحو عشر سنين أو أكثر قليلا. وبقيت الزوجة المفضلة عنده الى حين وفاته ومات عنها وهي ابنة ثمان عشرة سنة، (١١) ولم يتزوج النبي بكرا غير عائشة (١٢) إذ أن جميع زيجاته الباقية كانت مع أرامل أو مطلقات .

ينسب أهل الحديث الى عائشة ٢٢١ حديثا (١٢١) وهي مصدر أكثر الاحاديث التي ترفع من شأن أبيها أبي بكر، وقد جرت الملاحظة أن حفظ هذا العدد الكبير من الحديث وروايته ربما يحتاج الى نضوج فكري يفوق قدرة فتاة لم تبلغ سن الرشد بعد. ونذكر بما قلناه سابقا عن عدم دقة التواريخ العربية فقد تكون عائشة أكبر سنا مما ذكر منها.

بعد عائشة تزوج النبي حفصة بنت عمر بن الخطاب فصاهر الرجلين
اللذين كانا الصق به من جميع الصحابة الآخرين وكان يسميهما "وزيريته" (١١١)
ولم تلد له حفصة شيئا .

بعد حفصة تزوج النبي حسب رواية ابن الاثير، هند ام سلمة المخزومية،
وزينب بنت خزيمة، وجويرية ابنة الحارث من بني المصطلق، وام حبيبة بنت
ابي سفيان بن حرب اخت معاوية، وزينب بنت جحش ابنة عمته وهي ارملة
حبيد الله ابن جحش ابن عم النبي الذي هاجر الى الحبشة وتغنر وكان
محمد قد زوجها لمولاه زيد بن الحارثة الذي لمس بعد مدة رغبة النبي بها
فطلقها وتزوجها محمد في السنة الخامسة للهجرة .

وتزوج النبي ايضا صفية بنت حيي بن اخطب وهي يهودية من سبايا
خيبر قتل النبي اباها وزوجها ثم اعرس بها في طريق مودته من الغزوة وقد
خشى ابو ايوب خالد الانصاري أن تتحرك في نفسها الضغينة لمقتل أبيها
وزوجها لذلك سهر حول الخيمة التي بات فيها محمد مع صفية فلما أصبح
الرسول سألها : ماذا تفعل؟ فقال ابو ايوب خفت عليك من هذه المرأة وقد
قتلت اباها وزوجها وقومها. (١١٥)

وتزوج النبي ميمونة ابنة الحارث الهلالية خالة ابن العباس وخالد ابن
الوليد وكانت آخر نساته وجعل لكل واحدة من نساته يوما وليلة. (١١٦)
اما سراريه فهن مارية القبطية اهداها له المقوقس ملك مصر وولدت له
ابراهيم الذي مات طفلا، وريحانة وهي يهودية من سبي بني النضير بقيت
على دينها. (١١٧)

من زوجاته الخمس عشرة كانت خديجة الوحيدة التي انجبت له اولادا
مات منهم الذكور وقيت البنات وهن زينب ورقية وام كلثوم وفاطمة، وماتت
البنات في حياة النبي ما عدا فاطمة زوجة علي بن ابي طالب. ومع أن بعض
زوجاته كن أرملا أو مطلقات وأنجبن أولادا لازواجهن السابقين فإنهن لم يلدن
للرسول شيئا.

لم تخل حياة النبي العائلية من الغيرة والخصومات بين نساته وقد سبب
له ذلك قلقا ونشبت أزمات أزواجه. من ذلك اتفاق بعض نساته ضد بعض
النساء الآخر ومصارحة بعضهن له أنه لا يعدل بينهما لأن حبه لعائشة

يظلمهن. (٤٨) وقد عاقب النبي نساءه بالانقطاع عنهن شهرا كاملا وتهديده لهن بالطلاق. وشاعت أخبار بيت النبي بين المسلمين فتكذبوا ونزلت في ذلك آيات (سورة الاحزاب ٢٨ و٢٩، وسورة التحريم ١- ٥) فاطمان بال النبي وعاد إلى نساءه وانتهت الأزمة. (٤٩)

حادثة عائشة

من الاحداث التي اقلقَت النبي انه اصطحب معه عائشة في غزوة بني المصطلق . ويروي ابن الاثير والاستاذ محمد حسين هيكل القصة التالية : (٥٠) في طريق عودة جيش المسلمين الى المدينة بعد انتصارهم في غزوة بني المصطلق توقف الركب للراحة. وخرجت عائشة من هودجها لقضاء حاجة لها ولما عادت الى الركب وجدت ان عقدها قد انسل من عنقها فرجعت تفتش عنه. في اثناء ذلك ارتحل الركب وهم يظنونها داخل هودجها، فلما عادت الى المعسكر وجدت القوم قد ارتحلوا فالتفت في جليابها واضطجعت مكانها واثقة من عودة من يبحث عنها. واذا هي في ضجعتها مر بها صفوان بن المعطل السلمي وكان هو الآخر قد تخلف عن المعسكر فلما نظر بها اركبها على بعيره ودخلت معه المدينة.

ضج الناس بالخبر وبعضهم يظن بها الاثم في حين ان جماعة من الأوس دافعت عن عائشة حتى كادت تحدث فتنة في المدينة. واضطرب النبي واحتراب فهو متعلق بعائشة لكن ما اتهمت به خطير، ودام هذا القلق فترة من الزمن حتى نزلت الآيات التي تبرىء عائشة (سورة النور ١١ وما بعدها) فارتاحت نفسه وعادت عائشة الى منزلتها في قلبه.

بهذه المناسبة نزلت الآية بمعقوبة رمي المحصنات : 'والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة ابداً واولئك هم الفاسقون'. تنفيذاً لذلك امر النبي بحسان بن ثابت ومسطح بن اثافة وحمزة بنت جحش اخت زينب زوج النبي، وكانوا ممن اتهم عائشة بالفاحشة، فضرب كل منهم ثمانون جلدة، وكان علي بن ابي طالب ممن نصح النبي بطلاق عائشة وكذلك فعل سعد بن عبادة زعيم الخزرج ومنذ ذلك الوقت اسرت عائشة في نفسها حقداً عميقاً على علي كان له اسوأ

النتائج على جماعة المسلمين فيما بعد .

بعد ثلاث سنوات من حادثة عائشة ولدت مارية القبطية صبيا لمحمد أسماه إبراهيم وكانت مارية الى يومنا في مرتبة السرايري فأصبحت تكني بأم إبراهيم وكان النبي يمر كل يوم بدار مارية ليزور طفله فالتقت بالغيرة مجددا في نفوس الضرائر وعانى النبي من ذلك، لكن الطفل لم يعمر ومات بعد ستة عشر شهرا فرأى أحد أسباب الحسد والغيرة بين نساء النبي، ثم نزلت الآية لحماية أزواجه : 'يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إياه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي - - - وإذا سألوهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلك كان عند الله عظيما'. (٥١)

في أواخر السنة الثامنة نزلت الآية التي تحدد عدد الزوجات : 'فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم'. (٥٢)

كان بين نساء النبي خلاف من نوع آخر غير خلاف الضرائر هو اقرب الى الخلاف الاجتماعي والسياسي لكنه خلاف صامت. فأزواج النبي لم يكن من طبقة اجتماعية واحدة وإذا استعملنا تعابير هذا العصر يمكن القول أن بعضهن كن من الطبقة العليا الارستقراطية كأم حبيبة بنت أبي سفيان، وأم سلمة بنت أبي أمية، وميمونة خالة خالد بن الوليد من بني مخزوم، في حين كانت زوجات أخرى من الطبقة المتوسطة كعائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر بن الخطاب وغيرهن.

ومن الملاحظ أن النساء في 'الجاهلية' كن يتمتعن بحرية واسعة فيما يتعلق باختيار بعولهن على الأقل فقد رأينا أن رقية بنت نوفل كانت صاحبة المبادرة في عرضها الزواج من عبد الله والد محمد، كما قامت خديجة بمبادرة معاملة تجاه محمد.

مراجع الفصل الاول
المجتمع العربي في عصر النهضة

- ١ - هيكمل محمد حسين، حياة صعيد، ص ٢٥٤.
- ٢ - ابن هشام، السيرة، ص ٢٢.
- ٣ - ابن خلدون، المقدمة، ص ٦٣٦-٦٣٨.
- ٤ - سورة التوبة، ٩٧.
- ٥ - هيكمل سبق ذكره، ص ٢٩٠-٢٩١.
- ٦ - احمد امين، فجر الاسلام، ج ١، ص ٢٩-٣١.
- ٧ - هيكمل، سبق ذكره، ص ١٢٧.
- ٨ - ابن قتيبة، المعارف، ص ٦٢١.
- ٩ - اليعقوبي، ج ١، ص ٢٥٧.
- ١٠ - الجاحظ، كتاب الحيوان، ج ٧، ص ٢١٦.
- ١١ - احمد امين، فجر الاسلام، ج ١، ص ٨٢.
- ١٢ - هيكمل، سبق ذكره، ص ٥٠٩.
- ١٣ - المصدر السابق، ص ٢٢.
- ١٤ - ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٢، ٢١٢.
- ١٥ - الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ٢٨٠.
- ١٦ - هيكمل، سبق ذكره، ص ١٠٨ و١٠٩.
- ١٧ - الالم هنري لامانس، عصر محمد وتسلسل السيرة، ص ٢٢١ - ٢٢٨ (بالفرنسية).
- ١٨ - هيكمل، سبق ذكره، ص ٤٩ و٢١.
- ١٩ - المصدر السابق، ص ١٤.
- ٢٠ - ابن هشام، السيرة، ج ١، ص ١٦٤.
- ٢١ - المصدر السابق، ص ٤٧.
- ٢٢ - ابن الاثير، الكامل، ج ٢، ص ٢٢.
- ٢٣ - هيكمل، سبق ذكره، ص ١١٤.
- ٢٤ - المصدر السابق، ص ١٠٦.
- ٢٥ - ابن هشام، السيرة، ص ٥٧.

يظلمهن، ١٤١) وقد عاقب النبي نساءه بالانقطاع عنهن شهرا كاملا وتهديده
لهن بالطلاق. وشاعت أخبار بيت النبي بين المسلمين فتكذبوا ونزلت في
ذلك آيات (سورة الاحزاب ٢٨ و٢٩، وسورة التحرير ١- ٥) فاطمان بال النبي
وعاد إلى نساءه وانتهت الأزمة. ١٤٢)

حادثة عائشة

من الاحداث التي اقلقّت النبي انه اصطحب معه عائشة في غزوة بني
المصطلق - ويروي ابن الاثير والاستاذ محمد حسين هيكّل القصة التالية ١٥٠٣
في طريق عودة جيش المسلمين إلى المدينة بعد انتصارهم في غزوة بني
المصطلق توقف الركب للراحة. وخرجت عائشة من هودجها لقضاء حاجة لها
ولما عادت إلى الركب وجدت أن عقدها قد انسلّ من عنقها فرجعت تفتش
عنه. في أثناء ذلك ارتحل الركب وهم يظنونها داخل هودجها. فلما عادت
إلى المعسكر وجدت القوم قد ارتحلوا فالتفت في جلبابها واضطجعت مكانها
واثقة من عودة من يبحث عنها. واذا هي في ضجعتها مَرَّ بها صفوان بن
المعطل السلمي وكان هو الآخر قد تخلف عن المعسكر فلما نظر بها أركبها
على بعيره ودخلت معه المدينة.

ضجّ الناس بالخبر وبعضهم يظن بها الاثم في حين أن جماعة من الاوس
دافعت عن عائشة حتى كادت تحدث فتنة في المدينة. واضطرب النبي واحترار
فهو متعلّق بعائشة لكن ما اتهمت به خطير. ودام هذا القلق فترة من الزمن
حتى نزلت الآيات التي تبرّئ عائشة (سورة النور ١ وما بعدها) فارتاحت
نفسه وعادت عائشة إلى منزلتها في قلبه.

بهذه المناسبة نزلت الآية بمقوبة رمي المحصنات : 'والذين يرمون
للمحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم
شهادة ابداً واولئك هم الفاسقون'. تنفيذاً لذلك أمر النبي بحسان بن ثابت
ومسطح بن إثانة وحمزة بنت جحش اخت زينب زوج النبي، وكانوا ممن اتهم
عائشة بالفاحشة، فضُرب كلّ منهم ثمانون جلدة. وكان علي بن أبي طالب
ممن نصح النبي بطلاق عائشة وكذلك فعل سعد بن عبادة زعيم الخوارج
ومنذ ذلك الوقت اسرّت عائشة في نفسها حقداً عميقاً على علي كان له اسوأ

النتائج على جماعة المسلمين فيما بعد .

بعد ثلاث سنوات من حادثة عائشة ولدت مارية القبطية صبيا لمحمد أسماه ابراهيم وكانت مارية الى يومنا في مرتبة السراري فأصبحت تكني بأم ابراهيم وكان النبي يمر كل يوم بدار مارية ليزور طفله فاتقدت الديرة مجددا في نفوس الضرائر وعانى النبي من ذلك لكن الطفل لم يعمر ومات بعد ستة عشر شهرا فزال أحد أسباب الحسد والغيرة بين نساء النبي . ثم نزلت الآية لحماية أزواجه : "يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إياه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي . . . وإذا سألوهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلك كان عند الله عظيما" . (٥١)

في أواخر السنة الثامنة نزلت الآية التي تحدد عدد الزوجات : "لأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم" . (٥٢)

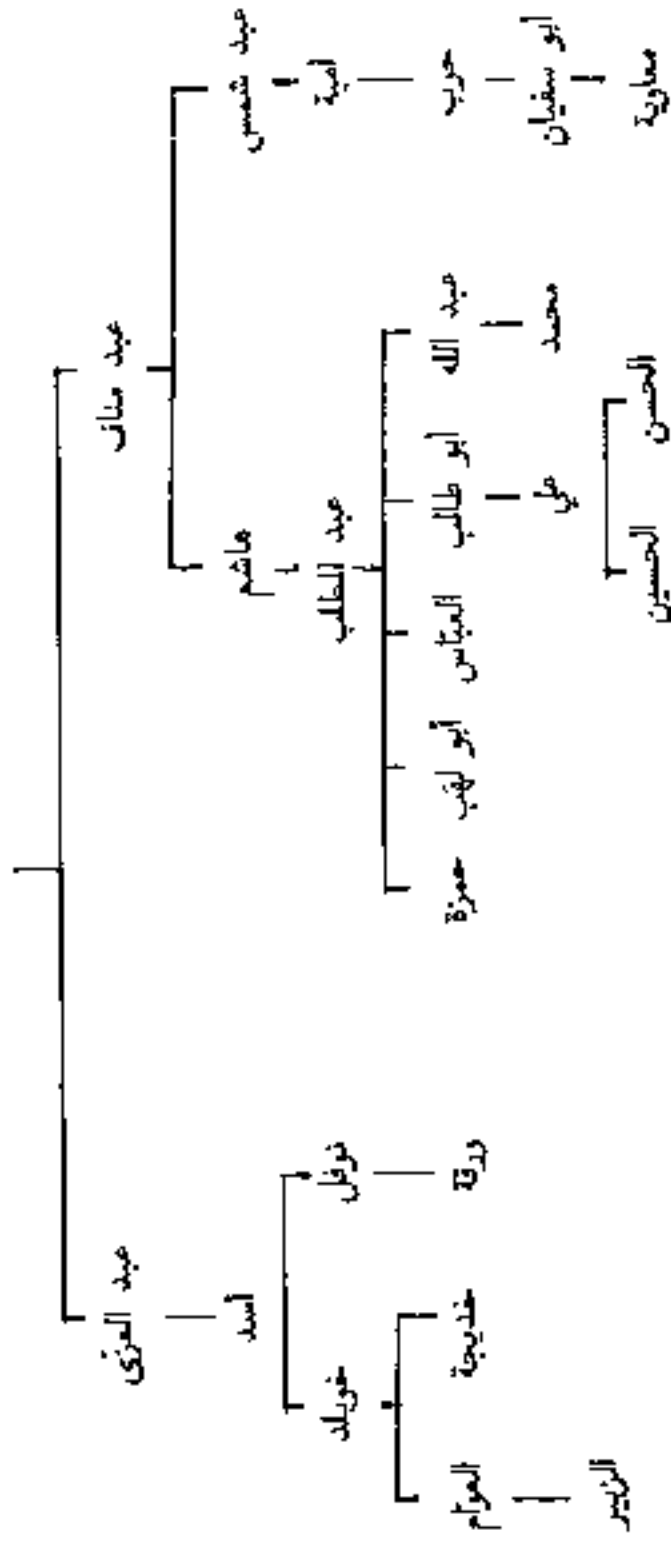
كان بين نساء النبي خلاف من نوع آخر غير خلاف الضرائر هو اقرب الى الخلاف الاجتماعي والسياسي لكنه خلاف صامت . فازواج النبي لم يكن من طبقة اجتماعية واحدة وإذا استعملنا تعابير هذا العصر يمكن القول أن بعضهن كن من الطبقة العليا الارستقراطية كأم حبيبة بنت أبي سفيان ، وأم سلمة بنت أبي أمية ، وميمونة خالة خالد بن الوليد من بني مخزوم ، في حين كانت زوجات أخرى من الطبقة المتوسطة كعائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر بن الخطاب وغيرهن .

ومن الملاحظ أن النساء في "الجاهلية" كن يتشعن بحرية واسعة فيما يتعلق باختيار بعولهن على الأقل فقد رأينا أن رقية بنت نوفل كانت صاحبة المبادرة في عرضها الزواج من عبد الله والد محمد ، كما قامت خديجة بمبادرة مماثلة تجاه محمد .

- ٢٦ - ابن الاثير، الكامل، ج ٢، ص ٢٠٩.
- ٢٧ - الاغانى، ج ٢، ص ١٤.
- ٢٨ - هيكل، سبق ذكره، ص ١١٢.
- ٢٩ - خالد محمد خالد، وجاء ابو بكر، ص ٥٦.
- ٣٠ - ابن الاثير، الكامل، ج ٢، ص ٢١.
- ٣١ - علي ابن برهان الدين الحلبي، السيرة الحلبية، ج ١، ص ٢٧٦.
- ٣٢ - ابن الاثير، سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٨.
- ٣٣ - هيكل، سبق ذكره، ص ١١٦ (الهاش).
- ٣٤ - المصدر السابق، ص ١١٨.
- ٣٥ - ابن هشام، السيرة، ج ١، ص ١٥٤، والأغانى، ج ٢، ص ١٤.
- ٣٦ - البخاري، ج ١، ص ٢.
- ٣٧ - هيكل، سبق ذكره، ص ١٤٢.
- ٣٨ - ابن هشام، السيرة، ج ١، ص ٢٥٢ و ٢٥٣.
- ٣٩ - المصدر السابق، ج ١، ص ١٥٢.
- ٤٠ - ابن الاثير، الكامل، ج ٢، ص ٢٠٩-٢١١.
- ٤١ - أحمد أمين، فجر الاسلام، ج ١، ص ٢٦٤.
- ٤٢ - ابن الاثير، الكامل، ج ٢، ص ٢١٠.
- ٤٣ - أحمد أمين، فجر الاسلام، ج ١، ص ٢٦١.
- ٤٤ - هيكل، سبق ذكره، ص ٢٢٢.
- ٤٥ - المصدر السابق، ص ٢١٢.
- ٤٦ - المصدر السابق، ص ٢٤٨.
- ٤٧ - ابن الاثير، الكامل، ج ٢، ص ٢٠٩-٢١١.
- ٤٨ - هيكل، سبق ذكره، ص ٢٤٨.
- ٤٩ - المصدر السابق، ص ٢٤٦.
- ٥٠ - ابن الاثير، الكامل، ج ٢، ص ١٢٢-١٢٥.
- ٥١ - سورة الاحزاب، ٢.
- ٥٢ - سورة النساء، ٢.

نسب النبي محمد ١

قصي ابن كلاب ابن مرة



الفصل الثاني

النبي في المدينة (٦٢٢ - ٦٢٣)

حجوة المسلمين الى المدينة ببيعة العقبة

في سنة ٦٢٠ قدم سوق عكاظ ففر من يشرب من قبيلتي الأوس والخزرج فعرض عليهم محمد الاسلام فارتاحوا الى ما سمعوا، وبعد سنتين جاء اليه وفد منهم من خمسة وسبعين شخصاً فبايعوه ودعوه الى اتخاذ المدينة مسكناً وهي مسقط رأس والدته، وكان ضغط أهل مكة قد اشتد على المسلمين فعقد الطرفان ما عرف "ببيعة العقبة" تعهد فيها الأوس والخزرج بحماية محمد والمسلمين من قريش، لكنهم لم يعاهدوه على العدوان على قريش أو غيرها. (١) بعد ذلك خرج المسلمون جماعات صغيرة من مكة دون أن يلتفتوا اليهم الانظار وكان محمد آخر من ترك. وكان ذلك بعد بداية النبوة بثلاث عشرة سنة. (٢) وأطلق على الذين تركوا مكة ولجأوا الى المدينة اسم "المهاجرين"، وعلى الذين استقبلوهم من أهل المدينة اسم "الانصار".

في المدينة استقبلهم الانصار استقبالا حسنا، ولم يكن بين المهاجرين من هو ميسور الحال إلا عثمان بن عفان فاشتغل بعضهم بالتجارة كعبد الرحمن بن عوف، واشتغل أبو بكر وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب في أراضي الانصار مزارعة مع ملائكتها. وكان غيرهم في حال من العوز يلتون من الحياة شدة وضنكا. (٣) ولو استعملنا التعابير المعاصرة لقلنا أن الذين ناموا الاسلام في البداية كانوا من "المستضعفين" ولم ينضم اليه "المستكبرون" إلا لما

اتنصر الدين الجديد وصاروا يرجون منه النافع والمناسب،
بعد هجرة النبي الى المدينة استمر نزول الوحي، وبدأ معه تطور
جديد في حياة المسلمين هو التطور الديني - السياسي الذي يتملق بنشر
الاسلام وارساء قواعد التعامل مع الوثنيين واليهود والمسيحيين، وتوحيد
جهود المسلمين وتدير امورهم الاجتماعية والمدنية.

غزوات النبي

في ظرف احد عشرة سنة أي في المدة الباقية من حياة النبي محمد،
انتشر الاسلام فعم أكثر مناطق الجزيرة العربية بالدعوة والاقناع أو بالغزو
والغرض. وقد غزا النبي بنفسه تسع عشرة غزوة، وفي رواية أخرى سبعا
ومشرين غزوة، قاتل منها في تسع غزوات، هذا غير سرايا التي كان
يرسلها بقيادة الصحابة لدعوة القبائل الى الاسلام ومقاتلتهم إذا رفضوا.
وسنذكر فيما يلي باختصار بعض أهم الغزوات الدفاعية والهجومية التي شنتها
المسلمون كنموذج عن الطريقة التي انتشر بها الاسلام في شبه الجزيرة.
كان العداء مستحكما بين قريش وبين المسلمين وكان المسلمون الفريق
الاضعف ومع ذلك بدأوا بعد بضعة أشهر من الهجرة الى المدينة يهددون سير
قوافل المكيين فقد كانت المدينة ومحيطها طريقا رئيسيا للقوافل المكية المتجهة
الى بلاد الشام.

غزوة بدر (٦٢٤) .

توالت المناوشات نحو سنتين حتى صدف أن خرجت قافلة عظيمة من
مكة بقيادة أبي سفيان متجهة إلى الشام ساهم بتمويلها كثير من أهل مكة
وقدّرت قيمة حمولتها بخمسين ألف دينار.
حاول المسلمون اعتراض القافلة لكنها فاتتهم فاستعدّوا للتعرض لها حين
عودتها. وأدرك قائد القافلة أبو سفيان ما يبيتّه المسلمون فأرسل الى أهل
مكة يستنجدهم فلم يبق فيها من هو قادر على حمل السلاح إلا هبة للدفاع
عن تجارة المدينة. ومرة ثانية أفلت أبو سفيان وقافلته من المسلمين التريصين
بعودته ووقعت المواجهة بينهم وبين الحارثيين من قريش في منطقة بدر وكان

النصر للمسلمين وقسم النبي الغنيمة بموجب الآية : 'وأصلحوا أيتما غنتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل'. (٥١) ويقول ابن هشام (٥٢) إن سورة الانتقال التي تقع فيها الآية نزلت بكاملها بعد موقعة بدر، كما نزلت الآية : 'لقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون'. (٥٣)

نقل القبلة الى مكة (٦٢٤)

في تلك السنة أيضا وبعد سبعة عشر شهرا من مقدمه الى المدينة أمر النبي المسلمين أن يتجهوا في صلاتهم إلى الكعبة في مكة بدل التوجه إلى القدس كما كانوا يفعلون فارتاح أهل قريش لذلك لأنه ثبت لهم موارد الحج، لكن اليهود انكروا عليه عمله. وفي تلك السنة توفي أبو لهب عم النبي بعد معركة بدر وكان خصما عنيدا لابن أخيه .

غزوة أحد (٦٢٥)

تهيأت قريش للأخذ بثأر بدر وجهزت قوة كبيرة انضمت إليها بعض القبائل وسارت بقيادة أبي سفيان وكان مع المقاتلين من قريش عمرو بن العاص وخالد ابن الوليد قبل إسلامهما. اشتبك الفريقان في منطقة أحد بمعركة عنيفة جرح فيها النبي في وجهه وجبهته وقتل عمه حمزة وانتصرت قريش فانتقم ليوم بدر وعاد مقاتلوها إلى مكة. وكان عدد القتلى من المهاجرين والأنصار خمسة وستين رجلاً، ومن المشركين اثنان وعشرون. (٥٤)

غزوة ذات الرقاع (٦٢٦)

في السنة التالية لأحد أغار المسلمون في غزوة "ذات الرقاع" على بدر فطفان وسبوا نساءهم وأولادهم ونهبوا متاعهم. ثم اتجهوا نحو دومة الجندل على الحدود ما بين الحجاز والشام لكن قبائلها انسحبت حين قدوم المسلمين وتركت لهم ما كانت سلبته من الغنائم. (٥٥)

غزوة الخندق (٦٢٧)

بعد سنتين من أخذ اجتمعت قريش وعرب غطفان وهذيل وبنو فزارة وبنو مرة وسليم وبنو سعد وأسد وكل من لهم عند المسلمين ثار وساروا جميعا تحت أمرة أبي سفيان قاصدين المدينة ليضربوا المسلمين في معقلهم. لكن المسلمين استعدوا لصدة الهجوم فحفرُوا خندقا حول المدينة وحصنوا داخلها ولم يكن للمهاجمين معرفة بهذا النوع من الحرب وكان الشتاء قارصا فما لبث المهاجمون أن تفرقوا وفشلت حملتهم. ١١٠

غزوة بني المصطلق (٦٢٧)

بعد غزوة الخندق بشهرين غزا الرسول بني المصطلق وهم فرع من خزاعة وأخذهم المسلمون أسرى مع نسائهم وإبلهم وماشييتهم. وكان من السبأيا جويرية بنت الحارث شيخ القبيلة وقد تزوجها محمد بعد الغزوة ١١١

غزوة مؤتة (٦٢٩)

كانت غزوة مؤتة مقدمة لما كان بعد وفاة النبي من فتح الشام. فقد أرسل النبي ثلاثة آلاف من خيرة رجاله الى عمان والبلقاء من أرض الشام لمباغثة الروم وغزوهم. لكن خبر الغزوة اتصل بالروم فاستعدوا لملاقاة المسلمين. وكانت المعركة وقتل فيها قائد المسلمين وفشلت الحملة وتمكن خالد ابن الوليد من الانسحاب والرجوع على رأس الجيش الى المدينة راضين من الغنيمة بالآباب. ١١٢

غزوة حوازن وحصار الطائف (٦٢٩)

كانت قبيلة حوازن تقيم على مقربة من مكة فخشيت من سيطرة المسلمين عليها بعدما استولوا على مكة فجمع شيخها مالك بن عوف قبائل حوازن وثقيف ونصر وجشم وتصدوا للمسلمين، وكاد المسلمون ان ينهزموا فقد فنيت منهم قبيلتان او كادتا. لكنهم استجمعوا صفوفهم وكان النصر لهم وكان ما غنموا وما سبوا وما اسروا في هذه الغزوة اكثر مما كسبوا في لية غزوة سابقة.

لكن قائد هوازن مالك بن حوف نجا من المعركة واحتفى مع ثقيف بالطائف وهي مدينة محصنة فحاصرها المسلمون شهرا ورموها بالمنجنيق فلم ينالوا منها ورجعوا الى مكة.

غزوة تبوك (٦٢١)

انصل بالنبي نبأ من بلاد الروم انها تهيء جيوشا لغزو حدود الحجاز الشمالية فأرسل محمد يستنفر القبائل التي اسلمت وحث الافنياء ليشاركوا بتجهيز الجيش فلبى البعض وتفاعس آخرون ممن كانوا اعتنقوا الاسلام رغبة في الغنائم فقد كانت المسافة بعيدة والوقت قيقظ وحظوظهم التقلب على جيش الروم ونهب عدته ومتاعه قليلة.

تولى محمد قيادة الجيش وانطلق قاصدا تبرك فلما وصلها لم يجد جيش الروم فيها فمكث عشرين يوما اقام خلالها عهدا مع سكان الحدود في قرى ايلة (العقبة) والجرباء واذرع ودومة الجندل في البلقاء واخذ منهم الجزية وجعل له خلفاء يفصلون بينه وبين الروم، لكن المقاتلين الذين كانوا في الحملة استهزأوا بهذه الغزوة ولم يقيسوا لها وزنا لانهم عادوا ولم يفنموا او يأسروا بل لم يقاتلوا. ١١٧١

محمد الحديبية (٦٢٨)

من عادات العرب القديمة انهم خصصوا اربعة شهور من كل سنة سقوها الاشهر الحرام حرّموا فيها الغزو والقتال بحيث تكون اراضي القبائل آمنة لجميع العرب حتى للاعداء يجتازونها بسلام ويحجون فيها الى بيت الله للحرام في مكة.

بعد ست سنوات من الهجرة، وبعدما عجزت قريش والمسلمون عن تغلب فريق على الآخر بالحرب، قرر النبي أن يسير مسالما بالمسلمين إلى مكة دون سلاح للحج إلى الكعبة ودعا العرب غير المسلمين لرافقته قديلا على أنه لا يدخل مكة إلا مسالما.

ارتأيت قريش بمقصده وقررت منع المسلمين من دخول مكة حتى لو أدى ذلك إلى انتهاك حرمة الاشهر الحرام وأرسلت قوة بقيادة خالد بن الوليد

وأصدر النبي مفرأ من قريش ومن أهل مكة جميعاً وطهر الكعبة من الأصنام ولم ينقل إلى الاسلام من مناصب البيت الحرام أيام الوثنية إلا سدانة الكعبة وسقاية الحج من زمزم التي جعلها لعمته العباس. (١٧١) ونزلت الآية ٢٨ من سورة التوبة : 'يا أيها الذين آمنوا إنما المشركين نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد يومهم هذا'. وقد فسر المفسرون هذه الآية بأن الله حرّم على غير المسلمين من الوثنيين دخول مكة كما حرّمه على أهل الكتاب. ولا يزال هذا التفسير موعياً إلى هذا اليوم.

مكث النبي أسبوعين في مكة ثم توجه لغزو هوازن.

مراسلة الملوك ودعوتهم إلى الاسلام (١٢٨)

بعدما اتفق محمد مع أهل مكة على نوع من الهدنة في عهد الحُدَيْبِيَّة وارتاح مؤقتاً من خطر قريش، كتب رسائل إلى هرقل ملك الروم، والمقوقس ملك مصر، والنجاشي ملك الحبشة الذي كان أجار المسلمين الذين لجأوا إليه، والهارث الغساني ملك الحيرة، والهارث الجثيري ملك اليمن، وكسرى ملك الفرس، يدعوهم إلى الاسلام. وكانت الرسائل على متوال متقارب مثل كتابه التالي لكسرى : 'باسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس. سلام على من أتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. إني أدعوك بدعاء الله فأسلم تسلم وإن توليت فإن إثم الجوس (أي سوء مصيرهم) عليك'. (١١٨)

في هذه الرسائل أمور تستوقف النظر. لقد خاطب النبي الملوك يدعوهم إلى الاسلام وهم لا يعرفون من الاسلام شيئاً، وكذلك رعيّتهم. ثم إن فيها تهديداً واضحاً بنشر الاسلام بالقوة فقد جاء فيها عبارة 'أسلم تسلم' الذي أصبح شعار المسلمين في علاقاتهم مع قبائل شبه الجزيرة العربية وفي التعامل مع الشعوب الأجنبية كما سنرى.

في تلك الفترة أسلم خالد بن الوليد وعمر بن العاص فاشتد ساعد الاسلام بهما، وفي غزوة مؤتة قوّى خالد قيادة جيش المسلمين ولقب 'سيف الله'. (١١٩)

لتحول بين محمد ومكة. ودارت مفاوضات بين الجانبين في موقع الحُدَيْبِيَّة قرب مكة حتى تأكدت قريش أن ليس في الأمر خدعة ومع ذلك رفضت دخول المسلمين إلى مكة لئلا يغترب العرب ذلك بأن المسلمين فرضوا إرادتهم. وانتهت المفاوضات إلى اتفاق بين الطرفين على الهدنة بينهما لمدة عشر سنين. من شروط الاتفاق أن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده إليهم، ومن جاء قريشاً من رجال محمد لم يردوه إليه، وإن من أحب من العرب مخالفة محمد فلا جناح عليهم وكذلك لمن أحب مخالفة قريش، وأنه على محمد وأصحابه أن يرجعوا عن مكة هذا العام على أن يعودوا إليها للحج في العام الذي يليه فيدخلوها رقيقوا فيها ثلاثة أيام بدون سلاح. (١١١) وعاد المسلمون إلى المدينة وكثير منهم غير راضٍ عن الاتفاق.

دخول مكة (٦٢٩)

اعتبرت قريش أن غزوة مؤتة (٦٢٨) كانت هزيمة للمسلمين أظهرت ضعفهم فاعتدوا في مكة على قبيلة كانت في عهد المسلمين ونقضوا بذلك عهد الحُدَيْبِيَّة.

جهّز النبي قوائمه وأراد أن يباغت قريشاً في مكة ليستولي على الكعبة دون قتال. لكن المكيين عرفوا بقدومه فذهبت إليه جماعة تفاوضه منهم أبو سفيان ابن حرب كبير قريش، والعباس عم النبي، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي، وعبد الله ابن أمية ابن عمته مع عدد من بني هاشم.

ويظهر أن قوة المسلمين كانت متفوقة، أو أن أهل مكة أرادوا أن يجنّبوا مدينتهم ويلاذوا بالحرب فقبلوا الإسلام. لما دخل النبي مكة جاءه أبو سفيان زعيم قريش برفقة العباس عم النبي. لم يتردد أبو سفيان بالشهادة "أن لا إله إلا الله". لكنه حين طلب إليه أن يشهد "أن محمداً رسول الله"، قال: "أما هذه فإن في نفسي منها شيئاً". ولولا حث العباس له وتخويفه من القتل لما اعترف بهذه الشهادة. (١١٢) وعرف النبي لأبي سفيان بن حرب مكانته في قريش فاعلن أن "من يدخل دار أبي سفيان فهو آمن وكذلك من دخل المسجد ومن أغلق باباً". (١١٣) دخل المسلمون مكة فلم يلقوا فيها مقاومة

ثم بدأ دور القباعد والمتاب كما تدل الآيات :

"قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم إن لا نعبد إلا الله ولا نُشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا أننا مسلمون". (٢٤٨) وقد فسر البيضاوي هذه الآية فقال أنها موجهة إلى اليهود والنصارى معاً، أما تفسير الجملة "ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله" فصعته أن لا يطرموا الاحبار لرجال الدين، فيما احدثوا من التحريم والتحليل، فقال عدي بن حاتم ما كنا نعبدهم يا رسول الله، قال : اليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم، قال نعم، قال محمد هو ذاك فإن عرضوا عن التوحيد فهو اعتراف منهم بأنهم كافرون بما نطق به الكتب.

ونزلت الآية : "يا أهل الكتاب إنما تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون. يا أهل الكتاب إنما تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون". (٢٤٩) يفسرها الامام البيضاوي بالقول : "لم تكفرون بما نطق به التوراة والانجيل ودلت على نبوة محمد وأنتم تشهدون أنها آيات الله، أو تكفرون بالقرآن وأنتم تشهدون نعتي في الكتابين. يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل بالتحريف وتكتمون نبوة محمد ونعتي وأنتم عالمون بما تكتمون".

ونزلت الآية : "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله. ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون". (٢٥٠)

ثم جاء الدور الثالث، دور التكفير والحرب فنزلت الآيات :

"يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولاهم (يتبعهم) منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين". (٢٦١) فسرهما الامام البيضاوي بأن لا تعتمدوا عليهم ولا تعاشرهم معاشرة الاسباب فإنهم متفقون على خلافكم، يوالي بعضهم بعضاً لاتحادهم في الدين واجتماعهم على مضادكم ومن والاهم منكم فإنه من جملتهم.

والآية : "لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم فقة ويحذركم الله نفسه

والى الله المصير". (١٠٠) تفسيرها في الجاهليين : "لا يتخذ المسلمون الكافرين اصدقاء او حلفاء يدل المسلمين ومن يواليهم اي يصادقهم او يخالفهم فليس من دين الله (اي من المسلمين) الا اذا خفتم منهم فلکم موالاتهم باللسان دون القلب. وكان هذا قبل عزة الاسلام ويجري فيمن هو في بلد ليس المسلم قويا فيها. ويحذركم الله بأن يغضب عليكم ان واليتموهم (صادقتموهم) والى الله المرجع فيجازيكم".

والآية : "ان الله لا يفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن

شاء". (١٠١)

والآية : "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية من يد وهم صاغرون". (١٠٢) تفسيرها حسب الامام البيضاوي : "قاتلوا الذين يخالفون اصل دينهم المنسوخ، ولا يحرمون ما تم تحريمه بالكتاب والسنة، ولا يدينون دين الحق (الاسلام) الذي هو ناسخ سائر الاديان ومبطلها، من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية، وهي ما تقرر عليهم ان يمتطوه، من يد قاهرة عليهم ، بمعنى وهم اذلاء".

ونزلت الآية : "ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم.

قل ان هدى الله هو الهدى". (١٠٣)

ثم جاء التاكيد بان الاسلام هو الدين الوحيد المقبول عند الله : "ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين". (١٠٤) فستر الامام البيضاوي ذلك بأنه لا دين عند الله سوى الاسلام، وهو التوحيد والتدبر بالشرح الذي جاء به محمد.

وجاء في سورة آل عمران (آية ١٧ و ١٨) :

"شهد الملائكة وأولوا العلم ... قائماً بالقسط ... ان الدين عند الله الاسلام". فسرهما البيضاوي "بأن الله والملائكة وأولوا المعرفة بالايمان، مقيمين للعدل، شهدوا بأن لا دين مرضي عنه عند الله سوى الاسلام".

ونزلت آيات كثيرة تحض المسلمين على قتال المشركين. وهنا تختلط الامور ويهتد الغموض. فليس واضحاً هل اعتبرت الآيات أهل الكتاب من الكفرة المشركين أم فئة لا ينالها ما ينال عبدة الاصنام؟ هذا ما ربما تدلنا

عليه الآيات في آخر سورة أنزلت وهي سورة التوبة، والمعالجة العملية للأحداث، وإراء الأصوليين المعاصرين. ولنبدأ بالآيات المتعلقة بالقتال :

'يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال'. (٢١١)

'فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم'. (٢١٢)

'وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله'. (٢١٣) فسرها الإمام البيضاوي بقوله : 'قاتلوهم حتى لا يوجد فيهم شرك وتضمحل عنهم الأديان الباطلة فان هادوا عن الكفر فان الله يجازيهم على رجوعهم عنه'.

'يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلب عليهم وماواهم جهنم وينس المصير'. (٢١٤) قال الإمام البيضاوي أنها تمنى : جاهد الكفار بالسيف، والمنافقين بالزام الحجّة وإقامة الحدود واغلب عليهم في ذلك ولا تسايروهم.

'يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا ان الله مع المتقين'. (٢١٥) فسرها الإمام البيضاوي بقوله : * أن المؤمنين أسروا بقتال الأقرب منهم فالأقرب كالروم فانهم كانوا يسكنون الشام وهو قريب من المدينة، وليجدوا فيكم شدة وصبرا على القتال'.

محمّد واليهود

حين هجرتهم إلى المدينة وجد المسلمون فيها من اليهود بني قَيْنَقَاع يقيمون في داخلها وهم حلفاء الأوس، وبني النضير يقيمون على مقربة من المدينة. وثقع خيبر المدينة اليهودية الكبيرة في شمالها. وكانت هذه الجاليات اليهودية قوية بالمال والسلاح والرجال.

احسن اليهود استقبال النبي عند قدومه إلى المدينة وبادر هو إلى توثيق صلته بهم فتحدث إلى رؤسائهم وكبرائهم ونشأت المودة بينهم باعتبار أنهم أهل كتاب موحدون وبلغ من ذلك أن النبي كان يصوم صومهم، وكانت قبلته في الصلاة قبلتهم في بيت المقدس. وما كانت الأيام إلا لتزيد باليهود مودة وقربى حتى وصل الأمر بينه وبينهم إلى عقد معاهدة صداقة وتحالف، وافقوا على تقرير حرية الاعتقاد للمسلمين واليهود. (٢١٦) جاء في المعاهدة : أن يهود بني نوفامة من المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، وكذلك لليهود بني النجار، وبني الحارث، وبني ساعدة، وبني جشم، وبني الأوس، وبني

ثعلبية، وإن من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم، وإن الله جاز لمن برّ واقفي، (٤٣)

ونزلت آيات حسنة باليهود منها : "يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم واني فضلتكم على العالمين". (٤٤) "واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون". (٤٥)

لكن الأمور بين محمد واليهود ما لبثت ان ساءت بسرعة، فقد كان اليهود اقوياء واغنياء في المدينة عاصمة الاسلام في ذلك الوقت مما كان يمكن ان يشكل تهديدا للمسلمين. ثم قام الجدل الديني بين الفريقين، وبعد سبعة عشر شهرا من مقامه في المدينة (سنة ٦٢٤) نقل النبي للقبلة من القدس الى مكة فانكر عليه اليهود ما فعل.

ونزلت الآية تزوب اليهود : "افكلما جاءكم رسول بما لا تهوى انفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون". (٤٦)

وتكرس العداء بالآية "لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا". (٤٧) والآية : "وقالت اليهود يدُ الله مغلولة غلت ايديهم ولعنوا بما قالوا". (٤٨) تفسيرها : "انهم يقولون ان الله ممسك يقتر بالرزق فدما عليهم بالبخل والبكد والمسكنة".

بلغ العداء غايته بالآية : "وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله". (٤٩) تُرجم هذا العداء بحروب شنها المسلمون على اليهود كان من نتيجتها اجلاؤهم عن الحجاز. وفيما يلي شرح ذلك :

اجلاء بني قَيْنَقاع (٦٢٤)

عندما عاد النبي من غزوة بدر منتصرا دعا اليهود الى سوق بني قَيْنَقاع وكان اكثرهم يشتغلون بالصياغة وقال لهم لقد عرفتم ما حل بقريش فاحذروا واسلموا، لرفضوا. وتناهب رجالن يهودي ومسلم فاعتبر النبي انهم نقضوا العهد فقرر قتلهم، ففزاهم وحاصروهم خمس عشرة ليلة. وكان اليهود حلفاء الخزرج فتوسط بالامر شيخهم ورافق النبي ان يجلووا عن المدينة تاركين وراءهم سلاحهم والذهب الذي كانوا يصوغون. فرحلوا الى اذرعاء

على حدود الشام. (٥٠٠)

اجلاء بني النضير (٢٢٦)

بعد سنة من اجلاء بني قَيْنَقَاع، اتهم المسلمون بني النضير انهم تأمروا على قتل النبي فأرسل اليهم رسولا وقال له : اذهب وقل لهم لقد نقضتم العهد فاخرجوا من بلادي وقد اجلتكم عشرا فمن بقي بعد ذلك ضربت عنقه*.

ولما لم يجلوا حاربهم عشرين يوما وقطع نخيلهم وأحرقه وهم ثابتون في حصونهم. ثم اتفقوا على ان يخرجوا ولكل ثلاثة منهم بغير يحملون عليه ما شاءوا. فخرجوا الى خيبر وتركوا وراءهم اموالا كثيرة من غلال وسلاح وارضى زراعية. وكانت اموالهم لحمد وحده فقسمها على المهاجرين الاولين دون الانصار بحيث اصبحوا اصحاب مال وارضى يتساوون مع الانصار. وكان كاتب سر النبي من بني النضير فلما اجلاهم امر زيدا بن ثابت فتعلم السريانية وغيرها من اللغات ليبيعت الرضائل الى الملوك. وزيد هو الذي جمع القرآن في خلافة ابي بكر ثم راقب الجمع حين اختلفت القراءات في خلافة عثمان فوضع مصحف عثمان وأحرقت سائر المصاحف. (٥١١)

مذبحة بني قُرَيْظَةَ (٢٢٧)

يروي ابن هشام وابن الاثير هذه الواقعة كما ياتي :
بعدما رأى بنو قُرَيْظَةَ ما حل ببني قَيْنَقَاع وببني النضير في مدة سنتين ادركوا ما يبيته لهم المسلمون. من جهة ثانية، كانت قريش قد تراجعت عن المدينة بعدما فشلت غزوة الخندق وخاف المسلمون ان تحاصرهم قريش ثانية ويناصرها بنو قُرَيْظَةَ من داخل المدينة فيكون موقفهم حرجا. وصدف ان تقاتل مسلم ويهودي فاعتبر النبي ان اليهود نقضوا العهد معه فدعا المسلمين الى القتال فقد كانت الجماعة تؤخذ بجريرة اسدها. حاصرهم المسلمون خمسا وعشرين ليلة وكان بنو قُرَيْظَةَ حلفاء الأوس كما كان بنو قَيْنَقَاع حلفاء الخزرج وقد استطاع الخزرج ان يحصوا بني قَيْنَقَاع من القتل. فذهبت جماعة من الأوس الى محمد يطلبون ان يعامل

حلفاءهم كما عامل حلفاء الخزرج فأجابهم انه يقبل بحكم رجل من الأوس يختاره اليهود . فاختار هؤلاء سعد بن معاذ رئيس الأوس . وبعدما اخذ سعد المواثيق من الجانبين اصدر حكمه بان يُقتل المحاربون لليهود ، وتقسّم اموالهم ونُسبى الذرية والنساء . فكان حظ بني قُرَيْظَةَ مع سعد بن معاذ الذي وثقوا به كحظ الامام علي بن ابي طالب مع ابي موسى الاشعري لما اختاره حكماً يمثله في خلافة مع معاوية .

ثم أمر النبي بحفر الخنادق في المدينة وجيء باليهود وكانوا نحو اربعمائة وقيل ثمانمائة فأمر بضرب ايمانهم واشرف بنفسه على قتلهم .

قسم النبي اموال بني قُرَيْظَةَ ونساءهم وابنائهم على المسلمين بعد ان اخرج منها الخمس . ثم بعث بطائفة من السبايا الى نجد فابتاع بها خيلا وسلاحا . وكانت ريحانة احدي السبايا قد وقعت في سهم محمد واصبحت سرية عنده . (٥٢)

وهكذا كان جزاء نقض العهد افناء نحو ثلاثة آلاف شخص من الرجال والنساء والاولاد لم يعد لهم وجود او ذكر .

غزوة خيبر

بقيت خيبر آخر معقل لليهود في الحجاز . فلما رجع النبي من مهاد الحُدَيْبِيَّة سنة ٦٢٨ أمر الناس بالتجهز لغزو خيبر فوصلوا امام حصونها في ثلاثة أيام . وكانت جموع اليهود في خيبر من أقوى الطوائف اليهودية بأسا واوفرها مالا واكثرها سلاحا وكان المسلمون مؤمنين انه ما بقيت لليهود شوكة في شبه الجزيرة فاستغل المنافسة بين اليهودية والاسلام حائلا دون تمام الغلبة لهم . وكان القتال من أشد ما عرفه المسلمون وانتهى بصلح استولى فيه المسلمون على الأرض بحكم الفتح وبقي اليهود مزارعين مستثمرين لقاء نصف المحصول . (٥٣)

يخوذ فُذَك

عندما طلب يهود خيبر الصلح بعث النبي الى اهل فُذَك فتصالحوا على نصف اموالهم من غير قتال وكان هذا النصف خالصا لمحمد لأن المسلمين لم

يكسبوه بقتال.

يهود وادي القرى وتيما ٦٢٨

بعد قدك تجهز الرسول للمودة الى المدينة من طريق وادي القرى فصالح أهلها على شروط خيبر. أما يهود تيماء فقبلوا الجزية من غير حرب. ولم يفرض النبي الجزية على يهود البحرين وبقوا على دينهم. وصالح يهود غازية وبني عريض على ان لهم الذمة وعليهم الجزية. (٥٤) بهذه الحروب انتهى دور اليهود في الجزيرة كقوة سياسية او عسكرية يمكن ان تشكل عقبة في وجه الدين الجديد وانصرف الالتفات الى المجموعة المتميزة الثانية وهي النصارى.

نظرة المسلمين الى الدين لليهود

وجد المسلمون في التوراة أشياء لا تنطبق على ما نزلت به الآيات في القرآن. فقال فريق من الفقهاء في العصور اللاحقة ان التوراة كلها مبدلة ومغيّرة وليست هي التوراة التي افزلهما الله على موسى. وقال البخاري والرازي وغيرهما ان التبديل وقع في التأويل لا في التنزيل. وقال آخرون، ومنهم ابن تيمية، انه قد زيد في التوراة لكن أكثرها بالي على ما افزل عليه والتبديل في يسير منها جداً. (٥٥)

محمد والنصارى

ذكرنا سابقا ان محمداً وخديجة كانا محاطين في مكة قبل نزول الوحي وبعده، بعدد من اقربائهما المنتصرين وعلى رأسهم ورقة بن نوفل فلم تكن تعاليم النصرانية اذن مجهولة منهما. وعندما اشتد ضغط فريش على اتباع محمد وكانوا لا يزالون قلة في مكة نصحهم بالهجرة الى الحبشة المسيحية وقال لهم : "ان بها مليكا لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه". (٥٦)

ولم يكن للنصارى تجمعات كثيفة تشكل تهديداً للنبي ورسالته الا في نجران فرأينا الآيات تنزل في بداية الرسالة تتحدث عن المسيح وأمه مريم

والنصارى بأجل الكلام وأكثره مودة. وجاء كلام القرآن عن بشارة مريم بولادة المسيح مثالا لكلام الانجيل انما بلغة عربية أجمل : ٢٤ قالت الملائكة يا مريم ان الله يُبَشِّرُكِ بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المُقَرَّبِينَ. ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين. قالت رب انى يكون لى ولد ولم يمَسُّسْنى بشر. قال كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون، ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل. (٥٧) راجع ايضا سورة مريم، آية ١٥-٢٢).

ثم توجه الكلام الى المسيح : ٢٤ قال الله يا عيسى انى مُتَوَكِّفٌ ورافِعُك اليّ ومُطَهِّرُك من الذين كفروا وجاعلُ الذين اتَّبَعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة. (٥٨)

لما ساءت العلاقات بين النبي والنصارى حافظ على مودته مع النصارى فنزلت الآية تذم اليهود وتمدح النصارى : ٢٥ تَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا وَالْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا. وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأنْ مِنْهُمْ تَسْلِسِينَ وَرَهَبَانًا أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ. (٥٩) ولما جاء وفد من نصارى نجران يزور النبي دخلوا عليه المسجد حين كان يصلي العصر وعليهم ثياب ثمينة من برود اليمن فلما حانت صلاتهم قاموا في المسجد يصلّون فقال الرسول دعوهم، فصلّوا الى المشرق.

عهد نصارى نجران

قام عهد بين النبي ونصارى نجران وغيرهم من النصارى يقرهم على دينهم وعلى القيام بمراسيم عبادتهم وجاء فيه : ٢٥ نَجْرَانُ وَحَاشِيَتُهَا جَوَارُ اللَّهِ وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَبَيْعَتِهِمْ وَأَرْضِهِمْ وَشَاهِدِهِمْ وَغَانِبِهِمْ وَكُلِّ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ. لَا يُغَيَّرُ اسْقَافُ مِنْ أَسْفَفِيَّتِهِ وَلَا رَاسِبٌ مِنْ رَهْبَانِيَّتِهِ وَلَا كَاهِنٌ مِنْ كَهَانَتِهِ وَلَا يَحْشَرُونَ وَلَا يَطْأُ أَرْضَهُمْ جَيْشٌ. (٦٠) فلما تولى ابو بكر عاملهم بذلك اما عمر بن الخطاب فأجلاهم عن الحجاز.

لم تدم المودة طويلا بين النبي والنصارى فقد تغيرت اللهجة في وصفهم ونزلت الآيات تساوي بينهم وبين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم

الآخر وتُصِفُهُم بالكفر وتدمو المسلمين الى قتالهم، وعقوبة الكافرين القتل.
من هذه الآيات : "لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم". (١١١)
والآية : "ولقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من إله الا الله
واحد". (١١٢)

والآية : "ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل". (١١٣)
تفسيرها في الجلالين : ما المسيح ابن مريم الا رسول قد مضت من قبله
الرسل فهو يمضي مثلهم وليس بإله كما زعموا والا لما مضى.
والآية : "واذ قال الله يا عيسى ابن مريم انت قلت للناس اتخذوني
وامي إلهين من دون الله، قال سبحانه ما يكون لي ان أقول ما ليس لي
بحق". (١١٤)

والآية : "يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون
أموال الناس بالباطل ويصعدون عن سبيل الله والذين يكتزون الذهب والفضة
ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم". (١١٥) فإذا قارنا هذه الآية
التي نزلت في السنة العاشرة للهجرة مع آية المائدة، التي نزلت في السنة
الخامسة او السادسة والتي تقول : "ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين
قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون"، ادركنا
مقدار التطور العدائي الذي نما خلال السنوات الخمس الأخيرة من حياة
النبي.

ثم جاءت الآية : "قاتلوا . . . الذين أوفوا الكتاب حتى يعطوا الجزية
عن يد وهم صاغرون". (١١٦) وقد فرضت هذه الآية على المسلمين اذلال اليهود
والنصارى في حياتهم اليومية واشتغل العمل بموجبها اجيالا طويلة حسبما
قننتها "عهدة عمر".

خطرة المسلمين الى الدين المسيحي

يعتقد كثير من المسلمين ان الانجيل الحالي الذي يؤمن به المسيحيون
ليس هو الانجيل الحقيقي الذي سرد أعمال المسيح لأن الانجيل الصحيح
برأيهم تنبا بمجيء محمد كخاتمة الأنبياء في حين أن الانجيل المتداول لا
يذكر ذلك. وكان اختلاف المسلمين في صحة الانجيل وتحريفه كاختلافهم في

التوراة بل ذهب ابن حزم وابن تيمية وغيرهما في عدم الاعتراف بالانجيل الذي بين ايدينا الى أكثر مما ذهبوا اليه في التوراة. وعلى أساس هذا الاعتقاد وضع ابن تيمية كتاب "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح". (٦٢١)

سورة التوبة وأهميتها

في السنة العاشرة للهجرة (٦٢١) أرسل النبي أبا بكر يرأس الحج وأرسل في أثره علي بن أبي طالب وأمره بقراءة سورة البراءة على المشركين وكانت آخر سور القرآن (وتسمى أيضا سورة التوبة). فلما رآه أبو بكر افرج من قدومه وخاف ان يتقدم علي عليه خصوصا في إمارة الحج لما لها من أهمية في نظر المسلمين فبادره بالسؤال : هل تأتي أميرا أم مأمورا. فاجابه علي بل مأمورا. ولم يطمأن أبو بكر فهرع عائدا الى النبي متوسلا ان تنزل فيه آيات يحملها كما يفعل علي لترفع مكانته، فقد كان منذ ذلك الوقت، وقبله، يسعى الى حجب المنافسين له عن العظوة لدى النبي خصوصا علي وبني هاشم. فطيب النبي خاطره وعاد أبو بكر يرأس الحج.

يعتبر كتاب مسلمون ان سورة التوبة او البراءة وهي آخر سورة نزلت، كانت فصل الخطاب في المواضيع التي عالجتها ومن هنا أهميتها. وفيما يلي بعض المبادئ التي وردت فيها وقرأها علي على الحجاج : (٦٢٢)

"ان الله بريء من المشركين وبيشركم الذين كفروا بعذاب اليم. أما الذين عاهدتم من المشركين للمشركين في هذا السياق هم اهل الكتاب الذين عاهدتهم المسلمون فانتوا عليهم عهدهم الى نهاية المدة المتفق عليها ثم تنتظرون في أمرهم. وإذا انتهت الاشهر الحرم الاربعة فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم. أما المشركون فنجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد هذا العام". تتضمن هذه السورة أيضا آيات قذم اليهود والنصارى واحبارهم وريبانهم وتشبه قولهم بأن المسيح هو ابن الله بقول الكافرين، وتحض المسلمين على جهاد الكفار والمنافقين واستعمال الغلظة معهم. وأخيرا تدعو السورة الى قتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية وهم صاغرون.

بعد أن قرأ علي على الناس هذه الآيات صاح بهم : أيها الناس، لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان،

ومن كان له عند الرسول عهد يبقى ساريا الى نهاية مدته.
 بعد نزول آية التوبة وجه النبي خالدا ابن الوليد الى نصارى دجران
 يدعوهم الى الاسلام كي يَسْلَمُوا من القتال، بعد ان كان اقروهم على دينهم
 وعلى القيام بمراسم عبادتهم، فاسلم بعضهم وتمسك آخرون بالعهد المقطوع
 وارسل عليا بن ابي طالب الى اليمن يدعو اهلها للاسلام فرفضوا
 فقاتلهم وتغلب عليهم فلم يجدوا من التسليم بدا فسلّوا واسلموا.
 بحلول عام ٦٢١ كانت أكثر القبائل الكبرى في شبه الجزيرة قد
 أعلنت دخولها في الاسلام وقبولها بدفع الزكاة مع ما يعنيه ذلك من خضوعها
 لسلطة النبي. لكن الاسلام لم يغير التركيب القبلي للمجتمع العربي ولم يتغلب
 على طبيعة العرب ونزعتهم للحرية الفردية المتطرفة ومناوئتهم لآية سلطة روحية
 او سياسية تحاول ان تفرض نفسها عليهم فلا يرضخون الا تحت الضغط
 والقهر. لذلك ذمهم القرآن وقال عنهم : "الاعراب اشد كفرا وثغافا واجدر الا
 يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله". ١٦٦

المطامع السياسية توافق الدعوة

لا يبدأ محمد رسالته في مكة أهمله اقرباؤه من بني هاشم. ماداه
 بعضهم بقسوة كعمه ابي لهب وزوجته فنزلت الآية : "تبت يدا ابي لهب وثب.
 ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نار ذات لهب وامرأة حمالة الحطب في
 جيدها حبل من مَسَد". (٧٠) ولم يكترت البعض الآخر به كعمه العباس. حتى
 عمه ابو طالب الذي كفله ورياه رفض ان يقبل الدين الجديد ومات وثنيا.
 أما اقرباؤه من آل عبد شمس فقد قاوموه مقاومة عنيفة بقيادة ابي سفيان ولم
 يقبلوا الدين الجديد إلا عندما لم يعد بدّ من ذلك.

لذلك وجد محمد نفسه منساقا نحو الجماعة التي قبلت رسالته
 وتجمعت حوله وعلى رأسهم أبو بكر بن قحافة التيمي، وعمر بن الخطاب من
 بني عدي، وابو عبيدة ابن الجراح، وجميعهم من أصل متواضع إذا ذكرت
 انساب العرب.

يقول بعض المستشرقين ومنهم هنري لامانس في كتابه "الثلاثية" ان
 هؤلاء الثلاثة بزعامة ابي بكر شكلوا عصبة احاطت بالنبي وتقربت منه

واستطاعت بمهارة ان تستغل مقاومة الأمويين وهي مخزوم للإسلام منهم خالد ابن الوليد قبل اسلامه، وان تكتسب ثقة النبي الذي صار يرفح اليهم. ووثقت العلاقة أكثر لما تزوج النبي عائشة بنت أبي بكر ثم حفصة بنت عمر بن الخطاب فصار الرجلان داخلين في صميم الحياة العائلية الحميمة للنبي خصوصا وان عائشة بقيت عنده الزوجة المدللة والمفضلة طيلة حياته.

وكانت عائشة وحفصة متفقتين طيلة زواجهما ومن الطبيعي ان تسعي الى ما فيه مصلحة والديهما المتحالفين. وليس بالامكان معرفة مدى تأثيرهما في سياسة الدين الجديد لكنه من المؤكد انه كان لعائشة نفوذ وكان أحيانا حاسما في بعض المواضع. (٧١) من ذلك حسب قول المستشرق لامانس، تعيين أبي بكر أميراً للحج في السنة التي سبقت وفاة النبي وقد رأينا كم اضطرب أبو بكر عندما جاءه علي يحمل سورة التوبة فقد خشي أن يدل ذلك على تقديم علي عليه ولعله كان يعلم عن حالة النبي الصحية بواسطة ابنته أكثر مما عرف الناس.

من ذلك أيضا تكليف أبي بكر ليصلي بالناس اثناء مرض النبي بتأثير عائشة فاتخذ أبو بكر ذلك دليلا على ان النبي قدمه على سائر المسلمين واحتج بذلك عندما تنافس مع الانصار على الخلافة. ويلاحظ المتتبعون أن معظم الاحاديث التي تشيد بأبي بكر وتعطي مكانته تُسند الى ابنته عائشة. (٧٢)

وقد استطاعت الزوجتان عائشة وحفصة ان تقصيا فاطمة عن أبيها فلم تلعب دورا مهما في حياته ولم تذكرها كتب السيرة الا نادرا. كما تمكن "الوزيران" من حجب الدور الذي كان يستطيع ان يلعبه عثمان بن عفان الأموي بفعل مصاهرته لمحمد (تزوج ابنته رقية ثم أم كلثوم) وبحكم كونه أمويا ثريا وبارزا يستطيع ان يوثق العلاقة بين النبي وبين أقرائه الأمويين الأقوياء بالمال والرجال والدهاء مما كان سيفسد خطط المتحالفين الثلاثة.

يقولا لامانس أن أبا بكر كان أقدر سياسي في محيط النبي وهو الذي أطلق الشعار : "لا يجوز أن تجتمع الخلافة والنبوة في بيت واحد" حسب حديث عمر لابن العباس (٧٣) وغرضه من ذلك اقضاء الهاشميين عن الخلافة. وأبو بكر هو الذي شكل وقزع "الحلف الثلاثي" المؤلف منه ومن

عمر بن الخطاب ومن أبي عبيدة ابن الجراح ليخلفوا النبي في السلطة على أن يكون أبو بكر الخليفة الأول يعقبه عمر ثم أبو عبيدة. 'وكان الثلاثة موضع حسد الصحابة الآخرين' (٧٤١)

وقد استطاع أبو بكر استبعاد علي بن أبي طالب ابن عم النبي وتزوج ابنته فاطمة وضمن الخلافة لعمر كما سنرى. أما أبو عبيدة فقد أبرزه عمر في بداية ولايته وبعثه أميرا على جيوش الشام وعزل خالد ابن الوليد أحد أعظم قادة المسلمين لأنه كان يشكل تحديا خطيرا لأبي عبيدة. لكن هذا توفي في خلافة عمر فانتهي المشروع الثلاثي بوفاته وإن استمر العمل لاستبعاد الهاشميين.

وهكذا نرى أن الطموح إلى السلطة والسعي لحيازتها واقصاء المنافسين عنها، بدأ أثناء حياة النبي واستمر بعدها ولم يتعارض هذا السعي مع تدبير الذين قاموا به وكانوا من أكبر المخلصين للإسلام والعاملين على نشر رسالته.

سيرفرض كثير من المسلمين رواية هنري لامانس وتحليله كما يرفضون سلفا معظم أبحاث المستشرقين متهمينهم بالتعصب والتحيز ضد المسلمين. ولا شك أن في بعض تلك الأبحاث تعصبا وتحيزا. لكن في بعضها نقدا علميا يستند إلى دراسات دقيقة للتاريخ الإسلامي ويجب التمييز بين هذه وتلك. وما دام كثير من علماء المسلمين في عصرنا يرفضون مجرد التساؤل عن أحداث تلك السنين، ويهملون من أحداث ذلك العصر ما أورده المؤرخون المسلمون القدماء لأنهم يريدون أن لا يأخذوا من التاريخ إلا ما يعزز اتجاهاتهم وتصوراتهم، ويكتفون بتكرار ما يختارون من الأخبار مرددين آيات الإعجاب بكل ما جرى دون تحقيق، ويستبعدون التشكيك بما نقل إليهم، ويتهمون ولوج باب النقد العلمي والاستنتاج المنطقي، فإنهم يستقيلون من أهم واجباتهم ولا يعود من حقهم أن يلوموا غيرهم إذا حاولوا ملء هذا الفراغ.

ولعل لعلماء المسلمين عذرهم. فالذين تجرأوا منهم على ملازمة النقد بشكل ملطف وخفيف كالدكتور طه حسين والشيخ علي عبد الرزاق أتهموا بالكفر والزندقة وحكوا وظردوا من وظائفهم. وليس هذا مما يشجع غيرهم

على سلوك طريقهم.

حجة الوداع

سار النبي الى الحج عام ٦٢٢ ومعه عدد كبير من المسلمين وصُتبت حجة هذه "حجة الوداع" فادى الفريضة ثم خطب في الناس ووعظهم وتلا الآية : "اليوم اكملت لكم دينكم وانمعت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً"، ٢٥١، فادرك ابو بكر ان النبي وقد تمت رسالته قد دنا يومه الذي يلقي فيه ربه . ٢٦١،

والملفت للنظر ان هذه الآية التي ختمت رسالة النبي ليست موجودة في سورة التوبة التي يُجمع المسلمون انها اخر سورة نزلت، بل وردت في سورة "المائدة" التي يُظن انها نزلت في السنة الخامسة او السادسة للهجرة (٦٢٧ او ٦٢٨ اي قبل اربع او خمس سنوات من نزول الآية التي انتهت بها رسالة النبي، وهذا مثل اخر على الاضطراب الذي رافق ترتيب السور والآيات.

تشجيع امور القبائل

لم يغيب عن النبي انه لما منع الغزو بين القبائل التي اسلمت حرمها موردا مهما للرزق، والغي تقاليد قرون ربي عليها الناس، ومطل حياة الغروسية، وكبت نشاط صفات كادت موضع امتزاز للعرب كالشجاعة والنجدة والمرزة وهي كلها ذات صلة بالغزو والحرب. لذلك كان من الضروري ان يفتح للعرب متفذا جديدا للغزو وكسب الغنائم كي تثبت القبائل على اسلامها.

كانت بلاد الشام تحت حكم الروم اقرب البلاد الى المسلمين. فامر النبي بتجهيز جيش بقيادة اسامة بن زيد واوصاه ان يثير على تخوم البلقاء من ارض فلسطين "وان يداهم اعداء الله واعداءه في حماية الصبيح وان يمعن فيهم قتلاً، وان يحرقهم بالنار، وان يتم ذلك ذراكاً قبل ان تصل اخباره الى العدو، فينزوهم ويعود بالغنيمة". ٢٧١ بدأت الاستعدادات لتحضير الحملة وكان الحماس كبيراً فقد مرت مدة على قبائل المسلمين ولم يغزوا ويحصلوا على اسلاب وغنائم.

واضح من هذا التوجيه ان غرض هذه الحملة كان الغنيمة ولم يكن نشر

الدين والاستقرار في الأرض. لكن هذه الغزوة لم تحصل لان المرض داهم النبي فانظر الجيش شجاعاً.

وفاة النبي

اشتد المرض على النبي وكان في بيت ميمونة فقد كان ذلك اليوم دورها بالزيارة. وميمونة هي إحدى أزواج النبي من بني هاشم. بقي النبي سبعة أيام عند ميمونة حيث لازمته ابنته فاطمة وزوجها علي بن أبي طالب. ولم يكن هذا الوضع مريحاً لأبي بكر وعمر فعلاً علي نقله إلى منزل عائشة ملفوفاً بقطاء يحملها أربعة رجال. وقضى النبي الأسبوع من حياته الملى باللام المبرحة محاطاً بعائشة وحفصة دون غيرها. وفي حالة الضعف هذه طلب من أبي بكر أن يصلي بالناس في المسجد بدلاً عنه. ١٧٨١

يقول الأستاذ محمد حسين هيكل : فيما النبي في هذه الشدة قبيل وفاته وفي البيت رجال، قال "أيتوني بدواة وصحيفة اكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً". فقال عمر أن الرسول قد غلبه الوجع وعندكم القرآن وحسينا كتاب الله". واختلف الحضور منهم من يقول قريوا يكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، ومنهم من يابى ذلك وعلى رأسهم عمر. فلما رأى محمد خصوصتهم قال "قوموا ما ينبغي أن يكون بين يدي النبي خلاف". وانتهى الأمر كما يريد عمر. وقد تسائل خصوم عمر هل أراد حقاً أن يوتر على النبي مشقة الكتابة أم خشي أن يستخلف النبي في كتابه خليفة غير ما خطط له عمر مع أبي بكر؟

الأكيد أن هاجس خلافة النبي كان مستحوذاً على أذهان الصحابة من آل هاشم والمهاجرين والانصار على السواء. فقد قال العباس عم النبي لأبيه أخيه علي بن أبي طالب "إن النبي سيؤتوني في مرضه هذا فاذهب وأسأله لمن يكون الأمر بعده. فإن كان فينا علمناه، وإن كان لغيرنا أوصى بنا"، فرفض علي. (٨٠١) وهنا يتضح الفرق بين حزم عمر وتردد علي.

أما الانصار فلم ينتظروا وفاة الرسول ليبحثوا فيمن يخلفه بل اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة والنبي يحتضر ليضمنوا أن تكون الخلافة لهم لا للمهاجرين كما سيأتي.

وقد توفي الرسول يوم ٨ يونيو (حزيران) ٦٣٢.

اسلوب الدعوة الاسلامية

انتشر الاسلام بسرعة مذهلة فعمّ قبائل الجزيرة العربية في عشر سنوات. والجزيرة بلاد شاسعة مساحتها اكبر من مساحة مجموع دول اوربا الغربية، تقطنها قبائل متناثرة في بقاع متباعدة تفصل بينها صحاري واسعة غير صالحة للسكن. فكيف تمّ هذا الامر.

لقد وصفنا في ما مرّ المجتمع العربي زمن الدعوة، ثم انتقال النبي والمسلمين الى المدينة، وبعض الغزوات التي قام او امر بها. ولم يكن غرضنا سرد حياة النبي واعماله فذلك موفور بتفصيل اكبر في مصادر عديدة اخرى. لكننا اردنا من ذلك شيئين : أولاً، ان فهنا للاسلام يقتضي معرفة المجتمع الذي نشأت فيه الدعوة والظروف والشخصيات التي احاطت بها خلال نزول الوحي. والامر الثاني، استطلاع ما اذا كانت الاحداث التي جرت ما بين نزول الوحي نحو سنة ٦١٠ ووفاة النبي سنة ٦٣٢ تتضمن المؤشرات التي تفسر سرعة انتشار الاسلام في قبائل شبه الجزيرة العربية، والاهم من ذلك انتشاره الخاطف خارج الجزيرة في العقود الثلاثة التي تلت الوفاة.

ان كل دعوة الى عقيدة جديدة آكانت دينية او سياسية او اجتماعية تحتاج الى شرح مبادئها للناس واقتناعهم بها ثم دعوتهم الى اعتناقها. وليست عملية الشرح والاقتناع سهلة خصوصاً اذا كانت العقيدة دينية كالدعوة للاسلامية تقدم للناس افكاراً ومبادئ جديدة وتدعوهم الى انكار الاديان التي اعتادوها والتي ترسخت في نفوسهم بمحكم معتقدات وعادات وتقاليد ابغها الناس على مدى قرون وقد تكون ارتبطت بها مصالح مادية ومعنوية.

بدأ محمد يدعوا الى رسالته بالحجة والاقتناع نحو عشر سنوات تعرض خلالها لاضطهاد اهل مكة حتى اضطر للهجرة الى المدينة. وعقبت الآيات تنزل وتكمل الدين، وبقي محمد والصحابة يبشرون بالدين الجديد ويدعون الناس اليه فيلقون استجابة بطيئة ومترددة.

وقد جرت حادثة تبين ضعف تمسك بعض المسلمين بالدين الجديد وصعوبة الاعتماد على ثبات اكثرهم إذا لم تمتزج العاطفة الدينية بمصالح

دنيوية. فقد كان النبي يَعمَل في المسجد وحوله عشرات المصلين لما حدثت
جلبة في السوق تنبئ بوصول قافلة كبيرة الى المدينة. فما كان من المصلين
إلا أن انفضّوا عنه وهرعوا الى القافلة تاركين النبي ومعه اثنا عشر من
المصلين قطع بينهم أبو بكر وعمر وعلي. وقد تأثر النبي من هذا التصرف
الذي يدل على خفة وعدم اكتراث بالدين فنزلت الآية : "واذا رأوا تجارة أو
لهوا انفضّوا إليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو والتجارة والله
خير الرازقين". وقد احتاج النبي الى جهود كبيرة وحكمة سياسية ليرسخ في
نفوس اتباعه وهيا دينيا أعمق.

ثم بدأ سير الدعوة يتغيّر. صارت القوة تساند الحجة وصار العنف
يدهم الاقتناع. صارت رسالة محمد الى القبائل ثم الى العالم الاوسع التي تقول
"اسلموا تستلموا" توضع موضع التطبيق العملي.

معنى ذلك انه اصبح على العرب من سكان المدن والواحات والبادية
ان يقبلوا الدين الجديد قبل ان يأتيهم من يشرح لهم مبادئه، وان يعترفوا
بان محمداً رسول الله قبل ان يطلّعو على رسالته ويفهموها، اي ان المطلوب
كان ان يقبلوا قبل ان يفهموا. وكان يكفي ان يُعلن المدهو الى الاسلام "أشهد
ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله"، ويقبل دفع الزكاة دليلاً على الطاعة
والوفاء، حتى يحق له ان يغزو مع المسلمين ويشارك بالفنمية. ولا شك بان
هذا كان حافزاً قوياً لانتشار الاسلام بهذه السرعة. لهذا ميّز القرآن بين
الذين اسلموا عن ايمان والذين اسلموا لغرض اخر دون ايمان بالرسالة فنزلت
الآية "وقالت الاعراب آمنا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان
في قلوبكم". (٨١)

لقد كان اسهل على العرب ان يعترفوا بالاله الواحد من ان يعترفوا
بان محمداً رسول الله. ففكرة الاله الواحد كانت معروفة ومقبولة حتى عند
الوثنيين منهم ككاتب ارفع منزلة واكبر قدرة وان عبدوا الاصنام الى جانبه.
كما كان الله في اساس الديانتين اليهودية والمسيحية. اما ان شخصا هو
رسول الله فذلك يحتاج الى دليل لم يكن ثبت عندهم بعد.

يفستر ما نعيشه الحوار الذي جرى بين النبي وبين سهيل بن عمرو
مندوب قريش في مفاوضات الحديبية. فبعدما اتفق الطرفان على الصلح دها

النبي عليا بن ابي طالب وقال له : "اكتب باسم الله الرحمن الرحيم". فقال سهيل : امسك، لا اعرف الرحمن الرحيم بل اكتب "باسمك اللهم" فلي انه اعترف بالله لكنه انكر التعبير الاسلامي المتمثل بلفظ الرحمن الرحيم فقبل النبي. ثم قال لمي : اكتب "هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو" فقال سهيل : "امسك، لو شهدت انك رسول الله لم اقاتلك لكن اكتب اسمك واسم اميك". فقال النبي اكتب "هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ...". (٨٢)

نعود الى رسالة النبي للقبائل ان "استلموا فسلموا" فاذا قبلوا يرسل لهم احد الصحابة يعلمهم ما حفظ من القرآن لان القرآن لم يكن جمع بعد، ويفسر لهم الآيات التي حفظها حسب مفهومه لها لان كتب التفسير لم تصدر الا بعد نحو قرن من الزمن، فهل يا ترى كان مفهوم هؤلاء المبعوثين للآيات وتفسيرهم لها واحداً في اعوام الانتشار ام فسرها كل منهم للقبيلة التي أرسل اليها حسب مفهومه الخاص للآيات التي حفظها. يقول الاستاذ احمد امين في ذلك : لم يكن شائعا في عهد النبي حفظ القرآن جميعه كما شاع بعد لكن الصحابة كانوا يحفظون السورة او جملة آيات". (٨٢)

اما القبائل التي لم تقبل الاسلام لماذا كان مصيرها ؟
يأتينا الجواب من الغزوات التي شنها النبي على القبائل وكانت تسع عشرة غزوة وقيل سبعا وعشرين في اقل من عشر سنوات كما سبق وذكرنا في بداية هذا الفصل. فهل اختلفت هذه الغزوات عن سابقتها ايام الجاهلية. اختلفت في الغاية ولم تختلف في الاسلوب، فقد أصبح الغزو "جهادا" في سبيل نشر الدين، وحظي بشرعية الهية لان الله امر به وحض عليه في القرآن. اما اسلوب الغزو ونتيجته فلم يختلفا. فالذين يقاومون المجاهدين يقتلون او يؤسرون او يفرقون، وقُسي النساء والاولاد ويُسترقون ويُوزعون غنائم على المنتصرين وكذلك مواشي القبيلة ومنازلها كما كان يجري في الجاهلية.

معاملة الأسرى

بعد معركة بدر (٦٢٤) وقع عدد من الأسرى في يد المسلمين. ولم يكن

النبي قد وضع للأسرى نظاماً يكون على مقتضاه قتلهم أو فداؤهم، أو استرقاقهم، لكنه أمر بقتل اثنين من أسرى بدر كانوا يؤذيان المسلمين كثيراً في مكة. وروى أنه أتى بيوم بدر بسبعين أسيراً فاستشار النبي فيهم أصحابه فنصح أبو بكر بأخذ الفدية وقال عمر بقتلهم. وخير الرسول أصحابه فأخذوا الفداء. ثم نزلت الآية : 'ما كان للنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض'. (١٥١) ويفسرهما الإمام البيضاوي بأنها 'أمر للنبي بأن يكسر القتل في الأسرى ويبالغ فيه حتى يذل الكفر ويقل حزبه، ويمزج الإسلام ويستولي أهله. وقد أمر الله بالاختيار ومنع من الاقتداء حين كانت الشوكة للمشركين وقال فريدون حطام الدنيا بأخذكم الفداء والله يريد لكم ثواب الآخرة والله عزيز يغلب أوليائه على أعدائه، وحكيم يعلم ما يليق بكل حال، وخير بينه وبين العفو لما تحولت الحال وصارت الغلبة للمؤمنين. وهذا دليل، يقول البيضاوي أن الأنبياء يجتهدون وقد يخطئون'.

بدأت كفة المسلمين ترجح في الغزوات مع ازدياد عددهم بمن آمن بالاسلام عن عقيدة ومن انضم طمعاً بالغنيمة. فلما أصبحت قوتهم ظاهرة ومتفوقة خصوصاً بعد دخول مكة، سارعت القبائل الباقية الى قبول الاسلام لحماية انفسها من الغزو والمشاركة في الغنيمة من القبائل التي بقيت متمنعة فصارت قوة المسلمين تتكاثر ككرة الثلج حتى عمت شبه الجزيرة.

يقول الاستاذ محمد حسين هيكل : كان في العرب من دخل دين الاسلام رغباً ورهباً، رغباً في منافع الحرب بعد ان أصبحت قبائل العرب كلها لا تثبت امام غزو المسلمين فتسلم، ورهباً من هذه القوة التي أصبحت متفوقة". (١٥٢)

كم من هؤلاء المنضمين فهم عقيدة الاسلام واقتنع بها واعتنقها، وكم منهم ركب موجة النجاح ليحمي نفسه أو ليشترك بالغنيمة؟ هذا ما لا يمكن التاكيد منه. لكن اصرار المقاتلين في غزوة هوازن بأن يوزع النبي الغنيمة عليهم، ثم استهزأهم بنتيجة غزوة تبوك لأنهم لم يحصلوا منها على غنائم مع انها حققت منافع سياسية للاسلام، يدل على ان الغنيمة كانت حافزاً مهماً لنسبة كبيرة منهم، وإن رداء الاسلام كان عند بعض هؤلاء شغافاً.

في هذا الموضوع يتسائل الاستاذ احمد امين : إلى أي حد تآثر

العرب بالاسلام، وهل انمحت تعاليم الجاهلية ونزعاتها بمجرد دخولهم في الاسلام؟ الحق ان الامر ليس كذلك، فقد جاء الاسلام يدعو الى محو التعصب للقبيلة والجنس، والى ان الناس جميعاً سواء، ونزلت آيات عدة في ذلك لكن النزعة العصبية لم تمت وكانت تظهر بقوة حتى بوجود النبي^(ص). ويتأكد ذلك بما حصل بعد وفاة النبي وعُرف "بحروب الردة" حيث ظهر اربعة يدعون للنبوة وينافسون بلاغة القرآن، ورفضت القبائل دفع الزكاة لانها اعتبرتها دليل خضوع ومذلة. وسنفصل ذلك في الكلام عن خلافة ابي بكر. الحقيقة ان الاسلام لم يغير التركيب القبلي للمجتمع العربي الذي بقيت افاقه محدودة بالقبيلة وولائه مقيداً بعصبيتها. كما ان نشؤ سلطة مركزية تقيد من حريته وتفرض عليه واجبات انضباطية كان مناقضاً لطبيعته ولا يقبلها الا مرغماً.

وقد ادرك النبي هذه الصفة في العرب ومع ذلك تمكن في السنة التاسعة للهجرة ان ينتزع من اكثر القبائل قبولاً بالاسلام وموافقة على دفع الزكاة مع ما تعنيه من الخضوع للمدينة عاصمة الاسلام في ذلك الوقت.

• • •

مراجع العمل الثاني النبي في المدينة

- ١ - هيكلم، محمد حسين، حياة محمد، ص ٢٤٥.
- ٢ - ابن هشام، السيرة، ص ٢٦٦.
- ٣ - هيكلم، سبق ذكره، ص ٢٢٢ و ٢٢٤.
- ٤ - ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٢٠٦.
- ٥ - سورة الانفال، ٤١.
- ٦ - ابن هشام، السيرة، ص ٢٠٥.
- ٧ - سورة آل عمران، ١١٦.
- ٨ - ابن هشام، ص ٢٠٥.
- ٩ - هيكلم، سبق ذكره، ص ٢١٢ و ٢١٤.
- ١٠ - ابن الاثير، ج ٢، ص ١٢٢-١٢٦.
- ١١ - هيكلم، سبق ذكره، ص ٢٥٢.
- ١٢ - ابن الاثير، ج ٢، ص ١٥٥.
- ١٣ - المصدر السابق، ج ٢، ص ١٨٩ - ١٩٢.
- ١٤ - هيكلم، سبق ذكره، ص ٢٧٦ و ٢٧٧.
- ١٥ - طه حسين، علي وينوه، ص ١٧.
- ١٦ - هيكلم، سبق ذكره، ص ٤١٨.
- ١٧ - ابن الاثير، ج ٢، ص ١٦١ - ١٦٦.
- ١٨ - المصدر السابق، ج ٢، ص ١٤٥.
- ١٩ - المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥٨.
- ٢٠ - هيكلم، سبق ذكره، ص ٤٨٦.
- ٢١ - سورة البقرة، ٦١، وسورة المائدة، ٦٨.
- ٢٢ - سورة آل عمران، ١٦٨.
- ٢٣ - سورة البقرة، ٨٦.
- ٢٤ - سورة المائدة، ٤٥.
- ٢٥ - سورة البقرة، ١٢٥.

٢٦ -	سورة النحل، ١٢٤.
٢٧ -	سورة العنكبوت، ٤٥.
٢٨ -	سورة آل عمران، ٦٢.
٢٩ -	سورة آل عمران، ٦٩ و ٧٠.
٣٠ -	سورة آل عمران، ١٠٩.
٣١ -	سورة المائدة، ٤٧.
٣٢ -	سورة آل عمران، ٢٧.
٣٣ -	سورة النعام، ٤٧.
٣٤ -	سورة التوبة، ٢٨.
٣٥ -	سورة البقرة، ١١٩.
٣٦ -	سورة آل عمران، ٨١.
٣٧ -	سورة الأنفال، ٦٤.
٣٨ -	سورة التوبة، ٤٤.
٣٩ -	سورة الأنفال، ٢٨.
٤٠ -	سورة التوبة، ٧٢.
٤١ -	سورة التوبة، ١٢٢.
٤٢ -	هيكل سبق ذكره، ص ١٢٤.
٤٣ -	المصدر السابق، ص ٢٢٦ و ٢٢٧.
٤٤ -	سورة البقرة، ٤٧ و ١٢١.
٤٥ -	سورة البقرة، ٥٢.
٤٦ -	سورة البقرة، ٨٦.
٤٧ -	سورة المائدة، ٨١.
٤٨ -	سورة المائدة، ٦٢.
٤٩ -	سورة البقرة، ٦٠.
٥٠ -	ابن الاثير، ج ٢، ص ٩٦ و ٩٧.
٥١ -	المصدر السابق، ج ٢، ص ١١٩.
٥٢ -	ابن هشام، السيرة، ص ٢٩٩، وابن الاثير، ج ٢، ص ١٢٧.
٥٣ -	هيكل، سبق ذكره، ص ٢٨٦ - ٢٩٠.

- ٥٤ - المصدر السابق، ص ٢٩٠ - ٢٩١.
- ٥٦ - ابن الاثير، ج ٢، ص ٥١.
- ٥٧ - سورة آل عمران، ٤٤ - ٤٧ وسورة مريم ١٥ - ٢٢.
- ٥٨ - سورة آل عمران، ٥٤.
- ٥٩ - سورة المائدة، ٨١.
- ٦٠ - البلاذري، فتوح البلدان، ص ٧٢.
- ٦١ - سورة المائدة، ١٦ و ١٧.
- ٦٢ - سورة المائدة، ٧٢.
- ٦٣ - سورة المائدة، ٧٤.
- ٦٤ - سورة المائدة، ١١٥.
- ٦٥ - سورة التوبة، ٢٢.
- ٦٦ - سورة التوبة، ٢٨.
- ٦٧ - احمد امين، حتى الاسلام، ج ١، ص ٢٢٩.
- ٦٨ - هيكل، سبق ذكره، ص ١٧٢.
- ٦٩ - سورة التوبة، ٩٦.
- ٧٠ - سورة الذهب، ١ - ٥.
- ٧١ - هنري لامانس، الثلاثية، ص ١٢١ (بالفرنسية).
- ٧٢ - المصدر السابق، ص ١٢١.
- ٧٣ - المصدر السابق، ص ١١٥ - ١١٦.
- ٧٤ - المصدر السابق، ص ١١٧.
- ٧٥ - سورة المائدة، ٢.
- ٧٦ - هيكل، سبق ذكره، ص ٤٩١.
- ٧٧ - المصدر السابق، ص ٤٩٤.
- ٧٨ - هنري لامانس، الثلاثية، ص ١٢١ (بالفرنسية).
- ٧٩ - هيكل، سبق ذكره، ص ٥٠١.
- ٨٠ - ابن الاثير، ج ٢، ص ٢١٧.
- ٨١ - سورة الحجرات، ١٢.
- ٨٢ - هيكل، سبق ذكره، ص ٢٧٤.

- ٨٢ - احمد امين، فجر الاسلام، ج ١، ص ٢٣٦.
- ٨٤ - سورة الانفال، ٦٦.
- ٨٥ - هيكل، سبق ذكره، ص ٤٥٧.
- ٨٦ - احمد امين، فجر الاسلام، ج ١، ص ٩٤.

• • •

الفصل الثالث

الاسلام : منابع الدين ومباديء الحكم

منابع الدين

إن الاستسلام الكامل لشئنة الله ولأرادته هو العقيدة الاساسية في الاسلام وقد اجمع الفقهاء على أن منابع الدين الاسلامي هي القرآن، والسنة، وسيرة السلف الصالح. فالقرآن هو أساس الاسلام ودعامته، أما السنة فهي مبينة الكتاب وشارحته، وأما سيرة السلف الصالح فهم منغذروا امره والآخذون بتعاليمه، وهم المثل العملية لهذه الاوامر والتعاليم. (١١)

القرآن

إن القرآن بنظر المسلمين هو كلمة الله محفوظ في السماء و"إنه في أم الكتاب". (١٢) بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ. (١٣) والآيات هي كلام الله مباشرة وليست كلام محمد، ولم يكن النبي الا واسطة لنقل كلام الله الى الناس، وبما انها كلام الله فلا يجوز تغيير حرف او حركة فيها.

وقد نزلت الآيات على النبي متفرقة في نحو ثلاث وعشرين سنة، منها ثلاث عشرة سنة في مكة نزل فيها ثلثا القرآن، ونحو عشر سنوات في المدينة نزل فيها الثلث الباقي. وفي القرآن ١١٤ سورة ونحو ستة آلاف آية ليس منها ما يتعلق بالاحكام الا نحو عاتين او اقل التي التي تتعلق بالتشريع في الامور المدنية والجنائية والاحوال الشخصية واكثرها وارد في سورة البقرة، والنساء، والمائدة. (١٤)

نزلت الآيات باللغة العربية. "أنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون". (١٥)

و"هذا لسان عربي مبين" ١١٠، وكان واسطة التنزيل "الروح" و"الروح القدس" و"جبريل". "وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين بلسان عربي مبين" ١٧١، "قل نزل به الروح القدس من ربك بالحق" ١٨١ وورد ذكر جبريل كناقل للآيات في سورة البقرة، آية ٩٦ و ١٧٧، وفي سورة التحريم، آية ٢. يقول الاستاذ احمد امين: "ان نزول القرآن بلغة العرب لا يعني ان العرب كلهم استطاعوا ان يفهموه في مفرداته وتراكيبه ومعانيه. حتى ان الفاظ القرآن نفسها لم يكن العرب كلهم يفهمون معناها. وهم، اذا فهموا الالفاظ، فان ادراك المعاني العميقة للآيات كان يحتاج الى فهم وثقافة ربما تجاوز مقدرة العديد من الصحابة الذين سمعوا الرسول يتلو الآيات. روي عن انس بن مالك ان رجلا سأل الخليفة عمر بن الخطاب عن الآية "وفاكهة وابنا"، ما الأب؟ فقال عمر: "نهينا عن التكلف والتعمق". انما كان كثير من الصحابة يكتفون بالمعنى الاجمالي للآية، فيكتفون من الآية "وفاكهة وابنا" بأنه تعداد لنعم الله ولا يلزمون انفسهم بتفهم معاني الآيات تفصيلا، وفوق ذلك ففي القرآن آيات كثيرة لا يكفي لفهمها معرفة الفاظ اللغة العربية واساليبها مثلا: "والعاديات ضبحا" "والذاريات ذروا"، وما المراد بالليالي المشر في الآية "والفجر وليال عشر، وما المراد بليلة القدر؟" ١١٩.

جمع القرآن

كان النبي يتلو الآيات حين نزلها فيحفظ بعضها عدد من الصحابة ويدون بعضها اخرون على الحجر وسعف النخل ورق الشجر والجلد والعظام. لكن الذين كتبوا الوحي لم يكونوا مهرة في الكتابة ولا كانت كتابتهم سائرة على نمط واحد ولا خاضعة لقوانين الاملاء التي لم تكن وضعت بعد، فضلا عن ان التنقيط والتشكيل لم يكونا معروفين فجاء قرآن عثمان غير منقط ولا مشكل.

وكان الصحابة الذين حفظوا القرآن ودوتوا آيات منه ينتسبون الى قبائل عربية ذات لهجات وكتابات مختلفة فبعضها مثلا كان يلفظ الكلمة ويكتبها بشكل يخالف لهجات اخرى كان يكتب التاء الطويلة والالف الطويلة في آخر الكلمة بينما كان اخرون يستعملون التاء القصيرة والالف المقصورة.

وكان بعضهم يلفظ ويكتب الواو بدل الالف. ونرى الالف الطويلة ساقطة في
اواسط الكلمات في كثير من اللهجات كما في سورة الحِجْرِ وغيرها من السُور.
وقد قُتل في حروب الردة كثير من حفظة القرآن وخاف البعض عليه
من الضياع فكلف ابو بكر زيدا بن ثابت كبير كتاب النبي ان يجمع الآيات.
وتَمَّ الجمع خلال سنتين او ثلاث من وفاة النبي وحُفظ الكتاب عند حفصة
بنت عمر ابن الخطاب زوجة النبي.

مع الفتوحات الكثيرة في عهد عمر وعثمان استقبل الاسلام شعوبا
مختلفة اللسان وكثرت اللهجات التي يُقرأ بها القرآن وظهرت الحاجة الى
توحيدها فاحضر الخليفة عثمان بن عفان نسخة القرآن التي عند حفصة
زوجة النبي وعرض القراءات المختلفة وعيّن زيدا بن ثابت سنة ٦٥١ يعاونه
عبد الله بن الزبير وسميد بن العاص وعبد الرحمن ابن الحارث لمتدوين
الآيات والسُور وترتيبها، ولوصاهم اذا اختلفوا في شيء ان يكتبوه بلغة
قريش.

بعدما انتهى الجمع أرسلت نسخ من هذا المصحف الى جميع الامصار
وسُحبت النسخ السابقة وأُحرقت وبقي المصحف الحالي الذي يعرف باسم
مصحف عثمان.

لكن مصحف عثمان لم يكن منقُطاً ولا مشكّلاً. كما بقيت للقبائل تتلوها
بلهجاتها التي تختلف كثيراً عن بعضها البعض. ودام هذا الوضع الى ان
كتب النص القرآني سنة ٩٢٢ في عهد الخليفة العباسي القاهر علي بن
الوزيرين ابن مقله وابن عيسى بمساعدة العلامة ابن مجاهد الذي اجاز سبع
قراءات فقط (١-٦)، (راجع باب "اللغة العربية" وموضوع "التصحيح" في الفصل
السادس).

خلال هذه الفترة الطويلة اشتدت النزاعات بين المسلمين وظهرت فرق
دينية وسياسية كثيرة. وينقل الاستاذ محمد حسين هيكل ادعاء بعض
المستشرقين بان القرآن خُرف وُدِّل في ذلك الزمن لخدمة اغراض سياسية
ودينية ومآرب اخرى كما حصل بانتحال الحديث.

من جهتهم، يدّعي الشيعة ان الذين جمعوا قرآن عثمان افسلوا
متعمدين الآيات التي تركي عليا بن ابي طالب. كما انهم يفسرون معاني

بعض الآيات بما يختلف عن تفسير السِّنة لها.

ترتيب السُّور والآيات

ترتيب الآيات والسُّور على شكل غير مألوف، فهي لم تُرتَّب حسب تاريخ نزولها ولا حسب موضوعها إذ نجد كثيراً من السُّور تحتوي على آيات تبحث في مواضيع مختلفة لا رابط بينها. ولا يبدو أن زيدا ابن ثابت وصحبه تبعوا نهجا معينا في ترتيب موضع الآيات "لذلك لا ترى الآيات القانونية مثلا قد جمعت في موضع واحد، ولا الآيات المتعلقة بموضوع واحد في مقام واحد أو مقامين الا نادرا".^(١١)

أما بالنسبة لترتيب السُّور فكان أسلوب الذين جمعوا القرآن ضربيا. رتبوا السُّور حسب طولها. فأطول السُّور في أول الكتاب، وأقصرها في آخره. وبما أن السُّور المكية نزلت بطبيعة الحال قبل السُّور المدنية، وهي في الغالب أقصر، فإنهم وضعوها في آخر المصحف بعد السُّور المدنية بحيث إذا أردت أن تقرأ القرآن مبتدأ بالسُّور التي نزلت أولا وجب أن تبدأ بقراءته من آخره متدرجا إلى أوله.

إن نصوص الآيات هي تنزيل الهي باعتقاد المسلمين، لكن ترتيب السُّور والآيات كان من عمل البشر لا يتمتع بـ"هبة قدسية دينية"، ولا تذكر كتب السير أن الوحي نزل على أعضاء اللجنة التي عينها الخليفة عثمان بن عفان لجمع المصحف وترتيبه على الشكل الحالي. فما الذي يفسر إذاً أحجام العلماء والفقهاء المسلمين طيلة أربعة عشر قرنا من إعادة النظر بعمل زيد بن ثابت ولجنته وأقباع طريقة علمية ومنطقية في ترتيب المصحف إنما حسب التسلسل التاريخي أو حسب المواضيع، أو بالأسلوبين معاً. أغلب الظن أن التقليد والتمسك بالتقديم وإعطائه صفة شبه قدسية هو الذي منع المسلمين من معالجة هذا الموضوع الهام.

يتضمن القرآن آيات منسوخة أي أنه تأتي آية تلغي آية سابقة، ولا يوجد اتفاق على عدد الآيات المنسوخة إذ يتراوح العدد لدى المفسرين من قليل إلى كثير.

وقد حاول عدد من المستشرقين ترتيب سُور القرآن حسب تاريخ

نزولها منهم نولدكة وغريم وهيرشفيلد وروودويل، وآخرهم ريتشارد بل الذي ترجم القرآن الى الانكليزية. ولا نرى اهتماما مماثلا لدى العلماء المسلمين، وهم أجدر بذلك، لكننا نفوا كثيرا من الانتقاد اذا بحث غير المسلمين شئوننا اسلامية تجنبها العلماء ورفضوا الخوض فيها.

الحديث

يقول الاستاذ احمد امين : 'يراد بالحديث او السنة ما ورد عن الرسول من قول او فعل او تقرير. وبعد عصر الرسول ضُمَّ الى الحديث ما ورد عن الصحابة، فالصحابة كانوا يماشرون النبي ويسمعون اقواله، ويشاهدون عمله ويحدثون بما رأوا وما سمعوا فكان من الاخبار عن الرسول وصحابته 'الحديث'. (١٢)

ولم يكن للصحابة كلهم في مستوى واحد، فقد كانوا ينتقدون بعضهم بعضا وينزلون بعضا منزلة اسمى من بعض. (١٣) واختلف الصحابة في الحديث من الرسول كثرة وقلة. كان اكثرهم حديثا ابو هريرة، وعائشة، وعبد الله ابن عمر، وعبد الله ابن العباس، وأنس بن مالك، وجابر ابن عبد الله.

يُنسب الى ابي هريرة ٥٢٤٧ حديثاً، ولعائشة ٢٢١٠، ولعبد الله بن عمر وأنس بن مالك ما يقارب حديث عائشة، ولكل من جابر بن عبد الله وعبد الله ابن العباس أزيد من ١٥٠٠ حديث، ولعمر بن الخطاب ٥٢٧ حديثاً، اي ما مجموعه نحو خمسة عشر الف حديث منسوب الى من كانوا اقرب الناس الى النبي، ومن الغريب انه لا يُنسب الى فاطمة ابنة النبي اي حديث عن والدها وهي الوحيدة من بناته التي عاشت بعده. وكان للحديث قيمة كبرى بعد القرآن فكثير من آيات القرآن جاءت مجملة او مطلقة او عامة فجاء الحديث لبيّنها او قيدها او خصصها.

كان جمع الحديث اساسا لكل العلوم الدينية تفرع عنه التفسير والفقه وتاريخ السيرة النبوية. وكانت هذه العلوم كلها شغوية يتناقلها الناس بعضهم عن بعض بالسماع ولا يُعنى بالتدوين الا افراد قلائل بكتابة يدوية. وكان للحديث اكبر الاثر في نشر الثقافة في العالم الاسلامي في عهد الامويين واولئ عهده العباسيين فقد كانت الحركة العلمية في ذلك الوقت حركة دينية وكان

الحديث أكبر مصادرها وأغزرها مادة فيما يتعلق بالمبادئ والمسائل المدنية والجنائية. فقد اقتصر الناس في ذلك الزمن على الاهتمام بالعلم المتصل بالكتاب والسنة وما عدا ذلك فليست له قيمة. (١٤١)

لم يهتم الخلفاء الأول بتدوين الحديث وجمعه لنقاداً له من الانتحال كما فعلوا بالقرآن فقد مضى نحو قرنين على وفاة النبي قبل أن تظهر الكتب التي جمعت الحديث. وكان أحمد بن حنبل (٧٨٠ - ٨٥٥) أول من عني بجمع الحديث في كتابه "المسند" الذي يحتوي على ثلاثين ألف حديث رتبها ابنه عبد الله حسب أسماء الصحابة الذين روى عنهم.

ثم ظهرت في منتصف القرن التاسع ست مجموعات للحديث تُعتبر موثوقة صُنِّعت فيها الأحاديث حسب مواضعها ودقق مؤلفوها بالروايات ومَحْصُوهَا واختاروا منها ما اعتبروه صحيحاً وهي :

- ١ - كتاب الجامع الصحيح للبخاري (٨١٠ - ٨٧٠).
- ٢ - كتاب صحيح مسلم (٨١٧ - ٨٧٥).
- ٣ - كتاب السنن لابن ماجه (٨٢٤ - ٨٦٦).
- ٤ - كتاب السنن لابي داود (٨١٧ - ٨٨٨).
- ٥ - الجامع الصحيح للترمذي (توفي ٨٩٢).
- ٦ - كتاب السنن للنسائي (٨٢٠ - ٩١٥).

يلاحظ ان هذه المجموعات الست كُتبت في زمن متقارب (ما بين ٨٢٠ - ٩١٥) كأنه تسلط فجأة على الوسط الديني شعور بضرورة وضع حدٍّ للانتحال. ففي القرنين من وفاة الرسول الى صدور هذه الكتب استباح كثيرون لانفسهم وضع الحديث ونسبته كذباً الى النبي. "ويظهر ان ذلك حدث والنبي لا يزال حيّاً". (١٤٥)

اما اسباب وضع الحديث فكثيرة، منها الخصومة السياسية : بين علي وابي بكر، وبين علي ومعاوية، وبين عبد الله ابن الزبير وعبد الملك بن مروان، وبين الامويين والعباسيين، وبين السنة والشيعة والخوارج وغيرهم من الفرق الاسلامية.

ومنذ تولي عثمان بن عفان للخلافة بدأت الخصومة التي كانت بين بني

هاشم وبني أمية قبل الرسالة تظهر من جديد فوضعت احاديث قمرز موقوف كل فريق. فلما قُتل عثمان وقامت الحرب الاهلية بين المسلمين وخاصمت عائشة علينا بسبب حادثة صفوان التي ذكرناها، بدأت الاحاديث المنحولة تكثر. فلما استتب الامر لبني امية جعل الامويون يضعفون ما روي عن علي وفضائله في حين صار اقصار علي يزيدون منها.

ويتصل بهذا النحو احاديث وضعت في تفضيل القبائل العربية وتفضيل العرب على المعجم والروم، فقابلها هؤلاء باحاديث في فضل المعجم والروم والاحباش والترك على العرب. ومثل ذلك في تفضيل كل قوم عصيتهم على عصية غيرهم.

وقامت الخلافات الكلامية والفقهية. فمثلاً اختلف علماء الكلام في القدر أو الجبر أو الاختيار فوضعت احاديث نصرت هذا الاتجاه أو ذاك. وتزلف للناس والشعراء لهوى الخلفاء والامراء فوضعوا لهم الاحاديث التي ترضيهم^{١١٦} وفي الزمن الذي ظهرت فيه مجموعات الحديث كان في التداول بين الناس نحو ستمائة الف حديث.

علم الحديث

وضع العلماء في القرن التاسع قواعد للجرح والتعديل التي تفحص صحة الاحاديث، لكنهم عتوا بنقد الاسناد التي من نقل عن من أكثر مما عتوا بنقد المتن والمحتوى فقل أن تجد نقداً من ناحية ان ما نسب الى النبي لا يتفق والظروف التي قيل فيها الحديث، أو ان الحوادث التاريخية تناقضه.

وزاد في اضطراب الحديث ان اهل السنة يجرحون كثيراً من احاديث الشيعة، ويفعل الشيعة مثلهم في احاديث السنة. وقد اختار البخاري في كتابه نحو سبعة الاف حديث منها ثلاثة الاف مكررة بمعنى انه ثبت لديه اربعة الاف حديث فقط من الستماية الف المتداولة.

واذا تذكرنا ان الاحاديث المنقولة عن اقرب الناس الى النبي كعائشة وابي هريرة وعبد الله ابن عمر وعبد الله ابن العباس بلغت خمسة عشر الف حديث، في حين ان البخاري اقتصر على اربعة الاف من كافة الاحاديث على

اختلاف مصادرها، أدركنا مقدار ما أُنْتُحل على لسان هؤلاء وحدهم، معنى ذلك، أن المسلمين في اقرب الايام والسنين لنشوء الدعوة لم يتخرجوا بالاختلاق على لسان النبي خدمة لافراضهم الدينية والسياسية، ولا يدل هذا على تقوى ذلك المجتمع.

ونلاحظ ان رواية الاحاديث لم ينقلوا شيئا من زوجات النبي هذا عن عائشة، فهل كنّ كلهنّ على درجة من الجهالة بحيث لم تحفظ لاحداهنّ حديثا واحدا من زوجها؟ الأرجح ان الامر لم يكن كذلك، ولعل الرواية تجاهلوهن ابرازا لمكانة عائشة.

وقد روي عن الامام الشافعي قوله انه لم يثبت عن ابن العباس الا نحو مائة حديث، ولم يثبت عن عمر بن الخطاب الا نحو خمسين، اما الامام ابو حنيفة فلم يصح عنده الا سبعة عشر حديثا من الستماية الف حسب قول ابن خلدون. ١١٧١، فاذا صحّ قول هؤلاء الفقهاء فعلى اي اساس اذا قامت تلك العلوم التي يقول الاستاذ احمد امين انها تفرعت عن الحديث؟

امام هذه الشكوك الجسيمة التي تتناول صحة الاحاديث، وامام اهل العلم السابقين تجريحها بالنسبة لمتونها، فما هو مذر العلماء المعاصرين بالامتناع عن ذلك؟

سيرة السلف الصالح

بقي ما يعتبره البعض المنبع الاخير للدين الاسلامي وهو "سيرة السلف الصالح". والسلف الصالح هم صحابة النبي الذين قبلوا الاسلام في حياة الرسول وعاصروه وحاشوه وسمعوا تعاليمه وشاهدوا تصرفاته وعملوا بها ونقلوها الى الناس بعد وفاته. لكنه من الخطا الايحاء بان الصحابة كانوا جماعة مؤتلفة متحابّة ومتعاونة نذرت نفسها لخدمة الدين الجديد وابتعدت عن مطامع الدنيا ورغائبها، فقد برزت الخلافات بينهم حال وفاة الرسول وانقسموا شيعاً واحزاباً تتقاتل، ثم انقسموا صحابة سنية وصحابة شيعية يتعادي افرادها ويتنافرون. وسنرى تفصيل ذلك في الفصل الرابع مما يحمل على التساؤل باي فئة من "السلف الصالح" يريد المسلمون التقليديون المعاصرون ان يقتدوا؟

الشريعة

الشريعة لغةً هي مورد الماء، وهي في الإسلام "ما شرع الله لعباده من السنن والاحكام" وهي مستمدة من النابع الذي ذكرناه. فقد تثبت النص القرآني وبُجُمت الاحاديث الصحيحة ونشأ منها نظام اخلاقي مدني ازلي لانه يعتمد على رحي الهي موجه الى العالم اجمع يتفوق ينظر المسلمين على رسالات الانبياء السابقين. فالشريعة تمر عن الارادة الالهية التي تبين للمسلم والمجتمع الاسلامي الالتزامات الدينية والاخلاقية وطريقة الحياة والسلوك المتوجة عليهم بموجب احكامها.

وكان من الطبيعي مع تطور المجتمع واحتكاكه بالعالم خارج محيط الجزيرة العربية ان تظهر حاجات لم يأت عليها نص في القرآن او الحديث بحيث تعذر على المسلم للعادي ان يدرك ما اراده الله في كل موضوع فكان لا بد لاهل العلم من استخلاص الاحكام وشرحها ليجري العمل بموجبها. وقد عُرف علم استنباط الاحكام الشرعية من القرآن والحديث باسم "الفقه" وهو يعني لغة المعرفة بالشئ، وعُرف الذين يتابعون هذا العلم باسم "الفقهاء" الذين لهم حق "الاجتهاد" اي افعال رايهم واستعمال عقولهم في الاستنباط. وقد استخدم الفقهاء السنة في استنباطهم قواعد "القياس" اي المقارنة مع احكام ونصوص سابقة مشابهة تصلح لاستخلاص حكم ينطبق على حالة جديدة. ومع الزمن، حظيت هذه الاحكام المستنبطة بقبول عام من العلماء فصّرت هذا القبول "اجماعا" اي اجماع اهل العلم على رأي موحد في قضية معينة فاصبح "الاجماع" اصلا رابعا ملزما من اصول الشريعة الى جانب القرآن والحديث والقياس.

كان من الطبيعي ان يحصل اختلاف بين الفقهاء في فهم الآيات واختيار الاحاديث الصحيحة والقياس عليها واستنباط الاحكام منها فظهرت احكام مختلفة في مسائل متشابهة تركزت لدى السنة في اربعة مذاهب منسوبة الى الائمة الذين اجتهدوا وهم ابو حنيفة التيمي ومحمد بن ادريس الشافعي ومالك بن انس واحمد بن حنبل، وتركزت لدى الشيعة الامامية في المذهب الجعفري.

اعتبر التقليديون من المسلمين ان العمل التاريخي في استنباط احكام الشريعة قد انتهى في القرن التاسع عندما تركزت المذاهب الفقهية الاربع وتعززت في القرون اللاحقة بشروح وتعليقات ثبتت اتجاهات هذه المذاهب واعطتها مضمونها وشكلها القائم. ويرى التقليديون ان مبدأ "الاجماع" انحصر باجماع علماء ذلك العصر وبذلك أغلق باب الاجتهاد وتعطل مبدأ القياس "والاجماع" وتجمدت الشريعة عند مجتمع القرن التاسع، في حين يرى التقدميون ضرورة التوسع باعمال الرأي لتطوير المجتمع الاسلامي حسب مقتضيات العصر الحاضر وتوسيع ممارسة الاجماع ومفهومه حتى يتحول الى شورى حقيقية وديمقراطية عصرية.

تختلف الشريعة بالمقارنة مع النظام الحقوقي الغربي، فهي تنظم علاقات المسلم مع الافراد الآخرين، ومع ربه ووجدانه. فالواجبات الدينية كالصلاة والحج والزكاة والصوم هي جزء اساسي من الشريعة. وتعنى الشريعة ايضا بالمباديء الاخلاقية عنايتها بالقوانين اذ تبين للمسلم ما يجوز عمله وما يجب الامتناع عنه في تصرفه الشخصي تجاه ضميمه وتجاه افراد مجتمعه، وتشكل له نهجا اخلاقيا ينظم حياته الخاصة والعامة. فللإسلام اذن صفة اجتماعية، بالاضافة الى الصفة الدينية تعبر عن نفسها بنظام اخلاقي امر الله بنشره مع الدين بواسطة الجهاد. وتختلف الشريعة مع الانظمة الحقوقية الغربية في انها تعبر عن مشيئة الله وليست من صنع المواطنين، ولما كان الوحي قد توقف مع وفاة النبي، فم توقف استنباط الاحكام بتكامل المذاهب السنية الاربعة، فقد أصبحت الشريعة نظاما صارما يصعب ان تستجيب للمتغيرات التي تطرأ على المجتمع بخلاف النظام الحقوقي الغربي الذي ينشأ من ارادة المجتمع ويتبدل مع تطوره.

لم تهتم الشريعة ايضا بقواعد الحكم. فليس فيها تخطيط لنظام الحكم الاسلامي : من يكون خليفة النبي، وكيفية تنصيبه، وما هي صلاحياته، وكيفية مشاركة المسلمين بآدارة شئون الدولة، وما هي الحريات التي يتمتعون بها، وكيف يحمونها من تعدني الخليفة او السلطان، ومن يخلف السلطان القائم، وكيف يتم تنصيبه. جميع هذه الامور الاساسية لقيام امة دولة تجاهلتها الشريعة مما اوقع الخلفاء والفقهاء في حيرة لهم دلائلها ان كل واحد من

ال خلفاء الراشدين، وهم اقرب الناس الى النبي، تولوا الخلافة بشكل مختلف من الآخر. ودامت هذه الحيرة مع ما قنتجه من عدم استقرار سياسي في الدول الاسلامية الى يومنا هذا.

احكام الله الاسلام

لم يترك النبي مجالا للشك بان الله امره بتنفيذ امرين في غاية الاهمية اولهما نشر كلمة الله وشريعته حتى تعم العالم اجمع وتخضع لها البشرية بكاملها، بالموعظة الحسنة ان امكن والا بالفتح والقوة.

والامر الثاني، تطبيق الشريعة في المجتمعات الاسلامية وفي البلاد المفتوحة وحمل الناس على الخضوع لها. ربما ان مشيئة الله واضحة في نشر الاسلام فان اية مقاومة لمشيئته هي تجديف وكفر وعمل ضد الله يجب التغلب عليها بكل وسيلة حتى تتم عالمية الاسلام. ومعنى ذلك بتعبير الاستاذ سيد قطب، احد كبار السلفيين في مصر، نزع السلطان الذي يمارسه البشر وردّه كله الى الله. فلا حاكمية الا لله، ولا شريعة الا منه، ولا سلطان لاحد على احد لان السلطان كله لله. (١٨١)

فسر سيد قطب ذلك بقوله ان الاسلام يقوم على اساس ان الله هو وحده الذي يشرع في حين ان سائر الانظمة غير الاسلامية تقوم على اساس ان الحاكمية للانسان فهو يشرع لنفسه، وهما قاعدتان لا تلتقيان. (١٩١)

ويقول الاستاذ حسن البنا مرشد الاخوان المسلمين : ان القرآن الكريم يقيم المسلمين اوصياء على البشرية القاصرة ويعطيهم حق الهيمنة والسيادة على الدنيا لخدمة هذه الوصاية النبيلة. فمهمتنا ان نرشد الانسانية كلها الى نظم الاسلام الصالحة وتعاليمه التي لا يمكن تغييرها ان يسعد الناس. وقد امر الله المسلمين ان يعصوا الدعوة بين الناس بالحجة والبرهان، فان ابوا وتمردوا فيالسيف والسنان. (٢٠١)

ويقول الاستاذ سعيد حوى من الكتاب السلفيين في سوريا ان الاهداف الاسلامية هي اقامة دولة الله وفرض كلمة الله على العالم. اما الفكر الغربي القائم على حرية الانسان وعلى تحقيق رغبات الاكثورية لأي نظام الديمقراطية، فخطأيء في اصل التصور لطبيعة الانسان. فالانسان هبئ لله وليس حراً،

واهواء الاكثرية لا يصح اعتمادها، فحرية الانسان وقرار الاكثرية لا يدان
تقييده شريعة الله وتضبطها حدوده. (٢١١)

وقد استمد هؤلاء الكتاب السلفيون المعاصرون وغيرهم آراءهم من آيات
قرآنية واحاديث نورد بعضها :

'شهد الله والملائكة واولوا العلم... قاننا بالقسط...' ان الدين عند الله
الاسلام. (٢٢١) تفسيرها : شهد الله والملائكة واولوا المعرفة بالايمان مقيمين
للعادل، ان لا دين مرضي منه عند الله سوى الاسلام. (٢٢٢)
والآية : ومن يستغ غير الاسلام ديننا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من
الخاسرين. (٢٢٣)

والآية : 'اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم
الاسلام ديناً'. (٢٢٤) ويشتد ان هذه كانت اخر آية انزلت على النبي.

والآية : 'وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله'. (٢٢٥)
تفسيرها : قاتلوهم حتى لا يبقى فيهم شرك وتزول عنهم الاديان الباطلة (٢٢٦)
والآية : 'يا ايها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم'. (٢٢٧)

والآية : 'الفتنة اشد من القتل' (٢٢٨) 'والفتنة اكبر من القتل'. (٢٢٩) وقد
فسر ابن تيمية ذلك بان الله اباح من قتل النفوس ما يحتاج اليه في صلاح
الخلق، اي ان القتل وان كان فيه شر وفساد، ففي فتنة الكفار (اي مسعى
الكفار لمنع انتشار الاسلام او لتحويل المسلم من دينه) من الشر والفساد ما
هو اكبر واشد من القتل، لهذا اوجبت الشريعة قتل الكفار المقاتلين. (٢٣٠)

فسر الدكتور محمد حسين هيكل 'الفتنة اشد من القتل' انها توجه
الى من يحاولون ثني المسلم عن دينه ويمنعون حرية الدعوة الى الاسلام،
هؤلاء يجب قتالهم حتى يُنصر دين الله. (٢٣١)

وجاء في الحديث : 'أمرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله الا
الله وان محمداً رسول الله فاذا قالوها فقد عصموا (اي صانوا وحفظوا) مني
دمانهم واموالهم'. (٢٣٢)

لقد افتتح المسلمون على مدى العصور بالعالمية والشمولية للاسلام لذلك
فان الدولة الاسلامية في مسماها المستديم والملح للسيطرة على بلاد وشعوب
جديدة لم تقيّد نفسها يوماً بالانتساب الى بلد او الى شعب او الى بقعة

جغرافية لادها عالمية. وكان انتشارها دائما الى سلالة حاكمة مثل حكم الراشدين او الامويين، او العباسيين، او الفاطميين، او الايوبيين، او العثمانيين، الخ حيث كانت كل سلالة تسمى لحكم جميع المسلمين رمت هذا الحكم ما استطاعت الى بلاد واقوام جديدة.

من ناحية اخرى، ادخل الاسلام على نظرية القانون مفهوما جديدا وجعله تشريعا الهيا يشمل امور الدين والدنيا جاء به الوحي فاصبح بذلك نظاما مطلقا غير قابل للتغيير والتبديل الا "بالاجتهاد" الذي رأينا انه تجدد بعد القرن التاسع.

تحقيق اهداف الاسلام بالجهاد

كيف يحقق المسلمون ارادة الله التي تأمر بنشر الاسلام في العالم ؟ الجواب : من طريق الجهاد. قال ابن تيمية : لقد عظم الله امر الجهاد في عامة السور التي أنزلت في المدينة، وذم القارئين له ووصفهم بالتفاني وموضع القلوب، والامر بالجهاد وذكر فضائله في الكتاب والسنة اكثر من ان يحصر حتى قال النبي : "رأس الامر الاسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد". (١٢٤) وقد جعلت الشريعة الجهاد واجبا دينيا على كل مسلم.

معنى الجهاد ان كل من بلغته الدعوة الى دين الله فلم يستجب لها، فانه يجب قتاله "حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله". (٥٥) ، واذا كان اصل القتال المشروع هو الجهاد، ومقصوده ان يكون الدين كله لله، وان تكون كلمة الله هي العليا، فمن منع هذا، اكان فردا او عشيرة او دولة، وجب قتاله. (١٢٦) وفسر الدكتور محمد حسين عيكل الجهاد فقال : "انه حق بل واجب على من يرى غيره يحاول فتنة مسلم عن دينه او يحاول منع انتشار الاسلام ان يقاوم في سبيل الله حتى ينصر دين الله. هذا هو "الجهاد" اي القتال في سبيل حرية الدعوة الى الله ودينه. (١٢٧)

وقال الشيخ حسن البنا مرشد جماعة الاخوان المسلمين في مصر : الجهاد هو الفريضة الماضية الى يوم القيامة وقد فرض الله الجهاد على كل مسلم فريضة لازمة لا مفر منها ورغب فيه اعظم الترغيب واجزل ثواب المجاهدين والشهداء في الدنيا والاخرة. (١٢٨)

وقال ايضاً : من الجهاد في سبيل الله ان تتنكر لمن تنكر لدينه وان تقاطع من عادى الله ورسوله فلا تكون بينه وبينك صلة ولا معاملة ولا مزاكلة ولا مشاركة. (١٢٩)

وقد جاء الامر بالجهاد في آيات واحاديث كثيرة منها :
"كُتِبَ عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون". (١٣٠)
"وقاتلوا في سبيل الله واعلموا ان الله سميع عليم". (١٣١)
"انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا باموالكم وانفسكم في سبيل الله".
"لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتاً بل احياء عند ربهم يُرزقون". (١٣٢)

"فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة. ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل او يُغلب فسوف نؤتيه اجرا عظيماً". (١٣٣)
"ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص". (١٣٤)
"ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون او يُقتلون وعداً عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن". (١٣٥)
يلاحظ في هذه الآيات الاشارة المتكررة الى "سبيل الله". ويتساءل الشيخ محمد حسين فضل الله مرشد حزب الله في لبنان، أين فلتمس سبيل الله؟ فيقول : "جاء في الحديث ان من قاتل لتكون كلمة الله هي الشريفة" هي العليا فهو في سبيل الله". ثم يحدد اهداف القتال بأنها : نشر الايمان من خلال اعتبار أن القوة تجعل الحركة اقوى واسرع، وحماية العقيدة من اعدائها الذين يحاولون منعها من التحرك والانطلاق بوضع الحواجز امامها، وفتنة المسلمين عن دينهم، واضعاف قوة المشركين لئلا يبقى الكفر قوة تمنع الاسلام من متابعة سيره. (١٣٦)

وقد قال الرسول في ا كبار الجهاد : من مات ولم يغزُ فقد مات ميتة جاهلية. ومن جهز غزاه في سبيل الله فقد غزا. ومن كفّل عائلة غازي فقد غزا. ومن لم يغزُ بنفسه ولم يجهز غزاه بالسلاح ولم يكفل عائلة مقاتل ذهب للحرب، اصابه الله بنكبة قبل يوم القيامة.
رفع الاسلام شعار "القرآن او السيف" وقسم للعالم الى "دار الاسلام ودار

الحرب'. في الاولى سلم وفي الثانية حرب متواصلة حتى يعم الاسلام وتدخل البشرية تحت رايته اما باعتناق الدين او كرهايا ذميي. في النظرية الاسلامية لا يمكن للمسلمين ان يكونوا معتدين ولو هاجموا وقتلوا واستعبدوا وسبوا شعوبا اخرى آمنة ما داموا ينفذون امر الله بنشر الاسلام. ويكفي ان يرفض شعب او دولة دعوة الاسلام ويتمسكوا بهديهم ويطقوس عبادتهم حتى ينقلب الرضع فيصبح المدافع عن حرته وبلده وعقيدته هو المعتدي، ويصبح المهاجم هو المعتدي عليه لانه مُنْع من نشر دعوته في بلاد غيره.

الى جانب الحماس الديني لنشر الاسلام في العالم اجمع، لعب الطمع بالغنيمة دورا رئيسيا في الفتوحات وفي اقبال الناس على الجهاد. وقد ادرك الخلفاء من زمان ابي بكر ومن جاء بعده من الخلفاء والسلطين قوة هذا الدافع فذكر البلاذري (١٠٠)، ان ابا بكر اذ رأى توجيه الجيوش الى الشام كتب الى اهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب في نجد والحجاز يستفزهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم فسارع الناس اليه من بين محتسب وطامع واتوا المدينة من كل اوب'.

وذكر البلاذري ايضا ان رستم قائد الفرس ارسل الى سعد بن ابي وقاص يقول له قبل ان يبدأ هجومه على بلاد فارس : 'قد علمت انه لم يحملكم على ما انتم فيه الا ضيق المعاش وشدة الجهد، ونحن نعطيكم ما تشبعون به ونصرفكم ببعض ما تحبون'.

وفي حماسة ابي تمام بيت يعتبر عن دور الغنيمة في الجهاد فيقول مخاطبا المجاهد :

فما جنة الفردوس تبتهي ولكن دحاك الخبز احسبُ والتمرُ

لتواعيد الفتوح : معاملة المخاربين والاسرى والذميين

اما وقد شرحنا الواجب الالهي بنص الشريعة الذي يأمر بنشر الاسلام حتى يعم العالم بالدعوة والاقتناع او بالقوة والاكراه ووسيلة ذلك الجهاد، فان

ذلك يستتبع معرفة القواعد التي تحكم تصرف المسلمين في تنفيذ هذه المباديء، أي قواعد الجهاد والفتح ومعاملة سكان البلاد المغلوبة.

يقول الأستاذ حسن البنا أن المسلمين يدعون الناس إلى إحدى ثلاث : الإسلام أو الجزية أو القتال. (١٨١) ويقول الأستاذ أحمد أمين : تقضي تعاليم الإسلام بأنه إذا أراد المسلمون غزو بلد وجب عليهم أولا أن يدهموا أهله للدخول في الإسلام، فإن أسلموا كانوا هم وسائر المسلمين سواء. وإن لم يُسلموا دعوهم إلى أن يسلموا بلادهم إلى المسلمين يحكموها ويبقوا على دينهم إن شاؤا ويدفعوا الجزية. فإذا قبلوا ذلك كانوا في ذمة المسلمين يحمونهم ويدافعون عنهم ومن أجل هذا يسمون "أهل الذمة"، وإن لم يقبلوا الإسلام ولا الدخول تحت حكمه ودفع الجزية أعلنت عليهم الحرب وقتلوا. ويحلى للمسلمين أن يقتلوا المحاربين ومن يعين على الحرب ومن يحرض عليها. وإن طلب المحاربون صلحا أثناء الحرب فلاعام أن يقبل ذلك أو يرفضه ويتابع القتال حتى الانتصار. وإن لم يكن صلح وانتصر المسلمون وفتحوا البلد فهناك المقاتلون وأسرى الحرب وأهل البلد المفتوح الذين لم يقاتلوا". (١٨٢)

وستبحث الأحكام المتعلقة بهذه النقاط المختلفة.

دعوة السكان إلى الإسلام

في هذا الموضوع يوجد اختلاط بالمفاهيم. فالدعوة إلى الإسلام لم تكن توجه إلى أهل البلاد المغيرة غروها، بل كانت الرسائل تُحضر إلى الملوك والحكام بمعزل عن السكان. وهؤلاء الملوك كانوا يقررون قبول الدعوة أو رفضها. لذلك فإن تحميل السكان نتائج رفض بلوكهم فيه شيء من التجني على العدالة خصوصا أن ذلك يستتبع القتل والسبي ونهب الممتلكات واستعباد الناس.

بالإضافة إلى ذلك بقي هذا الخيار الذي يقدمه الإسلام نظريا لأن جميع البلاد التي فتحها المسلمون كانت في وضع حضاري أرقى من الغزاة العرب ولم يكن من المتوقع أن تقبل بالاستسلام لمقاتلين كان معظمهم في البداية بدوا رجلا.

دعوة السكان للتسليم ودفع الجزية

هذه الدعوة بقيت ايضا في اطار النظريات، فما من شعب يرضى باختياره ان يصبح ذليلا محكوما من شعب غريب يدفع له الجزية الا اذا جوبه بقوة قاهرة. لذلك لم تكن هذه الدعوة، كمايقتها، خيارا حقيقيا للسكان، كما نطن انها لم تكن ما يرقبه المقاتلون المسلمون حقا اذ ان نسبة كبيرة منهم كانت تقاتل في سبيل الغنية التي لا يحصلون عليها الا اذا قاتلوا وانتصروا.

خيار الحرب

بقي الخيار الواقعي الاخير هو خيار الحرب المفروضة على السكان. وقد اوجبت الشريعة قتل الكفار المقاتلين، (١٥٠) ومن يعين على الحرب ويحرض عليها، (١٥١)

اما الذين لم يحاربوا من السكان فللآمام ان يأمر بقتلهم او استعبادهم او تركهم احرارا يدفعون الجزية. وتُقبل الجزية من اهل الكتاب. (١٥٢) يؤكد ذلك الاستاذ احمد امين فيقول : "فيما يتعلق باهل البلد المفتوح فالآمام مخير بين قتلهم او استرقاقهم او تركهم احرارا يدفعون الجزية. فاذا استرقق الاسرى او اهل البلد المفتوح وزعت توزيع الفنائم. فترى من هذا ان الفتح الاسلامي كان يستتبع رقاً وقد اُقيم نظام الاسترقاق في عهد النبي فكان من أسير في الغزوات يجوز استرقاقه. هذا الرقيق يُعدّ مملوكا للسيد كالمتاع له الحق في بيعه وهبته. واذا كان أمة جاز للسيد ان يستمتع بها، ولا يقيد الملك بعداد. واذا ولدت الأمة من سيدها فالولد ابنه وتسمى أم ولد" ولا يجوز للمالك بعدها ان يبيعه او يهبها. واذا مات عنها فهي حرة. وقد بلغ الاسترقاق من الكثرة بحيث انه صار لكل جندي تقريبا عبيد واماء يستخدمهم في حوائجه ويستولد الاماء ان شاء". (١٥٣)

اما اذا طلب المحاربون صلحا اثناء الحرب فللآمام ان يقرر القبول او الرفض، وغالبا ما يرفض لان طلب الصلح دليل على الضعف ويصعب على الآمام ان يفوت على مقاتليه نصرا تتبعه الفنائم.

معاملة الاسرى

بقي وضع اسرى الحرب، هؤلاء نزلت فيهم الآية التي ذكرناها في الفصل الثاني : "ما كان للنبي ان يكون له اسرى حتى يُشخص في الارض. تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم". (٥٤) وقد لصرها الامام البيضاوي بانها امر للنبي بان يُكثر القتل في الاسرى ويبالغ فيه حتى يذل الكفر ويقل حزنه ويعز الاسلام ويستولي اهله.

واذا استرشدنا بتصرف النبي في معاملة الاسرى، نرى انه قبل الفدية، واسترق اخرين، وقتل اسرى اخرين، وافتدى الرجل المحارب بأسير مسلم. ففي يوم بدر قتل عقبة بن معيط وقد جيء به اسيراً، وقتل بني قريظة وقد نزلوا على حكم سعد بن معاذ، واسترق ذراريهم، وفادى بجصاعة من المسلمين اسارى للمشركين الذين أسروا بموقعة بدر. (٥٥)

يلاحظ في هذا الموضوع الخطير، موضوع الفتح ومعاملة المسلمين من الاهالي من مقاتلين واسرى وغير مقاتلين، ان القرار بمصيرهم، بحياتهم وبموتهم، ترك لراي الفقهاء كاهن تيمية وغيره، الى اهواء شخص واحد هو الخليفة او السلطان او الحاكم الذي لا تقيدده نصوص شرعية واضحة. وقد غلب على هؤلاء الفقهاء الاجتهاد بتحبيذ القتل. فالذين يحاربون اوجبت الشرية قتلهم. والذين لم يحاربوا يحل للخليفة ان يأمر بقتلهم او استعبادهم وهو مصير قد يكون اسوأ من القتل.

كما ان التفريق في المعاملة بين الذين قاتلوا والذين لم يقاتلوا يبدو واهياً فالغريقتان معرضتان للقتل والاستعباد. اما الاسرى فيُحبذ قتلهم كمبدأ لكن يمكن للخليفة ان يغتدي بهم مقاتلين مسلمين او يأخذ منهم فدية. وهذا أيضاً عائد لقراره المنفرد.

وقد تطورت معاملة الاسرى مع ضعف الدولة الاسلامية وتفككها فذكر الدكتور صلاح المنجد في مقال بعنوان "هكذا كانت الاسرى تفتدى في تاريخنا" (٥٦) حوادث كثيرة قام فيها للفداء مقام القتل في الغزوات بين المسلمين والروم، وبينهم وبين الصليبيين فقال انه كان يُشجع في الفداء الامور الآتية :

١ - فك الاسرى بالمال. فيفتدى كل أسير مسلم او رومي او افرنجي بمبلغ

يُدفع لإطلاقه يتفق عليه.

٢ - أو يجري تبادل الأسرى، كل أسير مسلم بأسير رومي.

٣ - فإذا زاد عدد الأسرى المتبادلين عند طرف، عما هو عند الطرف الثاني، يفتدى الزائدون بالمال.

نلاحظ أن هذا التطوير الانساني جرى بعدما حصل توازن بين قوة الدولة الاسلامية والدولة البيزنطية، وبين المسلمين والصليبيين، فتطورت النظرية الشرعية بموجب الضرورات، أما الأيحاء بأن هذا التعامل هو الذي سار عليه المسلمون منذ أول فتوحاتهم فهو لا يفسر الأعداد الهائلة من الرقيق رجالا ونساء وأطفالاً التي تدفقت على المسلمين من الفتوحات والتي سجلها المؤرخون المسلمون مما يدل على أن الاسترقاق وليس الغداء كان مصير أكثر المفلولين.

الغنيمة والغني

إن كيفية معاملة سكان البلاد المفتوحة سواء كانوا محاربين أو مدنيين تصبح أكثر وضوحاً إذا عرفنا الأحكام المتعلقة بالاستيلاء على أشخاصهم وأموالهم، فقد شرع الإسلام الغنيمة التي يستولي عليها المسلمون من أعدائهم من مال ومحتاج وسياريا ونظم توزيعها بالآية : "وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ، وَلِذِي الْقُرْبَى، وَلِالْيَتَامَى، وَالْمَسَاكِين، وَابْنِ السَّبِيلِ" (٥٧٢)

يقول ابن تيمية في أصناف الأموال السلطانية أن أصلها في الكتاب والسنة ثلاثة : الغنيمة، والغني، والصدقة. أما الغنيمة الناتجة عن الغزو فهي المال المأخوذ وسميت انقالاً لأنها زيادة في أموال المسلمين. والواجب في المغمم تخميسه ومعنى ذلك أن يُعطى الخمس لبيت المال ليُصرف لليتامى والمساكين وابن السبيل، وأربعة الأقسام تعطى للمقاتلين، للرجال سهم وللإفارس سهمان. (٥٨١)

ويقول الأستاذ سيد قطب في تعدادهِ لوسائل التملك الفردي في الإسلام أن الغزو واحد من تلك الوسائل. "وينشأ عنه ملكية السلب وهو كل ما مع القتل المشترك الذي يقتله مسلم". وفي الحديث "من قتل قتيلاً له عليه بيتة

فستأبه له*، كما تدشأ عن الغزو ملكية الغنيمة. ٥٩١، ويقول أيضا "أن نصوص الاسلام تبيح للفاتحين ان يستأكروا بكامل ما يملك المحاربون الذين يابون الاسلام والجزية ويقاتلون المسلمين". ٥٩١.

بالاضافة الى الغنيمة الناجمة عن الغزو هناك الغنيمة وهو اموال الذين لم يقاتلوا. يقال افاء عليه الخير أي جلبه عليه. وبذلك صارت اموال سكان البلاد المفتوحة خيرا على المسلمين وحللا لهم فتساوت بذلك مع اموال الغنيمة وصار الفرق بين اموال الذين قاتلوا والذين لم يقاتلوا واهيا، ذلك استيلاء بقتال، وهذا مصادرة لاموال المدنيين الذين لم يقاتلوا ولم يشتركوا بالحرب.

يقول الفقهاء : الغنيمة هو ما أخذ من الكفار بغير قتال وسُبي فيها لأن الله افاءه على المسلمين أي رده عليهم من الكفار. ويفسر ابن تيمية هذا الكلام الغامض فيقول : "الاصل ان الله انما خلق الاموال امانة على عباده. فالكافرون به اباح الله انفسهم التي لم يعبدوه بها، وباح اموالهم التي لم يستعينوا بها على عبادته، فاصبحت حقا لعباده المؤمنين كما يُعاد على الرجل ما خُصب من ميراثه". ٥٩٢.

لنتبصر قليلا في معاني الغنيمة والغنيمة وما كان اثر ذلك على الفاتحين وعلى الشعوب المحتلة. فقد شملت الغنيمة المحاربين والاسرى ان لم يُقتلوا، واموالهم الشخصية ونساءهم واولادهم وذرايعهم الذين يصبحون عبيدا ارقاء يوزعون ويتم بذلك القضاء على العائلة كوحدة اجتماعية.

ويحصل الشيء نفسه للذين لم يقاتلوا كما رأينا فينضمون الى الجماعات المنهوية وان اختلفت التسمية، فاولئك يذهبون كغنيمة، وهؤلاء يُنهبون كغنيمة والنتيجة على ما يظهر واحدة.

ومتى تذكرنا ان الاسترقاق اصاب مئات الالوف من العائلات فستتأها ومزق شملها ادركنا مقدار الفكبة الاجتماعية التي انزلتها الفتوحات بالمجتمعات المغلوبة.

يلاحظ ايضا عدم الدقة في استعمال كلمات "الكفر" و"الشرك" وهو امر مهم لان مصر وشمال افريقيا، والاندلس، وبلاد الشام، وبعض العراق كان يقطنه مسيحيون وقلة من اليهود، ويبدو مما قاله ابن تيمية وغيره ان صفة الكفر ربما شملتهم مع ما يتبعها من عواقب. وفي كل الاحوال فان الغنوص

في معاني هذه الكلمات مكن الخلفاء والسلطين والحكام من التلاعب على الالفاظ للاستيلاء على اكثر ما يمكن من اموال السكان.

نتج عن نظام الرق وكثره وسعة انتشاره في جميع الطبقات وفي مختلف الامصار ان سيد البيت العربي استولى جوارى فارسيات او روميات او سوريات او مصريات او بربريات او تركيات او ارمينيات الخ فتعددت الجنسيات في البيت الواحد باختلاف اصول الجوارى فلم يعد البيت بيتا عربيا بل بيتا مختلطا ورب البيت وحده هو العربي.

واذا كان نظام الفتح هذا من حيث القتل والسلب والاسترقاق قد نكب الشعوب المغلوبة، فان اثره في المجتمع الاسلامي لم يكن اقل خطورة وان لم يلتفت اليه المسلمون في بادىء الامر وسنرى ذلك في الفصل السادس.

ربما يرى القارىء فيما ذكرناه عن طريقة تعامل المسلمين مع الشعوب المغلوبة قساسة وعنفا بالغين بالمقارنة مع القوانين التي وضعتها منظمة الامم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية والتي وافق عليها اعضاء المنظمة ومنهم ممثلو الدول ذات الاكثريية الاسلامية، وهي قوانين تنظم معاملة المدنيين غير المحاربين والاسرى وتحميهم من تمسف المنتصرين، وتحرم بعض الاسلحة وغيره.

لكنه من الضروري وضع البحث في سياقه التاريخي، فالممالك التي سبقت الاسلام او عاصره كانت تمارس اساليب ماثلة بالعتف والقسوة. ونكتفي بسرد بعض اخبار التوراة مختصرة في هذا الموضوع، وهي ايضا بنظر اليهود اوامر الهية.

كلم الرب موسى قائلا انتقم نعمة بني اسرائيل من المدنيين. فسير موسى الاسرائيليين من كل سبط الغا للحرب فقاتلوا مدينين كما امر الرب موسى وقتلوا كل ذكر. وملوك مدينين واطغالهم وجميع بهائمهم ومواشيهم واثاثهم فغنصوها. وجميع مدنهم مع مساكنهم وقصورهم احرقوها بالنار واخذوا جميع الاسلاب والغناتم من الناس والبهائم... وعادوا بها الى المحلة في صحراء موآب التي على الاردن قرب اريحا فسخط موسى على القادمين من جيش الحرب وقال لهم هل استبقيتم الاناث منهم؟ فالآن اقتلوا كل ذكر من الاطفال وكل امرأة عرفت مضاجعة رجل اقتلوها. اما اناث الاطفال اللواتي لم

يعرفون مضاجعة الرجال فاستيقظوهن لكم". (١٢٠)

"وكان بعد وفاة موسى ان الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلا
قم فاعبر هذا الاردن انت وجميع هؤلاء الشعب الى الارض التي انا معطيها
لبنى اسرائيل. كل مكان تطأه اخامص ارجلكم لكم اعطيته كما قلت لموسى،
من النهرية ولبنان هذا الى النهر الكبير نهر الفرات. جميع ارض الحقيين والى
البحر الكبير في جهة مغارب الشمس تكون لخوكم لا يشبث احد امامكم
طول ايام حياتك". (١٢١)

"عبر الاسرائيليون نهر الاردن وكانت اريحا مغلقة مغلقة في وجه بنى
اسرائيل. فقال الرب ليشوع انظر، اني قد دفعت اريحا وملكها الى يدك.
تطوفون حول المدينة جميع رجال الحرب كل يوم مرة واحدة ستة ايام. وفي
اليوم السابع تطوفون حول المدينة سبع مرات وينفخ الكهنة في الابواق ويهتف
الشعب هتافا شديدا فيسقط سور المدينة في موضعه". وقال يشوع لاسرائيل
لتكن المدينة بكل ما فيها هالكة امام الرب. فاهلكوا جميع ما فيها من رجل
وامرأة وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحصير بحد السيف". (١٢٢)

"وفتح يشوع في ذلك اليوم مدينة مقينة وضربها بحد السيف واهلك
ملكها وكل الانفس التي فيها. ثم اجتاز يشوع وجميع اسرائيل من مقينة الى
لبنة فقتلوا سكانها ودمروها. وفعلوا مثل ذلك ببلدة لاكيش، وبهورام ملك
جازر، وبمدينة مجلون، وبمدينة حبرون، وبلدة ديبير. وضرب يشوع جميع
ارض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وجميع ملوكها لم يبق باقيا بل اهلك
كل نسمة كما امر الرب اله اسرائيل. وضربهم يشوع من قادش برقيع الى
غزة مع جميع اراضي جوشن الى جبعون. واخذ يشوع جميع اولئك الملوك
وارضهم في هجمة واحدة لان الرب اله اسرائيل. كان يحارب عن اسرائيل. (١٢٣)
ولو توسعنا في اخبار حروب الامم التي سبقت الاسلام من بابليين
وآشوريين وحثيين، او التي عاصرت من فرس وبيزنطيين ورومان، لوجدنا
فيهم ايضا قسوة وعنفا واستعبادا للشعوب المغلوبة. لكن ما يميز الوضع
الاسلامي هو ان تلك الممالك زالت وعفا اثرها، كما ان اليهود اقتصر حروبهم
على منطقة جغرافية معينة وفي زمن معين، في حين ان الشريعة الاسلامية ما
زالت سائدة تتحكم بتصرفات المسلمين في هذا العصر والعصور اللاحقة وهي

عالمية بشمولها.

السيادة والحكم

تعني السيادة مقرر السلطة العليا في الدولة. وهذه السلطة في الاسلام لدى السنة هي مشيئة الله ممثلة في الشريعة لا ارادة المواطنين مجتمعين في مجلس تشريعي. والدولة الاسلامية تستمد سيادتها بالنهاية من الله لا من مراقبة المواطنين استنادا الى الآية : "اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وترعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير". (١٦١)

وبما انه من اهداف الاسلام تنفيذ اوامر الشريعة وتطبيق تعاليمها في العبادات والمعاملات وفي صيانة الاخلاق والدفاع عن الامة الاسلامية تجاه اعدائها ونشر الاسلام بواسطة الجهاد، فقد استلزم اكثر الفقهاء ان ذلك كله يستلزم وجود سلطة سياسية وشخص يمارس هذه السلطة.

الخلافة

الخلافة في لسان المسلمين، وترادفها الامامة، هي رئاسة عامة في امور الدين والدنيا نيابة عن النبي. وسُمِّي القائم بذلك خليفة واماماً. فاما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في امته، واما تسميته اماماً فتشبيهاً امام الصلاة في اتباعه والافتداء به. فالخليفة اذن 'ينزل من امته بمنزلة الرسول'. فولايته عامة مطلقة شاملة لجميع الامة الاسلامية، وله وحده الامر والنهي، ويبيده وحده زعم الامة وتدير ما جلّ منها وما صغر، ليس له شريك في ولايته ولا لغيره ولاية على المسلمين الا ولاية مستمدة من مقام الخلافة. فكل ولاية دونه فهي مستمدة منه، وكل وظيفة تحته فهي مندرجة في سلطانه، وكل خطة دينية او دنيوية فهي متفرعة من منصبه "لاشتمال منصب الخلافة على الدين والدنيا". (١٦٢) وليس على الخليفة قيد في سلطانه الا ان يبقى في حدود الشريعة لا يتخطاها. والخلافة عند السنة لا تسبغ على الخليفة صلاحية التشريع.

وبما ان الشريعة تعتبر عن ارادة الله وتشمل جميع نواحي الحياة فقد انتفت الحاجة لتشريعات جديدة واقتصرت صلاحية الخليفة بالشؤون القضائية

والتنفيذية أي إقامة العدل بين الناس وتنفيذ أوامر الشريعة في العبادات والمعاملات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدفاع عن الأمة ونشر الدين. أما معالجة الإرضاع المستجدة في مجتمع سريع التطور فقد أوكلت عملياً لأهل الرأي، إذا اجتمعوا على فكر واحد وهو ما يدعونه اختصاراً "الاجماع" فلهؤلاء وحدهم حق استنباط الأحكام من القرآن والسنة مع ما يعني ذلك من تطويع للشريعة عن طريق التفسير والاجتهاد. وبذلك يكون العلماء قد ساهموا بالتشريع عن طريق غير مباشر، لكن بقيت مشكلة غامضة. فمن هم أهل الرأي، وكيف يمكن التعرف عليهم، وهل كانوا يجتمعون ويتناقشون حتى يتوصلوا إلى رأي موحد، ومن كان يجمعهم وابن في غياب سلطة دينية منظمة، إن هذا الغموض الذي دام طيلة دوام الخلافة السنية ولم يجد له حلاً يُلقي شكوكاً حول احتمال العودة إلى ممارسة الاجتهاد بشكل واسع في هذا العصر.

أما الشيعة فلهم رأي آخر فيمن يتولى الخلافة ويفسر الشريعة. فهم يقولون إن سلطة الرسول انتقلت إلى ابن عمه وصهره علي بن أبي طالب، ثم انحدرت في سلالة الإمام علي من ولد إلى آخر على مدى العصور إلى أن اختفى آخر إمام. لكن الشيعة يختلفون حول الإمام المخفي فبعضهم يقول أنه الإمام الخامس (الزيدية)، وآخرون يقولون أنه السابع (الاسماعيلية)، وأكثرهم يقولون أنه الثاني عشر (الامامية) لكنهم يتفقون جميعاً حول صفات الإمام والمهام الوكولة إليه فيقولون بأن الإمام وحده هو الذي له حق الاجتهاد والتفسير واستنباط الأحكام وأنه معصوم عن الخطأ وسنبحث ذلك مفصلاً في الفصل السادس.

الاسلام دين ودولة

لم يرد في القرآن أو الحديث كلمات "دولة أو حكومة أو سياسة". لكننا إذا سلمنا برأي القائلين أن تطبيق الشريعة يستلزم وجود سلطة سياسية فإن الأمة الإسلامية لا تكتمل برأيهم إلا إذا صارت دولة يتحد فيها الدين مع الحكم.

تستند هذه النظرية إلى أن الشريعة تشمل جميع النشاطات الإنسانية

في مختلف وجوهها فنس الطبيعي ان تهتم بموضوع الحكم في كل مظهره. وبما ان الشريعة الهية وازلية فان الجزء منها الذي يعالج امور الحكم يتحلى بذات الصفات. والدولة بموجب هذا الرأي اداة الهية وجزء اساسي من الترتيب الذي امر به الله لمصلحة البشرية، وواجبها الاول ان تيسر للمسلم ممارسة حياة اسلامية صالحة بموجب القاعدة الاساسية للحياة الاجتماعية والسياسية الاسلامية وهي "الامر بالمعروف والنهي عن المنكر" وهي مسئولية تشارك بها الدولة والفرد.

يقول ابن تيمية في الموضوع : يجب ان يُعرف ان ولاية امر الناس من اعظم واجبات الدين بل لا قيام للدين الا بها. وفي الحديث "اذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا احدهم. ولا يحل لثلاثة يكونون بقالة من الارض الا امروا عليهم احدهم". ولهذا قيل "ان السلطان ظل الله على الارض"، ويقال "ستون سنة من امام جابر اصلح من ليلة بلا سلطان". (١٦٨)

اتفق في هذا الرأي المذهبان السني والشيعة فقال الشيخ حسن البنا مؤسس حركة الاخوان المسلمين في مصر : "ان الاسلام يجعل الحكومة ركنا من اركانه ويعتمد على التنفيذ كما يعتمد على الارشاد. وقديما قال الخليفة عثمان بن عفان : ان الله ليؤزع بالسلطان ما لا يؤزع بالقرآن. وقد جعل النبي الحكم موروثة من مري الاسلام. والحكم معدود في كتبنا الفقهية من العقائد والاصول، لا من الفقهيات والفروع. فالاسلام حكم وتنفيذ، كما هو تشريع وتعليم وقضاء لا يتفكك واحد منهما عن الآخر". (١٦٩)

وافق على هذا القول الامام آية الله روح الله الخميني اذ جاء في وصيته التي نشرت يوم ٥ يونيو (حزيران) ١٩٨٩ : "ان السياسة هي المهمة العظيمة في الاسلام... ففي القرآن الكريم وحديث الرسول محمد... اوامر تتناول الحكم والسياسة اكثر مما يوجد عن اي شيء آخر".

ربما كان ما عناه الشيخ حسن البنا والامام الخميني عندما تكلموا عن الحكم والسياسة ليس اللفظان بذاتهما اللذان لم يردا في القرآن والحديث، بل الاحكام التي تضمنتها الشريعة. وقد اكد اكثر الفقهاء على مدى المصور ان الاسلام "دين ودولة" حتى رسخ ذلك في اذهان العامة ومعناه انه لا يمكن للدولة ان تعمل بمعزل عن الاوامر والشرائع الدينية كما جرى في المجتمعات

الغربية حيث تمّ في أكثرها فصل الدولة عن الدين المسيحي.

ألى جانب هذا الرأي القائل باتحاد الدين والدولة وبوجوب الخلافة ظهر رأي مخالف كان الشيخ علي عبد الرازق أوضح من عبّر عنه في مصر عام ١٩٢٥ فقال : لم نجد في مباحث العلماء الذين زعموا ان اقامة الامامة فرض، من حاول ان يقيم الدليل بآية من القرآن او من الحديث (رغم كثرة الاحاديث)، ومع شدة اهتمام المسلمين بالخلافة كيف نفسّر ان هذين المصدرين لم يتعرضا لشكل الحكومة، وكيفية تنصيب الحاكم، وتسلسل الحكم من خليفة الى من يليه، وكيف يمكن ان يقوم حكم دون مؤسسات تتولى ادارة الدولة وشئون الناس.

ويضيف الشيخ عبد الرازق : كان العصر النبوي خُلُوًّا من مظاهر الحكم واغراض الدولة فلم يكن هنالك ترتيب حكومي، ولم يكن ثمة ولاية ولا قضاة ولا ديوان، الخ.

وقد سبق ان قال الخوارج انه اذا اتفقت الامة على العدل وتنفيذ الشريعة فلا حاجة الى خليفة ولا يجب نصبه، وقال بذلك ايضا حاتم الاصم وفريقه من المعتزلة وغيرهم. وهكذا نرى انه مع اهمال القرآن والسنة النبوية الاشارة الى الخلافة وذكرها، فان الاجماع ايضا لم ينعقد عليها، واذا رجعنا الى الواقع والتاريخ وجدنا ان الخلافة في الاسلام لم تركز الا على اساس القوة الرهيبة، وان تلك القوة كانت على الغالب قوة مادية مسلحة. واذا ترددنا بالقول ان الثلاثة الاول من الخلفاء تهلّوا بالخلافة بالقوة والقهر فان علينا معاوية لم يتبوّعا عرش الخلافة الا تحت ظلال السيوف، وكذلك الخلفاء من بعد الى يومنا هذا والحقيقة ان الخلافة كانت ولم تزل نكبة على الاسلام والمسلمين، ويمتدح شرّ وفساد. (انتهى كلام الشيخ عبد الرازق) (٧٠)

جاء الدكتور طه حسين يزيد فكرة لا تختلف كثيرا عن فكرة الشيخ علي عبد الرازق فقال ان القرآن لم ينظّم امور السياسة تنظيما مبعلا او مفصلا، وانما امر بالعدل والاحسان ورسم للمسلمين حدودا عامة ثم ترك لهم تدبير امورهم كما يحبون على الا يتمدوا هذه الحدود. والنبى نفسه لم يرسم نظاما معيناً للحكم ولا للسياسة، ولم يستخلف على المسلمين احدا من اصحابه

بعهد مكتوب او غير مكتوب حين ثقل عليه الرض، ولو كان للمسلمين نظام سياسي مُنزل من السماء لرسمه القرآن ولبيّن الرسول اصوله، ولغرض على المسلمين الايمان والاذعان له.

ويتابع الدكتور طه حسين قائلا : واذا عدنا الى عهد الرسول لا نجد انه دعى الى انشاء حكومة اسلامية وانما كانت دعوته دينية خالصة. كذلك لا نجد في عهده وعهد الخلفاء الراشدين ادارة منظمة وميزانية لحكومة الامة الاسلامية. وهل يمكن ان تقوم دولة دون ادارة وميزانية.

ويستغرب الشيخ علي عبد الرازق اجتماع العلماء المسلمين عن البحوث السياسية فيقول : من الملاحظ البين في تاريخ الحركة العلمية عند المسلمين ان حظ العلوم السياسية فيها كان اسوأ حظ فلسفا نعرف لهم في السياسة كتابا الفقه او ترجموه، ولا نعرف لهم بحثا في شيء من أنظمة الحكم او اصول السياسة. فما لهم اهتموا النظر في كتاب "الجمهورية" لافلاطون وكتاب "السياسة" لارسطو وهم الذين بلغ اعجابههم يارسطو ان لقبوه "المعلم الاول"، وكانت هذه الكتب متاحة لهم. وما لهم رضوا ان يتركوا المسلمين في جهالة مطبقة بمبادئ السياسة وانواع الحكومات عند اليونان وهم الذين ارضوا ان ينهجوا بالمسلمين مناهج السريان في علم النحو. ١٦١

لقد عرف اليونان من ايام سقراط (توفي ٢٦٦ ق م) وما قبله انواعا مختلفة للحكم منها الحكم الاستبدادي، والحكم الارستقراطي، والحكم الديمقراطي، وناقشوا فيها وبينوا محاسن كل منها ومساوئه لكننا لا نجد شيئا من هذا في ابحاث العلماء المسلمين. ولعل تفسير ذلك ان علم السياسة اخطر علم على الخلفاء والحكام المتعسفين لان البحث بعلم السياسة يفتح الازهار على بدائل للحكم المطلق الذي ساد عصور الخلافة، ويشير المعارضة لها، ويدل على حقوق المواطنين ويبين كيفية صيانتها.

الخلاصة، ان لا نص الشريعة ولا السنة دعى افراد المجتمع الى مشاركة فعلية بالمسؤولية السياسية في المجتمعات الاسلامية حتى ان كثيرا من العلماء ترددوا بالاشتراك في امور الحكم العملية. لذلك اصبحت كل سلطة مدنية او سياسية في النظام الاسلامي تستمد شرعيتها نظريا وعمليا من الخليفة او السلطان او الحاكم وتكون خاضعة لمشيئته. اما اهتمام الجماعة الاسلامية

فانصرف الى الالتزام بالواجبات الدينية والاخلاقية التي تتضمنها الشريعة لا الى هيكلية الحكم. وكان من نتيجة هذا المنحى ان الخلفاء والسلطين مارسوا سلطة شخصية مطلقة في كل الامور التي لا تخالف الدين فكان لهم ان يحكموا بالموت، ويصادروا الاموال الخاصة، ويتصرفوا باموال الدولة، ويعينوا ويعزلوا الموظفين، ويعلنوا الحرب، ليس عليهم رقيب او رادع ما داموا لا يتصدون للمساائل الدينية.

اسلوب الحكم

يبدو لنا ان الاسلام السنّي مارس اسلوبين للحكم هما : اسلوب الاستخلاف او وراثة الحكم ضمن العائلة الواحدة، ونظرية الحكم بمشيئة الله، وقد تلازمت الاثنتان على مدى عصور طويلة. وناقش المسلمون نظرية ثالثة هي نظرية الشورى. وقد وضع الحكام المسلمون اسلوب الاستخلاف والحكم بمشيئة الله موضع التطبيق العملي في حين بقيت الشورى مجرد نظرية.

نظرية وراثة الحكم

قال بنظرية الوراثية بنو هاشم وعلى رأسهم الامام علي بن ابي طالب وهي تقوم على اساس ان ادنى الناس الى النبي بقرابة الدم (آل البيت) هم احق الناس بخلافته. وما زالت هذه النظرية تشكل الاساس الديني للمذهب الشيعي. وقد رأينا ان ابا بكر عارضها بقوة منذ وفاة النبي لما اطلق الشعار القائل : "لا تجتمع النبوة والخلافة في بيت واحد" ثم تولى هو الخلافة وحجبه عن بني هاشم وفعل مثله عمر بن الخطاب.

تختلف نظرية الوراثية هذه عما نراه في الدول الملكية الغربية. فهناك يتسلسل الحكم شرعا في خط نازل مستقيم من الملك الى ابنه البكر او الى ابنته في بعض الدول اذا لم يوجد وريث ذكر. اما في الاسلام فتكون الوراثية في افراد العائلة الواحدة وليس بالضرورة في ابن الخليفة القائم. فقد يتبوأ الخلافة او الحكم الابن او الاخ او ابن العم اذا استطاع والمهم ان تبقى الخلافة في العائلة. هكذا كان الامر في السلالة الاموية في المشرق وفي الاندلس. والامويون من اقرباء الرسول لكنهم ابعد عنه من الهاشميين. وجرى مثل ذلك في

السلالة العباسية المنتسبة الى العباس عم النبي، التتطد الخلافة بعد ذلك العثمانيون وهم الراك لا يستون الى النبي بقراءة فرضي بخلافتهم معظم السنة وانكروها الشيعة.

في جميع هذه المهور بقي الحكم محصورا في السلالة المسيطرة ينوارث افرادها ويتقاتلون عليه احيانا كثيرة لكنهم يمتون عن السلالات الاخرى ما استطاعوا.

وحاليا، يتوارث آل سعود الحكم، وهم سلفيون ومن الدول القليلة التي تطبق احكام الشريعة، ولا يرون في التوارث ما يناقض تعاليم الاسلام ومبادئه.

نظرية الحكم بمشيئة الله

الى جانب هذه النظرية نجد تيارا فكريا واضحا ومتصلا لدى المسلمين يتلزم احيانا كثيرة مع نظرية الوراثة ويقول ان الخليفة يستمد سلطته من الله. كان اول من عبّر عن ذلك بصورة واضحة الخليفة الثالث عثمان بن عفان لما طالبه الثوار بخلع نفسه عن الخلافة ففضل الموت على ان يتخلي عن امر عهد الله به اليه، ورأى رايه عدد كبير من المسلمين في ذلك الوقت.

وبعد نحو عشر سنوات من مقتل الخليفة علي بن ابي طالب خطب والي الكوفة زياد بن ابيه في المسجد فقال : ايها الناس انا اصبحت لكم ساسة وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي اعطانا ونذود عنكم بقي، الله الذي حولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما احببنا، ولكم فيما العدل فيما وطينا، فاستوجبوا عدلنا وقينا بمناصحتكم لنا.

يقول الشيخ عبد الرازق : لقد شاع الرأي القائل بأن الخليفة يستمد سلطته من الله وتحدث به العلماء والشعراء منذ القرون الاولى فتراهم يذهبون دائما الى ان الله هو الذي يختار الخليفة ويسوق اليه الخلافة.

روجّ الشعراء لهذه النظرية، وهم ادوات الاعلام في ذلك العصر، على نحو ما نرى في القول :

جاء الخلافة او كانت له قدرا كما اتى ربه موسى على قدر

والقول الاخر :

ولقد اراد الله اذ ولاكها من امة اصلحها ورشادها

وقال الفرزدق :

فالأرض ولأها خليفته وصا حب الله فيها غير مغلوب
بعد الفساد الذي قد كان قام به كذاب مكة من مكر ومخريب
ليقصد بكذاب مكة عبد الله ابن الزبير الذي ثار مطالبا بالخلافة
وذهب عبد الملك بن مروان الى الحج عام ٦٩٥ وعهد مكة بثورة عبد
الله ابن الزبير قريب فخطب في الناس قائلا : لست بالخليفة المستضعف
(يعني عثمان) ولا بالخليفة المداهن (يعني معاوية) ولا بالخليفة المافون (يعني
يزيد) ، الا واني لا اداري هذه الامة الا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم . انكم
تطالبوني بتقوى الله وتنسون ذلك في انفسكم . والله من قال لي بعد اليوم
اتق الله ضربت عنقه . (٧٢)

وقال الفرزدق في هشام بن عبد الملك عاشر الخلفاء الامويين :
هشام خيار الله للناس والذي به ينجلي عن كل ارض ظلامها
وانت لهذا الناس بعد نبهم سماء يرجى للمحول غمامها
وحج الخليفة المنصور العباسي (٧٥٤ - ٧٧٥) فخطب في الناس في مكة
مثبتا انه خليفة الله في الارض فقال : ايها الناس ، انما انا سلطان الله في
ارضه ، اسوسكم بتوقيفه وتسديده وتأييده ، وانا حارسه على ماله ، اعمل فيه
بمشيئته وارادته ، واعطيه باذنه . فقد جعلني الله عليه قفلا ان شاء فتحني
لاعطائكم وقسمة ارزاقكم ، وان شاء يفتلني عليها اقفلني . (٧٢١) وسلك المأمون
نقوداً حملت اسمه مع لقب "خليفة الله".

استمر القول بان الخليفة يستمد سلطته من الله متغلبا على مدى
العصور الاسلامية فقال الشاعر ابن هاني الاندلسي في الخليفة الملحق الفاطمي
(٩٥٢ - ٩٧٥) :

ما شئت لا ما شئت الاقدار فاحكم فانت الواحد القهار
انتم احياء الاله وآل خلفاءه في ارضه الابرار
شرفت بك الافاق وانقسمت بك الارزاق والاجال والاعمار
ويختتم الشيخ عبد الرزاق بالقول : وهكذا نرى ان القول باستعداد
الخليفة لسلطانه من الله مذهب جاري على اللسان فاشي بين المسلمين . وقد
بدا به خطاب وشعراء ودعاة وفقهاء هم اقرب ما يكون الى عهد الخلفاء

الراشدين. (٧٤) هذا مع العلم ان الخلفاء الراشدين انفسهم لم يتقيدوا بالشورى كما يصفها بعض الدعاة اليوم.

نظرية الشورى في الحكم

الشورى كمبدأ في الحكم الاسلامي من الامور التي تكلم فيها الفقهاء كثيرا واختلفوا فيها كثيرا حسب ظروف الزمان والمكان الذي وجدوا فيه. وسبب اختلافهم ان القرآن فكل من الشورى في آيتين مقتضيتين تسردان مبدأ عاما لم يرد في الحديث المنقول عن النبي او عن الصحابة ما يكملهما او يفصل اسلوب ممارسة الشورى، كما ان آيا من الخلفاء الراشدين لم يجعل الشورى منهج تصرفه وقاعدة حكمه ليتبعه من خلفه.

لكن ذلك لم يمنع بعض الفقهاء القدامى والمحدثين من محاولة بناء نظام سياسي متكامل للامة الاسلامية استنادا الى هاتين الآيتين وهما : آية وردت في سورة الشورى قصها : 'والذين استجابوا لربهم واقاموا الصلاة وامرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون' (٧٥)

والآية الثانية واردة في سورة آل عمران 'وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله'. (٧٦)

يلاحظ ان ذكر الشورى التي يبني عليها البعض النظام الاسلامي السياسي وردت في ست كلمات هي : 'وامرهم شورى بينهم'، 'وشاورهم في الامر'، ثم غاب موضوع الشورى عن باقي الآيات وعن الحديث والسنة. وقد فسر البيضاوي 'وامرهم شورى بينهم' بان الآية نزلت في الانصار. دعاهم الرسول الى الابعان فاستجابوا واقاموا الصلاة وهم ذو شورى لا ينفردون برأي حتى يتشاوروا ويجمعوا عليه وذلك من فرط تدبرهم ويقظتهم في الامور. وجاء في تفسير الجلالين للآية نفسها 'انها موجهة للذين اجابوا ربه الى ما دعاهم اليه... وامرهم الذي يبدو لهم يتشاورون فيه ولا يعجلون'.

اما الآية الثانية فيقول البيضاوي : 'وشاورهم في الامر اي في امر الحرب اذ الكلام فيه، او فيما يصح ان يُشَرَّ فيه، استظهارا برأيهم وتطبيبا لنفوسهم. فاذا وُطِنَتْ نفسك على شيء بعد الشورى فتوكل على الله في امضاء امرك'. وفي تفسير الجلالين : 'وشاورهم في الامر' اي استخرج اراءهم

في الامور شأنك من الحرب وغيره تطييبا لقلوبهم. فاذا عزمتم على امضاء ما توريد بعد المشاورة فتوكل على الله.

يستفاد من الآية الواردة في السورة الاولى (سورة الشورى) انها لا تتضمن امراً للخليفة او للوالي او للحاكم بالاستماع الى الشورى والتقييد بمضمونها، بل ان الآية تشرح حالة وضعية كان عليها الانصار قبل الاسلام واستمروا عليها بعده من حيث التشاور فيما بينهم على ما يعرض عليهم من الامور.

وكان التشاور امراً مألوفاً في النظام العربي العشائري. فترئيس العشيرة ينتسب عادة الى عائلة مرموقة اكتسبت مكانتها بشجاعة افرادها وحكمتهم وكرمهم، ومن مهمات الرئيس ان يقضي في خلافات الافراد، ويتعاطى مع القبائل الاخرى، ويقرر الوحييل من مرعى الى آخره كما يقرر الفوز والحرب. وهو يستشير كبار العشيرة ورؤساء افخاذها في كل ذلك ولا يُعْضِي شَيْئاً الا بعد الاطلاع على آرائهم. فاذا قرر شيخ العشيرة شَيْئاً بعد المشاورة تبعته القبيلة. وما زالت هذه حالة العشائر الى يومنا هذا.

اتخذت هذه العادة العربية شكلاً منظماً في مكة قبل الاسلام فقد ذكرنا في الفصل الاول ان كبار قريش كانوا يجتمعون في "دار الندوة" ويتشاورون في جميع امور البلد وجاراتها وعلاقاتها بالقبائل وخلافاتها "فلا يُقْضَى امر في قريش الا في الندوة". فليست الشورى اذاً شيئاً جديداً جاء به الاسلام بل نرى ان المسلمين اهتموا عادة الشورى في "الندوة" بعد الدعوة فلم يعد يرد ذكر لها في كتب السيرة والتاريخ.

اما الآية "وشاورهم بالامر" فتثير بعض الاسئلة :

اولاً - ليس من الواضح الى من يتوجه ضمير الغائب في "شاورهم" اي الى من يتوجه طلب المشورة، اي من هم اهل الشورى.

ثانياً - هل طلب المشورة واجب على الحاكم؟

يظهر من تفسير البيضاوي والجلالين ان الامر ليس كذلك لان الامر بالشورى يتبعه "تطيباً لنفوسهم وقلوبهم" وليس لمصلحة عامة.

ثالثاً - هل الحاكم ملزم بالتقييد بالمشورة التي يطلبها او تُعرض عليه؟ بعض الفقهاء يقول بالوجوب، وبعضهم لا يجعلها ملزمة، والجزء الثاني

من الآية : 'فإذا عزمت فتوكل على الله' أي إذا وطنت نفسك على شيء بعد الشورى فتوكل على الله في امضاء امرك وإن كان مخالفا لرأي الناصحين، يذهب الرأي الثاني بأن الشورى غير ملزمة للخليفة أو الحاكم. يؤكد هذا الرأي الشيخ خالد محمد خالد فيقول : 'إن كثيرين من فقهاء الإسلام قدامى ومحدثين، يرون أن الشورى غير ملزمة. الدائلون بالالزام فقهاء والرافضون للالزام فقهاء فما العمل؟'

يستند الدائلون أن الإسلام أمر بالشورى إلى أن الرسول استشار أصحابه في بعض المسائل وقبل رأيهم في مناسبات أخرى، وفعل بعض الخلفاء الراشدين مثل ذلك فاعتسبت 'الشورى' برأيهم شرعية ملزمة. لكن ذلك يمكن أن يخلق التباسا بين 'الشورى' و 'المشورة' وشتان بين الفكرتين. فاستطلاع رأي الناس والاستماع إليهم أو قبول اقتراحاتهم يُسمى 'مشورة'، أما 'الشورى' فهي نظام سياسي متكامل يتضمن القواعد التي تنظم مشاركة المواطنين بالحكم وكيفية مراقبة الحكام ومحاسبتهم، وليس في 'المشورة' شيء من هذا.

لكن لماذا فلتعس الجواب من اجتهاد الفقهاء المختلفين فيما بينهم ولا نستخرجه من تصرفات الخلفاء الراشدين؟

لقد تورط أبو بكر الخلافة بعد اجتماعه لأصحابه بالانصار في سقيفة بني ساعدة بطريقة بعيدة عن الشورى رافقها العنف كما سنرى في الفصل الرابع. فقد وثب عمر بن الخطاب على سعد بن عباد وهو مريض وكاد يقتله لأنه نافس أبا بكر على الخلافة. ثم لما امتنع بنو هاشم وغيرهم عن البيعة لأبي بكر ذهب إليهم عمر وساقهم قسرا.

يقول الدكتور طه حسين في ذلك 'أن أبا بكر لم يهاجم بالخلافة عن مشورة من المسلمين إنما كانت بيعته فلتة رقى الله المسلمين شرها كما قال عمر'، (١٧١).

ناقش الأستاذ علي حسني الخربوطلي الأستاذ في جامعة دمشق خطبة أبي بكر حين بيعته وما تلاها من تصرفات من حيث تطبيق مبدأ الشورى فقال : 'إنها تدل على أن أبا بكر معترف للأمة بسلطة المراقبة على الحكم لكنه لم يولف تلك الهيئة التي تراقب الحاكم، إن هذا الاغفال من الصحابة لامر

لقامة هيئة مراقبة على الحكومة جزأ اسوأ النتائج في عهد الخليفة الثالث حيث تغلب مروان بن الحكم على ارادة عثمان بن عفان فاستبد بنو امية بالناس وتفاقم المخطب حتى انتهى بالفتنة المشهورة ومصرع عثمان. هذا من جهة، ومن جهة اخرى فان خطبة ابي بكر جاءت خالية من ذكر الشورى لان قول ابي بكر : ان اسأت فقومي يذل على انه يحب منهم ان يقوموه متى اساء . والانسان لا يسيء الا بعد ان يبرم العمل وينفذه'.

يتابع الاستاذ خربوطلي فيقول : 'مما يدل على ان هذا الفهم صحيح ان المسلمين انتخبوا ابا بكر وتركوه لنفسه، فان حدث ان استشارهم في شيء ورأى غير رأيهم آثر رأيه على رأيهم ومضى حيث اراد. وكذلك سار عمر وعثمان وعلي، وهذا في رأينا تنازل من الصحابة عن اكبر حق لهم في حكومة دولتهم' . ١٢٨١

ولما ارتدت قبائل عربية كثيرة عن الاسلام ورفضت دفع الزكاة بحد وفاة النبي اراد ابو بكر ان يعيدهم الى الاسلام بالقوة وعارضه الصحابة بمن فيهم عمر بن الخطاب وزيهه ومستشاره. لكن ابا بكر استأثر برأيه فحارب وانحصر ولم يكن ليتنا او رقيقا مع القبائل!

وعندما قاربته الوفاة لم يستشر ابو بكر احدا في خليفته بل قال للمسلمين اني اخترت لكم هذا الرجل (عمر) فاسمعوا واطيعوا، فسمع البعض واطاعوا وعارض كثير من كبار الصحابة فلم يؤنه لهم. ولم يُعرف عن ابي بكر او عمر انهما جمعا حولهما طائفة من الصحابة اصحاب العقل والراجح والرأي السديد يستشيرونهم في امور المسلمين بصورة منتظمة كما اعتادت قريش في 'دار الندوة' في مكة مع انهما كافا مبصرين لتلك الشورى التي سبقت الاسلام.

ولم تكن طريقة اختيار عثمان بن عفان للخلافة شورى مقنعة. فقد اختص عمر بها ستة من قريش لم يشاركه احد باختيارهم وحجب الشورى عن باقي الصحابة ثم رتب الامر بحيث ضمن استبعاد علي بن ابي طالب عن الخلافة.

يقول الاستاذ ظافر القاسمي بموضوع الشورى : 'ليس من الدقة في شيء ان يقال ان حكم ابي بكر وعمر كان حكماً شورياً بالمعنى الدقيق'.

فليس كل المسلمين اختاروا أبا بكر وعمر للخلافة وإنما اختارهما فريق من المسلمين من أهل المدينة ولم يُستشار أهل مكة والطائف والبادية. (٢٠١)
وقد وضع الخليفة العثمان حدا لموضوع الشورى لما أعلن أن الله عهد إليه بالخلافة وإن ليس عليه أن يقدم عن أعماله حصاها سوى لله.
نظرا لفقدان تقليد التعامل بالشورى في عهد الخلفاء الثلاثة لجأ المسلمون إلى الحرب لما اختلفوا حول خلافة علي بن أبي طالب وانقسموا إلى شيعتين متقاتلتين. ولما تابعوا تقليد "دار الندوة" في التشاور لربما أمكنهم تلاقي ما حصل.

نعود إلى السؤال الأول : من هم أهل الشورى؟ كان الجواب سهلا بعد وفاة النبي فهم صحابته من المهاجرين والأنصار لا ينازعهم في ذلك منازع. ولكن ما حال دون ذلك أمران : العصبية العربية التي ظهرت في اقرب الناس إلى النبي ففرقت بين المهاجرين والأنصار كلٌ يريد الخلافة لعشيرته، ثم تصميم بعض قريش على استبعاد الهاشميين من الخلافة. وهكذا ذهب مبدأ الشورى ضحية للعصبية القبلية وللتنافس على السلطة.

في زمن متأخر حاول الفقهاء تلاقي ما قصّر عنه السابقون في تحديد أهل الشورى فاخترعوا عبارة "أهل الحل والعقد" الذين يوكل إليهم اختيار الخليفة أو الحاكم. يقول الاستاذ ظافر القاسمي في ذلك : "أهل الحل والعقد" أو "أهل الاختيار" ترميز دستوري إسلامي ابتكره علماء السياسة الشرعية المسلمون ولم يجد عليه نصا صريحا لا في القرآن ولا في السنة. ويتابع قائلا : بقي نظام أهل الحل والعقد، على الأعم الأغلب، في الحدود النظرية يتناولونه المؤلفون وينقله الخلف عن السلف ولا نرى له مجالا في واقع الحياة الإسلامية السياسية على اختلاف المصور. ولقد بحثتُ عن أصل لهذا النظام فلم أجده أصلا، ولم أهتم كذلك إلى أول من وضع هذا التعبير "أهل والعقد" أو أول من أطلقه أو أول من استعمله، أما نصاب أهل الحل والعقد فقد اختلفوا فيه، فمنهم من قال إن أقله خمسة، ومنهم من قال ثلاثة، ومنهم من قال أنه واحد. وقد بقي هذا النظام غامضا غير واضح، ذلك أن الفقهاء الذين اقترعوه لم يضموا له أي ترميز كان. فنحن لا نعرف المرجع الذي يصنّف الناس ويجعل أحدهم من أهل الحل والعقد، ويحرم آخر من ذلك.

ولا ندرى من هو الذي يعلن ضرورة اجتماع أهل الحل والعقد ولا موعد اجتماعهم ولا مكانه. وبقيني أن بقاء هذا الترتيب في الحدود النظرية هو الذي أبقي هذا الغموض. (انتهى) (٨٠)

وهكذا اخترع الفقهاء فئة من الناس سموهم "أهل الحل والعقد" ليجيبوا على السؤال الذي أثاره الآية "وشاورهم بالامر" وليزيلوا الغموض. واملأوا الفراغ الناشئ عن عدم تحديد أهل الشورى. لكنهم زادوا الغموض، غموضا لأن الفقهاء انفسهم لم يتوصلوا الى رأي واضح عن هؤلاء الذين سموهم بهذا الاسم، وعن طريقة اختيارهم وعددهم وموعد اجتماعهم ومكانه، كما يقول الاستاذ القاسمي. بل لعلهم زادوا الوضع ارتباكاً وتعقيداً لانهم اطلقوا اصطلاحاً ليس له مدلول دقيق ومع ذلك التقطه الناس وتداولوه كأنه أمر مقرر ثم أجهدوا انفسهم في استقصاء معانيه ومدلولاته فلم يتوفقوا. يتضح مما تقدم أن سيرة الخلفاء الراشدين لاتدعم نظرية الشورى التي ينسبها بعض التقليديين اليهم ليعطوها شرعية شبه دينية يبنون عليها حكماً اسلامياً حديثاً.

معنى البيعة

البيعة تقليد بدوي سابق للإسلام يتعلق بتولية شيخ المشيرة. والبيعة ليست انتخاباً او اختياراً للزعيم من قبيل افراد المشيرة بل هو اعتراف منهم بقبول سلطة الشيخ الجديد الذي يحصل على مركزه بمكانته الشخصية او بنفوذ عائلته او بترتيب جرى بين النافذين في القبيلة، او بفرض نفسه على الآخرين.

لما اقتبس الاسلام اسلوب البيعة أبقي في المهود الأولى على تقليدها البدوي لكن الفقهاء في العصور اللاحقة حاولوا أن يعطوها معنى مختلفاً عن منشأها فقال ابو الحسن الماوردي (٩٧٤-١٠٥٨) ان البيعة عقد وكالة بين الامة وبين حاكمها المسؤول عنها، وان عقد البيعة عقد مؤقت مشروط فهو خاضع لمراقبة الاصيل (أي الامة) فإن رأى الوكيل ملتزماً للشروط المحددة أبغى الوكيل لمن شاء.

وقال ابن تيمية ان الامامة (أي رئاسة الدولة) تثبت بمبايعة الناس لا

بم عهد الامام السابق له. (٨١) لكن هذا الكلام بقي في اطار النظريات اذ لم يحدث في التاريخ الاسلامي ان قامت الامة بعزل الامام لانه خالف مقد الوكالة كما يقول الماوردي. وقد عزل خلفاء وحكام كثيرون عن الحكم لكنهم عزلوا عن طريق الجند لتحقيق رغبة طامع بالحكم، لا لانهم 'حادوا من شروط الوكالة المعقودة مع الامة' كما انه لم يحدث في التاريخ الاسلامي ان المسلمين رفضوا البيعة لشخص قولى الحكم بعهد السابق له، اى بالاستخلاف. اما قول ابن تيمية بان 'الامامة تثبت بمبايعة الناس لا بعهد السابق له' فان ما كان يجري في الواقع المستمر يخالف ذلك. فقد بقي الخلفاء والسلاطين قرونا طويلة وفي مختلف المهود يمينون من يخلفهم ثم يسوقون الناس للبيعة سوقا.

وكان الدكتور مشير العجلاني اكثر توليقا في شرح البيعة على حقيقتها فقال : ان البيعة هي ان يظهر الناس الرضا بالخليفة (او الحاكم) والخضوع له. فهي ليست، كما يتوهم البعض، انتخابا او تفويضا او توكيلا بالخلافة، وانما هي الموافقة على الامر الواقع والتسليم به. والبيعة فرض كفاية في الفقه الاسلامي. اذا قام بها قوم سقطت عن الآخرين، وليس الناس ملزمين بمراسم البيعة ما دامت فرض كفاية ولكنهم ملزمون بالطاعة والقبول بالخليفة او الحاكم. (٨٢)

وصف ابن خلدون طريقة اخذ البيعة فقال : ان البيعة هي العهد على الطاعة كان المباح يعاهد اميره على ان يسلم له النظر في امر نفسه وامور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من الامر على ما يحبه او يكرهه. وكانوا اذا بايعوا الامير وعقدوا عهده جعلوا ايديهم في يده تأكيدا للعهد فاشبه بذلك فعل البائع والمشتري فسمي بيعة، مصدر باع، وصارت البيعة مصافحة بالايدي. (٨٣)

اما 'الامر الواقع' الذي تجري عليه البيعة والذي ذكره الدكتور العجلاني فيتم بان يسمي الخليفة من يليه كما فعل ابو بكر، او بان يرتب الامر لمصلحة شخص معين كما فعل عمر، او بان يمين الخليفة او الحاكم وليا للعهد كما فعل معاوية ومن جاء بعده من الخلفاء والسلاطين، او ان يستولي احد الطامعين على الحكم بقوة الجند.

لم يرغب الاكراه والارغام في عملية تولي الخلفاء فقد جمع الخليفة عمر ستة من اكابر الصحابة الطامعين بالخلافة وامرهم ان يختاروا احدهم خليفة في مدة ثلاثة ايام. ثم امر صاحب شرطته ان يشرح رأس من يعارض منهم وان يقتل من لا يقبل برأي الاكثرية. وفعل معاوية مثل ذلك لما اخذ البيعة لابنه يزيد وتبعه بذلك باقي الخلفاء والولاة. وسنرى تفصيل ذلك في الفصل الرابع.

الطاعة واجب ديني

للخليفة او السلطان او الحاكم على الرعية او يطيعوه وينصروه بعد البيعة بموجب الآية : 'يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله، واطيعوا الرسول، وأولي الامر منكم. فان تنازعتم في شئ، فردوه الى الله ورسوله'. (٨٤١) فسر البيضاوي هذه الآية : 'بانه يريد بأولي الامر امراء المسلمين في عهد الرسول وبعده. ويندرج فيهم الخلفاء والقضاة وامراء الجند، أمر الناس بطاعتهم بعدما أمرهم بالعدل في السورة السابقة تنبيها لهم على وجوب طاعتهم ما داموا على الحق. فان تنازعتم انتم وأولوا الامر منكم في شئ، من امر الدين فاطيعوا علماء الشرع في اجتهادهم'.

والآية : 'واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا (كما فعلتم بيدر وأخذ) فتفشلوا وتذهب ربحكم، واصبروا ان الله مع الصابرين'. (٨٤٢) والاحاديث كثيرة في الحث على الطاعة منها : 'من اطاعني فقد اطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله. ومن يطيع الامير فقد اطاعني، ومن يعصني الامير فقد عصاني'.

'ومن بايع اماما فليطعه ان استطاع. فان جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر'.

'ومن خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له. ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية'.

'اسمعوا واطيعوا وان أمر عليكم حبشي كان رأسه زبيبة'.

ورويت احاديث اخرى تفيد حق الطاعة : اسمعوا واطيعوا ما اقام فيكم (الوالي) كتاب الله تعالى. 'وعلى المسلم السمع والطاعة فيما احب وكره

الا ان يؤمر بمعصية الله، فان أمر بمعصية فلا سمح ولا طاعة".

"لا طاعة في معصية انما الطاعة في المعروف".

"لا طاعة لمن لم يطع الله".

يقول النفيسي نقلاً عن ابن حزم في هذا الموضوع : ان الطاعة واجبة للإمام ما قادنا بكتاب الله وسنة رسوله. فان زاع عن شيء، منها ما منعه من ذلك وأقيم عليه الحد والحق، فان لم يؤمن اذاه الا بخلعه خلق وولي غيره مكانه. (١٦٦)

يلاحظ في كلام ابن حزم اعادة الفعل الى المجهول في قوله : منعه، وأقيم عليه الحد، وتخلع، وتولي غيره. فما هي السلطة في الاسلام التي تمنع، وتقيم الحد، وتخلع، وتولي؟ ولماذا تجاهلها اذا كانت موجودة فعلاً!

يقول الدكتور منير المجلاني : لقد كان خلق الخلفاء في الاغلب نتيجة مؤامرات سياسية وانهيارات عسكرية يلتصق لها الانقلابيون احياناً مبرراً سواء سيرة الخليفة (او الحاكم) او فساد دينه لتضليل عامة الشعب. لكن الفقهاء قلّ ما وافقوا على خلق الخلفاء. وكل ما كان يقع من الخلفاء يجمعونها تحت اسم واحد هو الفسق، والفسق لا يمنع من استدامة الامامة سواء كان ذلك بارتكابه المحظورات واقدامه على المنكرات اتباعاً لشهواته كالسكر والزنا، وقلّ ان تظهر من الخليفة حالة تتجاوز الفسق الى الخروج عن الدين. فان فعل طالب عليه الناس وخلصوه. (١٦٧)

وهنا ايضاً لا بد من التساؤل : كيف يتألب الناس على الامير ويخلصوه؟ هل لدى العامة شعور فطري بأن الوالي خرج عن الدين فيجتمعون تلقائياً وعفويّاً لخلعه ام ان وراءهم من يثيرهم ويحرضهم ويدفعهم؟

وهل يستجيب الوالي لطلب الناس رضائياً بمجرد اجتماعهم ومطالبتهم بعزله ام سيأمر جنده بالمقاومة فيشتبك الناس وتعم الفوضى وتسيل الدماء؟ وما اسهل ان ينقلب الجمهور المحتشد الى فوجاء اذا بدأ العنف، والغوغاء لا تفكر ولا تعقل ولا يردعها نظام او قانون، فهل وضع الاسلام ضوابط لهذا الامر؟ ولماذا يُخلع الحاكم. يتألب الناس عليه" ولا يُخلع بحكم قضائي او سياسي من سلطة شرعية؟

لقد قامت في المجهود الاسلامي حركات وانتفاضات وانتقالات وثورات كهيبة ضد الخلفاء والامراء والولاة كانت دوافعها غالبا سياسية لكنها لبست ثوبا دينيا وقامت بين شيعة اسلامية تتنازع على الخلافة والحكم. ونادرا ما حدثت ثورة في التاريخ الاسلامي الطويل تطالب بالحرية السياسية للفرد وللشعب من حاكم ظالم. بل ان فكرة "الحرية" ولفظها ومعانيها السياسية والاجتماعية كما وردت في "الشرعة الكبرى" الانكليزية سنة ١٢١٥ مثلا وكما نفهمها اليوم تكاد تكون غائبة عن كتب الفقه والادب. واذا وردت تلك اللفظة فهي تأتي بمعناها الحقوقي اي تحرير الرقيق من العبودية دون ان يكون لها مدلول سياسي.

التشديد على الوحدة

بالإضافة الى الامر بالطاعة، أكد الاسلام في القرآن والسنة على وحدة المسلمين تأكيداً شديداً واعتبر اي محاولة للاختلاف بهذه الوحدة جريمة تبليغ حد الخيانة يجب معاقبتها بقسوة. جاء في الحديث "أيما رجل يفرق بين امتي فأضربوا عنقه"، "ومن اتاكم وامركم جميع على رجل واحد يريد ان يشق عصاكم او يفرق جماعتكم فاقتلوه". "ومن رأى من اميره شيئا فكره فليصبر، فانه ليس احد يفارق الجماعة فيصوت الا ميتة جاهلية". يقول الاستاذ محمد اسد ان الدعوة لوحدة الصف ورفض الاختلاف متجذرة في النفس العربية التي لا تسمح لأي انسان ان يختلف بالرأي عن الجماعة. (١٨٨) وقد قال الرسول : "يد الله مع الجماعة ومن شذَّ شذَّ في النار"، "ومن غارق الجماعة شبرا فقد خلع الاسلام من عنقه".

وما دام الحاكم يطبق احكام الشريعة فان واجب الرعية بالولاء له واجب مطلق وعليهم "السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره" ويجب ان يكونوا وراعه صفا واحدا يضحون في سبيل وحدتهم بممتلكاتهم وارواحهم لان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة". (١٨٩)

يقول الاستاذ حسن البنا : ان الاسلام دين الوحدة في كل شيء، ويجب ان لا تظهر الامة والقادة الا مجتمعين، لذلك فان الاسلام لا يقر نظام الحزبية (في الحياة السياسية) ولا يوافق عليه ولا يرضاه. (١٩٠)

ان هذا الاصرار الشديد على وحدة الصف والطاعة المطلقة للحكام الا اذا خرجوا عن الدين ساعد الحكام المستبدين على التماذي في غيهم واضعف المطالبين بالحد من تجاوزاتهم. كما تلازم الظاهر بالتدين والتشدد فيه مع مسلك الطغاة الظالمين في كثير من الاحيان.

وقد ترسخت دعوة الطاعة ووحدة الصف في النفس الاسلامية على مدى العصور وكانت من العوامل التي كبشت، برأينا، انطلاق الفكر الاسلامي للاصلاح في مختلف الميادين، فالفكر المسلم يشعر انه مطوق بقيود قاسية، لكن غير واضحة او محددة، تتشكل من المفاهيم التي اعتادتها العامة، ومن تلك التي يروجها كثير من رجال الدين، ومن مصالح الحكام. فالعامة من الناس تروح الى مفاهيمها التي اعتادتها، خصوصا في امور الدين. وتنفّر ممن يقلق فكرها ويدفعها الى التساؤل عن مسائل مستقرة في ذهنها.

وقد وجد في كل قطر، وفي كل زمن، رجال دين تربط مصالحهم بالوضع الجامد المستقر فهم يغذون نعمة الجود في العامة. كما ان الحكام والولاة على الحال نفسه يكرهون اكثر ما يكرهون الافكار الجديدة التي تدعو التي التغيير.

وقد تألف من هذه القوى الثلاث حاجز منيع يتسم بالتعصب وعدم التسامح مع الافكار المخالفة بحيث يتردد كثير من المفكرين باقتحامه. وقد رأينا في التاريخ الحديث كيف تآبّت هذه القوى ضد الشيخ علي عبد الرازق والدكتور طه حسين قبل سبعين عاما فاضطهدتهما، وعزلتهما من الوظائف، وقطعت ارزاقهما، لانهما تجرّبا على مخالفة التيار الديني السائد عندئذ ولا مسا يرفق ولين بعض المسائل التي يمتنرها الجامدون حساسة. ولعل الوضع الفكري الاصلاحى في البلاد العربية في يومنا هذا اسوأ مما كان عليه في العشرينات.

من ناحية اخرى، فان الاصرار على وحدة الصف ترك اثره في الحياة السياسية المعاصرة لان اتجاه بعض الدول العربية نحو نظام الديمقراطية بظورها الى اقتباس نظام تعدد الاحزاب السياسية في البلد الواحد مما يوقع المسلم تحت تأثير تيارين متناقضين يتجاذبان، احدهما يدعوه الى وحدة

الصف ونبذ الفروقة كواجب ديني، والآخر يبين له ان لا سبيل الى الديمقراطية والحرية السياسية بغير احزاب ذات نظريات سياسية واجتماعية واقتصادية مختلفة تتنافس على الحكم.

ولعل هذا التجاذب ينسر سبب ضعف التنظيمات السياسية الحزبية في البلاد العربية التي تفتبس الانظمة الديمقراطية، كما قد يفسر ميل بعض الدول الاخرى الى نهج الحزب الواحد الحاكم فهذا النهج يتوافق مع تطلعات فرقاء مختلفين : تطلعات الاسلاميين الذين يكرهون تعدد الاتجاهات، وتطلعات اولئك الذين يحبذون نظام الحزب الواحد الحاكم، وتطلعات الذين يحكمون بلادهم دكتاتوريا، وما اكثرهم في البلاد الاسلامية.

يتضح من كل ما تقدم ان هاجس المسلمين في موضوع الحكم السياسي هو ظهور الامة بمظهر الاجماع، ولا يترددون بممارسة الضغط للحصول على الاجماع المطلوب، بينما نرى هاجس الشعوب الغربية هو ضمان حرية الفرد واستقلالته بالمعارضة.

ولعلنا نرى خطأ متصلا بالاصرار على الاجماع منذ البداية الى الوقت الحاضر عندما نجد حكومات اسلامية حالية تصرّ على ان تأتي نتائج الانتخابات ايجابية بنسبة ٩٩ بالمائة سواء كانت لانتخاب رئيس الدولة او مجلس تشريعي او لاي استفتاء، وترى ان اي نقص في هذا الرقم يشكل انتقاصا من مكانة الحاكم ومن هيبة الدولة ومن تضامن الامة.

ونلاحظ انه بنهاية الحرب العالمية الثانية انحسر الاستعمار الغربي عن معظم البلاد الاسلامية وخلف وراءه حكومات وانظمة سياسية علي شاكلة الانظمة الديمقراطية الغربية. لكنه بعد عقد من الزمن او اقل وجدنا معظم هذه الانظمة قد استبدلت بانظمة عسكرية او حزبية تحقق الاجماع بالقصر، وتبين ان الفكرة الديمقراطية لم تستطع ان تنمي لها جذورا في ضمير الشعوب اما لقصر المدة التي مورست بها او لان التراث والبيئة غير ملائمين لها.

شرعية العنف

ذكرنا في الفصل الثاني وفي باب الفتوحات والجهاد في هذا الفصل

بعض الآيات التي تحت على القتال. وفي موضوعنا الحالي نذكر الآيات التالية وبعضها مكرر لكنه متصل بموضوعنا :

"جاهد الكفار والمنافقين واغلق عليهم".

"فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم". (١١١)

"يا ايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم

غلظة". (١١٢)

"قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق (أي الاسلام) من الذين أوتوا الكتاب حتي يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون". (١١٣)

"قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم". (١١٤)

"قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة".

"واقتلوهم حيث تفتتهموهم" (أي حيث وجدتموهم). (١١٥)

"فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم". (١١٦)

"ايها النبي حرّض المؤمنين على القتال". (١١٧)

"الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله". (١١٨)

"ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كانهم بنيان

مرصوص". (١١٩)

"انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا، ان يقتلوا او يُصلبوا او تُقطع ايديهم وارجلهم من خلاف، او يُنْفَوْا من الارض، ذلك لهم خزي في الدنيا وفي الآخرة عذاب عظيم". (١٢٠)

وقال النبي : "بُعِثت بالسيف بين يدي الساعة حتي يُعبد الله وحده

لا شريك له. وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والهوان على من

خالف امري". (رواه احمد بن حنبل في المسند عن ابن عمر واستشهد به

البخاري).

ونزلت آيات تدعو الى اللين :

"ولا تعتدوا ان الله لا يجب للمعتدين". (١٢١)

"فان اعرضوا فما ارسلناك عليهم حفيظا ان عليك الا البلاغ". (١٢٢)

تفسيرها لست عليهم رقيبا او محاسبا بعدما بُلّغت.

"ما على الرسول الا البلاغ". (١٠٢١) فسرهما البيضاوي "بانه تشديد في وجوب القيام بما امر به الرسول من التبليغ".

"ولو شاء ربك لأمّن من في الأرض كلهم جميعا. أفأنت تكره الناس حتى يكونوا كلهم مؤمنين". (١٠٤١)

"لا أكره في الدين قد تبين الرشد من الغي" (١٠٥٥) فسرهما البيضاوي بان هذا آية عام منسوخ بقوله جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم، او خاص بأهل الكتاب.

"وقل الحق من ربك فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، أنا اعتدنا للظالمين نارا". (١٠٦٦)

"ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة والحسنة وجادلهم بالتي هي احسن ان ربك اعلم بمن ضلّ من سبيله وهو اعلم بالمهتدين". (١٠٧٠) تفسيرها حسب البيضاوي : "ادع من بُعثت اليهم الى الاسلام بالحكمة والخطاب المقنع والبرّ النافعة، والأولى دعوة خواص الأمة الطالبين للحقائق ثم لعوامهم. وجادل مع معانديهم بالطريقة التي هي احسن طرق المجادلة من الرفق واللين ان ذلك أفع. وربك اعلم بمن ضلّ وأعلم بالمهتدين".

"ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي احسن الا الذين ظلموا منهم. ويقولوا آمنا بالذين أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون". (١٠٨١)

المهم في الآيات التي تدعوا أحيانا الى اللين في معاملة غير المسلمين، ويدعو أكثرها الى العنف، ما رسخ في أذهان عامة المسلمين من هذه المفاهيم على مدى العصور. ولا شك ان المفاهيم الراسخة هي مفاهيم العنف التي تتمثل بالشعار الرئيسي الذي ابتدأ الاسلام دعوته به وهو : "اسْلِمَ قَسْلَمَ".

وما يزال الناس يذكرون المظاهرات التي كانت تطوف الشوارع وتطالب بالاستقلال في البلاد العربية اثناء الانتدابين الفرنسي والبريطاني وكان أحد أبرز شعاراتها "دين محمد دين السيف" تعبّر به الجماهير بصورة عفوية عن مفهومها لطبيعة دينها.

قال الاستاذ حسن البنا في المؤتمر الدوري الخامس لجماعة الاخوان المسلمين سنة ١٩٢٩ : يتساءل الناس، هل في عزم الاخوان المسلمين

استخدام القوة في الوصول الى غاياتهم. واجيب : اما القوة فشعار الاسلام في كل نظمه وتشريعاته... ان الاخوان المسلمين سيستخدمون القوة العملية حيث لا يجدي غيرها. لم يلجأ الشيخ حسن البنا الى قوة الاكثريّة النيابية او للشعبية).

ويقول الشيخ محمد حسين فضل الله المرشد الروحي لحزب الله في لبنان : ان الاسلام لم يبتعد عن قاعدته الاساسية الروحية والاخلاقية عندما شرع الجهاد، واهاج القتال، وشجع على العنف من اجل مواجهة الضرورات التي تفرضها حركته كدين يتحدى الظلم والانحراف ويهدم الاتحاد والفوضى. لذلك فان شرعية اعدام الانحراف تفسح المجال امام شرعية اعدام المنحرفين اذا توقف عليه اعدام انحرافه. (١٠١)

نتوقف مرة اخرى امام هذه المبادئ العامة المجسدة التي يقبلها بعض المسلمين وقد يرفضها اخرون لتلاحظ انها تعجنب دائما التحدث عن التنفيذ وادواته واساليبه وترك هذه الامور وغيرها ضبابية. فما هي السلطة التي لها حق تقرير معنى الانحراف واعداد المنحرفين؟ وقد سبق ان تساءلنا عن قضية تنظيم الشورى التي يعتبرها البعض من اسس الدين، وعن السلطة التي تقرب ان الحاكم خرج عن الدين ويجب خلعه، الى آخر ما هنالك من امور اساسية تتعلق بالحكم الاسلامي لا نجد لها ايضاحا.

نعود الى الاسلام ومبدأ العنف فنجد ان ثلاثة من الخلفاء الراشدين ماتوا قتلا وكانوا من خيار الناس. ولعل الدعوة الملحة والمتكررة للقتال والقتل والفتح واستعمال العنف لنشر الدين او للدفاع عنه رمت تحت في النفوس ان العنف قيمة مقبولة وممدوحة من قيم المجتمع.

وعندما يُعطى العنف هذه المكانة يصبح من الصعب على الكثيرين التمييز بين القتل المشروع ديناً، وبين القتل لتحقيق غرض شخصي، وبكل الاحوال يضعف حكم القانون وهو اساس المجتمعات المتقدمة في كل عصر.

يقول الشيخ علي عبد الرازق في العنف : لقد كان مقتل الخلفاء الراشدين الثلاث بداية سلسلة من الاغتيالات للخلفاء والحكام المسلمين لم تنته. ولا يكاد التاريخ الاسلامي يعرف خليفة الا عليه خارج، ولا جيلا من الاجيال مضى دون ان يشاهد مصراعا من مصارع الخلفاء. ولا نظن ان امة من الامم

تضارع المسلمين في ذلك. وقد نشأت معارضتهم للخلافة إذ نشأت الخلافة نفسها. ان عليا ومعاوية لم يتبوعا عرش الخلافة الا تحت ظلال السيوف وعلى أسنة الرماح، وكذلك الخلفاء من بعدهم الى يومنا هذا". (١١٠)
لكن العنف لم يقتصر على قتل الخلفاء رغم كثرته، بل مارسه الخلفاء والسلاطين والولاة ضد رعيّتهم حتى صار حالة معتادة.

تبعث النظرية السياسية

ان النظرية السياسية التي شرحناها، وهي مستمدة من الشريعة باعتقاد معظم الفقهاء، فقدت معناها وتغيرت حقيقتها بعد نحو قرنين من وفاة النبي عندما سقطت الخلافة العباسية تحت سيطرة الجنود الاتراك العبيد ثم استولى عليها آل بُوتيه وتلاههم آل سلجوق ثم المالك. وفي كل هذه العهود انحطّت مكانة الخليفة الى الحضيض حتى صار بمثابة موظف تحت امرة السلطان.

وقد تجارب الفقهاء مع هذه التغييرات وسارعوا الى ايجاد المبررات لتطوير النظرية الشرعية حول مقام الخلافة وسلطتها بحيث تتجاوب مع رغبة السلاطين. اشتهر منهم ابر الحسن الماوردي توفي (١٠٥٨) وابو حميد الغزالي (١٠٥٨ - ١١١١) ونقي الدين ابن تيمية (١٢٦٢ - ١٣٢٨). وسنشرح نظريتهم في الفصل السادس.

ان استعانة الفقهاء لتطوير النصوص الشرعية حتى تجاري الضرورات تبدت في عدة مسائل : في معاملة اسرى الحرب في العهود اللاحقة، وفي توسيع مفهوم الآية المتعلقة باهل الكتاب لتشمل المجوس والبربر وغيرهم فقبلت منهم الجزية خلافا للنص الذي يخير الكفار بين الاسلام او القتل، وفي ايجاد المبررات الشرعية لسيطرة السلاطين على الخلفاء.

وقد جرى تبرير سيطرة السلاطين رغم ان السنة كانوا اعتبروا ان باب الاجتهاد قد اغلق في القرن التاسع. ومع ذلك وُجد فقهاء مرموقون جؤزوا للسلطان البويهى والسلجوقي والملوكي اغتصاب حقوق الامامة والخلافة بما يخالف روح الشريعة ان لم يكن نصّها.

نظرية الحكم عند الشيعة

بدأ التشيع لما رأى ناس من الصحابة بعد وفاة النبي انه يغيب النص والتوجيه النبوي فان اهل بيته اولى الناس ان يخلفوه واحقهم بذلك علي بن ابي طالب، كان اشهر من قال بذلك سلمان الفارسي، وابو ذر الغفاري، والمقداد بن الاسود وهم من كبار الصحابة.

وقد انضم الى الشيعة اقوام لاهداف مختلفة، منهم اعترافا باحقية علي وبنيه، ومنهم كرها بالحكم الاموي والعباسي لانه ظلمهم. وتشيع كثير من الموالي كرها بالارستقراطية العربية التي مارسها الامويون. وتشيعت قبائل عربية لان قبائل منافسة ناصرت الامويين او العباسيين فكانت العصبية تقضي بان يناصروا الجانب الاخر. وتشيع الفرس خاصة لانهم ورثوا عادة تقديس البيت المالك وهو الان آل النبي. وتشيع اخرون من اعداء الاسلام لتهديمه بالغلو في التشيع.

اهم خلاف بين الشيعة وغيرهم يدور حول مسألة الخلافة ولن تكون. وبما ان الاسلام دين ودنيا حسب اعتقاد الاكثرية فقد صار النزاع دينيا سياسيا او سياسيا يرتدي سترة الدين. وبما ان النبي برأي الشيعة قد نص على خلافة علي له فان كل الخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين يصبحون غاصبين للخلافة ومن واجب شيعة علي العمل السري والعلني لرد الامر الى اهله.

ان الخلاف الفقهي بين القائلين بان سلطة الخليفة (الامام) مستمدة من الله او من الشعب محلول لدى الشيعة على اختلاف فرقهم. فالامامة في نظرهم ليست من المصالح العامة التي تفوض الى نظر الامة بل هي واجبة لانها ركن الدين وقاعدة الاسلام، وهي رئاسة عامة في امور الدين والدنيا، لا يجوز لنبي اغتيالها ولا تفويضها الى الامة بل يجب عليه تعيين الامام لهم، والامام معصوم من الكبائر والصفائر ومن الخطأ في احكامه واقواله. والامام بعد النبي هو ابن عمه علي بن ابي طالب لنصه عليه يوم الغدير بامر الله تعالى له. ومن هنا نشأت فكرة الوصية، ولقب علي بالوصي، يريدون ان الله اوصى بالخلافة لعلي من بعده فكان وصي الرسول، وعلي اوصى لمن بعده، وهكذا يصبح كل امام وصي من قبله ويكون مثله معصوما عن الخطأ. ولا يصدر من الامة الا ما

كان صوابا. ويستدلون على وصية النبي لعلي بن ابي طالب بنصوص منها جليّ ومنها خفيّ. فالجليّ مثل قول النبي "من كنت مولاه فعليّ مولاه" ولم تطرّد هذه الولاية الا في علي. وقوله : "أقضاكم عليّ"، ولا معنى للامامة الا القضاء باحكام الله. ومنها قوله "من يبايعني على روحه وهو وصي وولي هذا الامر من بعدي"؟ فلم يبايعه الا علي.

ومن الخفيّ عندهم بقصّة النبي عليا لقراءة سورة التوبة في موسم الحج حين أنزلت فقالوا ان هذا يدلّ على تقديم علي. ولم يُعرف ايضاً ان الرسول قدّم احدًا على علي. اما ابو بكر وعمر فقدّم عليهما في غزوتين : اسامة بن زيد مرة، وعمر بن العاص مرة اخرى. وهذه كلها ادلة شاهدة برأيهم على تعيين علي للخلافة دون غيره.

ويتبرأ الامامية من الشيخين ابي بكر وعمر حيث لم يقدمنا عليا وبايعوه بمقتضى هذه النصوص، ويظمنون في امامتها. وقد تجاوز بعض الشيعة في جهود مختلفة مجرد الطعن الى شتمها.

ويعتبر الشيعة ان الاعتراف بالامام والطاعة له جزء من الايمان. وبما ان الامام معصوم فله وحده حق الاجتهاد الذي يسمى "التشريع" ويبقى اجتهاده دائما وملزما لكل واحد حتى يُبطله امام يخلفه. والامام قد ورك علوم النبي. وهناك نوعان من العلم، علم الظاهر وعلم الباطن. وقد علّم النبي هذين النوعين لعلي، فكان يعلم باطن القرآن وظاهره، واطلعه على اسرار الكون وخفايا المغيبات، وكل امام ورك هذه العلوم لمن بعده. وكل امام يعلم الناس في وقته ما يستطيعون فهمه من هذه الاسرار. ولا يؤمن الشيعة بالحديث الا اذا روي عن انتمهم.

يتفق الشيعة بان الامامة محصورة في ذرية الامام علي وتنتقل بالتعيين، وان الامام معصوم يحكم بقدره الله لا بمشيئة المسلمين وهو الوحيد المخول بالاجتهاد، اما ما يختلفون عليه فيدور حول المهدي المنتظر. والمهدي هو الامام الاخير الذي غاب والذي سيعود ليملا الارض عدلا ونورا وهم بانتظار حودته. وعلى هذا يقول الاستاذ طائر القاسي، فان الخلاف بين السنة والشيعة خلاف اصلي لا فرعي. (١١١)

اختلاف الشيعة على الإمامة

بالإضافة إلى المبادئ التي ذكرنا بقي الشيعة متفقين على تسلسل الإمامة الأربعة الأول أي من علي بن أبي طالب إلى ابنه الحسن ثم إلى أخيه الحسين ثم إلى علي زين العابدين ابن الحسين وهو الإمام الرابع وأمه جيهان بنت الشاه يزْدَجَرَه آخر الملوك الساسانيين، قال المتنبّي في زين العابدين :

هذا الذي تعرف البطحاء وطّاه والبيت يعرفه والحلّ والحرم

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله بجده أنبياء الله قد خُتموا

بعد علي زين العابدين اختلفت الشيعة فقامت فرقة سادت الإمامة منه إلى ابنه زيد الذي أصبح الإمام الخامس وسُمّيت "الزيدية" أو "الخمسية". أما باقي الشيعة فسادت الإمامة من علي زين العابدين إلى ابنه الآخر أبي جعفر محمد الباقر (توفي ٧٢٠) ثم إلى ابنه أبي عبد الله جعفر الصادق (٧٠٠ - ٧٦٥) وهو الإمام السادس الذي ينتهي نسبه إلى أبي بكر عن طريقين، فوالدته هي فاطمة بنت قاسم بن أبي بكر، وجدته أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر. وهذا يفسّر رفضه ما سار إليه بعض الشيعة من شتم أبي بكر وعمر.

كان الإمام جعفر يسكن المدينة وكان فقيها عالما كريما جمع حوله طائفة من راعبي العلم كأبي حنيفة، ومالك بن أنس، وبإصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال، وجابر بن حيان الكيميائي الشهير الذي نسب إلى الإمام جعفر أكثر أفكاره العلمية. ويُنسب إلى الإمام جعفر أيضا الفقه الجعفري الذي تتبعه الشيعة الاثنا عشرية. وقد عاصر الإمام جعفر الخليفة المنصور وابتنى عن السياسة ولم يظهر رغبة بالخلافة. في زمانه قام محمد بن عبد الله (النفيس الزكية) بثورة على العباسيين فقتل سنة ٧٦٢. فطلب المنصور من جعفر أن يسكن بغداد ليكون تحت نظره. فجاء وأقنع المنصور أنه لا مطمح له بالخلافة وعاد إلى المدينة ليقتضي فيها باقي أيامه.

بعد وفاة الإمام جعفر اختلفت الشيعة مرة ثانية على الإمامة. فقامت فرقة سادتها من جعفر إلى بكره اسماعيل رغم أنه توفي قبل والده سنة ٧٦٠ وكان جعفر قد عين اسماعيل خلفاً له لكنه عاد عن ذلك وعين ابنه الثاني موسى. لكن الاسماعيلية تمسكوا باسماعيل لزعيمهم أن الإمام معصوم ولا يمكن أن

يؤخذ عليه شيء ثانوي كشرب الخمر مثلاً، ثم قالوا ان اسماعيل لم يمت وإنما اختفى، وبذلك أصبح اسماعيل الامام السابع فُتُرقت هذه الفرقة باسم الاسماعيلية أو السبعية.

بعد اسماعيل انتقلت الامامة عند الاسماعيلية الى ابنه محمد المكتوم وهو اول الائمة المستورين اي الذين لا يعلنون عن انفسهم اذ يجوز بموجب عقيدة الاسماعيليين ان يكون الامام مستورا خذوا من السطة، وان يكون دعائه معروفين، توالى بعد محمد المكتوم ستة ائمة مستورين هم ابنه اسماعيل بن محمد، ثم ابنه محمد بن اسماعيل، ثم ابنه احمد بن محمد، ثم ابنه عبد الله بن احمد، ثم ابنه احمد بن عبد الله، ثم ابنه حسين، واخيراً عبد الله المهدي ابن حسين الذي أعلن امامته في تونس وصار رأس القاطنين. (١١٢)

اما الشيعة الاثنا عشرية وهم الاكثر عدداً، فقد ساقوا الامامة من الامام السادس جعفر الصادق الى ابنه الثاني موسى الكاظم (توفي ٧٦٠)، ثم الى ابنه ابي الحسن علي الرضا (توفي ٨١٩) وهو الذي اراد المأمون تعيينه خليفة بعده فلقي معارضة شديدة من السنة لكن علي الرضا توفي عام (٨١٩) قبل وفاة المأمون. بعد علي الرضا انتقلت الامامة الى ابنه ابي جعفر محمد الجواد (توفي ٨٣٧) وهو الامام التاسع، ثم الى ابنه علي الهادي الامام العاشر (توفي ٨٧١)، ثم الى ابنه ابي محمد الحسن العسكري (توفي ٨٧٧)، ثم الى ابنه محمد ابي القاسم ابن الحسن العسكري وهو الامام الثاني عشر ويعرف "بالمهدي"، ويمتد الاثنا عشرية انه دخل سرداباً في منزلهم بالحلة، (وقيل في سامراء) عندما كان عمره تسع سنوات (٨٨٠) وغاب هناك وهو سيخرج في آخر الزمان فيملأ الارض عدلاً، وهم الى الآن ينتظرونه ويسمونه "المنتظر"، (١١٣)

اختلاف الشيعة حول العقائد

الزيدية

من مبادئ الزيدية ان الامامة يجب ان تكون في اولاد فاطمة سواء كانوا من اولاد الحسن او الحسين لذلك رفضوا امامة محمد ابن الحسين لان

امه كانت غير فاطمة. ويقولون ان النبي عيّن الامام بالوصف لا بالشخص لذلك لا يتبرأون من ابي بكر وعمر بل يدعون ان خلافتهم صحيحة وان كان علي افضل منهما لان امامة الفضول جائزة مع وجود الافضل (١١١) وقد رفض شيعة الكوفة هذه المقالة. وقد تلمذ زيد علي واصل بن عطاء راس المعتزلة وصارت اصحابه معتزلة. يقول بعض المؤرخين ان الزيدية لا يقولون بعصمة الائمة واختلافهم ورجعتهم (١١٥) وبذلك كانوا اقرب الى اهل السنة من الفرق الشيعية الاخرى.

يشترط الزيدون في ائمتهم ان يكونوا فقهاء مجتهدين فكثرت اراؤهم في الفقه وبلغ منهم كثير من المجتهدين ورتبوا فقههم في كتب معروفة اهمها كتاب "المجموع" الذي يحتوي على الاحاديث التي رويت عن الامام زيد وفناويه.

حاصر الامام زيد هشام بن عبد الملك وكان طموحا للخلافة وكانت امه جارية من بلاد السند. وكانت سيرته مع هشام كسيرة جده الحسين مع يزيد. فقد ثار على هشام في العراق فقتل (٧٤٠) وهرب ابنه يحيى الى بلخ في خراسان حيث ثار على الوليد الثاني فقتل ايضا (٧٤٢).

يشكل الزيدون الان اكثر من نصف سكان اليمن وهم محاربون اشداء يقطنون الجبال الحصينة. وعندما حاول الرئيس عبد الناصر احتلال اليمن ليطوّق المملكة السعودية ويصل الى منابع البترول قاومه الزيدون مقاومة عنيفة بمساعدة الملكة السعودية وافشلوا اهدافه فاضطر عبد الناصر الى الانسحاب بعد حرب دامت من ١٩٦٢ - ١٩٦٧ وتكبد فيها خسائر فادحة بالرجال والاموال.

الاسماعيلية او السبعية

الاسماعيلية هي من اهم الفرق الباطنية التي ظهرت في الاسلام وكانت اكبرها اثرا واشدها نفوذا وانتشارا ما بين القرن الثامن والثالث عشر. استهدفت عقيدتها تهديم الاسلام التقليدي فكريا ودينيا وعمليا ببذر الشكوك حول العقائد الاساسية، ثم في افعالها وممارساتها العملية عن طريق اجهزتها السرية والعلنية التي تمثلت بالخلافة الفاطمية وبحركة القرامطة،

ومنظمة الحشاشين، وجمعية اخوان الصفا وخلان الوفا.

تعني 'الباطنية' ان للقرآن والحديث معاني ظاهرة ومعاني مخفية باطنية. اما المعاني الظاهرة فهي ما يفهمه العامة سطحيا عندما يسمعون او يقرأون الايات والاحاديث. اما المعاني الباطنية فهي جوهر الدين التي لا تتضح الا لن تدرب وتدرج في سلم المعارف.

تركزت معالم الاسماعيلية في القرن الثامن وبداية القرن التاسع واستهدفوا منها منذ البداية السيطرة السياسية عن طريق تقويض المذهب السني الذي استولى على الخلافة منذ وفاة النبي.

نظم الاسماعيليون دعوتهم سرا على اقن ما يمكن. فقالوا انه يجب تفسير القرآن على سبيل المجاز لان المعنى الظاهري هو حجاب يستر المعنى الحقيقي الباطني الذي هم وحدهم يعرفونه. ولكي يصل الاسماعيلي الى هذه المعرفة المخصصة للنخبة عليه ان يقسم بين الكتان ثم يتدرج في مراتب، قيل انها تسع، من خلال تنظيم صارم يرأسه الامام ويثبته الدعاة في مختلف الاقطار الاسلامية.

تبدأ مراحل التعليم باثارة الشكوك في الاسلام وتنتهي بالتحلل من قيوده. من عقائدهم تناسخ الارواح وحلول اللوهمية في اسماعيل وانتظار رجعتهم مهديا. وقد اوتوا كل ما جاء في القرآن وقالوا ان الوحي ليس الا صفاء النفس، وان الشعائر الدينية هي للعامة اما الخاصة فلا يلزمهم العمل بها، وان الانبياء هم سؤاس العامة اما الخاصة فانبياءهم الفلاسفة. وقالوا ليس هناك معنى للتمسك بحرفية القرآن لانه رموز لاشياء، انما يجب فهم القرآن على طريقة التاويل والمجاز خصوصا ان للقرآن برايمهم كما قلنا معنى ظاهر ومعنى باطن هم وحدهم يعرفونه، ومن ثم سئموا بالباطنية. وقد تأثر الاسماعيليون بالفلسفة الافلاطونية الجديدة كما تأثروا بمبادئ ماني الفارسية.

كان من رجال هذه الحركة الباطنية البارزين عبد الله بن ميمون القداح (توفي حوالي سنة ٨٧٤) وكان ابوه قداحا في الاهواز غير معروف النسب، وعبد الله هو الذي اكمل النظام السياسي - الذهني للحركة الاسماعيلية. وقد جعل البصرة اولا مقره ثم انتقل الى سلتية قرب مدينة حماة في سوريا ومن هذين المركزين كان يتوجه الدعاة الى انحاء العالم

الإسلامي.

لعب الاسماعيليون دوراً بارزاً في تاريخ الإسلام ما بين القرن الثامن والثالث عشر من خلال ثلاث حركات رئيسية تؤمن بعقيدتهم هي الخلافة الفاطمية والقرامطة والحشاشون. وفي القرن العاشر نشأت فرقة سرية يقال إنها اسماعيلية أو مرتبطة بهم تعتبر من عقيدتهم وضعت 'رسائل اخوان الصفا' و'خلان الوفا' وسفهدا تبحث الحركة القرمطية نظراً للدور الهام الذي لعبته هذه الحركة في تاريخها المضطرب والطويل.

القرامطة

سنتحدث الخلافة الفاطمية في الفصل الثامن. أما القرامطة فإنه قبل موت عبد الله القداح ظهر بين رجال الدعوة الباطنية رجل يقال له حمدان قرمط كان فلاحاً في سواد العراق ثم انضم إلى القداح وكان من غلاة دعائه وأسس فرقة باطنية نسبت إليه. وقد تجلت في حركته روح العداوة القديمة بين الفلاحين من أهل البلاد وبين أبناء الصحراء. والقرامطة، كباقي الفرق الشيعية، اعتبروا العباسيين مغتصبين لحق آل البيت فوجب قتالهم. في سنة ٨٩٠ أبتنى حمدان قرمط لنفسه مقراً بجوار الكوفة سماه 'هجر' وكثر عدد تابعيه من سكان البلاد الأصليين لا سيما الفلاحين والصناع المعروفين في المصادر العربية 'بالنيط'. وكانت هذه الحركة في الأصل منظمة سرية ذات صيغة اشتراكية. من مبادئهم أنهم أباحوا الشراكة في النساء والأموال، وحضوا على ترك الصلاة والصيام والحج، وشجعوا شرب الخمر والموسيقى والاباحة الجنسية، كما أباحوا سفك دماء خصومهم ولو كانوا مسلمين. وقد فاضروا الزنج في ثورتهم التي دامت من سنة ٨٦٨ إلى ٨٨٢.

تمكن القرامطة بزعامة أبي سعيد الجنابي القرمطي من تأسيس دولة مستقلة على شاطئ الخليج الفارسي الغربي سنة ٨٩٩ واتخذوا منطقة الأحساء في شرق الدولة السعودية اليوم مركزاً تحصنوا به وجعلوه قاعدة دولتهم التي نشروا منها الرعب في بلاد الخلافة، لقد أخضع الجنابي اليمامة (تجد) سنة ٩٠٢ ثم غزا عُمان. وخلفه ابنه أبو طاهر سليمان الذي احتل البحرين (٩٢٢) وخرّب معظم العراق الجنوبي واحتل الكوفة سنة ٩٢٤ ونهبها، وقطع

طريق الحج. ثم هاجم الاسماعيليون مكة اثناء موسم الحج سنة ٩٢٠ واستولوا على الحجر الاسود ونقلوه الى عاصمتهم ليعلنوا نهاية الحكم الاسلامي السني واحتفظوا به الى سنة ٩٥١ حين اعادوه بعد تدخل الخليفة الفاطمي والحصول على مبلغ ضخم دفعه العباسيون.

من مركزهم في سُلَمية استولى القرامطة على دمشق سنة ٩٦٨ وحاصروا القاهرة سنة ٩٧١ اذ كانت هلاقتهم بالفاطميين، رغم كونهم اسماعيلية، تتراوح بين مد وجزر. وقد اضطر العباسيون والفاطميون الى عقد هدنة معهم لقاء دفع جزية سنوية.

من اشهر مريدي القرامطة الشاعر الشهير ابو طيب المتنبي (٩٥١ - ٩٦٥) الذي انضم اليهم بعدما استولوا على الكوفة وحاش بينهم رقاد ثورة قرامطية في سوريا (٩٢٢) كانت فاشلة فقبض عليه وسُجن سنتين ثم اعلن رجوعه عن العقيدة الاسماعيلية فاطلق سراحه (٩٢٥) وصار شاعرا متجولا.

بين القرنين العاشر والحادي عشر كان اتباع قرمط والجنابي يشنون الغارات من مقرهم في الاحساء وفي سُلَمية (سوريا) فيعيشون فسادا في بلاد الشام والعراق ويستبيحون الدماء. ووصلت الفتن والقتل والاضطرابات التي اثاروها الى خراسان واليمن فاصبحت هي بدورها مراكز للفتن والنقمة. (١١٦) جاءت نهاية القرامطة عام ١٠٧٧ بثورات قامت بها ضدهم قبائل بدوية وكانت عوامل الضعف والانشقاق قد استبدت بالحركة.

الحشاشون

انتقلت تعاليم القرامطة بعد سقوطهم الى الفاطميين في مصر ومن هؤلاء نشأت الطائفة الدرزية والفرق الاسماعيلية الجديدة التي عرفت باسم الحشاشين. وبعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر (١٠٩٤) انقسم الاسماعيليون الى فرقتين فاعترفت اسماعيلية مصر بابنه المستعلي، فيما ايد اسماعيلية ايران وسوريا ابنه الاكبر نزار.

قاد النزاريين حسن الصباح ثوفي ١١٢٤ وهو في الراجح فارسي من طوس انتسب الى الباطنية وتعاليمها واستولى سنة ١٠٩٠ بمساعدة حلفاء من الغرس على قلعة الاموت وجعلها قاعدة حكمه وهي حصن جبلي منيع ومرتفع

يقع في جبال البورز تسيطر على الممر الأقصر مسافة ما بين شواطئ بحر قزوين ومرتفعات إيران. وقد عُرف اتباع حسن الصباح باسم الحشاشين لأن الصباح كان يستعمل الحشيش لأغرائهم والسيطرة على أذهانهم وضمان طاعتهم المطلقة، وقد مارس بواسطتهم الإرهاب والاغتيالات كوسائل لتحقيق أغراضه السياسية فما كان أمير أو حاكم في ذلك الزمن يأمن على نفسه من الاغتيال، وأشهر ضحاياه الوزير السلجوقي نظام الملك الذي قتله حشاش تنكر بزي صوفي. كما رفع حسن الصباح عمل التجسس إلى مرتبة فنية عالية وكانت عيونه منبثة في كل قصر وبلاط.

في نهاية القرن الحادي عشر أصبح لحسن الصباح القائد الأكبر للجماعة، شبكة من القلاع الحصينة منتشرة في إيران والعراق مع فرق من الإرهابيين المخلصين وهدد كبير من الجواسيس منبثين في المدن والمعسكرات عملوا على إضعاف الدولة السلجوقية وأغتالوا عددا كبيرا من قادة الجيش ورجال الدولة.

في بداية القرن الثاني عشر استند نشاط الحشاشين إلى سوريا فاستألفوا إليهم رضوان بن تنش أمير حلب السلجوقي (توفي ١١١٢). وفي سنة ١١٤٠ احتلوا حصن مصياف وحصونا أخرى كثيرة في جبال النصيرية المشرفة على البحر المتوسط منها قلعة الكهف والقدموس والعليقة بزعامة رئيسهم راشد الدين سنان (شيخ الجبل) المتوفي سنة ١١٩٢ الذي جعل قاعدته في حصن مصياف واستقل عمليا عن القائم في قلعة الأموت في إيران، ١١٧٢.

لعب الحشاشون دورا هاما في الحروب بين الصليبيين والسلاجقة فكانوا يتعاملون مع الفريقين حسبما تقتضي به مصالحهم. وجاءت نهاية الحشاشين في إيران على يد هولاكو خان الغولي الذي دمر قلعة الأموت. وفي سوريا سنة ١٢٧٢ على يد السلطان بيبرس الأول من المماليك.

لا يزال من النزاريين والأسماعيليين طائفة تعد بالملايين في سوريا وإيران وأواسط آسيا وشرق أفريقيا وخصوصا في الهند والباكستان حيث يُعرفون باسم "الخوجة" ويتبعون الإمام آغا خان الذي يرجع نسبه إلى "داعي دماء" قلعة الأموت ومنه إلى اسماعيل الإمام السابع. وقد نقل آغا خان مقامه من إيران إلى الهند عام ١٨٤٠ على أثر خلاف مع الشاه. أما اتباع المستعلي

فبقوا ناشطين في اليمن بعدما قضى صلاح الدين على الدولة الفاطمية (١١٧١). وقد اعتبروا ان الطفل الطيب حفيد المستعلي هو الامام المستور وسيظهر في زمن لاحق. وحتى ذلك الزمن فان "الداعي الاكبر" يمارس السلطة الروحية والزمنية. وقد نزح الداعي الاكبر في القرن السادس عشر من اليمن الى مدينة سورات في الهند وتعرف اتباعه الان باسم "البحرة" (١١٨١) واتباع الفرقتين الخوجة والبحرة اصحاب همة ونشاط وباع واسع في اعمال الاقتصاد والتجارة.

الاثنا عشرية أو الامامية

الامامة عند الاثني عشرية هي المقام الذي تتجلى فيه الارادة الالهية في كل لحظة. والامام هو محمد ابو القاسم الذي غاب سنة ٨٨٥ وكان عمره سبع سنوات. تتركز تعاليمهم حول الخلافة او الامامة في اربعة مواضيع متشابهة هي العصمة، والمهدية، والرجعة، والتقية. (١١١١)

يقصدون بالعصمة ان الائمة كالانبياء معصومون طول حياتهم لا يرفكبون صغيرة ولا كبيرة، ولا تصدر عنهم اية معصية، ولا يقومون في خطأ او نسيان. اما ما دعا الى نصب الامام فهو جواز الخطأ من الامة وحاجتها الى هادي لتنفادي ذلك وهذا الهادي او المهدي هو الامام المنتظر. وقد غاب الامام الثاني عشر محمد ابو القاسم وسيمود بعد غيبته قيعلاً الارض عدلاً كما ثلاث جواراً وهذا ما يسمى "الرجعة".

وهذا الامام موجود من حين ولادته الى اخر الزمان لان كل زمان لا بد فيه من امام معصوم، وغيره غير معصوم فيكون هو الامام. واما سبب خفائه فلصلحة استأثر الله بعلمها.

وقد وضعت في الرجعة احاديث كثيرة عن النبي لكن البخاري ومسلم لم يأخذا بها.

اول من تكلم في الغيبة والرجعة كان كيسان مولى علي بن ابي طالب الذي اعتبر ان الامامة انتقلت من علي الى ابنه محمد ابن الحنفية بعد مقتل الحسين فلما توفي محمد لم يؤمن الكيسانية بموته وقالوا بنبيته وانتظار عودته، وانه مقيم في جبل رضوى في جوار المدينة. قال في ذلك شاعرهم

كثير، عزة وهو كيساني :

ولا الحق اربعة سواء	الا ان الائمة من قریش
هم الاسياط ليس بهم خفاء	علي والثلاثة من بنیه
وسبط غيبتة كربلاء	فسبط سبط ايمان وير
يتود الخيل يقدمها اللواء	وسبط لا يذوق الموت حتى
برضوى عنده وصل رماء	فغيب لا يرى فيهم زمانا

وكانت الغيبة والرجعة اساسا لفكرة الامام المنتظر عند الامامية الاثني عشرية. وقد انكر الشيعة الاجماع كاصل من اصول التشريع لانه يؤدي الى الاخذ باقوال غير الشيعة وهم الاكثر عددا. وانكروا القياس لانه رأي، والدين لا يؤخذ بالرأي وانما يؤخذ عن الرسول وعن الائمة المعصومين.

بقي المبدأ الرابع عند الشيعة بعد العصمة والمهدي والرجعة، وهو التقية. ومعناها ان يحافظ المرء على نفسه او عرضه او ماله مخافة عدوه فيظهر خيرا ما يُظن. وقد دفعهم الى ذلك الاضطهاد الذي تعرضوا له اجيالا هلى يد الحكام السنة فلجأوا الى الدلالة والكتمان والتظاهر بما ليس هو الحقيقة. فصارت التقية مكملة لتعاليمهم تواصلوا بها وعدوها مبدأ اساسيا في حياتهم وركنا من دينهم ورووا فيها كثيرا عن اتصتهم وابتنى عليها تاريخهم. فاحذائهم كلها اساسها امام مختفي او مستتر يدمر الى نفسه في الخفاء ويبث دعاه في الامصار فيأخذون له العهد من انصارهم ويطالبونهم بالكتمان والتظاهر بالطاعة الى ان يحين موعد الثورة. وكثيرا ما يوافق الشيعة اهل السنة في صلاتهم وصيامهم ومظاهر دينهم تظاهرا ويحتلون الكلام معاني خفية وظاهرة وهذه كلها تقية. (١١٠)

وقد اكثر بعض الشيعة من لعن ابي بكر وعمر وعائشة وحفصة ومعاوية ويزيد وغيرهم ولهم ادعية معروفة في لعن هؤلاء وامثالهم. ولا يأخذون الحديث والعلم الا ممن كان شيعيا ولا يشقون براوية تاريخ الا ممن كان منهم.

وقد حصل التباس باسم الشيعة ما بين المهديين الاموي والعباسي فالشيعة في الدولة الاموية كانوا بني هاشم من علويين وعباسيين لانهم كانوا عصابة واحدة في عدائهم للامويين. اما في العصر العباسي فكانت الشيعة

محاصرة في العلويين وصار العباسيون خصومهم وتكلموا بهم كما فعل الامويون سابقا.

يشكل الاثنا عشرية نحو تسعين بالمائة من الشيعة وقد ازداد عددهم لما فرض شاه عباس (١٥٨٦ - ١٦٢٩) المذهب الشيعي الامامي على سكان ايران. وللتني عشرية امتداد واسع في العراق حيث يشكلون أكثر من نصف السكان، وفي لبنان في منطقتي البقاع والجنوب وكذلك على الشاطئ الغربي للخليج الفارسي في المملكة العربية السعودية.

غلاة الشيعة

تفرعت عن الشيعة فرق متعددة متطرفة عرفت باسم "غلاة الشيعة" اتخذت مبادئ ايمدها عن الاسلام فبعضها آله عليا بن ابي طالب فقالوا 'حل في حلي جزء الهي واتحد بجسده فيه' وذكروا ان اول من دعا الى تاليه علي هيد الله ابن سبا اليهودي وكان ذلك في حياة علي وهو الذي سرك الصحابي ابا ذر الغفاري للدعوة التي نسميها الان اشتراكية، واول من قال بغياب الامام ورجعته.

ومن غلاة الشيعة النصيرية الذين يسكنون جبال العلويين في سوريا والدروز في سوريا ولبنان واسرائيل. وقد ورد ذكر فرق الغلاة بتفصيل في كتاب 'الفرق بين الفرق' لبلدادي، وكتاب 'الملل والاهواء والنحل' للشهرستاني، وكتاب 'الفصل في الملل والنحل' لابن حزم، وهذه الابحاث لا تدخل في موضوعنا.

ولاية الفقيه في الجمهورية الايرانية

كيف تطبق الشيعة الامامية نظريتها السياسية في هذا العصر؟ لقد اعطتنا "جمهورية ايران الاسلامية" في دستورها ومبادئها المعلنه وتعاليمها داخليا وخارجيا صورة واضحة من هذه النظرية. فقال الامام آية الله روح الله الخميني مؤسس الجمهورية الاسلامية انه في عصر غيبة الامام يكون "الفقيه" هو وصي النبي وامام المسلمين وقائدهم، وهو "حجة الله" اي ان الله عينه وجمله مرجعا للناس واناط به تدبير أمورهم في جميع الشئون وكذلك

الفقهاء. فكل ما كان يُناط بالنبي فان الائمة اناطوه بالفقهاء من بعدهم فهم المرجع في جميع الأمور وهم مفوضون بالحكم وولاية الناس. والفقهاء هم "حكام على الملوك". فالحكام الحقيقيون هم الفقهاء. اما السلاطين فيحكمون تحت اشرافهم. فاذا قام على الحكم فقيه عالم عادل فانه يلي من أمور الناس ما كان يليه النبي، ومن بعده الائمة. هذه للولاية والحاكمة تنتقل الى الفقيه في غيبة الامام.

هذه نظرية "عموم ولاية الفقيه" التي شرحها الامام الخميني وقتنها "الدستور الاسلامي لجمهورية ايران الاسلامية" الصادر في ١٥ نوفمبر ١٩٧٩ فقرر وصاية الفقهاء على الامة وانفرادهم بالسلطة العليا في الدولة، واعطى آية الله العظمى الامام الخميني هذه الوصاية وولاية الامر وكل المسئوليات الناشئة عنها. وفي حال غيابه يتكوّن مجلس الفقهاء من ثلاثة او خمسة من الفقهاء الحائزين على مرتبة "المراجع" يعينهم الوصي ويقومون مقامه.

وقد نصت المادة ١١٠ من الدستور على سلطات الامام الوصي ومنها :
انه راس للجهاز القضائي يعين القضاة ويعزلهم، وهو القائد العام للقوات المسلحة له الحق باعلان الحرب والسلام، والتعبئة العسكرية، وتعيين رئيس اركان الجيش وعزله، وتشكيل مجلس الدفاع الوطني الاعلى، وتعيين قادة قوات الجيش الثلاثة البرية والجوية والبحرية وعزلهم. وله التصديق على انتخاب رئيس الجمهورية وحق عزله، والموافقة على المرشحين لهذا المنصب او رفض ترشيحهم.

وقد ميزت نظرية "عموم ولاية الفقيه" بين السلطة الحقيقية في الدولة التي هي الفقهاء العدول وعلى رأسهم الامام الوصي، الذين من شأنهم اقامة العدل بين الناس، وتوفير الامن، وتثبيت القيم الاجتماعية حسب نصوص الدين، وبين الادارة التنظيمية التي يمكن للفقهاء ان يستعينوا فيها برجال الاختصاص.

وقد كوّن الشيعة طبقة دينية من الفقهاء ذات مراتب متدرجة والقاب متميزة مثل "آية الله" "وجه الاسلام" "المراجع" وعلى رأسها الفقيه للوصي، وفي ادناها جمهور "الملاي" المنتشرين في القرى واحياء المدن. لكن التدرج من مرتبة الى اخرى يبقى غامضا لانه لم يوضع نظام يقرر المواصفات المطلوبة لكل

مربية وبقي الامر خاضعا لما يحوزها الشخص من تقدير عام لعلومه وتقواه ودينه.

ان السلطة الفاتكة التي يتمتع بها "الفقيه الوصي" كممثل للامام الغائب وكنائب عنه، والنظرية الشيعية التي تمنح الامام حق الاجتهاد في كل عصر، يمكن ان تؤدي الى اجتهادات جديدة تنقل المجتمع الشيعي الى ما يتوافق مع حاجات العصر. لكننا رأينا الثورة الإسلامية في ايران تسير في منحى معاكس وتتمسك اشد التمسك بالمفاهيم القديمة مما يحمل على التساؤل : هل يستطيع الفقيه الوصي حقا ان يمارس الاجتهاد اذا اراد تطوير بلده ومجتمعه بينما هو نتاج بيئة دينية مغرقة في التقليد وقد تكونت عقلية ونمط تفكيره من خلال حياته الطويلة في هذه البيئة مع قدر قليل من الاختلاط والاحتكاك بالمجتمع خارجها؟ ألا يؤدي هذا الوضع 'بالوصي' الى البقاء ملتزما بمفاهيم بيئته ومحافظة على تقاليدها، وهل من الممكن تصور ثورة فكرية تعم هذه البيئة وتغير مفاهيمها واتجاهاتها؟

الاسلام والعلاقات الدولية

لا يوجد في القرآن والحديث شيء يتعلق بنظرية العلاقات الدولية بل جاءت هذه النظرية نتيجة اجتهادات في عصور لاحقة. وقد بُنيت هذه النظرية على اساس ان الجماعة الاسلامية وحدها هي موضوع النظام القانوني والاخلاقي في الاسلام، في حين ان الجماعات البشرية الاخرى يجب ان تكون في وضع الخضوع لذلك النظام.

وقد قسم الاسلام العالم الى قسمين : 'دار الاسلام' التي تضم المناطق الاسلامية وغير الاسلامية الخاضعة للسيادة الاسلامية، 'ودار الحرب' التي تشمل باقي العالم. تضم 'دار الاسلام' جماعة المسلمين، واهل الكتاب الذين يدفعون الجزية ويتمتعون بحقوق مدنية جزئية. ودار الاسلام هي نظريا بحالة حرب دائمة مع باقي دول العالم ما دام هدف الاسلام النهائي هو السيطرة على البشرية بأكملها. لكن حالة الحرب كان يمكن استبدالها باتفاقات هدنة مع الدول المعادية لا تزيد مدتها عادة عن عشر سنوات. فاذا حصل ذلك تتبدل حالة الحرب الى علاقة عدم اعتراف متبادل دون ان يعني ذلك مساواة

بين الفريقين. فإذا فاضت الدولة الإسلامية دولة غير إسلامية فإن ذلك لا يشكل اعترافاً بها بل إقراراً ضمنياً أن سلطة وإقامة أخرى قائمة لم يستطع الإسلام بعد أن يسيطر عليها.

فالدولة الإسلامية لم تعترف بدولة غيرها عندما كانت قوية.

ما بين "دار الإسلام" و"دار الحرب" ظهرت حالة وسطى سُميت "دار العهد" أو "دار الصلح" وتعني أن يستمر حاكم غير مسلم بحكم بلده مع درجة من الاستقلال الداخلي تحت شكل من السيادة الإسلامية لقاء دفع مبلغ سنوي. وتختلف درجة الاستقلال بين بلد وآخر، مثال ذلك الاتفاق الذي جرى عام ٦٥٧ ما بين والي مصر ومملكة النوبة المسيحية، واتفاق معاوية مع أمراء أرمينية.

في أيام العثمانيين كانت "دار العهد" مرحلة في ضم المقاطعات الأوروبية إلى الدولة العثمانية. وفي زمن تقلص النفوذ العثماني أصبحت أحياناً مرحلة على طريق الاستقلال الكامل عن السلاطين. ما بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر كثر عدد الدويلات الإسلامية المستقلة فاضطر المسلمون إلى القبول بمبدأ "التعايش" ومبدأ السيادة الإقليمية للدول. ثم برزت دولتان إسلاميتان رئيسيتان هما الدولة العثمانية السنية، والدولة الصفوية الشيعية في إيران وكان ذلك أول انقسام دائم في العالم الإسلامي.

ثم بدأ ظهور الدول المسيحية القوية فاضطر المسلمون إلى تعديل نظريتهم بشأن العلاقات الدولية فوقع السلطان سليمان القانوني مع فرنسا سنة ١٥٢٥ أول وثيقة رسمية من العلاقة السلمية بين دولة إسلامية ودولة مسيحية.

في هذا العصر انتسب الدول الإسلامية إلى الأمم المتحدة مما يشكل اعترافاً منها بالتساوي مع الدول الأخرى غير الإسلامية وتخلياً عن النظرية السابقة.

أحكام أهل الكتاب : الشروط العمومية

أهل الكتاب في الإسلام هم اليهود والنصارى والصابئة الذين يعيشون مع المسلمين في ظل الحكم الإسلامي. وقد ذكرنا في الفصول السابقة عدداً

من الآيات المتعلقة بهم، بعضها يذكرهم بالرفق واللين، وبعضها يقسو عليهم ويجعلهم مع الكفار والمشركين. فإذا أصروا على البقاء على دينهم بعد الفتح وجب أن يدفعوا "الجزية" وهي دليل على الطاعة والخضوع، وثمن كف الأذى عنهم، وبدلاً من الخدمة في الجيش. لذلك أطلق عليهم لقب "أهل الذمة" لأنهم في ذمة المسلمين أي تحت حمايتهم فلا يتساوون معهم بالحقوق والمقام. "والجزية" ضريبة سنوية يدفعها الرجل الذمي إلى الدولة يتقرر مبلغها حسب وضعه المالي.

وقد تقررت مكانة أهل الذمة بآيتين الأولى موجهة إلى المسلمين : "كنتم خير أمة أخرجت للناس..." (١١٢١) والثانية تبين كيفية التعامل مع أهل الكتاب ونقول : "قاتلوا... الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون." (١١٢٢)

فالآية الأولى وضعت المسلمين في المقام الأعلى بين الشعوب، والآية الثانية لرضت النذل على أهل الكتاب بموجب الأمر بأن يدفعوا الجزية "وهم صاغرون" أي هاجزون أذلاء حسب تفسير البيضاوي الذي ذكرناه في الفصل الثاني. لكنه رغم أن الجزية تقتصر على أهل الكتاب وإن القتل أو الإسلام هو مصير الوثنيين، فإن كثرة عدد هؤلاء في البلاد المفتوحة وحاجة المسلمين إلى إبقائهم ينتجون ليدفعوا الضرائب لبيت المال، اضطرتهم لتوسيع دائرة الآية المتعلقة بالجزية فطبقوها على اتباع زرادشت وهم معظم سكان إيران، وعلى الوثنيين من البربر في شمال أفريقيا، وعلى الأتراك في أواسط آسيا، وهكذا قامت الضرورة مقام النظرية القرآنية. (١١٢٣)

جرى تنظيم العلاقة اليومية بين المسلمين وأهل الذمة في مختلف نواحي الحياة أيام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الذي وضع قواعد هذا التعامل فيما عرف باسم "الشروط العمرية" وقد شرحها وفصلها ابن القيم الجزية وهو تلميذ ابن تيمية، توفي سنة ١٢٥٠ في كتابه بالمعنوان نفسه، وحقق الكتاب الدكتور الشيخ صبحي الصالح من اساتذة الجامعة اللبنانية في بيروت. يقول الشيخ صبحي الصالح في مقدمة كتابه : "إن الباحث في أحكام الشريعة الإسلامية في أهل الذمة يستطيع الوصول إلى تلك الأحكام من أيسر السبل إذا جعل نصب عينيه الشروط العمرية وعندها رقيقة تاريخية سواء

اصحّت نسبتها الى عمر ام لم تصح، لان كتاب هذه الشروط الذي تعددت رواياته لم يختلف مضمونه الا قليلا، وقد تلقاها الاتمة بالقبول وانفذوا مضمونها وهي لم تهمل شيئا ذا علاقة بالذميين من قريش او بعيد".
مما يحصل على الاعتقاد بان هذه الشروط من وضع الخليفة عمر انه اصدر كثيرا من الاوامر لولائه عن كيفية معاملة اهل الذمة ظهرت فيما بعد في كتاب "الشروط السرية".

فصول الكتاب (١٢١)

يتألف كتاب ابن القيم الجوزية من ستة فصول تنظم جميع نواحي الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية لاهل الذمة في الدولة الاسلامية وقد حظيت هذه الاحكام بالقبول من جمهرة الفقهاء، نذكرها فيما يلي باختصار :

الفصل الاول - احكام البيعة والكنائس

تقسم البلاد الاسلامية التي يسكنها اهل الذمة الى ثلاثة اقسام :

١ - بلاد انشأها المسلمون كالكويت والبصرة وواسط وبغداد والقاهرة وغيرها. هذه البلاد صافية للامام يستطيع ان يسمح لاهل الذمة بسكنها لكن لا يجوز ان يسمح لهم باحداث بيعة او كنيسة. فقد قال الرسول : " لا خصاء في الاسلام ولا كنيسة". وكرر عمر بن الخطاب نفس الحديث.

٢ - البلاد التي فتحها المسلمون بالقوة.

هذه لا يجوز ان يحدث فيها شيء من البيعة والكنائس. اما ما كان فيها قبل الفتح فقد اختلف الفقهاء في وجوب بقاءه او وجوب هدمه. وفصل الخطاب ان يقال : ان الامام يفعل في ذلك ما هو الاصلح للمسلمين، ويمنع ترميم ما تهدم من الكنائس، ولا يسمح ببناء كنائس جديدة.

٣ - البلاد التي احتلها المسلمون صلحا.

تتبع اوضاع الكنائس فيها شروط الصلح. قال ابن حنبل (٧٨٠ - ٨٥٥)

لهم ما صولحوا عليه فان كان في عهدهم ان يزيدوا في الكنائس فلهم والا لا.

وما انهدم فليس لهم ان يبنيه. وقد اختلف الفقهاء في جواز الترميم او عدم جوازه.

٢ - احكام الابنية والدور : لا يجوز للنصراني او لليهودي ان يبني بيتا اعلى من بيوت المسلمين لان الاسلام يعلو ولا يُعْلَى ومنع التعلية من حقوق الدين لا من حقوق الجيران. اي ان موافقة الجيران لا قيمة لها اذا حصلت. كذلك يُمنع أهل الذمة من صدور المجالس ويُلجئون الى اضيق الطرق حسب الحديث : " اذا لقيتموهم في الطريق فاضطروهم الى اضيقه".

الفصل الثاني - شرح المنكر من اقوالهم وافعالهم

تنص هذه الاحكام على ان كل من ذكر الله او القرآن او النبي او الاسلام بما لا ينبغي، او فتن مسلما عن دينه، او قطع عليه الطريق، او اعان الاعداء بدلالة على المسلمين، او آوى جاسوسا، فقد نقض عهده وأُحِلَّ دمه وماله.

ويكفي ان ينقض العهد بعض الذميين ليمائب الجميع. فان بني قَيْنِقاع وبني النضير وبني قريظة من اليهود لما نقض بعضهم العهد مع الرسول امر بحرب الجميع وان كان النقض وقع من بعضهم فقط.

وتنص هذه الاحكام ايضا انه لما كان الضرب بالناقوس او دق الاجراس هو شعار الكفر فقد وجب عليهم تركه. ولما كان الصليب من شعار الكفر الظاهرة فانهم ممنوعون من اظهاره لان ذلك بمنزلة اظهار الاصنام. ولا يجوز لهم اظهار اشارة الصليب على ابواب كنائسهم وظواهر حيطانها لكن لا بأس اذا نقشوا ذلك داخلها.

وكتب الخليفة جسر بن عبد العزيز الاموي لولائه (٧١٧ - ٧٢٠) : "امنعوا النصارى من رفع اصواتهم في كنائسهم فانها ابغض الاصوات الى الله ولولاها لن تُخَفَضَ".

وقد شملت الاحكام المراسم الدينية. فُمنع النصارى من اخراج باعوث (احتفال ديني بعد عيد الفصح) او شعائين (في الاحد السابق للفصح)، كما مُنعت من رفع اصواتهم مع موتاهم لما فيه من اظهار شعار الكفر، وكذلك اظهار النيران اما بالشمع او السراج او المشاعل ونحوها فقد سبى الله

اعيادهم ذورا والزور لا يجوز اظهاره بموجب الآية : "والذين لا يشهدون الزور"، كما لا يجوز للمسلمين ان يحضروا اعياد النصارى واليهود لانه اذا خالط اهل المعروف اهل المنكر بغير الانكار عليهم كانوا كالراضين به.

وروي عن النبي : "رب جنازة ملعونة ملعون من شهدها" وهي جنازة اهل الذمة (عن سعيد بن المسيب) وقد بقيت هذه المعاملة مستمرة الى وقت غير بعيد أيام الخلافة العثمانية.

وقد منع اهل الذمة من حمل امواتهم في اسواق المسلمين او في الطرق الواسعة التي يمر بها المسلمون، وانما يقصدون المواضع الخالية التي لا يراهم فيها احد من المسلمين.

ومنعوا من بيع الخمر ظاهرا لان ذلك من المنكر العظيم، وكذلك نقلها من موضع الى موضع في البلد وخارجها. ويجب حرق متاعهم وكسر اوانيهم التي تحتوي الخمر.

القصل الثالث - ما يتعلق بالمظهر في اللبس والركب وشيخه

جاء في الحديث : "تُبعت بالسيف بين يدي الساعة حتى يُعبد الله لا يشرك به، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم". واستدل الفقهاء ان اهل الذمة اعظم خلافا لامر الرسول واعصاهم لقوله فهم اهل ان يُذَلَّوا بالتغيير عن زي المسلمين الذين اعزهم بطاعته. اما الذين عصوا الله ورسوله فاذلهم وصغرهم وسخرهم حتى تكون سمة الهوان عليهم فيُعرفوا بربهم.

وقد نهى الرسول ان يُبدا اليهود والنصارى بالسلام. فاذا سلم احدهم "السلام عليكم" نجيبه "وعليكم".

كتب عمر بن الخطاب الى الامصار ان تُجَزَّ نواصي اهل الذمة حتى يُعرفوا، والناصية هي مقدار ربع الرأس فاذا كان ريمه مخلوقا كان علما ظاهرا بأنه ذمي. ومنعهم من ركب الجياد لان ركوب الخيل عز وليسوا من اهل. ويكلفون ركب الحمير والبغال. ومن الكلام الشائع : ركب الحمار ذل، وركوب الخيل عز.

وامر عمر اهل الذمة ان لا يركب يهودي او نصراني ونساؤهم على

سروج فوق الحميمير أو البغال بل على مرادع لوهي قطع من خيش أو ما شابه
توضع على ظهر الدابة تحت السرج وتكون أرجلهم جميعا إلى جانب واحد .
ركان اللباس موضوع العناية الشديدة في التفريق بين المسلمين وأهل
الذمة ونجد الإشارة إليه في جهود المحتسبين كلهم . أما القوارق الأخرى فقد
تظهر أحيانا . وقد تغيب أحيانا أخرى .

وكان ينبغي على أهل الذمة أن يلبسوا الزنابير وأن يشدوا المناطق ولا
يلبسوا حريرا ولا خزا . ويجب أن تكون ثعالهم مخالفة لثعال المسلمين
ليحصل التمييز وعدم المشابهة في الزي الظاهر .

أما كون الملابس فالنصاري يختصون بالرمادي . أما الأصغر فيؤمنون من
لبسه إذ كان الرسول يلبسه وكذلك الخلفاء بعده . وكان زي الانصار . وإذا
خرجت المرأة الذمية إلى السوق فيجب أن يكون أحد خفيها أحمر حتى
يعرف أنها ذمية .

تنفيذا للشروط العبرية نصح الامام أبو يوسف لهارون الرشيد في كتابه
"الخراج" أن يأمر بأن يجعل الذميون في أوساطهم زفانير مثل الخيط
الفليط . وأن تكون قلانسهم مضرية الألوان . وأشار أبو يوسف إلى أن عمر بن
الخطاب كتب إلى عماله أن يختموا رقاب أهل الذمة . وقد نفذ هارون الرشيد
النصيحة فأمر بهدم الكنائس في الثغور وأمر أهل الذمة في بغداد بمخالفة
هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم .

وكتب عمر بن الخطاب إلى أهل الشام أن يمنموا نساءهم من دخول
الحمام مع الذميات .

ويُمنع أهل الذمة من تقلد السيوف فإن السيوف عز لاهلها وسلطان .
كذلك يُمنعون من اتخاذ انواع السلاح وحملها على اختلاف اجناسها كالقوس
والنشاب والرمح .

ولا يقوم المسلم للذمي . ولا يصدره المجلس . ولا يقبل يده . ولا يخاطبه
بأخي وسيدي وولائي ونحو ذلك لانه حرام قطعا . ولا يجوز أن يُسعى الذمي
سديدا ولا رشيدا ولا مؤيدا ولا صالحا ونحو ذلك . وإن تسمى بشيء من
هذه الاشياء لم يجز للمسلم أن يدموه به . بل ان كان نصرانيا قال له : يا
مسيحي . يا صليبي . ويقال لليهودي : يا يهودي . يا اسرائيلي .

الفصل الرابع - أسلوب التعامل المالي والتجاري

نهى الرسول عن مشاركة اليهودي والنصراني إلا أن يكون البيع والشراء بيد المسلم. لأن الذمي لا يتوقى مما يتوقى منه المسلم من العقود المحرمة وبيع الضر والخنزير ويتناول الربا.

الفصل الخامس - أحكام للضيافة

يجب على الذمي استضافة المسلم ثلاثة أيام يقدم فيها للمسلم من الطعام المعتاد، ولا يكلف باللحم والدجاج.

الفصل السادس - عقوبات الذميين

جاء في القرآن : "وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهد وطعنتوا في دينكم فقاتلوا أنمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون". لذلك فإن من ضرب مسلماً فقد خلع عهده لأن عقد الذمة اقتضى أن يكونوا تحت الذلة والقهر، وإن يكون المسلمون غالبين عليهم، فإذا ضربوا المسلمين كان ذلك نقضا لعهد الذمة.

وكل من شتم النبي أو انتقصه مسلماً أو كافراً، فعليه القتل إذا قامت عليه البيّنة. جاء في القرآن : "الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة". ويزي عن علي بن أبي طالب "من سب نبياً فاقتلوه، ومن سب صحابياً فاجلدوه. ومن زنى بمسلمة فهو أولى بنتنض المهد ويجب أن يقتل. أما المرأة فإن كانت طارعة لقيم عليها الحد، وإن استكرهها فلا شيء عليها".

الذميين وولاية المسلمين

تُجمع كتب الفقه على أنه لا يجوز لذمي أن يتولى منصباً يسوس فيه المسلمين وليست له حقوق سياسية في الدولة. وقد أوصى الفقهاء على مدى العصور بمنع استخدام غير المسلمين في وظائف سياسية أو في إدارة شئون المسلمين. وقد استخدم أهل الذمة بأعداد كبيرة في مختلف دوائر الحكم لكن في وظائف إدارية وكتابية. وقد استخدم أبو موسى الأشعري عامل عمر

بن الخطاب على البصرة احد النصارى كاتباً له فقال عمر : فانك الله، وليت ذمياً على المسلمين! فقال ابو موسى، يا أمير المؤمنين، لي كتابته، وله دينه. فقال عمر : لا أكرمهم اذ اهانهم الله، ولا ارفعهم اذ اذلهم الله ولا ادنيهم اذ اقصاهم الله! ويروون لعمر بن الخطاب ايضاً هذه الجسلة : لا تستعملوا اليهود والنصارى في الوظائف، لانهم اهل رشا ولا يحل في الاسلام الرشاً. لكن استبعاد اهل الذمة عن الوظائف لم يكن ممكناً لسببين : اولاً، حاجة الدولة الاسلامية الى كفاءاتهم، وثانياً اطمئنان الخليفة الى ولائهم اذ لا مطمع لهم بالخلافة. لذلك نجد اسماً نصارى ويهود تولوا مناصب هامة خاصة في اليهود التي اتصفت بالتسامح والابتعاد عن التعصب الديني كالعهد الاموي، وبعض الخلفاء العباسيين، وعهد الفاطميين. لكن هذه التبعينات لم تكن تعني ابداً ان للذميين حق المشاركة في حكم بلدهم.

من ناحية اخرى، حافظ اهل الذمة على محاكمهم المذهبية التي كانت تفصل في النزاعات التي تتعلق بالاحوال الشخصية بين افراد الطائفة الواحدة كالزواج والطلاق والتفقة والنسب والوصية الخ. وهي الامور التي لا تهم المسلمين. وكانت هذه المحاكم تطبق القوانين الكنيسة، اما اذا حصل نزاع بين مسلم وذمي فالفصل فيه يغرد الى القاضي المسلم.

وقد تساءلنا في الفصل الثاني حول النموذج الذي يحيط بوضع اهل الكتاب من يهود ونصارى بالنظر الى ان بعض الآيات تدحهم ثم تنذرهم ثم تتهمهم بالكفر والشرك وتقدمو الى قتالهم، الى ان صارت "الشروط المصرية" توضح ذلك وهي حسب رأي الشيخ صبحي الصالح "وثيقة تاريخية سواء اصحّت نسبتها الى عمر بن الخطاب ام لم تصح، وقد تلقاها الامة بالقبول وانفذوا مضمونها في مختلف العهود".

هذه الوثيقة تنص في الفصل الثاني على "ان الضرب بالناقوس او الاجراس هو شعار الكفر، وان الصليب من شعائر الكفر الظاهرة فهم ممنوعون من اظهاره". وان "رفع اصواتهم في الجنائز هو اظهار لشعار الكفر، وكذلك اظهار النيران بالشمع او السرج او المشاعل في اعيادهم". فالكفر اذن هو الصفة التي تلازم اهل الكتاب حسب "الشروط المصرية".

هذا مختصر "للشروط المصرية" التي ارسى القواعد لمعاملة النصارى.

واليهود في الدولة الإسلامية منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب، وسواء صحت نسبتها إليه أو وُضعت في عهد لاحق وأسندت إليه، فقد رسخ في أذهان المسلمين لأجيال طويلة أنهم طبقة متفوقة على أهل الذمة، وأنه يجب دينا أذلال هؤلاء وإهانتهم في الحياة اليومية.

وقد مارس المسلمون ذلك وهم لا يزالون أقلية عددية في البلاد المفتوحة إذ حافظت الكثرة الكبيرة من السكان على دياناتها في القرون الأولى بعد الفتح، ولم يعم الإسلام فيها إلا بعد أجيال عديدة. وكان الاضطهاد المنظم والمستمر من العوامل الرئيسية التي دعت بالناس إلى الدخول في الإسلام هرباً من الأذلال.

من ذلك أن كثيراً من أهل الذمة أسلموا في بداية العهد الأموي تخلصاً من الجزية فكتب الولاة إلى الحجاج بن يوسف في العراق "أن الخراج قد انكسر لأن أهل الذمة أسلموا ولحقوا بالأمصار" (١٢٥)، وجرى مثل ذلك على نطاق واسع في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز الأموي فنقصت واردات الدولة نقصاً كبيراً.

وقد بقيت "الشروط العصرية" سارية المفعول في الخلافة الإسلامية يطبقها الخلفاء والسلطين والولاة بدرجة متفاوتة من الشدة أو التساهل إلى أن ألفها الخليفة العثماني عبد المجيد تحت ضغط الدول الأوروبية وأصدر "الخط الهمايوني" لسنة ١٨٥٦ الذي أعلن لأول مرة منذ قيام الخلافة، مبدأ المساواة التامة بين المسلمين في الشئون السياسية والمدنية، وأدان بصورة قاطعة في المادة الثامنة مبدأ أذلال غير المسلمين.

وبذلك أهملت "الشروط العصرية" وبدأت مسيرة المساواة بين السكان على اختلاف مذاهبهم خلال القرن الماضي. وقد بلغت هذه المسيرة درجة عالية من النجاح في أكثر البلاد ذات الاكثريّة الإسلامية عززتها دسائير نصّت على المساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات.

لكن يبقى التساؤل قائماً : كيف سيكون وضع غير المسلمين في دولة إسلامية حديثة؟ يجيب على هذا السؤال جزئياً الأستاذ محمد اسد فيقول : "يجب أن نعترف منذ البداية بأنه لا يمكن قيام دولة أو دول إسلامية بالمعنى الذي أراده القرآن والسنة بدون درجة من التمييز بين المسلمين وغير

المسلمين في الدولة. ان اية مخالفة في هذا الموضوع تشكل غشا للمسلمين ولغير المسلمين على السواء. ويتعلق الخلاف اساسا بأنه لا يمكن الوثوق بغير المسلمين لاستلام مراكز حساسة في قيادة الدولة، يترافق مع هذا ضرورة النصّ في الدستور على ان اولئك الذين يشولون السلطة العليا في الدولة الاسلامية، والمسؤولين عن تقرير سياستها وتنفيذها يجب ان يكونوا من المسلمين. (١٢٦)

فحوى ذلك ان دهاة الدولة الاسلامية يمتثلون ان دولتهم ستتألف من فريقين مختلفين بالمنزلة : فريق المسلمين الذين لهم كل الحقوق وكل السلطة والسيادة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وفريق الاخرين الذين ليست لهم حقوق تدائي حقوق الفريق الاول. وسيكون من المثير والمشوق ان نراقب كيف سيتمكن معالجة هذه المشكلة في عصر ثائر على التفرقة العنصرية والدينية، وعلى التمييز بين الرجال والنساء، وبين البيض والسود، الخ. وهل يمكن السير بعكس التيار العالمي الداعي باصرار وقوة الى المساواة بين البشر، والناقم على الدول والجماعات التي تتبنى سياسة التمييز والتفرقة؟

الخلاصة

لقد رجعنا في هذا الفصل الى الاصول في مسعانا لاستكشاف النظرية السياسية التي جاء بها الاسلام. وهو امر مهم يتناول مجتمعاتنا وجميع طوائفها الدينية ما دام الاعتقاد السائد يقول ان الاسلام "دين ودولة"، وما دام "الاسلاميون" يعلنون انهم سيعودون الى الاصول عند تنظيم مجتمعهم ودولتهم.

وقد استعرضنا في بحثنا اهداف الاسلام وطريقة تحقيقها بواسطة الجهاد، وتلاحم فكرة الدين والدولة، وقواعد نشر الاسلام، وكيفية معاملة المحاربين والمدنيين والاسرى، ومبدأ السيادة في الدولة الاسلامية، ومبادئ الحكم الوراثي والالهي، ومسألة الشورى التي بقيت فكرة طوبارية لم نوضع يوماً موضع التطبيق. وشرحنا أيضاً أسلوب البيعة ومعناها، والدعوة الى طاعة الحاكم ووحدانية الصف، ومقام العنف في التعامل السياسي، ثم الاحكام التي تنظم علاقة الدولة بالدول غير الاسلامية، وبرعاياها غير المسلمين.

هذه كلها عناصر تدخل في تكوين "النظرية السياسية الإسلامية" لكن ما افتقدناه في هذا الاستعراض هو غياب أي ذكر في الأصول الإسلامية وما تفرع عنها من اجتهادات، لمبدأ الحريات السياسية التي يتمتع بها الأفراد تجاه السلطة، واسلوب مشاركتهم بالحكم، ومبدأ "حكم القانون" أي أن يكون الحكم والمحكومون خاضعين بدرجة متساوية للقوانين النافذة، وهي أمور تشكل العمود الفقري لأيّة نظرية سياسية من ايام ارسطو واقلاطون الى عصرنا هذا.

يضاف الى ذلك ان الأصول والاجتهادات اهتمت كليا الجزء المكمل والمنفذ للنظرية وهو القواعد الدستورية والمؤسسات السياسية التي تحقق اهداف الدولة وتضبط مسيرة الحكم فتتفادى التنفير المغاخي، لان ازدهار الانسان والعمران يتطلب التركون الى اوضاع مستقرة مع استمرار التطور الهاديء للحال السياسي والاقتصادية والاجتماعية. فالحقواعد الدستورية والمؤسسات السياسية في الدولة هي التي تبين :

- ١ - كيفية تنصيب الخليفة او الحاكم.
- ٢ - كيفية انتقال السلطة من الحاكم الى من يليه بصورة سلمية بموجب قواعد مقررّة.
- ٣ - حريات المواطنين وحقوقهم السياسية، وكيفية ممارستها، وحدود هذه الحريات.
- ٤ - صلاحيات الحاكم وحدوده في ممارسة السلطة.
- ٥ - الضوابط التي تمنع الحاكم من الطغيان على الارواح والاموال والحريات.
- ٦ - طريقة مشاركة المواطنين بالحكم.

ان جميع هذه التدابير والضمانات التي لا يمكن لأيّة دولة متمدنة ان تستقر وتزدهر بدونها، مفقودة في مبادئ الحكم الإسلامية وتُركت لتدبير الاجيال اللاحقة من المسلمين ليتكيفوا مع عصورهم، لكنهم لم يفعلوا. والى الآن لا يوجد في التعاليم الإسلامية نظام لتنصيب الخليفة او الحاكم، ثم لانتقال السلطة الى من يليه. وقد بقيت الشورى كلاما عاما مهما لم تنظم النظرية السياسية ممارستها. ولا تُعرف الصلاحيات السياسية التي يتمتع بها الحاكم وما هي حدودها. وليس هناك ضوابط واضحة تمنع الطغيان على الشعب.

والضوابط الوحيدة هي التي تتعلق بالدين والمقالة بان الخليفة او الحاكم يُعزل اذا خرج عن الدين وهذه ايضا بقيت كلاما عاما لا تنص على طريقة التنفيذ واسلوبه.

وقد اهتمت الفياضي الاسلاميه بتأكيد وجوب الطاعة للحاكم والحث عليها لكنها لم تذكر حريات المواطنين وحقوقهم بكلمة ولم تبين كيفية ضمان هذه الحقوق تجاه الحكام. بل ان لفظة الحرية نفسها ليس لها وجود في القرآن والحديث ولم ترد على السنة الفقهاء المتقدمين الا بمعناها الحقوقي فيما يتعلق بتحرير الرقيق، ومع غياب اللفظ غاب المعنى ايضا في الثقافة العامة.

تجاه هذا النقص، نحاول ان نتابع تفتيشنا عن العناصر المفقودة في النظرية السياسية الاسلامية علما نجدها في الممارسات العملية للخلفاء والسلطين، وتخريجات الفقهاء اللاحقين، مما يساعدنا على استكمال بحثنا.

• • •

مراجع الفصل الثالث

منايع الدين ومياديه الحكم

- ١ - حسن البنا، مجموعة الرسائل، ص ١٨.
- ٢ - سورة الزخرف، ٢ .
- ٣ - سورة البروج، ٢١-٢٢ .
- ٤ - احمد أمين، فجر الاسلام، ج ١، ص ٢٧٢ و ٢٧٤.
- ٥ - سورة الزخرف، ٢.
- ٦ - سورة النحل، ١٠٢.
- ٧ - سورة الشعراء، ١٨١ و ١٨٢.
- ٨ - سورة التحمل، ١٠١ .
- ٩ - احمد أمين، فجر الاسلام، ج ١، ص ٢٥٢ و ٢٢٦.
- ١٠ - حنفي، فيليب، تاريخ العرب، ص ١٧٠ .
- ١١ - احمد أمين، فجر الاسلام، ج ١، ص ٢٧٥.
- ١٢ - المصدر السابق، ص ٢٤١.
- ١٣ - المصدر السابق، ص ٢٥١ و ٢٦١.
- ١٤ - المصدر السابق، ص ٢٦٧.
- ١٥ - المصدر السابق، ص ٢٥٢.
- ١٦ - المصدر السابق، ص ٢٥٦.
- ١٧ - المصدر السابق، ص ٢٥٦.
- ١٨ - سيد قطب، معالم في الطريق، ص ٢٩.
- ١٩ - سيد قطب، العدالة الاجتماعية، ص ٩٢.
- ٢٠ - حسن البنا، سيق ذكره، ص ٢٥-٢٧.
- ٢١ - سيد حوى، دروس في السبل الاسلامي، ص ٤١ و ١٠٧ و ١٠٨.
- ٢٢ - سورة آل عمران، ١٧ و ١٨.
- ٢٣ - البيضاوي، عبد الله ابن عمر، انوار التنزيل وامرار التاويل، ص ٦٩.
- ٢٤ - سورة آل عمران، ٨٤.

٢٥	— سورة الثالثة، ٢ .
٢٦	— سورة الأنفال، ٢٨ . وسورة البقرة ١٩٢ .
٢٧	— البيضاوي، سبق ذكره، ص ٢٤٠ .
٢٨	— سورة التوبة، ٧٣ .
٢٩	— سورة البقرة، ١٩٠ .
٣٠	— سورة البقرة، ٢١٦ .
٣١	— ابن تيمية، السياسة الشرعية، ص ١٢٤ .
٣٢	— هيكل، سبق ذكره، ص ٢٢ .
٣٣	— ابن تيمية، سبق ذكره، ص ١٢٥ .
٣٤	— المصدر السابق، ص ١٢٦ .
٣٥	— المصدر السابق، ص ١١٧ و ١١٨ .
٣٦	— المصدر السابق، ص ١٢٢ .
٣٧	— هيكل، محمد حسين، سبق ذكره، ص ٢٥١ و ٢٥٢ .
٣٨	— حسن البناء، سبق ذكره، ص ٢٤٢ .
٣٩	— المصدر السابق، ص ٨٢ .
٤٠	— سورة البقرة، ٢١٦ .
٤١	— سورة البقرة، ٢٤٢ .
٤٢	— سورة آل عمران، ١٦٨ .
٤٣	— سورة النساء، ٧٢ .
٤٤	— سورة الصف، ٢ .
٤٥	— سورة التوبة، ١١٠ .
٤٦	— فضل الله، محمد حسين، الاسلام ومنطق العنف، ص ١٨١ و ١٨٢ .
٤٧	— البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٠٧ .
٤٨	— حسن البناء، سبق ذكره، ص ٢٢ .
٤٩	— احمد امين، سبق ذكره، ص ١٠٢ و ١٠٣ .
٥٠	— ابن تيمية، سبق ذكره، ص ١٢٤ .
٥١	— احمد امين، سبق ذكره، ص ج ١، ص ١٠٢ .
٥٢	— ابن تيمية، سبق ذكره، ص ١٢٤ و ١٢٥ .

٥٢	- احمد امين، سبق ذكره، ص ١٥٤ - ١٥٨ .
٥٤	- سورة الانفال، ٦٦ .
٥٥	- احمد امين، سبق ذكره، ص ١٥٢ .
٥٦	- جريدة الحياة، لندن، تاريخ ١١ أغسطس ١٩٨٩ .
٥٧	- سورة المائدة، ٤١ .
٥٨	- ابن تيمية، سبق ذكره، ص ٢٢-٢٧ .
٥٩	- سيد قطب، العدالة الاجتماعية، ص ١٢٨ .
٦٠	- المصدر السابق، ص ١٩٨ .
٦١	- ابن تيمية، سبق ذكره، ص ٤٠ .
٦٢	- سفر العدد، الاصحاح ٢٩، ٦-١٨ .
٦٣	- سفر يشوع، الاصحاح الاول، ١-٦ .
٦٤	- سفر يشوع، الاصحاح السادس، ١-٢٤ .
٦٥	- سفر يشوع، الاصحاح العاشر، ٢٨-٢٩ .
٦٦	- سورة آل عمران، ٢٥ .
٦٧	- ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٠٧ و ٢٢٢ .
٦٨	- ابن تيمية، السيلة الشرعية، ص ١٦٢ .
٦٩	- حسن البنا، سبق ذكره، ص ١٢٦ .
٧٠	- علي عبد الرازق، سبق ذكره، ص ٧٠-٧٣ و ٧٩-٨٢ و ١٠٢ .
٧١	- المصدر السابق، ص ٦٩ و ١٦٩ و ٢٠٠ .
٧٢	- ابن الاكبر، سبق ذكره، ج ٢، ص ٤١ .
٧٣	- ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٢، ص ١٧٩ .
٧٤	- عبد الرازق، علي، سبق ذكره، ص ١٩ .
٧٥	- سورة الشورى، ٢٦ .
٧٦	- سورة آل عمران، ١٥٨ .
٧٧	- طه حسين، علي وبنوه، ص ٢١ .
٧٨	- الخريوطي، علي حسين، الاسلام والخلافة، ص ٤٤ و ٧٤ .
٧٩	- القاسمي، ظافر، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ، ج ١، ص ١٦٨ .
٨٠	- المصدر السابق، ص ٢٢٤-٢٢٦ .

٨١	- ابن تيمية، منهاج السنة، ج ١، ص ١١٢.
٨٢	- المجلائي، منير، عبقرية الاسلام في اصول الحكم، ص ١٠٧.
٨٣	- ابن خلدون، المقدمة، ج ١، ص ٢٤٨-٢٥٧.
٨٤	- سورة النساء، ٥٨.
٨٥	- سورة الانفال، ٤٥.
٨٦	- النفيسي، عبد الله، عندما يحكم الاسلام، ص ١٦٢.
٨٧	- العجلاني، منير، سبق ذكره، ص ١٢٩.
٨٨	- محمد اسد، الطريق الى مكة، ص ١٦١ (بالانكليزية).
٨٩	- سورة التوبة، ١١٠.
٩٠	- البنا، حسن، الرسائل، ص ١٦٨.
٩١	- سورة التوبة، ٤.
٩٢	- سورة التوبة، ١٢٢.
٩٣	- سورة التوبة، ٢٨.
٩٤	- سورة التوبة، ١٢.
٩٥	- سورة البقرة، ١٩٠.
٩٦	- سورة النساء، ٨٨.
٩٧	- سورة الانفال، ٦٤.
٩٨	- سورة النساء، ٧٥.
٩٩	- سورة الصف، ٢.
١٠٠	- سورة المائدة، ٣٢.
١٠١	- سورة البقرة، ١٨٩.
١٠٢	- سورة النور، ١٧.
١٠٢	- سورة المائدة، ٩٨.
١٠٤	- سورة يونس، ٩٨.
١٠٥	- سورة البقرة، ٢٥٥.
١٠٦	- سورة الكهف، ٢٨.
١٠٧	- سورة النحل، ١٢٤.
١٠٨	- سورة العنكبوت، ٤٥.

- ١٥٩ — فضل الله، محمد حسين، الاسلام ومنطق القوة، ص ١٨٥.
- ١٦٠ — عبد الرزاق، علي، سبق ذكره، ص ٦٨.
- ١٦١ — القاسمي، ظافر، سبق ذكره، ج ١، ص ٢٢٢-٢٢٦.
- ١٦٢ — احمد امين، ضحي الاسلام، ج ٢، ص ٢١١.
- ١٦٣ — حسن الامين، اعيان الشيعة، ج ١، قسم ١، ص ٦.
- ١٦٤ — احمد امين، ضحي الاسلام، ج ٢، ص ٢١٢.
- ١٦٥ — المصدر السابق، ص ٢٧٦.
- ١٦٦ — حتي، فيليب، ص ٥٢.
- ١٦٧ — المصدر السابق، ص ٥٢٦.
- ١٦٨ — احمد امين، لجر الاسلام، ج ١، ص ٢٢٦-٢٢٨.
- ١٦٩ — احمد امين، ضحي الاسلام، ج ٢، ص ٢٢٦.
- ١٧٠ — المصدر السابق، ص ٢٤٦-٢٤٨.
- ١٧١ — سورة آل عمران، ١٠٩.
- ١٧٢ — سورة التوبة، ٢٨.
- ١٧٣ — حتي، فيليب، تاريخ العرب، ص ١١٧.
- ١٧٤ — ابن قيم الجوزية، شرح الشروط المصرية، ص ١١٦-١٤١.
- ١٧٥ — احمد امين، ضحي الاسلام، ج ١، ص ٢٦٢.
- ١٧٦ — محمد أسد، مبادئ الدولة والحكم في الاسلام، ص ٤٠ و ٤١ (بالانكليزية).

الفصل الرابع

السياسة في عهد الخلفاء الراشدين ٦٢٢ - ٦٦١

المقدمة

استعرضنا في الفصل السابق مبادئ الحكم الاسلامي كما وردت في القرآن والسنة وهي المبادئ التي يرغب بعض المسلمين بتطبيقها في مجتمعاتنا. ويعتبر الكثيرون منهم ان هذه المبادئ لم تُطبّق بعد النبوة الا في عهد الخلفاء الراشدين نوالرشد هو الهداية ضد الغي، والاستقامة على طريق الحق، وهذا العهد هو المثال الذي يريدون الاقتداء به. وسنبحث الى انة درجة يتفق تصوّرهم لهذا العهد مع حقيقته الواقعية حسبما وصفها علماء مسلمون كانوا قريبين من ذلك الزمن.

وقع على عاتق هؤلاء الخلفاء مسؤولية بناء الدولة الاسلامية بعد وفاة النبي، وتثبيت اركانها، ونشر الاسلام في العالم. وهي كلها شئون سياسية لم تسبق لهم خبرة بها. وسنبحث في هذا الفصل ما اذا كانوا وضعوا الاسس التي تصلح لبنيان دولة تكون نموذجاً للاجيال اللاحقة.

توفي النبي ولم يترك اي دليل او اشارة تُهدي المسلمين الى طراز الحكم المقبل والى من سيتولاه. ولم يكن في القرآن او الحديث ما يبيّن ذلك عدا الايتين اللتين تذكران مبدأ الشورى دون اي تفصيل لطريقة ممارسة المبدأ ولشكل الحكم الذي سينشأ عن تطبيقه. (١)

وكان النبي قد مارس بعد الهجرة الى المدينة جميع شئون الحكم فكان الأمر، والمفسر للآيات، ومنقذ احكام الشريعة، والقاضي بين الناس، ومدبر

الغزوات لنشر الدين وفائدها أحياناً، وموزع الغنائم، ومراسل الملوك، فجمع في شخصه ما يُسمّى هذه الأيام السلطة الروحية والقضائية والتنفيذية والإدارية والمسكرية. والمالية والشئون الخارجية، ولم يُعرف أنه شكّل جهازاً استشارياً تنفيذياً لايتي الشورى وإن كان يستشير بعض من حوله أحياناً، أو أنه أقام مؤسسات سياسية أو إدارية تساعد في مهماته وتكون قدوة يحتذيها خلفاؤه. فجاه القراع الذي أحدثته الوفاة، وانعدام التوجيه النبوي، وعدم وجود أية مؤسسة سياسية أو جهاز إداري يتولّى أعمال الدولة لينمّا تتم تولى حاكم جديد، تعرّض المسلمون لازمة خطيرة.

خلال مرض النبي الذي دام شهراً أو أكثر أدرك القريبون منه أن وفاته وشيكة، فابتدأت الأفكار تجول والمسامي تُبدل في من يتولّى السلطة وقيادة المسلمين بعده فقد أصبح للإسلام وجه سياسي بالإضافة إلى الوجه الديني. والزعامة السياسية سلطة وحكم وجاه ومال ومنافع، فمن الطبيعي أن تتجه إليها الانتظار وإن يكثر الراغبون.

وقد رأينا العباس عم النبي من بني هاشم يطلب من علي صهر النبي وأبن عمه أن يسأله لمن سيكون الأمر بعده. وكان الهاشميون يعتبرون أنهم أحق الناس بالخلافة لقربهم من النبي، وأقربهم إليه علي، وحجتهم أن أقرب الناس إلى النبي أولى أن يخلّفوه وإن بيت هاشم خير من بيت أبي قحافة (أي بكر).

وكان تنافس حاد بين المهاجرين والانصار.

وكان في الصحابة من يرى نفسه أحق من غيره كطلحة ابن عبيد الله، والزبير ابن العوام، وعبد الرحمن ابن عوف، وعثمان ابن عفان، وسعد ابن أبي وقاص.

وكان الرسول قد قال قبل وفاته ببضعة أيام : ايها الناس اني راضي عن أبي بكر وعمر وعلي وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن ابن عوف فأعرفوا ذلك. ١٢١ ولم يذكر بينهم أحداً من الانصار.

وكان بنو أمية يطمحون إلى لعب دور هام معتمدين على زعامتهم المكيّة ومكانتهم المالية والتجارية وصلاتهم القوية بالقبائل.

برزت جميع هذه الطموحات والمطامع والمنافسات ولعبت دوراً في اختيار

الخليفة الاول في الاسلام.

خلافة ابي بكر ٦٢٢ - ٦٣٤

ما كاد يتأكد الانصار من دخول النبي في طور الاحتضار حتى سارعوا الى الاجتماع بزعامة سعد ابن عباد ك كبير الخزرج، في سقيفة بني ساعدة، ليضمنوا للانصار زعامة الاسلام، والانصار كثرة، و"المدينة" مدينتهم في حين ان المهاجرين من قريش ما زالوا قلة غريبة وضعيفة.

دار التنافس بين الانصار والمهاجرين على قضية مصيرية : من الذي سيتولى امر الامة الاسلامية منهم، وهل سيبقى اهل المدينة تحت سيطرة المهاجرين من مكة كما كانوا ايام النبي، ان سرعة تجمع الانصار "والنبي لا يزال مسجى في فراشه لم يُقرغ من امره بعد وقد اغلق اهله الباب دونه" يدل على اهتمامهم وتحفزهم.

خشى المهاجرون بأس الانصار فلزموا بيوتهم، ولجا علي والزبير وعدد من بني هاشم الى بيت فاطمة لا يحركون ساكنا. وحده ابو بكر لخذ المبادرة فترك بيت النبي واصطحب معه عمر ابن الخطاب وأبا عبيدة ابن الجراح وهرعوا الى سقيفة بني ساعدة ليشبثوا حق المهاجرين.

خطب سعد بن عباد في الانصار فقال : يا معشر الانصار لكم سابقة في الدين وفضيلة في الاسلام ليست لاحد من العرب. ان محمدا لبث في قومه (قريش) بضع عشرة سنة يدعوهم الى عبادة الرحمن وخلق الاوثان فما آمن به الا القليل، وما كانوا يقدرين على اعزاز دينه ولا على دفع ضيم عنه حتى رزقكم الله الايمان به وبرسوله فكنتم اشد الناس على عدوه حتى استقامت العرب لامر الله طوعا او كرها، فدانت لرسوله بأسيا فكم ولكم ان تستبدوا بهذا الامر دون الناس فانه لكم دونهم. فأجابته الجمع ان قد وثقت واصببت الرأي ونحن نوليك هذا الامر.

وخطب ابو بكر في القوم فمدح الانصار واثنى عليهم واقترح ان يكون الامراء من قريش والوزراء من الانصار ووعدهم "ان لا تُفاوتون بعشيرة ولا تُفرضي دونكم الامور" (أي ان الرئاسة تبقى لقريش).

فقام الحباب ابن المنذر ابن الجهم من الانصار وطلب ان يكون من

الانصار امير ومن المهاجرين امير في ان يتناوب الانصار والمهاجرون على الرئاسة. فقال عمر بن الخطاب : هيهات لا يجتمع اثنان في قرن. والله لا مرضى العرب ان تؤمركم ونبيتنا من غيركم ولنا بذلك الحجة الظاهرة على من ينازعنا سلطان محمد ونحن اولياؤه ومشيروته.

اشتد الخصام بين الفريقين فاحتجّت قريش على الانصار بقول الرسول "الائمة من قريش"، وقوله "لا يزال الامر في هذا الحي من قريش".

وقال ابو بكر ان العرب لا تعرف هذا الامر (الرئاسة) الا لهذا الحي من قريش وهم اشرف العرب دارا ونسبا. ثم كشف ابو بكر عن شدة رغبته بالخلافة فذكر الحضور بان النبي وآله اماره الحج وارسله اثناء مرضه يصلي بالناس في المسجد مما يعني تقديمه على غيره من الصحابة، ولم يقتنع الانصار بهذا الكلام فارفعت الاصوات وكثر اللغط.

واختلفت نوايا الأوس والخزرج في الاجتماع فلم يتحصن الأوس لتولي سعد بن عبادَةَ الخلافة وهو رئيس الخزرج فضعف موقف الانصار.

وبدأ توزيع الأدوار بين "الثلاثي" الذي ذكره هنري لامانس، أي ابي بكر وعمر وابي عبيدة ابن الجراح. يقول عمر في وصفه لما حدث : خاطب ابو بكر المجتمعين قائلا لقد رضيت لكم احد هذين الرجلين فبايموا ايهما شئتم واخذ بيدي ويدي ابي عبيدة. فحدثت جلبة. فصحت بابي بكر ابسط يدك لاباعك ففعل، فبايعته وتبعنا بعض الحضور، ثم وثبنا على سعد بن عبادَةَ وهو مريض فوطأناه فقد خشنا ان فارقتا القوم ولم تكن بيعة ان يحدثوا بعدنا بيعة فاما ان تتابعهم او نخالفهم فيكون فساد. (٢)، وانتهى اجتماع السقيفة ببيعة جزئية لابي بكر، وقد أعلن ابو بكر خليفة والنبي لا يزال في بيته لم يُدفن بعد فقد تعدد الاهتمام بالخلافة على الاهتمام بالدفن حتى من اخلص المقرئين الى النبي.

يلاحظ في هذا النقاش بين المهاجرين والانصار ان المجتمعين لم يهتموا باختيار من هو اصلح واكفا لخلافة النبي من بين المسلمين، ولم يبحثوا صفات ابي بكر وسعد بن عبادَةَ الذي اختاره الانصار، ليفاضلوا بينهما، بل تمسك كل فريق لجماعته اي لجأوا الى المصيبة فتغلب المهاجرون على الانصار واستبدوا بالخلافة لقريش.

المعارضة لبيعة أبي بكر

امتنع عن البيعة جميع بني هاشم، وجميع بني أمية. وهذان الفرعان هما أقوى فروع قريش ومنهم علي بن أبي طالب صهر الرسول، والعباس ابن عبد المطلب عم النبي، وعبيده الله ابن الزبير وآل سفيان، وغيرهم.

وكان أبو سفيان وابن الزبير أشد المعارضين لقولية أبي بكر. فيروي الطبري (١) أن عمر بن الخطاب انطلق إلى منزل علي وفيه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين فقال : "والله لأحرقنّ عليكم البيت أو لتخرجنّ إلى البيعة". وفي رواية أخرى أنه عندما بايع الناس أبا بكر تخلف علي والزبير في بيت فاطمة فانطلق إليهما عمر وجاء بهما تبعاً وقال "لتبایعان وانتما طائعتان أو تبایعان وانتما كارهان" فبايعا. (٢)

أما سعد بن عبادة زعيم الخزرج فقال : "والله لا أبايع حتى أرميكم بما في كنانتي من نيل، وأخضب سنان رمحي، وأضربكم بسيفي ما ملكت يدي، وأقاتلكم بأهل بيتي، ومن أطاعني من قومي. وبقي لا يصلي بصلاتهم ولا يحج ولا يفيض بأفاضتهم حتى هلك أبو بكر". (٣) وعندما تولى الخلافة عمر بن الخطاب عاقب سعداً على منافسته لأبي بكر وطرده من المدينة إلى الرملة في فلسطين.

كان أبو سفيان غائباً عند اجتماع سقيفة بني ساعدة. فلما اجتمع الناس علىبيعة أبي بكر أقبل وهو يقول : "لبي لأرى عجابة لا يطفئها إلا الدم. أيا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم؟ أين المستضعفان، أين الأدلّان، علي والعباس. ما بال هذا الأمر في أقلّ حي من قريش؟ أمرضاً بنسب أبي بكر؟ ثم قال لعلي أبسط يدك أبايعك فوالله إن شئت لأماتها عليه (على أبي بكر) خيلاً ورجلاً. فأبى علي، فتعثل أبوسفيان بشمر المتلّس : (٤)

ان الهوانَ حمارُ الأهل يعرفه والحرّ يُنكره والرُسلة الأجدُ
ولا يُقيم على ضيم يُراد به الا الادلّان عيرُ الحيّ والوتدُ
هذا على خشف مرط برمته وذا يُشجّ فلا يبكي له أحدُ

في اليوم الثاني لاجتماع السقيفة جاء أبو بكر إلى المسجد فأجلسه عمر

على متبر الرسول وكان يده اليمنى طيلة مدة خلافته. ثم تقدم الناس ويأيعوه بيعة عامة. فخطب أبو بكر فقال : ايها الناس، قد وليت عليكم ولست بخيركم. فان احسنت فأعينوني، وان اسأت فقوموني. الصدق امانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه، والقوي ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت فلا طاعة لي عليكم. (١٨)

استقر الامر بعدها لابي بكر حتى وفاته وكانت ولايته سنتين وثلاثة اشهر. يلاحظ فيما روي عن اجتماع السقيفة والخطب التي قيلت فيه، صناعة لفظية وبلاغة كلامية يصعب ان تصدر ارتجالا اثناء احتدام المناقشة في امر خطير. ويجب ان نتذكر ان رواية الاجتماع دُوِّنت بعد زمن طويل من حصوله.

حروب الردة

سار ابو بكر على خطى النبي ما امكنه ذلك فحكم حكما مطلقا مستمينا بعمر بن الخطاب ويايي عبيدة ابن الجراح . ولم يفِ بوعده للانصار بأن "منا الامراء ومنكم الوزراء" فلم يعين منهم وزيرا ولا مستشارا. كان لحزم ابي بكر فضل كبير في تطويق الازمة ودرء خطر الانشقاق بين المسلمين وكان بحاجة لحزم مباذل في التغلب على عصيان القبائل فيما عُرف بحروب الردة.

يقول الشيخ خالد محمد خالد: (١٩)

بعد وفاة النبي انشقت الارض فجأة عن كل المتورين بالاسلام. وقف طليحة الأسدي يعلن نبوكة وتبعه الكثير من قبائل اسد وغطفان وطلي ومبس وذبيان.

ثم اشتعلت نيران الردة في بني عامر وهو اذن وسليم. ثم شبت في بني تميم وجاءهم الراء "سجاح" تدعي النبوة. ثم تصرد اهل اليمامة رافعين لواء مُسَيَّلَمَة الذي ادعى النبوة ايضا. وسرت العدوى الى اهل البحرين وعُمان والمهرة وصاروا كلهم يتغنون ببيت شعر نسبته صاحب الاغانى الى إلحطينة :

أطعنا رسول الله ما دأب بيننا فيا لعباد الله ما لا يبي بكر
أبورتوها بكرا إذا مات بعده وتلك لحمر الله قاصمة الظهر

إن ادعاء النبوة من بعض زعماء المرتدين يتضمن ما هو أخطر من العصيان السياسي، فالذي يتلو آيات من صنعه يدعى أن بلاغتها تفوق بلاغة القرآن إنما ينكر أن يكون القرآن كلام الله وبذلك ينقض للإسلام من أساسه فالإنسان لا يستطيع أن يباري الخالق في البلاغة أو في أي موضوع آخر لكنه يستطيع أن يباري بلاغة القرآن إذا اعتبره كلام محمد لا وحيا من الله وهذا نقض الرسالة الإسلامية لذلك كان لا بد من إخضاع المرتدين.

صنم أبو بكر على استعمال القوة وخالفه في ذلك كل الصحابة حتى عمر بن الخطاب وزيره ومستشاره فلم يعبا وأنفذ رأيه. أرسل القوات تحارب المرتدين وكانت أهم الحملات بقيادة خالد بن الوليد. وخير المرتدين بين العودة إلى الإسلام ودفع الزكاة أو القتال وما يستتبعه من قتل وسبي وغنيمة. وقد قاتلت قبائل كثيرة ثم خضعت وانتهت حروب الردة قبل وفاة أبي بكر وتوحدت الجزيرة بسيف خالد بن الوليد.

تابع أبو بكر سياسة النبي في تحويل نشاط القبائل الحربي إلى خارج الجزيرة فأرسل ثلاث فرق تتألف كل منها من نحو ثلاثة آلاف مقاتل لتبدأ عمليات حربية في جنوب وجنوب شرق سوريا لكنه توفي سنة ٦٣٤ قبل أن تصل هذه الحملات إلى غايتها.

أبو بكر يتضمن الخلافة العمر

لما أحسن أبو بكر بذنو الأجل كان همه الأول أن يتضمن الخلافة من بعده لعمر بن الخطاب حليفه في الثلاثية وأن يقضي حليا بن أبي طالب ، فذهب رأسا إلى الغرض وترك الشوري جانبها وأهمل الصحابة وأشرف على الناس وهو يقول : أفرضون بمن استخلف عليكم فاني والله ما أئوت من جهد الرأي ولا وليت ذا قرابة واني قد استخلفت عمرا ابن الخطاب فاسمعوا وأطيعوا. فقالوا سمعنا وأطعنا. (١٠٠)

فمن هم الذين سمعوا وأطاعوا، وكم كان عددهم، ومن كانوا يمثلون؟

لقد توجه ابو بكر في كلامه الى بعض اهل المدينة، والارجح ان الانصار، وهم أكثر اهل المدينة عددا، لم يكونوا من الذين سمعوا واطاعوا نظرا لما حدث بينهم وبين عمر في سقيفة بني ساعدة، ولم يقف ابو بكر على رأي اهل مكة والطائف والبادية في استخلافه وانحصرت البيعة في بعض اهل المدينة.

كذلك لم يحصل على موافقة شاملة من الصحابة المقيمين في المدينة فتد جاهر كبارهم بمعارضتهم لاستخلاف عمر وعلى رأسهم بنو هاشم ومنهم علي بن ابي طالب، والعباس عم النبي، وبنو أمية، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام.

ويبدو ان ابا بكر مضى بتنفيذ ما عزم عليه دون التفتت الى ضرورة الشورى. وقد حاول الفقهاء فيما بعد ان يضعوا للعهد بالخلافة او للاستخلاف قاعدة شرعية تفسره وتبهره شرحها الاستاذ ظافر القاسمي بما يلي : الاستخلاف او العهد في الخلافة هو ان يقترح الخليفة او يرشح شخصا يتولى الخلافة بعده، والمسلمين، نظريا، ان يقبلوا الاختيار او يرفضوه حين البيعة. ١١١١ ولم يحدث في التاريخ الاسلامي ان رفض المسلمون حين البيعة شخصا استخلفه خليفة سابق بحيث بقي الاستخلاف او العهد، منذ ما استنته ابو بكر، هو والتعيين سواء من ناحية عملية.

العبر من خلافة ابي بكر

ما هي الدروس والعبر المستفادة من خلافة ابي بكر فيما يتصل بالمؤسسات السياسية وامور الحكم في الاسلام؟

لقد توفي النبي ولم يضع نظام حكم للمسلمين، وتوفي الخليفة الاول ولم يولي الموضوع عنايته وانفرد باختيار خليفته.

لكنه اذا لم يترك نظاما سياسيا فقد ترك اسلوبا في معالجة المشاكل السياسية يشمل بوضوح الهدف والمبادرة في العمل والحزم والعزم مع ليونة ورقة في التنفيذ بحسب الظروف.

فقد بادر بمواجهة الانصار في سقيفة بني ساعدة في الوقت الذي لجأ أكثر الصحابة المهاجرين الى منازلهم خوفا منهم، وخاطب الانصار بليونة ورقة، وتمكن من احداث انقسام بين الأوس والخزرج، ثم لعب دور البيعة بمهارة

فاقترح على المجتسمين تولية عمر او ابي عبيدة فاذا بمصر يبأيهم ويتبعه
الاخرون.

مع ذلك ظهر الاكراه والارغام في السياسة في عهده فقد هجم عمر ابن
الخطاب على سعد ابن عباد في سقيفة بني ساعدة وهو مريض فرطاه حتى
يجبره على الاذعان وكاد يقتله. ولما تخلف علي والزبير وطلحة وعدد من
المهاجرين عن البيعة وهم من كبار الصحابة، انطلق اليهم عمر وجاء بهم الى
البيعة قسرا. ولم يغيب الاكراه والارغام في انتخاب الخليفة في اي عهد لاحق.
وتابع ابو بكر سياسة الرسول في نشر الاسلام بالقوة فاعاد القبائل التي
ارتدت الى الاسلام قهرا وبدأ الحملات على بلاد الشام.

في اجتماع سقيفة بني ساعدة ثبت ابو بكر الامارة، آبي السيطرة
السياسية لقريش الى الابد ومنعها عن الانتصار بموجب الشعار : "منا الامراء
ومنكم الوزراء". ثم خالف هذا الشعار والوعد فلم يعين احدا من الانتصار
وزيرا او مستشارا كما قلنا. يقول الدكتور طه حسين : "لم تكف قمضي
ساعات على وفاة النبي حتى عرف الاسلام نوعا جديدا من الارستقراطية
يتصل بالحكم نفسه اتصالا شديدا. منذ ذلك الوقت نشأت في الاسلام
ارستقراطية قوامها القرب من الرسول فاصبح الحكم الى قريش وحدها
 واصبحت المشورة الى الانتصار، والمشورة حق عام لكل مسلم. فلقريش ان
تحكم وللانتصار وغيرهم من العرب ان يشيروا وليس لهم ان يحكموا". (١٢)
يقول الشيخ عبد الرزاق في خلافة ابي بكر : "مع ابي بكر قامت دولة
عربية على اساس دعوة دينية... مكّنت للعرب في الارض فاستعمروها
استعمارا، واستغلوها استغلالا شان الامم القوية التي تتمكن من الفتح
والاستعمار". (١٣)

خلافة عمر امين الخطاب ٦٣٤ - ٦٤٤

في خلافة عمر تحول الاسلام من جماعة دينية تسكن بلادا منعزلة الى
قوة سياسية مؤسّسة على الدين تحكم ارجاء واسعة من العالم المتمدن في ذلك
العصر.

يقول الاستاذ احمد امين عن شخصية عمر: لا نجد لعمر ابن الخطاب

كثيرا من الاقوال في تفسير القرآن كما لا نجد كثيرا في جمع الحديث لكن ميزته الكبرى قوته النظرية في معرفة العدل والظلم لعقله وقضاياه. (١٤١)
ويقول الدكتور طه حسين: "لم يرض الناس من تجربة عمر في ايامه فقد كانوا يهابونه ويطيعه اكثرهم خوفا ورهبا..." (١٤٢)
اشتهر عمر بالقدرة على التنظيم فوضع اللوائح باسماء المستحقين من الصحابة ومقدار ما يستحق لكل منهم بالنسبة لمكانتهم في الاسلام، ومنزلتهم وقرباتهم من النبي. وكان عمر يرى ويعلم ان المال الذي يأتي من الغنائم ومن الغني ومن جباية الجزية والخراج هو ملك المسلمين جميعا. (١٤٣)

السياسة العامة للخليفة عمر

في سياسته العامة ابرز عمر العنصر العربي وقدمه على غيره فشكل العرب طبقة متفوقة على غيرها، واعطى المسلمين غير العرب مكانة تلو على غير المسلمين وان لم تداني مكانة العرب المسلمين.
وكانت سياسة عمر تهدف الى جعل الامة الاسلامية جيشا من الجند المجاهدين لفتح البلاد ونشر الاسلام. ولم تكن النية متجهة في البداية الى ان يسكن العرب في البلاد المفتوحة فقد منعهم عمر من ان يملكوا او يشتروا اراضي وعقارات فيها واراد لهم ان يبقوا جيوش احتلال يمشون على موارد البلاد ويجبون الضرائب والفيء من سكانها ويرسلونها الى بيت المال في المدينة لتوزع على اصحاب الاستحقاق. لذلك بُنيت للجند مدن خاصة اقاموا فيها ولم يختلطوا بالسكان المحليين فنشأت الكوفة والبصرة في العراق سنة ٦٢٠ ومثلها القسطنطينية في مصر سنة ٦٤٠ ومدن الجابية وحمص وقنسرين في بلاد الشام. وكان للجند من كل قبيلة حي خاص ضمن المدينة ثم قطرت هذه المعسكرات بعد زوال المنع فاصبحت مدنا كبيرة لعبت بعضها كالبصرة والكوفة دورا سياسيا هاما بعد وقت غير طويل.
عين عمر ولاه على الاقاليم كانوا مسؤولين تجاهه مباشرة وكانت وظيفتهم الاساسية صيانة الحكم الاسلامي وتطبيق شرائع الدين وتحصيل الضرائب وارسالها مع الغنائم الى العاصمة. اما ادارة شئون الرعية فبقيت في ايدي الموظفين من اهل البلاد. ثم امر ان تأتي جميع الموارد من البلاد

المفتوحة اي الغنائم والفيء والضرائب الى المدينة ثم توزع هناك، والضرائب هي الخراج والجزية.

في القرن الاول هجري (السابع ميلادي) عندما كان المسلمون ممنوعين من استملاك الاراضي والعقارات في البلاد المفتوحة كانت الجزية تعني الضريبة على الارض، فلما سُمح للمسلمين بامتلاك الاراضي اصبح الخراج ضريبة على الارض يدفعها كل مالك في حين اصبحت الجزية ضريبة شخصية على الذميين بمبلغ سنوي مقطوع.

اتخذ عمر حين تولى الخلافة لقب "امير المؤمنين" فاصبح اللقب الرسمي لجميع الخلفاء بعده. وكان اول ما استهل به عهده انه عمد الى اقالة القائد خالد بن الوليد من قيادة جيوش الشام واستبداله بابي عبيدة ابن الجراح وقال "لا يلي لي خالد عملا بعد الان"، واقام خالد بعدها في بلاد الشام ودفن حين وفاته في حمص. يقال في سبب عزل خالد ابن الوليد الذي كان بطل حروب الردة وفتوحات الشام محبوبا من الجند والسكان لقيادته البارعة والموقفة، ان الخليفة عمر وجده لذلك منافسا خطرا لابي عبيدة كخلف لعمر مما قد يفسد "الخطبة الثلاثية" فكان لا بد من ازاحته. ودأب عمر بعد ذلك على الاشادة بابي عبيدة واعلاء مكانته تهيدا لتوليته الخلافة بعده لكن ابا عبيدة مات قبل وفاة عمر برباء فشي في البلاد فانتهت "الخطبة الثلاثية" بوفاة.

الاقامة الجبرية للصحابة

خاف عمر ان ينتشر الصحابة في البلاد المفتوحة ويخلقوا له فتنة خصوصا اولئك الذين عارضوا بيعته ففرض عليهم "الاقامة الجبرية" في المدينة (بحسب تعابيرنا المعاصرة) فلا يخرجون منها الا باذنه ولا يذهبون الى الاقطار المفتوحة الا بأمر منه. وقد شق ذلك على كثير من اصحاب النبي ومن المهاجرين خاصة. (١٧) فقد وجدوا في ذلك تقييدا غير مقبول لحرياتهم التي مارسوها منذ القدم في التنقل الحر للتجارة وغيرها. ولم يكف عثمان يتولى الخلافة حتى فك منهم هذا العقال فتفرقوا في الارض يبيعون ويشتررون ويمتلكون الاراضي والعقارات.

عمر وأهل الكتاب

من اجراءات عمر انه اخرج نصارى نجران من ديارهم، واخرج يهود خيبر سنة ٦٢٥ - ٦٢٦ فذهب اليهود الى اريحا وجوارها، والنصارى الى الشام والعراق ولم يبق في الحجاز يهودي او مسيحي، ويُنسب الى عمر ما عُرف باسم "الشروط العمرية" او عهدة عمر التي تبين كيف يجب ان يُعامل أهل الذمة في البلاد الاسلامية وقد شرحناها في الفصل الثالث.

يُنسب اليه ايضا البدء ببناء مسجد الصخرة في القدس في المكان الذي قيل ان النبي محمد صعد منه الى السماء وهو ايضا المكان الذي يعتقد اليهود ان يعقوب اخذ اليه ابنه اسحق ليضحّي به. ومسجد الصخرة من اروع آيات الفن الاسلامي ومن المؤكد ان الذين بنوه وزينوه لم يكونوا من سكان الحجاز بل من مهرة البنانين السوريين.

الزهد والتقشف

في سيرة الخليفة عمر كلام كثير عن نقشفه وفقره وانه كان يلبس ثيابا رثة يرقعها بيده بالجلد متى تمزقت ولم يكن عنده الا ثوب واحد، الى آخر ما هنالك من المبالغات. الغرض من هذه الروايات التاكيد على حرص عمر على اموال المسلمين وعلى انه لم يكن يمد يده لبيت المال. (١٨)

ولم يكن علي بن ابي طالب ابن عم النبي وصهره اقل ورعا وتقوى وصلاحا من الخليفة عمر لكن لم يُعرف عنه انه لبس ثوبا مزقا ومرقعا.

هذه الاخبار ناتجة عن اختلاط بالمفاهيم تساوي بين الفقر والفضيلة، وبين الغنى والنقيصة، وهي مفاهيم اقرب الى النصرانية منها الى الاسلام. فليس في الاسلام زهد وتنتك وانقطاع عن الدنيا، ولا فيه دعوة الى الفقر بل ان القرآن يحض على التمتع باطياب الحياة ضمن حدود الشريعة، وليس الفقر فضيلة بحد ذاته ولا الغنى نقيصة فكلهما حالة وضعية ليس لها مدلول اخلاقي. فقد يكون الفقر نتيجة كسل وضعف همة، وقد يكون الغنى نتيجة جهد وعمل.

ولم يكن الخليفة عمر فقيرا ولا كان بحاجة الى مد يده لبيت المال. فقد كان له نصيب من الغنائم والفيق والضرائب كغيره من كبار الصحابة او اكثر،

مما كان كافياً ليوفر له حياة لائقة، ولم يخبرنا المؤرخون المسلمون ان لها مكر وعمر رفضا حصتهما من الغنائم والفيء وردّها الى بيت المال.

مقتل الخليفة عمر بن الخطاب

يقول الطبري ٢١١ : خرج عمر يوماً يطوف في السوق فلقبه ابو لؤلؤة غلام المغيرة . فقال : يا امير المؤمنين انصتني من المغيرة بن شعبة فان عليّ خراجاً كثيراً. قال وكم خراجك؟ قال درهمين كل يوم. قال وما هي صناعتك؟ قال نجار وثقاف وحداد. قال عمر: فما أرى خراجك بكثير علي ما تصنع من الأعمال. فتوصّده ابو لؤلؤة.

بعد ثلاثة ايام خرج عمر الى الصلاة ودخل ابو لؤلؤة بين الناس وفي يده خنجر له رأسان فضرب عمر ست طعنات احداهن تحت سركه كانت القاضية وكان ذلك في شهر نوفمبر ٦٤٤. وكانت خلافة عمر عشر سنوات وستة اشهر وبويع لعثمان بعد وفاة عمر بثلاثة ايام.

يقول ابن الاثير "لم يمض عسر الا وقد ملته قريش لانه كان حصرهم بالمدينة". (٢١١)

لما طعن عمر كان عليه ان يدبر للمسلمين مستقبلهم وكانت لديه فرصة تاريخية ليضع نظاما للخلافة يقي المسلمين من خطر الانقسام وهو صاحب العقل القاضوي والقضائي كما وصّفه. ثم ان عمر اختبر بنفسه النزاع الذي حصل بين المهاجرين والانصار حين تولية ابي بكر، ثم انقسام الصحابة حول خلافته هو نفسه حينما عينه ابو بكر، وما كان يجوز ان يغيب عن باله ان هذه النزاعات والخصومات ستتكرر حين وفاة كل خليفة ان لم يوضع نظام للولاية يتوافق عليه المسلمون فيقرّونه وتسير عليه الامة الاسلامية من بعد. وكان للخليفة عمر مثال يحتذيه في "دار الندوة" وهي، كما ذكرنا، كانت مجلساً من كبار اهل مكة يدير شئون البلد قبل الاسلام بطريقة الشورى التي ورد ذكرها بعدئذ في القرآن، وقد عايش الخليفة عمر هذه الندوة واطلع على عملها وكان الاخرى به ان يحياها.

لكن عمر لم يلقَ بالاً لكل هذا واهتم فقط بالظرف الاتي اي بمن سيخلفه تاركاً مصير المسلمين للتقدير.

يقول الدكتور طه حسين في ذلك : "لم يكن بداً في أن ينشئ المسلمون لانفسهم في حدود القرآن والسنة دستوراً مكتوباً يعصمهم من الفرقة والاختلاف ويبين للخلفاء ما يجب عليهم ان يفعلوه وما يجب ان يتركوا، ويبين للشعب حقوقه وواجباته مفصلة، والوسائل التي يختار بها الخليفة، ويراقبه بعد اختياره ويعاقبه ان حاد عن الطريق. ولو فعل المسلمون ذلك لما تعرضوا لما تعرضوا له من الشر ايام عثمان".^(١١١)

ولعل الدكتور طه حسين وغيره من الكتاب يكلفون الخليفة عمر واقرائه من الصحابة اكثر مما تتيح لهم كفاءاتهم وعليهم بأمور الحكم والسياسة، فمعلوماتهم بهذه الشئون يستمدونها من القرآن والحديث وليس في المصدرين ما يسعفهم لوضع دستور كالذي يطلبه الدكتور طه حسين. ولم يطلع الصحابة بالقراءة او بالزيارة والاحتكاك على انظمة الشعوب الاخرى ليقتبسوا منها فقد كانوا منعزلين في شبه الجزيرة عن التيارات الحضارية، ومن زار منهم بلاد الشام وفارس اهتم بتجارته لا بتقصي انظمة الحكم والادارة. لكن اذا لم يكن باستطاعة رجال ذلك العهد ان يضموا دستوراً كاملاً لعدم درايتهم فقد كان باستطاعتهم ان يتفوقوا على ناحية واحدة اساسية من الدستور هي وضع نظام ثابت لتنصيب الخليفة. هذا ما كان يستطيع الخليفة عصر ان يقدمه للامة الاسلامية لكنه لم يفعل.

ترتيب البيعة لعثمان

اللجنة الانتخابية

ننتقل الى وقائع عملية التنصيب. لما طعن عمر قيل له : يا امير المؤمنين لو استخلفت فقال : لو كان ابو عبيدة ابن الجراح حياً لاستخلفته فاني سمعت النبي يقول "انه امين هذه الامة". لكن عليكم هذا الرهط الذين قال الرسول عنهم انهم من اهل الجنة وهم عبد الرحمن ابن عوف، وسعد ابن ابى وقاص، والزبير ابن العوام، وطلحة ابن عبيد الله، وعثمان ابن عفان، وعلي ابن ابى طالب، فليختاروا منهم خليفة. (١١٢)

لم يكن اختيار هؤلاء الاشخاص الستة عبثاً بل كان تدبيراً محكماً

لاقضاء علي ابن ابي طالب عن الخلافة. فسعد ابن ابي وقاص لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن ابن عوف. وعبد الرحمن هو صهر عثمان ابن عفان بحيث يشكل الثلاثة كتلة متحدة لا يختلفون، فيوليها عبد الرحمن عثمان، او يوليها عثمان عبد الرحمن. اما علي فلا يضمن وقوف الزبير وطلحة الى جانبه. ويفرض انهما فعلا فسيصبحون مع علي ثلاثة مقابل ثلاثة. وقد احتاط الخليفة عمر لهذا الاحتمال فعيّن ابنه عبد الله حَكَمًا اذا تساوت الاصوات. وعبد الله كاره لعلي. فاذا لم يقبل احدهم بحكم عبد الله فقد اوصى عمر ان يكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف وهذا حتمًا ليس مع علي، بحيث يخرج علي خائبًا كيفما جرى التصويت.

والدريء ان عليا قبل عضوية اللجنة الانتخابية ووافق علي حقها باختيار الخليفة وهو مدرك انها مؤلفة بالشكل الذي يضمن خذلانه. وقد نبهه عمه العباس الى ذلك. ومرة اخرى اثبت خضوع الهاشميين انهم اقدر على المناورة وابرع في التخطيط والتنفيذ من منافسيهم.

وأي الخليفة عمر في اعضاء اللجنة

ينتقل الدكتور منير المجلاوي عن كتاب "السفائية" للجاحظ ان عمرا دعا الستة الذين اختارهم، وخمسة منهم من اقرباء النبي، فدخلوا عليه وهو ملقى على فراشه وجود بنفسه فنظرو اليهم وقال لهم اكلكم يطمع بالخلافة بعدي؟ فوجموا. فسألهم ثانية فاجابه الزبير ولما لا فلسنا دونك في قریش ولا في السابقة ولا في القرابة من النبي.

فقال عمر : انلا أخبركم عن انفسكم؟

قالوا : قل فاننا لو استعفيناك لما عفيتنا.

فقال: اما انت يا زبير فسيء الخلق لا تستقيم على وجه، يوما انسان، ويوما شيطان، فليت شعري من يكون للناس يوم تكون شيطانا.

ثم اقبل على طلحة، وكان له مبخضا منذ ما عارض ابا بكر في توليته، فقال له : اقول ام اسكت؟ فقال طلحة : قل. فانك لا تقول من الخير شيئا. فقال عمر : اما اني اعزلت منذ اصببت اصبعك يوم أخذ واليالك الذي حدث لك، واقد مات الرسول ساخطا عليك.

ثم أقبل على سعد بن أبي وقاص فقال : انما انت صاحب خيل
وجماعة، وقنص وسهام، فما للخلافة وامور الناس.

ثم أقبل على عبد الرحمن بن عوف فقال : انك يا عبد الرحمن لو
وُزن نصف ايمان المسلمين بايمانك لرجع ايمانك. ولكن ليس يصلح لهذا
الامر من فيه ضعف كضعفك.

وقال لعلي : لله انت، لولا دعاية فيك لحملتهم على الحق الواضح.
اما عثمان فقال له : كاني اراك قد حصلت بنبي امية على رقاب الناس
وأثرتهم بالغيء فازعلت الناس. (٢٢١)

ان هذه الرواية تؤكد ما ورد في مراجع اخرى عن رأي كبار الصحابة
السنياء بعضهم ببعض ومن شدة تنازعهم وتنافسهم وسوء العلاقة التي ظهرت
بينهم مباشرة بعد وفاة النبي وكان ذلك حديثا شائعا بين الناس ويفسر
كثيرا من احداث التاريخ الاسلامي اللاحقة.

ويبرز تساؤل هام. ما دام الخليفة عمر يعرف هذه الصفات في هؤلاء
فلماذا اختارهم، والأهم من ذلك لماذا حصر حق انتخاب الخليفة وحق تولي
الخلافة بهم ؟

تتابع الرواية ان عمر اوصاهم ان يتشاوروا ثلاثة ايام ولا يأتي اليوم
الرابع الا وعليهم امير منهم. وطلب منهم ان يشترك معهم ابنه عبد الله مشيرا
وحكما ولا يكون له من الامر شيئا.

وقب عمر عملية الانتخاب فقال لصهيب قائد شرطته : صل بالناس
ثلاثة ايام ثم ادخل الستة بيثا ولا يأتين اليوم الرابع على اجتماعهم الا ويكون
عليهم امير منهم. وقم على رؤوسهم فان اجتمع خمسة واني واحد فاشرخ رأسه
بالسيف. وان اتفق اربعة واني اثنان فاضرب رؤوسهما. وان اختار ثلاثة رجلا
واختار ثلاثة رجلا اخر فتساوت الاصوات فحكموا عبد الله بن عمر. فان لم
يرضوا بحكمه فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين
اذا رفضوا نتيجة الاقتراع.

انها رواية معجبة اجست عليها كتب التاريخ الاسلامي واعتبرتها اجراء
عاديا ولم تستهجنها مع انها اظهرت باجلى صورة طبيعة الحكم المطلق الذي
مارسه الخلفاء بدءا من اول خليفة.

فقد امر عمر صاحب شرطته ان يشرح الرؤوس القوم وان يقتل من يرفض تدبيره بعد وفاته. وعمر لا يتكلم عن مجرمين اقام عليهم الحد بموجب الشريعة فاستحقوا القتل، بل يتكلم عن ستة من كبار الصحابة منهم خمسة من اقارب النبي لم يتركوا اثما الا احتمال معارضة ما افرد بتدبيره. فهل في الشريعة ما يبيح له الامر يشرح الرؤوس والقتل لمجرد مخالفة مشيئته في امر سياسي؟

ان استشار عمر بالرأي في تعيين اعضاء هذه اللجنة فيه مخالفة واضحة لبدأ الشورى الذي يعتقد بعض الفقهاء ان الشريعة تأمر به وان الخلفاء الراشدين تقيّدوا به. فهو لم يستشر لا في اعضاء اللجنة ولا في عددهم ولا في طريقة عملها ولا في صلاحياتها.

وقد اختار عليا ابن ابي طالب وهو ابن عم الرسول، وعثمان ابن عفان وهو زوج ابنة الرسول رقية ثم ام كلثوم وكان من اكابر بني امية، وعبد الرحمن ابن عوف خال النبي، وسعد ابن ابي وقاص، والزبير ابن العوام وهو ابن عم الرسول، وطلحة ابن عبيد الله وهو من اوائل الصحابة.

ويلاحظ ان جميع اعضاء اللجنة هم من قريش لم يضم اليها انصاريا واحدا خلافا لوعده ابي بكر في سقيفة بني ساعدة بان "منا الامراء ومنكم الوزراء لا تفارئون بمشورة ولا تقضي دونكم الامور"، فلم يعين ابو بكر وعمر وزيرا انصاريا او مستشارا، وما هو الآن يعيش في مدينتهم لكنه يقصيه عن الاشتراك باختيار الخليفة المقبل مما يحمل على الظن بان كلام ابي بكر كان "وعودا انتخابية" حسب تعابير عصرنا.

كان حصر الاختيار والتصويت بالخلافة بال ستة قريبا من وجوه اخرى. صحيح انهم كانوا من كبار الصحابة لكنه كان في الصحابة ايضا من لا يقل عنهم قدرة وكفاءة فلماذا حصر الخلافة باحدهم. ثم ان كل واحد منهم كان يريد الخلافة لنفسه، اقله يكن اكثر عدلا وتجردا لو اوكل حق التصويت والاختيار لمن ليس لهم مصلحة شخصية بالامر؟

ويبقى السؤال الاهم : ما دام عمر قد لجأ الى لجنة انتخابية فلماذا حصر عددها بستة اشخاص كان رايه في اكثرهم سيئا كما مر معنا، ولم يجعلها ستة عشر او ستة وعشرين او مائة بحيث لتمثل فيها جميع فئات

المسلمين من مهاجرين وانصار، ويتمثل فيها سكان مكة والطائف والبادية الى جانب سكان المدينة فتصبح اللجنة الانتخابية ممثلة حقاً لمجموع المسلمين. ولو فعل لكان وضع النظام الانتخابي المطلوب، ولكن شكل سابقة يخطر الخلفاء بعده الى اتباعها، ولكن جنب المسلمين الولايات والاضطرابات التي لازمت الخلافة منذ نشأتها.

انتشر خبر اللجنة الانتخابية فقال العباس لملي : لا تدخل معهم، فأجاب علي اني اكره الخلاف، فقال العباس اذن ستري ما فكره، وانني لم انصحك بشيء الا رفضته ثم تبين لك صدق النصيحة وتدمت عليه. اشرت عليك في مرض الرسول ان تساله فيمن يخلفه فأبيت. واشرت عليك بعد وفاته ان تعالج الامر لكنك تقاعست فتركته لابي بكر، واشرت عليك ان ترفض عضوية اللجنة الانتخابية فقلت انك فكره الخلاف. والآن انصحك بان ترفض كل ما سيعرضونه في هذا الاجتماع الا ان يؤلوك، واحذر هؤلاء القوم فانهم لا يبرحون يبعدون هذا الامر عنا حتى يتولاه غيرنا. ١٤١

كان طلحة غائباً عن المدينة فاجتمع بقية السحاب وكانوا كلهم طامعين بالخلافة 'فاختلفوا في غير ائتلاف وتنافسوا في غير وفاق' حسب تعبير الدكتور طه حسين.

تولى عبد الرحمن بن عوف ادارة الاجتماع ويقال انه تنازل عن الترشيح هو وسعد بن ابي وقاص، وتنازل الزبير عن سقته لملي. وانحصرت المنافسة بين علي وعثمان، تولى عبد الرحمن بن عوف متابعة العملية في بقية الايام الثلاثة التي حددها عمر فاستشار الناس فلم يرجحوا احد الاثنين على الاخر.

في اليوم الثالث دعا عبد الرحمن الناس الى المسجد وصعد الى المنبر فقال : ايها الناس، اني قد سالتكم سرا وجهراً فلم اجدكم تعدلون بملي وعثمان احداً، فقم الي يا علي. فقام اليه واخذ عبد الرحمن بيده وساله : عليك عهد الله وميثاقه ان تعمل بكتاب الله وسنة رسوله وفعل ابي بكر وعمر لا تحيد عن شيء في ذلك؟

فقال علي : على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيي.

ثم دعا عثمان وكرر عليه السؤال فأجاب : اللهم نعم. فبايعه عبد

الرحمن وتبعه من في المسجد . (٢٥١) فقال علي لعبد الرحمن : ليس هذا أول يوم تظاهروا فيه علينا فوالله ما وليت عثمان إلا ليورد الأمر اليك. (٢٥٢)
يقول الدكتور طه حسين في جواب علي : ان القرآن لم يعرض لسياسة الحكم في تفاصيلها ووقائعها اليومية ولعلي الحق في ان يخالف سيرة الشيخين اذا رأى في المخالفة منفعة للرعية بسبب تغير الاحوال والظروف. (٢٥٣)

العبور من خلافة عمر

اذا كان لنظرية هنري لامانس اي نصيب من الصحة بأن ابا بكر وعمر و ابا عبيدة ابن الجراح ألغوا خلفا ثالثا لتولي الخلافة واحدا بعد الآخر واستبماد علي بن ابي طالب، فان ما اجراه الخليفة عمر قد يدعم هذه النظرية. فقد أستهل عهده بتعيين ابي عبيدة قائدا على جيوش الشام وعزل خالدا ابن الوليد لثناء حصاره لمدينة دمشق رغم كفاجه العسكرية وشعبيته بين الجنود والسكان، لاعلاء مكانة ابي عبيدة تمهيدا لما ينتظره.
ولما طعن عمر وطلب منه من حوله ان يستخلف قال يصراحة : 'لو كان ابو عبيدة حيا لاستخلفته'. لكن هذا الشق من 'الاتفاق الثلاثي' كان انتهى بوفاة ابي عبيدة قبل وفاة عمر. اما الشق الثاني من الاتفاق وهو استبماد علي بن ابي طالب عن الخلافة فبقي ساريا ومحققا الهدف كما رأينا في مناقشة عمل 'اللجنة الانتخابية'.

الأكراه والأرغام : استمر الأكراه والأرغام في التعامل السياسي الداخلي الذي بدأ في عهد ابي بكر. فمنع الخليفة عمر صحابة النبي من السفر الى البلاد المفتوحة الا بأذنه. وهذا تدبير قاسي فيه محكم واستبداد وإن استند الى ذرائع سياسية. وظهر الأرغام بصورة لجلي لما امر عمر رئيس شرطته ان يحضر اجتماع 'اللجنة الانتخابية' وان يشج رأس من يعارض الاكثرية وان يقتل الذين يرفضون نتيجة الاقتراع.

خلافة عثمان ابن عفان ٦٤٤ - ٦٥٦

تشكل خلافة عثمان منعتظا حادا في مسيرة الخلافة.
كان عثمان ابن عفان من آل عبد شمس اقوى عائلات قريش واغناها

ومنهم تحذّر بنو أمية. ومع ان الأمويين كانوا آخر من قبل الاسلام من قريش، ويقوا ضعيفي الالتزام بمراسمه، فان عثمان كان احد الخمسة او السبعة الاوائل الذين آمنوا بالنبي، وقد تزوج عثمان ابنته رقية فاصبح من اقرب الناس اليه، ولما توفيت تزوج اختها ام كلثوم. وكان من الذين هاجروا الى الحبشة ثم هاجر مع النبي الى المدينة وبقي على اتصال وثيق به.

مع خلافة عثمان عاد الامر الى الارستقراطية المكية بخلاف مهدي ابي بكر ابن ابي قحافة التيمي وعمر ابن الخطاب من بني هدي اللذين كانا من واسط العرب نسباً.

كان اول ما فعله عثمان ان رفع "الاقامة الجبرية" التي فرضها عمر على الصحابة فانطلقوا في الارض.

وقد ورث عثمان من عمر بن الخطاب مجتمعاً اسلامياً في طور تغير سريع يختلف عما اعتاده الناس في السابق، فالفتوحات الكثيرة والسريعة التي حصلت في عهد عمر وعثمان اغدقت على المسلمين اموالاً هائلة من الغنائم والفيء والرقيق الذي كان يُحمل الى المدينة عاصمة الامبراطورية الجديدة بموجب الاوامر الاسلامية في معاملة البلاد المغلوبة التي شرحناها في الفصل الثالث.

واذا كانت هذه السياسة قد جلبت الثروات الضخمة لطبقة من قريش وللمقاتلين، فإنها خلقت في البلاد اضطراباً اجتماعياً جلب اسوأ النتائج. وكانت الفتوحات التي استوصبت نشاطات القبائل العربية واستهلكت عدداً كبيراً من المقاتلين قد طرأ عليها توقف مؤقت فعاد بذلك نوع من الحياة الطبيعية الى شبه الجزيرة العربية وموجه اهتمام الناس الى الشؤون الداخلية منها : غيرة القبائل من مكانة قريش المتميزة والمستعلية، وكراهة العرب لاية سلطة حكومية، ولم يشفع بهذه السلطة انها كانت سلطة دينية. يضاف الى ذلك تبرم العرب الذين اقاموا في البلاد المفتوحة من سيطرة العاصمة على امورهم، ثم المنافسة الشديدة بين من بقي من الصحابة على المناصب والمنافع وعلى الخلافة نفسها فتفككت وحدة شبه الجزيرة العربية وادّت جميع هذه العوامل الى اضطراب الاحوال.

عثمان يعلن فلسفة الخلافة

في غياب نظرية سياسية واضحة للخلافة وللحكم الاسلامي في العهدين السابقين لعثمان اعطى الخليفة الجديد معنى محددا لسلطة الخليفة فهو لم يصل الى الخلافة نتيجة رغبة شعبية واضحة فقد حال الخليفة عمر دون ذلك لما عيّن اللجنة الانتخابية من ستة اشخاص فقط لا يستطيعون ان يدعوا انهم يمثلون جميع المسلمين او اكثرهم، وهكذا انتفت الشرعية الشعبية.

ولا ينص القرآن أو الحديث انه من حق الخليفة السابق ان يعين من يليه كما فعل ابو بكر وسمي "الاستخلاف"، او ان يولي الخليفة السابق من يريدهم لاختيار الخليفة الجديد كما فعل عمر. فهذه تخريجات فقهية صدرت بعد حصول الامر بزمن لتفسيره وتبريره.

وما دامت الخلافة وظيفة دينية والحكم الاسلامي حكما دينيا مرجعه الله، ولما كان القرآن لا يتضمن شيئا عن نوع هذا الحكم او عن طريقة تنصيب الحاكم، فقد اعتبر عثمان ان خلافته كانت تكليفا من الله خصه به وجعله مسؤولا امامه لا امام الناس. فليس للمسلمين اذن ان يحاسبوه على اعماله في الادارة او السياسة او المال. وهذه هي نظرية "الحكم بنعمة الرب" او "الحكم الالهي المقدس". ولا ندري هل ابتكر عثمان هذه النظرية من نفسه ام نادر بها ونقلها عن الروم والفرس الذين كانوا يحاسبونها مع انه لم يُعرف منه او من احد من بطانته انه كان واسع الاطلاع على أنظمة الحكم في تلك البلاد. ومما هو جدير بالذكر ان كثيرا من المسلمين الذين عاصروه كانوا يوافقونه على رايه إتباعا للآية : 'يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم'. ١٢٨١

مما يدل على شدة يقين عثمان بان الله خصه بالتكليف انه قال للشوار الذين حاصروه وطالبوه بأن يخلع نفسه 'ما كنت لاخلع قميصا البسني اياه الله عز وجل' وانه اسهل عليّ أن تُضرب عنقي من ان اخالف ارادة الله'. وبالفعل فضل عثمان ان يُقتل على ان يخلع نفسه مما كلفه الله به حسب اعتقاده.

يُروى على موقف عثمان هذا انه تعهد للناس عند البيعة بان 'يلتزم بسيرة ابي بكر وعمر لا يخيد عن شيء في ذلك'. وعلى هذا الأساس ربحه

عبد الرحمن بن عوف على علي الذي رفض هذا النص وقال "بل اجتهد برأيي"، وإذا بعثمان حيين تولى يخالف سيرة الخليفتين السابقين في بعض وجوهها وأهمها التصرف بأموال بيت المال، وفضيل الأقارب في التعيينات للمناصب المهمة.

كان موقف عثمان من مشاكل الثراء أن المال إنما خلق لتروفيه الخلق. وما دام المال حلالا والاستمتاع به مشروعاً فليكن للناس حظوظهم من طيبات الحياة حسب الآية : "فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً". (٢١٠) والآية "فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون". (٢١١)

في عهد عثمان استولت الأرستقراطية المكية من قريش، وآل أمية بالتخصيص، على أمور الدولة. وبذل الخليفة كل جهده لدعم هذا الاتجاه فأسند أهم المناصب لأقربائه وحول لهم المنافع، وتصرف بأموال بيت المال دون حساب لمن له قرابة ورحمة، فقد منح أقاربه من بني أمية مبالغ طائلة من بيت المال واقطعهم أراضي واسعة في الأقاليم فاشترى الضياع واتخذوا الدور والقصور في الحجاز والبلاد المفتوحة، واستكثروا من المال والاتباع في كل مكان، وهذا نوع آخر من الاستئثار بالحكم تناول خزينة الدولة والمال العام.

من استئثار عثمان بموضوع أموال المسلمين أنه منح الحارث ابن الحكم يوم عرسه مئتي ألف درهم وكان منحه ثلاثمائة ألفاً قبل ذلك. ومنح ابن عمته مروان ابن الحكم الذي كان يشرف على ديوان الخلافة خمس حصص بيت المال من خنائم فتح إفريقية. (٢١٢) ومروان هذا أصبح رابع خليفة في الدولة الأموية، وأعطى عثمان سعيد ابن العاص مائة ألف، وزوج ثلاثاً أو أربعاً من بناته لشباب من قريش فأعطى كل واحد منهم مائة ألف دينار. وأعطى خالد ابن أسيد الأموي ثلاثمائة ألف، وأعطى كل واحد من الذين وفدوا معه مائة ألف حتى رفض صاحب بيت المال عبد الله الأرقم أن يثبذ الأمر واستقال من ماله. (٢١٣)

يقول ابن خلدون نقلاً عن السعدي : في أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال فكان للخليفة عثمان يوم قتل عند خازنة مائة وخمسون ألف دينار ومليون درهم، وقيمة ضياعه مائة ألف دينار، وخلف إبلاً وخيلاً كثيرة، وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم، ومن ناحية السراة أكثر من

ذلك. ولما توفي كانت تركته ثلاثين مليون درهم، كان النقد منها مليون ومائتي ألف دينار وكان باقيها اراضي ومقار.

وبلغ ثمن الجزء الواحد من تركة الزبير خمسين ألف دينار. وخلف اكثر من ألف فرس، وألف أمة، وكان على مريض عبيد الرحمن ابن عوف ألف فرس، وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم، وبلغ الربح من مشروكه بعد وفاته أربعة وتسعين ألفاً. وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسره بالفتوس، وخلف من الاموال والضياع بمائة ألف دينار.

وبني الزبير دوراً بالبصرة والكوفة والاسكندرية، وبني طلحة بالمدينة وبالكوفة. ويختم ابن خلدون قائلاً انها كانت كلها اموال حلال لانها غنائم وفيه. (٢٢١)

وهكذا نرى انه بعد اقل من خمسة عشر عاماً على وفاة النبي برزت في المدينة طبقة فاحشة الثراء من الصحابة بعضهم اقرباء النبي، ومنهم مقربون لابني بكر وممر وعثمان، كانوا نقيضاً لما روي عن الخليفين من زهد وقشف، وكان هؤلاء اعملوا الآية "والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب عظيم". والآية: "يوم يحسب عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا كنزكم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون".

يلاحظ ايضا ان كل هؤلاء المستفيدين من اموال الدولة ومن منحه الخليفة التي ذكرتهم كتب التاريخ كانوا من المهاجرين القرشيين ليس بينهم احد من الانصار من اهل المدينة، ولم يكن بينهم شخص محتاج بل كانوا من الاغنياء من اموال الغنائم والاعطيات والفيوض. ولا بد من التساؤل عن مصدر هذه الاموال الهائلة التي تدفقت على اهل الحجاز خلال تلك المدة القصيرة. ولا بد من الاجابة انها كانت منهوية من سكان البلاد التي فتحها المسلمون.

سار عمال عثمان في المال والعطاء سيرة امامهم حتى فرغت خزائن الدولة واحتاج الجند الى المال فاضطر عثمان ان ينفق على الحرب من اموال الصدقة وهي الاموال المخصصة للفقراء والمساكين، فعرض نفسه للاستنكار، كذلك اضطر العمال ان يتشددوا على الناس في جباية الخراج والجزية والزكاة فضج الناس بالشكوى. وكان من هؤلاء العمال عبد الله ابن سعد ابن

ابي سرح الذي مَيَّنه عثمان واليا على مصر بعدما عزل عمرو بن العاص
وكان من الذين سَخروا من الرسول، وهو اخو عثمان بالرضاعة. وكان يكلف
اهل مصر اكثر مما يطيقون حتى شكوه الى عثمان. لذلك خرج من مصر
الثائرون الاولون على عثمان واجتمع اليهم بعد ذلك غيرهم من اهل العراق
الناقمين ايضا على واليهم. (٢٤١) وزاد في نقمة هؤلاء غطرسة القرشييين في
الكوفة حتى ضاق بهم سكانها.

ولي عثمان على الكوفة الوليد بن عقبة الاموي وهو اخو عثمان لأمه،
وكان من فتيان قريش وشمرانهم وشجعانهم واجوادهم. لكنه لم يتأثر بالاسلام
كثيرا وكان يتهتك بالشراب ويتخذ بيته ملجأ للمراق من اهل العراق الى غير
ذلك من كرم جاهلي وعصية جاهلية. (٢٤٢) فشكاه اهل الكوفة الى عثمان.

بعثت بلاد الشام المنطقة الوحيدة الراضية تحت حكم واليها معاوية بن
ابي سفيان الذي مَيَّنه الخليفة عمر على الشام وازاد الى ولايته الاردن. فلما
ولي عثمان ضم اليه فلسطين وحمص فاجتمعت لمعاوية الاجناد الاربعة فصارت
جيوش معاوية اقوى جيوش المسلمين. وكان معاوية يُغير سنويا على الروم
فيربح من الغنائم والغنيء ما يسرّ الجند ويسرّ بيت المال. (٢٤٣)

وكان عثمان قد قارب الثمانين 'وكانت الغنائم والاموال تتدفق على
العاصمة المدينة مع الجيوش العائدة منتصرة وكانت ابواب السماء تفتحت
بماء منهن'. (٢٤٤)

اسباب الثورة على عثمان

عندما توسع الخليفة عثمان بالفتح من بيت المال لبعض الصحابة من
قريش ولاقربائه، كثر اللفظ حول تصرفاته هذه. فالذين لم ياخذوا تقموا على
الذين اخذوا وعلى من اعطاهم. وقد ادرك صحابة آخرون خطورة ذلك
وعادوه عليه فاجاب ان لي قرابة ورحما.

ولما كثر التذمر تداعى الصحابة الى المدينة وكلفوا عليا بن ابي طالب
ان يكلم عثمان بالامر لكن عثمان لم يستجب فهو لم ينس ان عليا كان
منافسه على الخلافة وان بين بني امية وبني هاشم عداوة ومنافسة قديمة.
ولاحظ المتدينون من المسلمين وعامة الناس المفارقة بين واقع هذه

الثروات الطائلة بين ايدي بعض الصحابة وطريقة انفاقها على اللهو والعبث، وبين مسيرة المسلمين الاولين التي كانت قريبة لاذهانهم.

لكن الثورة على عثمان لم تنفجر من المدينة او من الجزيرة العربية بل اختتمت في الكوفة والبصرة والفسطاط، وكانت الجزيرة قد بدأت تأخذ مركزاً ثانوياً في عهده بالنسبة للبلاد الاغني كالعراق وبلاد الشام ومصر وفارس.

من اسباب الثورة ايضاً ان الخليفة عثمان، كابي بكر وعمر، اظهر انحيازاً واضحاً لقريش في الوقت الذي لم تعد فيه لقريش تلك المكانة المتفوقة بسبب وفاة عدد كبير من الصحابة اصحاب السابقة وظهور طبقات اجتماعية جديدة في الامة الاسلامية.

وقد رأينا ان قريش شكلت بعد وفاة النبي طبقة ارسقراطية قوامها القرب من النبي واستتلت هذه المكانة لمناقضها وعصبيتها فخرجت بذلك عن اصل خطير من اصول الاسلام النظرية وهو المساواة بين المسلمين. واتبع ذلك بخطوة خطيرة اخرى في تفضيل العرب على غيرهم ممن اعتنقوا الاسلام ولم يكن لهم في العرب نسب صريح فانقسم المسلمون الى عرب وموالي وقامت نزاعات خطيرة بينهم.

ثم تفرزت الارستقراطية الناتجة عن المولد بارستقراطية المال الوفير والرقيق الكثير رجالاً ونساء، المجلوب من اجناس مختلفة من بلاد الفتوحات فنشأت في مكة والمدينة والطائف طبقة لا تحتاج الى العمل وانما يحصل لها الرقيق فانصرفت الى فنون اللهو والعبث والمجون فكان الغناء والرقص والشراب في مدن الحجاز التي امتلأت بالمغنيين والمغنيات. وقد تكون العلة في هذا التبدل ان البدو اذا حضروا ونشط لهم العيش، اسرفوا في اللهو شان كثير ممن غني بعد حرمان فانصرف اولاد الصحابة بما لهم من مال وفير وجاه عزيز الى اللهو. ١٢٨١

الى جانب هذه الطبقة الغنية المسرفة نشأت طبقتان اجتماعيتان، اولهما البائسون الذين يعملون في الارض واكثرهم من الرقيق المجلوب وهؤلاء لم يكن لهم دور سياسي في اول الامر.

والطبقة الثانية هي طبقة العامة من العرب الذين كانوا يقيمون في الاقاليم ويقيمون على العدو ويحمون الثغور. وقد نشأ الصراع الاول بين

الاغنياء، ثم بين الطبقة الوسطى وهؤلاء الاغنياء. فالفتنة اذن كانت عربية نشأت من تواجد الاغنياء على المال والسلطان، ومن حسد العامة العربية لهؤلاء الاغنياء.

مقتل الخليفة عثمان

كان زعماء المعارضة لعثمان في المدينة من كبار الصحابة والمهاجرين ومنهم بنو هاشم وعلي واسهم علي بن ابي طالب، اما الانصار الذين أبعدوا عن الحكم منذ خلافة ابي بكر فكانت كثرهم منحرفة عن عثمان لكنهم لم يتصدروا المعارضة. غير ان المهاجرين والانصار لم يكونوا هم الذين قاموا بالثورة الدموية. فقد بدأ الشر في الكوفة اولا سنة ٦٥٤. وكان بين الثائرين في مصر والكوفة والبصرة مراسلات واتصالات وانفقوا على الاجتماع في المدينة بنية الحج. ولم يكن بين الثائرين شامي واحد لان ولاء أهل الشام تحت حكم الوالي معاوية كان خالصا للامويين.

اختلف الثوار على الخليفة المقبل. فاهل مصر هراهم في علي ابن ابي طالب، واهل الكوفة هراهم في الزبير ابن العوام، واهل البصرة يميلون الى طلحة ابن عبيد الله. لكنهم كانوا كلهم مجمعين على المآخذ تجاه عثمان. فكانوا يلومونه على ولاته الذين استأثروا بالغانم وتشددوا بجباية الضرائب، ولاومه على قربه ومستشاره مروان ابن الحكم، وعلى تصرفه ببيت المال. ولما اجتمعوا به طلبوا منه ان يخلع نفسه او يقتلوه فرفض وقال ان القتل احب الي من التبرؤ من خلافة اعطانيها الله. فحاصره الثوار في منزله اربعين يوما وفي مقدمتهم محمد ابن الخليفة ابي بكر وقطعوا عنه الماء ثم دخلوا عليه فقتلوه ونهبوا بيته كما نهبوا بيت المال. ولو اراد اهل المدينة ان ينجذوه لتمكنوا. ولو اراد ابن عمه معاوية في دمشق ان يرسل جندا ليخلصه لتمكن ايضا. وكانت خلافة عثمان اثني عشرة سنة وكان عمره عند مقتله نحو الثمانين.

التيار من خلافة عثمان

مع عثمان عادت الشخصية العربية الى طبيعتها، وعادت العصبية للعائلة والعشيرة الى الظهور الواضح تثبت رسوخها في نفوس العرب كالركن الاساسي

في التركيب الاجتماعي مع ان الاسلام قاوم هذه المصيبة ودعا الى التساري بين الناس على غير طائل.

وقد رافقت هذه المصيبة العرب على مدى القرون ولا تزال تلعب دورا رئيسيا في مجتمعاتنا الحالية. وتعني المصيبة كما سبق وشرحنا، انتماء الانسان الى مجسومة بشرية صغيرة نسبيا ومنحها ولاءه وريط مصيره بمصيرها فهو يدافع عنها وهي تحمي.

نظرية الحق الالهي

كان عثمان اول خليفة يعلن صراحة ان الله عهد اليه بالخلافة وانه لا يحق للناس مناقشته على اعماله فهو مسئول تجاه الله وحده لا تجاه المسلمين. وقد تصرف ابو بكر وعمر قبله بما يشابه ذلك دون ان يعلنانه اذ لم يذكر عنهما انهما كانا يكثران من المشورة او انهما كانا يشرعان للناس (يقدمان حسبا) من اعمالهما وقصرفاتهما بالحكم فقد كانا يعتبران ان مهمتهما هي تطبيق احكام القرآن كما فهماهما، وانهما بالنهاية مسئولين امام الله لا امام الناس ما داما لا يخالفان احكام الشريعة.

بدء الخلافة الاموية مع عثمان

يمكن القول ان الخلافة الاموية بدأت بعثمان بن عفان لا بابن عمه معاوية بن ابي سفيان. ذلك ان معاوية رفض الاعتراف بخلافة علي بن ابي طالب واستمر حاكما على بلاد الشام. وتحارب الفريقان فلم يتغلب احدهما على الاخر. فكتب معاوية الى علي : " اما اذا شئت فلك المراق ولي الشام ونكف السيف عن هذه الامة ولا تهريق دماء المسلمين". فتراضيا على ذلك فاقام معاوية في الشام يجيئها وما حولها، وعلي في العراق يجيئها ويقسمها بين جنوده" (١٠٠)، فكان تسلسل الحكم الاموي متصلا في بلاد الشام ومصر من عثمان الى معاوية ولم تقطعه خلافة علي الا في الحجاز والعراق حيث استمر عهد علي خمس سنوات مليئة بالحروب والفتن التي شغلت الخليفة عن كل امر آخر ثم توحدت تلك المقاطعات مع بلاد الشام تحت بني امية بعد مقتل علي سنة ٦٦١ كما كانت في عهد عثمان فلم يزيد انقطاع حكم الامويين في

العراق والمشرق عن خمسة اعوام.

تري هل غاب فعلا عن اذهان الخليفة عمر وعبد الرحمن ابن عوف
وسعد ابن ابي وقاص الذين رتبوا الخلافة لعثمان انهم كانوا ينتخبون امويًا
والامويون اصحاب عصبية معروفة ودهاء وبأس؟

انتقال مركز الثقل السياسي

في عهد عثمان هاجر كثير من الصحابة من الحجاز الى حيث الخصب
والمران والثروة في العراق وفارس والشام ومصر وسكنوها، فبدأ وهج المدينة
يخبير وتآلق نجم العواصم الاخرى كمراكز للنشاط السياسي، وليس صدفة ان
الثائرين على عثمان جاءوا من القسطنطين والكوفة والبصرة في حين بقي
الحجازيون متفرجين فاستقالوا بذلك من زعامتهم السياسية.
بعد عثمان نقل الخليفة علي ابن ابي طالب عاصمته الى الكوفة ليكون
اقرب الى مراكز القوى المتصارعة. ولم يطل الوقت حتى انتقلت الخلافة الى
دمشق واصبح الحجاز مجرد ولاية.

مخلافة الامام علي ٦٥٦-٦٦١

كان الامام علي من افضل الصحابة خلقا وتقوى وزهدا وشجاعة. وقد
حاول ان يعيد للخلافة صفاءها ونقاوتها لكن خصومه الزميين تألبوا عليه
وانهموه بما ليس فيه وشاغلوه بالحروب طيلة مدة خلافته حتى تجرأوا على
اغتتياله فكانت ولايته مأساة انسانية بالاضافة الى ان اغتياله احدث شرخا
واسعا ومستمرا في الاسلام لا يزال يتفاعل الى يومنا هذا.

عند مقتل عثمان بايع عليا بعض الصحابة الذين في المدينة، وبايعت
الانصار الا نفرا يسيرا فرأى علي ان بيعته قد انعقدت ولزمت من تأخر عنها
باجتماع من اجتمع عليها في المدينة اسوة بما حصل في بيعة الخلفاء الثلاثة
السابقين الذين لم يقبل بهم الجميع بل عارض كلا منهم صحابة مرموقون
ومع ذلك اعتبرت بيعتهم شرعية.

اما المعارضون الزمزيون لتولية علي كبنّي امية وعائشة وسعد ابن ابي
وقاص، وعبد الله ابن عمر ابن الخطاب، والمغيرة ابن شعبة، واسامة ابن زيد،

وحسان ابن ثابت، وعمرو ابن العاص، والزبير وابنه عبيد الله، وطلحة وابنه محمد، وامثالهم من كبار الصحابة فقد امتنعوا عن البيعة متذرعين بحجبتين، طالب البعض ان تتأخر البيعة حتى يجتمع الصحابة ويتفقوا على امام. وهذا تدبير لم يحصل عند اختيار ابي بكر وعمر وعثمان كما مر معنا. وقال اخرون انه يقتضي المطالبة بدم عثمان اولاً ثم يجتمعون على امام. وبما ان هؤلاء او اكثرهم، كانوا في المدينة وقت حصار عثمان ومقتله فلم ينصروه ووقفوا متفرجين على الفتنة، فلم يكن لهم ان ينظروا موته ليطالبوا بثاره ويتخذوا ذلك ذريعة ليهربوا معارضتهم لعلي، وهي معارضة ناشئة في الحقيقة عن مطامع واهواء شخصية قديمة العهد. وعلي هو بكل الاحوال اقرب منهم الى عثمان فهو ابن عمته واخرى ان يطالب بثاره.

والجدير بالذكر ان طلحة ابن عبيد الله والزبير ابن العوام كانا بايعا عليا في المدينة ثم نكلا لما ذهب الى مكة مذعنين انهما بايعاه خوفاً علي حياتهما مع العلم ان كلا منهما كان طامعاً بالخلافة لنفسه.

واقعة الجمل ٦٥٦

لم يكتف المعارضون بالمعارضة السياسية او الصامتة كما فعل علي وبنو هاشم مع الخلفاء الثلاثة السابقين بل لجأوا الى السلاح. وكان اهل البصرة يميلون الى عثمان فارتحل اليها طلحة والزبير وعائشة واعلنوا المقاومة. اشتبك الفريقان في ما عرف بموقعة الجمل في ديسمبر (كانون الاول) ٦٥٦ لان عائشة كانت تتركب جملاً تحرض منه المقاتلين، فانتصر علي وقتل طلحة والزبير وأسرت عائشة فأعادها علي الى مكة. وقد اراد المنتصرون ان يغنموا اموال اهل البصرة كعادة الغزوات التي اقترها الاسلام فمنعهم علي فاستاء المقاتلون وقالوا : يبيع لنا دماءهم ولا يبيع لنا اموالهم؟ وكانت هذه من جملة اخطاء سياسية كثيرة حالت بين علي وبين كسب ولاء مناصريه الكامل مع انه كان يعرف ان الطمع بالغنيمة عند العربي حافز كبير للقتال فلما عرض الله على الجهاد قال : "وعدكم الله مغنم كثيرة تأخذونها". (١١٠)

بعد موقعة الجمل استولى علي على العراق ونقل عاصمته الى الكوفة.

بعد العراق، استمرت المعارضة العنيفة لعلي من معاوية في الشام الذي اتهم عليا بالتواطؤ مع المؤامرة التي أدت إلى مقتل عثمان. لكن معاوية لم يفتر سبب تقامسه عن طلبية طلب النجدة الذي وصله من ابن عمه عثمان لا حاصره التوار فانتظر حتى قتلوه فقام يطالب بثاره ويتهم منافسه عليا به. ان النزاع بين علي ومعاوية على الخلافة كان أيضا نزاعا بين عقليتين ومنهجين. فعقلية علي نشأت وتكونت في عهد النبوة وكانت متلاصقة مع شخصية الرسول منذ بدء الدعوة فكان تفكيره دينيا صرفا وكان اهتمامه منصرفا إلى تنفيذ أوامر الشريعة والتصرف بموجبه.

أما معاوية فهو أموي، وينو أمية آخر من دخل في الإسلام من قريش ولم يأخذوا الموضوع بجدية على ما يقال، ثم ان معاوية أرسل في أوائل الفتح واليا إلى الشام فابتعد عن الجو الإسلامي الذي كان سائدا في المدينة، وتعامل في الشام مع محيط غير مسلم. ثم ان معاوية كان رجل سياسة لا رجل دين وكان همه توطيد حكمه وتوسيعه لا هداية الناس.

وقد بدأ الصراع بين علي ومعاوية بعد أربع وعشرين سنة من وفاة النبي وفي هذه البرهة القصيرة من الزمن تغيرت أحوال كثيرة أهمها ان سلطان الدين لم يعد قويا على النفوس وأخلى مكانه لسلطان المال والعيش الرغيد والمثمة التي نتجت عن الفتوحات.

والمحزن ان عليا لم يلحظ هذا التغير الخطير مع انه كان عاندا فيه يشاهده يوميا حوله في المدينة : في الثروات الضخمة التي نشأت، وفي كثرة الجوارح والعبيد الجلبيين، وفي نوعية الحياة التي اختلفت، وفي كثرة المغنيين والمغنيات ومجالس الشراب التي انتشرت في مكة والمدينة وغيرها وكان روادها اولاد الصحابة والاثرياء.

كان كل هذا يدل على ان حوافز الماضي تغيرت، وان سيطرة الدين على النفوس ضعفت، وان سلطان المال، خصوصا على نفوس المحدثين من المسلمين في تزايد، وان من يطمح إلى الخلافة يجب ان يأخذ هذه المتغيرات بالاعتبار. لكن عليا لم يفعل، أما معاوية فقد استوعبها واستغلها كاجرع ما يفعل رجال الحكم والسياسة. كانت ظروف الحياة الجديدة كلها صواتية لمعاوية ومنافرة لعلي. يُذكر ان عليا لم يكن يفضل شريكا على مشرّف، ولا

سرييا علي مجسي، ولا يصانف الرؤساء وامراء القبائل. فكان هذا من اهم الاسباب في تقاعد العرب عنه. فلما رأى انصاره ذلك وقادروه بما كان يصنعه معاوية بالمال ساروا الى علي وقالوا له : يا امير المؤمنين اعطِ هذه الاموال الى الشرفاء وكبار القوم من العرب وقريش واستملهم اليك. فقال لهم "أتريدون مني ان اطلب النصر بالجور".

معركة صفين والتحكيم ٦٥٧

٧ تكسب العارك بالرجال والعتاد فقط اذا لم تُدعم باجتماع الكلبة والتضامن. هذا ما عمل معاوية على تفويضه في معسكر علي وكانت وسيكته الفضلى المال، وكان تجاوب اصحاب علي مع اغراء المال سرييا. وتبين ان اشراف اهل العراق كانوا يتصلون بمعاوية في ايام علي يتلقون ماله ويمهدون له امره. ولم يكن اهل الحجاز خيرا من اهل البصرة والكوفة فكثيرون تسفلوا الى الشام ايشارا لنديا معاوية. ومن لم يذهب الى الشام من كبار الحجازيين كانت تصله هدايا ومُنَح معاوية الى مقره. ولم يقتصر ذلك على معارضي علي بل كان ذلك امر بعض الرؤساء من اصحاب علي وهو لا يدري.

وفيما كان معاوية يتمتع باموال بيت مال الشام يصرف منها علي تنفيذ غرضه، كان علي يأمر بتوزيع اموال بيت المال على المستحقين لا يترك فيه الا ما يكفي الحاجة : واحد يسعي لكاسب الدنيا، واخر يسعي لثواب الآخرة. اشتبك جيش علي مع جيش معاوية في معركة صفين على الشاطئ الايمن للفرات سنة ٦٥٧، وكاد علي ان ينتصر لولا ان لجأ الشاميون الى الخدعة فرفعوا المصاحف على رؤوس الرماح. فارسل علي الى معاوية يسأله عما يعني ذلك فقال اردت ان نختار منا رجلا ونختارون منكم رجلا ونامرهما ان يحكما في خلافنا بموجب كتاب الله.

ومن المحتمل ان يكون بعض اصحاب علي قد قَامُوا مع اصحاب معاوية . فلما غلبت كفة علي رفع اصحاب معاوية المصاحف وقجاوب معهم المتآمرون على علي من اصحابه وضغطوا عليه ليقبل بالتحكيم واستمالوا اخرين، فنزل علي على رأيهم كارها فسخط عليه الآخرون من مناصريه. عين معاوية عمرو بن العاص حَكَمًا من قبيلة وهو من دهاة العرب.

وكان عمر قد انضم الى معاوية لقاء عهد من معاوية بتوليته مصر ما دام حيا، واراد علي ان يعين ابن عباس حَكَمًا لكن البصائية من جماعته اصروا على تعيين ابي موسى الاشعري. وكان هذا والي علي على الكوفة ومع ذلك كان يحث الناس على الحياد في النزاع بين علي ومعاوية. ولما طلب علي من اهل الكوفة مناصرته حضهم ابو موسى على رفض النجدة فعزله علي . ومع ذلك اجبره اصحابه على تعيينه. فكان علي مكرها على قبول التحكيم، ومكرها على قبول ممثل لا يثق به. ولم تات هذه الامور مصادفة وانما جاءت على الأرجح عن تأمر راح علي ضحيته.

لما اجتمع الحكماء اجلا القضاء الى رمضان فتوقف القتال وتفرق القوم على لا شيء. وكان الظاهر في هذا كله معاوية. فقد رُفِعت عنه الحرب وصارت لديه فرصة ليستعد، وفورط اصحاب علي في الخلاف والغربة والفتنة فيما بينهم. عاد علي الى الكوفة وقد اختلف اصحابه. فمنهم الخوارج الذين اصروا على التحكيم ثم لاموا عليا لقبوله به فامتزلوا عنه، ومنهم من بقي مخلصا لعلي وان شعروا انه اخطأ بقبول التحكيم.

لما حان وقت الاجتماع توافى الحكماء الى دومة الجندل واجتمعوا. فسأل عمرو بن العاص ابا موسى عن رايه فقال : ارى ان نخلع هذين الرجلين ونجعل الامر شورى فيختار المسلمون لانفسهم من احبوا. فقال عمرو اني على رايك. فاقبل على الناس فقال عمرو يا ابا موسى اعلمهم ان رأينا قد اتفق. فتكلم ابو موسى وقال اننا قد اتفقنا ان نخلع عليا ومعاوية ويولي الناس امرهم من احبوا. واني قد خلعت عليا ومعاوية فولوا عليكم من اردتم. 'وقام عمرو فقال ان هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه. وانا اخلع صاحبه كما خلعه واثبت صاحبي معاوية. وبذلك انتصر دهاء معاوية وعمرو بن العاص على سذاجة ابي موسى الاشعري، او سوء نيته. ثم انصرف عمرو واهل الشام الى معاوية وسلموا عليه بالخلافة'. (١٢١)

عاد علي الى الكوفة بعد التحكيم ولم يكن الوضع مريحا له فقد تغلب عليه معاوية بالحيلة وكثرت تحرشاته بتخوم العراق، واستمر يستميل الانصار بالمال والمنافع. ولم يكن العراقيون جاهلين قول النبي : 'من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والي من والاه وعاد من عاداه'. لكن هذا الحديث لم يخفف من

تهاجت الكثيرين منهم على عطايا معاوية من ناحية اخرى، بقي الخوارج يخلقون المشاكل فاشتبك معهم علي في موقعه النهروان ليوليو ٦٥٨ فقتل الكثيرين منهم وانتصر عليهم لكنهم استمروا يشيرون الفتن في وجهه. بعد صفين والتحكيم لم تقع معارك بين علي ومعاوية وتهادنا على ان يستقل علي بالمراق ومعاوية بالشام. واعلن معاوية نفسه خليفة في الشام وعلي ما زال حيا. (١٢١) بعد ذلك خرجت خراسان عن سيطرة علي سنة ٦٥٩، وخرج الحجاز عليه سنة ٦٦٠ اما معاوية فقد استولى على مصر فازدادت قوته وعين عمرو ابن العاص واليا عليها كما وعدته.

مقتل الامام علي

استمر الخوارج بقتال علي حتى انتهوا الى اغتياله في يناير ٦٦١. وكان ذلك ان ثلاثة من الخوارج هم عبد الرحمن ابن ملجم المرادي، والبرك ابن عبيد الله التميمي، وعمرو ابن بكر التميمي، اجتمعوا ورأوا ان صلاح الامة يتطلب القضاء على علي ومعاوية وعمرو ابن العاص. وتعاهدوا ان يقتل ابن ملجم الامام عليا، ويقتل البرك ابن عبيد الله معاوية، ويقتل عمرو ابن بكر عمرو ابن العاص، وعيّنوا اليوم الذي يقومون فيه بمهتهم وهو السابع عشر من رمضان، واخذوا سيوفهم فسمّوها وقصد كل رجل منهم الى صاحب. في اليوم المعيّن خرج الامام علي الى المسجد في الكوفة فهاجمه ابن ملجم وضربه ضربة قاتلة. اما البرك ابن عبيد الله فهاجم معاوية وهو خارج للصلاة فاصابه بالبينه ونجا معاوية. اما عمرو بن العاص فلم يخرج للصلاة تلك الليلة واناب عنه صاحب شرطته فالتبس الامر على عمرو ابن بكر فشد علي صاحب الشرطة وهو يحسبه عمرو بن العاص وقتله. (١٢٢) وكانت خلافة الامام علي خمس سنين الا ثلاثة اشهر وكان عمره تسعا وخمسين سنة وبموته انتهى ما عرف بعهد "الخلفاء الراشدين" مخلصا انقسام العالم الاسلامي بين سني وشيعي الى يومنا هذا.

كان علي مسلما مؤمنا صادقا لكنه لم يستطع ان يكسب ولاء اهل المراق لشخصه اذ كانوا يناقشونه في كل امر في حين كان معاوية وافقا من ولاء السوريين يطيعونه في كل ما يريد. كما كان معاوية اكثر دهاء ودراية

بشؤون السياسة وكان ابن عسره في حين كان علي ابن عسره فات.

نهاية عهد الراشدين

انتهى عصر الخلفاء الراشدين بمقتل الامام علي بن ابي طالب سنة ٦٦١ اي انه دام تسعا وعشرين سنة حكم فيه اربع خلفاء هم الذين يعتبرهم كثير من المسلمين المثال الذي يرغبون باقتدائه وتتبع خطواته في جميع نواحي الحياة.

لكن هذا التعميم لا ينطبق على الواقع. فلم تكن سيرة الخلفاء الاربعة متماثلة، كما لم يكن المجتمع الاسلامي حين مقتل الخليفة علي ابن ابي طالب مطابقا للمجتمع الاسلامي عند تولية ابي بكر قبل ثلاثين سنة، بل يمكن القول انه لم يعد يوجد شبه بين المجتمعين وبين عقلية المسلمين في بداية العصر وفي نهايته.

يتضح ذلك من مقارنة خطبة ابي بكر حين مبايعته بالخلافة مع خطبة زياد ابن ابيه عامل معاوية على الكوفة والبصرة بعد مقتل الامام علي. قال زياد : ايها الناس اننا اصبحنا لك ساسة وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي اعطانا ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما احببنا، ولكم علينا العدل فيما ولينا لاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا". (١٥١)

وقد استمع الصحابة الى هذه الخطبة واستكانوا لها، وخافوا وسكتوا لان المال الكثير والعيش الرغيد الذي جلبته الفتوحات والطمع بالاستزادة اذل الرجال.

طبيعة عهد الراشدين

بماذا يمكن ان يوصف نوع الحكم الذي قام في عهد الراشدين؟ خلافا لما يقوله البعض، نعتقد ان ما ورد في هذا الفصل ينبغي ان تكون الشورى قاعدة حكم الخلفاء الراشدين. ومهما بحثنا فاننا لا نجد لديهم فكرة سياسية واضحة عن نوع الحكم المرغوب وكيفية تسلسله بطريقة هادئة لضمان استمراره، كما لا نجد في ذهنهم خطا سياسيا مستمرا

ووحدة تفكير يتصرفون بموجبهما ويوحدان سلوكهم بحيث يصبح هذا التصور قاعدة لمن يليهم من امراء المسلمين، بل نرى ان كل واحد من الخلفاء الاربعة تولى منصبه بأسلوب مختلف عن الآخرين مما يدل على فوضى في التفكير السياسي عند تلك الجماعة من الصحابة التي رافقت عهد النبي. ولا يصح القول انهم كانوا يهتدون بتعاليم القرآن لان القرآن لم يتعرض لشتون الحكم. وهكذا تولى ابو بكر الخلافة بعد نزاع شديد بين جماعتين وعصبيتين : المهاجرين والانصار، فنافروا في سقيفة بين ساعدة تنافرا لا يخلو من العنف وتغلبت قريش. وجاءت خلافة عمر بما هو قريب جدا من التمييز. اما خلافة عثمان فقد دبرها عمر تدبيرا محكما لغرض معين بعيدا عن مبدأ الشورى. ورافقت خلافة علي خلافات وحروب وكفن بين الصحابة منذ بدايتها.

لم تكن الخلافة وراثية في عائلة او سلالة ايام الراشدين كما صارت بعدهم. كما انها لم تعتمد على الشورى. فماذا كانت طبيعتها اذن؟ لعل اقرب وصف لها انها كانت امتدادا للحكم العشائري الذي اعتاده العرب مكسوبا بثوب ديني.

وقد استمرت الخلافة على الشكل القبلي ما بقيت محصورة في الجزيرة العربية ومحيطها العشائري. فلما توسعت الفتوحات لم يعد النظام العشائري كافيا للقيام بمقتضيات الدولة. ولما لم يجد المسلمون في الكتاب والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين ما ينير لهم الطريق، بدأ الحكم يتحول الى ما وجدوه امامهم في الاقطار المفتوحة وهي ارقى حضارة متهم. وسيأتي بحث ذلك في الفصول التالية.

مقام الراشدين والصحابة

مما يلتفت النظر في سيرة الخلفاء الراشدين ان التواريخ الاسلامية القديمة ذكرت اخبارهم ببساطة وقصره فسردت اعمالهم الجليلة في خدمة الدين كما اوردت خلافاتهم وتنازعهم على الخلافة، وكيف فقد بعضهم بعضا دون حرج وقد ذكرنا شيئا من ذلك. وتناولت التواريخ الصحابة فعاملتهم كبشر مثل سائر الناس ونقلت اخبارهم. من هذه الاخبار مثلا ان بني هاشم

وبني امية اقوى فروع قريش عارضا تولية الخلافة لابني بكر وعمر.
وان الخليفة عمر ابن الخطاب طعن في حديث ابي هريرة وهو من اكثر
الناقلين لاحاديث النبي، وشتم خالدا ابن الوليد بسيف الاسلام، وحكم
بفسقه، وخون عمرو ابن العاص ومعاوية ابن ابي سفيان ونسب اليهما سرقة
مال الفيء. وقد اطلعنا على رأيه في الستة الذين اختارهم لانتخاب الخليفة
الذي سيليه وكلهم من اكابر الصحابة وخمسة منهم من اقرباء النبي. وبادله
هؤلاء بمثل ما قاله ليهيم.

من ناحية اخرى تعرض بعض الصحابة في عائشة زوجة النبي المفضلة،
وفي الزبير ابن عمته، وفي طلحة الذي رماه بيده، وفي معاوية اخي زوجته ام
حبيبة، وفي محمد ابن الخليفة ابي بكر لاشتراكه بمقتل الخليفة عثمان.
وكانت عائشة تلعن للخليفة عثمان ومثلها الصحابي الكبير عبد الله ابن
مسعود.

وكان ابو بكر وعمر قد لعنا سعدا ابن عباد زعيم الخزرج والانصار
لانه نافس ابا بكر على الخلافة واخرجاه قسرا من المدينة إلى الشام. وشهر
الزبير وطلحة وعائشة الحرب على علي ابن ابي طالب فقتلا في موقعه الجمل
وأُسرت عائشة.

اما معاوية وعمرو ابن العاص فقد لعهما علي ولعن ابا موسى الاشعري
الذي خانته في التحكيم بعد معركة صفين. وقد هادل معاوية عليا اللعن من
مساجد الشام.

اما المعتزلة فقد اعتبروا ابا موسى الاشعري من مرتكبي الكبائر بسبب
الدور الذي لعبه في قضية التحكيم.

بالاضافة الى ذلك تبادل الصحابة من شيعة علي مع الصحابة المخالفين له
الطعن ببعضهم البعض وصدق ائوالهم وصحة حديثهم. (١٦١)

ولا ننسى تهافت عدد كبير من الصحابة على كنز الاموال الطائلة
والسعي للاستزادة منها مما سبب حسد صحابة اخرين لهم، وانصراف
الكثيرون منهم ومن اولادهم الى الجوارى والغناء والشراب والرقص بعدما
تدفقت اموال الفنائم والسيافا من الفتوحات فاصبحت مكة والمدينة والطائف
مراكز لهو وعبت للطبقة الموسرة من الصحابة واولادهم بعد عشرين سنة من

وفاة النبي، ومن المؤكد ان اغتيال ثلاث خلفاء راشدين في ظرف ثلاثين عاما ليس دليل عافية في المجتمع الاسلامي الاقرب مهذا من النبي.

لقد كانت جميع هذه الاخبار معروفة ومتداولة بين الناس الى منتصف القرن التاسع وقد وردت في كتابات المؤرخين المسلمين والمعتزلة وغيرهم. ولم يجد المسلمون عَرَجاً في ذلك لانهم نظروا الى الخلفاء الاربع والى الصحابة نظرة طبيعية باعتبارهم بشر يخطئون ويصيبون وتعمل في نفوسهم النزعات التي يتعرض لها كل انسان فيتنافسون على المصالح الخاصة، ويتقاتلون على المنافع، ويتفرقون شيئا واحزابا، ويتزاحمون على النفوذ السياسي، ويتاورون في سبيل ذلك كما يفعل السياسيون في كل زمان ومكان.

يقول الدكتور طه حسين في ذلك : "الاحظ ان جماعة من اصحاب النبي ممن حسن بلاؤهم في الاسلام حتى بشرهم النبي بالجنة أمتحنوا بالسلطان الضخم العظيم والثراء الواسع العريض ففسدت بينهم الامور وقاقل بعضهم بعضا، وساء ظن بعضهم ببعض الى ابعد ما يكون سوء ظن الناس بالناس". (٢٧)

استمرت هذه النظرة الواقعية لعهد الخلفاء الراشدين وللصحابة مدة مايتي سنة طيلة عهد الخلفاء الراشدين انفسهم والعهد الاموي وعصر الازدهار العباسي الى ان جاء الامام ابو حسن الاشعري (٨٧٢-٩٢٥) وارتأى انه لا يصلح ان يتعرض احد لاحد من الصحابة بسوء فसार اخرون على منواله. وكان ذلك بعدما ابتداء عهد التقليد أيام الخليفة المتوكل (٨٤٧-٨٦١) الذي اضطهد اهل العقل وانحاز الى "اهل النقل" الذين فسجوا حول الجبل الاول هالة من الاعجاب والاكبار لم تكن لهم في حياتهم، وبالقوا في ذلك الى حد يقارب التقديس الديني لاشخاصهم ولجميع تصرفاتهم مع ان الاسلام منع تقديس البشر لان ذلك يخل بوحدة الله وجلاله، فلا يوجد في الاسلام قديس او ولي يتستع بقدرات خارقة كما في بعض الاديان الاخرى. وبذلك حال "اهل النقل" دون النقد العلمي المجزء لاحداث ذلك الزمان.

استمر التجهيل الى يومنا هذا بحيث يتعرض لسخط شعبي عام كل من يناقش اعمال الصحابة والخلفاء الاربع على اساس الوقائع التاريخية الثابتة. وقد ورث بعض المسلمين هذا الموقف وعززه فهم خلفاء "اهل النقل

والتقليد" في مصرفنا وكوتونا للناس صورة وهمية عن عهد الراشدين بأنه كان مجتمع الوئام والألفة والتضامن والعدل، وأنه يمثل أقصى ما يمكن للبشرية أن تصل إليه من صلاح الحكم وسعادة البشر وهم يريدون أن يعيدوا تركيب المجتمع الحالي على ذلك المثال. ومثل ذلك نظرهم إلى سائر الصحابة فهم في رأيهم صادقون في أقوالهم وتصرفاتهم منزهون عن الخطأ في قولهم وفعلهم، متصرفون لخدمة الاسلام، مترفعون عن المصالح الشخصية، يجمع كل منهم في شخصه جميع الفضائل الانسانية فلا يجوز بحث اعمالهم الا للاشادة بحكمتها وحذار من التجزؤ على انتقاد نواياهم وتصرفاتهم رغم ان التناقض كان واضحا بينهم في القول والعمل.

يقول في ذلك الدكتور طه حسين : " ان كثيرا من العلماء يسبقون على التاريخ الاسلامي صفة من الجلال والتقديس الديني او الذي يشبه الديني فحول بين العقل وبين النظر فيه نظرا يعتمد على النقد والبحث العلمي الصحيح. فهم يؤمنون بمجد قدماء المسلمين رجالا خطرهم وتقديس مكانتهم ويضيفون اليهم كل خير وينزهونهم عن كل شر ويصفونهم بجلال الاعمال ويرفعونهم عن صفاتها. (٤٨)

وقد شمل هذا الموقف كتب السيرة عن حياة النبي فيقول السادة مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي في تقديمهم لطبعة "سيرة ابن هشام" : "لعل النظر الى تراث السالفين ولا سيما ما يتصل فيه بعلم السيرة نظرة فيها الكثير من التقديس، هو الذي حال دون هؤلاء الكتاب ان يقفوا من هذا العلم موقفاً فقدناه في جميع المؤلفين المتقدمين على اختلاف طبقاتهم فلم نر منهم من عرّض لما تحمله السيرة من اخبار تتصف بالبعد عن الواقع فنقدها رأتى على مواطن الضعف فيها".

وقد حاولنا في هذا الفصل ان نعيد الموضوع الى بساطته التاريخية كما عرفه "اهل العقل" والمسلمون قبل عصر التجهيل وفي يقيننا ان المصادر التاريخية الاسلامية التي لا يطعن احد بمصداقيتها كفيلا بان تعطي الباحث الصورة الصحيحة عن هذه الواضيع.

• • •

مراجع الفصل الرابع

السياسة في عهد الخلفاء الراشدين

- ١ - سورة الشورى، ٢٧، وآل عمران ١٥٨.
- ٢ - خالد محمد خالد، ودأماً عثمان، ص ٦٢.
- ٣ - ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٢٢٥.
- ٤ - الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ٢٠٢.
- ٥ - المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٠٢.
- ٦ - المصدر السابق، ص ٢٢٢.
- ٧ - ابن الاثير، سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٢٠.
- ٨ - المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٢٤.
- ٩ - خالد محمد خالد، وجاء أبو بكر، ص ٩٢.
- ١٠ - الطبري، ج ٤، ص ٤٢٨.
- ١١ - القاسمي، ظواهر نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الاسلامي، ج ١، ص ١٦٨.
- ١٢ - طه حسين، الفتنة الكبرى، ج ١، ص ٢٥ و ٢٦.
- ١٣ - عبد الرازق، ملي، الاسلام واصول الحكم، ص ١٨٤.
- ١٤ - احمد لمين، فجر الاسلام، ج ١، ص ١٧٦.
- ١٥ - طه حسين، الفتنة الكبرى، عثمان، ص ٩.
- ١٦ - المصدر السابق، ص ١٨.
- ١٧ - المصدر السابق، ص ٩.
- ١٨ - ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٦٢.
- ١٩ - الطبري، ج ٢، ص ١٩٠.
- ٢٠ - ابن الاثير، ج ٢، ص ٩١.
- ٢١ - طه حسين، عثمان، ص ٢٥.

٢٢	- ابن الاثير، ج ٢، ص ٢٥.
٢٣	- العجلاني، منير، عبثية الاسلام في اصول الحكم، ص ١٠١ و ١٠٢ نقلا من كتاب "السلفية" للجاحظ.
٢٤	- ابن الاثير، ج ٢، ص ٢٥ و ٢٦.
٢٥	- خالد محمد خالد، وداعا عثمان، ص ٦٥.
٢٦	- ابن الاثير، ج ٢، ص ٢٧.
٢٧	- طه حسين، عثمان، ص ٤٢.
٢٨	- المصدر السابق، ص ١٩١.
٢٩	- سورة الانفال، ٦٩.
٣٠	- سورة النحل، ١١٢.
٣١	- طه حسين، عثمان، ص ١٩٢.
٣٢	- سيد قطب، العنيفة الاجتماعية، ص ٢١٤.
٣٤	- ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٥٢ و ٢٩٢.
٣٥	- طه حسين، عثمان، ص ١٢٥.
٣٥	- احمد أمين، فجر الاسلام، ج ١ ص ٩٧.
٣٦	- طه حسين، عثمان، ص ١٢٠.
٣٧	- خالد محمد خالد، وداعا عثمان، ص ٨١.
٣٨	- احمد أمين، فجر الاسلام، ج ١ ص ٢١٥.
٣٩	- ابن الاثير، ج ٢، ص ٨٠.
٤٠	- الطبري، ج ٥، ص ١٤٠.
٤١	- طه حسين، علي وبنوه، ص ١٥٤.
٤٢	- ابن الاثير، ج ٢، ص ١٦٢ - ١٦٨.
٤٣	- القاسمي، ظافر، سبق ذكره، ج ١، ص ٢١٩.
٤٤	- ابن الاثير، ج ٢، ص ١٩٥ - ١٩٨.
٤٥	- طه حسين، علي وبنوه، ص ٢١٥.
٤٦	- احمد أمين، ج ٢، ص ٧٦، ٨١، ٢٥١، ٢٥٢.
٤٧	- طه حسين، عثمان، ص ٤٠.
٤٨	- طه حسين، حديث الاربعاء، ص ٧٨.

الفصل الخامس

السياسة في الدولة الاموية (٦٦٠-٧٥٠)

ينتسب الامويون الى امية ابن عبد شمس ويجمع نسبهم بالرسول في جدهم قصي بن كلاب الذي فرري التقاليد انه اول من جمع قريش في مكة وكان زعيمها. وكانت ام حبيبة بنت ابي سفيان، اخت الخليفة معاوية، احدى زوجات النبي.

وقد كان بين بني امية وابناء عمهم بني هاشم نزاع وتنافس في قريش بدأ قبل الاسلام واستمر الى نهاية العهد الاموي.

تفرع من بني امية فرعان توليا الخلافة هما السفينانية المنحدرون من ابي سفيان والد معاوية، والمروانية المنحدرون من مروان ابن الحكم، ابن عم الخليفة عثمان ابن عفان. اسس الخلافة الاموية معاوية ابن ابي سفيان وتوالى عليها من السفينانيين يزيد ثم معاوية الثاني وكان عليا وتوفي في السنة الاولى من خلافته فكانت مدة السفينانيين ثلاث وعشرون سنة. بعد معاوية الثاني انتقلت الخلافة الى مروان ابن الحكم وكان مستشار عثمان مدة خلافته. وبقيت الخلافة في المروانيين الى نهاية العهد الاموي .

خلفاء بني امية

الخلفاء من آل سفيان

٦٦٠ - ٦٨٠

١ - معاوية ابن ابي سفيان

٢ - يزيد الاول ابن معاوية

٣ - معاوية الثاني ابن يزيد

الخلفاء من آل مروان

- ٤ - مروان الاول ابن الحكم
- ٥ - عبد الملك ابن مروان
- ٦ - الوليد الاول ابن عبد الملك
- ٧ - سليمان ابن عبد الملك (اخو الوليد)
- ٨ - عمر ابن عبد العزيز حفيد مروان الاول
- ٩ - يزيد الثاني ابن عبد الملك
- ١٠ - هشام ابن عبد الملك (اخو يزيد)
- ١١ - الوليد الثاني ابن يزيد ابن عبد الملك
- ١٢ - يزيد الثالث ابن الوليد الاول
- ١٣ - ابراهيم ابن الوليد الاول
- ١٤ - مروان الثاني ابن محمد حفيد مروان الاول

بعد الاضطراب الذي شاعدهناه في خلافة الراشدين حيث قُتل ثلاث خلفاء في ظرف تسعة وعشرين عاماً، يبدو العهد الأموي أكثر العهود الإسلامية ثباتاً واستقراراً. فخلال التسعين سنة التالية توالى على الحكم أربع عشرة خليفة بصورة هادئة لم يقتل منهم لأسباب دينية - سياسية إلا الخليفة الحادي عشر الوليد الثاني، وكانت الدولة قد دخلت عصر الانحطاط، والخليفة الأخير مروان الثاني الذي قتل في حربه مع العباسيين، بالإضافة إلى ذلك كان العهد الأموي انشط العهود الإسلامية في نشر الدين والفتوحات لم يجاريه بذلك عهد آخر.

تأسيس الدولة الأموية

وتحالف معاوية (٦٦٠ - ٦٨٠)

نودي بمعاوية خليفة في بيت المقدس وجعل الشام عاصمته، لكن أهل العراق بايعوا الحسن ابن الخليفة علي من آل هاشم فلجأ معاوية إلى السياسة بغضيل على العتف. عقد اتفاقاً مع الحسن تنازل فيه هذا عن الخلافة لمعاوية

واعتزل في المدينة لقاء أمان لشيمة علي وشروط مالية منها اموال وضياع، وخمسة ملايين درهم من بيت مال الكوفة، وعطاء سنوي، ودخل كورة يختارها من كور فارس ما دام حيا، ١١١ وقد توفي الحسن نحو سنة ٦٦٦ وهو في الخامسة والاربعين ويرجح انه مات مسموما اثر دسيسة دبورها بعض نسائه فقد ذكر عنه انه كان مزواجا مطلقا تزوج وطلق نحو مئة امرأة. اما الشيعة فعزّت قتله الى معاوية واعتبرته سيد الشهداء. ١٢١

بعد وفاة الحسن استقرت الامور لمعاوية فانصرف الى تثبيت حكمه وتنظيم دولته وتوسيع فتوحاته. وقد كان لانتقال مركز الخلافة من المدينة والكوفة الى دمشق معاني تتجاوز اختلاف الموقع الجغرافي. من ذلك أولا ان سوريا تتجه غربا نحو البحر المتوسط وسواحله الجنوبية لأن بادية الشام تشكل حاجزا بينها وبين العراق والجزيرة. لذلك اتجهت فتوحات الامويين الى شمال افريقيا ثم الى الاندلس بالاضافة الى توسعهم شرقا من قاعدتهم في خراسان الى السند وتركستان. وسياتي تفصيل هذه الفتوحات في الفصل الثامن. والمعنى الثاني لانتقال الخلافة ان دمشق وسوريا تحت حكم البيزنطيين كانت قطرا مدنيا متحضرا في وضعها الاجتماعي، والمستوى المعيشي لسكانها، واقتصادها، وادارة امورها، وكانت ارقى مما اعتاده العرب في باديتهم وفي مدن الجزيرة. وقد خبر معاوية هذه الحياة الدمشقية بحكم ولايته على سوريا منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب.

وضع بلاد الشام

كان سكان بلاد الشام في معظمهم نصارى يتكلمون اللغة الارامية التي كانت لغة السيد المسيح وكان بينهم بعض اليهود وقبائل عربية تسكن بادية الشام والقسم الجنوبي من بر الشام الاقرب للجزيرة العربية واشهرها غسان ولخم وجزام وقضاة وكلب وطائفة من بني تغلب. وكان بعضهم يتكلمون لغة تدرج بين العربية والارامية وقد وقف بعضهم بجانب الرومان في محاربة المسلمين عند الفتح. اما سكان المدن في سوريا ولبنان وفلسطين فكانوا في رأي بعض المؤرخين، من اليونان الذين هبطوا منذ بداية الانتشار الهيليني وتميزوا من باقي السكان النصارى بانهم كانوا يسكنون المدن وينتمون الى

الكنيسة البيزنطية في حين كان باقي نصارى بلاد الشام ينتمون الى الكنيسة السريانية. وبموجب هذا الرأي فان الارثوذكس والكاثوليك في البلاد الشامية هم احفاد اولئك اليونان وقد حافظوا على خصوصيتهم الى الان لان تزواجهم مع السريان والغاتحين العرب كان نادرا كما حافظوا على دينهم في حين ان اهل الريف والبادية من غساسنة وغيرهم خلب عليهم الاسلام مع الزمن. (١١)

بقيت النصرانية سائدة في بلاد الشام مدة تقارب الثلاثة قرون بعد الفتح وقد بقي المسلمون اقلية صغيرة مدة الخلافة الاموية يتضح ذلك من ان عدد الرواتب المفروضة للمسلمين وللجند في منطقة حمص مثلا ايام الخليفة مروان الاول (٦٨٤ - ٦٨٥) لم تزيد عن عشرين الفا. ولم تزيد هذه الرواتب في دمشق ايام الوليد الاول (٧٠٥ - ٧١٥) عن خمسة واربعين الفا. اما لبنان فقد بقي نصراني المذهب سرياني اللغة الى ما بعد الفتح باجيال طويلة. (١٢)

هذا هو الوضع الذي واجهه معاوية منذ ولايته على الشام وحمص وفلسطين وبعد ان تولى الخلافة. وكان عليه ان يستجيب له بالتعاطي الايجابي معه والامتزاج به اجتماعيا وثقافيا وفكريا، او بالتنكر له ومحاولة اخضاعه للمفاهيم الواردة من الجزيرة. والحقيقة ان الخيار الثاني لم يكن متاحا لمعاوية ولخلفائه اذ فضلا عن ان الامويين لم يكونوا شديدي التسامح بالاسلام، هذا الخليفة عمر بن عبد العزيز، فان حاجتهم السياسية والعسكرية والمالية لاهل الشام، وسوادهم الاعظم نصاري، كانت تضطرهم الى ملائمتهم. وقد اعتمدوا عليهم وعلى القبائل العربية في سوريا، واكثرها يمنية، في حروبهم مع الخليفة علي ثم في قمع ثورات الحجاز والعراق وفي الفتوحات الواسعة التي باشروها.

لا يبدو ان معاوية وبني امية كانوا كثيري التقدير والاحترام للخلفاء الراشدين وللصحابة عموما فقد رأينا ان ابا سفيان والد الخليفة معاوية كان من اكبر المعارضين لخلافة ابي بكر وعمر وهذا من اسباب نقمة بعض المسلمين المعاصرين على بني امية. اما الصحابة فقد خبرهم الامويون قبل الاسلام وبعده وشاهدوا نهانت بعضهم على المال وتنازعهم على الخلافة وتقاتلهم وتنافروهم بالكلام وبالسيف. وقد لعب المال الذي بذله معاوية للصحابة ولاشراف العرب ولرؤساء القبائل دورا هاما في تحويلهم عن الامام علي. والمال

يولد الاحتقار عند الذي يدفع، ويولد الذل عند الذي يقبض. وقد تجلى استهتار الامويين بالصحابة لما اتهم الصحابي الكبير انس بن مالك بالليل الى الفئات المقاومة للامويين فجاء به الحجاج بن يوسف وختمه في عنقه اذلالا له. كان معاوية من اقدر الخلفاء العرب واحكمهم على مدى العصور. اشتهر بالحكمة والحلم وحسن التصرف السياسي. يُروى عنه قوله "لو بقيت بيني وبين خصمي شجرة ما تركتها تنقطع. فان ارخى شدت، وان شد ارخيت". ومع ذلك لم يكن ينقص معاوية الحزم والشدّة عند اللزوم. وقد واجه في البيئة الشامية احوالا ومتغيرات لم يتعرض لها الخلفاء السابقون في محيط الجزيرة العربية ولم يكن في القرآن والسنة نصوص تشير الى الحلول المناسبة لها كما ان الخلفاء الراشدين لم ينشئوا مؤسسات وتقاليد سياسية لتولي الحكم وانتقاله وممارسته تصلح ان تكون قدوة لمن ياتي بعدهم. في غياب النمط السياسي الاسلامي لجأ معاوية الى متبعين اخرين هما التقاليد البدوية والادارة البيزنطية. والسياسة تعامل وحسن تدبير بقدر ما هي نصوص. وقد ازدادت أهمية التعامل اليومي حين اهللت الشريعة المعالجة السياسية. والمجتمعات البشرية كائنات حية تتطور صعودا او هبوطا، وكان المجتمع الاموي بجميع فئاته في مرحلة تطور سريع بسبب احتكاك الدين الجديد واللغة العربية والتقاليد البدوية مع عادات ومعتقدات وثقافة سكان البلاد المفتوحة وخاصة اهل البلاد الشامية مقر الخلافة والحكم.

تطور المجتمع العربي

ليس ادل على حتمية التطور في المجتمع العربي الجديد من طريقة تعامله مع اهل الذمة، وهم في الآيات القرآنية اليهود والنصارى والصابئة وهؤلاء يعرفون باسم نصارى القديس يوحنا ويسكنون الاغوار الواقعة على مصب نهر لفرات وقد بقي منهم عدد قليل في العراق يتعاطى اكثرهم الصياغة. فلما امتدت الفتوحات الى غير اهل الكتاب وكثر عددهم اضطر المسلمون الى توسيع المفهوم القرآني ليشمل عبدة النار (المجوس) من اتباع زرادشت، والوثنيين من اهل جرّان، والبربر والاثراك عبدة الاصنام فساروهم بالمعاملة مع النصارى واليهود وقبلوا منهم الجزية بدل قتلهم او اجبارهم على

قبول الاسلام كما نص الشريعة. وبذلك قامت الضرورة العملية مقام النظرية القرآنية.

كانت الجزية تسقط عن الذمي بمجرد دخوله في الاسلام. وفي عهد الامويين اعفى العرب النصارى من دفع الجزية اكراما لعنصرهم العربي. ولا توجد ادلة ان اهل البلاد المفتوحة دخلوا في الاسلام جماعات كبيرة الا في عهد الخلفتين عمر بن عبد العزيز (٧١٧ - ٧٢٠) والمتوكل العباسي اللذين اشتدا في الضغط على اهل الذمة. (٢١) وقد قبلت الامم المغلوبة الاسلام في كثير من الاحوال لانها ارادت الخلاص من دفع الجزية، ومن الاذلال الاجتماعي، ولانها ارادت المشاركة في ولاية الامور والمنافع. (٢٢)

اقتبس معاوية من التقاليد البدوية المجلس العشائري المؤلف من رؤساء القبائل وكان الخليفة يدعوه للمشورة تقليدا "لدار الندوة" في مكة قبل الاسلام فيستانس بزيهم وهم اصحاب المكانة والنفوذ في مجتمعاتهم، ويطلع على احوالهم ويحل مشاكلهم فكان معاوية في ذلك اقرب الى الشورى التي ورد ذكرها في القرآن من الخلفاء الراشدين الذين اعملوها كما رأينا في الفصل الرابع مع انهم، مع الصحابة المهاجرين، عايشوا "دار الندوة" في مكة وكان بعضهم اعضاء فيها.

كان معاوية يستدعي ايضا الوفود من مختلف البلدان حاملة مطالبها وهمومها فيقضي لها حاجاتها ويضمن ولائها. فكان حكم معاوية من هذا الوجه حكما قريبا شعبيا قريبا من الشعب العربي وهمومه. وقد عزز معاوية هذا الاتصال بتحسين ديوان البريد الذي كان ينقل اوامر الخليفة الى الولاة ويحمل رسائلهم ويتلقى تقاريرهم باقصى سرعة ممكنة في تلك الايام. اما في الادارة اليومية والمالية فقد اقتبس ما وجدته في بلاد الشام من مؤسسات بيزنطية وبعثت الادارة في يد الموظفين المحليين، ولغة الدوائر الارامية واليونانية، والنقود المتداولة ببيزنطية ذهبية من دنانير واجزائها، الى عهد عبد الملك بن مروان الذي جعل العربية لغة الدواوين واصدر نقودا عربية.

من الذين برزوا في الادارة منصور ابن سرجون الذي ساهم بتسليم دمشق للعرب مع اسقف دمشق وهو نصراني من اسرة سورية كان يتولى بعض رجالها شئون بيت المال ايام البيزنطيين. وكان حفيده القديس يوحنا

الدمشقي الذي عرف منه انه كان في شبابه احد ندماء الخليفة يزيد ابن معاوية ثم خلف ابيه وجده في استلام الادارة المالية في الدولة الاموية وبقي مشرفا عليها حتى خلافة هشام بن عبد الملك (٧٢٤-٧٤٢) حينما اعتزل الادارة وانصرف الى حياة الزهد والتعبد واقام في دير القديس سابا بالقرب من القدس حيث توفي سنة ٧٤٨. من مؤلفاته كتابات لارشاد النصاري في مجادلة المسلمين فقد كان مقبولا في ذلك العصر ان يتجادل الفريقان في شئون الدين وان يدلي كل فريق بادلته العقلية في تعزيز موقفه. وكان طبيب معاوية ابن اثال نصرانيا ايضا وقد ولاه على جباية خراج حمص. (١) وكان الاخطل النعلبي النصراني شاعر الخلفاء ومن ندماء يزيد بن معاوية ومن اصدقاء القديس يوحنا المذكور. كان يدخل على الخليفة عبد الملك بن مروان والصليب مدلى من عنقه وريحة الخمر تفوح منه فينشده الشعر ويطربه. ويعزو المؤرخ ثيوفانوس الى معاوية بناء كنيسة للنصارى في الرها. (٢)

كان لمعاوية عدد من الزوجات اعطاهن عنده ميسون وهي عربية نصرانية من قبيلة كلب اليمنية وكانت على مذهب اليعاقبة كنانة زوجة عثمان بن عفان التي كانت تنتمي ايضا الى قبيلة كلب. كانت ميسون تذكره حياة القصور في دمشق وتؤثر عليها حياة البادية التي اعتادتها. وكثيرا ما كانت تصطحب معها ابنتها يزيد الى البادية حول تدمر حيث كانت مضارب قبيلتها. وهناك تعلم يزيد الصيد والفروسية وقرض الشعر وشرب الخمر واصبحت البادية الشامية منذ ذلك الوقت مدرسة للامراء الامويين يتعلمون فيها العربية الخالصة من الروانة الازامية. وقد حذا الخلفاء الامويون بعد ذلك هذا الحذر فبنوا لهم منازل على حدود الصحراء كانت تعرف بقصور البادية، منهم عبد الملك بن مروان وهشام ابن عبد الملك والوليد الثاني.

ان قسما كبيرا من نجاح معاوية يرجع الى عصبية من الاعوان المخلصين منهم عمرو بن العاص والي مصر، والمغيرة بن شعبة والي الكوفة المتمردة، وزيد بن ابيه الذي اعترف به معاوية اخا له، وهو والي البصرة مركز الشيعة. بعد موت المغيرة تولى زيد امانة الكوفة والبصرة والجزيرة العربية وفارس. وقد ساهم هؤلاء بنشاط كبير في قمع الفتن الداخلية التي اثارها الخوارج وشيعة الامام علي وغيرهم من الطامعين بالخلافة.

اثناء انشغال معاوية بقتال علي بن ابي طالب اضطر الى تأمين حدوده مع بيزنطية فاسترضى امبراطور الروم كوستانس الثاني (٦٤٢ - ٦٦٨) بدفع جزية سنوية. لكنه بعدما استقر به الامر رفض دفع الجزية وصار يشن حملات سنوية على حدود بيزنطية عرفت باسم "الصوائف" لانها كانت تجري في الصيف وغايتها الرئيسية الغنيمة وابقاء الجيوش السورية مدربة وراضية. وقد بلغت بعض هذه الغزوات جوار القسطنطينية لكن العرب لم يستطيعوا تثبيت اقدامهم في آسيا الصغرى فقد كانت جبال طوروس تشكل فاصلا طبيعيا بين الفريقيين وكانت الدولة البيزنطية ما زالت قوية.

العصبية العربية والموالي

ذكرنا في الفصل الاول ان العصبية القبلية في الجاهلية كانت اساس التلاحم الاجتماعي. وكان العربي ينجذب الى قبيلته يميز بها ويكافئها دون ان يشمر بالانتساب الى وطن جغرافي او الى مجموعة بشرية تشكل امة او دولة. وبقي العرب قبائل تتقاتل وتتناحر.

فلما جاء الاسلام وتغللت القبائل العربية على دولتي الروم والفرس دخل على النفوس العربية شعور بالانتساب الى قوم وجنس ودم. فصاروا يعتزون بجنسهم العربي على باقي الشعوب التي قهروها من روم وفرس واقباط واتراك وصقالبة واسبان واتراك رهنود وغيرهم. وتملكهم الشعور بالسيادة والعظمة ونظروا الى غيرهم من الامم الاخيرة نظرة السيد الى المسود وعاملوهم على هذا الاساس .

لكن العرب مع ذلك لم يشكلوا امة بل ضاعوا بين نزعتهم العنصرية، وبين دعوة الاسلام الى الاندماج بين الاجناس والمساواة بين الافراد في ظل الدين الجديد كما جاء في الاية : "انما المؤمنون اخوة... وان اكرمكم عند الله اتقاكم". والحديث : "لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى". وبقي العرب قائلين لكن الامويين لم يلتزموا بالاوامر الدينية واسسوا حكمهم على العنصرية العربية الواضحة.

كان لهذه العصبية وجهان : العصبية المتعالية التي شملت العرب تجاه الشعوب المغلوبة، والعصبية القبلية التي بقيت تنخر في المجتمع العربي. وكانت

العصبيتان من أهم أسباب سقوط الدولة الأموية والقضاء على النفوذ العربي في التاريخ الإسلامي.

مع اتساع الفتوحات العربية وكثرة الرقيق دخل على اللغة لفظان غير واضحين يتعلقان بالموالي. فالولي كان في البداية عبدا أطلقه سيده وقامت بينهما علاقة حقوقية تفرض واجبات على الطرفين. ثم استعمل البعض كلمة موالي بشكل اعم لتشمل الذين اعتنقوا الاسلام من غير العرب. وكانت قيمة الانسان في النظام العشائري العربي ترتبط وتحدد بمكانة مشيرته وقوتها ومنزلتها. فمن ليست له عشيرة يفقد مكانته ومن ينتسب الى عشيرة ضعيفة يبقى مهتلا. لذلك اضطر المسلمون الجدد في البداية الى الدخول في هذا النظام والانتساب الى قبيلة او احد افرادها ليحصلوا على الحماية فسموا موالي وكانوا لا يتكافئون بالمكانة مع العرب الاخرين.

وقد نغم الموالي على هذا الوضع وتزايدت نفقتهم مع تكاثر عددهم وتنامي قوتهم فصاروا منصرفا رئيسيا في الحركات والفتن التي قوضت الحكم الأموي. وقد حقر الأمويون الموالي فكانوا لا يعينون واليا او قاضيا او اماما الا اذا كان عربيا، وكان الحق والباطل يختلفان عندهم باختلاف جنسية فاعله هل هو عربي او مولى. ١١١ من الامثلة على تحيز العرب ضد الموالي ان الحجاج بن يوسف وهو احد اركان الدولة الأموية، نفذ هذه السياسة بشدة فوسم ايدي النبط بمشراط حتى يتميزوا عن العرب. وسار باقي ولاة الأمويين على ما يشابه ذلك.

واحتقر الأمويون طائفة "المولدين" اي الاولاد من اب عربي وام جارية وسموا الولد "الهجين". وكان خلفاء بني امية لا يعهدون بالخلافة من بعدهم الى اولاد الاماء الا في اخر عهدهم عندما قوي الموالي واضطروا الى مسايرتهم فتولى الخلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك ثم اخوه ابراهيم وامهما بنت فيروز ابن يزدجرد اخر ملوك الساسانيين. وخلف ابراهيم مروان الثاني ابن محمد اخر الخلفاء الأمويين وكانت امه جارية. لكن اشراف القبائل والبدو بقيت تحقر الموالي. وكان من نتيجة ذلك ان تعاون اكثر الموالي مع بني العباس ومع آل البيت لاسقاط الأمويين ونجحوا بذلك .

بالاضافة الى المصيبة ضد الموالي الذين صاروا مع تتابع الفتوحات اكثر

عددا وقوة من العرب، بقيت العصبية القبلية متحكمة بالعشائر. وكانت قبائل عربية شمالية قد انتقلت الى العراق حيث انشأت ديار ربيعة على ضفاف دجلة، وديار مضر على ضفاف الفرات وكانت قيس المتقدمة بين قبائل مضر وعُرف القيسيون في اماكن اخرى باسم نزار او بني معد.

وكانت قبائل اخرى قد هاجرت من جنوبي الجزيرة وسكنت بلاد الشام فعرفت باليمانية واشهرها بنو كلب. وكان عرب خراسان من قبائل الشام واحدها تميم وكان فيها ايضا يمانية عرفوا بالازد. وبقي الانقسام الرئيسي بين عرب الشمال (عدنان) وعرب الجنوب (قحطان) على اختلاف التسميات.

وقد انغمس الخلفاء الامويون في هذه اللعبة الخطرة وتآرجحوا بالميل بين عدنان وقحطان فتدخلت اسس الدولة التي يجب ان توجد عنصرها العربي لتدوم. فقد اعتمد معاوية على اليمانية وكذلك ابنه يزيد الذي تزوج امرأة من بني كلب كوالده فشعر القيسية انهم مستبعدين فحققوا وانتهزوا اول فرصة ليغلبوا عن سخطهم فرفضوا الاعتراف بخلافة معاوية الثاني ابن يزيد وناصروا عبد الله ابن الزبير. ثم تغلبت كلب على القيسية في معركة مرج راهط قرب دمشق (٦٨٤) واستقرت خلافة مروان الاول وعلا شأن اليمانية. الا انه في عهد الوليد الاول ارتفع شأن القيسية لان الحجاج بن يوسف الثقفي الذي اخمد ثورات الحجاز والعراق، وصهره محمد القاسم فاتح الهند، وفتية فاتح آسيا الوسطى كانوا من قيس.

اما سليمان اخو الوليد فمال الى اليمانية. فلما جاء يزيد الثاني راعي القيسية متأثرا بأمه المضربة. ومثله فعل الوليد الثاني. ومالا ابراهيم عرب اليمانية. وكذلك مروان الثاني الذي نقل العاصمة وادارة الحكومة من دمشق الى حران فانصرفت عنه قلوب اهل الشام. وهكذا اصبح الخليفة الاموي زعيم فريق عشائري اكثر من كونه خليفة لامبراطورية متحدة. (١٢١) وقد دامت النزاعات بين القيسيين واليمانيين بعد زوال الخلافة الاموية وعمت جميع ارجاء العالم الاسلامي من اسبانيا الى الهند فاضعفت العنصر العربي. وسار الولاة على سيرة خلفائهم، فاذا تولى والي على بلد تصرف قبيلته كان الحكم لها فامتزجت القبائل الاخرى وتعلت عليها مما سبب شروخا حادة في الجسم

العربي استغلها آل عباس لقلب الدولة الاموية، ثم نخرت هذه العصيبة في جسم الدولة العباسية نفسها.

مثال ذلك انه لما تولى ابن هبيرة المراق للامويين اعتقدت قبيلة فزارة انها وليت الحكم معه فاذا لث غيرها من القبائل. فلما عزل وتولى خالد ابن عبد الله القسري اذل فزارة.

ولما تولى معن ابن زائدة الشيباني اماره اليمن للمباسيين اضطهد اليمانيين ثمصبا لقومه من ربيعة ونزار وهم من عدنان فرد عليه ابن سالم والي عمن والبحرين باضطهاد القيسيين ثمصبا لقومه من قحطان .

كانت خراسان اهم ولاية في الدولة رمهد الدعوة العباسية وقد تولاهم المهدي ابن ابي صفرة وآله زمنا طويلا وهم يمانيون من ازد وقحطان فحكموا حكما قبليا وامتهنوا قميا وقيسيا من مضر. ثم تولى اماره خراسان قتيبة ابن مسلم وكان مضريا فاذا ل القبائل اليمانية واستهان بها. ثم تولى خراسان نصر ابن سيار وكان مضريا ففعل مثل قتيبة (112) فضعف العرب من جراء هذه النزاعات.

استخلاص يزيد

استطاع بنو امية ان يبقوا على قدر من التناغم فيما بينهم حفظ الخلافة في اسرهم لمدة قرن من الزمن فتوالى الخلفاء الامويون الاربع عشرة واحدا بعد اخر دون نزاع يُذكر ولم يقتل منهم الا الخليفة الحادي عشر الوليد الثاني بتحريض يزيد الثالث وكانت الدولة الاموية في ذلك العهد قد دخلت عصر الانحطاط. ولا يعني بهذا ان منافسين اخرين لم يطالبوا بالخلافة، بل يعني ان الاسرة الاموية بقيت متماسكة في وجه الطامعين.

لم يؤسس معاوية ملكا وراثيا كما يدعى خصومه اذ بعدما توفي حفيده معاوية الثاني دون خلف انتقلت الخلافة بهدوء الى الفرع الرواني فتولاها مروان الاول ابن الحكم. خلفه ابنه عبد الملك ثم الوليد الاول ابن عبد الملك. وبدل ان يخلف الوليد الاول ابنه يزيد نجد ان الخلافة انتقلت الى اخيه سليمان. ثم قفزت بعد سليمان الى ابن عمه عمر ابن عبد العزيز. ثم عادت الخلافة الى اولاد عبد الملك. يزيد الثاني وهشام، ثم الى الوليد الثاني ابن

يزيد الثاني. وأخيرا ذهبت الخلافة الى يزيد الثالث وأخيه برهيم ولدي الوليد الأول وانتهت عند مروان الثاني حفيد مروان الأول فكانت الخلافة اذن متخلفة في البيت الأموي ولم تكن وراثية.

قلنا ان الأمويين لم يولوا الصحابة مكانة خاصة وقد تجلّى ذلك في تصرف معاوية لما أراد ان يضمن الخلافة لابنه يزيد من بعده. فقد دعا الصحابة وأكابر البلاد وعلماءها وقادتها الى مجلسه لبيّاحتهم بالبيعة. فوافق البعض وعارض آخرون. فقام يزيد ابن المنقع المذري خطيبا في القوم فأرجز البيان في بضع كلمات . قال : "أمير المؤمنين هذا" وأشار الى معاوية، "فان هلك فهذا" وأشار الى يزيد، "فمن أبى فهذا" وأشار الى سيفه. فقال له معاوية اجلس فانت سيد الخطباء.

ثم سار معاوية الى مكة يطلب البيعة ليزيد فجمع الصحابة والانصار ودعا صاحب حرسه بحضرته وقال له : اقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين مسلحين فان ردت احدهم عليّ بكلمة تصديق او تكذيب فليضرباه بسيفهما.

وخرج معاوية وخرجوا معه الى المسجد فرقي المنبر وقال للمجتمعين ان هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا اثم على اسم الله. فبايع الناس وكانوا ينتظرون بيعة هؤلاء المنبر. ثم ركب معاوية وذهب الى المدينة حيث بايع أهلها. (١٤)

لم يختلف ما فعله معاوية بكثير عما فعله عمر بن الخطاب مع الستة الذين اختارهم. وهكذا أصبح "العهد بولاية العهد"، بعد معاوية، الطريقة الوحيدة المتبعة على الاغلب في تولي الخلافة ليام الأمويين والعباسيين وسائر الدول والدويلات الاسلامية التي قامت. فاما عهد الى ولد، او الى احد افراد الاسرة لنلا يخرج الملك من ايديها لا يكاد يشذ عن ذلك الا فيما ندر. (١٥) وهذا يخالف تماما قول القائلين بأن الامامة لا تثبت بعهد الامام السابق.

مقتل الحسين ابن علي (أكتوبر ٦٨٠)

بعد وفاة معاوية وتولي يزيد دعا الحسين لمبايعته فرفض والبيعة هي دليل الولاء والطاعة. وكان أهل الكوفة قد بايعوا الحسين بعد موت أخيه

الحسن فاتصلوا بالحسين ودعوه للقامة بينهم ووعدوه بالتأييد. فسار اليهم مع نسائه وبعض اقاربه وانصاره بعدد قليل لم يزد عن مائتي شخص. وكان عبد الله ابن الزبير ابن اسماء بنت ابي بكر وابن اخى عائشة زوجة النبي، طامعا. ايضا بالخلافة فاغرى الحسين بطلب الخلافة وشجعه على الذهاب الى الكوفة بهذا الشكل الضعيف متيقنا ان الامويين لن يتركوه سالما فيزيحه من طريقه.

كان عامل يزيد على العراق عبيد الله ابن زياد، وزياد هو الذي اعترف به معاوية اخا له من ابيه. ارسل عبيد الله كتيبة بقيادة عمر ابن سعد ابن ابي وقاص، وسعد من كبار الصحابة وفتح العراق. التقى الجمعان في كربلاء شمالي الكوفة وكانت القوة غير متكافئة ولم ينهض اهل الكوفة لنصرة الحسين وخذلوه. واهي الحسين ان يستسلم فقتل مع عدد من اهله واتباعه وأرسل رأسه الى يزيد في دمشق فسلمه الى نساء الحسين اللواتي رافقنه. وقد اثار مقتل الحسين مشاعر الشيعة ووثق التضامن بينهم أكثر من لي حادث اخر كما وسع الخلاف والانشقاق بينهم وبين السنة. وما زال الشيعة يقيمون ذكرى تلك الحادثة في العشرة الاولى من شهر محرم كل عام ويسمونها "المعشوراء".

كان الحسين متزوجا من ابنة الشاه الساساني الاخير يزيد جرد الثالث الذي قتل بعد فتح فارس وشيبت بناته الثلاث فتزوج الحسين احداهن فاعتبره الفرس قريبا لهم ولهذا وجد المذهب الشيعي أكثر فقهاء ومؤيديه في ايران وبين المنتشرين في البلاد الاسلامية من اصل فارسي. وقد استخدم الايرانيون السلاح الديني ليقاوموا سيطرة العرب ثم الاقراك الذين كانوا يتبعون المذهب السني .

ثورة عبيد الله ابن الزبير (٦٨٠ - ٦٩٢)

نخلص الامويون من العلويين بمقتل الامام علي والحسين فخلا الجو لعبد الله ابن الزبير في مكة فثار علي بن ابي طالب بالخلافة وناصره الحجازيون. فارسل يزيد جيشا سوريا الى المدينة فيه عدد كبير من نصاري الشام فاحتلوها. وفي بعض الروايات انهم استباحوها ثلاثة ايام. ثم توجهت

الحملة الى مكة وكان الزبير قد احتفى بالبيت الحرام فحاصره الامويون ورموا الكعبة بالمنجنيق. اثناء ذلك توفي يزيد (نوفمبر ٦٨٢) فعادت الجيوش الشامية الى مقرها تحسبا للقلقل الداخلي.

اشتبك امر الزبير بعد موت يزيد فاعلن نفسه خليفة في مكة عام ٦٨٥ واعترف بخلافته اهل الحجاز واليمن والعراق ومصر وبعض انحاء الشام وانضم اليه عرب الشمال (القيسية) في حين ناصرت اليمانية الامويين. عين عبد الله اخاه مصعب واليا على العراق ثم ارسل جيشا لمحاربة الامويين فالتقى الجمعان في مرج راهط (الى الشرق من قرية عدرا قرب دمشق) في تموز ٦٨٥، فتغلب بنو كليب وارشد جيش ابن الزبير.

بعد وفاة يزيد وابنه معاوية الذي لم يعمر حاول خالد ابن يزيد ان يتولى الخلافة لكن اليمانية بايسوا مروان ابن الحكم وهو ابن عم الخليفة عثمان ابن عفان، ومؤسس الفرع المرواني في الاسرة الاموية. توفي مروان بعد سنتين وخلفه ابنه عبد الملك.

عبد الملك ابن مروان (٦٨٥ - ٧٠٥)

ولد عبد الملك 'ابو الخلفاء الاربع' الوليد، وسليمان، يزيد الثاني، وهشام) في المدينة عام ٦٤٦ وتوفي في دمشق عام ٧٠٥ وهو خامس خليفة اموي قضى نصف حياته مع ابيه مروان في المدينة حيث درس الدين وانشأ علاقات حسنة مع الفئات المتدينة مما ساعده في خلافته. بقي مع والده في المدينة الى عام ٦٨٢ حينما اضطروا لمغادرتها بسبب ثورة ابن الزبير. وقد تجسعت في وجه عبد الملك قوى معادية ضخمة في الحجاز والعراق ولكنها قوى متفرقة هي الشيعة، وعبد الله ابن الزبير، والخوارج. كان الشيعة والخوارج يعتبرون بني امية مفتصبين للخلافة وان مقاومتهم واجبة. اما عبد الله ابن الزبير فقد اعلن نفسه خليفة ودخل في صراع مميت مع بني امية. ترك عبد الملك هذه القوى الثلاث تتقاتل فيما بينها الى ان انهكت بعضها بعضا. فقد قتل مصعب ابن الزبير على الشيعة وارتاح منهم، ثم استدبر لقتال الخوارج فضعفت قوته. عندها هاجمه عبد الملك واستمال قسما من جيشه بالمال وقتل مصعب في المعركة فاستولى عبد الملك على العراق.

دور الحجاج بن يوسف (٦٨٠ - ٧١٤)

بعد مقتل مصعب بقي اخوه مهدي الله ابن الزبير خليفة في مكة فارسل عبد الملك اليه الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق فحاصر مكة (٦٩٢) وضربها بالمنجنيق وطال الحصار ستة اشهر فانفض الناس عن ابن الزبير الذي استمر يقاتل الى ان قُتل وارسل راسه الى دمشق. وهكذا زال ركن اخر من اركان الصحابة وتم الانتقام لعثمان.

بعد مقتل ابن الزبير اعاد الحجاج الامن الى الحجاز واليمن حتى اليمامة شرقا. ثم عهد اليه عبد الملك ان يحدد الفتنة في العراق وكان متمردا ساخطا يهيج بشورات العلويين والخوارج. فذهب الى الكوفة واعلى المنبر في المسجد والقي خطبته الشهيرة التي استهلها بالبيت :

انا ابن جلي وظلّاع الثنايا متى اضع اليمامة تعرفوني

'يا اهل الكوفة ! اني لارى رؤوسا قد اهنعت وحن فطائفها واني لصاحبها. وكأني انظر الى الدماء بين الممانم واللحي'. ثم توجه اهل العراق وبعثهم بالشقاق والنفاق وقتل منهم كل من شك بمعارضته. وكتب مع عبيد الله بن زياد قاتل الحسين، اهل البيت يستذلونهم ويقتلونهم، وكل من عرف بالتشيع لهم سجنوه او نهبوا ماله. ثم ارسل الحجاج القائد المهلب بن ابي صفرة ضد الخوارج الارارقة وكانوا استولوا على كerman وفارس وسواهما في المشرق وهم اصحاب نافع بن الازرق يكفرون كل من لا يقبل عقيدتهم، فتغلب عليهم واستأصلهم عام ٦٩٨. ويدعي اعداء الامويين انه بلغ عدد من قتل بهم الحجاج وقتلهم ما يقارب المائة الف. وتجدر الملاحظة ان هذا القتل الكثير كان يجري بلفظة من اللوالي او القائد دون اي اجراء قضائي يحافظ على حياة المواطنين وحقوقهم.

لم يكن الحجاج يثق بالعراقيين ولا بسكان البصرة والكوفة فابتنى بلدة على ضفة دجلة الفروية سماها واسط لتوسطها بين الدينتين وجعلها مقرا لحكمه واسكنها اهل الشام الذين اخضع بهم المناطق تحت ولايته. وكانت ثقتهم بجند الشام لا تعرف حدا، كذلك ولاؤه للبيت الاموي وقد بادله عبد الملك والوليد الثقة فاطلقا يده في مقاطعات المشرق.

في عهد عبد الملك وبنيه الاربعة بلغت الدولة الاموية اوج عزها ومجدها ووصلت الامبراطورية الاسلامية في عهد الوليد وهشام الى اقصى اتساعها فامتدت من المحيط الاطلسي وجبال البيرينيه غربا، الى نهر السند في الهند، والى تخوم الصين شرقا وهو اتساع لم تبلغه دولة اسلامية فيما بعد.

الوليد ابن عبد الملك (٧٠٥ - ٧١٥)

خلف عبد الملك ابنه الاكبر الوليد الاول وكان متدينا ومهتما بالبناء. صادر كنيسة القديس يوحنا في دمشق وحولها الى المسجد الاموي الشهير وزاد في بنائها، كما بنى مساجد في المدينة والقدس. في عهده امتدت الفتوحات في آسيا الوسطى وشمال افريقيا والاندلس. ومع ان الوليد لم يشارك شخصيا بقيادة الجيوش فانه حظي بقواد تولوا القيادة بكفاءة مستازة.

تدور الفتوحات الكبيرة في هذا العصر حول شخصيتين بارزتين هما الحجاج ابن يوسف الثقفي (٦٦١ - ٧١٤) في الشرق، وموسى ابن نصير في الغرب.

سارت الجيوش العربية فاخضعت ملك كابول (افغانستان)، وتولى قتيبة بن مسلم على خراسان وعاصمته مرو فاجتازت جيوشه نهر جيحون واسترجع اقليم طخارستان وعاصمته مدينة بلخ (٧٠٥)، ثم فتح بخارى وسمرقند ما بين عامي ٧٠٦ - ٧١٠ وكلاهما من بلاد الصفد، ثم استولى على خوارزم، وعام ٧١٢ - ٧١٥ غزا الاقاليم المحيطة بنهر سيحون الذي يشكل الحد الطبيعي والسياسي والجنسي الفاصل بين الشعبين الايراني والطوراني (التركي) واستولى على مدينة فرغانة. وكان عبور هذا النهر اول تحدي عربي مباشر للشعوب التركية وللديانة البوذية. وقد احرق المسلمون معابد البوذيين في بخارى وبلخ وسمرقند.

في هذه الاثناء توجه محمد ابن القاسم، صهر الحجاج، الى الجنوب الشرقي على رأس جيش مؤلف من ستة الاف جندي من اهل الشام فاخضع منطقة كرمان، وعبر بلوخستان (٧١١) الى الهند واحتل منطقة السند وجنوب البنجاب التي بقيت بيد المسلمين قرونا طويلة. (١١)

بالإضافة إلى أعماله الباهرة في تثبيت الحكم الأموي والقضاء على الفتن، وفتوحات القواد الذين كانوا تحت أمره، اهتم الحجاج بالعلم إذ بدأ حياته كمدرس في الطائف حيث ولد. عُني بأمر التنقيط لضبط الحروف المتشابهة الذي كان بدأه أبو الأسود الدؤلي. كما ساعد في نقل الحركات من ضم وفتح وكسر من السريانية، واهتم بالعمران فحافظ على اقية الري ونشط الزراعة ومنع الفلاحين من الانتقال إلى المدن.

من ناحية أخرى، اهتم بالشعر فاتخذ جرير شاعرا له وكان يشكل مع الفرزدق والخنسلة الثلث الشعر في العصر الأموي، وجعل تياذوق النصراني طبيبه الخاص. ١١٧١

توفي الحجاج سنة ٧١٤ لى سيق الوليد الأول بسنة.

سليمان ابن عبد الملك (٧١٥ - ٧١٧)

خلف الوليد أخوه سليمان وكانت ولايته قصيرة برز فيها حصار القسطنطينية الثاني. فقد أرسل جيشا تحت قيادة مسيلة ابن عبيد الملك حاصر المدينة برأ وبحرا مدة سنة كاملة (٧١٧ - ٧١٨) لكنه لقي مقاومة شديدة من الامبراطور ليو الثالث الذي صب "النار اليونانية" على من كانوا يحاولون تسلق الاسوار وهي مزيج من المواد الملتهية، كما هاجم البلغار الجيش العربي الذي كان يحاصر المدينة من الشاطئ الأوروبي ومن البوسفور. توفي أثناء ذلك الخليفة سليمان وخلفه عمر ابن عبد العزيز الذي أدرك أن جهود الحملة ونفقاتها تذهب سدى فامرها بالانسحاب وبذلك انتهت ثاني وآخر محاولة عربية لاحتلال القسطنطينية وانشاء قاعدة لهم للتوسع في شرق أوروبا. بعد أربعة عشر عاما في عهد هشام بن عبد الملك جرى شي، مناضل في غرب أوروبا إذ هُزمت الجيوش العربية في معركة بواتيه (٧٣٢) وقتل قائدها عبد الرحمن الغافقي وكان ذلك نهاية التوسع العربي في أوروبا الغربية.

عمر ابن عبد العزيز (٧١٧ - ٧٢٠)

أرصى سليمان بن عبد الملك بالخلافة بعده إلى عمر ابن عبد العزيز ابن مروان الأول. ولد عمر في المدينة وتوفي قرب حلب وهو ينتسب عن طريق

والدته إلى الخليفة عمر بن الخطاب ولعل ذلك يفسر سبب تدينه خلافا لمعظم الخلفاء الأمويين. كان والده عبد العزيز واليا على مصر، أما عمر فقد عينه الوليد الأول عام ٧٠٦ واليا على الحجاز.

لم يهتم عمر ابن عبد العزيز بالفتوحات والسياسة واتخذ منحى مخالفا لمسيرة الخلفاء الأمويين منصرفا إلى تطبيق القواعد الدينية، فبعدما رفع الحصار عن القسطنطينية سمي إلى استمالة الفئات الدينية والحوالي. فساوى بينهم وبين العرب بالمقام وبالفروض المالية، ورفع الجزية عن معتنق الاسلام، وطبق الشروط العمرية على اهل الكتاب فدخل عدد كبير منهم في الاسلام، تخلصا من الجزية والاذلال فنقصت موارد الخزينة نقصا كبيرا وتعرضت الدولة لازمة مالية. وقد اغضبت هذه الاجراءات العرب المتسكنين بعصبيتهم وبغفرتهم العنصري. ثم عزل عددا من حكام المقاطعات الذين عينهم الخلفاء السابقون، واستفحلت في عهده النزاعات بين عرب الشمال والجنوب وهذا كيان الدولة يتصدع.

يلاحظ انه كلما جاء خليفة او سلطان او حاكم وصفه المؤرخون المسلمون بالتدين والتقوى توافقت اعماله غالبا مع التعصب واضطهاد اصحاب الديانات الاخرى بمعنى ان التدين في المفهوم الشعبي يتوافق مع اضطهاد غير المسلمين.

هشام ابن عبد الملك (٧٢٤ - ٧٤٣)

استطاع هشام الذي خلف عمر ابن عبد العزيز ان يعيد للدولة بعض تماسكها خلال حكمه الطويل وان يتابع فتوحات الأمويين فمات نصر ابن سيار عاملا على "ما وراء النهر" (أي ما وراء سيحون) فاضضع معظم آسيا الوسطى، واستولى على مدينة كاشغر في تركستان الصينية، وقامت جيوش بني امية تقدمها فاحتلت مدينة شاش (طاشقند) (٧٥١) فاحتك الاسلام بمحضر جنسي جديد له ثقافته المغولية الخاصة. (١١٨)

اما في الغرب فقد احتلت جيوش موسى ابن نصير شمال افريقيا ثانية واستولت على الاندلس ووصلت الى اواسط فرنسا في بواقيها، وسياتي تفصيل ذلك في الفصل السابع.

في زمن هشام قام الامام زيد ابن علي زين العابدين بشورة مطالبيا بالخلافة فحاربه هشام وقتله. والامام زيد هو الذي تنتسب اليه الفرقة الشيعية المعروفة باسم "الخصية" او "الزيدية".

وقد حاول هشام ان يقصي الوليد الثاني ابن اخيه يزيد عن الخلافة ليولي ابنه فنشر اشاعات حول صفات الوليد وسكره ومجونه مما اضعف الخلافة وشجع المعارضين واعطاهم مادة للطعن فيها ومع ذلك لم ينجح في مسعاه . يُروى عن مساعي هشام ليحرم الوليد من الخلافة وينقلها الى ابنه فتسلبه الملقب بابي شاكر، ان الوليد دخل عليه مرة في مجلسه فسأله الخليفة ما شرباك؟ فاجلب شرباك يا امير المؤمنين. وقام مغضبا ثم قال :

ايها السائل عن ديننا نحن على دين ابي شاكر
نشرها صرفا وممزوجة بالسخر احبانا وبالفاتر

فغضب هشام على ابنه وقال له يعيرني بك الوليد وانا اسمي لك بالخلافة؟ وكان هشام يعمل على مضايقة الوليد فقتر عليه وقطع عنه عطاءه وارزاق اصحابه وسواليه. ثم قولي هشام في الرصافة ولا وصل نعيه الى الوليد قال :

طاب يومي ولذ شرب السلافة اذ اتاني نعي من بالرصافة
واتانا البريد ينعي هشاما واتانا بخاتم للخلافة
فاصطحبنا من خمرة عاتية ولهينا بقيئة عزافة (١٧٠)

في زمن هشام اشتدت العصبية بين عرب الشمال والجنوب واستفحلّت حركات الهاشمية انصار بني العباس وحركات الشيعة والموالي وقامت ثورات في سوريا والعراق وخراسان.

الوليد الثاني ٧١٢ - ٧٤٤

هو الوليد ابن يزيد ابن عبد الملك. وامه بنت اخ الحجاج ابن يوسف. كان من قتيبان بني امية وظهرانهم وشعرائهم واجوادهم واشرفهم. وكان فاسقا خليعا وماجنا ماهرا في المجون منطقيا عليه، غير مزمّن بالبعث ولا بالعقاب والثواب. (١٧١)

اشتهر عنه انه فتح القرآن وقرأ الآية "واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد

ورأوه جهنم ويُسقى من ماء صديد" فالقى المصحف ورماه بالسهم حتى مزقه ثم أنشد :

تهددني بجبار عنيد ها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جنت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقني الوليد
وقال أبيتا أخرى تدل على شكه :

أدبر الكاس يمينا	لا قدرها ليمار
أسق هذا ثم هذا	صاحب العود النضار
من كميت عتقوها	منذ دهر في جرار
ختموها بالافاوية	وكافور وقار
فلقد أيقنت اني	غير مبعوث لنار
وذروا من يطلب	الجنة يسعى لتبار

والوليد هو الذي فتح باب الخمر في الشعر لمن جاء بعده من الشعراء وينسب اليه صاحب الاغاني ان الشعراء العباسيين، ومنهم ابو نواس، اخذوا كثيرا منه في الخمر، وكان من دمنانه مطيع بن اياس وهو من الشعراء الخليعيين، وحماة الراوية.

ساعت سمعة الوليد بين المتدينين وكان الممتزلة من بين الناقمين فحرضوا عليه يزيد الثالث ابن الوليد الاول وكان تقيا يتبع مذهب الممتزلة وناصروه مع بعض اهل دمشق ومحيطها فقتلوه. (١١)

في زمن الوليد الثاني قام الامام يحيى ابن زيد من الشيعة الخمسية بثورة في خراسان يطالب بالخلافة فقتل وكان مصيره كمصير ابيه الامام زيد مع هشام بن عبد الملك.

بعد الوليد تولى الخلافة في عام واحد (٧٤٤) يزيد الثالث واخوه ابراهيم ابنا الوليد الاول وخلفهما مروان الثاني ابن محمد وبه انتهت الدولة الاموية.

مروان الثاني وسقوط الدولة الاموية

هو مروان ابن محمد حفيد مروان الاول وامه جارية كردية. كان مروان الثاني رجلا نشيطا قادرا لكنه تولى الخلافة سنة ٧٤٤ لما كانت عناصر الانحلال قد تفاقمت والقوى الممارضة اشتدت. وارتكب مروان

خطا كبيرا لما نقل عاصمته من دمشق الى حران في شمال سوريا فانصرف عنه اهل الشام وهم عماد الدولة الاموية.

اسباب زوال الدولة الاموية

اسباب زوال الدولة الاموية كثيرة. اولها عصبية العرب ضد الموالي وحقد هؤلاء على الامويين بعدما ازداد عددهم بالفتوحات وتحسنت احوالهم لما ساواهم صربين عبد العزيز بالعرب.

ثانيا، العصبية القبلية العربية التي قسمت العرب قبائل متنافرة فكانوا يتقاتلون فيما بينهم رغم وضوح خطر الموالي.

ثالثا، عداوة آل البيت الدائمة وجهودهم لنقل الخلافة اليهم ويطلق عليهم ايضا اسم العلويين او الشيعة.

كان العراقيون يحسدون بلاد الشام على مكانتها فأزروا آل البيت واصطبغت معارضتهم بلون ديني.

رابعا، الى جانب الدعوة الشيعية قام من سلالة العباس عم النبي من يطالب بالخلافة باعتبارهم احق بها لقربهم من الرسول. والعباس هو في الوقت ذاته عم الامام علي بن ابي طالب وينتسب الجميع الى جددهم هاشم لذلك سبّيت الدعوة العباسية في البداية "الهاشمية". وقد اوهم العباسيون اولاد عمهم العلويين بانهم يدافعون عن حقوق بني هاشم وانهم حماة الدين تجاه تغريط الامويين فاتخذ الفريقان في مسعاهم.

خامسا، الشعور القومي الايراني الذي عاد بعد زوال اثر الصدمة الاولى والهزيمة التي مني بها الفرس قبل مائة عام وعاد معه الاعتزاز بماضي الفرس وبحضارتهم ويتفوقهم على العرب وكان ذلك واضحا بصورة خاصة في اهل خراسان.

تجمعت هذه العناصر كلها ضد الامويين. واسند العباسيون الزعامة الى ابي العباس الذي اخذ على نفسه العهد بأن يترجع منهاج السلف الصالح. وكانت الدعوة سرية كالدعوة الشيعية الى ان اظهر الثورة في خراسان ابو مسلم الخراساني في ٩ يونيو ٧٤٧ وهو مولى فارسي من اصل مجهول. رُحِف ابو مسلم على مدينة مرو عاصمة خراسان بجيش معظمه من فلاحي الفرس

والموالي. وبعثا حاول نصر بن سيار عامل الامويين على خراسان الحصول على نجدة من الخليفة مروان الثاني الذي كان مشغولا بقمع ثورة انتشرت من حمص الى فلسطين.

فلا سقوط مرو سقطت الكوفة (٧٤٩) التي بايعت ابا العباس ونودي به خليفة. جرت اخر موقعة بين مروان والعباسيين في شهر يناير ٧٥٠ على الضفة اليسرى لنهر الزاب الكبير احد روائد دجلة وكان يقود جيش العباسيين عبد الله ابن علي عم الخليفة الجديد فانهمز جيش مروان وفر هو الى مصر حيث قبض عليه وقتل. وبذلك سقط الامويون وزال مجد الشام وانتهى سلطانها، وانقضى العصر العربي الخالص في تاريخ الاسلام وابندا العصر الفارسي الذي تلاه بعد نحو مائة عام العصر التركي.

في العصر العباسي الجديد تحرر العراق من سيطرة الشام، ونثر آل البيت من آل امية وان كانوا تعرضوا بعدئذ لاضطهاد العباسيين، وتحرر الموالي بل تحكموا، واصبحت الدولة تتجه شرقا فالعاصمة انتقلت الى الكوفة على حدود فارس ثم الى الانبار ثم الى بغداد، واصبح حرس الخليفة الخاص من اهل خراسان، واحتل الفرس مناصب الدولة الرفيعة وقيادة الجيوش، وحلت محل الارستقراطية العربية طبقة الموظفين من اجناس مختلفة، واخذ المسلمون العرب يمتزجون بالزواج مع الاجناس الجديدة التي دخلت في الاسلام، وقامت القومية الارامية محل العنصرية العربية. ١٢٦

الامويون وآل البيت

لم يستكن الشيعة بعد مقتل الامام علي والبيعة بالخلافة معاوية، وكان اسم الشيعة في العهد الاموي يطلق على المعارضين من آل البيت وآل عباس الذين شكلوا جبهة واحدة متعاونة.

وقد قام الائمة من آل البيت بشورات متلاحقة قصعها الامويون بقسوة وفيما يلي ملخص لها.

قام الحسين ابن علي يطالب بالخلافة في عهد يزيد ابن معاوية فقتل سنة ٦٨٠.

وكافح الحجاج ابن يوسف (٦٨٠ - ٧١٤) آل البيت واتباعهم واشياعهم

في العراق والجزيرة وقتل منهم الكثيرين.
 وخشي سليمان ابن عبد الملك (٧١٥ - ٧١٧) من مطامع ابي هاشم عبد
 الله ابن الامام محمد الملقب بالنفس الزكية نفسه.
 وثار زيد ابن علي امام الزيدية على هشام بن عبد الملك (٧٢٤ - ٧٢٢)
 فقتل.
 وثار يحيى ابن زيد على الوليد الثاني (٧٤٢ - ٧٤٤) فقتل ايضا.
 وقبض مروان الثاني (٧٤٤ - ٧٥٠) على ابراهيم ابن محمد الذي آلت
 اليه الدعوة العباسية وقتله.

الحياة الاجتماعية والفكرية في العصر الاموي

تجاذب النفس الامرية عاطفتان : الحنين الى حياة البداوة، والتطبع
 بالحياة المدنية الدمشقية التي تصقل النفس وتهذب الطبع وتلين الخلق
 وتؤدب المراتز. اما الجاذب الاول فقد ظهر في بناء القصور في اطراف بادية
 الشام التي كان يؤمها الخلفاء والامراء للصيد والعباب الفروسية والشرب
 واللهو، وظهر الجاذب الى البداوة بالتزوج من بنات القبائل كما فعل معاوية
 ومزيد وغيرهما من الخلفاء والاشراف فبقيت صلاتهم بالبادية وثيقة.
 اما التطبع بالحياة المدنية فكان تطورا طبيعيا اقتضته ظروف المعيشة
 في مجتمع مدني راقى، وظهر في المال الوفير والرقيق الكثير من مختلف
 الاجناس الذي تدفق على البلاد من الفتوحات حتى كان للجندى العادي في
 الجيش السوري منذ معركة صفين عدد من الخدم يتراوح بين الواحد
 والعشرة يقومون على خدمته. وكان الجندى يتقاضى موقبا حسنا، بالاضافة
 الى ما يحصل عليه من غنائم فكانت الجندية مهنة مريحة. فاذا كان هذا
 حال الجندى فكيف يكون حال الخلفاء والامراء واشراف الناس.
 وقد كان شرب الخمر امرا معتادا بين النصارى وهم اكثرية السكان.
 ولم تكن الخمرة غريبة عن العرب، الحضر منهم وسكان البادية، حتى قيل ان
 انتهى شيء عند العربي بعد النساء هي الخمرة والميسر. وكان ذلك عادة
 متواصلة من الجاهلية الى الاسلام. فقد ظل كثير من الاعراب سكان البادية
 على معرفة قليلة وسطحية بالاسلام فكانوا يعكفون على الشراب، ويتبعون

تقاليد قبائلهم ويعقدون الويتهم، ويحاربون القبائل المعادية لهم، كما كانوا يفعلون قبل الاسلام. ١٢٥١

فلما جاءت الفتوحات وكثر الرقيق، عمت في الحجاز حياة قرح ومرح وطرب وشراب وتشبيب بالنساء ولهو لدى اولاد الصحابة وغيرهم الذين لم يعرفوا الا سعة العيش والبيذخ والثراء، فكانت مكة والمدينة في ذلك العصر، وهما مهبط الاسلام، اقرب الى اللهو والمجون والتفتن في اللذة بما فيها من شرب وغناء وغزل، من دمشق عاصمة الملك وذلك لكثرة ما ورد الى الحجاز من جوارى ومغنين ومغنيات وراقصات. ١٢٦١

تتابع ذلك في العهد الاموي حيث عاش كثير من شبان بني هاشم عيشة هي اقرب الى الجاهلية منها الى الاسلام : شرب وصيد وغناء وغزل ورقص.

وقد انتشرت مجالس الشراب والمنادمة التي تضم الجوارى والمغنيين في قصور الخلفاء والامراء والاضياء ابتداءً من عهد يزيد بن معاوية. ففي زمانه يتولى السعودي، اظهر الناس شرب الشراب وغلب على ولائه ما كان يفعله. ولا نرى ان ما فعله الامويون يختلف عما كان يمارسه اولاد الصحابة في مكة والمدينة في الفترة الزمنية ذاتها.

للامويين فضل تعمير الدولة ابتداءً من عهد عبد الملك بن مروان اذ بدأت اللغة العربية تحل محل اللغات اليونانية والارامية والفارسية في اجهزة الدولة والدواوين وابتدأ العرب يشغلون المناصب الادارية محل الفرس واليونان والاراميين. وتابع خلفاء عبد الملك هذه السياسة الى ان تعميرت اجهزة الدولة تماما.

كان العرب يتعاملون منذ الجاهلية بنقود بيزنطية ذهبية من دنانير واجزائها، وبدراهم فضية فارسية، فسك عبد الملك اول نقود عربية حلت محل النقود الاجنبية وانتشرت في انحاء العالم الاسلامي.

لم يكن للخلفاء الامويين اهتمام كبير بشئون الدين اذ انصرفوا لتثبيت ملكهم والفتوحات فتركوا باب الاجتهاد مفتوحاً لمن اراد من الفقهاء، ووجد في عهدهم ائمة كثيرون يجتهدون اشتهر منهم الامام عبد الرحمن الاوزاعي الذي لقب "امام اهل الشام" اذ ولد في بعلبك وعاش في الشام. لكن مذهبهم

اندسجت في مذاهب جاءت بعدها أو اندثرت، وظهر في أواخر الدولة الأموية إمامان من الأئمة الأربعة : الإمام أبو حنيفة في العراق والإمام مالك بن أنس في المدينة. وكان القضاء أيضا يجتهدون فقد يُصدر قاضي حكما بمسألة ثم يُصدر قاضي آخر حكما مختلفا في مسألة مشابهة فلا تتدخل الدولة في الأمر. يؤخذ على بني أمية، وينطبق هذا أيضا على بني العباس ومن خلفهم من السلاطين، شدتهم في معاملة خصومهم ومعارضيتهم. فقد كانت لفظة من ضم الخليفة أو واليه تكفي لقتل إنسان أو سجنه أو مصادرة أمواله أي أن مفهوم 'حكم القانون' الذي تمتاز به المجتمعات المتقدمة حائلا لم يكن معروفا. ويبدو أن الحكام خلال الأجيال الإسلامية المتعاقبة طبقوا الشريعة سلبيا بمعنى أنهم امتنعوا عن عمل ما نهت عنه لكنهم تصرفوا بحرية تامة في الأمور التي لم تتعرض لها صراحة خاصة في قضايا الحكم وتسلط الخليفة وولائه على السكان.

ظهر في العهد الأموي كثير من الحركات الدينية الفلسفية التي ازدهرت بعدئذ في العصر العباسي أشهرها المعتزلة التي اعتمدت على تحكيم العقل دون النقل في الأمور الدينية فنزها الله عما يقوله خصومهم من أنه قدر على الناس المعاصي ثم عاقبهم عليها. وقالوا أن الإنسان حر فيما يفعل ومن أجل هذا عذب على ما يفعل.

نشأ الاعتزال في البصرة وسرعان ما انتشر في المراق واعتنقه من خلفاء بني أمية يزيد ابن الوليد ومروان الثاني ابن محمد. وسيأتي بحث أوسع في المعتزلة في الفصل السادس.

ظهرت أيضا حركة القدرية التي تقول أيضا بحرية الإرادة بخلاف الجبرية، وهي تمثل رد فعل لما جاء به الإسلام من تسليم للقضاء والقدر الناجم عن الإيمان لمظنة الله وهو ما شدد عليه القرآن (سورة آل عمران ٢٥-٢٦، وسورة الشورى ٢٦، وسورة الزخرف ١٠، وسورة القمر ٤٨). والقدرية تنم عن مؤثرات يونانية نصرانية وهي أقدم مدارس الفكر في الإسلام وبدلنا على سعة انتشار مبادئها أن اثنين من خلفاء بني أمية هما معاوية الثاني ويزيد الثالث كانا من أتباعها.

نشأت أيضا حركة المرجئة التي أرادت أن تجد من الخلاف القائم بين

للفرق الإسلامية المختلفة وكانوا يريدون التساهل والوفاق فقالوا انه لا يجوز اصدار الحكم على الفرقاء المختلفين في المسائل الدينية من خلافة وغيرها ويجب ترك الامور ليقتضي بها الله لا البشر.

ظهرت ايضا طليقة من الشعراء الموهوبين منهم عمر ابن ابي ربيعة (توفي ٧١٩) حامل لواء الشعر الغزلي في الادب العربي، وجميل بن معمر من بني عذرة وهي قبيلة نصرانية من اصل يمني سكنت وادي الحجاز ويكنى باسم جميل بشينة على اسم محبوبته وهو شاعر عذري توفي ٧٠١ وقيس ابن الملوّح المشهور بمجنون ليلى.

ظهر ايضا حماد الراوية (٧١٢ - ٧٧٢) وهو فارسي من موالي شيبان. ولد في الكوفة وكان والده من اسرى الديلم، نادم الوليد ابن يزيد واشتهر بذاكرة خارقة وكان يروي الالف من اشعار العرب ويثبتهم بأنه اقتحل الكثير منها وهو جامع المعلقات العشر.

لكن زعامة الشعر العربي في العصر الأموي كانت للثلاثة المتعاصرين : الاخطل والفرزدق وجرير. فالأخطل (٦٤٠ - ٧١٠) ولد في الحيرة واسمه الكامل غياث ابن شوث ابن الصلت الأخطل صار نديما لزياد بن ابيه وللحجاج ثم انتقل لرعاية يزيد الاول وعبد الملك بن مروان.

اما الفرزدق فهو تمام ابن غالب ابو فراس (٦٤١ - ٧٢٠) اصبح نديما للوليد الاول وحظي ايضا برعاية سليمان ابن عبد الملك لكن عمر ابن عبد العزيز فضل عليه جريرا. وولد الشاعر الثالث جرير ابن عطية ابن الخطافة (٦٥٠ - ٧٢٩) في اليمامة من قبيلة كليب وتمتع برعاية الحجاج ثم انتقل الى مناداة الخليفة عمر ابن عبد العزيز.

ويعتبر جرير أشهر شاعر هجاء تبارى مع الفرزدق في هذا النوع من الشعر. مثل هذا الثلاثي الفترة الأدبية الانتقالية من الشعر البدوي المتصل من أيام العصر الجاهلي، الى الشعر المدني الممثل للحضارة الإسلامية الجديدة التي نشأت في العصر العبّاسي وجاءت بشعر وادب يختلف بتركيبه والفاظه ومعانيه عما سبقه. وسنعطي نماذج من ذلك في الفصل السادس.

وقد نظم الشعر بعض الخلفاء ومنهم من نظم شعرا غنائيا وكان اول من دوت له صنعه منهم الخليفة عمر بن عبد العزيز . من أقواله : «٧١»

علق القلب سعادا عادت القلب فعادة
كلما عوب فيها او نهى عنها نعادة
وهو مشغوف بسعدى قد عصى فيها وزادا

الخلاصة

يعتبر بعض المؤرخين ان الفتوحات العربية، وكلها جرت تقريبا في عهد الخليفين عمر وعثمان وخلفاء بني امية، كان الفوز الاول فيها للقومية العربية لا للدين الاسلامي اذ ان الاكثرية العظمى من سكان سوريا والعراق وفارس وآسيا الوسطى والهند ومصر وشمال افريقيا لم تدخل في دين محمد حتى القرن الثاني او الثالث للهجرة. اذن فبين الفتح العسكري والفتح الديني حقبة قرنين او ثلاثة من الزمن.

لما لحق الفتح الديني بالفتح العسكري وانتشرت اللغة العربية بين الشعوب المغلوبة سار العرب والمستعمرون في منهاج الثقافة بخطى واسعة فاصبح الاسلام ثقافة ركز اركانه على اساس ما جاء به الدين وما ورثه من حضارة السريان والاراميين والفرس واليونان التي تحدت اليه. وبالاسلام استطاع الشرق الادنى ان يسترجع ماضيه المجيد في ميدان السياسة والثقافة حيث تسنى له ان يعيد سيادته الفكرية لاجيال طويلة. ١٢٨١

لقد بحثنا في الفصل الثالث النظرية السياسية الاسلامية ووجدنا انها تلتقد الجزء المكمل والمنفذ لها اي المؤسسات السياسية التي تضع النظرية موضع للتطبيق وتبين كيفية تنصيب الخليفة، وطريقة انتقال السلطة الى من يليه باسلوب سلمي متفق عليه، وصلاحيات الخليفة وحدودها في ممارسة السلطة، والضوابط التي تردع الحاكم عن الطغيان على ارواح الناس واموالهم وحررياتهم.

ولما مارس الخلفاء الراشدون السلطة الفعلية لم يلجأوا بالا الى هذا الفراغ في النظرية ولم يشكل سلوكهم نمطا متتابعا يصح اقتداؤه لان كلا منهم حوّل الخلافة بشكل مختلف ونقل الخلافة الى من يليه بصورة جديدة. ولم يهتم

احد منهم بإنشاء مؤسسات سياسية تضمن استمرار الحكم حسب قواعد واضحة .

ورث الامويون هذا الوضع الدستوري الناقص فساروا على مثاله ولم يعملوا شيئا لسد الثغرات الواضحة فيه وكل ما فعلوه انهم حصروا الخلافة في عائلتهم لكنهم تركوها تنتقل من فرد الى اخر دون ضابط واضح، كما تابعوا مبدأ الاستخلاف الذي بداه ابو بكر، اي ان يمهّد الخليفة الى من يريد ان يخلفه فيبايعه الناس. لكن هذه القاعدة كان ايضا يشوبها الغموض. فقد رأينا ان هشام ابن عبد الملك اراد ان يمهّد الى ابنه مكان الوليد فلم يتمكن. وعلى العموم فان الامويين لم يفعلوا شيئا ليتلافوا النقص الدستوري الذي ورثوه من العهد السابق.

• • •

مراجع الفصل الخامس

السياسة في الدولة الاموية

- ١ - الطبري، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٢، ص ٢.
- ٢ - حتي، فيليب، تاريخ العرب، ص ٢٥٢.
- ٣ - دائرة المعارف الاسلامية، مادة "الشام"
- ٤ - الدكتور اسد رستم، اسناذ التاريخ في السياسة الامريكية في بيروت في حديث مع المؤلف.
- ٥ - حتي، فيليب، سبق ذكره، ص ٦٦.
- ٦ - الطبري، سبق ذكره، ج ٢، ص ٨٥٤ - ٨٥٥.
- ٧ - حتي، فيليب، سبق ذكره ص ٢٦٦.
- ٨ - المصدر السابق، ص ٢٥٦.
- ٩ - ابن عساکر ج ٥، ص ٨٠.
- ١٠ - حتي، فيليب، سبق ذكره، ص ٢٥٦.
- ١١ - أحمد أمين، ضمى الاسلام، ج ١، ص ٦٦.
- ١٢ - حتي، فيليب، ص ٢٥٠ - ٢٥٥.
- ١٣ - ابن خلدون، المقدمة، ج ٢، ص ٩٧.
- ١٤ - ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٢٥١.
- ١٥ - القاسمي، طاهر نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الاسلامي، ج ١، ص ١٩١، ١٩٢.
- ١٦ - حتي، فيليب، سبق ذكره، ص ٢٧٢ - ٢٧٧.
- ١٧ - المصدر السابق، ص ٢٨٥.
- ١٨ - المصدر السابق، ص ٢٧٥.
- ١٩ - الاصفهاني، ابو الفرج، الاغانى، ج ٦، ص ١٠١.
- ٢٠ - طه حسين، حديث الاربعة، ص ٩٩.
- ٢١ - الاغانى، ج ٢، ص ١٢٥.

- ١٢- احمد امين، ضحى الاسلام، ج٢، ص ٨٢.
- ٢٢- فيليب حتي، سبق ذكره، ص ٢٥٨.
- ١٤- المصدر السابق، ص ٢٠٤.
- ١٥- احمد امين، لخير الاسلام، ج١، ص ٩٩.
- ٢٦- طه حسين، حديث الارتفاع، ص ٢٩.
- ٢٧- الاغاني، ج ١٦، ص ١٤٩.
- ٢٨- حتي، فيليب، ص ١٩٧.

الفصل السادس

تغير المجتمع الاسلامي في العصر العباسي

المقدمة

كان الفتح مصدر قوة ومصدر ضعف للمسلمين في آن واحد. كان مصدر قوة، لانه بسط سلطان المسلمين على اقطار كثيرة وجبي لهم من اموال الامم المفلوية ما لم يكن يخطر لهم ببال، لكن هذا المال الكثير الذي انهل على العرب دون جهد الا الجهد العسكري كان ايضا مصدر ضعف لانه خلق في نفوس العرب حاجات لم تكن معروفة، واظهر لهم فنونا من الترف اغرتهم فتعودوا عليها واستمتعوا بها، وقد بدأ ذلك في الصحابة مع فتوحات عهد الخليفة عمر بن الخطاب واستفحل في عهد الامويين وبلغ اوجها في عهد العباسيين. والمال الكثير خصوصا الذي ياتي دون جهد منتج يغري بالاستزادة منه، والاستزادة تفتح ابوابا من الطمع، واذا وُجد الطمع رافقه البغي وتبعه التنافس والتباغض والتهالك على الدنيا. (١)

يعتز العرب بفتوحاتهم ويفخرون بها الاقوام الاخرى للسرعة التي قهروا بها شعوبا اكثر منهم عددا وارقي حضارة، ويركزون على الانتصارات العسكرية التي كانت حقا مذهلة، لكن هذه الانتصارات نفسها كانت مصدر ضعف لانها اخضعت للدولة الاسلامية كثرة من الناس لا يريدونها ولا يؤمنون بها وانما يخافون منها ويهابون سطوتها، وقد رأينا انه بالاضافة الى من اسلموا عن قناعة وايمان، اسلم كثيرون لمصلحة شخصية، منهم من اعتنق الاسلام تقربا للخلفاء وللولاة استدرارا للمنافع، ومنهم من فعل ذلك قرارا من

الجزية والمهانة، ومن الناس من اسلم ولم يؤمن كما جاء في القرآن : "قالت الاعراب آمنا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ونأى يدخل الايمان في قلوبكم". بل كان من الاعراب من جرت كلمة الاسلام على لسانه لكن احتفظ بجاهليته كاملة في قلبه ونفسه وضميره. ١٢١

فاذا كان هذا حال بعض العرب والدين دينهم والنبي منهم، فما بالك بحال الامم الاعرق التي خضعت للفتح من فرس وروم واقباط ويهود ونصارى وكل منهم له دينه الذي ربي عليه وتشرب معتقداًه.

لذلك لم يمسح رقت طويل حتى تغلب المغلوبون على الغالبين وبدلوا المجتمع الاسلامي حتى لم يعد يوجد شبه بينه وبين مجتمع النبوة والخلفاء الاربع الأول، واختلف كثيراً أيضاً عن العهد الأموي، وانتقل النفوذ السياسي والعسكري من العرب الى الفرس منذ بداية الدولة العباسية وقبض ذلك خروج الحكم من يد العرب نهائياً إلى اقوام اخرى فارسية وتركية ومغولية وكردية وبربرية وعثمانية.

في مجال الفكر والادب والشعر واللغة والطب وباقي العلوم كان للموالي الباع الطويل فيها جميعاً بعدما تعلموا اللغة العربية واقتنوها وروضوها لها القواعد ودوتوها، ونظموا الاشعار على منحي جديد، وجمعوا الحديث ورتبوه، وروضوا الكتب الادبية مستوحاة من الثقافات المختلفة، وبقي أكثر علم الطب والفلك في يد النساطرة واليعاقبة كما انفرد السريان بترجمة العلوم والفلسفة اليونانية التي اسس عليها المسلمون علومهم.

امتزاج الاجناس والثقافات

يقول الاميركيون ان الولايات المتحدة عبارة من وعاء كبير يذوب فيه وينصهر كل الافراد والجماعات الذين يفدون اليها مهاجرين فتتشكل منهم ومن ذرايعهم امة واحدة متجانسة. وليس اكيدا ان الواقع يثبت هذا الادعاء. والاسلام ايضا استوعب شعوباً واجناساً مختلفة ومتباينة من طريق الفتح، ودعا الى المساواة بينها، وسعى الى ان تُنكر الشعوب انتماءاتها القومية والعرقية واللغوية والحضارية وتندمج بكيئتها في الاسلام. فهل تحقق ذلك؟

بحثنا في الفصل الثالث قواعد الاسلام في الاستيلاء على البلاد المفتوحة

ومعاملة سكانها وتوزيع المال والرفيق على المحاربين، وما إن الاسلام يقرض نشر الدين الاسلامي حتى يحتم العالم فان الحروب كانت متواصلة وكان النصر في اكثرها للمسلمين، نتج عن ذلك ان الرقيق اصبح لا يحصى لكثرتهم ومار لكل مقاتل عربي مبيد واماء.

أثر الجواري

احل الاسلام للرجل ان يتخذ اربع زوجات وان يمتلك الى جانبهن ما شاء من الجواري، ومن ملك جارية فله ان يستمتع بها، ولا يتقيد الرجل في ذلك بعدد، لذلك كان في البيت الاسلامي زوجة او زوجات، وعدد من الجواري يستمتع بهن رب البيت ويستولدهن واطلق على ذلك اسم "التوليد". كان ميل الرجال الى الجواري اكثر منه الى الحررات ذلك ان الرجل يتزوج الحرة حسبما تصفها له الخاطبة دون ان يراها، في حين انه يتأمل كل شيء في الجارية قبل ان يملكها، ومن اقوال العرب : "الامة تُشترى بالعين، وتُرد بالعيب، اما الحرة فغلّ في عنق من صارت اليه".

سبب اخر لتفضيل الجواري هو ان الجبال في كثير من نساء البلاد المفتوحة كان اوفر منه في حرائر العرب من بياض البشرة، وصفار الشعر، ووزقة العيون وما الى ذلك، عدا عن كونهن اكثر معرفة بحاجات العيش الرغيد.

كان الخلفاء والامراء والاعنياء وكل من له قدرة مالية يكثر من امتلاك الجواري من الاقوام المختلفة للاستمتاع فنشأ عن ذلك نسل يجري في عروقه دم الاب العربي والام غير العربية، ولم يقتصر هذا الامتزاج على اختلاط الدم، فالامهات يفتسبن الى اقوام مختلفة من فارسيات وروميات وكرجيات وحبشيات وكرديات وارمنييات وهندييات وصقلبييات وتركيات الخ، فنشأ الاولاد في البيت المسلم من اب عربي وامهات مختلفات اللغات والثقافات والعادات والاتجاهات كل منهن تحمل خصائص قومها ومؤثر في تكوين اولادها الفكري فشكل الاولاد وامهاتهم "مصبغة امم" في كل بيت فيه من النسل ما يحمل خصائص الامم المختلفة.

وقد مر معنا في الفصل الرابع كثرة ما اقتناه بعض الصحابة من الإماء

والعبيد ايام الخليفتين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان. وسار على منوالهم بنو امية ثم بنو العباس فكان في قصور الخلفاء منات الجواري ان لم نقل الالاف، ومثل ذلك في قصور الامراء والوزراء والاعنياء. من ذلك انه كان في قصر الخليفة المقتدر احد عشر الف خادم خصي. وقيل ان المتوكل كان له اربعة آلاف سرية. واهداه احد قواده مرة مئتي وصيفة ووصيف. وجرت بين الولاة عادة اهداء الخليفة والوزير هدايا تتضمن بعض الفتيات والا حسب الخليفة او الوزير تخلصهم من ذلك علامة العصيان. وينسب الى المأمون انه كان يرسل بعض وصفاته ووصيفاته الموثوق بهم هدايا الى عتاله ليكونوا عيوناً عليهم وجواسيس يوافقونه باخبارهم ويدستون لهم السمع اذا لزم الامر.

كان ابن الجارية يُسمى هجيناً ولا يتسارى مع ابناء الحران في العهد الأموي. إلا ان ذلك تغير في اواخر حكمهم عندما قوي الموالي وتحسن وضعهم فتولوا مناصب هامة في الدولة.

وقد انجب بعض الخلفاء اولادا من الجواري تولوا الخلافة من بعد ١٢٨ فيزيد بن الوليد بن عبد الملك (٧٢٩ - ٧٤٤) ابن جارية فارسية وكذلك اخوه ابراهيم ابن الوليد. وسروان بن محمد اخر الخلفاء الأمويين ابن جارية كردية. وابو جعفر المنصور امه بربرية اسمها سلامة. والمأمون ابن جارية فارسية اسمها مراجل. والمتنم ابن جارية اسمها ماردة. والواثق ابن جارية اسمها قراطيس. والمتوكل ابن أمة اسمها شجاع. ومثل ذلك في الامراء والعلماء والشعراء. فكان من الطبيعي ان يقارم هؤلاء "الهناء" العصبية التي تحتقرهم ويشجعوا نقيضها.

اذا تابعنا تسلسل الخلفاء العباسيين وكبار العهد العباسي، واكثر امهاتهم جواري، لوجدنا ان الدم العربي في عروقهم يشكل نسبة ضئيلة من الدم غير العربي. وهذا من اسباب تحول شعور الخلفاء والامراء وكبار القوم عن العنصر العربي.

هذا الرقيق من رجال ونساء لا يسترد حريته الا بان يُعتقه مالكة. وقد وُضعت نصوص خاصة للجارية التي تلد من سيدها فتسمى أم ولد وتصير فوق منزلة الجارية التي لم تلد تشع بحقوق ليست لغيرها من الجواري، منها انه لا يجوز لمالكها الذي استولدها ان يبيعها او يهبها. فاذا مات صارت

حرة، اما اولادها فهم احرار منذ ولادتهم.

اللقاح العقلي

ترافق 'التوليد' بين الرجل العربي والنساء غير العربيات مع توليد عقلي نتج عن لقاح حدث بين الذين اسلموا من مختلف الجنسيات والمذاهب، وبين ما تضمنه الاسلام والعربية، فالرجل الفارسي واليوناني والهندي والتركي والمجوسي والنصراني واليهودي وغيرهم بقوا يحملون عقلية قومهم ودرات اديانهم وحضاراتهم فلما دخلوا في الاسلام وتعلموا اللغة العربية نشأ مزيج بين ما كان في نفوسهم من حضارة ودين سابق وبين ما تضمنه الاسلام.

وتأثرت العقيدة الاسلامية ايضا من هذا التلقيح، فقد نقل الذين دخلوا في الدين الاسلامي من المجوس والرومان والنصارى واليهود عقائد موروثة عندهم وفهموا الاسلام مختلطا بثقائدهم الدينية والسياسية. فقامت لفرق تمثل النزعات والعصبية المختلفة ووضعت المذاهب التي تعبر عن الاتجاهات المتغايرة، بعضها متأثر بالفلسفة اليونانية، ذهببت تنبسط في مناقشة الامور كالمعتزلة والقدرية والجبرية وغيرها، وبعضها يعمل على الكيد للاسلام، بالاضافة الى تبلور الدعوة الشيعية ثم انقسام الشيعة الى فرق متعددة من خمسية وسبعية واثنى عشرية هذا عشرات الفرق التي اطلق عليها اسم 'غلاة الشيعة' ومنهم النصيريون والدروز، وكانت هذه الفرق تتجادل بالقول احيانا وبالسيف احيانا اخرى.

أما في السياسة فقد ادخل الفرس على صفة الخلافة نظرهم الى ملوكهم بانهم شبه آلهة خصهم الله بالسيادة فهم ظلّ الله على الارض ما على الرعية الا طاعتهم وتجلت هذه النظرة بصفة خاصة لدى الشيعة تجاه الامام علي بن ابي طالب وابنائه وهي تشابه نظرة الفرس القديمة في الملوك الساسانيين. في الاجتماع والادب والشعر والعلم كان للذين دخلوا في الاسلام من غير العرب الباع الاطول.

فعندما ما نشأ اللحن في اللغة لكثرة الامااجم في المجتمع الاسلامي وما دخل عليها من الالفاظ الاصجمية وظهرت الحاجة الى قوانين تضبطها، وضع ابو الاسود الدؤلي قواعد التنقيط والتشكيل وعالج علم النحو، وبعه سيبويه

وبعده الفارسي والزجاج والكسائي والخليل بن أحمد وجلهم عجم. كذلك كان حملة الحديث وعلماء اصول الفقه وعلم الكلام وأكثر المفسرين. ونرى من ذلك ان الفرس، بعدما تعلموا اللغة العربية، نافسوا العرب فيما كان يجب ان يبقى مجال امتيازهم اي الدين واللغة.

حياة الترف : للغناء والشراب والشعر

يبدو ان الشراب ومعاذرة الخمر بتي متواصلا في بيئات كثيرة بعد الانتقال من الجاهلية الى الاسلام. فقد ظل كثير من الاعراب سكان البادية على معرفة قليلة وسطحية بالاسلام فكانوا يمكنون على الشراب، ويتبعون تقاليد قبائلهم، ويعقدون الويتهم، ويحاربون القبائل المعادية لهم كما كانوا يفعلون قبل الاسلام. (١)

فلما جاءت الفترحات وكثر الرقيق، عصت في الحجاز حياة فرح ومرح وطرب وشراب وتشبيب بالنساء ولهو لدى اولاد الصحابة وغيرهم لكثرة ما ورد الى الحجاز من جوارى ومغنين ومغنيات وراقصات. (٢)

تتابع ذلك في العهدين الاموي والعباسي حيث انتشر الغناء والشراب انتشارا عظيما وتذوقته مختلف الطبقات وملئت به الكتب والحكايات فهو من مستلزمات حياة الترف والرغد. وكان من اثر مجالس الطراب واللهو ان بعض الخلفاء واولادهم شاركوا بتلحين الاغاني والغناء فكان ذلك دافعا اجتماعيا لا يقارن لبسير الناس في مسراهم. اشتهر منهم ابراهيم ابن الخليفة المهدي وكان اتقنهم صنعة واشهرهم ذكرا في الغناء. كان يبتذل نفسه ولا يتستر ولا يحاشي احدا، غنى للرشيد وللمن فليما اتمته المامون تهتك بالغناء وشرب النبيذ يحضروه وكان يخرج من عنده ثيلا. وكان اعلم الناس بالنغم والوتر والايقاعات واحسنهم صوتا. ومثله اخته عليّة بنت المهدي امها جارية ام ولد مغنية يقال لها مكثوفة. كانت عليّة من احسن الناس واظرفهم تقول الشعر الجيد وتصوغ فيه الالحان الحسنة. (٣)

من اولاد الخلفاء عبد الله ابن موسى الهادي ينظم الشعر ويلحنه، وعيسى ابن هارون الرشيد امه جارية ام ولد بربرية وكان من احسن الناس وجها ومجالسة وعشرة واسجنهم واحدتهم نادرة واشهرهم عبثا. يقول شعرا لينا

طَبِيبًا. وكان المأمون محبا لأخيه يعمده للخلافة بعده لكنه قتل في حادث صيد.
ومثله عبد الله ابن الخليفة محمد الأمين وأمه جارية أم ولد. (١٧)
قال أحمد بن إسحاق : دخلت على الخليفة الواثق وهو يغني ويشرب
وكان صوته من أحسن الأصوات. وكان المنتصر ابن المتوكل ينظم ويغني،
وكذلك أخوه عبدالله أبو عيسى، والخليفة المعتز الذي تولى الخلافة وعمره
سبعة عشر عاما، وأبو العباس عبد الله ابن المعتز، والخليفة المعتمد، وابن
أخيه الخليفة المنتصر. (١٨)

أدّى الشغف بالغناء وما رافقه من شراب إلى التفتن في أنواعه ومجالسه
والى انتشاره في جميع الطبقات. ولا يصير غناء دون شعر فظهرت طبقة من
الشعراء من أيام الخليفة الأموي الوليد الثاني إلى آخر الدور العباسي الأول
نقلت الشعر العربي من الفاظ البداوة الخشنة وصورها وأساليبها، إلى تصوير
المجتمع المتحضّر الجديد بالفاظ سهلة ليس فيها تكلف.

هاش هؤلاء الشعراء في بيئة عصرهم بل شاركوا في تكوينها وتطوير
مجتمعها : شعرٌ وغناء وشرب وجواري والتعاس اللذات في الحياة، أطلق
عليهم منافسوه اسم "الشعراء الخليعيين" ومنهم مطيع ابن أياس، وحنّاد
مجرد المعاصر لأبي حنيفة، ويحيى ابن زياد، وبشار ابن برد، ووالبة ابن
الحباب الأسدي، وتلميذه أبو نواس الذي أخذ عنه الفسق العملي واللفظي
وكثيرون غيرهم من طبقتهم. (١٩) كان جميع هؤلاء من الفرس عدا والبة ابن
الحباب. ثم جاءت طبقة تزعمها أبو نواس أشد من سابقتها مجونا وأكثر
فجورا وأقل حرصا على الاستتار منها الرقاشي، والعباس ابن الاحنف، ومسلم
بن الوليد، والحسين ابن الضحاك. (٢٠)

كانت صحبة الجواري مكحلة للشعر والغناء والشراب. فبالإضافة إلى
الجواري في قصور الخلفاء والكبراء والاعتناء نشأت طبقة أخرى يطلقها
النخاسون علموهن الغناء والشعر والأدب والموسيقى والرقص وعرضوهن في
مجالس أو خمارات يقصدها الفتيان لسماعهن والتمتع بعشرتتهن. وكان ذلك
من أسباب نشر الخلاعة والمجون الذي تبارى به الشعراء الخليعيون في ذلك
العصر. وكان وراء ذلك سبب اقتصادي أيضا. فالجارية الحسنة المنظر
والصوت التي تتعلم الغناء والشعر والأدب تزيد قيمتها أضعافا مضاعفة. كان

من كثرة المجون وفساد الخلق ان ظهر فن جديد من الغزل لم يكن معروفا من قبل وهو فن التغزل بالفلان وكان رائده ابو نواس . ولما ملك الخليفة الامين طلب الخصيان وابتاعهم وصيرهم لخلوته في ليله ونهاره، ورفض النساء الحرائر والاماء وابعدهن عن مجلسه . (١١١)

يقول الدكتور طه حسين ان القرن الثاني للهجرة كان عصر شك ومجون وتهتك وازدراء لكل ما هو قديم ديناً ام خلقاً ام سياسة ام ادباً واجتماعاً ويكفي ان يكون بدا بالوليد الثاني (٧٤٢) وختم بالامين ابن الرشيد (٨١٣) . ومع ذلك فان هؤلاء الشعراء كانوا اصدق تمثيلاً لمصرهم وتصويراً لحياته من الفقهاء والمحدثين واصحاب الكلام . (١١٢)

كان هؤلاء الشعراء الذين شكوا بكل شيء واسرفوا في المجون واللهو يجتمعون كثيراً في بيوت الامراء والوزراء، وفي بيوتهم الخاصة وفي الحانات، على حديث وشراب ومنادمة الجواري، احاديث عذبة غير متكلفة تصدر عنهم مغواً فتمثل ميولهم وشغفهم وتهالكهم على اللذات مما كان له عظيم الاثر في مجتمعهم وفي الادب العربي كمجذتين في معاني الشعر والفاظه .

هل كان هؤلاء الشعراء يبلغون الشهرة ويُفتن بهم الناس في العراق والشام ومصر فيحفظون اشعارهم وينشأون عنها في مجالسهم ويتحدثون بقصصهم لو لم يكونوا يعبرون عن هواطف الناس ومشاعرهم ونوع الحياة التي يمارسونها او يتشوقون اليها .

ومكذا كان الشك بكل شيء الى ان يثبت العقل صحته فاشيا في ذلك المجتمع فعم المجون والخلعة في اكثر الاوساط مستترا في بعضها وواضحا في غيرها .

اما الذين فسثروا وفاقوا فكانوا اصحاب السلطان وكبار الناس الذين شكوا وقبذلوا كشكوك الشعراء ومجونهم لكنهم عاشوا حياتين مختلفتين : حياة للشعب يتظاهرون فيها بالتمسك بالدين ومراسمه واتهية الخلافة والحكم، وحياة خاصة في قصورهم يلهمون ويشربون ويفسقون . اما الشعراء فلم يتحرجوا بالتصرف علانية بما آمنوا به والتغزل علانية بما يشعرون . وفي ما يلي لمحة عن بعضهم .

أبو نواس الحسن بن حنائي (٧٦٢ - ٨١٤)

هو أشهر هذه الطبقة من الشعراء وشعره أكثر تداولاً بين الناس وهو فارسي، ولد في الأحواز ونشأ في البصرة وتخرج في الشعر على الشاعر الماجن والبة بن الحباب فتفوق عليه في تهتكه ومجونه. اتصل بالرشيد والأمين ومات قبل أن ينتقل النامون مقر خلافته من خراسان إلى بغداد، وشعر أبي نواس مرآة لنفسه وعصره فنرى فيه عبثه ومجونه وتهتكه وكفره وإزدراءه بالدين. مات في بغداد وعمره زهاء أربع وخمسين سنة (١٤).

بشار ابن برث

هو فارسي يُرجع بعضهم نسبه إلى ملوك الفرس وإن كانت تحيط بذلك شكوك كثيرة. كان والده طيافاً وأمه جارية رومية، ولد في البصرة ونشأ فيها وسكن حران مدة ثم انتقل إلى بغداد وفيها توفي. كان أصمى جاحظ العينين، مجذور الوجه، ضخمة الجثة وقد ضرب المثل بقبحه، وكان سمياً الخلق سريع الغضب، هجاء، مجاهراً بالسكر مشجعاً على الزنى يغري النساء به، وكان يترددن إليه ويضربن منه المواعيد ويشاركه في اللهو والعبث رغم قبح منظره. وكان زنديقاً يشكك بالدين ويدعو إلى دين الفرس، ويكره العباسيين كرها شديداً ويمدح العلويين.

كان بذيء اللسان، شديد الأذى زنديقاً شعوبياً يتفاخر بامجاد الفرس وينقصد مولاي العرب ويدعوهم إلى الرجوع إلى أصولهم وترك الولاء. عاصر الخليفة المنصور والمهدي ونادمهما، وشكاه الناس لتحريضه النساء على الفسق، ولتفاخره بقومه على العرب ويقال إنه هجا المهدي فأمر بقتله ضرباً. (١٥)

مطيع ابن أياس

أسمه مطيع ابن أياس الكتاني وهو عربي من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. كان ظريفاً خليعاً حلو العشرة ملح النادرة ماجناً متهماً في دينه بالزندقة، مولده ومنشأه الكوفة، وكان أبوه من أهل فلسطين، عاش الوليد ابن يزيد. (١٦)

حماد مجرد

حماد مجرد من الموالي نشأ بالكوفة وهو من مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية. كان خليفا ماجنا متهما في دينه مرميا بالزندقة وكان نديما لمحمد ابن ابي العباس السفاح.

وكان بالكوفة ثلاثة يقال لهم الحمادون : حماد مجرد، وحماد الراوية وحماد الزمراقان، يتنادمون على الشراب ويتناشدون الاشعار. وكانوا يتهمون بالزندقة واشهرهم حماد مجرد الذي قال فيه ابو نواس انه امام من انما الزنادقة. (١٧)

والبة ابن الحباب

ومنهم الكوفي والبة ابن الحباب الاسدي وهو استاذ ابي نواس. كان ظريفا شاعرا غزلا ومتافا للشراب والفلمن الفرد. وقد هاجى بشارا وابا المعاهية فتغلبا عليه فعاد الى الكوفة وخمل ذكره. (١٨)

هذه طائفة من شعراء ذلك العصر قبيحت قصائدهم بسط حياتهم وتمكس صورة مجتمعهم وقيمه. ولهم اعداد كثيرون من شعراء العهد العباسي الاول. وقد سمع الناس هذه الاشعار وتناقضوها في مجالسهم واسفارهم وطربوا لانفاظها ومعانيها، وراجت عندهم لانها عبرت عن احساسهم وعن طراز الحياة التي يمشون بها او يشتهونها.

مشاركة اصحاب السلطان

بمنحى الشعراء

لربما ما كان هؤلاء استرسلوا في مجونهم المكشوف لولا انهم وجدوا من اولاد الخلفاء وعلية القوم من يسير سيرتهم ويحميهم. فقد كان محمد ابن ابي العباس السفاح خليفا اتخذ حماد مجرد نديما له يصله ويحميه. وقيل مثل جعفر ابن الخليفة المنصور الذي كان خليفا يحمي نديمه مطيع ابن اياس. وكان ولدا هارون الرشيد صالح وابو عيسى متهتكين يتنادمهما الحسين ابن الضحاك فيحميانه وقد انتقل ابن الضحاك بعدئذ الى متادعة الخليفة الامين ثم اتصل بالمعتصم والوافي والمتوكل فتنادمهم. وتبع اولاد

الخاصة اولاد الخلفاء في تهتكهم فكان حفيد الفضل بن الربيع وزير هارون الرشيد مغنيا ماهرا وماجنا مستهترا (١١١) ومثله آدم حفيد الخليفة عمر بن عبد العزيز الاموي الذي كان خليعا ماجنا يشرب الخمر فيفرط في شربها وتجرى على لسانه ابيات فيها مساس بالدين فاتهم بالزندقة وامر المهدي بضره ثلاثماية سوط. (١٢٠)

وقد ترائق الخمر مع الشعر والغناء والجواري كما ذكرنا لكن الاسلام يحرم الخمر في الآية : 'انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه'.

وقد اثار هذه الآية اسئلة كثيرة لان العرب كانوا يشربون الخمر قبل الاسلام وبمعه وكذلك الاقوام المفتوحة فتساءلوا : ما المراد بالخمر، امي عصير العنب وحده ام كل مسكر؟ وما هو القدر المحرم؟ اكل نوع مما يسكو كثيره فتقليه حرام، ام بعض الانواع يحل قليله؟

ظهر هذا الخلاف في عهد الصحابة واستمر في عهد الائمة. فقال الائمة انس بن مالك ومحمد بن ادريس الشافعي واسعد بن حنبل ان المنع يشمل جميع الانبذة المسكرة من نبيذ التمر والزبيب والشعير والذرة والعسل وغيرها. وقالوا انها كلها تسمى خمر وكلها محرمة.

اما الامام ابو حنيفة ففسر الخمر في الآية بعصير العنب. وحلل بعض انواع النبيذ المستمدة من الزبيب والتمر والعسل والثين. ويظهر ان ابا حنيفة تبع بذلك الصحابي عبد الله ابن مسعود امام مدرسة العراق الذي كان يرى ان شرب النبيذ حلال وتبعه بذلك عامة فقهاء الكوفة.

وما دامت الخلافة في العراق، والغناء والشراب فيه، وقد اباحه او اباح بعضه فقهاء، فقد استرسلت فيه ثنائ كبيرة من مختلف الطبقات.

لقد قلنا ان هذا العصر كان عصر شك ومجون، لكنه كان ايضا عصر رياء وتفاق. فكان لكثير من الناس، وبينهم بعض الخلفاء والعلماء مظهران مختلفان يطلون به على الناس : احدهما للامة والجمهور يبدون فيه الجدة والتقوى والوقار، فاذا خلوا لانفسهم ولخاصتهم خلعوا العذار وتركوا لشهواتهم مذاها. (١٢١)

الزهد والضحك

الى جانب هذه الطبقة من الشعراء التي مثلت عصرها وشملت العرب والفرس، ظهرت النزعة الى الزهد وكان زعيمها الشاعر ابو العتاهية الفارسي الاصل (٧٤٨ - ٨٢٥). ولد ابو العتاهية في الكوفة ومات في بغداد وعاصر الخلفاء المهدي والهادي وهارون الرشيد وجمعت اشعاره في ديوانه المسمى "الزهوديات".

وقد ملأ ابو العتاهية الادب العربي في عصره بالموت والتخويف منه وفيما بعده، وحض على احتقار اللذة والابتعاد عنها.

كان شعر ابي العتاهية موجهاً لعامة الناس لا للخاصة اذ قال "ان الزهد ليس من مذاهب الملوك ولا من مذاهب رواة الشعر، وهو مذهب اقرب الناس اليه الزهاد، واصحاب الحديث، والفقهاء، والعامة الذين لم تسعفهم الاحوال للحصول على الحياة السهلة الطيبة".

من شعراء العصر الذهبي الذين ذهبوا مذهباً ثالثاً ابو تمام وطبقته. اسمه ابو تمام حبيب بن اوس (٨٠٤ - ٨٤٥) وهو من اب مسيحي اسمه تاديوس فغيره الى اوس وانتحل لنفسه نسباً عربياً. ولد قرب دمشق وتوفي في الموصل. اشتغل في حياته حياً كما ثم ذهب الى مصر ودرس الادب وبدأ ينظم الشعر. ثم التحق ببلاط الخليفة المعتصم واصبح اشهر الشعراء المداحين في عصره. زار ارمينيا ونيسابور في ايران وتوقف اثناء عودته في همدان حيث بدأ بكتابة ديوانه "الحماسة" جمع فيه افضل القصائد العربية القديمة.

من مدرسة ابي تمام ابو عبادة البحتري (٨٢١ - ٨٩٧) ولد في بلدة منبج قرب حلب في سوريا وبرز كاشهر الشعراء المداحين في الدور العباسي الثاني. التحق البحتري بابي تمام حوالي سنة ٨٤٠ فاحضره هذا الى بغداد حيث التحق بالخليفة المتوكل وصار شاعر القصر واستمر يتمتع برعاية الخلفاء الخمسة المتعاقبين الى ان انتقل الى مصر سنة ٨٩٢ واصبح شاعر الدولة الطولونية. اشتهر بشعر المديح وبسميه الحثيث وراء كسب المال من شعره. اصدر كتاب "الحماسة" الذي جمع فيه، كابي تمام، اشهر القصائد العربية.

لا نود ان نوحى للقارئ ان جميع المسلمين في ذلك العصر كانوا على

سبغة من العيش يتمتعون بإطبايب الحياة، فالحقيقة انه كانت فروق شاسعة بين الخاصة المرفهة وبين مجموع الشعب المحروم. وقد ادى الحرمان بهذه الطبقات الى اختلال الامن في بغداد على يد "العيارين والشطار" الذين عجزت الشرطة عن رد اذاهم عن الناس فكان اختلال الامن من اسباب نقل العاصمة من بغداد الى سامراء.

كما لا نريد ان نعطي الانطباع ان ما ذكرناه عن حياة الترف والغناء والشراب والجواري والاباحه كان السمة الوحيدة للعهد العباسي الاول الممتد الى خلافة الواثق مع انها كانت سمة مميزة. فقد كان الى جانب هذا المجتمع حركة علمية ودينية ناشطة. ففي هذا العصر جمع الحديث، وكثبت السير عن حياة النبي (راجع الفصل الثالث)، وتركزت المذاهب الفقهية الرئيسية الاربعة. وفي هذا العصر ايضا ظهر 'علم الكلام' في الرد على معارضي الاسلام، وظهرت حركات فكرية - دينية كالقدرية والجبرية، والمعتزلة، والصوفية سنستعرضها باختصار في هذا الفصل.

الشعوبية : ود الموالى على العصبية العربية

ذكرنا في الفصل الاول ان العصبية القبلية في الجاهلية كانت اساس الالتحام الاجتماعي. وكان العربي ينجذب الى قبيلته يعتز بها ويمسكها دون ان يشعر بالانتساب الى وطن جغرافي او الى مجموعة بشرية تشكل امة او دولة. وبقي العرب قبائل متفرقة تتقاتل فيما بينها.

مقابل هذا التشردم العربي كان الفرس، وهم العنصر الاكبر اثرا في العهد الذي نبحثه، يشكلون امة بمعناها الصحيح اذ كان ولاؤهم مجتمعا للامة الفارسية بعد ان تجاوزوا طور البداوة من زمن بعيد فلم يعانون من الانشقاقات التي جعلت من العرب قبائل متنافرة. وقلنا انه لما جاء الاسلام وتغلبت القبائل العربية على دولتي الروم والفرس دخل على النفس العربية شعور بالانتساب الى قوم وجنس ودم. فصاروا يعتزون بجنسهم العربي على باقي الشعوب التي قهروها من روم وفرس واقباط واتراك وصفالبة واتراك وهنود وغيرهم، وتملكهم الشعور بالسيادة والمظنة ونظروا الى غيرهم من الامم الاخرى نظرة السيد الى المسود وعاملوهم على هذا الاساس الى ان جاء

العباسيون فتغير كل ذلك، فقد اعترف آل عباس بفضل الفرس منذ بداية عهدهم فخطب داود بن علي عم ابي جعفر المنصور في اهل الكوفة، واكثر سكانها من الموالي، فقال : 'يا اهل الكوفة انا والله ما زلنا مظلومين ومقهورين على حقنا حتى اتاح الله لنا شيعتنا من اهل خراسان فاحيا بهم حقنا واظهر بهم دولتنا وادالك على اهل الشام، الخ'. (٢٢١)

وقال الخليفة ابو جعفر المنصور : 'يا اهل خراسان، انتم شيعتنا وانتصارنا واهل دعوتنا' (٢٢٢) وقال الجاحظ : 'دولة بني العباس اعجمية خراسانية، ودولة بني مروان الاموية عربية امراوية' (٢٢٣)

وادعى المنصور ابنه قبل وفاته فقال : 'وصيك باهل خراسان خيرا فانهم انصارك وشيعتك الذين بذلوا اموالهم في دولتك ودماءهم دونك'. (٢٢٤)

نجح مسمى الفرس ونشأت الدولة العباسية، فاعتمد المنصور سياسة تولية الفرس شئون الدولة قاعدة لحكمه وقدمهم على العرب، وسار الخلفاء بعده على منواله فضعف العرب وزال نفوذهم وصارت الوزارة وقيادة الجيوش وامارة المقاطعات وغيرها من المناصب الرفيعة توكل الى الفرس تفضيلا. فلما جاء الرشيد زاد نفوذهم بفضل البرامكة. ثم حدث النزاع على الخلافة بين الامين والمامون فانتصر العرب للامين والفرس للمامون فتغلب المامون، وكان انتصارا ثانيا عزز نفوذ الفرس واضعف مكانة العرب وصار للموالي ونسلهم عصبية سياسية ضد العصبية العربية.

كان الفرس قد بذلوا ينخروا على العرب في العهد الاسوي لكن الامويين صدوا هذه النزعة وعاقبوا اصحابها بقسوة. وكان استخدام الموالي في وظائف الدولة نادرا في العهد الاموي وكان يُقابل بامتناع من السكان. اما في العهد العباسي فقد تغير كل ذلك فقامت حرب بين الاسلام والديانات الاخرى، وبين اللغة العربية واللغات الاخرى، وبين النفوذ السياسي العربي والنفوذ السياسي الفارسي. وكانت نتيجة الصراع بين العرب والموالي غلبة الموالي وهزيمة العرب في السياسة والثقافة والاجتماع في اقل من مائة سنة من حروب الفتح.

ساعد على ذلك ان الخلفاء العباسيين تعصبوا للإسلام ولم يتعصبوا للعربية كيف لا واكثرهم مولودون لولاد جوارى غير عربيات وقد قامت

دولتهم على سواعد الفرس. ولقي العرب من الفرس عنثاً شديداً فالوزراء والقواد. منهم فاذا ثار العرب في بعض الاقطار تكفل بهم قواد العجم فتكبيلا قاسيا. وكثر الشعر من الفرس الذين تعلقوا العربية وبرعوا فيها فقاموا يفتخرون بنسبهم ويعتزون بقومهم ويحقرون العرب ويعبرون عن ذلك شرا وشعرا. من ذلك قول ابي نواس :

عاج الشقي على رسم يسائله وصجت اسأل عن خمارة البلد
يبكي على طلل الباقيين من اسد لا ذر ذرك قل لي من بنو اسد
ومن تميم ومن قيس ولهم ليس الا عريب عند الله من احد
لا جف دمع الذي يبكي على حجر ولا صفا قلب من يصبر الى ولد
وقال :

قل لمن يبكي على رسم ذرس واقفا ما ضر لو كان جلس
تصف الرياح ومن كان به مثل سلمى ولبيبي وخس
أترك الرياح وسلمى جانبا واصطبج كرخیة مثل القيس
ومثل هذا الشعر كثير لمعاصري ابي نواس من الموالى.

فاذا انتقلنا الى حفظة العلم وتدوينه نرى ايضا ان اكثر من قام بذلك هم الاعاجم. وكان هذا التطور منتظرا فقد كانت الامم المفتوحة ارقى من العرب حضارة ومدنية وثقافة وعلما فسادت مدنياتهم وحضارتهم ونظمهم في الحياة اليومية وفي الادارة الحكومية.

وكان كثير من الموالى الفرس والروم من الطبقة الارستقراطية المتعلمة في قومهم فلم يقبلوا سيادة العرب المسلمين الوافدين من صحاري الجزيرة الا على مضض. وقد خضعوا للامويين لشدة عصبية هؤلاء. فلما واقتهم الظروف اظهروا عداوتهم. ولم يفرق بعض الشعوبيين بين العرب والاسلام وادت كراهيتهم للعرب الى كراهية كل ما جاء منهم. ومن ذلك الندين. (٢٦) وتبع ذلك محاولة افساد الدين بالزندقة كما سنرى. وكان التشيع عش الشعوبية الذي يابون اليه وستارهم الذي يستترون به. (٢٧)

توصل الشعوبيون الى مراكز هامة سياسية وعلمية وكان منهم سهل ابن هارون صاحب "بيت الحكمة" قال فيه ابن النديم : كان حكيما فصيحاً،

شاعرا، فارسي الاصل، شعوبي المذهب، شديد العصبية على العرب وله في ذلك كتب كثيرة. واتفق الفرس اللغة العربية حتي كان اكثر المجيدين فيها في هذا العصر فرساً.

يقول كتاب ايرانيون معاصرون انه جرى حدث مهم مع قيام الدولة العباسية هو ولادة حضارة اسلامية - ايرانية حولت الثقافة الاسلامية، التي بقيت الى ذلك الوقت بدائية وعربية، الى حضارة متقدمة بفضل الايرانيين ويقولون : يمكننا القول انه ليست ايران هي التي اصبحت مسلمة، بل ان الاسلام هو الذي اصبغ فارسيا. وقد لجأ الايرانيون الى التشيع كسلاح ديني لمقاومة التسلط العربي، فالتشيع هو اشارة الى التصميم السياسي الايراني على التميز منذ البداية عن الفتح العربي. وبهذا المعنى يقولون، ليست الثورة الخمينية ردة انتقامية على الفتح العربي بعد اربعة عشر قرناً. (٢٥)

الزندقة

هي اسم اشتقه العرب من كلمة زندو الفارسية الدالة على كتاب الفرس المقدس (الزوندوستا)، وهو كتاب "ماني" الذي يدعى اتباعه "المانوية" لانهم يؤمنون بالهين اثنين، فقالوا زنديق اذا اعتقد اعتقاد مجوس الفرس، ثم اشتقوا منه "الزندقة" للاعتقاد، وزنديق للمعتقد، ثم اطلقوه على من يكتنم هذا الاعتقاد فيظهر الاسلام ويبطن الكفر. (٢٦)

كانت الزندقة من سمات العصر الذي نبخته وهي متلازمة مع الشك بالدين وتعاليمه الذي فشا بسبب ظهور درجة من الحرية الفكرية في المجتمع، وقيام مناظرات بين الاديان، واطلاع الخاصة على فلسفة ارسطو وافلاطون. ثم ان بعض الفرس رأوا انه لن يكون بوسعهم اعادة الحكم الفارسي ما دام الاسلام متسلطاً فاختاروا يعملون لنشر المانوية والزرادشتية والمزدكية ظاهراً ان امكن، وخفية ان لم يمكن فانتشرت الزندقة.

وكانت الزندقة من ناحية اخرى ممتزجة بالشعوبية وبخياة المجوس والعبث والاستهتار بالدين، ولم تكن الزندقة تعني شيئاً واحداً لجميع الناس. فكانت العامة تطلقها على المستهتر الناجن، وقد اسرف كثير من الشعراء في دموع الناس الى الفجور والاباحة، وعرضوا للدين وسخروا ممن يقول بتحريم

الخمر، ويمن يخوف من النار وجهنم ويذكر بيوم البعث والحساب، اشتهر
منهم بشار بن برد وابو نواس وعدد من الشعراء الخليعيين.

قال ابو نواس :

فكرت علي قلوبني فاجبتها اني لاعرف مذهب الارار
فدمي للام فقد اطمت غوايتي وصرفت معرفتي الى الانكار
ورأيت لثاني اللذابة والهوى ونعجلاً من طيب هذي الدار
احرى واحز من تنظر آجل علمي به رجى من الاخبار
ما جاءنا أحد يخبر انه في جنة كان اوفي فار
وقال :

يا فاطرا في الدين ما الامر لا قدر صح ولا جبر
ما صح عندي من جميع الذي تذكر الا الموت والقبر
وقال :

قلت والكاس على كفي تهوي لالتشامي
انا لا اعرف ذاك اليوم في ذاك الزحام

كان للزندقة معنى آخر يفهمه الخاصة ويطلقونه على من اعتنق الاسلام
ظاهراً، وبقي متديناً بدين الفرس القديم باطنياً، وخاصة مذهب ماني، هؤلاء
يدينون بدين المجوس عن علم ويتظاهرون بالاسلام تقية او سبيلاً لاضلال
الناس وقد ادركوا انهم لا يستطيعون افساد العقيدة الاسلامية الا بالانتساب
اليها حتى يؤمن جانبهم ويسهل على الناس قبول قولهم ثم يدسّون تعاليمهم
باشكال مختلفة في الدين والادب وتبيان مثالب العرب، وكانوا يعملون افراداً
واحياناً جماعات وهمهم تقويض دين العرب بعدما قوضوا سلطتهم السياسية.
فعبد الكريم ابن أبي العوجاء اقر للمنصور قبل قتله انه وضع اربعة الاف
حديث ممنوع. وحقاد الراوية وخلف الاحمر دستا كثيراً من الشعر على
الشعراء المتقدمين خدمة لاغراضهما. وقد اشتهر بالزندقة في العصر العباسي
من الشعراء الخليعيين : حقاد عجرد، وحقاد الراوية، وحقاد الزهرقان، وبشار
ابن برد، وخلف الاحمر، وعبد الكريم ابن أبي العوجاء، وصالح ابن قدوس،
وابو نواس وغيرهم. وقد عدّ ابو العلاء الممرّي من الزنادقة في "رسالة الغفران"

الوليد ابن يزيد الاموي، وأدم حفيد الخليفة عمر ابن عبد العزيز، ودعبل الشاعر، وشار ابن برد، وأبا نواس، وأبا مسلم الخراساني مؤسس الدولة العباسية، والقائدان بابك والافشين، والحلاج الصوفي وغيرهم.

بالإضافة إلى الشعراء كان من الزنادقة أدباء وعلماء من أشهرهم ابن المقفع وقد قتله المنصور، وغيره من طبقاته.

صنف ثالث من الزنادقة هم الذين شككوا بجميع الأديان وقالوا بسلطة العقل إلى أقصى الحدود، ولم يؤمنوا إلا بما اقتنع به عقولهم فنبذوا جميع الأديان ودعوا إلى الاتحاد.

وأخرون كان همهم في الحياة شهواتهم فنقموا على الدين لأنه يحد من لذاتهم.

كان الخلفاء العباسيون يشتدون على الزنادقة لأن خلافتهم قائمة على الدين وكان أشدهم الخليفة المهدي وابنه موسى الهادي. أنشأ المهدي دائرة خاصة للتحقق من الزنادقة والتكليف بهم وكل عليها موظفا سماه 'صاحب الزنادقة' (٢٠١)، وقد سلك هارون الرشيد سبيل سلفه في تعقب الزنادقة ومثله المأمون بحماس أقل.

في أيام المعتصم جرت حادثة كبرى في تاريخ الزندقة هي محاكمة الافشين قائد جيوش المعتصم وكان المعتصم قد اصطفاه لحسن طاعته واعتمد عليه حتى أرسله لمقاتلة بابك الخرمي عندما ثار فساد اليه وأسرهم. وقد مدح أبو تمام الافشين بمدائح كثيرة. يقال أن بعض الحساد أوقفوا بين المعتصم والافشين فألف المعتصم محكمة لمحاكمته بتهمة الزندقة كان من أعضائها محمد ابن عبد الملك الزيات وأحمد ابن أبي دآرد فسُجن الافشين ومنع عنه الطعام والشراب إلى أن مات ثم صلب وأحرق بالنار. (٢١١)

يقول الدكتور طه حسين : "كانت الزندقة هراقية لأنها كانت فارسية. وكانت في الكوفة والبصرة وبغداد. ولا تكاد تجد لها أثرا في غير هذه المدن من الأمصار الإسلامية، لا في الشام ولا في مصر.

"ومهما نبحث عن أصل العبث والمجون والزندقة في الإسلام فلن نستطيع أن نعدو الفرس وأهل العراق الذين تأثروا بالفرس وكانوا بهم أشد اتصالا. ولو أردت أن أشخص هذه الزندقة تشخيصا أدبيا لقلت إنها ضرب من

السلط على العرب وعاداتهم وأخلاقهم ومحافظتهم ودينهم بنوع خاص، وكان أكثر هؤلاء الزنادقة والعباثيين يكرهون الإسلام ويؤثرون من العقائد الفارسية تلك البدع التي تدعو إلى الإباحة واللذة وترغب فيهما.

أن هذه الزندقة الأدبية التي ظهرت في القرنين السابع والثامن ميلادي كادت تستأثر بالشعراء والأدباء جميعاً حتى عرضت الحياة الدينية والسياسية للخطر فاضطر خلفاء بني العباس إلى مقاومتها بالتنكيل والقتل^{٢٢٢} (انتهى).

وقد استغل أمراء وشعراء وعلماء غضب الخلفاء على الزنادقة فاتهموا خصومهم بها انتقاماً منهم. وكان من ضحاياهم كثيرون بعضهم عن حق وكثيرون عن باطل.

العلوم في العصر العباسي

اللغة العربية

لا يقوم علم في بيئة ليست لها لغة. ولا يكفي أن تكون اللغة محكية لأن العلم يحتاج إلى تدوين ليُحفظ، أي إلى لغة مكتوبة. وقد كان للعرب لغة فصيحة وبلغت نُظمت بها الأشعار ونزل بها القرآن لكنها كانت في الغالب لغة محكية يتناقل الناس أداؤها بالسماع وكانت كتابتها بدائية إذ لم يكن فيها تنقيط وتشكيل.

تتضح جسامة هذا النقص من أنه يوجد في الأبجدية العربية خمسة عشر حرفاً لا يفهم ويختلط لفظها ومعناها إن لم تنقُط هي : (ب، ت، ث) (ج، ح، خ) (د، ذ) (ر، ز) (س، ش) (ص، ض) (ط، ظ) (ع، غ) (ف، ق) (ن، ي، هـ). ونستطيع أن نتصور صعوبة القراءة الصحيحة لهذه الأحرف إذا حذفنا النقاط منها فتصبح الأحرف (ب ت ث) مكتوبة بشكل واحد لا يتميز أحدها عن الآخر ولا يمكن للقاري أن يعرف الحرف الصحيح إلا من سياق الجملة وهذا غير ميسور دائماً، ومثل ذلك بالنسبة لباقي مجموعات الأحرف. وقد أشار العرب إلى هذه الصعوبة واستعملوا في وصفها اصطلاحاً "التصحيف". قال أبو العلاء المعري في تفسير هذه الكلمة : أصل التصحيف

ان يأخذ الرجل اللفظ من قرائته في صحيفة غير منقطعة او مشكّلة ولم يكن سمعه من الرجال فيغيره عن الصواب" (٢٢٤) بوضع النقطة او الحركة في غير موضعها فيتغير المعنى، وقد وقع في الخطأ من جرّاء هذا جماعة من الاجلاء من ائمة اللغة والحديث امثال الخليل بن احمد (٧١٨ - ٧٨٥)، والاصمعي (٧٤٠ - ٨٢٨) حتى تساءل الامام احمد بن حنبل "من يعرى من الخطأ والتصحيح" (٢٥١)

فيما يلي بعض الأمثلة عن الصعوبة التي يسببها غياب التفقيط والتشكيل : كلمة "يحيى" بدون نقاط يمكن أن تُقرأ بالأشكال التالية :

نحبي، ونحبني، ونحييتي، وتحيتي، وبحثي، وحثتي، ونحنني، ونجنني، ونجبن،
وتجبنا، وتجبني، ونجيبي، الخ. وفي الكاندرائية الكبرى في دمشق التي أصبحت
المسجد الاموي يوجد قبر يوحنا المعمدان حسب التقاليد المسيحية. ويدعوهُ
المسلمون يحيى. أفلا يمكن ان يكون التصحيح قد نقل النقطة فوق الكرسي
الى تحته فيتحول يُحتَي الى يحيى. وكلمة اخرى نستعرضها. فكلمة "بنى"
بدون نقط يمكن ان تقرأ لنى، وثني، ونبي، ولُنّي، ولُتني، ورين، وربن،
وبين، وبين، الخ. ومثل ذلك كلمة "مقي" تصبح مقي، مقي، تقى، تقى، لمي،
الخ. ويلحق مثل هذا الاختلاف بجميع الاحرف المنقطه وعددها خمسة عشر
كما ذكرناه.

فإذا انتقلنا الى التشكيل، أي الضمة والفتحة والكسرة والسكون والشدة تقع في مشكلة مشابهة تجعل قراءة الخط العربي عسيرة وأحيانا مضللة. فالقبائل العربية لم تكن تلفظ الكلام أو تكتبه على شكل واحد، وزاد الاختلاف بعدما دخلت في الاسلام اعداد كبيرة من شعوب غير عربية تعلمت الكلام العربي بالسماع وادخلت عليه رطانة اجنبية. ويزداد الارتباك في كلمات يحتمل سياقها معنيين أو أكثر باختلاف التنقيط فيتغير المعنى.

احتاج العرب الى ثلاثة اصلاحات لغوية رئيسية لضبط اللغة المحكية والمكتوبة ثم انجازها خلال ثلاثة قرون من تاريخ الدعوة.

كانوا يتكلمون في البادية لغة صحيحة بالسليقة وإن اختلفت لهجاتهم فلما ابتعدت الاجيال المربية عن البادية وسكنت المدن، وكثر المستعمرون، ظهرت الحاجة الى ضبط اللغة. تناول الإصلاح الاول ابتكار التنقيط ليتمكن فهم

معنى الكلمة وتمييزها عن مثيلاتها. وينسب هذا الابتكار الى ابي الاسود الدؤلي وهو فارسي شيعي من علماء البصرة عاصر الامام علي بن ابي طالب وتوفي عام ٦٨٩ اي بعد اربعين سنة من جمع مصحف عثمان، لكن التنقيط الذي ميّز الكلمات المشابهة عن بعضها لم يبين طريقة لفظها اذ بقيت القبائل تلفظها بلهجاتها المختلفة كما كان المستعمرون يلفظون الكلمة بما يعنّ لهم فاشتدت الحاجة الى التشكيل اي وضع الحركات التي ترمز الى الضمة والفتحة والكسرة والسكون والشدّة.

يقال ان ابا الاسود الدؤلي اهتم ايضا بالتشكيل فاستعمل النقط فوق الحرف وفتحته ليبين الحركات وكتبها بلون حبر مختلف. ولعل استعمال النقط لضبط الكلمة وللتشكيل مآ أدى الى الاختلاط بين مختلف النقط وصعب التمييز بين النقط للتنقيط وبين النقط لتحريك وبذلك سهّل القراءة من ناحية وعقّدها من ناحية اخرى. وكان على الكاتبيين باللغة العربية ان ينتظروا نحو ثلاثة قرون حتى جاء ابن مقلة (٨٨٦ - ٩٤٠) وغيره من الخطاطين ليخترعوا الخط النسخي وخط الثلث ويتخلصوا من الخط الكوفي ويبتكروا الحركات التي نعرفها اليوم. بعد حل مشكلة التنقيط والتشكيل بقيت الحاجة الى ضبط اواخر الكلمات بواسطة علم النحو. وقد اشتهر بذلك ابو بشر عمر بن عثمان المعروف بابن سيبيويه (٧٦٠-٧٩٢) وهو فارسي ولد في البيضة في فارس ودرس في البصرة وتوفي في شيراز ووضع الكتاب في النحو. وقد نهج المسلمون نهج السريان في قواعد علم النحو. (٣٩)

اذا كان لا يقوم علم في بيئة ليست لها لغة مكتوبة، فان العلم لا يقوم ايضا في بيئة تفتقد وسائل التدوين لان الكتابة على الحجر والعظام وسعف النخل والأجر وجلد الحيوانات ليست كافية لحفظ العلم ونشره. وقد تلاشى المسلمون هذا النقص لما اقتبسوا من الصينيين صناعة الورق حوالي العام ٨٠٠ فانتشرت صناعته وتجارته وكان "الوراقون" يقومون بنسخ الكتب وتصحيحها وتجليدها وبيعها بالإضافة الى تجارة الورق لسد حاجة العلماء والكتاب فاصبح في كل مدينة اسلامية سوق عرف باسم "سوق الوراقين" يجد فيه الراغب حاجته من انواع الورق فاقتبل العلماء على التأليف. ذكر ابن النديم وهو وراق في بغداد بعض مؤلفاتهم في كتاب اصدره باسم "الفهرست"

عام ١٨٨٨ يحتوي على عناوين الكتب المتداولة في مختلف العلوم وقد بلغ عددها رقماً كبيراً. وذكر اليمقوبي في كتابه "تاريخ اليمقوبي" أنه كان يوجد في زمنه أكثر من مائة دراق في بغداد.

تأثرت الثقافة الإسلامية بالقرآن والحديث بالدرجة الأولى. وعندما اعتزج المسلمون بالشعوب المغلوبة حصل التلقيح الفكري الذي أشرنا إليه خصوصاً مع الثقافتين الفارسية واليونانية.

الثقافة الفارسية وأثرها

انتشرت الثقافة الفارسية في هذا العصر انتشاراً عظيماً وساعد على ذلك مكانة الفرس في الدولة. فقد كادت الوزارة أن تكون حصراً فيهم وكذلك قيادة الجيش، وأكثر الولاة. ومع أن كلمة الوزارة كانت معروفة سابقاً فإن العباسيين هم أول من قننوا هذا المنصب وأعطوا الوزير سلطة القيام مقام الخليفة في كل الشئون الحربية والمالية، وتولية الموظفين وعزلهم، وتوجيه الرسائل إلى الجهات، مما كان يقتضي أن يكون الوزير حكيماً ملقاً بالسياسة والإدارة وكاتباً أدبياً. وقد برز منهم، على سبيل المثال، أبو سلمة الخلال أول وزير عباسي، وأبو أيوب التورباني وزير المنصور وهو من الأهواز، ويعقوب بن داود وزير المهدي، ويحيى ابن خالد البرمكي وزير الرشيد، واستوزر المأمون الفضل بن سهل ثم الحسن بن سهل وهما من أولاد ملوك فارس، واستوزر بعدهما أحمد بن يوسف ثم ثابت بن يحيى الرازي، وكلهم فرس.

استعان الوزراء على عملهم بأعوان يُسمون "الكتاب". وكذلك فعل ولاة الأقاليم. هؤلاء الكتاب كانوا فرساً كالوزراء يحتذون حذو أجدادهم الفرس حتى في مظاهرهم الخارجية. وكانت مناصبهم تحتم عليهم أن يكونوا واسعي الاطلاع على أحوال الناس الاجتماعية، وأن يعرفوا طرفاً من أكثر العلوم إذ قد يمرض للخليفة أو الوزير أو الوالي مسائل يُفترض في الكتاب أن يحضر لرواياته جواباً عليها. كل هذا اقتضى أن يكون للكتاب ثقافة عامة تفوق ما تحتاجه باقي طبقات السكان.

نشأ عن هذه الحاجة أدب يعالج النحو والصرف والأملء وحسن الكتابة والتعبير والانشاء وأدب السلوك في التعامل مع الحكام والسكان، ووضعت الكتب

في ذلك وكان من أشهر مؤلفيها ابن المقفع الذي توفي سنة ٧٥٦ وهو فارسي الأصل نشأ في البصرة وكان كاتبه زرادشتيا عاصر الامويين وكرههم لشدة عصبيتهم ضد الموالي ثم اتصل، وهو لا يزال مجوسيا، بعيسى بن علي عم السفاح والمنصور فاسلم على يده، لكن المنصور ما لبث ان قتله بتهمة الزندقة بعد اقل من عشر سنوات على إسزده.

كان ابن المقفع ذا ثقافة فارسية واسعة ضم اليها معرفة عميقة باللغة العربية فكانت اكثر معانيه فارسية بالفاظ واساليب عربية. وضع كتابا في ادب المخاطبة والسلوك لطبقة الكتاب والوظفين، وكتاب الادب الصغير، والادب الكبير او اليتيمة، ورسالة الصحابة، وكلها تبحث في الادب والاخلاق والتعامل في عبارة رشيقة. وترجم كتاب "كيلة ودمنة" من اللغة البهلوية وهو كتاب حكم على السنة الحيوان.

بعد ابن المقفع بماية سنة جاء ابن قتيبة (ابو محمد عبدالله الدينوري) (٨٢٨ - ٨٨٦) وهو فارسي الأصل من خراسان ولد في الكوفة وقوى القضاء في دينوار ثم انتقل الى بغداد. من مؤلفاته في ارشاد طبقة الكتاب "كتاب المعارف" و"كتاب العرب" الذي دافع فيه عن العرب ضد الشعوية. وكتاب "الشعر والشعراء" وكتاب "مبين الاخبار" وهو مجموعة مقالات في اداب السلوك لمختلف طبقات الشعب.

امتدت ثقافة الفرس الى الحكم في كتاب كيلة ودمنة واخذوا في هذا الباب من الثقافة الهندية. وانتشرت العادات الفارسية بين الناس فاتخذوا عيد النيروز، ولبسوا الازياء الفارسية والقلانس، وفرشوا بيوتهم على النمط الفارسي، واستذاقوا المأكولات الفارسية، وعقدوا مجالس الشراب فقد كان الفرس منذ القديم ميالين للافراط في الشراب وما يلحقه من غناء ولهو. وترافق ذلك مع الموسيقى فوضع ابراهيم الموصلي وابنه اسحق، وهما فارسيان، علم الموسيقى وآغا فيه فاستذاقه الناس وانتشر.

نبغ الفرس في مختلف النواحي العلمية والثقافية فمنهم، بالاضافة الى الذين ذكرناهم، الامام ابو حنيفة امام المذهب الحنفي، وحشاد الراوية. جامع العلاقات العشر وداوي كثير من الشعر الجاهلي ومنتحله، واكثر الشعراء الخلفيين الذين ذكرناهم والذين طبعوا العصر بطابعهم، وسيبويه مؤسس علم النحر، والفارسي،

والزجاج من بعده، والكساني العالم في النحو واللغة وأحد القراء السبعة، والقراء
أبرع الكوفيين بالنحو واللغة، وأبو العتاهية شاعر الزهد، ثم الكثرة من أئمة
الاعتزال والصوفية.

قال في ذلك ابن خلدون : "إن حَفَلة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم عجم
سواء في ذلك العلوم الشرعية والعلوم العقلية إلا في القليل النادر. وإن كان منهم
العربي في نسبته فهو عجمي في لغته ومرباه، فكان أصحاب صناعة النحو كلهم
عجم. وكذلك حملة الحديث، وعلماء أصول الفقه كما يُعرف، وكذا حملة علم
الكلام وأكثر المفسرين، ولم يَقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم" (٢٧)، نظراً
لأنهم أصحاب مدنية سابقة.

الثقافة اليونانية وأثرها

يقول الأستاذ أحمد أمين : "علوم اليونان كنز لا يفنى وثروة لا تُقدر في
الفلسفة والرياضة والفلك وعلوم الطبيعة والحياة والطب، وفي الأدب والتاريخ
والسياسة والفنون الجميلة.

"فأقليدس ظل إماماً في الهندسة من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن
التاسع عشر، والطب ظل قائماً في العصور القديمة والعصور الوسطى على
أساس ما دَوَّنَ بقراط وجالينوس، والفلاسفة إلى اليوم عيال على تعاليم سقراط
وأفلاطون وأرسطو. وهكذا في كل فرع من فروع العلم والفلسفة والفن. وقد
أُسست فلسفة المسلمين على فلسفتهم، ونهضت المدنية الحديثة على اكتشافهم". (٢٨)
كان التراث اليوناني الفكري والثقافة الهيلينية أثمن ما صادفه العرب في
فتوحاتهم وأشدّها تأثيراً في حياتهم. فكانت الرها ثم نصيبين والحيرة
وجنديسابور أهم مراكز السريان النصارى. وكانت حران مقر السريان الوثنيين
الذين سمّوا أنفسهم صابئة. وكانت انطاكية إحدى مراكز الثقافة اليونانية،
وكذلك الإسكندرية ملتقى الفلسفة الشرقية والغربية، وما لا يُحصى من أديرة
سوريا وما بين النهرين حيث كانت تقوم الدراسات العلمية والفلسفية علوة على
الدراسات اللاهوتية. (٢٩)

اختلف اقتباس المسلمين للثقافة اليونانية وتعاليمها عن اقتباسهم للثقافة
الفارسية. فالعرب اشتهروا بالفرس بعد الفتح وسكنوا بلادهم وتعايشوا معهم،

وتعلم الفرس العربية ونقلوا اليها ادابهم وتقاليدهم. اما اليونان، او البيزنطيون، فقد غادروا بلاد الشام بعد هزيمتهم ولم يتركوا فيها جاليات يونانية الا في المدن حسب رأي بعض المؤرخين. اما من بقي في بلاد الشام بعد الفتح فكانوا نصارى ولكنهم كانوا مختلفين عن اليونان في الجنس واللغة والمذهب. كانوا من الجنس السامي وكانوا يتكلمون اللغة الآرامية وهي لغة سامية، وكانوا نصارى لكن على غير المذهب البيزنطي. فقد كانوا ينتمون الى المذهب النسطوري او اليعقوبي وكانت الكنيسة البيزنطية تضطهدهم احيانا. وهكذا لم يحصل امتزاج مباشر بين العرب واليونان يشابه الامتزاج السكاني الذي حصل بينهم وبين الفرس فقد انسحب اليونان الى بلادهم وبقوا على علاقات عدائية مع المسلمين. فاليونان لم يتعلموا العربية، ولا تعلم المسلمون اللغة اليونانية. فلما رغب المسلمون بالاطلاع على الثقافة اليونانية احتاجوا الى وسطاء فكانوا النساطرة واليعاقبة. نظرا للاثر الكبير الذي كان للفلسفة والعلوم اليونانية على الحركات الفكرية الاسلامية وعلى تطور مختلف العلوم فان دور النساطرة واليعاقبة في نقل هذه الفلسفة والعلوم الى العربية يصبح حاسما في ازدهار الثقافة الاسلامية ويستحق بعض التفصيل وان كنا ذكرنا عنهم شيئا في الفصل الاول.

النساطرة واليعاقبة : اصلهم ومذهبهم

ينتسب النساطرة الى نسطوريوس الذي ولد من ابوين فارسيين في آسيا الصغرى ودرس اللاهوت في انطاكية على يد مطرانها وتأثر بارائه. في سنة 428 دعاه الامبراطور ثيودوسيوس الثاني ليصبح مطران القسطنطينية. فلم يلبث ان اختلف مع رجال الكنيسة على مسائل لاهوتية.

قال النساطرة ان للمسيح طبيعتين : الطبيعة الالهية والطبيعة الناسوتية وشددوا على انسانية المسيح بحيث ترافى كان طبيعة المسيح انفصلت الى ذاتيتين متمايزتين لا يوحّد بينهما الا رابط اخلاقي. ثم اعترض النساطرة على لقب مريم المذراء "م الله" (ثيوتوكوس) ودعوها "ام المسيح".

اعترضت كنيسة الاسكندرية على هذا الاجتهاد وقالت ان للمسيح طبيعة واحدة هي الطبيعة الالهية قبل ان يتجسد المسيح انساناً. اما بعد التجسد فقد اصبح للمسيح طبيعتان متحدتان في شخص واحد وغير منفصلتين، اي ان الله

والإنسان اتحدا في طبيعة واحدة، هي المسيح، فالمسيح هو الله أما الطبيعة الإنسانية للمسيح فلم يكن لها قط وجود مستقل حسب اعتقادهم، وعرف هذا المذهب باسم الطبيعة الواحدة (موندوليزية) أو اليعقوبية وأليه ينتسب اقباط مصر وأهل الحبشة والنوبة والأرمن. وكان للكنيسة البيزنطية رأي آخر.

اشتد الخلاف بين هذه المذاهب فدمها الامبراطور ثيودوسيوس الى مجمع مسكوني عُقد في مدينة افسسوس قرب مدينة ازميرا سنة ٤٣١. وبعد المداولات رفض المؤتمر نظرية نسطوريوس واعتبرها هرطقة ونفاه الى دير في مصر حيث توفي سنة ٤٥١ لكن تعاليمه بقيت منتشرة.

بعد عشرين سنة من مؤتمر افسسوس هادت الكنيسة الى معالجة الانشقاق فاجتمع المجمع المسكوني في مدينة شالسدون في بيزنطية (تركيا حاليا) سنة ٤٥١ وقرر العقيدة التي تتبعها الان الكنائس الارثوذكسية واللاتينية والانكليكانية والتي تؤكد وحدة المسيح مع الله، ووحده مع طبيعته كإنسان ثم وحدته في ذاتيته. لكن الكنيستين النسطورية واليعقوبية بقيتا محافظتين على عقيدتهما.

كانت ألوهيا لأورفيا ومدرستها اللاهوتية اهم مراكز النسطورية الفكرية في القرن الخامس الى ان اشتدت النزاعات اللاهوتية بعد مؤتمر شالسدون فانتقلت المدرسة واساتذتها بعد سنة ٤٧١ الى مدينة نصيبين التي تجاور الان مدينة القامشلي في شمال شرق سوريا. حازت هذه المدرسة شهرة كبيرة في الغرب وصارت مركزا مهما للتعليم وألف اساتذتها في ميادين الادب والتاريخ واللغة واللاهوت بالإضافة الى نقلهم العلوم اليونانية الى اللغة السريانية.

كان للنسطورية مركز آخر مهم في الحيرة عاصمة اللخمين التي تقع جنوب الكوفة، وفي جنديسابور في خوزستان حيث اسسوا مدرسة اشتهرت بتعليم الطب والى جانبها مستشفى كبير.

كانت المسيحية قد انتشرت في فارس حيث لاقت بعض الاضطهاد فقد كان الفرس على عدااء وحروب مستمرة مع البيزنطيين فاعتبروا الكنيسة امتدادا بيزنطيا الى ان أعلنت الكنيسة الفارسية استقلالها التام من باقي الكنائس عام ٤٢٤ فحصلت على حياد الدولة ثم اعتنقت المذهب النسطوري بتأثير اسقفها بارسيماس.

بعد الفتح الاسلامي بقيت النسطورية مزدهرة، وكان يُطريقها الذي اطلق

عليه الخلفاء العباسيون اسم الجاثليق تعريباً للقبه (كاثوليكيوس)، يسكن بغداد ويحظي برعاية الخلفاء فيما لم يسمحوا لطريق اليعاقبة بأن يقيم في العاصمة وكان مقره في انطاكية. وقد ذكرنا في الفصل الاول ان النسطورية كانت منتشرة في قبائل الجزيرة العربية وفي بلاد الشام وفارس. وكان لها في نهاية القرن العاشر خمس عشرة ابرشية في بلاد الخلافة وخمس ابرشيات خارجها في الهند والصين الى ان قضت غزوات تيمورلنك عليهم وشتتهم في القرن الرابع عشر لبقى منهم الان نحو مائة وسبعمين الفا يمشون في العراق وسوريا ويران والمهاجر.

النساطرة واليعاقبة : دورهم العلمي

كان للنسطرة دور هام في مجالين : في علوم الطب، وفي ترجمة العلوم والفلسفة اليونانية الى العربية. ففي مدينة جنديسابور في الاهواز (خوزستان) اسس كسرى انوشروان سنة ٥٥٥ مدرسة طبية شهيرة ومستشفى حيث كانت تعلم العلوم اليونانية باللغة الارامية. وكان اهم خدمة قدمت لعلم الطب هي قيام النساطرة في مختلف مراكزهم العلمية بالحفاظ على المخطوطات اليونانية الطبية وترجمتها وتلقينها لطلابهم ومنها انتشر علم الطب في البلاد الاسلامية. وكانت جنديسابور والحيرة من اهم مراكزهم نبغ فيها اطباؤهم ومن اشهرهم عائلة بختيشوع.

كان جورجيجوس ابن بختيشوع عميد الاطباء في مستشفى جنديسابور وقد جرت العادة في ذلك الزمان ان تنحصر المهن العلمية في اسر خاصة فيلقن الاب اسرار المهنة الى ابنه، وهذا يسلمها بدوره لولده كما كان الحال في الصياغة وغيرها من الصناعات والحرف. وقد احتاج الخلفاء العباسيون الى خبرة هذه العائلة وعلمها من ايام الخليفة المنصور الذي اصيب بعملة في معدته استعصت على اطبائه فاستدعي جورجيجوس ابن بختيشوع فعالجه وشفاه. وبقيت عائلة بختيشوع مدة قرنين ونصف اي على مدى ستة او سبعة اجيال، يطببون دار الخلافة رغم تقلبات الدهر. فقد تولى بختيشوع ابن جورجيجوس رئاسة مستشفى بغداد في عهد الرشيد. وبعد وفاته خلفه ابنه جبريل بن بختيشوع فصار طبيب الرشيد الخاص سنة ٨٠٥ ورئيساً لمستشفى بغداد الذي امر الرشيد

بينانه على نمط مستشفى جنديسابور فمارس فيه اطباء جنديسابور وتلاميذهم مهنتهم، ثم صار جبريل طبيب المامون وعاشت عائلة بختيشوع في بغداد في فضل وجاه طيلة ذلك الزمن.

روى عن اخلاق هؤلاء الاطباء ان الخليفة المنصور قال يوما لطبيبه جورجيجوس ابن بختيشوع "يا حكيم اتق الله واسلم وانا اضمن لك الجنة" فاجابه "قد رضيت ان اكون حيث اباتي في الجنة او في النار". وطلب المتوكل من طبيبه الخاص حنين بن اسحق ان يصف له سنا يقتل به عدوا لرفضه. فحبسه سنة كاملة. ثم استدعاه واعاد عليه القول واحضر سيفا ونظعا فقال حنين : "قد قلت لامير المؤمنين ما فيه الكفاية" قال المتوكل "فاني اقتلك". فاجاب : "لم احسن الا الشيء النافع ولم اتعلم غيره". فتبسم المتوكل وقال اردت ان امثحك. (١٠)

الى جانب جنديسابور ونصيبين والحيرة كانت الاسكندرية مصدرا رئيسيا للثقافة اليونانية وقد كانت في عهد البطالسة في مقدمة البلاد في مختلف العلوم وعُرفت باسم "مدرسة الاسكندرية". وقد اشتهرت هذه المدرسة بالطب والكيمياء والعلوم الطبيعية وكان القائمون بها في العهد الاسلامي من اليعاقبة ولغتهم القبطية والسريانية فنقلوا تلك العلوم الى السريانية والعربية.

كانت حران ايضا مركزا مهما لنقل العلوم اليونانية وهي تقع على نهر البليخ الذي ينحدر من تركيا ويصب في الفرات قرب الرقة. وكان يسكنها وثنيون لم يتنصروا ولم يُستلموا وسموا انفسهم "صائنة" ليعاملوا كاهل الذمة. وقد اهتم اهل حران بعلوم الرياضيات والهندسة والفلك لانهم كانوا يعبدون النجوم وقد ترجموا كثيرا من الكتب اليونانية الى السريانية ثم الى العربية. وقد تفرعوا الى الخلفاء العباسيين في الدور الثاني والى بني بويه واشتهر منهم ثابت بن قرة وهو رياضي فلكي. وابن سنان وابراهيم ابو اسحق الصابي وغيرهم.

المتوحدون

نقل النساطرة واليعاقبة علوم اليونان الى اللغة السريانية قبل العهد الاسلامي وتعرف العرب على فلسفتها قبل ان تُنقل الى اللغة العربية اذ نرى اثارها في العهد الاموي في مناقشات المعتزلة وغيرهم.

من اول المترجمين عن اليونانية يوحنا ابن البطريق ويقال انه ترجم للمنصور اهم تأليف جالينوس وأبقراط. ونقل ايضا تأليف لبطليموس في الفلك وترجم كتاب اقليدس والمجسطي. وبين المترجمين الاولين يوحنا ابن ماسويه (توفي ٨٥٧) وهو سرياني نصراني درس على جبريل ابن بختيشوع ثم اصبح معلما لحنين ابن اسحق، عيّنه الرشيد امينا على الترجمة وقيما على الكتب التي استولى عليها المسلمون من انقرة وعمورية والاسكندرية والتي تبحت في الطب والفلسفة والرياضيات والفلك وبقي في منصبه ايام الرشيد وخلفائه.

برز بين المترجمين حنين ابن اسحق (٨٠٦ - ٨٧٢) ولقب 'شيخ المترجمين' وهو نصراني نسطوري من قبيلة عباد قرب الحيرة. درس على يوحنا ابن ماسويه ثم ذهب الى بلاد الروم وتعلم اليونانية. ولما عاد الى البصرة لازم الخليل ابن احمد واخذ عنه العربية فصار يجيد اربع لغات : السريانية والعربية واليونانية والفارسية. دخل في خدمة جبريل ابن بختيشوع طبيب المأمون فسلمه المأمون امر بيت الحكمة وامره بنقل ما يقدر عليه من كتب حكماء اليونان الى العربية واصلاح ما ينقله غيره. التحق به ابنه اسحق وابن اخته حبيش ابن الحسن وابو بشر ابن يونس ويوحنا ابن عدي وكان حنين يستعين بطبقة واسعة من المترجمين تعمل بارشاده ويراجع ترجماتهم ويصححها.

برز من المترجمين النصارى ايضا قسطنطين ابن لوقا (توفي ٩٢٢) من مدينة بعلبك ترجم كتباً في الفلك منها كتاب المجسطي الشهير ومؤلفات ابلونيوس وارخميدس. وفي الوقت الذي كان الترجمة النساطرة يقومون بهذا العمل العلمي الجليل كانت جماعة اخرى من صابئة حران الوثنيين عبدة النجوم تترجم العلوم الرياضية والفلكية اشتهر منهم ثابت ابن قرة (٨٢٦ - ٩٠١) وينسب الى ثابت وتلاميذه نقل القسم الاكبر من كتب اليونان في الرياضيات والفلك. وغالبا ما كانت هذه الترجمات تُنقل اولاً الى السريانية ومنها الى العربية كما كان بعضها يترجم راساً الى العربية.

ما ان جاء عصر الخليفة المأمون حتى كان النساطرة قد ترجموا معظم كتب ارسطو ووضعوا اساس النشاط الفكري الرائع الذي انتعش في ذلك العهد. من ابرز وجوهه الفيلسوف الكندي يعقوب ابن اسحق الصباح المتوفي سنة

٨٧٠ وهو من اصل عربي عاصر المأمون والمعتصم ولُقّب "فيلسوف العرب" فكان أول عالم اسلامي استخدم اللغة العربية في شرح فلسفة ارسطو، وهرع ايضا في علم الفلك والرياضيات والطب وصنّع السيوف وكتب اكثر من ٢٧٠ رسالة كثير منها موجود.

جاء بعده ابو نصر الفارابي (٨٧٨ - ٩٥٠) وهو تركي الاصل ولد في تركستان والتحق ببلاط الحمدانيين في حلب ولقي في دمشق. بحث في علم المنطق وحاول ان يبين كيف يمكن استخدام الفلسفة اليونانية في معالجة المشاكل التي تواجه المسلمين. على ان فلسفة ارسطو لم تصبح جزءا عضويا في الثقافة الاسلامية الا بفضل فيلسوفين عظيمين هما ابن سينا في المشرق ٩٨٠ - ١٠٣٧ وابن رشد في الاندلس (١١٢٦ - ١١٩٨).

من غريب ما يلاحظ في موضوع الثقافة اليونانية اعتماد المسلمين الكلي على النصراني من نسطرة وعالية، وعلى الصائنة الوثنيين، في نقل علومها اليهم وهي العلوم التي كانت اساساً لا يُستغنى عنه في بناء الحضارة الاسلامية. فلم تذكر كتب التاريخ مترجما مسلماً واحدا درس اليونانية ونقل عنها كما فعل ابن المقفع وابن قتيبة وغيرهما بالنسبة للثقافة الفارسية. ثرى لو لم يهتم النصراني بهذه العلوم وينقلوها الى السريانية قبل الاسلام ثم نقلوها الى العربية بعده هل كان المسلمون بقوا جاهلين لها، وكيف كانت تطورت الحضارة الاسلامية.

ثمّة ظاهرة اخرى هامة وغريبة هي انه رغم ترجمة الكثير من الكتب اليونانية في مختلف العلوم، ورغم اطلاع علماء المسلمين على مؤلفات ارسطو واعجابهم بها حتى سموه "العلم الاكبر"، فان احداً منهم لم يتعرض لبحث مؤلفاته ومؤلفات افلاطون في علم السياسة. ولعلهم لو فعلوا لربما كان التاريخ الاسلامي السياسي اتخذ منحى اكثر استقرارا واستجابة لمصالح الناس.

الاتجاهات الفكرية - الدينية

كان من سمات هذا العصر وما سبقه ان الخلافات السياسية كانت دوما تصطبغ بصبغة دينية حادة. فلما اختلف المسلمون حول خلافة علي ومعاوية ومن هو احق بها صار كل حزب فرقة دينية : شيعة وخوارج ومرجئة، لا يتجادلون

في أي رجل أصلح للخلافة، بل تجادلوا بالكفر والإيمان والجنة والنار وقاتلوا في سبيل ذلك فأصبح الخلاف دينيا ولكل حزب أدلته الدينية.

ومثل ذلك في الخلاف بين الأمويين والعباسيين، وبين العباسيين وآل البيت، فتحول كل حزب سياسي إلى فرقة دينية.

وسنستعرض في ما يلي باختصار الاتجاهات التالية : أصحاب علم الكلام، والخوارج، والمرجئة، والشيعة، والقدرية، والجبرية، والمعتزلة، والباطنية ومنهم الاسماعيلية والقرامطة والحشاشون، ثم الصوفية لنعطي صورة عامة عن المناخ الفكري الذي ساد العصر الذي نبهته وأثره في النظام السياسي العباسي.

علم الكلام (١)

سُمّي العلم الإسلامي الذي يبحث في عقائد الأديان والرد على المخالفين للإسلام 'بعلم الكلام' وسُمّي المشتغلون به 'بالمتكلمين'. وكانت اليهودية والنصرانية والوثنية وغيرها من المعتقدات قد أخذت من الفلسفة اليونانية واستعملت مفاهيمها ومنطقها في مناقشة الدين الجديد فاحتاج المسلمون إلى الفلسفة ليجادلوا خصومهم بالأدلة العقلية فدخلت الفلسفة في صميم بحوث المتكلمين. ويقال إن المعتزلة هم الذين سموا هذا العلم 'بعلم الكلام' بعدما كان يُسمّى البحث في هذه المواضيع 'الفقه في الدين'. وقد كانت الدعوة إلى الإسلام والرد على المخالفين من أهم أغراض المعتزلة.

اتّبع المتكلمون منهجا خاصا في البحث والتقريب والتدليل يخالف منهج القرآن والحديث وأقوال الصحابة، ففي القرآن آيات تدل على الجبر وآيات تدل على الاختيار، وآيات في صفات الله، وآيات تخالف غيرها فكيف التوفيق بينها؟ سمع الأولون من المسلمين الآيات فآمنوا بها وصدقوها من غير بحث أو جدل وفهموا هذا الآيات فهما مجعلا. واكتفوا بهذا الفهم. سئل خالد بن أنس عن الآية : 'الرحمن على العرش استوى'. كيف استوى؟ فأطرق ثم قال : 'الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة'. هؤلاء الفقهاء رأوا القبول بما جاء في الدين من غير تفسير أما لأن هذه البحوث قد فُزعزع الإيمان عند العامة، أو لأن ما يتعلق بالله وصفاته يتجاوز العقل البشري فالأولى أن نقف على ما ورد فيه النص من غير السؤال

بكيف وأين، وقد استمرت هذه المدرسة في العصر العباسي وما بعده فكان زعيمهم في عهد العباسيين أحمد ابن حنبل وفي العصور اللاحقة ابن تيمية وعُرف هؤلاء باسم "أهل النقل" مقابل خصومهم من "أهل العقل".

لكن التمسك بخصوص القرآن والحديث لا يفيد في الحوار مع الملل الأخرى من يهودية ونصرانية وثنية التي لا تؤمن أساسا بالاسلام ولا بالقرآن. وقد كان بعضها لا يؤمن بوجود الله، وبعضها يُنكر جميع النبوات، وبعضها يُنكر نبوة محمد فكان لا بد من مناقشتهم، إذا لزمنا المناقشة، بأسلوب يستند على مستوى مشترك من العقل والمنطق فاضطر المتكلمون أن يقدموا الأدلة العقلية على وجود الله ويؤلفوا الكتب في اثبات النبوة على العموم وفي اثبات نبوة محمد على الخصوص كما فعل الجاحظ وهو من المعتزلة ولم يتمكنوا من ذلك إلا باللجوء إلى الفلسفة اليونانية.

فالتكلمون آمنوا بالله وما جاء به الرسول وسعوا إلى البرهان على ذلك بالأدلة العقلية المنطقية ولم يكتفوا بالإيمان المطلق فجمعوا الآيات التي خلاف كالجبر، والاختيار، وصفات الله، وسلطوا عليها عقولهم حتى توصلوا إلى رأي في كل مسألة، فإذا وجدوا آيات تخالف تلك التي اعتمدها أولوا الآيات المخالفة. فكان التأويل من أهم مظاهر المتكلمين.

وطبيعي أن إعطاء العقل حريته في البحث والنظر يؤدي إلى تأويلات كثيرة متعارضة في مسألة واحدة وهكذا تعددت الاتجاهات والتفسيرات بما يكرهه أهل النص "فكان الانقسام بين "أهل النقل" و"أهل العقل" حقيقا يتناول أصول الدين بالإضافة إلى اختلافهم في الفروع.

أما الفرق بين المتكلمين والفلاسفة فهو أن المتكلمين آمنوا بالدين وأقروا بصحته ثم اتخذوا أدلتهم العقلية للبرهنة عليه. فهم يبرهنون عليه عقليا كما برهن القرآن عليه وجدانيا. أما الفلاسفة فينشدون الحقيقة المجردة ويبحثون المسائل بحثا منطقيًا متسلسلا حتى يصلوا إلى النتيجة كأنه ما كانت فيعتقدونها. لذلك كان الفلاسفة المسلمون يصفون المتكلمين بأنهم أهل سفسطة وجدل فقامت خصومة بينهم كالتخصومة بين ابن رشد والمتكلمين، وبين الفزالي والفلاسفة.

الخوارج

عندما قبل علي بن ابي طالب التحكيم بعد معركة صفين ظهر قوم من جند علي اكثرهم من قبيلة تميم، راوا ان التحكيم خطأ ومخالف للدين وطلبوا من علي ان يقر بأنه اخطأ بل كفر لقبوله التحكيم وان يرجع عن اتفاقه مع معاوية، فابى علي لانه لا يريد ان ينكث بقوله فخرجوا على علي وقتلوه فسموا "خوارج".

حاربهم الامام علي في موقعه للنهروان وهزمهم وقتل منهم عددا كبيرا لكنه لم يُبذَنهم ولم يُبذَن فكرهم. ثم دبروا له مكيدة فقتله الخارجي عبد الرحمن ابن ملجم فكان زوجا لامرأة قتل الكثير من اهلها في وقعة النهروان. حارب الخوارج الدولة الاموية حربا تكاد تكون متواصلة. وكانوا فرعين فرح في العراق وما حوله ومركزهم "البطائح" قرب البصرة وقد استولوا على كرمان وولاية فارس وهددوا البصرة. وهؤلاء هم الذين حاربهم المهلب بن ابي صفرة سنينا طويلة. وفرع ثاني في الجزيرة حيث استولوا على اليمامة وحضرموت واليمن والطائف. ولم يتغلب الامويون على هذه الفرعين الا بعد حروب شاقة وطويلة فلما جاء العباسيون كانت قوتهم قد ضعفت.

نظريتهم في الخلافة : قال الخوارج بصحة خلافة ابي بكر وعمر ومثمان في سنيه الاولى. واقرؤا بصحة خلافة علي لكنهم كفروه لما قبل التحكيم. نظريتهم في الخلافة انها يجب ان تكون باختيار حر من المسلمين فاذا اختير الخليفة ليس له ان يتنازل او يحكم. وليس من الضروري ان يكون الخليفة من آل البيت او قرشيا بل يمكن ان يكون من سائر الناس ولو عبدا حبشيا وهم في ذلك ديمقراطيون خالفوا الشيعة الذي يحضرون الخلافة في علي وابناؤه وخالفوا السنة الذين يحضرونها بقريش.

قال الخوارج ايضا، لو بعض منهم، بعدم وجوب الخلافة لا بالعقل ولا بالشرع ووافقهم بعض المعتزلة منهم الاصم ورفاعة. والواجب عند هؤلاء هو امضاء احكام الشرح. فاذا توأطت الأمة على العدل وتنفيذ احكام الله لم يحتج الى امام ولا ضرورة لنضبه.

كان اكثر الخوارج عربا بدوا انضم اليهم بعض الموالي تأييدا لولايتهم بأنه ليس من الضروري ان يكون الخليفة من العرب. وانقسموا الى فرق كثيرة منها

الاباضية التي لا يزال لها اتباع في المغرب وفي سلطنة عُمان واشتهروا بالاخلاص لعقيدتهم وتغانيهم في الدين وشجاعتهم النادرة في القتال وعدم تسترهم في معتقداتهم ومجاهرتهم بها ولو سبب ذلك اضطهاداً لهم. وهم في ذلك نقيض الشيعة الذين يلجأون الى "التقية". وقد كان الخوارج في حال ثورة دائمة ضد الامويين والعباسيين.

الشيعة

الشيعة هم انصار الامام علي ابن ابي طالب ويرون ان الخلافة يجب ان تنحصر فيه وفي بنيه. وقد بحثنا نظرتهم في الخلافة وفرقتهم في الفصل الثالث.

المرجئة

نشأت المرجئة لا رأت الخوارج يكفرون عليا وعثمان والقاتلين بالتحكيم، ورات من الشيعة من يكفر ابا بكر وعمر وعثمان ومن ناصروهم. والفريقان يكفران الامويين ويلعنونهم. وكل طائفة تدعي انها وحدها على حق وتكفر الاخرين. فجاءت المرجئة تسالم الجميع ولا تكفر احدا وتقول ان الفرق الثلاث، الخوارج والشيعة والامويين مؤمنون، ولا نستطيع ان نعين المخطيء بينهم فلنترك امرهم لله ومن هنا جاء اسمهم "المرجئة" من ارجأ بمعنى امهل واخر. وكانت ثروة هذه الطائفة بين الصحابة في الصدر الاول. وقد قاوم العباسيون هذه الفرقة لانها تناصر الامويين بعض الشيء فذابت في الفرق الاخرى ولم يعد لها وجود مستقل.

القَدَرِيَّةُ وَالْجَبْرِيَّةُ

هاتان فرقتان متعارضتان فالجبرية تقول ان الانسان مجبور لا اختيار له ولا قدرة وان الله قدر عليه امالا لا بد ان تجدر عنه. اشتهر بهذا القول جهم بن صفوان وهو من الموالي ومن اهل خراسان اقام بالكوفة ودعا الى رأيه وكان خطيبا فصيحاً وكانت هذه هي الفكرة الشائعة بين المسلمين. وقد عارضه كثير من العلماء لانهم رأوا في مسألة الجبر انها تدعو الانسان الى التعطيل وترك العمل والركون، الى القَدَر. فقالوا ان الانسان حر الارادة له

قدرة على اعماله فسموا لذلك "بالقدرة".

وقد ذابت القدرية والجبرية في غيرهما من المذاهب ولم يمد لهما وجود مستقل. وظهر على اثرهما مذهب المعتزلة الذي وافق على قول القدرية ان للانسان قدرة توجد الفعل بانقرادها واستقلالها.

المعتزلة

تابع المعتزلة النقاش الذي دار بين الجبرية والقدرية فيما اذا كان الانسان مُسَيِّراً او مُخَيِّراً. تَكَوَّنت الحركة في البصرة حول الحسن البصري وكان يجلس اليه واصل بن عطاء وعصرو بن عبيد وكلاهما من الموالي. وسرعان ما انتشرت في العراق وكان ممن اعتنقها من خلفاء بني امية يزيد بن الوليد وسروان بن محمد، ثم المأمون والمعتصم والواثق من خلفاء العباسيين.

فضَّل المعتزلة ان يُسَمَّوا "اهل العدل والتوحيد". اما العدل فلانهم نَزَّهوا الله ان يكون قَدَرٌ على الناس المعاصي ثم عاقبهم عليها. وقالوا ان الانسان حرٌّ فيما يفعله ومن اجل هذا عُدَّ ب على ما يفعل. وهذا عدل. اما التوحيد فلانهم نفوا صفات الله وعدتوا القول بها تعديداً لله.

قضية خلق القرآن

عندما نفى المعتزلة صفات الله فمعناه ان ليس لله صفات غير ذاته لان الصفة مثل سميع وبصير الخ يدل على التشبيه بال مخلوق وهو مستحيل. فاذا كان الله لا يتكلم كالمخلوقات فليس القرآن اذن كلام الله وانما خَلَقَه الله واوحى به الى النبي بلفظه ولم يكن القرآن موجودا مع الله من الازل. وكان ذلك ابرز شيء في تاريخ المعتزلة لما اتصل به من احداث تاريخية واجتماعية وسياسية.

كان المعتزلة اكثر من تآثر بالفلسفة اليونانية من الفرق الاسلامية وهم الذين خلقوا علم الكلام دفاعا عن الاسلام فجاه الاديان الاخرى وتتلخص تعاليمهم بما يأتي :

١ - القول بالمبدلة بين المنزلتين. اي ان مرتكب الكبيرة ليس بكافر ولا مؤمن لكنه فاسق يستحق النار بنفسه.

٢ - القول بقدرة الانسان وان الله لا يخلق افعال الناس وانما هم الذين

يختلفون اعمالهم ومن أجل ذلك يثابرون أو يعاقبون.

٢ القول بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ولو لم يرد بهما شرع. فللشيء صفة فيه جعلته حسنا أو قبيحا، والشرع لم يجعل الشيء حسنا بأمره ولا الشيء قبيحا بنهييه عنه، بل الشرع إنما أمر بالشيء لحسنه، ونهى عن الآخر لقبحه.

نمعرض المعتزلة للأمور السياسية التي سبقت عصرهم فشرحوها الصحابة واقتدوهم وأدانوا بعض اعمالهم وحروبوهم وقالوا ان الصحابة انفسهم كان خطيئ، بعضهم بعضا ويتحاربون. وقد طعن بعضهم بما رواه أبو هريرة من انه بث الكثير. وكان أكثرهم كلاما في ذلك من تبع الاعتزال من الشيعة.

اشتهر من رجال الاعتزال الحسن البصري وواصل ابن عطاء وعمرو ابن عبيد وابو هذيل العلاف وهو من الموالي ويرجع اليه الفضل في ادخال مباديء الفلسفة على الاعتزال. وابراهيم ابن سيار وابن هانئ النظم وهو ايضا من الموالي تنلمذ للعلاف وكان استاذ الجاحظ، ثم الجاحظ وكان لسان المعتزلة المدافع عنها والمفسر لمبادئها لكن خصومه اطلقوا كنيه الدينية عن الاعتزال فلم يصلنا ٧ كتبه الادبية "كالبيان والتبيين" و "الحيوان" و "البخلاء".

٨ جال الاعتزال بشر ابن المعتز مؤسس فرع الاعتزال في بغداد وكان من تلامذته أبو جعفر محمد بن عثمان بن سهل مؤسس لعلم البلاغة. واحمد ابن ابي داود وهو من تلامذته كان مقربا من الخلفاء و صار قاضي القضاة أيام المعتصم والوائق وكان تلميذا مسلما.

٩ كان عداء المعتزلة أهل الحديث والحنابلة. فلما كانت الدولة للمعتزلة في بغداد رافضوا الحديث ونكّلوا بأهل الحديث الذين خالفوهم بقضية خلق القرآن. ثم ساروا الإمام أحمد ابن حنبل. فلما جاء المتوكل ومال عن الاعتزال نكّر الإمام أحمد بالمعتزلة فاندثرت حركتهم. من اسباب ذلك ان الاعتزال كان حركة فنية فهمتها الخاصة وعصيت على عقول العامة لاختلافها بالفلسفة فلم تحظى بشعبية واسعة فلما زال عنها دعم السلطة تغلبت عليه المفاهيم الدينية المبسطة واضطهدتها.

١٠ الجدير بالملاحظة الميل الواضح لدى الطبقات المتعلمة في عصر المعتزلة، المنفتح فسيحا، الى عدم التسامح مع الآراء المعارضة، واستسهال اللجوء

الى السلطة السياسية لكبت الافكار المخالفة حتى من جماعة المعتزلة المنشئة بالفلسفة اليونانية التي لا تبرز اللجوء الى العنف في المناقشات الفكرية.

الصوفية

منشأ الصوفية

نشأت الصوفية كحركة منظمة بين الانقياء المسلمين تعويضاً عن عدم اكتراث الامويين بالمسائل الدينية. واتخذوا الصوفيين اسمهم من "الصوف" وهو اللباس الذي كان يرتديه اوائل الزهاد المسلمين. وفي تركيا وإيران عرفوا باسم "درايش".

تقول "دائرة المعارف الاسلامية المختصرة" عن الصوفية : "ان في القرآن والحديث اشارات كثيرة الى حقائق عميقة تتجاوز الطبيعة تأتي احياناً بصورة مغلفة كما تغلف الغشور حبوب القمح. ويرى الصوفيون في ذلك دعوة لهم لتقصي هذه المعاني المستترة وجعلها محور حياتهم. وما الطرق الصوفية في احسن احوالها الا تجمعات لهؤلاء المتصولين الباحثين عن الحقيقة".

استمد الصوفيون شرعية مسلكهم من آيات قرآنية : "واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى ان يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً". (١٢١) والآية : "ها ايها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً". (١٢٢) لذلك احتلت حلقات "الذكر" عند الصوفيين مقاماً هاماً. وقد سعى اكثرهم في البداية الى البقاء ضمن الجري الاسلامي العام فاكثروا ضرورة الالتزام بالشريعة وباحكامها، وعارسوا الزهد في حياتهم وكان من اوائليهم الحسن البصري (ت ٧٢٨).

مبثت الصوفية عن نزعة في النفوس تصبو الى اتحاد الانسان بربه مباشرة عن طريق المحبة والمعرفة، وهي حالة وجدوا ان الشريعة لا توفرها لهم لانها تتخذ شكلاً قانونياً جافاً. وقد اكد الصوفيون على "المعرفة الداخلية" التي يتوصل اليها الانسان بالفطرة ولا تأتيه بطريق العقل والمنطق فاضافوا الى الفقه القائم على الاستقراء والاستنباط العقلي منحي جديداً لاكتشاف الحقيقة الالهية وقالوا ان فيما وراء العلوم الظاهرة، سواء كانت دينية او غيرها، يحتاج الانسان الى الاحساس الداخلي الفطري للتوصل الى "الاشراق" الذي لا يدركه العقل. وكان ذلك برأي البعض، معارضة ورفضاً للتعايير الخارجية المقيّدة بالنصوص

القانونية التي يقدمها الاسلام التقليدي في الشريعة والفقه. لذلك نظر الفقهاء الى الصوفيين بشك وارتياب واضطهدوهم في كثير من الاحيان.

ارتكزت الصوفية على مبدئين رئيسيين : الفناء في حب الله، والتوصل الى معرفة "الحقيقة" باتحاد الانسان مع الله، وكانت رابعة العدوية التي توفيت في دمشق سنة ٨٠٦ اول من ادخل محبة الله كمثل اعلى للصوفيين مجردة من رغبة الانسان بالجنة او خوفه من النار.

في التسعين التي اعقبت رابعة العدوية انتشرت الصوفية في الاقطار الاسلامية فقد اسس المدرسة الصوفية المراقية ابو عبد الله الحارث المحاسبي (٧٨١ - ٨٥٧) ولد في البصرة وتوفي في بغداد وشرح الصوفية في كتابه "الرماية لحقوق الله" مع الدعوة الى الالتزام بتعاليم الشريعة. خلفه ابو القاسم الجنيد (ت ٩١٠) الذي وضع التعاليم التي تبناها بعده معظم الصوفيين ودرس عليه حسين ابن منصور الحلاج.

في تلك الفترة الزمنية ظهر في مصر النووي ذو النون (ت ٨٥٩) الذي ادخل على الصوفية تعبير "المعرفة" لتمييزها لها عن "التعليم". وفي ايران ظهر ابو يزيد البسطامي (ت ٨٧٤) الذي يُنسب اليه مبدأ "فناء النفس".

غاية الصوفي ان يصل الى "المعرفة" والى "المحبة" التي تعني اتحاد المحب والمحبوب وهما عند الصوفية الانسان والله. ولكي يحقق ذلك يتوجب على الصوفي ان يمر بمدة "مقامات" والمقام هو مرحلة روحية في الطريق الطويل الذي يؤدي الى تلك النشوة المنشودة وهي حالة "الفناء" في الرب وعندها يصل الى "الحقيقة".

يحتاج الصوفي المتدرج (المريد) ان يتبع "الطريقة" تحت اشراف "مرشد" يفقده من مقام الى اخر. وقد عرفت الفرق الصوفية باسم طرق تأخذ كل طريقة غالبا اسم الشيخ الذي اسسها او الذي يرشدها، كالمولوية والنقشبندية والبيكتاشية والسنوسية والاشراقية والقادرية وغيرها.

يتدرج المريد "بالمجاهدة" اي بكبح شهواته ورغائبه، بمساعدة مرشده واشرافه، في سبعة مقامات تتبعها معظم "الطرق" وتسميها اسما، تختلف عن مناها المادي. في كل مقام يسمى المريد الى تطهير نفسه من كل الميل الديني وتهيئتها للانتقال الى حالة روحية اسمى.

تبدأ هذه المقامات "بمقام التوبة" ويعني ذلك نسيان الخطايا وكل ما يمكن أي يلهي المريد عن محبة الله. يلي ذلك "مقام الورع" وهو التخلص المريد من الخوف بأن يكون "محبوباً" عن الله. أما المقام الثالث فهو "مقام الزهد" حين يتخلص المريد من أية رغبة بحياسة الأشياء المادية. بعد ذلك يأتي "مقام الفقر" وفيه يؤكد المريد عزوفه عن الأشياء المادية وحاجته إلى الله وحده. ثم يصل المريد إلى "مقام الصبر" وهو مقام الثبوت على العقائد والمثبات فيها، يليه "مقام التوكل" حيث يدرك الصوفي أن الصعاب والألام لا يمكن أن تثبط عزيمته لأنه خاضع لشيئة الله خضوعاً متفانياً فيجد الفرح حتى في أحزانه وأخيراً يصل المريد إلى "مقام الرضا" وهي حالة من الرضى الهاديء والقناعة لأنه يتوقع الاتحاد النهائي مع الله.

ينتقل المريد من مقام إلى آخر بواسطة "الفكر" و "الذكر". أما "الفكر" فهو التأمل بمحاسن الله والفراغ النفس من أي فكر آخر، أما "الذكر" فهو اجتماع المريدين في حلقات يرددون فيها ترانيل دينية في تمجيد الله بموجب طقوس معينة ترافقها أحياناً موسيقى ورقص بحركات وتنفس مفروضة. وأكثر ما يرددونه عبارات : لا إله إلا الله، الله أكبر، الحمد لله، استغفر الله، وآيات قرآنية، ويكررون ترداد هذه العبارات مع الرقص أحياناً حتى يصلوا إلى "الغيبة"، والغيبة عند الصوفية لا تعني غيبة الإمام عند الشيعة، بل غيبة كل فكر آخر من القلب والذهن إلا التفكير بالله بامل أن يصل الصوفي إلى معرفة حقيقته الداخلية وإلى الوجود "بعضرة الله والفناء به". معنى "الفناء" مأخوذ من الآية : "كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام" (٢١)، فعندما ينجح الصوفي بتطهير نفسه تماماً من العالم الدنيوي بالتأمل المستمر بصفات الله، ويغرق نفسه في محبة الله، "ويفني" إرادته الذاتية وصفاته الانسانية، ويفقد الشعور بوجوده كإنسان، فإن أسرار الصفات الربانية تكشف له بنعمة الله. وعندما يعود إليه الوعي يرتقي إلى حالة "البقاء" السامية ويصبح أهلاً لمعاينة الله.

اشهر المتصوفين في العهد العباسي الأول وأكبرهم اثرأ هو أبو المنيث ابن منصور الحلاج (٨٥٨ - ٩٢٠). ولد في جنوب إيران وتوفي في بغداد. كان جدته زرادشتية أما والده فاسلم وسكن في واسط واشتغل بحلج الصوف. حفظ الحلاج

القرآن ودرس على عمر ابن عثمان المكي وعلى ابي القاسم الجنيدي وهما من اساتذة الصوفية وتزوج من ابنة الصولي ابي يعقوب الاقطع.

كان الحلاج كثير التجوال والتبشير بالصوفية في فارس وخوزستان وخراسان. وكان من اول المسافرين الى الهند وتركستان فصار له مريدون كثيرون. عاصر الخلفاء المعتمد والمتضد والمكتفي والمقتدر في الدور العباسي التركي وكانت فترة مليئة بالفتن والاضطرابات السياسية والنزاعات الدينية والقلق الاجتماعي.

اثارت كثرة تجواله شكوك السلطات واتهمه خصومه بخلوعه مع القرامطة . الاسماعيليه كما اتهم بملاقته بثورة الزنج من خلال عائلة زوجته.

كان بعض الصوفييين، ومنهم الحلاج، يصلون في حالة النشوة والشعور بحضور الله الى نسيان انفسهم فيتفوهون بكلام غير موزون وعن غير وعي. في احدي هذه الحالات التي بلغها الحلاج روي انه تلفظ بكلام قال فيه "انا الحقيقة" فسارع خصومه الى اتهامه بان يدعي الالهية وكانت همة تلصق بالقرامطة ومن يؤيدون الزنج، فالقي عليه القبض، وسجن من سنة ٩١١ - ٩٢٢، ثم عذب وقتل في خلافة المقتدر لكنه خلف رسائل وكتابات ومريدين كثيرين تابعوا مسيرته.

من الصوفييين البارزين بعد الحلاج، ابو حميد محمد الطوسي الغزالي (١٠٥٨ - ١١١١). ولد في طوس ووفي فيها. كان فقيها عالما عيَّنه نظام الملك وزير السلطان السلجوقي امينا للمدرسة النظامية في بغداد. لكنه في سنة ١٠٩٥ تخلى عن وظيفته وباع املاكه وترك بغداد واتخذ حياة صوفي فقير متجول. بعد عشر سنوات اُقتنع بالعودة الى التعليم في الكلية النظامية في نيسابور وقد شرح سبب تخليه من حياته كصوفي متجول في كتابه "المنقذ من الضلال".

دعا الغزالي الى طريقة صوفية معتدلة شرحها في كتابه "احياء علوم الدين" ونقد كتابات الفارابي وابن سينا التي تأثرت بالافلاطونية الجديدة وابدت اراء متعارضة مع تعاليم الاسلام التقليدية واصر في ذلك كتابه "تهافت الفلاسفة" وهو الكتاب الذي رد عليه ابن رشد الاندلسي بكتاب عنوانه "تهافت التهافت".

في ختام حياته انتهى كتابه "الاقتصاد في الاعتقاد". وكان الغزالي يعتقد ان

علم الفقه الذي يقدم الحقائق الدينية بطريقة عقلية منظمة هو أدنى مرتبة من الاختبار الروحي الذي يصل إليه المتصوف في محاولته الاتصال بالمرزة الالهية. وكان للغزالي أخ اسمه أحمد كتب كتاب "السوانح" عن الحب الالهي الهم كثيرا من الشعراء الفرس.

بعد الغزالي اشتهر من الصوفييين الشيعة شهاب الدين شهرآورددي (١١١٥-١١٩١) وهو فارسي ولد قرب همدان وتوفي في حلب. سُمّي "شيخ الاشراف" لانه فسر المعرفة الحقيقية بانها "اشراق". وحاول ان يوفق بين الفلسفة والمشجاء الروحاني. اسس طريقة صوفية اسمها "الاشراقية" خلقت تيارات صوفية لا تزال فاعلة في رجال الدين الشيعة الى الان. تجول في ايران والاناضول وسجن. وكان له مريدون كثيرون فيها. اهم مؤلفاته كتاب "حكمة الاشراق" كما قلده "تاجا" وصف فيها الخمر والاتحاد المحبين مما صدم رجال الدين السنة. وكان قد وصل الى حلب وتمتع فيها برعاية الملك الظاهر ابن صلاح الدين لكن انتابه دستوا عليه فاعدم سنة ١١٩٠ ولهذا لقبه مريدوه "بالمقتول".

وصلت الصوفية الى اوجها في القرن الثالث عشر مع ابن العربي (١١٦٥ - ١٢٤٠) في الاندلس، وابن الفارض (١١٨١ - ١٢٣٥) في مصر، وجلال الدين الرومي في الاناضول (١٢٠٧ - ١٢٧٣). كان من مييزات ذلك الزمن، القرن الثالث عشر، تغلغل الافكار الويسية للصوفية في جميع ارجاء العالم الاسلامي حتى وصلت الى الهند حيث اخذت بعض الاتجاهات الروحانية الهندية التي تؤكد على الوحدة الالهية والتي تعترف بحقيقة اساسية كونية واحدة بحيث يزول التمييز بين الله والعالم (الانسان)، ومن المحتمل ان الامبراطور المغولي اكبر الكسرات (١٦٠٥) استهدى بهذه الافكار عندما سعى الى تطوير دين يتضمن الادبي المشتركة بين مختلف الاديان البوذية والمسيحية والاسلام وغيرها.

كان القرن الثالث عشر ايضا قرن الغزوات المغولية التي اجتاحت هذه الخلافة الشرقية لكنه كان ايضا العصر الذهبي للصوفية. فابن العربي (١١٦٥ - ١٢٤٠) الذي ولد في فالنسيا (اسبانيا) من ابوين عربيين وتوفي في دمشق سار بالصوفية منحى عبق الخلاف بينها وبين الفقه الاسلامي في ما يختص بالعلاقة بين الله والعالم اذ وضع نظرية "وحدة الوجود" التي تقول ان الله ومخلوقاته هم مظهران لحقيقة الالهية واحدة. وقد شرح ذلك في كتابه "الفتوحات المكية" كما

جمع اشعاره الروحانية في كتاب 'ترجمان الاشواق' وكان لكتبه واشعاره نفوذ كبير على الاجيال الاسلامية اللاحقة.

كان يمكن تفسير ابياته بانها ترمز الى الحب الالهي كما يمكن ان ترمز الى الحب الانساني، وقد اصبح هذا الغموض ظاهرة في الاشعار الصوفية في فارس وتركيا.

من المتصوفين معاصري ابن العربي، شرف الدين ابو حفص عمر ابن الفارض الذي عاش في مصر ومات فيها (١١٨١ - ١٢٢٥) وقضى بضع سنوات في مكة حيث اجتمع بالصوفي الفارسي الشهير سهرارودي الذي كان يقيم في بغداد. وقد نظم ابن الفارض بالعربية اجمل الاشعار الروحانية.

ثم جاء جلال الدين الرومي (١٢٠٧ - ١٢٧٢) وهو اعظم شاعر صوفي باللغة الفارسية نظم نحو ست وعشرين الف مقطوعة اعتبرها الصوفيون الذين يتكلمون اللغة الفارسية في المرتبة الثانية بالاهمية بعد القرآن. ولد جلال الدين في مدينة بلخ في عهد الغوريين، ولما اقترب الزحف المغولي هاجرت العائلة الى الاناضول التي كانت تحت حكم السلجقة واستقرت في قونيا سنة ١٢٢٨. كان مريدوه يدعونه "مولانا" فشرقت طريقته باسم "المولوية". وما زال مريدوه هذه الطريقة يقيمون حفلات الذكر وهم يرقصون على نغم الموسيقى ويرددون اشعار جلال الدين، وما زال قبره "القبة الخضراء" في قونيا مزاراً لآلاف الحجاج.

في القرن الثالث عشر ايضا اسس الشيخ صفي الدين الاردبيلي (١٢٥٢ - ١٣٢٤) الطريقة الصوفية المعروفة باسم "الطريقة الصفوية" التي اسست بدورها الدولة الصفوية الشيعية في ايران التي سيأتي بحثها.

بالاضافة الى اهمية الصوفية في الفكر الاسلامي، فقد كان لها الدور الاكبر في نشر الاسلام في القبائل التركية والمغولية البدوية التي اجتاحت المشرق الاسلامي بكامله وربما كان ذلك لان بعض الطرق تقاربت مع معتقدات الشامان (كهنة البدو) الاثراك والمغول الذين كانوا يحدثون في انفسهم حالة نشوة وغيبوبة تتيح لهم التوصل الى معرفة ما وراء الطبيعة.

لقد شكلت الصوفية ذات الانتشار الواسع نقداً حياً للإسلام التقليدي الذي حدد علماءه اصول العقيدة ونظموا السلوك الشخصي فجاءت الصوفية تحرر الانسان وتطلقه ليتصل مباشرة بخالقه دون شكليات العبادة، عن طريق

الاغراق بالتأمل والزهد وحلقات الذكر. لذلك تعرض الصوفيون لاضطهادات كثيرة خلال فترات مختلفة من تاريخهم.

فضلا عن التنسك والزهد والطقوس الدينية ادخل المتصوفون الى الاسلام امورا اخرى منها استعمال السبحة وهي هندية الاصل. وقد وردت اول اشارة للسبحة في الادب العربي في شعر لابي نواس.

واحدث التصوف ايضا عادة تكريم الاولياء مستندا الى كرامات واعمال خارقة يقوم بها الولي مع انه ليس في القرآن والحديث ما يركز ذلك. ولم يات القرن الثاني عشر حتى كان للاولياء مقامات ومزارات يقصدها الناس في مناسبات معينة ويتبركون بها.

الطرق الصوفية

اول طريقة صوفية ظهرت هي القادرية نسبة الى عبد القادر الجيلاني (١٠٧٧ - ١١٦٦) الفارسي الذي لمع في بغداد. تدعو هذه الطريقة الى التسامح والتواضع وعمل الخير ولها اتباع منتشرون في جميع انحاء العالم الاسلامي. تلي القادرية في القدم الطريقة الرفاعية التي اسسها احمد الرفاعي المتوفي سنة ١١٧٥ في البصرة. تنتشر هذه الطريقة في سوريا ومصر وتركيا وهي تشدد على الفقر والزهد، وتقيم الذكر بشكل خاص اذ ينتظم المريدين في حلقات متشابكية الايدي مع تحريك اجسادهم بالانحناء الى الامام والخلف وهم يرددون اسماء الله او الآيات حتى يتوصلوا الى النشوة.

تفرع عن هذه الطريقة في سوريا في القرن الرابع عشر فرع سمي "السعدية" نسبة الى سعد الدين الجيباوي الدمشقي. هؤلاء يصلون الى النشوة بالدوران السريع على كعبهم الايمن مع ترديد كلام الذكر. وكان شيخ الطريقة يركب حصانا ويسير به على اجساد المريدين المبطوحين ارضا فلا يصيبهم مكروه.

وقد ذكرنا الطريقة المولوية والطريقة الصفوية. اما اهم الطرق الصوفية في شمال افريقيا فهي الشاذلية اسمها ابو الحسن الشاذلي في الاسكندرية لتوفي (١٢٥٨). تشدد الشاذلية على خمسة مبادئ : تقوى الله، والالتزام بالسنة، وعدم الاهتمام بالحياة الدنياء، والتسليم بالقدر، واللجوء الى الله في السراء

والضراء. نشر مريدو الشاذلي هذه الطريقة في شمال افريقيا ومصر والسودان وامتدت الى سوريا ولبنان مع ان الشاذلي نفسه لم يدعُ الى الزهد وحث اتباعه ان يعيشوا حياة عادية. تفرع عن الشاذلية عدد من الطرق منها الجزولية والدرقاوة والعيسوية في المغرب والجزائر وتونس.

في مصر انتشرت طريقة البدوي المنسوبة الى احمد البدوي المتوفي سنة ١٢٧٦ وهي طريقة ناشطة في هذا الزمن.

اما في تركيا فاهم الطرق هي البكتاشية قامت في اوائل القرن السادس عشر وكان لها علاقة بالانكشارية وهي تدعو الى التبتل واکرام الامام علي. اما طريقة الدراويش في آسيا الصغرى فقد احتفظت باثار الشامانية التي جاء بها الاكراد من اواسط آسيا. (٤٦)

وأخيرا الطريقة السنوسية التي اسسها في ليبيا محمد ابن علي السنوسي سنة ١٨٢٧. انتشرت الطريقة من مركزها في برقة الى الصحراء الليبية وطرابلس ومصر وفزان والصحراء الكبرى والسودان. وكان الاتباع يتجمعون في "زوايا" اندمجت مع التركيب الاجتماعي البدوي ودعت للعودة الى الدين وإلى الحياة البسيطة في العهود الاسلامية الاولى.

كان للسنوسية دور سياسي ايضا فقد حاربت الاستعمار الايطالي الذي احتل برقة سنة ١٩٠٨. قاد هذا الجهاد "السنوسي الكبير" وعائلته التي تاهت النضال خلال الحرب العالمية الثانية فلما انتهت الحرب أعلن رئيس العائلة ادريس السنوسي ملكا على ليبيا سنة ١٩٥١ وكان تقيا زاهدا بالمنصب ومع ذلك اطاح به انقلاب عسكري في اول سبتمبر ١٩٦٩.

جمعية اخوان الصفا وخلان الوفا

هي جمعية سرية تأسست في البصرة في النصف الثاني من القرن العاشر (ما بعد ٩٥٠) واصدرت ابحاثا فلسفية. ودينية عرفت باسم "رسائل اخوان الصفا وخلان الوفا" وصلنا منها اثنان وخمسون رسالة.

لم تُعرف هوية اعضاء "اخوان الصفا" او تاريخ تاسيس جمعيتهم بالتدقيق. لكن محتوى "الرسائل" يعكس العقيدة الاسماعيلية المتأثرة بالافلاطونية الجديدة ومذهب ماني. وقد عاصرت هذه الجمعية حركة القرامطة

وقالت ان للقرآن معاني باطنية لا يفهمها الا الخاصة ممن تمكنوا مبادئها، قالوا ان النفس الانسانية تنبعث من النفس الكونية وتتحد معها بعد الموت، وهذه النفس الكونية تتحد بدورها مع الخالق حين البعث. فوظيفة "الرسائل" ان تظهر للنفس من الاخطاء وتقودها الى معرفة كنه الحقيقة والى السعادة في الحياة الآخرة.

كانت نظرتهم الى المسائل شمولية وعالمية حتى انهم اقرروا ان الاديان الاخرى تتضمن شيئا من الحقيقة، وكانوا يثيرون الاسئلة ولا يجيبون عليها الا تليحا. واكدوا على ضرورة "معرفة الذات" لتحويل النفس من الامور المادية والعودة بها الى الله.

في سنة ١١٦٠ امر الخليفة المستنجد باحراق رسائلهم لكن نفوذ الجمعية بقي منتشرا.

المذاهب الفقهية

بالاضافة الى علم الكلام والحركات الدينية - السياسية، شهد هذا العصر تثبيت وتقنين المذاهب السنية الاربعة.

كلمة الفقه في اللغة معناها العلم بالشيء والفهم له، ثم غلب عليها معنى العلم بالدين والفهم له. ويتبع ذلك العلم بالشرعة التي تحاول ان تنظم حياة المسلمين في كل نواحيها الدينية والاخلاقية والقانونية، وعلاقة الانسان بربه ومن نفسه ومجتمعه وعائلته، ويشمل ذلك العبادات وجميع انواع المعاملات كما يتناول حياة الانسان الخاصة المتعلقة بالزواج والطلاق والارث وما الى ذلك. فهي نظام شامل لجميع نواحي الحياة.

مصادر الشريعة لدى الفقهاء السنة اربعة : القرآن، والحديث، والاجماع، والقياس او الرأي.

وقد بحثنا في القرآن والحديث في الفصل الثالث. ويتفق الفقهاء ان اية مسألة يوجد فيها نص في القرآن او في الحديث الصحيح فهي مقضية. اما اذا لم يوجد نص فيمكن اللجوء الى الاجماع والقياس.

الاجماع : يعني الاجماع ان امرا او اجتهدا يصبح مقبولا شرعا اذا حظي باجماع المسلمين حسب الحديث "ان الله لا يجمع امتي على ضلالة".

وليس واضحا كيف يمكن التحقق من حصول الاجماع فيقول بعض فقهاء السنة ان الاجماع يعني اجماع المجتهدين الذين ظهروا بعد وفاة النبي الى ان أُلغى باب الاجتهاد في القرن التاسع. وفيما عدا الاحكام التي تقررت في القرآن والسنة والاجماع، يجوز لكل مجتهد ان يختار الحكم الذي يستحسنه فيقضي به بين الناس الذين له عليهم ولاية استمدها من الخليفة او من مصدر اخر.

القياس : المصدر الرابع للفقه هو القياس. وبمعنى ذلك استنباط حلول لمسائل تُعرض لم ينص عليه القرآن او الحديث الصحيح، اعتمادا على مقارنة مع احكام مشابهة لكن غير مطابقة، ورد فيها نص.

على اساس هذه الاركان الاربعة قامت مدارس الفقه السنية التي استمرت الى يومنا هذا وهي الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ظهرت كلها في اواخر القرن الثامن وبداية القرن التاسع، اي في اواخر عهد الدولة الاموية وبداية العهد العباسي.

استمرت حرية الاجتهاد في عهد العباسيين مع ان ملكهم بُني على الدين فكان القضاة والناس يختارون الاجتهاد الانسب من اي مصدر اتى. وفي زمنهم اصبح من واجبات طالب العلم ان يطوف الامصار الاسلامية يأخذ عن علمائها ويطلع على مناهجهم المختلفة.

كان العصر العباسي اكثر عصور الاسلام نشاطا في التشريع واكثرها في عدد الفقهاء والمجتهدين. وبقي العلماء احرارا في مناحيهم واجتهادهم لا تتدخل السلطة في خلافاتهم ما زالوا مبتعدين عن مسائل الخلافة والبحث فيها. ولم تلتزم السلطة بمذهب فقهي معين تفرضه على القضاة والمحاكم، بل اختلفت القضاة من مختلف الاجتهادات وتركزت لهم حرية الفصل في الاحكام حسب اتجاههم. فكان من الممكن ان يصدر حكمان مختلفان في مسألة واحدة في قطرين، كما كان يمكن ان يصدرا في بلد واحد عن قضاة مختلفين فالحكومة لا تتدخل في حسم الخلاف وتوحيد القضاء.

بقي باب الاجتهاد مفتوحا على هذا النحو حتى تعددت المذاهب فنهض قوم فأغلقوا باب الاجتهاد لمن وكيف؟ في القرن التاسع واكتفوا بالمذاهب الاربعة. اي ان المسلمين يعيشون الآن بمرجب اجتهادات وضعت لاحوال اجتماعية واقتصادية وسياسية مضى عليه اثنا عشر قرنا.

يقول في ذلك بعض العلماء المعاصرين : ان كثيرا من الاجتهادات التي جاء الآتية الاربعة تائرت بالبيئة الاجتماعية والفكرية في عصرهم التي تختلف كثيرا عن بيتتنا. لذلك فان النتائج التي يوصلوا اليها تتباين مع ما يمكننا التوصل اليه لو بحثنا المسألة نفسها اليوم.

لكنه مع مرور الزمن اكتسبت تلك الاجتهادات مصداقية شبه مقدسة في اذهان المسلمين حتى أصبح الكثيرون يعتبرونها جزءا اساسيا من الشريعة فتوقف التطور الذهني والقضائي. وكان رد الفعل على هذا الجمود لقتباس بعض المجتمعات الاسلامية للافكار والمؤسسات الغربية اذ ان كثيرا من الدول ذات الاكثية الاسلامية تطبق قوانين مدنية مستوحاة من مصادر غربية.

في سبيل مقاومة هذا الاتجاه يقول الكاتب محمد اسد، يجب ان نتخل عن اعتمادنا للعقيم على ما اعتبره العلماء السابقون 'قرارا نهائيا' فيما يتعلق بالامور الاجتماعية - السياسية، ويجب ان نبدأ بمعالجة هذه المواضيع مجددا في ضوء دراسة حديثة نقوم بها للنصوص الاساسية. (١٥)

مدرسة الراي ومدرسة الحديث

في العصر الذي نبحثه تركز الاتجاهان 'العقلي' و 'النقلي' بين مدرسة الراي ومدرسة الحديث وكانت المناظرات قائمة بينهما في المساجد وحلقات الدرس والمنازل واقفاء الحج. وفيما يلي شرح مختصر للاتجاهين :

واجه المسلمون في الفتح وبعده مسائل كثيرة تحتاج الى معالجة وتشريع لم يرد في القرآن او الحديث ما يتناولها فدرج كثير من الصحابة على استعمال رأيهم في حل المسائل التي تعرض لهم. وتوسع الخليفة عمر بن الخطاب في استعمال رايه فكان يجتهد في تعرف المصلحة التي لاجلها نزلت الآية او الحديث، ثم يسترشد بتلك المصلحة في احكامه، وهو اقرب شيء الى ما يُعتبر عنه الان بالاسترشاد بروح القانون.

سار الصحابي ابن مسعود في العراق على منوال عمر ابن الخطاب فتأثر اهل العراق بعلمه وقوّجت هذه المدرسة بابي حنيفة واشتهرت بالرأي. من اسباب ذلك ان العراق قطر متدن متأثر بالمدنية الفارسية واليونانية فكان اهلهم يقلّبون المسألة على وجوه متعددة ويتناولون فروعها ويحاولون

استنباط الحلول لكل فرضية ممن لهم.

من اسباب اعتماد الرأي ايضا ان رواية الحديث كانت قليلة في العراق لان اكثر الصحابة كانوا في الحجاز. وقد وضع العراقيون شروطا للتحقق من الحديث لا يسلم منها الا القليل وكانت تساورهم شكوك في صدق رواية الحديث.

قال الامام الشافعي انه لم يثبت عن ابن العباس الا نحو عاية حديث. ولم يثبت عن عمر ابن الخطاب الا نحو خمسين. اما الامام ابو حنيفة فلم يصح عنده الا سبعة عشر حديثا من الستماية الف التي كانت متداولة.

كان يناهض "اهل الرأي" جماعة "اهل الحديث" او "اهل النقل" وفيها من الصحابة العباس والزيير وعبد الله ابن عمر ابن الخطاب وعبد الله ابن عمرو ابن العاص واحمد ابن حنبل. مذهب هؤلاء انهم اذا سئلوا عن شيء فان عرفوا فيه آية او حديثا اقتوا، والا لم يقولوا شيئا. سئل احمد ابن حنبل عن رجل يكون ببلد لا يجد فيه الا صاحب حديث لا يعرف صحيحه من سقيم، وفي البلد اهل رأي، فاذا عرضت للرجل مشكلة فالى من يتجه؟ فاجاب يسأل اصحاب الحديث ولا يسأل اصحاب الرأي لان ضعيف الحديث اقوى من صاحب الرأي.

الى جانب التساهل في قبول الحديث وإن كان ضعيفا، كان من سمات مدرسة الحديث كره اصحابها الشديد للبحث في مسائل فرضية، والتمسك بظاهر الآيات والحديث والابتعاد عن التاويل ما امكن.

كان هذا الموقف سببا غير مباشر لوضع الاحاديث. فما دام بعض الفقهاء يرفضون ان يعطوا رأيا، فقد وضع لهم المنتحلون الاحاديث الكثيرة التي تعالج مختلف المشاكل. ونعرض فيما يلي لمحة عن الائمة الاربعة :

الامام ابو حنيفة (٦٩٩ - ٧٦٧).

هو النعمان ابن ثابت المكنى بأبي حنيفة التيمي وهو فارسي الاصل كان مولى لبني تيم الله. ولد في الكوفة نحو سنة ٦٩٩ في عهد الخليفة عبد الملك ابن مروان (٦٨٥ - ٧٠٥) وتوفي سنة ٧٦٧ في عهد الخليفة ابي جعفر المنصور. عاش نحو خمسين سنة في ظل الدولة الاموية وثمان عشرة سنة في ظل العباسيين

العباسيين وكان كثارها للامويين ومسايرا للعباسيين ومؤيدا لآل البيت. اخذ الفقه من الامام جعفر الصادق من البيت العلوي ودرس في الكوفة. في الفتنة التي قامت بين العلويين والعباسيين كان ناقما على العباسيين لسلطتهم وشدهم. وكان ميله الى محمد بن عبد الله (النفوس الزكية) وإلى اخيه ابراهيم. وقد شك به ابو جعفر المنصور فاستدعاه الى بغداد وكلفه بتولي القضاء لامتحان ميوله فأبى فُسجنه ومات في السجن بعد قليل ودفن في بغداد. اشتهر ابو حنيفة بقدرته التشريعية وعُذَّ امام اهل الرأي وقام تلميذه ابو يوسف ومحمد ابن الحسن الشيباني فدوتا مذهبه.

كان ابو حنيفة يتشدد في قبول الحديث والتحري عنه وعن ناقله حتى يصح، ولا يقبل الخبر الا اذا رواه جماعة من جماعة، او روى واحد من الصحابة الحديث عن الرسول في جمع منهم فلم يخالفه أحد فكان بمثابة الحديث يرويه جماعة. وقد ادعى التشدد في قبول الحديث الى جعل القياس اساسا مهما للتشريع في فقه ابي حنيفة.

وقد انتشر مذهبه في العراق وساعد على ذلك ان تلميذه ابو يوسف تولى القضاء في بغداد لثلاثة من الخلفاء المهدي والهادي وهارون الرشيد الذي جعله قاضي القضاة فسكن مذهب ابي حنيفة ونشره. وابو يوسف هو صاحب كتاب الخراج الشهير الذي نظم شئون الدولة المالية وخصوصا مروض الضرائب على الارض في مختلف البلاد الاسلامية.

من تلاميذ ابي حنيفة الذي ساعد على نشر مذهبه محمد ابن الحسن الشيباني من قرية حرستا قرب دمشق وقد ولَّاه الرشيد قضاء الرقة ودرَّس الفقه في كتب كثيرة اصبحت مرجعا لمن جاء بعده في فقه ابي حنيفة.

الامام مالك ابن انس (٧١٤-٧٩٥)

هو عربي الاصل يُنسب الى قبيلة ذي اصبح اليمنية. عاش حياته في المدينة ودرس على علمائها ولم يفادرها.

كان مالك لا يشترط في قبول الحديث ما اشترطه ابو حنيفة من ان يرويه جماعة عن جماعة، بل يقبل الحديث منقولا عن شخص واحد اذا كان موثوقا صحيح السند. وهذا المبدأ يجعل الاحاديث التي بنى عليها مذهبه اكثر

عددا.

اختار اساسا ثانيا للتشريع هو عمل اهل المدينة باعتبار انهم ادرى بالسنة. و خلاصة رأيه انه اذا اتفق اهل المدينة وعلماءها على مسألة فذلك يشكل حجة تقدم على القياس.

تم قال بضرورة العمل بقول الصحابي ان صححت نسبه اليه وكان من اعلام الصحابة. وكان نتيجة الالتزام بهذين الاصلين : عمل اهل المدينة، وقول الصحابي، فضيقت دائرة الرأي. اشهر مؤلفاته "الموطأ" و "المدونة". وقد تركزت مدرسة المدينة الفقهية في مالك ابن انس، كما تركزت مدرسة الكوفة في ابي حنيفة.

وقد لقي الامام ابن انس من الخليفة المنصور عقابا لانه كان يفتي بمسائل اعتبرها المنصور مساسا بشرعية البيعة للعباسيين فامر به بالكف عنها. ولما لم يمتنع امر بضربه بالسياط ومُدت يده حتى انخلعت كتفه. (١٦)، ولم يؤثر ذلك في مكانته عند الناس.

علل ابن خلدون انتشار المذهب المالكي في المغرب بأن البداوة كانت غالبية في سكان تلك البلاد ولم يكونوا على درجة اهل العراق في الحضارة التي تدفع الى التساؤل واعمال الراي، فكانوا الى بساطة مذهب اهل الحجاز اميل.

الامام محمد ابن ادريس الشافعي (٧٦٧ - ٨٢٠)

هو قرشي النسب يلتقي من جهة الاب مع النبي محمد في عبد مناف. ولد في غزة او عسقلان فلما توفي والده عادت به امه الى مكة وهو ابن سنتين. وقد نشأ فقيرا ودرس على علماء مكة ثم قصد قبيلة هذيل في البادية وكانت افصح العرب واقام بينها ردحا فاكتسب معرفة واسعة باللغة والشعر. بعد ذلك ذهب الى المدينة ولازم الامام مالك الى ان توفي فذهب الشافعي الى اليمن حيث ولاه واليها بعض الاعمال. وقد اتهم بالتشيع لكنه دفع عن نفسه التهمة فعفا عنه هارون الرشيد. وبعد تنقل بين مكة وبغداد ذهب الى مصر وبقي فيها الى ان مات.

يقول في فقهه ان الاصل قرآن وسنة. فان لم يكن فقياس عليهما. وإذا اتصل الحديث عن الرسول وصح الاسناد فهو سنة. والاجماع اكبر من الخبر

المفرد ، والحديث على ظاهره. (١٧٧)

وقف الشافعي في موضوع القياس موقفا وسطا بين مذهب مالك ومذهب أبي حنيفة فلم يتشدد برفضه تشدد مالك ولم يتوسع فيه توسع أبي حنيفة. لم يلقَ مذهب الشافعي رواجاً في العراق لمزاحمة الحنفية له وما لهم من جاه وقوة فتحول إلى مصر. أهم ما بقي من آثار الشافعي مجموعة من سبعة أجزاء، جمعها تلميذه الربيع المرادي، وعلق عليها وسمّاها "كتاب الأم" وهي تتضمن رأي الشافعي في مختلف المسائل الفقهية.

الامام احمد ابن حنبل (٧٨٠ - ٨٥٥)

هو احمد ابن محمد ابن حنبل عربي الاصل من شيبان ولد ونشأ في بغداد وفيها درس القرآن والحديث وطاف في العراق والجزيرة العربية والشام واليمن والكوفة والبصرة في جمع الحديث. وقد لازم الشافعي واخذ عنه، والشافعية يعدونه منهم ولكنه في الواقع استقل عنهم. (١٧٨)

لا يوجد خلاف في اعتبار احمد ابن حنبل من كبار المحدثين، لكن الخلاف يدور حول كونه فقيهاً. فابن جرير الطبري كان يقول انما هو رجل حديث لا رجل فقه. واقتصر ابن عبد البر على ذكر الأئمة الثلاثة أبي حنيفة ومالك والشافعي ولم يعتبر ابن حنبل صاحب مدرسة فقهية. كذلك لم يذكره ابن قتيبة في كتابه "المعارف" بين الفقهاء، وذكره المقدسي في المحدثين لا في الفقهاء. (١٧٩)

وقد بنى احمد بن حنبل فقهه على الحديث. فاذا وجد حديثاً صحيحاً لم يلتفت إلى غيره، واذا وجد فتوى من الصحابة عمل بها، واذا وجد حديثاً ضعيفاً رجحه على القياس، ولا يستعمل القياس الا عند الضرورة القصوى. واذا اضطر إلى التأويل ففي اضييق الحدود، ويكره الامام ابن حنبل الفتوى في مسائل قرضية وهو يُعتبر امام "اهل النقل".

وبالاجمال، فان موقفه في الفقه نقيض الحنفية. فهو ينكر القياس ويرى ان في القرآن والحديث ما يكفي لبيان الاحكام، وهو يتمسك بظاهر الكتاب والسنة. ومن هنا اشتق اسم "الظاهرية". ويرى ان القول بالقياس تشريع عقلي في حين ان الدين الهي ولو كان الدين بالعقل لربما جرت احكام على خلاف ما اتى به

الكتاب والسنة لذلك وجب التقيد بهما بل بظاهريهما. وقد هاجم ابن حنبل القياسيين وخالف المذاهب الاخرى في كثير من المسائل ونتج عن ذلك ان مجال التشريع لدى الحنابلة اضيق من غيرهم لان اكبر مصدر للاجتihad هو القياس وقد افكروه.

تعرض ابن حنبل لمحنة دلت على صلاحته فلما دعا المأمون والمعتصم والواثق الى القول بخلق القرآن واستعمال العقل بشئون الدين عارضهم ابن حنبل ورفض الاحتكام للعقل واصر على القول ان القرآن غير مخلوق فضوب رحبس في خلافة الواثق فلما جاء المتوكل والغي القول بخلق القرآن اخرج عنه فازدادت مكانته بين الناس لموقفه هذا.

لم يضع ابن حنبل كتباً في الفقه على نمط خاص به، وكل ما روي له في الفقه مسائل سئل عنها فافتي فيها. وبعد وفاته اصدر ابنه عبد الله كتاب "السند" الذي يضم نحو ثلاثين الف حديث جمعها والده واعتبرها صحيحة. وهذا العدد يزيد نحو خمسة اضعاف عما قبله مسلم والبخاري في صحيحهما مما يدل على تساهل الامام ابن حنبل في قبول الرواية. ولا بد من الاشارة انه في الاصولية الاسلامية المعاصرة، تحتل تعاليم الامام احمد ابن حنبل اهمية خاصة لان عددا من الحركات الاصولية تعتبر نفسها حنبلية المذهب والاجتهاد. والحنابلة في الوقت الحاضر هم اقل اهل المذاهب السنية عددا.

بعض علماء واتباء العصر العباسي

بالاضافة الى من ذكرناهم من الشعراء والادباء والفقهاء والمتكلمين والاطباء والصوفيين نستكمل بحثنا عن المجتمع الاسلامي في العهد العباسي بذكر طائفة من الاعلام في مختلف هذه العلوم ظهوروا في المشرق وفي اسبانيا واغنوا الثقافة والحضارة الاسلامية ونقل الاوربيون بعضا من مؤلفاتهم في القرون الوسطى واستفادوا منها في بناء حضارتهم. سنذكرهم مع اعمالهم باقتضاب وغرضنا ابراز معالم الحضارة الاسلامية وتعميق القاريء بهم فمن اراد الاستزادة فليجمل مراجعة مؤلفاتهم او الكتب الاختصاصية.

جابر ابن حيان (٧٢١ - ٨١٥)

ولد في مدينة طوس (إيران) وتوفي في الكوفة ويُعتبر أبير الكيمياء العربية. وكانت الكيمياء في ذلك الوقت، وفي القرون التالية، تصرف أكثر اهتمامها لتحويل المعادن المذولة إلى ذهب. واستنبط الكيميائيون أيضا علاجات للأمراض من النباتات ومن مواد غير عضوية.

اشترك والد جابر بثورة عباسية ضد الأمويين فأعدموه فانتقل جابر إلى الجزيرة العربية حيث تشيخ ودرس العلوم ومنها الطب. بعدما انتصر العباسيون أصبح جابر طبيب القصر في عهد هارون الرشيد. وكان صديقا مقربا للإمام السادس جعفر الصادق ونسب إليه معظم أفكاره العلمية. ينسب إلى جابر عدد كبير من المؤلفات منها أبحاث كثيرة في الكيمياء والتصوف ألفها الاساميون ونسبوها إليه. وقد ذاعت شهرته في مصور متأخرة بين المشتغلين بعلم الكيمياء في البلاد الإسلامية والأوروبية.

بعد جابر بن حيان فتابع اخبار الكيميائيين المسلمين مع أبي بكر الرازي الذي يجب تمييزه عن فخر الدين الرازي الذي سيأتي ذكره.

الرازي، أبو بكر محمد ابن زكريا (٨٦٥ - ٩٢٢)

هو فارسي ولد وتوفي في مدينة الري في إيران. درس الكيمياء والطب والفلسفة ويُعتبر قمة الكيميائيين المسلمين، واشتهر أيضا بالطب. عمل طبيبا في مستشفى الري ثم في مستشفى بغداد وعاش كأكثر علماء عصره في كنف الولاة والحكام. أهم مؤلفاته "كتاب المنصوري" في الطب الذي ألفه لحاكم الري منصور ابن اسحق والذي تُرجم إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر، وكتاب "الحاوي" في الطب استعرض فيه الطب اليوناني والسوري القديم وشيئا من طب الهند وعلق عليه حسب اختباره الشخصية. وكتب بحثا في التجديري والحصبة وكان أول من ميز بين المرضين ووصف أعراضهما.

من أهم ما قدمه الكيميائيون المسلمون أدوية مستخرجة من النباتات ومن مواد غير عضوية لمعالجة الأمراض المختلفة. وقد نقل المعلومات عن هذه الأدوية إلى أوروبا مسطنطين الأفريقي الذي كان مسلما تعلم في بغداد وتوفي راعيا مسيحيا في بلدة موتشي كاستينو في إيطاليا سنة ١٠٨٧. كذلك عُرفت هذه

الادوية في اسبانيا في القرن الحادي عشر وترجمت كتبها الى اللاتينية في القرن الثاني عشر.

الواقدي، ابو عبدالله محمد ابن عمر (٧٤٧ - ٨٢٢)
ولد في المدينة وتوفي في بغداد. كان عالما بتاريخ مكة والمدينة وألف كتاب "المغازي" في غزوات النبي محمد. ثم انتقل الى بغداد حيث عينه وزير هارون الرشيد يحيى بن خالد البرمكي قاضيا في بغداد. وكان مقربا من الخليفة المأمون.

ألف الواقدي كتابا كثيرة منها تاريخ مكة والمدينة كما بحث في القرآن والفقه والحديث لكن لم يبق منها الا كتاب "المغازي".

الاصمعي، ابو سعيد عبد الملك ابن قريب (٧٤٠ - ٨٢٨)
ولد وتوفي في البصرة كان أحد الثلاثة اللغويين في البصرة. التحق ببلاط هارون الرشيد الذي عينه مرييا لابنه. اشتهر بتدوينه وعيشته البسيطة وحظي برعاية البرامكة. كتب "الاصمعيات" جمع فيها افضل مختارات من الادب العربي.

ابن سعد، ابو عبد الله ابن مانع الزهري توفي ٨٢٥
عاش في بغداد وهو كاتب الواقدي ألف كتاب "الطبقات الكبير" روى فيه حياة النبي محمد والصحابة الى زمنه؛

الخوارزمي، محمد ابن موسى (٧٨٠ - ٨٥٠)
هو رياضي وفلكي اسلامي عاش في بغداد في عصر الخليفة المأمون والمعتمد. وضع كتاب "الجبر والمقابلة" الذي تُرجم الى اللاتينية في القرن الثاني عشر ومنه اشتقت كلمة الجبر المستعملة في اللغات اللاتينية. ويعزى اليه ايضا استعمال الارقام الهندية - العربية التي استعملها الاوروبيون فيما بعد. وضع الخوارزمي ايضا لوائح وحسابات فلكية مستمدة من السنسكريتية الهندية ومتأثرة بالعلوم اليونانية.

الجاحظ، ابو عثمان ابن محبوب (٧٧٦ - ٨٦٨)

لقب بالجاحظ لبروز عينيه. يقال انه من اصل حبشي متواضع من البصرة لكن ذكاهه وفطنته فتحت له ابواب الندوات العلمية والمجتمع. انتقل الى بغداد في عهد المأمون لكنه لم يتسلم مركزا في البلاط بل عاش على عطايات كبار القوم الذين كان يتوَجَّح كتبه باهدائها لهم ولما انتقل مركز الدولة الى سامراء سافر الجاحظ اليها لكنه عاد الى البصرة قبل وفاته.

ضاعت مؤلفاته في الفقه والسياسة ولا يُعرف عنها الا المقتطفات التي تضمنتها مؤلفات كتاب آخرين. لكن مؤلفاته النثرية الرائعة حُفظت. من اهمها "كتاب الحيوان" الذي يضم بحوثا فقهية واجتماعية ولغوية. وكتاب "البيان والتبيين" الذي يبحث في لغة الاديب. وكتاب "البخلاء" ويضم نوادر عن اخبارهم. وهكذا قدم الجاحظ لجيله درسا كاملا فيما يمكن تسميته "العلوم الانسانية". اُند الجاحظ حركة المعتزلة وكان منهم. ولما عارضها المتوكل وتركز نفوذ القواد الاثراك، بقي الجاحظ مرضيا عنه اذ ألف كتاب "مناقب الترك" ركّز فيه على الصفات العسكرية للجنود الاثراك وقوادهم.

اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب ث (٨٩٧

هو فارسي شيعي عاش مدة طويلة في ارمينيا وخراسان برعاية الحكام الطاهريين وسافر الى الهند والمغرب وتوفي في مصر. ألف في التاريخ والجغرافيا وكتب "تاريخ العالم" وكتاب "البلدان" في الجغرافيا.

المبرّد، ابو العباس محمد ابن يزيد (٨٢٦ - ٨٩٨)

ولد في البصرة وتوفي في بغداد. درس علم النحو في البصرة ودهاه الخليفة المتوكل الى بلاطه عام ٨٦٠، ولما قُتل المتوكل في العام الثاني بقي المبرّد يعلم في بغداد وألف كتاب "الكامل" الذي يتضمن مقاطع من الاشعار والامثال والحديث والتاريخ اخضعها المبرّد لتدقيق نحوي وأدبي.

ابن عبد ربه، ابو عمر احمد بن محمد (٨٦٠ - ٩٤٠)

هو شاعر عربي ولد وعاش في قرطبة وعاصر ابن قتيبة في بغداد. وضع

كتاب "العقد الفريد" الذي ماثل فيه كتاب "معيون الاخبار" لابن قتيبة وجمع فيه اخباراً ونوادر، وبشكل الكتاب وصفاً للأحوال الاجتماعية في عصره.

الفارابي، محمد ابن طرخان ابو نصر (٨٧٧ - ٩٥٠)
يُسمّى ايضاً ابو النصر الفارابي. هو تركي ولد في "ما وراء النهر" في آسيا الوسطى شمال نهر جيحون (مو داريا) ودرس في خراسان وبغداد حيث عاش مدة طويلة ثم انتقل الى بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب وتوفي في دمشق.

ألف في الفلسفة وفي الرياضيات ويُعزى اليه اختراع الآلة الموسيقية المسماة "قانون" ويعتبره المسلمون من اشهر فلاسفتهم. وقد تُرجمت بعض كتبه الى اللاتينية ومن اهمها "آراء اهل المدينة الفاضلة".

ابن مقلة، ابو علي محمد ابن علي (٨٨٦ - ٩٤٠)
ولد وتوفي في بغداد. عاصر الخليفة المقتدر والقاهر وكانت احوال الدولة مضطربة والقواد الاتراك ينصبون الخليفة ويعزلونه حين يشاؤون. هو اشهر الخطاطين في عصره. يُنسب اليه اختراع الخط النسخي وخط الثلث بخطوطها المدورة التي حلّت محل الخط الكوفي المقرّن وأعطت الخط العربي جماله حتى صار يستعمل في التزيين.
بالاضافة الى براعته كخطاط شارك ابن مقلة بالحياة السياسية فعُيّن وزيراً ثلاث مرات وكان يُعزل بانتقال السلطة بين القواد الاتراك المتنافسين. وفي المرة الثالثة سُجن ومات في السجن.

ابن البواب، ت. ١٠٢٢ ويُسمى ايضاً ابن السري
بعد نحو اربعين سنة على وفاة ابن مقلة ظهر خطاط اخر تابع عمل ابن مقلة وادخل تحسينات على خطوطه وابتكر خط "الريحاني" "والمحقق" وكان تلميذاً لمحمد ابن اسد ومحمد ابن سمساني وكلاهما من تلاميذ ابن مقلة. وبفضله وفضل من لحقه من الخطاطين اصبحت الخطوط العربية فنا تزيينياً.

الاصفهانى، أبو الفرج علي ابن الحسن (٨٩٧ - ٩٦٧)

ولد في اصفهان وتوفي في بغداد. هو سليل الخليفة الاموي مروان الثاني وكان شيعياً، قضى معظم حياته في بغداد وحظي برعاية آل بويه الشيعة. ألف كتاب "الافغانى" الذي يشكل دائرة معارف اجتماعية عن العصر العباسي وخاصة عن حياة الخلفاء والامراء وكبار القوم والشعراء والموسيقيين. كتب ايضاً كتاباً بعنوان "مقاتل الطالبين واخبارهم" عن شهداء الشيعة.

المسمودي، ابو الحسن علي ابن الحسين (٩٦٧

ولد المسمودي في بغداد وتوفي في الفسطاط، جال في سوريا ويران وارمينيا وشواطئ بحر الخزر ووادي السند وسيلان وغان والشاطيء الشرقي لافريقيا وزنجبار. كان اول مسلم جمع بين التاريخ والجغرافيا العلمية في كتابه "مروج الذهب ومعادن الجواهر". يصفه ابن خلدون بأنه إمام المؤرخين.

المتنبي، ابو الطيب احمد ابن الحسين الجعفي (٩١٥ - ٩٦٥) (١٤٢)

ولد المتنبي في الكوفة وكان والده يحصل الماء الى البيوت. وانسحب الى قبيلة عروية يمنية. وقد اهلته موهبته الشعرية للشحاق بندوقات العلم. وعندما استولى القرامطة على الكوفة ونهبوها سنة ٩٢٤ التحق بهم ابو الطيب واخذ عنهم معتقداتهم وعاش بين البدر فاتن العربية واطلع على مفرداتها وفصاحتها حتى اصبح لا يسأل عن شيء الا استشهد له بكلام العرب من النظم والنثر. اثناء وجوده مع القرامطة ادعى النبوة فسمي المتنبي وقاد ثورة قرامطية في سوريا لكنها فشلت فقبض عليه وسجن سنتين ثم انكر معتقده القرامطية فافرج عنه وصار شاعراً متجولاً يطلب الرزق ممن يمدحه.

عاصر الخليفة العباسي المقتدر ومن بعده من الخلفاء الذين رفعوا تحت سيطرة آل بويه وهم القاهر والمتقي والمستكفي والطيع. ربما ان الخلافة كانت فقدت قوتها فقد انصرف المتنبي لمدح اسراء المقاطعات التي كانت تستع باستقلال فعلي ضمن الخلافة العباسية. التحق اولاً بالامير سيف الدولة ابن حمدان في حلب سنة ٩٤٨ فمدحه بقصائد خالدة فاجزل له العطاء واجرى عليه ثلاثة الاف دينار كل عام عدا الخلع والهدايا.

وكان لسيف الدولة مجلس يحضره العلماء والادباء كل ليلة فوقع جدال بين المتنبي وابن عم سيف الدولة ابي فراس الحمداني وهو ايضا شاعر كان يحسد المتنبي على مكانته فكتب على المتنبي وضربه فلم يدافع سيف الدولة عن ابي الطيب. وفي رواية اخرى ان المشادة وقعت بين المتنبي وابن خالويه. فخرج المتنبي غاضبا وغادر حلب الى دمشق سنة ٩٥٧.

بعد مدة. قصد مصر ومدح ابا المسك كافور وهو عبد اسود كان يحكم باسم الاخشيديين. وكان المتنبي. طامعا ان يوليه احدى مقاطعات مصر. فلما لم يحصل على رغبته غادره سنة ٩٦٠ وهجاه. وذهب الى بغداد ثم الى شيراز حيث اقام خمس سنوات ومدح عضد الدولة بن بويه فاجزل عطاءه. ثم انصرف راجعا الى بغداد في شهر فبراير (شباط) ٩٦٥.

وكان المتنبي قد هجا ضبة بن يزيد العميني وكانت والدته ضبة شقيقة فائق ابن ابي جهل الاسدي فاقسم هذا ان ينتقم من المتنبي. فلما علم فائق بعودة المتنبي قاصدا بغداد حرص له في الطريق. ولم يلتفت المتنبي الى من حذروه من غدر فائق. فلما التقى به قتالوا فقتل المتنبي مع ولده مُحَسَّد وفلقه مغليح بالقرب من بغداد.

كان المتنبي فخورا ومعتزا بنفسه وقد طبع ذلك شعره الذي اختلف عن اشعار طبقة ابي تواس التي ذكرناها واسس ما يمكن ان يوصف بأنه الشعر الكلاسيكي الجديد الذي اقتدى به الشعراء اللاحقون وبقي يُدرّس في المدارس الى هذا اليوم.

ابن هاني (ت ٩٧٢)

تطورت الاداب العربية في اسبانيا والمغرب بالتوازي مع تطورها في البلاد الشرقية لكنها تاخرت بالوصول الى زهوتها بعض الوقت. كانت قرطبة عاصمة الامويين مركز اشعاع تلك الثقافة وكان الاسلوب الشعري البدوي في المغرب نادرا وتغلب عليه الشعر الوصفى والغزلي.

أعتبر ابن هاني في الاندلس تداً للمتنبي في المشرق في مدائحه للخليفة القاطمي المعز الذي كان لا يزال في شمال افريقيا. كما اعتبر اسلوب النثر لابن عبد ربّه في "العقد الفريد" (ت ٩٤٠) مماثلا لادب ابن قتيبة وحظي بشهرة

أكبر.

الهمذاني، بديع الزمان أبو الفضل أحمد ابن الحسين (١٠٠٨ - ١٠٦٦)
ولد في همدان (إيران) وتوفي في هرات (أفغانستان حاليا) أيام الحكم
الغزنوي. عاصر الخليفة الطامع في عهد آل بويه وهو معاصر أيضا للشاعر
الفارسي الفردوسي. تجول في أنحاء ما يعرف الآن باسم إيران وأفغانستان
واستقر أخيرا في مدينة هرات. يُعتبر بديع الزمان أول من أدخل فن "المقامة"
في الأدب العربي وهو أسلوب قصصي من النثر المسجع والشعر يصف فيه كاتبه
قصصا طريفة ومسلية تدور بين شخصين وهميين هما عيسى بن هشام وأبي
الفتح الاسكندري يُظهر فيها الكاتب ظرفة وقدرته اللغوية والفنية. وقد وضع
بديع الزمان نحو اربعماية مقامة وصلنا منها نحو اثنين وخمسين.

الحريري، أبو محمد القاسم ابن علي (١٠٢٥ - ١١٢٢)
بعد نحو نصف قرن على وفاة بديع الزمان الهمذاني، تابع الحريري فن
"المقامة". ولد وتوفي في البصرة في عهد آل سلجوق. وكان "رئيس الاستخبارات"
في المدينة. نسج قصصه حول شخصيتين هما الحارث بن هشام وأبي زيد
الساورجي اظهر فيها مقدرته الفنية واللغوية ولم ينكر انه يسير على منهج بديع
الزمان الهمذاني. في عهده صار السجع من لوازم الكتابة الادبية الرشيدة.

أبو القاسم، خلف ابن عباس الزهراوي (١٠١٢ - ١٠٦٦)
ولد أبو القاسم قريب قرطبة ويُعتبر اعظم الجراحين المسلمين في عصره.
الف كتابه "التصريف لمن عجز عن التأليف" شرح فيه بالرسوم الاساليب
الجراحية التي استعملها وكان أول من فعل ذلك. تضمن كتابه أيضا رسوما
لمنتهي آلة تستعمل في الجراحة. فكان أول من وضع كتابا مستقلا في العلم
الطبي الجراحي كما كان أول من شخّص مرض الهيموفيليا.
كان طبيب الخليفة عبد الرحمن الثالث. ومع ان اطباء المشرق لم يلتفتوا
كثيرا الى كتابه، فقد كان له اثر عظيم في أوروبا إذ تُرجم الى اللاتينية في القرن
الثاني عشر وبقي لمدة خمسمائة سنة كتاب التدريس لعلم الجراحة في أوروبا

حتى فضّلوه على كتاب غالينوس اليوناني.

الفردوسي، أبو القاسم منصور (٩٢٥ - ١٠٢٠)

ولد الفردوسي في طوس ومات فيها بعد تجواله، وهو اعظم شعراء
الفرس في عصره. كان شيعيا وألف "كتاب الملوك" "شاه نامه" شعرا من ستين
الف بيت بناها على تاريخ متشور كان معروفا في طوس وترجم من اللغة الفهلوية
يتحدث عن الملوك الفرس من الايام الاسطورية ومن نشوء النبي زرادشت الى
الشاه خسرو الثاني (٥٩٠ - ٦٢٨) لكن الفردوسي اُضاف اليها ابياتا اوصلتها الى
نهاية حكم الساسانيين والفتح العربي.

كان الفردوسي دهقاناً اي ملاكاً زراعياً وكانت له بنت واحدة اراد ان
يضمن لها مهراً فعمد الى كتابة الشاه نامه. لما انجزها سنة ١١١٠ حملها الى
السلطان محمود الغزنوي الذي كان استولى على بلده خراسان واهداها اليه.
لكن بطانة السلطان من السنة ركزوا على تشيع الفردوسي وهم يعرفون كره
السلطان للشيعة. بعد تردد منحه السلطان عشرين الف درهم فقط فغضب
الفردوسي ووزعها على خدمه. ثم خاف غضب السلطان فهرب الى هرات ثم الى
مرندران التي كانت تحت حكم عائلة تنسب الى الساسانيين فاضاف الى الشاه
نامه مائة بيت تهجو السلطان الغزنوي واهداها الى شهريار امير مرندران فاجازهم
بالف درهم على كل بيت.

ابن مسكويه، ابو علي احمد ابن محمد ابن يعقوب (٩٢٠ - ١٠٢٠)

هو عالم وفيلسوف ومؤرخ يُعتقد انه انتقل من الزرادشتية الى الاسلام ولا
يُعرف كثير عن حياته الشخصية. ألف في الكيمياء التي كانت تعني في ذلك
العصر محاولة تحويل المعادن الى الذهب، كما كان شاعراً. لكن اهم اعماله
تناولت الاخلاق والتاريخ فكتابه "تهذيب الاخلاق" المتاثر بفلسفة ارسطو يُعتبر
من افضل ما وضع في الفلسفة الاسلامية.

اهتم مسكويه بالتاريخ فتخلّى من سرد الاساطير وعبر عن اقتناعه بان
تاريخ الشعوب يقدم دروساً اخلاقية. اهم مؤلفاته كتاب "تجارب الامم وتعقب
الهمم" اعتمد فيه على المراجع المتاحة له ونشط الابحاث التاريخية لمن جاء بعده.

كان مسكويه منحازا في أبحاثه لوطنيته الفارسية.

ابن سينا، أبو علي الحسين ابن عهد الله (٩٨٠ - ١٠٣٧)

هو فيلسوف وطبيب فارسي ولد في قرية قرب بخارى في تركستان وتوفي في همدان. انتسب والده إلى فرقة الاسماعيلية لكن ابن سينا لم يذهب مذهبه. عاش ابن سينا في نهاية عهد آل بويه وفي بداية عهد آل سلجوق وكان قد أصبح طبيبا يارعا في سن الثماني عشرة.

بعد انهيار الدولة السامانية سنة ٩٩٩ غادر ابن سينا بخارى إلى همدان حيث صار وزيرا لحاكمها سنة ١٠٢٠. ومضى آخر عقدين من حياته في بلاط ملأ الدولة السلجوقي حاكم أصفهان.

أهم كتبه الفلسفية كتاب 'الشفاء' أي شفاء الروح من الخطأ واختصره في كتاب سماه 'النجاة' وفي الكتابين يعالج ابن سينا الفلسفة وعلم النفس والمنطق وما وراء الطبيعة والعلوم الطبيعية وقد ترجمت كلها إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر. ثم أصدر كتاب 'أشارات وتنبيهات' وصلنا كاملا وهو يشمل الفلسفة بكاملها.

أهم كتبه الطبية 'القانون في الطب' يستند فيه على ما جاء في كتب اليونان إلى العهد الإمبراطوري الروماني. وعلى الكتب العربية التي سبقته وعلى اختباراته الخاصة. وقد انتهى جميع كتبه في أصفهان. وقد حظي كتاب 'القانون في الطب' باهتمام عام في العالم الإسلامي وبقي يُدرس في جامعات أوروبا لمدة قرون بعدما تُرجم عدة مرات إلى اللاتينية.

المعري، أبو العلاء أحمد ابن عبد الله (٩٧٢ - ١٠٥٧)

ولد المعري في بلدة معرة النعمان قرب حلب وتوفي فيها. ينتسب المعري إلى قبيلة تنوخ العربية التي استقرت في شمال سوريا. وقد أصابه مرض الجذري في حداقته فافقده بصره. درس في حلب وأنطاكية وطرابلس وكان يتمتع بدخل شخصي بسيط ساعده على معيشته.

جمع أشعاره الأولى في ديوان سماه 'سقط الزند' لقي رواجاً حسناً. ثم سافر إلى بغداد في آخر عهد آل بويه حيث شارك في الندوات الأدبية ومضى

سنتين لكنه لم يجد شخصا يوعاه لانه رفض ان ينصرف الى المديح. بعدها عاد الى المعرة وتخلّى من طلب الثروة وعاش حياة زهد في منزل منعزل فقصده عدد من التلاميذ درسوا عليه.

في هذه الفترة من حياته جمع اشعاره في ديوان سماه "كزوم ما لا يلزم" او "اللزوميات" لانه تقيّد فيها بقواعد ليست مطلوبة في الشعر العادي. ظهرت في اشعاره نزعة التشكيك والتشاؤم التي تابعتها في "رسالة الغفران" يصف فيها زيارة الشاعر للفردوس حيث لاقى اسلافه من الشعراء الوثنيين الذين وجدوا الغفران عند الله رغم وثنيّتهم. وقد اشارت رسالة الغفران بعض الانتقاد في الاساطير الديتية.

ثم كتب "الفصول والغايات" بنشر مسجّع قال عنه منتقدوه بانه تقليد للقرآن. وبلغ من تشاؤم المعري انه استحسن عدم انجاب الاولاد حتى يوفر عليهم مشقات الحياة ومتاعبها.

الماوردي، ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (٩٧٤ - ١٠٥٨) ولد الماوردي في البصرة وتوفي في بغداد عن عمر ناهز ٨٦ سنة. كان من وجوه فقهاء الشافعيين واسما في الفقه والاصول والتفسير. تولى القضاء في بلاد كثيرة وكان رئيس القضاة في ناحية نيسابور ولقبوه "قاضي القضاة". امتاز بالبرونة والاجتهاد ومن اقواله "اجتهد ولا اقلّد".

عاش الماوردي في عهد آل بويه وكان متّصلا بالحياة السياسية وعاصر الخلفاء الطائعين والقادر والغانم وكان الخليفة يرسله احيانا للتوسط مع السلطان البويهبي.

من اهم مؤلفاته كتاب "الحاوي الكبير" في فقه الشافعية، وكتاب "ادب الوزير" واهمها كتاب "الاحكام السلطانية" الذي يبحث في عقد الامامة وتقليد الوزارة والامارة والقضاء وقد برز الماوردي فيه تسلط السلاطين واغتصابهم.

ابن زيدون (١٠٧١ - ١١٤٤)

ولد الشاعر ابن زيدون في قرطبة من اسرة نبيلة وبرز بنظم الموشحات وهي نوع من الشعر مؤلفة من مقاطع، كل مقطع يحتوي على اربعة الى ستة

لهيات خفيفة وشيقة وموضوعها غالبا الدنل. نظم ابن زيدون كثيرا من هذه الموشحات الفزلية بالاميرة الاموية ولادة واشتهرت موشحاته وانتشرت.

ابن حزم، ابو محمد علي بن احمد ابن سعيد (٩٩٤ - ١٠٦٤)
ولد في قرطبة وشاهد تفكك الخلافة الاموية في الاندلس (١٠٢١) وقيام عدد من الدولات عُرفت باسم 'ملوك الطوائف'. تولى الوزارة كوالده وبقي مواليا للامويين الى ان زالوا فشجن ولما افرج عنه استقر في اراضي عائلته قرب اشبيلية وانصرف للكتابة والتأليف.

كان ابن حزم يتبع المذهب الشافعي لكنه انضم الى اراء الظاهريين الذين لا يقبلون الا المعنى الظاهري لايات القرآن والحديث ويرفضون القياس والاجتهاد الشخصي كما يرفضون اللجوء الى سلطة الامام الروحية (الكاشمية). من اهم كتبه 'الفصل في الملل والاهواء والنحل' وفيه هاجم الاشعرية، وكتاب 'طوق الحمامة' عن فنون الحب .

عمر الخيام (١٠٤٨ - ١١٢٢)

ولد عمر الخيام في نيسابور (إيران) وتوفي فيها.
هو رياضي وفلكي وشاعر فارسي عُرف في زمنه باعماله العلمية، لكنه اشتهر في الخارج وخصوصا في البلاد الغربية بقصائده (الرباعيات) التي ترجمها الى الانكليزية ادوارد فيتزجيرالد سنة ١٨٥٩ فانتشرت واستساغها الناس كما ترجمها الى العربية عدد من الشعراء واكثرها في الخمريات والفزل.
عاش عمر الخيام في نيسابور وبلخ وسمرقند. وقد دعاه السلطان السلجوقي مالك شاه لتصحيح الروزنامة المستعملة في ذلك الزمن حسب قياساته الفلكية.

كان الخيام مشككا بالعقائد الدينية وبالبعث، وبالحياة بعد الموت، كما كان يزهري اليقين الديني، ويتلقه ما يراه من جهل الناس وضعفهم، ولعل كثيرا من ذلك قبيح في رباعياته.

ابو حميد الغزالي (١٠٥٨ - ١١١١) ذكرنا سيرته في باب 'الصولية'.

ابن باجة، أبو بكر محمد الأندلسي السرقسطي (١٠٩٥ - ١١٢٨)
ولد في سرقسطة (إسبانيا) وتوفي في فاس، هو أول من مثل في إسبانيا
الفلسفة العربية المتأثرة بالتماليم الأرسطوطالية والأفلاطونية الجديدة فهدى الطريق
لأبن طفيل وابن رشد.

تضمنت أفكاره احتمال اتحاد النفس البشرية مع الذات الإلهية كالمرحلة
النهائية في تطور العقل المتصاعد حتى الوصول إلى 'الفكر الفعال' المنبثق من
العزة الإلهية. أهم مؤلفاته كتاب 'تدبير المتوحد'. وكتب أشعاراً وأغنيات وبحثاً
في علم النبات، ودرس علم الفلك والطب والرياضيات، وقد اعتبره كثير من
المؤلفين المسلمين ملجأ.

ابن زهر، أبو مروان عبد الملك بن أبي العلا (١٠٩٠ - ١١٦٢)
ولد وتوفي في أشبيلية. هو من أقدّر المفكرين الإسلاميين وأعظم من مارس
الأساليب العملية في المعالجة الطبية ووصفها في كتابه 'التيسير في المداواة
والتدبير' الذي تُرجم إلى العبرية واللاتينية وكان له نفوذ عظيم على تعاطي
الطب في أوروبا، تتلمذ عليه الفيلسوف والطبيب الشهير ابن رشد. شرح
المعالجة الجراحية لانتبؤ التنفس، وجراحة العين لإزالة الفشاوة، واستخراج
البحص من الكلية، ومعالجة اتساع أو ضيق بؤبؤ العين، ونصح باستعمال نبات
مخدر لمعالجة أمراض العين، ووصف تضخم الغلاف الذي يحيط بالقلب.

ابن طفيل، أبو بكر محمد ابن عبد الملك (ت ١١٨٥)
وُلد ابن طفيل في مدينة قادس (إسبانيا) في العقد الأول من القرن الثاني
عشر وتوفي في مراكش. التحق بخدمة أبي يعقوب يوسف سلطان الموحدين
(١١٦٢ - ١١٨٤) وصار مستشاره وطبيب بلاطه.
كتب عدة مؤلفات طبية بالعربية لكن شهرته ذاعت بفضل رسالته 'حي
أبن يقظان' وهي عبارة عن قصة فلسفية يصف فيها حياة رجل امضى
الخمسين سنة الأولى من حياته وحيداً في جزيرة غير مأهولة. واستطاع مع ذلك
أن يتقن نفسه ويكتسب المعلومات الفلسفية بالتأمل الروحاني بحيث توصل في
النهاية إلى الاتحاد الدائم بالله.

كان ابن طغريل يعتقد ان التأمل الروحاني يتفوق على الفلسفة في استجلاء الحقيقة، وهو الذي قدم صديقه الأصغر سناً ابن رشد الى سلطان الموحدين.

ابن رشد، ابو الوليد محمد ابن احمد (١١٢٦ - ١١٩٨)
وُلد ابن رشد في قرطبة وتوفي في مراكش وعاصر عهد الموحدين. في سنة ١١٦٩ قدمه ابن طغريل الى الموحدين فتشبع برعايتهم وعُيّن قاضي القضاة في العاصمة قرطبة سنة ١١٧١ حيث قضى بموجب المذهب المالكي. يُعتبر ابن رشد اهم كتاب الفلسفة العربية في اسبانيا فقد وفق بين الفقه الاسلامي والفلسفة اليونانية وأصدر ما بين ١١٦٢ - ١١٦٥ سلسلة من الالهامات والتعليقات على معظم مؤلفات ارسطو وعلى "جمهورية افلاطون". كتب ابن رشد ايضا في علم الفلك والطب والشرعية فعينه ابو يعقوب يوسف سنة ١١٨٢ رئيس اطبائه. وكانت اشهر مؤلفاته الطبية كتاب "الكليات" الذي ترجم الى اللاتينية سنة ١٢٥٥.

دافع ابن رشد كالفارابي، عن اولوية العقل على ما عداه، ودخل في نقاش مع الغزالي الذي هاجم الفلاسفة في كتابه "تهافت الفلاسفة" ورد عليه بكتابه "تهافت التهافت" الذي ترجم الى اللاتينية عام ١٢٢٨ وإلى اللغة العبرية.

ابن الجوزي، عبد الرحمن (١١٢٦ - ١٢٠٢)
وُلد وتوفي في بغداد في نهاية عهد آل سلجوق. كان فقيهاً وعالماً دينياً ومؤرخاً وواعظاً ومعلماً احتل مركزاً مرموقاً في دوائر الحكم العباسي. وكان حنبلياً ايد سياسة الدولة الدينية التقليدية بعظائه وقلمه فكانت الخلفاء وعينوه سنة ١١٧٨ رئيساً لخمسة مدارس دينية والمتكلم الرئيسي باسم الحنابلة. ما بين ١١٧٠ - ١١٨٠ في عهد الخليفة المستضيء اوكل اليه محاربة الزندقة والتفتيش عن الذين يحيدون عن التعاليم الشرعية. فنظم حملات اضطهاد ضد الذين اعتبرهم قد حادوا عن الاسلام واضطهد على الخصوص الصوفيين والشيعة مما استنكره الفقهاء المتحررون. وقد حاز ابن الجوزي هذا النفوذ بسبب حسن علاقاته مع الخلفاء المتعاقبين ووزرائهم لكن اعتقال الوزير

ابن يونس سنة ١١٩٤ أيام الخليفة الناصر الذي قضى على السلاجقة، حرره من حماية صديقه وحاميه فقبض عليه ونُفي الى واسط.
وضع بعض المؤلفات التي تعكس انتسابه الى المذهب الحنبلي منها كتابه "صفات الصفوة" الذي يؤكد فيه ان الذين يؤمنون بالروحانية الحقيقية هم الذين يجمعون حياتهم صورة لحياة الصحابة.

فخر الدين الرازي (١١٤٩ - ١٢٠٩)

وُلد في مدينة الري في إيران وتوفي في مدينة هرات في أفغانستان حالياً. ويجب التفريق بينه وبين أبي بكر الرازي الذي عاش في القرن التاسع واشتهر بالطب والكيمياء.

يُعتبر فخر الدين الرازي من أشهر فقهاء وعلماء عصره. ألف نحو مائة كتاب جلبت له الشهرة والثروة. تجول في منطقة تشمل حالياً شمال غرب إيران وتركستان (في الاتحاد السوفياتي) واستقر أخيراً في مدينة هرات (أفغانستان).
كان الرازي معتدلاً في موقفه النقهي حاول ان يوفق بين الفقه والفلسفة وعُتبر عن ذلك في كتابه "المباحث الشرقية". لكن أهم ما اشتهر به الرازي كتابه في تفسير القرآن "مفاتيح الغيب" أو كتاب التفسير الكبير. كما كتب "محصول افكار المتقدمين والمتأخرين" في علم الكلام.

عاش الرازي في أواخر العهد العباسي والخلافة في دور الانحلال السريع وقد استقل حكام المقاطعات وتكاثر الفرق الدينية وازدهرت الطرق الصوفية ولم يطل الوقت حتى احتل المغول بغداد وانهاوا الخلافة العباسية.

أبن الأثير أبو الحسن علي عز الدين (١١٦٠ - ١٢٢٢)

وُلد في جزيرة ابن عمرو (شمال شرق سوريا) وتوفي في الموصل. درس في الموصل ورافق جيش صلاح الدين ثم عاش في حلب ودمشق مدة من الزمن تحت حكم الأتابك الذين حكموا نيابة عن السلطان السلجوقي وتوفي قبل خمس وعشرين سنة من الغزو المغولي لبغداد الذي أنهى الخلافة العباسية.

أهم أعماله كتاب "الكامل في التاريخ" وهو من أهم مصادر التاريخ

الاسلامي يبدأ بالخلقة وينتهي بوفاته. كتب ايضا في تاريخ الاتراك وهم وكلاء
في خدمة السلجوقيين اسسوا لنفسهم امارات مستقلة.

مع ابن الاثير وكتابه التاريخي نهي استعراضنا للاوضاع الفكرية
والاجتماعية والفقهية والادبية والعلمية التي ميزت هذه الخلافة التي دامت نظريا
نحو خمسمائة عام واشتهرت في دورها الاول بحضارة زاهرة مشرقة في تاريخ
العالم حاولنا ان نبين ملامحها من خلال وصف مقتضب لنحو تسعين عالم
وشاعر واديب وطبيب وفقه وفلكي وفيلسوف زخرت بهم دنيا المسلمين خلال
تلك القرون. وقد اضعنا الى الاعلام المشرقيين سيرة بعض معاصريهم الاندلسيين
لان الحضارة الاسلامية كانت واحدة وان فرقت النزاعات السياسية بين دولها.

ولا ندعي ان عرضنا كان شاملا ووافيا لكننا حاولنا جهدنا ان نعطي
صورة لمختلف نواحي تلك الحضارة وما على الراغب بالاستزادة الا الرجوع الى
الاصول. ونعتبر ان غرضنا من هذا العرض قد تحقق اذا تكون لدى القارئ
صورة عن الحياة الاجتماعية والثقافية تسامده على فهم النظام السياسي الاسلامي
الذي هو هدفنا الاول في هذا الكتاب.

* * *

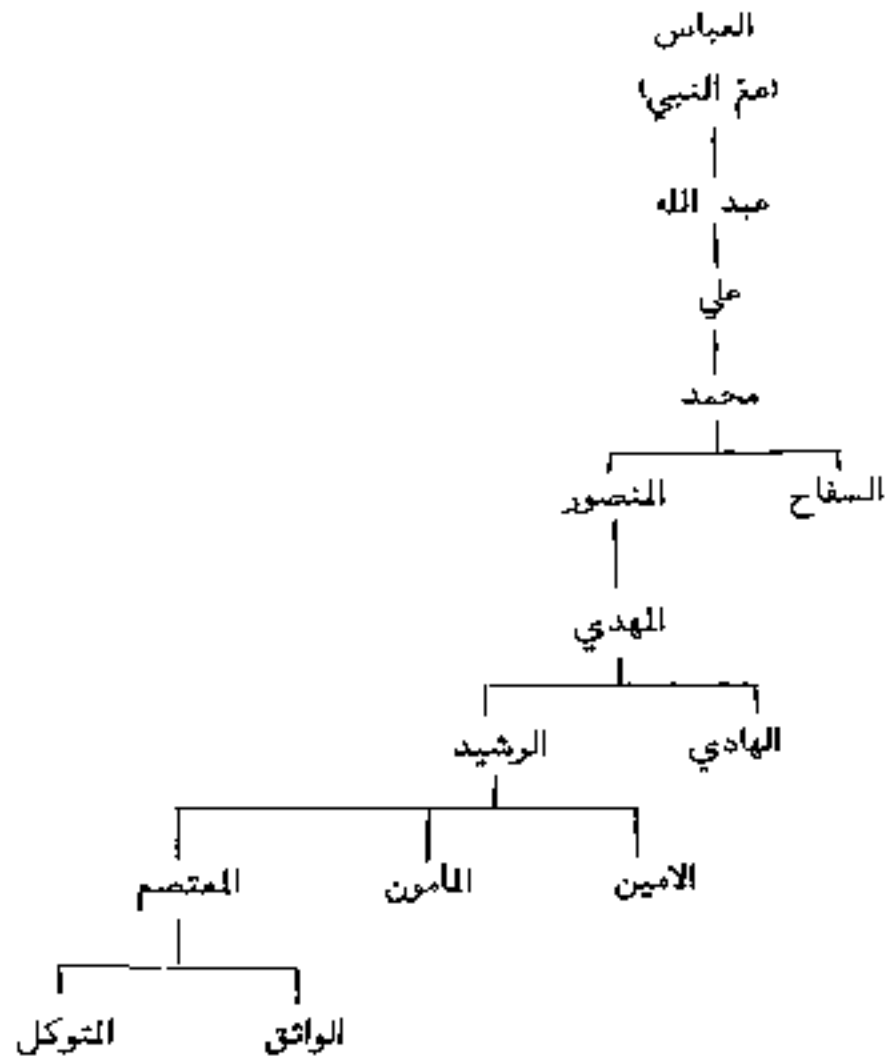
مراجع الفصل السادس تبدل المجتمع الاسلامي

- ١ - طه حسين، علي وشوه، ص ١٥٧.
- ٢ - طه حسين، عثمان، ص ٢٩.
- ٣ - احمد امين، ضحى الاسلام، ج ١، ص ٢٩ و ٢٧.
- ٤ - احمد امين، فجر الاسلام، ج ١، ص ٩٩.
- ٥ - طه حسين، حديث الاربعاء، ص ٢١.
- ٦ - الاصلهاني، ابو الفرج، الاغانى، ج ٩، ص ٢٠ و ٨٣.
- ٧ - المصدر السابق، ج ٩، ص ٩٦ و ٩٩ و ١٠٢.
- ٨ - المصدر السابق، ج ٨، ص ١٦٢ و ١٧٦ و ١٨٤ و ١٨٦ و ج ٩، ص ٢٠ و ١٠٤ و ١٢٠.
- ٩ - طه حسين، حديث الاربعاء، ص ٩٧.
- ١٠ - المصدر السابق، ص ٢٤٦ و ٢٥٠.
- ١١ - الطبري، أبو جريز، تاريخ الرسل والملو، ج ١٠، ص ٢١٥، واحد امين، ضحى الاسلام، ج ١، ص ١١٦.
- ١٢ - طه حسين، حديث الاربعاء، ص ٢٤٢.
- ١٣ - المصدر السابق، ص ٢٥٨ - ٢٦١.
- ١٤ - ديوان ابي نواس، المقدمة، ص ٥.
- ١٥ - ديوان بشار بن برد تقديم الشيخ محمد الطاهر ابن عاشر.
- ١٦ - الاغانى، ج ٦٢، ص ٨٧ و ١٠٣.
- ١٧ - المصدر السابق، ج ١٢، ص ٧٢ - ٩٨.
- ١٨ - المصدر السابق، ج ٩٥، ص ١٤٨.
- ١٩ - المصدر السابق، ج ١٧، ص ١٢٧.
- ٢٠ - احمد امين، فجر الاسلام، ج ١، ص ١٠ و ٤٦.
- ٢١ - طه حسين، حديث الاربعاء، ص ٤٤.
- ٢٢ - الطبري، سبق ذكره، ج ٩، ص ١٢٧.

- ٢٢ - المسمودي، مروح الذهب، ج ٢، ص ١٩.
- ٢٤ - الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٢، ص ٢٠٦، وضحي الاسلام، ج ١، ص ٢٥.
- ٢٥ - الطبري، سبق ذكره، ج ١، ص ٢١٩.
- ٢٦ - أحمد أمين، ضحي الاسلام، ج ١، ص ٦٠.
- ٢٧ - المصدر السابق، ص ٦٢.
- ٢٨ - Houchang Nahavandi, Anatomie d'une Revolution, p. 11-B
- ٢٩ - دهران بشار ابن برد، ص ٢٨.
- ٣٠ - الصفهاني، أبو الفرج، الاغانى، ج ٢، ص ٧٢.
- ٣١ - الطبري، ج ١٠، ص ٢٦٤.
- ٣٢ - طه حسين، حديث الازمان، ص ١٩٢ - ٢٠٨.
- ٣٣ - الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٢، ص ٢٠٦.
- ٣٤ - الطبري، سبق ذكره، ج ٢، ص ٢١٩.
- ٣٥ - أحمد أمين، ضحي الاسلام، ج ١، ص ٦٠.
- ٣٦ - المصدر السابق، ج ١، ص ٦٢.
- ٣٧ - ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٧٧ و ٤٧٨.
- ٣٨ - أحمد أمين، ضحي الاسلام، ج ١، ص ٢٥٢.
- ٣٩ - حتي، فيليب، تاريخ العرب، ص ٢٨٤.
- ٤٠ - المصدر السابق، ص ٢٨٩.
- ٤١ - أحمد أمين، ضحي الاسلام، ج ٢، ص ٧ - ٢٠.
- ٤٢ - سورة الكهف، ٢٢.
- ٤٣ - سورة الاحزاب، ٤٠.
- ٤٤ - سورة الرحمن، ٢٥ و ٢٦.
- ٤٥ - محمد اسد، الدولة والحكم في الاسلام (بالانكليزية)، ص ١١ و ١٦.
- ٤٦ - أحمد أمين، ضحي الاسلام، ج ٢، ص ٢٢٣.
- ٤٧ و ٤٨ و ٤٩ - المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٢٥.

* * *

الخلفاء في الدور العباسي الاول



الفصل السابع

السياسة في الدولة العباسية

الدعوة العباسية

رأينا في الفصول السابقة ان النزاع على الخلافة بدأ حال وفاة النبي، واستمر في عهد الخلفاء الراشدين، ثم انتقلت الخلافة الى بني امية بقوة معاوية ودهانه. لكن التحفز للخلافة لم يتوقف وتركز في آل البيت (الشيعية) وآل العباس والخوارج. وقد تحالف الشيعة والعباسيون ضد الامويين ظناً من آل البيت ان العباسيين يدعمونهم ثم تبين لهم خلاف ذلك. ينتسب العباسيون الى العباس عم النبي وابنه عبد الله المتوفي سنة ٦٨٨ وهو جد الخلفاء العباسيين وكان مقبلاً في مكة واشتهر بالحديث والفقه والتفسير.

ثم خلفه ابنه علي بن عبد الله الملقب بالسجاد ذهب في ايام عبد الملك بن مروان الى دمشق واقام بها. ثم اساء اليه الوليد ابن عبد الملك فتحوّل الى الحبيّة (بيلد) من اعمال البلقاء بالشام ومنها انطلق دعائهم. ثم اتى ابنه محمد بن علي فاظهر مشايعة العلويين واليه انتقلت الامامة من ابي هاشم ابن محمد ابن الحنفية.

لكن بني العباس لم يذموا ان الامامة تنحدر اليهم من العباس عم النبي او من ابنه عبد الله مباشرة بل ساقوها بطريق متعرج من علي بن ابي طالب الى ابيه الحسن والحسين وكانوا متفقين بهذا التسلسل مع الشيعة، لكنهم اختلفوا مع الشيعة بعد مقتل الحسين، فالشيعة ينقلون الامامة من الحسين الى ابنه علي زين العابدين ثم الى اولاده. اما العباسيون فقد نقلوا الامامة بعد

الحسين الى اخيه محمد ابن الحنفية وقد سمي بذلك لان امه كانت من بني حنيفة. ومنه نقلوا الامامة الى ابنه ابي هاشم لذلك يُلقبون احيانا بالهاشمية. وقد خاف سليمان بن عبد الملك من منافسة ابي هاشم فارسل اليه من سته. وقد زعم العباسيون ان ابا هاشم لما احسن بالموت وهو منصرف من الشام اوصى بالامامة الى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس اي انه نقل الامامة من بيت علي بن ابي طالب الى بيت آل عباس، ولا يوجد تفسير لعمله هذا اذا صح. واستمر العباسيون يذمون الامامة فلما مات محمد بن علي اوصى بالامر لابنه ابراهيم المعروف بالامام وهو الذي قتله مروان الثاني آخر خلفاء بني امية. وكان الامام ابراهيم قد اختار ابا مسلم الخراساني رئيسا لدعائه واوصى بالامامة بعده الى اخيه عبد الله ابن الحارثية الملقب بالسفاح، واوصى هذا الى اخيه ابي جعفر الملقب بالناصر. وبذلك قامت الخصومة بين العباسيين وآل البيت.

يلاحظ في هذا التسلسل ان آل العباس التزموا بمبدأ الاستخلاف الذي سار عليه الامويون ولم يلتفتوا الى موضوع الشورى.

اختلفت الدولة العباسية عن الاموية بامور خطيرة منها انها تطلعت الى الشرق اي الى فارس وخراسان وآسيا الوسطى والهند، في حين كان اتجاه الدولة الاموية الى الغرب اي الى البحر المتوسط وشمال افريقيا واسبانيا.

لم يكن الخلفاء العباسيون يحبون البادية ويحبون اليها كالامويين، ولم يكونوا يقدرون عيشة اهلها في قصورهم وتعاملهم مع الناس بل قطعوا كل صلة بالبادية واهلها وقلدوا ملوك الفرس في اكثر الامور، واستبدلوا بالخلافة التي كانت بدوية ملكا حضريا في كل شيء.

اعتمدت الدولة العباسية على الفرس في تركيز دعائمها وتفكرت للعنصر العربي ولم تطمان اليه لان العرب كانوا عماد الدولة الاموية وقالوا في ايامها العز والمناصب والمناصب. وتوسل العباسيون الدين سبيلا لاستئالة الموالي فتظاهر الخلفاء به.

اقام العباسيون حكومة اخذت كثيرا من اساليب اكاسرة آل ساسان ومظاهريهم، وصار الخلفاء يمارسون حكما مطلقا على الطريقة الفارسية معتمدين من التقاليد العربية، ووقع الاسلام العربي تحت تأثير الثقافة

الفارسية.

أما العنصر العربي الذي لم يدرك أول الأمر خطورة التغيير الحاصل، فقد اكتشف بعد وقت أنه فقد السلطة السياسية والمكانة الاجتماعية التي كانت له وخسرهما إلى الأبد.

سكان الدولة العباسية

كان سكان الدولة العباسية، خصوصا في الدور الأول، من أهل البلاد الأصليين ومن طبقة الفلاحين وأهل الحرف الذين استمروا يعيشون في منازلهم ومزارعهم الريفية أو ملتصقين بحرفهم في المدن، متمسكين بتقاليدهم الثقافية ومحافظين على دياناتهم ولغاتهم الأصلية فكانوا يتكلمون الآرامية والسريانية في العراق وبلاد الشام، والآرامية في فارس، والقبطية في مصر. وكانت هذه الطبقة أهم مورد لدخل الدولة إذ كانت تدفع الخراج على الأرض والجزية على الرأس لأن الشريعة اعتبرتهم أهل ذمة. لكن أهل الذمة في الأصل هم أهل الكتاب من نصارى ويهود وصابئة ولا يمكن أن يكون النبي محمد قد اعتبر اتباع زرادشت (المجوس) الذين ورد ذكرهم مرة واحدة في القرآن (سورة الحج، ١٦)، في عداد "أهل الكتاب". غير أن السياسة العملية والمصلحة قضت بأن يوسع الفقهاء نطاق أهل الكتاب ليشمل اتباع زرادشت وباني وسكان حران الوثنيين، والذين لم يعتنقوا للإسلام من ملايين الأتراك والهنود والبربر في شمال إفريقيا، لأنه استحال على المسلمين تطبيق النص الشرعي القاضي بأجبار هؤلاء على الإسلام أو قتلهم بالنظر لكثرة عددهم ولحاجة الدولة إلى الضرائب التي يدفعونها.

بقي هؤلاء السكان من أهل الذمة يشكلون الكثرة الكبيرة في الدولة العباسية لكنهم كانوا يعيشون على هامش الحياة السياسية والاجتماعية لا يشاركون بها ولا يؤثرون فيها وإن تحمّلوا موائجها. فإذا جاء سلطان ظالم وزاد في الضرائب، وكثيرا ما كان هذا يحصل، فإن الفلاحين وأهل الحرف هم الذين يدفعون، وإذا قامت الثورات وأحرقت الجيوش المزارع والحقول فالفلاحون هم المنكوبون. وإذا اختل الأمن في المدن وقتل العياريون والشرطة والجنود وكثرت التعديات فاصحاب الحرف وصغار التجار هم المتضررون.

الاقاليم الرئيسية في الدور الاول

اهم الاقاليم التي تكونت منها الدولة العباسية في دورها الاول هي :

- ١ - افريقية وهي ما كان غربي صحراء ليبيا، ٢ - صقلية، ٣ - مصر، ٤ - سوريا وفلسطين وكانتا احيانا مفصولتين، ٥ - الحجاز واليمامة والواسط الجزيرة، ٦ - اليمن او الجزيرة الجنوبية، ٧ - البحرين وعمان وعاصمتها البصرة، ٨ - السواد او العراق للقسم الاسفل مما بين النهرين، واهم مدنه بغداد والكوفة وواسط، ٩ - الجزيرة او شبه الجزيرة وهي اشور القديمة وعاصمتها الموصل قرب نينوى عاصمة اشور، ١٠ - اذربيجان واهم مدنها اردبيل وليريز، ١١ - الجبال وهي بلاد مادي القديمة وقد عرفت بعدئذ باسم العراق العجمي واهم مدنها همدان والري واصفهان، ١٢ - خوزستان واهم مدنها الاهواز، ١٣ - فارس وعاصمتها شيراز، ١٤ - كرمان وعاصمتها كرمان، ١٥ - مكران وكانت تشمل بلوخرستان الحالية وامتدت الى المرتفعات الشرقية على نهر السند، ١٦ - سجستان او سيستان وعاصمتها زرنج، ١٧ - قوهستان وطهرستان وجرجان وارمينيا، ١٨ - خراسان وفيها البلخ التي يتكون منها اليوم القسم الشمالي الغربي من افغانستان واهم مدنها نيسابور ومرو وهرات وبلخ، ١٩ - خوارزم وعاصمتها الاولى كاث، ٢٠ - الصفد بين جيحون وسيحون واهم مدنها بخاري وسمرقند، ٢١ - فرغانة وعاصمتها شاش (طاشقند) اليوم.

قبل ان نستعرض في بحث النظم السياسية في العهد العباسي نذكر بما قلناه في الفصل السادس عن المجتمع الجديد الذي تبدل تبديلاً كاملاً في جميع النواحي : في العناصر التي ايدته ودعمته، وفي اتجاهاته الثقافية والفكرية، وفي علومه وفقهه، وفي حياة الشعب اليومية، وفي آدبه وشعره وموسيقاه وفنونه، فذلك كله يساعدنا على فهم النظام السياسي الذي نشأ.

تأسيس الدولة

خلال حكم المنصور الطويل تركزت اسس الدولة وتسارع تبدل المجتمع الاسلامي وتتميز بالظواهر التالية :

لولا : حرص الخلفاء العباسيون على الظهور بظهر المتدينين عن ايمان، او لاستمالة عامة الناس، فاختذ الخليفة يرتدي بردة النبي في صلاة الجمعة والاحتفالات الرسمية ويجمع حوله الفقهاء. لكن هذا الادعاء كان في كثير من الاميان ظاهريا لان الخلفاء العباسيين لم يكونوا اقل اقبالا على الدنيا وملآذها من الامويين.

ثانيا : مارس الخلفاء العباسيون عمليا نظرية الحكم بمشيئة الله فلا قيود على سلطة الخليفة الا ما نهت عنه الشريعة صراحة وقد قلدوا بذلك ملوك الساسانيين.

ثالثا : سار الخلفاء العباسيون على منوال الخلفاء الراشدين والامويين في افعال وضع قاعدة لتسلسل الحكم تقي الدولة من النزاعات والثورات لدى وفاة كل خليفة، ولجاوا الى مبدأ الاستخلاف اي ان يعين الخليفة القائم من يليه من ابنائه او احد افراد عائلته دون ان تكون هناك قاعدة واضحة، ثم يسوق الناس للبيعة. ولم يعارض العلماء والفقهاء هذا الاسلوب ولم يتمسكوا بالشورى. وبقي الاستخلاف قاعدة الخلافة الى ان تسلط القواد الاثراك على الخلافة وصاروا هم الذين يولون الخليفة ويعزلونه.

رابعا : اعتمد العباسيون اعتمادا كاملا على العنصر الفارسي واقصوا العرب عن مراكز التفوذ في السياسة والجيش والادارة مما ولد التنافس بين العرب والفرس (الشعوبية).

خامسا : تابع العباسيون اضطهاد العلويين المطالبين بالخلافة الذين ظنوا ان العباسيين يعملون ضد الامويين من اجلهم فلما تاكدوا ان الامر غير ذلك جاھروا بعدائهم وقاموا بغوروات عديدة لتكبل بهم العباسيون.

سادسا : جرى في هذا العصر امتزاج جنسي واسع بين العرب والشعوب المغلوبة بسبب كثرة الرقيق، وجرى ايضا لقاح فكري ترك اثرا كبيرا في مختلف العلوم والفنون والادب، وفي الحياة الاجتماعية. وهو عصر يمتد من الوجهة الحضارية من خلافة الوليد الثاني الاموي (٧٤٤) الى نهاية خلافة الواثق العباسي (٨٤٧) اي نحوماية سنة ورد تفصيله.

وبالاجمال، فقد تميّز الدور العباسي الاول بغلبة العنصر الفارسي، وبحرية فكرية محدودة مثلتها الحركات التي اخذت كثيرا من الثقافة اليونانية

والفارسية فخالف هذا العصر المصور السابقة واللاحقة مما جعله عصرا مميزا قائما بذاته. وقد شارك العرب بهذه النهضة فجاءوا بالدين واللغة، واخذوا عن الاقوام الاخرى اليونانية والفارسية والهندية وغيرها الفلسفة والرياضيات والطب وعلم الفلك والاساطير والاداب واللباس والسكن والطعام واساليب المعيش الرفيد وكثيرا من التقاليد السياسية واساليب الحكم، فنتج عن هذا التفاعل حضارة اسلامية مزدهرة شارك بها العرب والاقوام الاخرى بدرجات متفاوتة من العطاء اضاعت ارجاء العالم الاسلامي.

يجدر بنا ان ننبه الى الطبيعة العابرة لهذا العصر اذ سيطر الجمود والتقليد على المجتمع العباسي منذ خلافة المتوكل (٨٤٧-٨٦١) الذي كبت القدر المحدود من الحرية الفكرية التي تمتع بها المسلمون في الدور السابق وكانت اساس الازدهار الثقافي والحضاري.

ترافق الجمود العقلي مع سيطرة العبيد الاتراك على الحكم. وبرز ذلك بصورة واضحة منذ خلافة المتوكل ومن جاء بعده من الخلفاء طيلة ما يزيد عن قرن وتتابع ذلك لقرنين آخرين في عهود آل بويه وآل سلجوقي. ولا يعني ذلك انه لم يظهر علماء وادباء في القرنين العاشر والحادي عشر فزخم الحضارة لا يتوقف عند حد تاريخي معين، لكن تلك الشعلة الرضاعة بدأت تخبو تدريجيا وانتقلت مراكز الاشعاع العلمي والادبي من بغداد عاصمة الخلافة التي اصبحت اسمية، الى عواصم الاقاليم التي استقلت عمليا كبخارى وسمرقند واصفهان وشيراز والقاهرة والقيروان وفاس وقربطية وغيرها من المدن الاسبانية.

الدور السياسية

مرت للخلافة العباسية في خمسة ادوار سياسية واضحة لكل منها وضع مختلف هي :

اولا : عصر التأسيس والازدهار الذي دام سبعا وتسعين سنة من تأسيس الدولة الى نهاية خلافة الواثق (٢٥٠-٨٤٧)، توالى فيه على الحكم تسع خلفاء كان النفوذ السياسي والثقافي الفارسي فيه متغلبا وواضحا.

ثانيا : دور القواد الاتراك الذي دام سبعا وتسعين سنة (٨٤٧-٩٢٤)

توالى فيه على الحكم ثلاث عشرة خليفة. في هذا الدور سيطر القواد والجند الاتراك وتحكموا بالخلافة وبالبلد.

ثالثا : دور آل بُويه، وهم فرس شيعة، دام مائة وثلاث ومشرين سنة (٩٢٢ - ١٠٥٥) توالى فيه على الحكم خمس خلفاء خضع فيه الخليفة السني وشعبه للسلطين الشيعة.

رابعا : دور آل سلجوقي الاتراك السنة الذي دام مائة واربعين سنة (١٠٥٥ - ١١٩٤) توالى فيه على الحكم ست خلفاء تحت سيطرة السلاجقة الاتراك الى ان تغلب خوارزم شاه وانتهى العهد السلجوقي.

خامسا : الدور الخامس الذي توالى فيه اربع خلفاء وامتد من تغلب خوارزم شاه على آل سلجوقي عام ١١٩٤ الى دخول هولاكو خان المغولي بغداد والقضاء على الخلافة العباسية عام ١٢٥٨

الدور الاول الفارسي (٧٥٠ - ٨٤٧)

تأسيس الدولة

كان دعاة بني العباس ناشطين في الاقطار الشرقية طيلة عشرين سنة يهيئون للانقضاض على بني امية واستفادوا من وضعين : انقسام العرب لعصبيات متقاتلة اضعفت بعضها بعضا رغم شعورهم باشتداد ساعد الفرس، ثم كره الموالي وهم اكثرية السكان، للامويين الذين احتقروهم واذكروهم فلما عين الامام ابراهيم ابا مسلم الخراساني رئيسا لدعائه كانت الظروف قد نضجت للعمل.

لا يُعرف كثيرا عن نشأة ابي مسلم والارجح انه كان مولى من اصل وضع تلقن مبادئ الدعوة العباسية عن الامام ابراهيم الذي ارسله عام ٧٤٥ الى خراسان اهم المقاطعات واكبرها واكثرها نزوحا للشورة وقال له ان استطعت الا تدع بخراسان احدا يتكلم العربية الا قتلته فانعل. وعليك بمطر فانهم العدو القريب فلا تدع على الارض منهم ديارا.

شكل ابو مسلم في خراسان جبهة من الموالي ومن العرب الناقمين على الوالي الاموي نصر بن سيار بسبب عصبيته المضرة، وكان اقتناع الموالي الفرس

سهلا فقد قال الدعاء لهم ان نقل الخلافة الى العباسيين وهم هاشميون من اقرباء النبي يعطيها صبغة دينية ويجعلها مقبولة لدى عامة المسلمين. فاذا وصلوا الى الخلافة بمعونتنا يكون ظاهرا الحكم لهم وباطنه لنا، فلهم الشكل ولنا الجوهر. وهذا ما كان.

توالى على الحكم في الدور الاول تسع خلفاء هم : ابو العباس السفاح، والمنصور، والمهدي، والهادي، وهارون الرشيد، والأمين، والمأمون، والمعتصم، والواثق، والسبعة الاخيرة كلهم من سلالة المنصور.

هناك من لا يعتبر الثلاثة الاخيرة للمعتصم والواثق والمتوكل من خلفاء الدور الاول الفارسي لان المعتصم هو الذي ادخل الاثراك باعداد كبيرة في الجيش بحيث اختل انضباطهم وتفاقت تعدياتهم على اهل بغداد فاضطر الى بناء عاصمة جديدة سماها سامراء. وجرى ابنه الواثق على منواله مع احتفاظهم بشيء من سلطة الخلافة ومهابتها، اما المتوكل فكان اول خليفة يقتله الاثراك ثم اصبح ذلك عادة متبعة في الدور الثاني.

الخلفاء في الدور الاول

عبد الله أبو العباس السفاح	(٧٥٠ - ٧٥٤)
أبو جعفر المنصور	(٧٥٤ - ٧٧٥)
محمد المهدي	(٧٧٥ - ٧٨٥)
موسى الهادي	(٧٨٥ - ٧٨٦)
هارون الرشيد	(٧٨٦ - ٨٠٦)
محمد الأمين	(٨٠٦ - ٨١٣)
أبو العباس المأمون	(٨١٣ - ٨٣٣)
المعتصم	(٨٣٣ - ٨٤٢)
الواثق	(٨٤٢ - ٨٤٧)

سلطة الخلفاء في الدور الاول

كان الخليفة رأس الدولة وقمة الهرم السياسي لا يدانيه في مقامه أحد

من أقربائه أو بطانته وهو مصدر السلطات كلها. وقامت سلطته على القوة والبطش بالإضافة الى شرعية الخلافة. ولأول مرة في تاريخ الاسلام صار النطق يُبسط الى جانب كرسي الخلافة ويُتخذ منه ومن سيف الجلاذ وسيلة لتوطيد العرش وكانت تكفي كلمة من الخليفة ليقوم الجلاذ بقتل من يئضب عليه بحضوته. والنطق بساط من الجلد يقطع الجلاذ عليه رأس من يأمر الخليفة بقتلهم.

من ناحية أخرى، كان الخليفة يتصرف بواردات الدولة تصرفه بهال الخاص دون رقيب أو ضابط مالي لأنه لم يُصرف أنه كان للدولة الاسلامية ميزانية تضبط الدخل وتوزع النفقات بموجب قواعد مقروءة ومبالغ مخصصة للاتفاق في أمور معينة.

وكان الوضع في الاقاليم يماثل وضع بغداد. فالوالي وحاشيته ومن حوله يتصرف في منطقته كممثل تصرف الخليفة في عاصمته بعد ان يؤدي ما يتوجب عليه من الاموال للعاصمة.

بعد الخليفة في هرم الحكم يأتي الوزراء والامراء والقواد وكبار رجال الدولة، والكتاب في الدوائر الحكومية، والعلماء والفقهاء، وعائلات جميع هؤلاء وندماؤهم وشعراؤهم ومن يلوذ بهم. هؤلاء جميعا كانت ارزاقهم قايهم من الخليفة ومن هم دون في سلم الهرم.

تنظيم دوائر الدولة

اهم الدوائر أيام العباسيين كانت : الوزارة، والنضاء، وقيادة الجيش، وديوان الخراج، وديوان المصادرة، وديوان التوقيع، وديوان المظالم، وديوان الشرطة، وديوان الحسبة، وديوان البريد، وصاحب الزنادقة، والحاجب، والجلاذ، والمنجم، وأكثرها مأخوذ عن النظام الفارسي.

الوزارة : الوزير هو ساعد الخليفة الايمن ويليه في المقام وكثيرا ما كان يقوم مقامه في ادارة شئون البلاد. وكانت سلطته تتسع بمقدار انهماك الخليفة باللهو وابتماده عن الاهتمام بالامور العامة فيعارس الوزير عمليا سلطات الخلافة بكاملها فيعين الولاة والقضاة ويأتي الموظفين بعوافة اسمية من الخليفة، ويعزلهم، ويعين احيانا من يلي الوزارة بعده عملا بنظام وراثة

الناصب..٠

ولاية القضاء : كان الخليفة أو الوزير يفوض شئون القضاء إلى أحد الفقهاء فيعرف بالقاضي. فإذا تسلم القضاء في بغداد سُمّي قاضي القضاة. وكان أبو يوسف أول من أخذ هذا اللقب (توفي ١٨٠٨).

امارة الجيش : لم يكن للخلافة جند نظامي بالمعنى المعروف أي جيش كامل العدة ومدرب وجاهز للحرب. لم يكن سوى حرس الخليفة يصح تسميتهم بالجند النظامي يتعاطون الجندية حرفة دائمة وقد عُرفوا بالمرتزقة لأن أرزاقهم على الدولة. أما باقي المقاتلين فكانوا من التطوعة من القبائل والمقاطعات يتقاضون رواتب مدة الخدمة العسكرية وأكثرهم من البدو والفلاحين وعوام الناس في المدن. (١٢)

ديوان الخراج : هو من أهم دواوين الدولة لأنه كان يقوم بأعمال ما يُسمى الآن وزارة المالية أي تحصيل ما للدولة من ضرائب وأموال وأدائها لسد حاجات الخليفة والدولة. ولم يكن يوجد فارق بين نفقات الخليفة ونفقات الدولة فكان الخلفاء يغرفون من الخزينة قدر ما يشاؤون.

ديوان المصارف : عهد الخلفاء العباسيون إلى مصادرة أموال من يخضبون عليهم من الوزراء والولاة والوظفين والناس. وفعل مثل ذلك الولاة في الأمصار فكانوا يصادرون أملاك من يسخطون عليهم. ولما كثرت المصادرات وأصبحت عادة شائعة، أنشئ ديوان خاص برئاسة موظف ينفذ المصادرة ويحصي أموالها كان يعتبر كسائر موظفي دوائر الدولة القانونية.

ديوان التوقيع : كانت تصدر عنه الرسائل الرسمية والأوامر والبركات الخليفة.

ديوان المظالم : أُريد منه إصلاح القضاء وإقرار العدل بين الناس وفي دوائر الدولة باتصال مباشر بين الخليفة والمتظلمين. فكان الخليفة، ابتداءً من المهدي، يخصص يوماً في الأسبوع يسمع شكاوي الناس ويفصل فيها. وجرى على مثل ذلك هارون والمأمون وخلفاؤهما. وآخر من جلس لها الخليفة المهدي (٨٦٩-٨٧٠). فلما انتقلت السلطة من الخليفة إلى القائد التركي انتهى هذا التقليد.

ديوان الشرطة : يرأسه موظف كبير يدعى "صاحب الشرطة"

ولكل مدينة شرطتها لحفظ الامن ومراقبة الحركات المعادية للدولة.

ديوان الحسبة : الحسبة في الاسلام ولاية دينية - سياسية خاصتها الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مما ليس من خصائص الولاية والقضاة واهل الديوان. يقول ابو الحسن الماوردي انها امر بالمعروف اذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر اذا ظهر فعله حسب الآية : 'ولكن منكم امة يدعون الى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر'.

للمحتسب ان ينيب عنه نوابا في جميع انحاء البلاد وله سلطة تنفيذية مفوضة الى رايه، وهو ما عرف 'بالتميز' الذي هو نوع من العقاب للمخالفين بالواجبات الدينية والاخلاقية كالصلاة والصوم والمحافظة على الاداب. والمحتسب هو ايضا المشرف على احوال التجارة والسوق يراقب الموازين والمكاييل ويحصل الديون لاصحابها.

ديوان البريد : يرأسه 'صاحب البريد'. انشيء ايام معاوية ليحمل مراسلات الدولة وكان يوجد مركز للبريد في عاصمة كل قطر. وقد استعملت الحكومة الحمام الزاجل ايضا لنقل المراسلات.

الحاجب والجلاد والمتجم : نقل العباسيون عن الاكاسرة هذه الوظائف. اما الحاجب فكان يقف بباب الخليفة يُدخل عليه المراجعين من الموظفين واصحاب الحاجات والتدماء والشعراء ويرد منهم من لا يروق له فاصبح ذا نفوذ عظيم.

وكان الجلاد ايضا من الشخصيات البارزة في بلاط بغداد ينفذ امر الخليفة في من يريد قتلهم او سجنهم او تعذيبهم. ولاول مرة في تاريخ العرب وجدت حجرات تحت الارض لتعذيب المعضوب عليهم. (١١)

اما منجم البلاط، فكانت وظيفته ان يستطلع الفلك في افضل الايام لقيام الخليفة بعمل ما.

صاحب الزندقة : وصفنا الزندقة في الفصل السابق وسعة انتشارها مما اقلق العلماء والمتدينين والخلافة فانشأ الخليفة المهدي ديوانا سماه ديوان الزندقة واركل امره الى موظف سماه 'صاحب الزندقة' كانت وظيفته ملائمة الزندقة في انحاء البلاد ومناقبتهم. فقتل كثيرا منهم، وقتل اخرون بالوشاية.

الولاية : هم وكلاء الخليفة في الاقاليم يصينهم ويمرلهم حين يشاء وهم مسئولون تجاهه او تجاه الوزير مباشرة ويمارسون في اقاليمهم سلطات الخليفة بتفويض منه.

خلافة عبد الله ابي العباس السفاح (٧٥٠-٧٥٤)

عمل ابو مسلم هوسية الامام ابراهيم فكان يقتل على الشبهة ووحيد صغوفه واعلن ثورته في خراسان في ١٥ يونيو ٧٤٧ وسرعان ما امتدت لتشمل مقاطعات اخرى. تكللت الثورة بالنجاح عند مقتل الخليفة الاموي مروان الثاني في معركة نهر الزاب الكبير عام ٧٥٠ وهويع بالخلافة عبد الله ابن الحارثيه ابن محمد بن علي فخطب بالناس وقال انا السفاح فلحق القلب به وقد كافا السفاح ابا مسلم فعينه واليا على خراسان. وقد كان الخليفة سفاحا بالفعل. دعا ثمانين من كبار الامويين الى مادية على نهر العرجا بجوار مدينة يافا يوم ٢٥ يونيو ٧٥٠ فلما اجتمعوا دخل عليهم حرسه فقتلهم ومدوا البسط فوقهم واحضروا الطعام فاكل السفاح ومن معه وهو يسمع انينهم. ولاحق السفاح والخلفاء بعده بقايا الامويين حتى كادوا يفتنهم. وفعلوا ما يشابه ذلك بالعلويين.

كانت الكوفة عاصمة الدولة. لكن السفاح لم يطمأن الى اهلها وهم اصحاب الامام علي فنقل عاصمته الى الانبار على ضفاف الفرات لتعرف ايضا باسم الرمادي) وانشأ فيها مقراً سماه "الهاشمية" وتوفي سنة ٧٥٤ بالجدي بعدما اوصى بالخلافة الى اخيه ابي جعفر عبد الله ابن محمد الملقب بالمنصور.

خلافة ابي جعفر المنصور (٧٥٤ - ٧٧٥)

ولد المنصور في الحنيفة من أم بربرية اسمها سلامة وحكم واحدا وعشرين عاما ويعتبر المؤسس الحقيقي للدولة العباسية. واجه حين توليه الخلافة ثورة عمه عبد الله بن علي الذي ادعى انه احق بالخلافة من ابن اخيه فوجه اليه المنصور قائده ابا مسلم الخراساني فحاربه في شهر نوفمبر ٧٥٤ في مدينة نصيبين تقع شمال شرق سوريا حاليا) واخذته الى بغداد أسيرا بعدما امنت المنصور على حياته.

وقد كلف المنصور ابن القفج بكتابة صيغة الأمان فبالغ في الاحتياط فيها كي لا يجد المنصور منفذا للاخلال بمهده. بقي عبد الله في السجن سبع سنوات ثم أراد المنصور التخلص منه فنقله الى بيت جعل أساسه من ملح ثم أجرى الماء في أساس البيت وعص فيه فتداعى البيت وانهار وقتل من فيه. (١٢) دعا المنصور أبا مسلم لزيارته وهو راجع الى خراسان وكان قد بدا يخشى قوته وشعبيته، فلما دخل عليه وثب عليه الخدم بالسيوف وقتلوه فتخلص المنصور من منافس خطر.

ثم استدأر المنصور لشيعة الإمام علي فقتل في المدينة من أئمتهم محمد الملقب بالنفس الزكية في شهر ديسمبر ٧٦٢. وقتل أخاه إبراهيم في السنة نفسها في الكوفة. والأخوان هما أئمة عبد الله حفيد الحسين بن علي (١٣). في تلك السنة (٧٦٢) وضع المنصور حجر الأساس لمدينة بغداد على ضفة دجلة الغربية التي استغرق بناؤها أربع سنوات وجعلها على شكل مستدير وسماها دار السلام فاصبحت أعظم عواصم ذلك العصر.

لكن الأمور لم تستقر له سريعا فقد واجه ثورات في خراسان تطالب بشار أبي مسلم، وثورة قام بها العلويون، وناهضة المعتزلة لأنه اضطهد رئيسهم عمرو بن حبيد لكنه تغلب على هذه المعارضة وأخمدها. عاش المنصور عيشة بسيطة وكان محبا للشعر لكنه كان مقتصدا في بذله لا يحب الموسيقى وحياة البذخ مما لم يرق للندماء والشعراء. وقد توفي سنة ٧٧٥ وهو في طريقه الى مكة للحج ودفن بقريةها. (١٤)

خلافة محمد المهدي (٧٧٥ - ٧٨٥)

كان المنصور يكره ابن أخيه محمد ويزدري ابنه جعفر لحبونه وتهتكه فلما أراد أن يبايع بالخلافة بعده لابنه المهدي، وكان ابنه جعفر يعترض على ذلك، دعا الناس ذات يوم فاجتمعوا وتكلم الخطباء والشعراء في مدح المهدي وفضائله. فلما فرغوا أقبل الشاعر مطيع ابن أبياس على المنصور وقال يا أمير المؤمنين، حدثني فلان عن فلان عن النبي أنه قال : المهدي مثا محمد ابن عبد الله، وأمه من حمير، يملكها عدلا كما ملكت جورا. وهذا العباس ابن محمد أخوك يشهد على ذلك. ثم أقبل على العباس وقال له :

أنشدك الله، هل سمعت هذا؟ فقال العباس نعم، خوفاً من المنصور، فامر المنصور الناس بالبيعة للمهدي. وهكذا رشح مطيع بن أياس الحديث وكذب على النبي ولم يكتف بذلك حتى استشهد أخا المنصور علي أنه صادق، فشهد خوفاً من أخيه (٧٧)، وكان المنصور والحضور يعرفون أن الحديث كاذب لكنهم نظاهروا بتصديقه تنفيذاً لرغبة الخليفة وخوفاً منه.

وقد كافأ المهدي مطيع على عمله بعدما تولى الخلافة فقوته وأجزاه مع علمه أنه زنديق.

كان المهدي شديداً على الزنادقة وهو الذي أنشأ 'ديوان الزندقة' ووكل الفائم عليه بملاحقتهم والتشديد عليهم ومعاقبتهم. ولعب الحسد والبشاعات دوراً في اتهام الناس بالزندقة فموجب الكثيرون ظلماً. وقد قتل المنصور العالم الشهير ابن المقفع بتهمة الزندقة، وقتل المهدي بشاراً ابن بره وكثيرين غيره بهذه التهمة، بعضهم من حق وبعضهم بوشاية.

في زمن المهدي قام هشام ابن الحكم اللقب بالمقنع بثورة وهو من مدينة مرد في خراسان وبشر بدين هو خليط من الاسلام والزرادشتية. دامت ثورته ثلاث سنوات ثم تحصن في قلعة سنام وبقي يقاوم سنتين الى أن قُلبت عليه جيوش المهدي فاتحراً سنة ٧٧٩.

قبل وفاته أوصى المهدي بالخلافة لابنه مرسى الهادي، ومن بعده الى ابنه هارون.

خلافة موسى الحادي (٧٨٥ - ٧٨٦)

هو رابع خليفة عباسي خلف أباه المهدي وحكم سنة واحدة. اضطهد آل البيت فاشتعلت ثوراتهم في المدينة والعراق ومصر فأخضعها بقسوة. حاول أن يقصي أخاه هارون عن ولاية العهد ويأخذ البيعة لابنه جعفر فسجن هارون لكنه اصطدم بأرادة أمه الخيزران. والخيزران جارية يمنية وهي والددة الهادي والرشيد وكانت ذات نفوذ وقوة أيام زوجها المهدي يقصدها اصحاب الحاجات من كبار الناس فتقضيها لهم. فلما تولى ابنها الهادي أرادت أن تسلك به مسلك أبيه فمنعها وأقصاها فحقدت عليه حتى إذا علمت أنه يريد خلع أخيه هارون وأنه سجنه ويسعى لاختد البيعة لابنه جعفر، أمرت بعض

جواربها فوضع الوسائد فوق وجهه وهو نائم فاخذن انفاسه.

خلافة هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩)

هو هارون ابن محمد المهدي لقب بالرشيد، وامه الخيزران جارية يمنية. ولد في الري نحو سنة ٧٦٤ وتوفي في طوس. أي انه عاش نحو خمسا وأربعين سنة. تولى تربيته وتعليمه يحيى البرمكي الذي كان من انصار والدته الخيزران. في سنة ٧٨٢ كان هارون القائد الاسمي لحملة ضد البيزنطيين وصلت الى مضيق البوسفور مقابل القسطنطينية. ثم اجرت صلحا مع البيزنطيين بشروط ملائمة للمسلمين.

بعد هذه الحملة اوصى له والده بالخلافة بعد اخيه الهادي وعينه واليا على تونس ومصر وسوريا وارمنيا واذربيجان وكان يحيى البرمكي الى جانبه يقوم بالادارة الفعلية.

تولى هارون الخلافة وهي في قمة العز والازدهار تمتد اراضيها من غرب البحر المتوسط الى الهند. وكان لوالدته الخيزران نفوذ كبير في الدولة حتى وفاتها عام ٧٨٩.

البرامكة (٨)

ظهرت الوزارة كمؤسسة سياسية لأول مرة في الحكومة الاسلامية على عهد الخليفة المنصور وكان خالد ابن برمك اول من قام باعمالها.

كان ابو خالد 'برمكا' اي سادنا في معبد بوذي في بلخ، وكانت ام خالد من سبي قتيبة بن مسلم وقد قرب ابو العباس السفاح وابو جعفر المنصور خالد البرمكي بسبعشirته في امور الدولة وفي ادارة شئونها ويعتمدان عليه لقلة خبرتهما بشئون الحكم.

خلف خالد في الوزارة ابنه يحيى الذي اوكل اليه المهدي تربية ابنه هارون. ولما ولي هارون الخلافة استمر يحيى في منصب الوزارة وكان هارون يناديه 'يا ابي' وفوض اليه السلطة المطلقة وكان يساعد في الوزارة ابنه جعفر والفضل.

بالاضافة الى مهامهم في الحكم كان جعفر ابن يحيى رفيق الطغولة

لهارون ويقي مقربا جدا منه يناديه ويعاشره رغم تحذير ابيه يحيى له بان القرب من الخلفاء يلزمه الوبال.

كان لهارون أخت اسمها العباسة تسره مجالستها والتحدث معها. وبلغ من شفقه بعشرة جعفر البرمكي ومجالسة اخته انه اراد ان يجمع بين الاثنين فكتب قرافا لجعفر على العباسة ليحلّ له الفطر اليها ومجالستها واشترط عليه ان لا يستأجر فكاك ترفيفا اخرق كمن يجمع بين البارود واللهب.

حصلت ثورات مختلفة في عهد هارون في مصر وسوريا واليمن وعدد من المقاطعات الشرقية لكن الحكومة اخمدتها. وعين هارون سنة ٨٠٠ ابراهيم ابن الاغلب واليا على تونس على ان يشهد له بمبلغ سنوي كبير ويكون شبه مستقل بإدارة شئونها. وطبق الخليفة هذا الاسلوب في مناطق اخرى من الدولة. وقد كان هذا الترتيب مريحا للخليفة من الناحية المالية لكنه كان نذيرا ببداية تفكك الدولة وازعاج سلطة الخلفاء.

كان هارون اول خليفة عباسي يعيد تطبيق الاحكام العمرية^٣ على اهل الذمة (راجع الفصل الثالث) فامر سنة ٨٠٧ بهدم الكنائس في مدن الحدود، وما بُني منها بعد الفتح الاسلامي، وبوجوب مخالفة اهل الذمة لهيئة المسلمين في لباسهم ومركبهم (١)، لكن ذلك لم يمنع من اللجوء الى الاطباء النساطرة للعلاج والتداوي فعمل جبريل ابن بختيشوع النسطوري طبيبهم الخاص وميته رئيسا لمستشفى بغداد وكان يدعوهم الى مجالسته وتناول الطعام معه، ولا ندري اذا كان جبريل يلبس لباس اهل الذمة في حضرة الخليفة.

سنة ٨٠٢ اثناء حجه الى مكة اوصى هارون بالخلافة الى ابنه الامين على ان تكون بعده لاخته المأمون مع ان المأمون كان اكبر سنا من الامين بستة اشهر، وقسم البلاد بينهما. فاعترف المأمون بخلافة الامين في بغداد والغرب، في حين اعترف الامين بسيادة المأمون على مقاطعات الدولة الشرقية حيث جعل مقره في مدينة مرو في خراسان.

بعد مدة حج هارون الى مكة قلع ان العباسة حملت من جعفر وولدت غلاما ارسلته مع حواضن الى مكة. فنضب على جعفر وامر بقتله ونكّل بالبرامكة جميعا سنة ٨٠٢ وقبض على والده يحيى وهو شيخ هرم فسجنه مع

اولاده الثلاثة الفضل واثنين اخرين فمات يحيى في السجن سنة ٨٠٦ ومات اولاده بعده.

لا يُعلم مدى صحة هذا الرواية وكونها سبب التنكيل بالبرامكة. فقد خدم هؤلاء الدولة باخلاص منذ تاسيسها طيلة ثلاث وخمسين سنة، وكان يحيى نصيراً للخيزران في مساعيها لايصال هارون الى الخلافة. وقد اداروا ملكه بكفاءة وحملوا عنه اعباء الدولة باخلاص. بالاضافة الى ذلك اشتهر البرامكة بالكرم الفائق وقضاء حاجات المظلومين ورعاية الاداب والفنون فانتشر صيتهم وتحدث الناس بفضلهم وضيقت بكرمهم الامثال. ولا تزال لقطة 'برمكي' الى هذا اليوم تؤدي معنى الكرم في بعض الاقطار العربية ولعل هذا هو ما استفله حسادهم لاثارة غيرة هارون منهم فنكل بهم دون ان يسند اليهم جرماً او نقيصة وصادر اموالهم الكثيرة لحسابه وربما كان هذا الكسب سبباً مهماً للتخلص منهم.

مما يلفت النظر في نكبة البرامكة ومن تلاهم من الوزراء غياب مبدأ 'حكم القانون' من المفهوم العام. فلم تكن توجه تهمة، ولا يجري تحقيق قضائي فيها. ولا يقدم المتهمون الى المحاكمة، بل كانت تكفي كلمة من الخليفة لينفذ القتل والسجن ومصادرة الاموال. وهذا دليل على تدني المستوى السياسي والقانوني في الدولة.

لم يكتفِ الخليفة هارون بقتل آل برمك فشملت نقمته كل من والا هم وتمتع برعايتهم وفضلهم. وبلغ الاضطهاد حداً انه لم يعد يجزى احد على ذكرهم بحسنة او بخير دون ان يتعرض لنقمة الخليفة وزبائنه.

حصل هارون على لقب 'الرشيد' ممن جاعوا بعده. ربما لان حكمه تصادف مع ظروف اختبرت مع الزمان لم يكن له يدٌ فيها، اوصلت الدولة العباسية الى ذروة اتسامها وازدهارها في بعض النواحي فالبسوه شخصياً عزتها. لكننا لا نرى في الاعمال التي قام بها كثيراً من الرشيد، كما لا نرى في اخلاقه كثيراً من النبيل.

فقد رثاه يحيى البرمكي وخدمه بتفاني واخلاص وكان يدعو هارون 'يا ابي' لكنه تناسى بكل ذلك وحبسه حتى الموت وصادر امواله دون ان يجد تهمة يوجهها اليه وفي ذلك منتهى العقوق.

ثم عقد الزواج لجعفر بن يحيى على اخته العباسية واشترط عليه ان لا يستأجر لارضاء نزوته بمجالستها معا. فلما اتم جعفر الزواج بموجب الشرع قتله، وقتل انسان بسبب نزوة لا يصدر عن رجل رشيد.

وبدا هارون بتفكيك الدولة لما اتفق مع ابراهيم ابن الاغلب عام ٨٠٠ على الاستقلال بتونس وراثيا مقابل مبلغ سنوي وهو عمل لا يصدر عن سياسي واداري حافل يهيم مستقبل بلاده. وانتشر هذا الترتيب بعدئذ في مختلف انحاء الدولة وساعد على انهيارها.

ختم هارون حياته بعمل اخر اكبر ضررا لما قسم المملكة بين ولديه الامين والمأمون فتفككت عمليا وحدة الدولة. وادى ذلك الى حروب بين الاخوين بعد سنة من وفاته كان على هارون ان يتوقعها

خلافة محمد الامين (٨٠٩ - ٨١٢)

هو ابن هارون من زوجته زبيدة بنت اخ الخليفة المنصور، تولى الخلافة بعد وفاة ابيه هارون وانصرف الى اللهو والمجون. وقد ذكرنا شيئا عن اتجاهاته وسلوكه في بداية الفصل السابق. بعد عام من توليه استخلف الامين ابنه مخالفا وصية والده بان تنتقل الخلافة منه الى اخيه المأمون. وما لبثت الحرب ان نشبت الحرب بين الاخوين سنة ٨١١.

فصر العرب الامين، ونصر الفرس المأمون فوالدة المأمون جارية فارسية. وسانده الفضل ابن سهل وهو من سلالة الساسانيين، وكان قائده طاهر ابن الحسين الخراساني فتغلب على جيش الامين في موقعه قرب مدينة طهران الحالية واستولى على ايران الغربية. ثم زحف الى بغداد وحاصرها واستولى عليها بعد مقاومة عنيفة. ويقال ان الامين حاول الاستسلام لكنه قُتل سنة ٨١٢ خلافا لرغبة المأمون.

خلافة المأمون (٨١٢ - ٨٣٣)

هو ابو العباس عبد الله المأمون ابن هارون الرشيد من جارية فارسية اسمها مراحيل، ولد في بغداد سنة ٧٨٦ وتوفي في طرسوس وهي مدينة تقع شمال غرب مدينة الاسكندرونة على البحر المتوسط اي انه عاش سبعا

واربعين سنة.

سمى المأمون الى انتهاء النزاع بين السنة والشيعة وتوحيد أمة الاسلام فاوصى بالخلافة بعده الى ابي الحسن علي الرضا وزوجه من ابنته، وهو الامام الثامن عند الشيعة الاثني عشرية، ولبس المأمون اللباس الاخضر وهو شعار الشيعة فانتفض عليه اهل بغداد واكثر السنة ويايعوا معه ابراهيم المهدي عام ٨١٧ فلم يتمكن المأمون من مغادرة مرو والمودة الى بغداد الا بعد ست سنوات من موت الامين (١٠٠).

اعتمد المأمون على الفرس في نزاعه مع اخيه الامين فعين نصيره الفضل بن سهل وزيرا ولقبه "ذا الرئاستين" اي رئاسة للقلم ورئاسة الحرب، وولى اخاه الحسن بن سهل ديوان الخراج وتزوج ابنته بوران وديوي صاحب الاغاني انه صرف على حفلات زواجه امولا لا تحصى.

توفي الامام علي الرضا سنة ٨١٩ بعد مرض قصير فتخلص المأمون من الاحراج الذي وقع فيه، واغتيل الوزير الفضل بن سهل في السنة ذاتها وكان وراء سياسة التقارب مع الشيعة فحامت الظنون بان المأمون تخلص من الاتنيين، وعند دخوله بغداد رفع المأمون العلم العباسي الاسود فاسترضى السنة الناقمين على سياسته الماضية.

كافا المأمون فائده طاهر ابن الحسين الذي انتصر على الامين فعينه سنة ٨٠٢ واليا على خراسان وكل البلاد الواقعة شرق بغداد فجعل مرو عاصمته. مات طاهر بعد سنتين لكنه قبل ان يموت توقف عن الدعاء للخليفة أيام الجمع اي انه اعلن شبه استقلال، فتابع على الحكم بعده جماعة من بيته دائوا للخلافة اسما لكنهم استقلوا بالفعل ووسعوا نطاق حكمهم حتى حدود الهند ونقلوا عاصمتهم الى نيسابور حيث ظلت لهم السلطة الى عام ٨٧٢ حين ازاحهم الصفاريون وعرفت دولتهم باسم "الدولة الطاهرية" فكانت اول دولة نشأت في العهد العباسي.

في زمن المأمون قامت ثورة باطنية تدعى الخرمية في اذربيجان دامت مشرين سنة من ٨١٦ الى ٨٢٧ وقادها شخص فارسي يدعى بهاك. يدعي الخرميون انهم يقبلون الاسس العامة للاسلام لكنهم يؤمنون ايضا بتناسخ الارواح وبالتناحية الزرادشتية بين النور والظلمة. ويعتقدون ايضا بالامامية وانها

وراثية لكنهم يختلفون مع الشيعة بان الامامة يجب ان تكون وراثية في ذرية ابي مسلم الخراساني الذي قتله المنصور. وقد ادعى بابل ان من نسل ابي مسلم يمتلك الصفة قاد ثوروه ضد الخلافة العباسية. اشترك الفلاحون بهذه الثورة لانه مناهم بتوزيع الاراضي عليهم وامتدت سلطته من اذربيجان الى المقاطعات على ساحل بحر قزوين وارمينيا وبقي ينخر في الدولة العباسية الى ان قضى عليه في عهد المعتصم.

لا شك ان المأمون كان ارقى الخلفاء العباسيين ثقافة وفكرا وعلميا وحسن ادارة. ففي الاربعة عشر عاما الباقية من حياته راقب شخصا امور الدولة وتصرفات ولاته في الاقاليم ولم يعين وزيرا مطلقا التصرف كمن سبقه من الخلفاء.

كان المأمون ميل للفلسفة والعلوم على اختلافها فاسس "بيت الحكمة" في بغداد واستورد كتب العلوم اليونانية من بيزنطية، وجمع علماء النسطورية لترجمتها، وانشأ مراصد فلكية حيث قام المسلمون بتحقيق المعلومات الفلكية التي اطلعوا عليها.

مال المأمون لمبدأ المعتزلة منذ كان في مرو فقريهم اليه واقتنع بتعاليمهم. وفي سنة ٨٢٧ أعلن عقيدته بمبدأ "خلق القرآن". بعد ست سنوات قرر ان يفرض على الشعب تعاليم المعتزلة والقول "بخلق القرآن" واوكل ذلك الى اسحق بن ابراهيم مدير شرطة بغداد واقام محاكم في جميع انحاء البلاد تستجوب القضاة والفقهاء للتأكد من استجابتهم فانصاع اكثرهم تقية، وامتنع اخرون وعلى راسهم الامام احمد ابن حنبل، فتمرضوا للجلد والسجن.

توفي الخليفة المأمون في طرسوس وهو يقود حملة ضد البيزنطيين لكن العمل لفرض تعاليم المعتزلة لم يتوقف في عهد اخيه المعتصم وابن اخيه الواثق اي انه دام نحو عشرين سنة وقد سعى اهل الحديث هذه الفترة باسم "الحنة" لما لاقاه المعارضون من اضطهاد. لكن "اهل النقل" تغلبوا بنهايتها على "اهل العقل" ونكلوا بهم وفشل مسمى المأمون. وسبب ذلك ان مبادئ المعتزلة الدينية المشبعة بالفلسفة اليونانية كانت مفهومة لدى الخاصة من الناس وصعبت على مدارك العامة الذين تمسكوا بتعاليم الاسلام التقليدي. كان المأمون اكثر الخلفاء تحجرا في تفكيره واطلاعا على الفلسفة.

واستنادا على العقل والمناقشة المنطقية كما يقضي مذهب الاعتزال. ومع ذلك لجا هو والمعتزلة الى العنف والقسوة في فرض مبدأ "خلق القرآن" وغيره من مبادئ المعتزلة. وكان الاجدر به وبهم ان يدركوا ان الاراء والعقائد ان لم تقبل اختيارا فمن المبعث فرضها بالقوة اذ ان العقيدة المفروضة تنزل بزوال القوة التي تدعيمها.

اختار المأمون قبل وفاته اخاه المعتصم لولاية العهد مفضلا لياه على ابنه العباس. وكادت تحصل فتنة في الجيش الذي كان يميل لابن لكن المأمون حذركها.

خلافة المعتصم (٨٣٢ - ٨٤٢)

هو ثامن خليفة عباسي، ابن هارون الرشيد من جارية اسمها ماردة. خلف اخاه المأمون وكان اول من استخدم العبيد الاتراك في الجيش ليتخلص من النفوذ الفارسي. ولما كثرت تجاوزات الجنود وضح منهم اهل بغداد، لم يستطع ان يضبط عسكره فبنى مدينة سامراء شمال بغداد على نهر دجلة ونقل اليها عاصمة الملك فاصبح اسير القواد الاتراك. في سنة ٨٢٧ تغلب على ثورة قادها بابك الخرمي الذي حاصره قيصرو الروم ثيوفيلوس وكان قد غزا اراضي المسلمين ودمر مدينة زبطرة فرد عليه المعتصم بغزوة قهره فيها ودمر انقرة وعمورية. سار المعتصم على مبدأ الاعتزال وتابع سياسة اخيه المأمون في موضوع خلق القرآن وفي التشديد على المخالفين.

خلافة الواثق (٨٤٢ - ٨٤٧)

هو ابن الخليفة المعتصم من جارية اسمها قراطيس تولى الخلافة بعد ابيه وسار مثله على مبدأ الاعتزال واشتد بملاحقة المعترضين وبقي يتخذ سامراء عاصمة له. في زمنه تنامي نفوذ القواد الاتراك حتى اضطر الواثق الى منح قائد حرسه التركي لقب "سلطان". وكان الواثق خاتم الخلفاء في الدور العباسي الاول الذي هو العصر الذهبي الذي كان فيه العنصر الفارسي متغلبا في الدولة. وموت الواثق انتهت

"الحننة" وهي فترة اضطهاد الممارضين لمبدأ "خلق القرآن" وانقلب الأمر إلى التنكيل بالمرتزقة في عهد المتوكل ومن بعده.

الازدهار الاقتصادي (١١)

تمتعت الدولة العباسية في الدور الأول بانتعاش اقتصادي شمل النواحي الزراعية والتجارية وساعد عليه استقرار الأحوال السياسية نسبياً. فقد اهتمت الدولة بصيانة اقلية الري التي لاحتيا للمراق بدورها، وزادت في عددها. والتفتت نحو التجارة وعمادها سهولة المواصلات وأمن الطرق فانشأت شبكة من الطرق محورها بغداد فتشعب نحو جميع بلاد المملكة.

كانت خراسان أهم مقاطعة في الدولة العباسية لعبت دوراً حاسماً كما رأينا وكانت أكبر كثيراً بالمساحة من منطقة خراسان التي تقع الآن في الدولة الإيرانية. فقد ضمت الجزء الشمالي الغربي من أفغانستان الحالية، وامتدت شرقاً إلى مقاطعة باداخشان، وشمالاً إلى نهر جيحون (أمو داريا) وصحراء خوارزم. وقد قسم الجغرافيون المسلمون خراسان إلى أربع مناطق على أسماء مدنها الأربع الرئيسية وهي: نيسابور، ومرو، وهرات، وملخ. وشكل نهرها الكبيران نهر هرات ونهر مرو ظاهرة طبيعية ميزت المنطقة واغنتها.

فيما وراء نهر جيحون، وبينه وبين نهر سيحون (سيرو داريا)، تقع منطقة الصفد التي تضم المدينتين العظيمتين في التاريخ الإسلامي سمرقند وبخاري كلتاهما على نهر الصفد. مع امتداد نهر سيحون من فرغانة قرب حدود الصحراء الصينية إلى مدينة شاش (طاشقند الحديثة) تقع مواطن الأتراك الذين سيطروا فيما بعد على الدولة.

اشهر الطرق في الدولة العباسية كان طريق خراسان الذي يصل بغداد مع مدن الحدود على نهر سيحون قرب الحدود الصينية. وكان هذا "طريق الحرير" ذا الشهرة العالمية في ذلك الزمن الذي يصل الصين بالمناطق الغربية وأوروبا. وبواسطته حصل المسلمون على صناعة الورق التي كانت أساس ازدهار العلوم. عدا عن فوائده التجارية العظيمة.

كان هذا الطريق يبدأ من بوابة خراسان في بغداد ويمر شرقاً فيقطع عدداً كبيراً من الأنهر والترع على جسور حسنة البناء ويتسلق مرتفعات

فارس الى مدينة كرمنشاه عاصمة كردستان. ومنها يسير شمالا شرقا الى مدينة همدان ثم مدينة الري. ويتجه شرقا الى نيسابور وطوس ثم الى مرو. من مرو كان الطريق يقطع الصحراء الى ضفاف نهر سيحون ثم يصل الى بخارى ويعدّها الى سمرقند في مقاطعة الصفد. ثم يتفرع الطريق بعد مسافة قصيرة شرق سمرقند، فيذهب فرع شمالا الى طاشقند وفرع آخر الى فرغانة. وكانت تتفرع من طريق خراسان الرئيسي طرقات عديدة لمناطق ومدن اخرى.

من بغداد كان طريق آخر يتجه جنوبا فيمر بواسط والبصرة ثم يتجه شرقا الى خوزستان ومنها الى مدينة شيراز التي كانت مجمعا لعدة طرق متفرعة احدها يسير شمالا الى اصفهان ثم الى الري، وطريق آخر يتجه شمالا شرقا فيقطع الصحراء الايرانية الكبرى الى نيسابور، وطريق ثالث يتجه جنوبا الى موانئ الخليج الفارس.

نعود الى بغداد حيث يسير طريق الحج الكبير جنوبا الى الكوفة ثم يقطع الصحراء في خط مستقيم الى الحجاز. وطريق آخر للحج يذهب الى البصرة ومنها الى الحجاز.

من بغداد ايضا يتجه طريق الى مدينة الانبار على الفرات ويصعد مع مجرى النهر شمالا الى الرقة حيث تتفرع عدة طرقات غربا الى حلب ودمشق، وشمالا الى مدن الحدود مع بيزنطية. كذلك كانت هناك طرق تسير من بغداد شمالا على ضفتي دجلة الى الموصل ومنها الى الثغور (مدن الحدود). بهذه الشبكة من الطرق استطاعت بغداد ان تصبح احدي اهم المدن التجارية في العالم. بالاضافة الى ذلك طور العباسيون ميناء البصرة فاصبح مركزا لتخزين البضائع وتوزيعها وتحولت اليه التجارة الدولية ومنه سافر التجار الى الهند وسيلان والصين.

لم يكن للعباسيين باع طويلة في الفتوحات فقد استكملت كلها تقريبا في عهد الامويين وانصرف اهتمام آل عباس الى المحافظة على ما ورثوه. وعندما استقرت لهم الخلافة عادوا الى المناوشة مع الروم فكانوا يتبادلون الغزوات دون نجاح يذكر لاي من الفريقين. وقد اصاب العباسيون تحصين الثغور، اي مدن الحدود. من غزواتهم ووصولهم الى باكو على شاطئ البحر

الاسود والى قندهار وكشمير حيث هدموا فيها تمثالا كبيرا لبوذا. لكنها كانت غزوات عابرة لم تؤدِ الى احتلال دائم.

خلاصة الدور العباسي الاول

خلاصة ما يقال عن الدور العباسي الاول انه بعد فترة اختصار دامت قرنا، ادى الامتزاج الجنسي واللقاح الفكري الى نهضة علمية رائعة. ففي ذلك الزمن وضعت باللغة العربية اسس كل العلوم تقريبا ودونت، ولم تكن قبل ذلك محفوظلة ومجموعة، منها علم الحديث وتفسير القرآن، وعلم النحو الذي كتب فيه سيبويه وغيره، وعلم عروض الشعر للخليل بن احمد، وجمع عماد الراية العلاقات كما جمع الفضل الضبي المغضليات، ودون الاصمعي الاصمعيات، ووضع الجاحظ وابن قتيبة اسس الكتب الادبية، ودون التاريخ ابن اسحق والواقدي. وقل ان نرى علما اسلاميا فشا ولم يكن قد وضع في الدور العباسي الاول.

وقد ذكرنا عن الشعر وتطوره وانتقاله من شعر البداوة الجاف المعقد الى الجذالة والسهولة، وتخليه عن وصف حياة الخيام الى تصوير مجتمع الحضارة الجديدة.

في هذا العصر ايضا وضعت المذاهب الفقهية الاربعة وانتشرت، وترجم السريان الفلسفة اليونانية التي اخذت طريقها الى العلوم الاسلامية فظهرت اثارها في علم الكلام وفي مبادئ المنزلة، كما ترجموا كتب المنطق والفلك والطب والهندسة والرياضيات فاغترف منها العلماء المسلمون و اضافوا اليها.

نشأت الى جانب هذه العلوم الدينية والفلسفية والادبية نواة للعلوم الطبيعية تركزت حول الطب. فقد اسس النساطرة مدرسة للطب في مدينة جنديسابور مقتبسين من علوم الطب اليوناني، وتكونت حولها دراسة فروع العلوم الطبيعية الاخرى كعلم الفلك والكيمياء والفيزياء ولم تكن هذه العلوم بعيدة عن الفلسفة فقد كانت الفلسفة متلازمة مع الطب كما نرى في الفارابي وابن سينا فقد كانا طبيبين وفيلسوفين.

وكان هذا العصر ايضا عصر الانفتاح العقلي على مختلف التيارات. وكان عصر تشكيك بكل شيء تناول المعتقدات الدينية، والقيم الاخلاقية،

والحياة الاجتماعية وماداتها وكل ما يحيط بها.

وكان عصرنا انتعشت فيه الفنون من شعر وغناء ورقص وفنقش وبناء وما يرافقها من تحمس بالجمال وسمي وراء اللذة والعيش الرغيد لمن استطاع. وكان العنصر الأهم المساعد كثرة الجوارى والرقائق. وبالأجمال كان عصر تحرر فكري فسهى وشك بالمعتقدات، وأقبل على العلم وقذوق الأدب والشعر الجديد، وتمتع بالملذات.

هذا من ناحية الآداب والعلوم. وقد تلاقى ذلك مع تنظيم دوائر الدولة التي تتعاطى بأمور الناس وقد ذكرنا شيئا منها. في النواحي الإدارية، وضع القاضي أبو يوسف كتابه "الخراج" في عهد هارون الرشيد نظم فيه الضرائب على الأرض الزراعية وغيرها، ووضع الفقهاء قوانين تتعلق بالأسائل الجنائية والأحوال الشخصية، ووضع الإداريون نظاما إداريا للشرطة والجيش والبريد والتجارة وغيرها، ورعى بعض الخلفاء والنوالة العلوم على اختلافها دون أن تتحمل الدولة مسؤولية نشر العلم وتعميمه. لكن هذه التدابير التي لا تقوم دولة بدونها تغلب عليها الصفة الإدارية والتنظيمية ولا تخبرنا شيئا عن النظرية السياسية الإسلامية في هذا العصر التي تستوعب الإدارة وتشمل صلاحية الحكام وحقوق المواطنين وطبيعة العلاقة بين الفئتين، سواء كانت هذه النظرية فيوقراطية أي حكما دينيا، أو دكتاتورية، أو ملكية وراثية، أو ديمقراطية، كما لا نجد ذكرا للمؤسسات السياسية التي أقامها الخلفاء والتي لا تستطيع الدولة أن تطبق نظريتها في الحكم إلا من خلالها. وهذا هو موضوع كتابنا.

ما هي حقيقة هذه المدنية بصورة عامة؟ يقول الدكتور فلييب حتي :
"لقد استولى العرب على أمصار كانت أقدم مراكز الحضارة في العالم بأسره. ولم يكن للعرب القادمين من الجزيرة علم أو أدب أو نظام يطبقونه على الأمم المغلوبة بل اقتبسوا كل ذلك عنها. ففي المدائن والرها ونصيبين ودمشق والقدس والاسكندرية شاهدوا أمثلة رائعة من يدائع المهندسين والصناع والصاغة فقلدوها. لقد غلبوا أما متحضرة مريقة وخضعوا بدورهم لحضارة الأمم التي غلبوها فأصبح المغلوب غالبا.

"أذن فهذه المدنية التي ندعوها المدنية العربية لم تكن عربية في أصولها

أو أركانها ولا بجنسية أربابها، وإنما كان أثر العرب فيها مقتصرًا على اللغة والدين. وقد برز الفرس العرب حتى في هذين المجالين، ولم تزدهر دول الإسلام حتى قام السوريون والفرس والمصريون وغيرهم سواء من أسلم منهم ومن بقي على نصرانيته أو يهوديته أو مجوسيته طوال تلك الحقبة يتقدمون صفوف الأمة حاملين مشعل النور والعرفان، شأن اليونان لما غلبهم الرومان.

فالمدينة الإسلامية اذن قامت على أساس المدينة الآرامية - الهيلينية والمدينة الإيرانية وصيرت من نفسها باللسان العربي، وبكلام آخر، فهذه المدينة العربية - الإسلامية هي تكملة للمدينة السامية العريقة التي زهت في الهلال الخصيب ابتدعها ورعاها الآشوريون والبابليون والفينيقيون والآراميون والمبرانيون ثم أكمل العرب عملهم* (١٢٠). (انتهى)

ويقول الأستاذ الصادق النيهوم : "إن منجزات العلماء المسلمين لا علاقة لها بالإسلام، بل بموقع المسلمين في الشرق، أنها ثمرة حضارة قديمة قدم الأهرام نفسها تكفلت منذ الأزل بارتداد المعارف العلمية في الحساب والجبر والطب والكيمياء والفلك والهندسة ونجحت في تطويرها قبل الإسلام وبعده إلى مستويات رفيعة من الدقة والإبداع.

"إن الجبر والهندسة والفلك ليست علومًا إسلامية بل علوم فقط، أما العلوم الإسلامية فهي الشرع الجماعي، وحرية الرأي والعقيدة، ومسئولية المواطن عن سير الإدارة، وحقوق الإنسان، وتحرير الرقيق، وهي علوم لم يعرفها المسلمون، ولم تسمع عنها أدرانهم - لأول مرة - إلا في لغة رجل غير مسلم اسمه نابوليون بوناپرت* (١٢١) (لما احتل مصر عام ١٧٩٨). (انتهى)

لقد سبق وقلنا أن المسلمين أخذوا عن اليونان كثيرًا من الفلسفة والعلوم المختلفة عدا علم السياسة. ففي باب السياسة والحكم قلّد الخلفاء الأمويون والعباسيون قياصرة الروم وأكاسرة فارس فحكموا حكمًا شخصيًا استبداديًا مطلقًا برز أكثر الفقهاء في تأكيدهم على وجوب طاعة الرعية ووحدة الصف مهما بلغ ظلم الخليفة أو السلطان طالما لم يخرج على الدين.

وقد مارس الخلفاء حق القتل والسجن ومصادرة الأموال بلفظ منهم دون توجيه اتهام وإجراء تحقيق قضائي وإحالة إلى المحاكم، فأصبحت حرية الإنسان وحياته متوقفة على نزوة من الحاكم الذي يتأثر بنسيمة أو سماية أو

وشاية او غرض. وما اكثر ما قتل الخلفاء على هذا الشكل فغاب 'حكم القانون' الذي هو اساس كل مجتمع متحضر. ولم تكن الشريعة كافية لتحد من هذا الظلم ما دام الخليفة او السلطان يتقيد بالمظاهر الدينية. وقد سارت الاقوال في هذا الامر. منها : امور ثلاثة لا يجزىء عليها الا اهوج ولا يسلم منها الا القليل : صحة السلطان، وانتعان النساء على الاسرار، وشرب السم على الشجيرة. ومنها : قد خاطر من لجج في البحر، واشد منه مخاطرة من صاحبه السلطان. ومنها : احذر صحبة السلطان فان إقباله تغيب، واعراضه مذلّة.

هذا كان رأي المسلمين في خلفائهم وسلطينهم لانهم كانوا يعيشون في مجتمع غاب عنه "حكم القانون".

لم يكن العباسيون في دور ازدهارهم اكثر كفاءة من الامويين والراشدين فيما يتعلق باقامة المؤسسات السياسية التي فنظم انتقال الحكم، وتحمي المواطنين من تعسف الحكام. فقد اقتبسوا من الساسانيين الحكم الاستبدادي المطلق لكنهم اهملوا قانون تسلسل الملك وتركوا ذلك لاهواء الخلفاء فراينا الخيزران تقتال ابنها الهادي لانه حاول حرمان اخيه هارون واستخلاف ابنه. وقتل المأمون اخاه الامين الذي حاول ايضا نقل الخلافة الى ابنه خلافاً لوصية والده، ثم كادت تحدث فتنة لما استخلف المأمون اخاه المعتصم وحرم ابنه جعفر. وقتل المعتصم اباه المتوكل بمساعدة القواد الاتراك لانه خاف ان يحرمه من الخلافة، اربعة احداث حسام خضت الدولة العباسية في دور ازدهارها وقوتها في اقل من مئة عام لكن ذلك لم ينه المسلمين الى ضرورة اقامة المؤسسات السياسية التي تتلافى هذا النقص الدستوري.

الدور العباسي الثاني

الدور التركي (٨٤٧ - ٩٤٥)

بدأ انهيار السلطة العباسية من خلافة المعتصم (٨٤٢-٨٤٧) الذي اكثر من استخدام الجنود العبيد في حرمه وكان اكثرهم اقراك، وفقد السيطرة عليهم فعاثوا في بغداد خرابا وتعديات فاضطر الى نقل عاصمته الى سامراء سنة ٨٤٦ التي بناها على بعد حوالي مائة كيلومتر الى الشمال من بغداد على

نهر دجلة فاصبح شبه اسير قواده.

تنامى نفوذ الاتراك خلال عهد ابنه الواثق الذي اضطر ان يمنح قائد حرسه التركي لقب "سلطان". واستكمل ضياح السلطة الخليفية لما تأمر المنتصر ابن المتوكل مع القواد الاتراك على قتل والده لانه خاف ان يوصي بالخلافة لغيره. وتولى المنتصر الخلافة (٨٦١) لكنه لم يهنأ بها لان الاتراك عزلوه بعد سنة.

منذ ذلك الوقت، وإلى ان دخل المغول بغداد سنة ١٢٥٨ ودمروا المدينة وقتلوا المستعصم آخر خليفة عباسي، وخلال ادوار الاتراك وآل بويه وآل سلجوق توالى على الحكم عشرون خليفة في نحو اربعماية سنة عاشوا في ذل ومهانة ولم يكن لهم من الامر شيء، عدا قلة منهم سنذكرهم.

واذا كان من الصعب التكلم عن نظرية سياسية اسلامية ومؤسسات سياسية في عهود الراشدين والامويين والخلفاء التسع الأول من العباسيين، فان الحكم بعد ذلك اصبح غابة سائبة يتناوشها القواد المسلحون الاقوياء ويتخذون من الخليفة ستارا شرعيا تجاه العامة.

ولا قام فقيهان في هذه العهود الذليلة يبحثان في السياسة والحكم كابني الحسين الماوردي (٩٧٤ - ١٠٥٨) وابني حميد الغزالي (١٠٥٨ - ١١١١) انصرف لاهتمامهما الى استنباط الآراء التي تبرر تسلط السلاطين على الخلفاء، واختراع الاسباب الشرعية التي تحثم الطاعة على المسلمين لأي حاكم منتصب، ودعوة الناس الى الرضوخ لما كان وسيكون. وما ذلك الا لان المسلمين خلال اربعة قرون سابقة رفضوا ان يضعوا نظرية سياسية تتلاءم مع اوضاعهم كما رفضوا ان يقيموا المؤسسات السياسية التي تصون النظرية وتحميها. وسنستعرض فيما يلي احوال الخلفاء واحدا بعد آخر.

خلفاء الدور الثاني

٨٤٧-٨٦١

المتوكل

٨٦١-٨٦٢

المنتصر

٨٦٢-٨٦٦

المستعين

٨٦٦-٨٦٩

العتز

٨٦٩-٨٧٠	المهدي
٨٧٠-٨٩٢	المعتصم
٨٩٢-٩٠٢	المعتز
٩٠١-٩٠٨	المكتفي
٩٠٨	عبد الله ابن المعتز
٩٠٨-٩٢٢	المقتدر
٩٢٢-٩٢٤	الظاهر
٩٢٤-٩٤٠	الراضي
٩٤٠-٩٤٤	المعني

الخليفة المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١)

هو ابن المعتصم واخو الواثق. ولد في بغداد سنة ٨٢٢ وتولى في سامراء سنة ٨٦١ فيكون عمر ٣٩ سنة. لم يشغل المتوكل مناصب سياسية او عسكرية في شبابه لكنه كان مهتماً بالناقشات الدينية القائمة بين المعتزلة والتقليديين وكان منحازاً الى التقليديين "اهل الثقل" معاكساً للتيار الفكري والديني الذي ساد خلال خلافة المأمون والمعتصم والواثق.

تولى المتوكل الخلافة بمساعدة القواد الاتراك وقزلب إلى مشاعر العامة فبدأ حملة من الاضطهادات كانت سبباً عهده. اضطهد الشيعة ونكل بهم وهدم قبر الحسين في كربلاء واستولى على النذور الثمينة فيه ثم مسح ارضه ولم يترك له اثراً ومنع الشيعة من الحج إليه.

واستدار إلى اهل الذمة فاعاد العمل بالشروط العصرية التي فصلناها في الفصل الثالث، وهدم الكنائس، ومعاهد اليهود سنة ٨٥٠ واجبر النصارى واليهود على لبس ازياء تميزهم عن المسلمين. وقال الفقهاء في هذه الحقبة أن شهادة النصراني أو اليهودي لا تقوم على السلم.

لكن هذا الاضطهاد لم يؤخر المتوكل من اللجوء إلى طبيب نصراني هو حنين بن اسحق والاستعانة به وتعيينه طبيباً للقصر.

ونكل المتوكل بالمعتزلة وحارب مبادئهم ومنعهم من الدعوة إليها فاضطر المعتزلة إلى الاختفاء حتى لم يعد لهم اثر واستقر الأمر بعدد لاهل

النقل*.

في سنة ٨٥١ غضب المتوكل على وزيره ابن ابي داود فصادر ضياعه وامواله وحبسه مع سائر اولاده واحضر يحيى بن اكثم من بغداد الى سامراء وولاه رئاسة القضاء ثم ديوان المظالم.

شعر ابنه المنتصر ان والده ينوي ان يقدم عليه اخاه المعتز فتآمر عليه مع القاندين التركيين وصيف وبغا وقتله سنة ٨٦١ وتولى الخلافة.

الخلافة المنتصرة (٨٦١-٨٦٢)

تولى الخلافة بعد مقتل والده وحكم سنة واحدة ثم خلعه الجند.

الخلافة المستعينة (٨٦٢-٨٦٦)

اسمه احمد بن محمد ابن الخلافة المعتصم. بويح بعد المنتصر وعمره ٢٨ سنة. حاول ان يحد من سيطرة الاتراك مما ادى الى حصار بغداد (٨٦٥ - ٨٦٦) والاستيلاء عليها ثم اجبره القواد الاتراك فخلع نفسه وباع ابن عمه المعتز ابن المتوكل الذي امر بعدئذ بقتله.

الخلافة المعتزة (٨٦٦-٨٦٩)

هو ابن المتوكل تولى الحكم بعدما تنازل له عنه المستعين مضطرا فلم يلبث ان امر بقتل المستعين. ما بين ٨٦٢ و ٨٦٩ حاول الخلفاء ان يحدوا من تسلط الاتراك فمزل المعتز القاندين وصيف وبغا وقام الجند عليهما وقتلوهما لانهما عجزوا عن دفع الرواتب. ثم ثار الجند على المعتز وطالبوه بالمال ولم يكن عنده شيء منه وانما كان لوالدته اموال كثيرة محببة لكنها رفضت ان تنجده فضرهوه بالدبابيس واقاموه في الشمس ومنعوا عنه الطعام والشراب حتى مات.

الخلافة المهتدية (٨٦٦ - ٨٧٠)

هو محمد ابن الخلافة الواثق امه جارية رومية ولقب بالمهتدي. جاء القواد بالمعتز قبل قتله فخلع نفسه واستخلف ابن الواثق اي ابن عمه فبايعه الناس. ثم ثار عليه الاتراك فقاتلهم فاسروه ثم احضروا ابا العباس احمد ابن

المتوكل وكان محبوبا قبايعه الاتراك والناس تحت اسم "المعتد" وتتلوا المهتدي ثاني يوم للبيعة، وفي رواية انهم جزوا المهتدي وداسوا خصيته وضربوه حتى مات.

في عهد المهتدي بدأت ثورة الزنج (٨٦٨ - ٨٨٢) واستمرت طوال عهده وعهد خلفه المعتد اي طيلة سبع عشرة سنة فانهدمت الدولة وهدرت مواردها.

ثورة الزنج (٨٦٨ - ٨٨٢)

قام بالثورة عبيد سود استوردتهم من شرق افريقيا ملاك زراعيون في البصرة لتجفيف المستنقعات المالحة شرق المدينة وعاملوهم بقسوة.

في شهر سبتمبر من عام ٨٦٩ قام شخص يدعى علي بن محمد ادعى الانتساب الى الامام علي وفاطمة الزهراء، يحرض العبيد على الثورة مشيرا الى الظلم الذي يمانون ويتعدونهم بالحرية والثروة. صارت وعوده اكثر استعالة للعبيد لما اتخذ مذهب الخوارج واعلن ان اي مسلم ولو كان عبدا يستطيع ان يتولى الخلافة، وان كل من ليس خارجيا فهو كافر يتوجب الجهاد ضده. وهكذا بدأت الحركة ثورة اجتماعية ثم ما لبثت ان امتزجت بالدين على عادة تلك الايام.

تزايدت قوة الثوار بسرعة وانضمت اليهم كتائب من الجنود السود في جيش الخليفة واعداد من الفلاحين الناقمين على اوضاعهم. بعد شهر من قيام الثورة تغلب الثوار على قوة قادمة من البصرة وانشأوا عاصمة لهم سموها المختارة على بقعة ارض جافة ضمن المستنقعات تحيط بها اقنية مياه.

ثم استولوا على جنوب العراق وقطعوا المواصلات الى البصرة كما استولوا على الاهواز في جنوب غرب ايران.

الخليفة المعتد (٨٧٠ - ٨٩٢)

بعدما قتل الاتراك الخليفة المهتدي عينوا ابن عمه المعتد على الله ابن المتوكل الذي انشغل بطيلة عهده باخماد ثورة الزنج ثم بشورة القرامطة. وضع المعتد اخاه الموفق على راس الجيش لمحاربة الثوار لكنه لم يفلح

في البداية فقد نهب الزنج مدينة البصرة في شهر سبتمبر ٨٧٠ وهزموا الموفق نفسه سنة ٨٧٢ واحتلوا جنوب العراق. ثم استولوا على مدينة واسط سنة ٨٧٨ وتمركزوا في خوزستان فيما كان الموفق في شرق ايران يقاوم مطامع لبت الصفار الذي اقام الدولة الصفورية. على ان الموفق تمكن سنة ٨٧٩ من تجريد حملة كبيرة لاستولى على مدينة "المنيعه" وهي المدينة الثانية للزنج، ثم طردهم من خوزستان، وفي ربيع ٨٨١ حاصر المختارة وبعد سنتين قضى على الثورة وعاد الى بغداد برأس علي ابن محمد. وقد توفي الموفق بمرض نحر سنة ٨٨٩.

بالاضافة الى هذه الثورة الاجتماعية قامت اضطرابات في خراسان وطبرستان ومصر ومناطق اخرى، وبدأت اقاليم الدولة البعيدة تنفصل عمليا عن العاصمة.

في اخر عهد المعتمد سنة ٨٩٠ قامت ثورة اخرى اكبر في جنوب العراق قادها حمدان قرصط وهي ثورة لفرقة من الاسماعيلية ضد الخلافة السنية استمرت الى سنة ١٠٧٨ وشملت عدة مناطق في بلاد الخلافة.

في تلك السنة ايضا (٨٩٠) اسس الحمدانيون اماره مستقلة في الموصل وحلب، وهكذا بعد اقل من قرنين من بداية الحكم العباسي، وبعد سبع وثلاثين سنة من وفاة المأمون الذي ترك مملكة موحدة، صار العراق بفضل القواد الاثراك، المنطقة الوحيدة التي تحكمها الخلافة. فقد صارت خراسان وما وراء النهر لابن سامان وذريته من بعده، وبلاد البحرين وعمان للقرامطة، واليمن لابن طباطبا، واصفهان وفارس لبني بويه، ومصر لابن طولون، وحلب للحمدايين، وانحصرت سلطة الخليفة في دائرة ضيقة حول بغداد فاخفت الوحدة السياسية والفكرية والاجتماعية التي كانت تؤخذ اتجاه المسلمين وصار كل قطر وحاكم على رايه (١١٤). (راجع الدويلات الإسلامية في الفصل الثامن).
 مما يذكر للمعتمد انه اعاد العاصمة من سامراء الى بغداد حيث بقيت الى نهاية الخلافة العباسية.

الخليفة المعتضد (٨٩٢ - ٩٠٢)

كان المعتمد قد استخلف ابنه جعفر الملقب المفوض الى الله. لكنه عندما

توفي الموفق أخو المعتمد سنة ٨٨٩ اجتمع القواد وهايموا ابن الموفق ابا العباس على ان يلي الخلافة بعد الموفق الى الله، ولقبوه المعتضد بالله، لكن المعتمد، وحث ضغط المعتضد والقواد الذين ناصروه، خرج الى الناس سنة ٨٩١ وجلس للقواد والقضاة ووجه الناس واعلمهم انه خلق ابنه جعفر الموفق الى الله من ولاية العهد لمصلحة المعتضد بالله ابي العباس ابن الموفق. وفي صبيحة الليلة التي مات فيها المعتمد هوى للمعتضد.

تصالح المعتضد مع الطولونيين في مصر وتزوج منهم، وفي عهده تعزز استقلال السامانيين والحمدانيين.

عمل المعتضد على تنظيم الادارة واصلاح النظام المالي واخذ ثورات قام بها العلويون والصفيون لكن اهم ما شغله كانت ثورة القرامطة الذين حاربهم لكنهم انتصروا عليه.

للخليفة المكتفي (٩٠٢ - ٩٠٨)

هو ابن المعتضد وامه جارية تركية. قاد حروبا على عدة جبهات رغم ضعف الدولة. واجه القرامطة وتغلب عليهم سنة ٩٠٢ وهزمهم في معركة كبرى سنة ٩٠٧ لكنهم لم يستسلموا. انتهى المكتفي الحكم الطولوني في مصر وان لم يستطع منع قيام الدولة الفاطمية في تونس، في حرب مع البيزنطيين تغلب عليهم في معارك جرت في طرسوس وجوارها. وتوفي بمرض وكان عمره ثلاث وثلاثين سنة.

عبد الله ابن المعتز، والمقتدر (٩٠٨ - ٩٢٢)

المقتدر هو ابو الفضل جعفر ابن المعتضد لقب المقتدر بالله امه جارية تركية. تولى الخلافة بعد ابيه المكتفي لكنه خلع بعد سنة وباع الناس لعبد الله ابن المعتز سنة ٩٠٨ واتخذ لقب المرتضي فكتب الى المقتدر يأمره بتسليم دار الخلافة. فاجابه بالقبول وسأله الامهالي الى الليل. في خلال ذلك انقلب الوضع على عبد الله ابن المعتز ووقعت الفتنة والنهب والسلب في بغداد فخلع ابن المعتز وقتل وعادت الخلافة الى المقتدر. فكانت مدة خلافة ابن المعتز يوما واحدا. كان لاديبا شاعروا من اوائل الذين طوّروا الادب العربي في القرن

التاسع. ألف كتاب "البديع" الذي وصف فيه حياة الخلفاء وسجنتهم في ذلك العصر.

أما المقتدر فدامت خلافته أربعاً وعشرين سنة وكان عاجزاً عن الحكم، وزاد في الغوضى تدخل أمه التركية بشئون الدولة. وقد أسند المقتدر إدارة الدولة إلى الخصى مؤنس المظفر رئيس حرسه وخصته بلقب أمير الأمراء فاستبد بالأمور.

في هذا العهد، وبسبب عجز الحكومة عن دفع رواتب الجنود، بدأت الدولة توزع الأمصار بين الولاة والقواد يستغلونها لصلحتهم ويسدقون مصاريق الجيش من مواردها مع تقديم اتاة سنوية للعاصمة وعده من الجنود وقت الحرب وقد كانت سابقة سيئة إذ استمر العمل بهذا الترتيب الاقطاعي العسكري في عهد البويهيين والسلاجقة مما كان سبباً رئيسياً في تفكك الدولة ونشوء أمارات مستقلة في اقطار كثيرة.

توالى على الوزارة في عهد المقتدر ثلاثة عشر وزيراً منهم الخطاط الشهير ابن مقلة الذي تولى الوزارة ثلاث مرات ومات مسجوناً. ومن الوزراء علي بن عيسى الذي امتاز بالمقدرة والنزاهة وتولى الوزارة مرتين. ومنهم أبو الحسن ابن الفرات الذي تولى الوزارة ثلاث مرات وكان المقتدر يقبض عليه في كل مرة ويصادر أمواله.

في عهد المقتدر استولى القرامطة على البصرة والكوفة سنة ٩٢٥ وهددوا بغداد وهاجموا مكة في موسم الحج سنة ٩٢٩ ونقلوا الحجر الأسود إلى الاحساء لاثهار قدرتهم على تحدي الخلافة العباسية وإثبات عجزها عن حماية المقدسات الاسلامية.

في زمنه ظهر عبيد الله الفاطمي في شمال افريقيا (٩٠٩)، وعبد الرحمن الثالث الأموي في الاندلس (٩٢٩) وأعلن كلّ منهما خلافته بحيث وُجد في العالم الاسلامي ثلاث خلفاء في وقت واحد، فكان ذلك أحباطاً لفكرة ومبدأ الخلافة الاسلامية الجامعة.

في أواخر عهده خلفه مؤنس وباع أخاه الفاهر فكانت المرة الثانية التي يُخلع فيها المقتدر بعدما خلفه عبد الله ابن المعتز ليوم واحد سنة ٩٠٨، وعاد المقتدر مرة ثانية إلى العرش لكن قوماً من العساكر المغاربة والبربر قتلوه

وحملوا رأسه الى مؤنس. (١١٤١)

الخلافة القاهر (٩٢٢-٩٢٤)

هو ابن المكتفي واخو المقتدر. بايعه أمير الامراء مؤنس بالخلافة لكن القواد الاقراك غضبوا عليه فخلعوه وسلوا عينيه فصار يستعطي في شوارع بغداد وهو يلبس ثوبا قطنيا وقبعا خشبيا.

الخلافة احمد الراضي (٩٢٤-٩٤٠)

هو ابن الخلافة القاهر. في عهده أصبح ابن رايق أمير الامراء يُخطب له مع الخلافة على جميع المناهج وهو امر لم يُعرف في تاريخ الاسلام من قبل. تنازل الراضي لأمير الامراء عن السلطة السياسية والزمنية واحتفظ فقط بالزعامة الدينية التي تضمني شيئا من الشرفية على تجاوزات القواد. وكان الراضي من الخلفاء القاتل الذين لم يُخلعوا لكنه قُتل كغيره بيد الجند.

الخلافة المكتفي (٩٤٠-٩٤٤)

هو آخر الخلفاء في الدور التركي وهو ابن القاهر وأخو الراضي. تآمر عليه ابن عمه عبد الله ابن الخلافة المكتفي مع القواد الاقراك فعزلوه وسلوا عينيه فصار مصيره كمصير والده القاهر.

بالإضافة الى ما فعله القواد الاقراك بالخلفاء من ذلّ وإهانة فقد عجزوا عن القيام بأبسط واجباتهم وهو حفظ الامن والنظام في المدن والريف فقد قامت النزاعات فيما بين القواد الاقراك الطامعين بالسلطة، وبينهم وبين القواد من الديلم وعناصر اخرى في الجيش، بحيث عمت الفوضى وساد القلق والاضطراب حتى في بغداد، واستقلت اقطار عديدة لعجز السلطة المركزية، واصبحت بعض امارات الاقاليم وراثية.

مع نهاية الدور الثاني يدخل تاريخ الخلافة الاسلامية متاهات يصعب تبيينها. فقد سيطر آل بويه ثم آل سلجوق على الخلافة. وفي حين بقي الخلافة في بغداد فقد اتخذ السلاطين لهم عواصم اخرى : آل بويه في

شيراز، وآل سلجوق في اصفهان ثم في همدان وابقوا الخليفة كرمز ديني معزولا في بغداد ليس له من الامر شيء. ثم طبقوا عادتهم بتقسيم المناطق بين الاخوة والابناء فانهارت الدولتان وكانت مصادفة غريبة اذ بدأ انهيار آل بويه بعد السلطان الثالث عضد الدولة. كذلك بدأ انهيار الدولة السلجوقية بعد السلطان الثالث ملكشاه. فكانت فترة الانهيار في الدولتين اطول بكثير من فترتي التسلط والازدهار.

ترافق الانهيار مع تقاتل السلاطين افراد العائلة الواحدة فيما بينهم بل كان الانهيار نتيجة لهذا التقاتل. وبالنظر لكثرة عددهم صار من الصعب تتبع حروبهم وتحالفاتهم وتناججها خصوصا وان التحالفات كانت تتغير وتبدل فالاخ الذي يقاتل اخاه يصبح حليفا له ضد اخ ثالث او ضد عم او ابن عم.

وقد رأينا من الضروري، ونحن نحاول استكشاف النظرية السياسية الاسلامية ان نضيف بعض هذه الاحداث واحوال الخلفاء والسلاطين ليأخذ القارئ فكرة عن المجتمع الاسلامي في هذين المهددين اللذين داما زهاء ثلاثة قرون من ٩٤٥ - ١٢٥٨، اي اطول من نصف مدة الخلافة العباسية بكاملها. وقد فعلنا ذلك رغم صعوبة متابعة الاحوال المتشابهة فيما بين السلاطين، وبينهم وبين الخلفاء الذين عاصروهم. ولم يذهب جهدنا عبثا فقد رأينا عالين من علماء المسلمين هما ابرو الحسن الماردي (٩٧٤-١٠٥٨) وابو الحميد الغزالي (١٠٥٨-١١١١) يتحفظان بنظريات سياسية تتلاءم مع العصر الذي عاشا فيه سنشرحهما في اخر هذا الفصل.

الدور العباسي الثالث

دور آل بويه (٩٤٥-١٠٥٥)

الدولة البويهية دولة فارسية شيعية تنتسب الى احمد بن ابي شجاع بويه زعيم قبيلة في منطقة الديلم في شمال ايران تقع على الساحل الجنوبي من بحر قزوين كان في خدمة آل سامان وهو يندمي الانتساب الى الملوك الساسانيين.

أسس الدولة أولاده الثلاثة علي وحسن واحمد الذين توغلوا جثويا فاحتلوا اصفهان وفارس ومنطقة الجبال وخوزستان وكرمان (٩٢٥-٩٢٦) وجعلوا شيراز عاصمتهم.

زحف احمد على بغداد وهزم الحرس التركي فأنهى بذلك الدور العباسي الثاني ودخل المدينة في ديسمبر (كانون الاول) ٩٤٥ فاستقبله الخليفة المستكفي وجعله امير الامراء وانعم عليه وعلى اخوته باللقاب شرفية طفاة فصار احمد معز الدولة كما انعم على علي بلقب عماد الدولة، وعلى حسن بلقب ركن الدولة.

لبقى آل بويه على الخلافة السنية بظهرها الديني استمالة للعامة لكنهم فرضوا سيطرتهم على الخليفة فورا فامر معز الدولة ان يُذكر اسمه مع اسم الخليفة في خطبة الجمعة وضرب اسمه على المسكوكات النقدية.

اقام آل بويه شعائر الشيعة واخصها اعلان المناحة في عاشورار ذكرى مقتل الحسين، والاحتفال بعيد الغدير تذكارا لما يقولون بان النبي اختار عليا خليفة له في غدير الخم بقوله "من كنت مولاه فعلي مولاه"، كما ساعدوا على انتشار الدعوة الفاطمية الاسماعيلية في العراق وغيره من الامصار بوجهيها الديني والثقافي.

حكم آل بويه الخلافة من عاصمتهم شيراز ولم يقيموا في بغداد ففقدت هذه مكانتها ونافستها مدن اخرى مثل قرطبة والقاهرة وشيراز واصفهان. وفي عهدهم ازدهرت جمعية "اخوان الصفا" الاسماعيلية فقد شجع آل بويه الحركات الشيعية على اختلافها ليستقروا بها لكن دولتهم تداعت بسرعة لاسباب من اهمها انهم تبعوا التقليد التركي بقسمة البلاد بين الابناء والاخوة فكان من الطبيعي ان تستعر الخصومات العائلية وتغشب الحروب فقد كان كل حاكم وسلطان يطمع بتوسيع ملكه على حساب غيره من اقاربه، كما ان مذهبهم الشيعي ابعد عنهم رعاياهم السنة.

في سنة ١٠٥٥ دخل طغرل بك السلجوقي بغداد وقضى على سيادة آل بويه وكان اخر امرائهم في العراق الملك الرحيم (١٠٤٨-١٠٥٥) وقد قضى سجننا.

سلطين آل بويه (٩٤٠-١٠٥٥)

٩٤٠ - ٩٦٧	احمد بن بويه (معز الدولة)
٩٦٧ - ٩٧٧	عز الدولة ابن معز الدولة
٩٧٧ - ٩٨٣	عضد الدولة ابن ركن الدولة
٩٨٣ - ٩٨٩	شرف الدولة ابن عضد الدولة
٩٨٩ - ١٠١٢	بهاء الدولة الابن الثاني لعضد الدولة
١٠١٢ - ١٠٢٤	سلطان الدولة ابو شجاع ابن بهاء الدولة
	نولي اخاه جلال الدولة البصرة، واخاه ابا الفوارس اقليم كرماني
١٠٢٤ - ١٠٤٤	جلال الدولة ابن بهاء الدولة
	محمي الدين ابو كاليبجار المزياني
١٠٤٤ - ١٠٤٨	ابن سلطان الدولة
١٠٤٨ - ١٠٥٥	الملك الرحيم ابن ابي كاليبجار

تفكك دولة آل بويه

يلاحظ ان تماسك دولة آل بويه استمر تحت حكم معز الدولة وابنه عز الدولة، وبلغت اوجها في عهد عضد الدولة ابن ركن الدولة، اي من سنة ٩٤٠ الى ٩٨٣ حين وفاة عضد الدولة. ثم بدأ الانهيار السريع. من اسباب ذلك كما قلنا ان قبائل آل بويه الديلمية، مثلها مثل باقي القبائل التركية، كانت تعتبر ان الحكم والملك من حق افراد العائلة جميعا وليس محصورا في كبير العائلة وذريته المباشرة. فكان الاخوة يتقسمون المناطق ويحكمونها بما يشابه الاستقلال، ثم يقسمون هذه المناطق بين اولادهم فيتكاثر عدد السلطين وتزداد المناحرات والحروب بينهم وتزول وحدة الدولة وتصبح كل مدينة او مقاطعة صغيرة دولة مستقلة تتقاتل مع جاراتها.

في الصفحات اللاحقة اخبار بعض هذه المناحرات. وقد ساعد عامل اخر على هذا التفكك، فسيورة الدور التركي ودور آل بويه مليئة بالانشارات الى عصيان الجند وشوراتهم على الخلفاء والسلطين حينما يعجزون عن دفع

استحقاقاتهم. تلافياً لذلك تابع الصلاطين سياسة منح القواد اقطاعات ابي مقاطعات يجبون منها الضرائب بدل الدولة ويدفعون استحقاقات الجند من هذه الضرائب. ومع الوقت استقل هؤلاء القواد بمقاطعاتهم. وجرى مثل ذلك في دور آل سلجوق.

الخلفاء في عهد آل بويه (٩٤٥-١٠٥٥)

المستكفي	٩٤٤ - ٩٤٦	امر السلطان معز الدولة بعزله وسمل عينيه.
المطيع	٩٤٦ - ٩٧٤	
الطائع	٩٧٤ - ٩٩١	عزله السلطان بهاء الدولة.
القادر	٩٩١ - ١٠٢١	
القائم	١٠٢١ - ١٠٥٥	

الخلافة المستكفي (٩٤٤-٩٤٦)

هو عبد الله ابن الخليفة المكتفي وقد تآمر مع القواد الاراك علي ابن عمه المتقي ليحل محله فعزلوه وسملوا عينيه والقوه يستجدي في شوارع بغداد. ولم يطل الامر بالمستكفي حتى لحقه ما لحق بالقاهر والمتقي فقد امر امير الامراء البويهبي معز الدولة بعزله وسمل عينيه فاصبح في بغداد في وقت واحد ثلاث خلفاء مخلوصين وصبيان يستجدون في الشوارع. في زمن المستكفي تقلصت سلطة الخليفة حتى لم تعد تتجاوز مدينة بغداد.

الخلافة المطيع (٩٤٦-٩٧٤)

هو امين المقتدر واخو الراضي والمتقي. ترك لنا رسالة قدل على منزلة الخليفة في تلك العهود. فقد طلب منه امير الامراء معز الدولة مالا يحجة لن الجهاد هو من واجبات الامام واصر بالطلب فاجابه المطيع بالرسالة التالية ،
"ان الجهاد يلزمي اذا كانت الدنيا في يدي. اما الان وليس لي منها الا القوت القاصر عن كفائي، وهي في ايديكم، وايدي اصحاب الاطراف

«القاليم». فما يلزمني غزو ولا حج ولا شيء مما تنتظر الأئمة فيه، وإنما لكم مني هذا الاسم الذي تخطبون به على منابركم تسكنون به رعاياكم، فإن أحببتكم إن اعتزلت اعتزلت من هذا المقدار أيضا وتركت لكم الأمر كله». (١١١)

كان معز الدولة وغيره من سلاطين بني بويه غير مكترئين بأحوال الشعب فقد كانوا يعرضون الوظائف على من يدفع فيها ثمنًا أكبر ثم يعزلون الموظفين بعدما يغتنون ويصادرون أموالهم وأموالهم، ويعيدون بيع الوظائف. ومن الطبيعي أن من يشتري الوظيفة يحاول أن يستعيد ما دفعه فيحصله من أموال السكان عن طريق الرشوة والفساد فسامت أحوال البلاد والإدارة العامة.

الخليفة الطائع (٩٧٤-٩٩١)

هو ابن الطائع لم تكن حاله أفضل من حال أبيه، فقد قبض عليه أمير الأمراء البويهيين بهاء الدولة طمعا بماله لأن الأموال قلت عنده وشغب الجند عليه فدخلوا على الخليفة وجروه ونهبوا ما في داره، ونهب الناس بعضهم بعضا وكان من جملة الذين نهبوا الإمام الشريف الرضي. وحمل الطائع إلى بيت بهاء الدولة فاشهد عليه بالخلع ونصب مكانه القادر ابن المتقي.

الخليفة القادر (٩٩١-١٠٢١)

القادر هو ابن المتقي ترافقت خلافته مع تفكك الدولة البويهية. فقد قُسمت الدولة بعد عهد عضد الدولة (٩٤٩-٩٨٢) بين أولاده وأولاد أولاده وأدت كثرة الحروب بين أفراد هذه الأسرة إلى إضعافها وزوال ملكها، ولهذا عمت الفوضى في البلاد واستفحلت الفتن، ويبدو أن الخليفة القادر آنس فرصة في ضعف آل بويه فقاوم الدعوة الفاطمية وعزل القضاة الشيعة وعين قضاة سنة محلهم.

في زمن القادر استفحل أمر العيارين والسطار في بغداد وكان فيهم من هو عباسي وعلوي فاعتدوا على الناس ونهبوا المتاجر والمنازل. والعيارون

جماعات مسلمة من سكان بغداد اربهاوا العاصمة في عهد آل بويه بسبب ضعف الحكومة فقرضوا الضرائب على الاسواق والطرق واحرقوا الاحياء الغنية والمخازن بعد نهبها، واستغلوا المصادمات المتواصلة بين السنة والشيعة فانحازوا الى الفريق الأكثر قدرة على الدفع، ودام هذا الوضع الى ما بعد دخول السلاجقة الى بغداد، من جملة هذه الاضطرابات انه في سنة ١٠١٢ حصل خلاف بمناسبة جنازة للنصاري فهاجموا الكنيسة ونهبوها كما نهبوا دورهم ومنازلهم.

تكررت الاصطدامات بين السنة والشيعة كل سنة تقريبا في موعد الاحتفال بعاشوراء وبالعدير وكان اهمها ما جرى عام ١٠٢١ اذ اهرقت الجماهير في هذه الفتنة دور الفقهاء وضريح الامام موسى ابن جعفر الصادق، وقبر زبيدة زوجة هارون الرشيد وقبور الخلفاء العباسيين وامراء بني بويه وخرت مخازن بغداد وقتل من الشريطين عدد كبير، ووقعت فتنة عظيمة أيضا بين الحنابلة والاشاعرة حتى توالى الاشاعرة من المجتمعات خوفا من الاعتداء.

الى جانب هذه الفتن المذهبية وقعت في بغداد والبصرة فتن ومصادمات بين الاتراك والديلم قتل فيها عدد كبير كما حدثت مواقع بين الاتراك والهاشميين.

في زمن الخليفة القادر تولى السلطان البويهى سلطان الدولة ابو شجاع ابن بهاء الدولة سنة ١٠٢٤ وخلفه ابنه محي الدين ابو كاليبجار الموزان لكن عمه ابا الفوارس حاكم كرمان نازعه على الممتلكات الايرانية فتغلب عليه ابو كاليبجار وضم كرمان الى اراضيه، ثم هاجم اراضي عمه الاخر جلال الدولة الذي كان يتولى البصرة وما حولها وتسبب بقيام حرب بين فرعي العائلة البويهية في ايران والعراق انتهت صلحا عام ١٠٢٧.

بعد وفاة عمه جلال الدولة عام ١٠٤٤ في عهد الخليفة القائم اصبح ابو كاليبجار السلطان الوحيد في العراق لكن قوة آل بويه تداعت امام زحف آل سلجوق، وقد حصن ابو كاليبجار عاصمته شيراز عام ١٠٤٤ ثم عقد حلفا مع طغرل بك السلجوقي لدرء خطره. لكن طغرل بك الغي الحلف بعد فترة قصيرة وهاجم ابا كاليبجار الذي قُتل عام ١٠٤٨ وهو يقود الجيش.

خلقه ابنه الملك الرحيم الذي كان آخر سلاطنة آل بويه وتوفي سجيناً بعد دخول طغرل بك الى بغداد عام ١٠٥٥.

التحليفة القائم (١٠٢١-١٠٧٥)

تولى القائم الخلافة بالوصية من والده القادر وهو ابن جارية ارمينية، وقيل رومية، اسمها قطر الندي. يُقسم عهده الطويل الى قسمين : القسم الاول من ١٠٢١-١٠٥٥ مضاه تحت سلطة آل بويه الشيعة، اما القسم الثاني من ١٠٥٥-١٠٧٥ فكان فيه تمازجاً مع السلطان السلجوقي طغرل بك على اعادة الهيبة للخلافة السنية ومقاومة الدعوة الاسماعيلية المنتشرة في العراق بتأييد الخلافة الفاطمية في مصر. ونبحث الآن القسم البويهى من خلافته. في اول سنة من خلافته تجددت الفتنة في بغداد بين السنة والشيعة فقد كانت الدعوة الاسماعيلية الوافدة من مصر ذات نشاط وعزم وكان آل بويه يناصرونها بصفتهم شيعة واستمرت القلاقل على هذا الشكل الى نهاية عهدهم. ثم عجز السلطان البويهى جلال الدولة عن دفع رواتب الجنود الاثراك فنهبوا بيته وفرّ من بغداد. وعظم امر العيارين الشطار فسادت الفوضى في العاصمة. تكررت هذه الاحداث خلال ما بقي من عهد آل بويه. ففي سنة ١٠٤٨ توفي السلطان ابو كاليجار وهو يقاوم طغرل بك السلجوقي وخلفه ابنه الملك الرحيم الذي حكم سبع سنوات حتى دخول طغرل بك بغداد. ولم يكن السلطان الجديد اكثر قدرة من سابقيه على حفظ الامن. ففي سنة ١٠٥٢ تكررت الفتنة بين السنة والشيعة وبيع ذلك مطالبة الجند الاثراك باستحقاقاتهم فعجز الملك الرحيم عن دفعها فسطا الجند على الاسواق والبيع ينهبونها كما نهبوا بيوت القائد البويهى رسلان البساسيري وامواله واملاكه. وتجددت الفتن ايضا بين الاشاعرة والحنابلة.

رغم ما اصاب بني بويه من تفكك وانحيار سريع بعد السلطان الثالث عضد الدولة (٩٨٢-٩٨٩) فان بعضهم رعى الآداب والعلوم فابو الفرج الاصفهاني مؤلف "الاغاني" عاصر السلطان عز الدولة، ويديع الزمان الهمذاني واضع "القمامات" عاصر السلطان بهاء الدولة، اما القاضي ابو الحسن الماوردي (٩٧٤-١٠٥٨) فقد عاصر معظم سلاطين آل بويه وتمتع برعايتهم.

الدور العباسي الرابع : دور آل سلجوق ١٠٥٥ - ١١٩٤

تتحدث العائلة من سلجوق زعيم قبائل ارغوز التركمانية، كانت مواطنها في تركستان فيما وراء نهر جيحون. في اوائل القرن الحادي عشر (١٠١٦) عبر النهر احقاد سلجوق : طغرل واخوه شاغري وعشما ارسلان مع قبائلهم وكانوا قد اعتنقوا المذهب السني، واصطدموا مع محمود الغزنوي ثم تغلبوا على ابنه مسعود عام ١٠٤٠ وانشأوا ولاية في خراسان لشاغري في حين تابع طغرل زحفه شرقا في الاراضي الايرانية نحو العراق.

فيما يلي لائحة بسلاطين آل سلجوق في المشرق الذين تسلطوا على الخلافة تميزا لهم عن الفرع الثاني لأل سلجوق الذين استقروا في الاناضول.

٩٩٠ - ١٠٦٢

طغرل بك

ألب ارسلان ابن شاغري بك

١٠٦٢ - ١٠٧٢

وابن اخ طغرل بك

١٠٧٢ - ١٠٩٢

ملكشاه ابن ألب ارسلان

١٠٩٢ - ١١٠٥

بركياروق ابن ملكشاه

١١٠٥ عزلته عنه محمد

ملكشاه الثاني ابن بركياروق (أطلق)

١١٠٥ - ١١١٨

محمد ابن ملكشاه

١١١٨ - ١١٢٤

محمود ابن محمد

١١٢٤ - ١١٥٢

مسعود ابن محمد واخو محمود

١١٥٢ - ١١٧٧

طغرل الثالث اخو سلاطين آل سلجوق

السلاطين طغرل بك (٩٩٠-١٠٦٢)

احتل طغرل شرق العراق وشماله ووصل الى بغداد عام ١٠٥٥ وكان حاكم المدينة قائدا تركيا شيعيا اسمه ارسلان البساسيري فانسحب منها. عمت العراق وباقي انحاء الخلافة موجة فرج وابتهاج لتخلص السكان السنة من حكم السلاطين الشيعة في حين أصيب الشيعة بخيبة. أسرع الخليفة القائم الى الترحيب بالنازي السلجوقي وكلمه بواسطة

ترجمان ونادى به منقذاً للإسلام من السيطرة الشيعية وولاه جميع الأسفار ومنحه لقب "سلطان" وأوكل إليه إعادة وحدة الإسلام والقضاء على الدولة الفاطمية الإسماعيلية في مصر وسوريا.

كان هذا بداية عصر جديد دخلت فيه الخلافة تحت حماية دولة جديدة كانت أكثر رفقا بالخلفاء من سابقتها (١٧١)، تزوج طغرل بك من ابنة الخليفة القائم في حين تزوج الخليفة من أميرة سلجوقية. وكان اسم السلطان السلجوقي يقرن باسم الخليفة على المنابر في خطبة الجمعة.

بعد ثلاث سنوات، وبينما طغرل بك في حملة في الشمل، ظهر البساسيري على أبواب بغداد سنة ١٠٥٨ ومعه جنود من الديلم وغيرهم وكان قد التحق بالفاطميين وساعدهم على نشر دعوتهم.

لم يكن لدى الخليفة القائم جيش أو قوة يدافع بها عن المدينة فاضطر إلى توقيع وثيقة تُعتبر بمثابة استسلام، تنازل فيها عن حقوقه وحقوق غيره من العباسيين عن الخلافة وباع فيها منافسه الخليفة الفاطمي المستنصر (١٠٢٥-١٠٩٤) في القاهرة. وأرسل القائم فرق ذلك للمستنصر شعار الخلافة ومعه يرده النبي والذخائر النبوية وهامة النبي. لكن طغرل لما عاد إلى بغداد أرجع القائم إلى منصبه وقتل البساسيري سنة ١٠٦٠ وحلّ جيش الديلم فكانت تلك آخر محاولة قام بها البويهيون لاستعادة سلطتهم. (١٨١)

لم يتيم طغرل بك في بغداد. أما خليفته ألب أرسلان فلم يدخل بغداد ولم يرها قط بل جعل أصفهان عاصمته وكانت مرو عاصمة سلفه. ولم تنتقل العاصمة إلى بغداد إلا سنة ١٠٩١ قبيل انقضاء عهد السلطان ملكشاه.

السلطان ألب أرسلان (١٠٦٢-١٠٧٢)

اسمه الكامل عضد الدولة أبو شجاع، ولقب بالأسد الشجاع. هو ابن شاعري بك حاكم خراسان وابن أخ طغرل بك. توفي والده عام ١٠٦١ وتوفي عمه طغرل بك دون عقب عام ١٠٦٢ فصار ألب أرسلان وريث جميع بلاد آل سلجوق.

دشن عهدا من الفتوحات شملت جورجيا وأرمينيا وأجزاء كبيرة من آسيا الصغرى انتزعها من البيزنطيين بعد معركة مع الامبراطور رومانوس

الرابع ديوجين في مازنيكرت «ارمينيا» انتصر فيها الب أرسلان وأسر
الامبراطور فانتشر صيته في العالم الاسلامي.

كان الب أرسلان كوالده شاعري بك وعنه طغرل بك، أميناً لا يقرأ ولا
يكتب. كان غازيا بارعا لكنه كان قليل الاهتمام بامور الادارة والحكم التي
تركها لوزيره نظام الملك الفارسي كما ترك له الاهتمام بامور العمران والثقافة.
قبل وفاته اوصى بالملك بعده الى ابنه ملكشاه وكان صبيا صغيرا فوضعه تحت
وصاية وزيره نظام الملك.

السلطان ملكشاه (١٠٧٢-١٠٩٢)

خلف ملكشاه والده الب أرسلان وكان عهده فترة الحكم السلجوقي.
تغلب في بداية عهده على ثورة قام بها عمه، وهلى هجوم قام به حاكم بخارى
على خراسان، ثم وطد حكمه ومد سلطته بالاساليب السياسية مستفيداً من
خلافت خصومه اكثر مما لجأ الى الحرب. بسط سيطرته على المقاطعات التي
تمتعت باستقلال داخلي في شمال العراق واذربيجان واستولى على سوريا
وفلسطين، وبسط نوعاً من الحماية على مكة والمدينة واليمن ومناطق الخليج
الفارسي.

اظهر ملكشاه اهتماماً بالعلوم والاداب وجعل عاصته اصفهان بالمسجد
والعمران واتكل على وزيره نظام الملك الذي كان من نوابغ الاداريين
والسياسيين في الاسلام، وضع رسالة فريدة في باب اصول الحكم باللغة
الفارسية سماها «سياسة نامه». وفي عهده جمع كبار الفلكيين ومنهم عمر
الخيام، وطلب منهم اصلاح تقويم السنة الفارسية فوضعوا التقويم «الجلالي»
اكراماً للسلطان ملكشاه جلال الدين ابي الفتح. ويعود الى نظام الملك الفضل
بتأسيس دور علم عالية اخصتها «النظامية» في بغداد (١٠٦٨) التي درس فيها
حجة الاسلام الغزالي.

لم يكن للسلاجقة الانوارك اراث ادبي خاص بهم كما أنهم لم يكونوا
عريقين بالتقاليد الاسلامية ولفتها العربية لذلك سهل عليهم اقتباس لغة
الفرس الذين ادخلوهم في الاسلام وهكذا انتشرت اللغة الفارسية كلغة الاداب
في جميع أرجاء الامبراطورية السلجوقية وتقلص دور اللغة العربية، لما

السلطين فلم يتكلم احدهم بالعربية.
من ناحية ثانية، فان سلاطين آل سلجوق لم يتخذوا بغداد عاصمة لهم
وفضلوا عليها لصفهان ومدينة ايرانية اخرى فبقيت بغداد عاصمة الخلافة دون
ان ترافقها سلطة سياسية.

مما يُذكر ملكشاه ان المملكة السلجوقية امتدت في هذه من كاشغر في
اقصى بلاد الترك شرقا الى القدس غربا وكانت القوافل تسير من اراضي ما
وراء النهر الى اقصى الشام بطمانينة، ونعم الناس في ذلك العهد بالسلام
والاستقرار والتسامح الديني.

مع ذلك لم تخل تلك المناطق الواسعة من بعض القلاقل فقد ثار عليه
اخوه تكش حاكم خراسان فسجنه ملكشاه وسمل عينيه. واستفحل امر
الاسماعيلية في قلعة الاموت حتى اغتالوا الوزير نظام الملك عام ١٠٩٢.

تحكك الدولة السلجوقية

يمدق على دولة آل سلجوق ما قلناه عن دولة آل بويه. فعند وفاة
السلطان الثالث ملكشاه (١٠٩٢) دخلت الدولة دور انهيار سريع. والسبب
الرئيسي هو ذاته اي توزيع الامارات والمقاطعات على الاخوة والابناء ونفقاتهم
مع بعضهم. وهذا ما حصل بعد وفاة السلطان السلجوقي الثالث ملكشاه اي
بعد سبعة وثلاثين عاما فقط من قيام الدولة السلجوقية. فقد خلف عدة
اولاد من امهات مختلفات كلهم صغار مما ادى الى توزيع السلطنة بين
بركياروق الابن الاكبر (١٠٩٢-١١٠٥) الذي اخذ العاصمة شيراز وفارس
والعراق، واخيه محمد الذي تولى على شمال غرب ايران، والاخ الثالث سنجار
الذي تولى على خراسان. لكن هذه القسمة لم تكن مرضية فقامت الحروب بين
الاخوة.

من اسباب الانهيار السريع ايضا ان الوزير نظام الملك تابع التدبير
البويهي السابق فجعل نظام الاقطاعيات العسكرية سنة ١٠٨٧ وراثية فنشأت
دويلات تتمتع بالاستقلال تحت سيادة اسمية للسلطان الى جانب المقاطعات
التي ورثها اخوة السلاطين وابناؤهم. مع الوقت بلغ تفتت المملكة ان كل
مدينة وبلدة في المشرق اصبحت لها حاكم مستقل يتقاتل مع جيرانه بغياب

سلطة مركزية ضابطة.

توفي بركياروق عام ١١٠٥ وخلفه ابنه ملكشاه الثاني وكان طفلا فسارع
عنه محمد الى عزله والاستيلاء علي ممتلكاته (١١٠٥-١١١٨).
خلف محمود اباه محمدا (١١١٨-١١٢٤) وعاصر الخليفة المسترشد
وقتلته.

ثم خلفه اخوه مسعود الذي حكم من ١١٢٤-١١٥٢ وكان معاصرا
للخليفة الراشد فقتله ونصب المتقي. ثم انتقلت السلطنة الى سلاجقة فارس
وهو طغرل الثالث الذي عاصر الخليفة الناصر.

انتهز بعض الخلفاء ضعف السلاطين وانهمكهم بالحروب ضد بعضهم
فاعادوا الى الخلافة بعض هيبتها الى ان جاء الخليفة الناصر وانهى حكم آل
سلجوق عام ١١٩٤.

ذكرنا الاحداث التي جرت في ايام الخليفة القائم الذي انتسم حكمه
الطويل (١٠٣١-١٠٧٥) ما بين اخر عهد آل بويه، ودخول طغرل بك
السلجوقي الى بغداد وعودة الحكم السني الى الخلافة وكانت فترة سادها
العنف والتقاتل بين السلاطين والامراء والقواد واختل فيها الامن، وفيما يلي
لائحة الخلفاء الذين تولوا في العهد السلجوقي مع ذكر شيء من سيرتهم
واممالهم.

الخلفاء في الدور الرابع

القائم	(١٠٣١ - ١٠٧٥) مضى قسما من خلافته في عهد آل بويه والقسم الثاني في عهد آل سلجوق.
المقتدي	(١٠٧٥ - ١٠٩٤)
المستظهر	(١٠٩٤ - ١١١٨)
المسترشد	(١١١٨ - ١١٢٥)
الراشد	(١١٢٥ - ١١٣٦)
المقتفي	(١١٣٦ - ١١٦٠)

الخلافة المقتدي (١٠٧٥-١٠٩٤)

هو ابن القائم واه جارية ارمنية اسمها ارجوان. خلف اياه عند وفاته وتزوج عام ١٠٨٧ من ابنة السلطان ملكشاه ورزق منها ولدا فاراد السلطان ان يجمع الخلافة والسلطنة في حفيذه فلم يطاوعه المقتدي وحصل فتور بينهما.

في زمن المقتدي تولى السلطنة بركياروق ابن ملكشاه وكانت ايامه كلها حروب وفتن وكان وزيره عز الملك ابن الوزير الشهير نظام الملك. توفي المقتدي فجأة وتولى الخلافة ابنه المستظهر بالله.

الخلافة المستظهر (١٠٩٤-١١١٨)

ملأ السلطان بركياروق عهد المستظهر بالحروب الداخلية المستمرة الى ان وافته المنية سنة ١١٠٥. فقد حارب عمه تكش ابن الب ارسلان في شمال الموصل سنة ١٠٩٦ وبعدما انهزم امامه عاد بعد سنة وتغلب على عمه وقتله. ثم قاتل عمه ارسلان ارغون واستولى على خراسان وسلمها لاختيه سنجار. ثم تقاتل مع اختيه محمد عام ١١٠٢ قرب همدان فانهزم بركياروق وصارت خطبة الجمعة تقام باسم محمد. ثم عاود الاخوان الاقتتال بعد سنة فتغلب بركياروق وسار السلطان محمد الى اختيه سنجار في خراسان وهما من ام واحدة فزحف الاخوان على بغداد عام ١١٠٤. بعدها جرت المصالحة بين بركياروق واختيه محمد على ان يكون لمحمد ديار بكر والجزيرة والموصل والشام وبعض العراق. وعادت الخطبة في بغداد لبركياروق الذي توفي في السنة ذاتها.

في تلك السنين استفحلت الحركة الاسماعيلية في خراسان بسبب انشغال السلاطين عنهم بالاقتتال فيما بينهم. ولم يتمكن السلاجقة من التغلب على الاسماعيلية الذين تحصنوا في قلعة الاموت وهددوا منها الولايات الشرقية حتى انهم اغتالوا الوزير نظام الملك عام ١٠٩٢.

وقد حاول السلطان محمود القضاء على الحسن الصباح فارسل امراءه يحاصرون القلعة بعدما استولوا على عدة قلاع للباطنية لكن محمد توفي اثناء الحصار فانفض عسكره ونهب الباطنية ارباقهم.

أما السلطان سنجار فقد كان آخر سلطان سلجوقي قوي في إيران وخراسان وقد حكم من ١١١٨ إلى ١١٥٢ لكنه فشل في النهاية بصد القبائل التركية الزاحفة من تركستان التي أعتقلته عام ١١٥٢ وأبقت أسيراً حتى وفاته.

الخلافة المسترشدة (١١١٨-١١٣٥)

هو ابن المستظهر تولى الخلافة بعد موت أبيه، وفي عهده قامت الحرب بين السلطان محمود وأخيه السلطان مسعود الذي كانت له الموصل وأذربيجان.

في ذلك الزمن عظم أمر الاسماعيلية في بلاد الشام وقويت شوكتهم وملكوا قلعة بانياس عام ١١٢٦.

شعر الخليفة المسترشد بضعف السلاطين وأنقسامهم فبدأ يسعى لاستعادة مكانة الخلافة، وتابع مسماه الخلفاء بعده حتى تخلصوا من بني سلجوق في عهد المنتصر وإن أدت مساعي بعض الخلفاء إلى مصرعهم، فقد وقع خلاف بين الخليفة والسلطان محمود وكانت البلاد في حالة فقر شديد، فسار محمود وحاصر بغداد وبعد مفاوضات تصالح الفريقان. ثم وقعت الحرب بين الخليفة والسلطان مسعود في همدان وكان قد خلف أخاه محمود فانتصر السلطان مسعود وأسر الخليفة وقتله، وقيل أنه وضعه في خيمة فدخل عليه جماعة من الباطنية وقتلوه. وكان المسترشد أول خليفة منذ العهد التركي يجند جيشاً ويقوده محاولاً تثبيت سلطة الخلافة.

الخلافة الراشدة (١١٣٥-١١٣٦)

بعد مقتل المسترشد بايع السلطان مسعود والآخرين الراشد ابن المسترشد بالخلافة ثم أرسل إليه السلطان يطالبه بما كان استقر على المسترشد من المال وهو أربعمائة ألف دينار سنوياً، فقال الراشد إن ليس عنده شيء من ذلك وإن المال كله كان عند المسترشد وقد نهب حين مقتله، فزحف السلطان مسعود على بغداد وجمع العلماء فخلعوا الخليفة وكان موجوداً في الموصل عند أتابك زنكي حاكم المنطقة. بعد خلعه انتقل الراشد إلى أصفهان حيث وقب عليه نفر قليل منهم من

الباطنية وقتلوه.

الخلافة المقتضي (١١٢٦-١١٦٠)

هو محمد ابن المستظهر تصالح مع السلطان مسعود وتزوج اخته فاطمة. في زمنه ثار العيارون في بغداد وفتكوا بالبلد ونهبوا الاموال وقتل كثير من السكان. عند وفاة السلطان مسعود عام ١١٥٢ ضعفت قوة السلاطين فتمكن المقتضي من استعادة بعض سلطة الخلافة الزمنية بالإضافة الى مسطرتها الدينية.

خلف المقتضي ابنه المستنجد (١١٦٠-١١٧٠) ثم حفيده المستضيء (١١٧٠-١١٨٠) اللذان تابعا سياسته. وفي زمن المستضيء تمكن صلاح الدين الايوبي من القضاء على الدولة الفاطمية في مصر وسوريا وصار اسم المستضيء يعلن في خطبة الجمعة من مصر الى ايران.

الدور الخامس العباسي (١١٩٤-١٢٥٨)

الخلافة الناصر (١١٨٠-١٢٢٥)

هو ابن الخليفة المستضيء. تولى الخلافة في آخر مراحل انهيار الحكم السلجوقي وتابع محاولة سلفاته باستعادة السلطة السياسية التي اغتصبها السلاطين فشكا القواد من هذه المحاولة وخاطبوا الشعب قائلين حسب رواية المؤرخ الفارسي الراوندي : 'بما ان الخليفة هو الامام فان الصلاة يجب ان تكون شغله الدائم. فالصلاة هي اساس الايمان وافضل الاعمال. ومقام الخليفة الديني يفوق كل ما عداه وهو يشكل قدوة للناس. هذه هي السيادة الحقيقية ويجب ان يكتفي الخليفة بها. اما تدخله بشئون الحكم فليس له معنى ويجب ان يترك ذلك للسلاطين'. (١١)

لم يكتفِ الخليفة الناصر لهذا الاعتراض. فحرض الامير تكش حاكم خوارزم (١١٧٢-١٢٠٠) على مهاجمة السلاجقة فاستجاب الى طلبه وافتصر على طغرل بك الثالث عام ١١٩٤ وبذلك انتهى امر السلاجقة في العراق وكرهستان. رجع الخليفة الناصر من هذه الحرب مقاطعة خوزستان ومناطق ايرانية

أخرى بالإضافة إلى التخلص من سيطرة سلاطين آل سلجوق. لكنه لم يلبث أن وجد نفسه مضطراً لمقاومة مطالب حليفه الجديد الذي أراد أن يفرض وصايته على الخلافة. فقد طلب الأمير تكش قبل وفاته عام ١٢٠٠ أن يُذكر اسمه في خطبة الجمعة مع الخليفة الناصر، ولما رفض الناصر طلبه سُر عليه سطة عام ١٢٠٦ وهزمه.

خلف علاء الدين محمد والده تكش (١٢٠٠-١٢٢٠) وتابع فتوحاته فاستولى على القسم الأكبر من فارس واحتل بخارى وسمرقند وغزنة، وكرد على الناصر طلب والده فرفض ثانية. وفي سنة ١٢١٧ سار علاء الدين قاصداً بغداد ومقصداً على انتهاء الخلافة العباسية وتنجيب خليفة حلوي (١١٨٠) لكن جيشه تحطم في معركة مع الأكراد. ويقال أن الناصر كان التمس مساعدة جنكيز خان ضد شاه خوارزم لكن خطر خوارزم على الخلافة انتهى لما قضى جنكيز خان على مملكتهم عام ١٢٢٠.

قضى الناصر أعوامه الأخيرة في خوف مستمر من الزحف المغولي المتجه شرقاً.

بعد وفاة الناصر (١٢٢٥) توالى على الخلافة ثلاثة خلفاء هم ابنه الظاهر (١٢٢٥-١٢٢٦)، والمستنصر ابن الظاهر (١٢٢٦-١٢٤٢) وكان المغول قد بلغوا سامراء في تقدمهم فاستولى الذعر على أهالي بغداد لكن الخطر توقف عنهم حيناً.

خلف المستنصر إياه المستنصر (١٢٤٢-١٢٥٨) فطلب منه هولاكو خان أن يستسلم فرفض فحاصر بغداد سبعة أسابيع ودخلها عنوة في ١٠ فبراير ١٢٥٨. فقتل المستنصر وثلاثمائة من أهله ونهب بغداد ودمرها. فكانت نهاية فاجعة للخلافة العباسية وأصبح الإسلام دون خليفة.

بعد مقتل المستنصر بقي الإسلام ثلاث سنين بدون خليفة. يقول الشيخ علي عبد الرزاق : "كان الملك في مصر يومئذ للسلطان الظاهر بيبرس وهو من السلالة الشركسية، ولأمر ما أخذ ينش بين مصارع العباسيين حتى وقع على رجل زعموا أنه من فلول الخلافة العباسية، فأنشأ منه بيتاً للخلافة في مصر وحمل المسلمين على أن يدينوا للخليفة الجديد ولن يليه، في حين حصر السلطان المملوكي أزمة الحكم في يده. ثم كانت تلك سنة الملوك

الجراكسة في مصر بعد الملك الظاهر الى ان اخذ الخلافة الملوك العثمانيون عام ١٥١٧.^{٢١١}

السلاجقة والحروب الصليبية

تعطينا الحروب الصليبية دليلا على حالة الشعور الاسلامي لدى سلاطين آل سلجوق وتفضيلهم للحرب مع منافسيهم من اقربائهم على الجهاد في سبيل الدين. فلما احتل الصليبيون القدس عام ١٠٩٩ جاء وفد من الشام يستغيث بخليفة المسلمين المستظهر ويحثه على الجهاد فاحالهم الى السلطان بركياروق لانه لم يكن بيده شيء من امور الخلافة. لكن بركياروق كان منشغلا بالحروب مع اعمامه واخوته فلم يهتم بالغزو الصليبي.

وفي سنة ١١٠٨ في عهد السلطان محمد ابن ملكشاه والخليفة المستظهر احدث الفرنج بطرابلس فصار وفد من اهلها الى بغداد يحثون الخليفة والسلطان على الجهاد فلم يلتفت اليهم احد.

بعد ثلاث سنوات نهب الصليبيون مراكب لتجار من حلب واخذوها بمن فيها فصار وفد من حلب الى بغداد طالبين النجدة وقابلوا الخليفة والسلطان دون طائل. (٢٢١)

اتحصرت مساهمة السلاجقة في تلك الحرب بأنه عندما عين السلطان محمود، عماد الدين زنكي واليا على الموصل وشمال العراق دشّن سلسلة من الاحداث أدّت الى التغلب على الصليبيين وان لم يتوقع هو نتائجها.

إذ أنه عند وفاة رضوان أمير حلب عام ١١١٢ ضمها عماد الدين الى ممتلكاته وأسس سلالة جديدة عام ١١٢٨. وبعد وفاته خلفه ابنه نور الدين محمود (١١٢٦-١١٧٢) الذي هاصر السلطان محمود السلجوقي والخلفاء المقتفي والمستنجد والمستضيء.

أهمية نور الدين انه حارب الصليبيين وعيّن صلاح الدين أيوب قائدا للجيش فقضى على الدولة الفاطمية وتغلّب على الصليبيين. وبعد وفاة نور الدين زنكي استقل صلاح الدين بمصر وأسس فيها الدولة الأيوبية على عادة ولاية تلك الايام.

دور الاتابك

ذكرنا ان من اسباب الانهيار السريع للدولتين البويهية والسلجوقية عاداتهم بترزيع المقاطعات على الاخوة والابناء فتنشأ دويلات وسلطنات عديدة مستقلة غالبا ما تتحارب فيما بينها.

وقد اضاف آل سلجوق الى هذه العادة انهم كانوا يعينون اولادهم الصغار امراء على المناطق ثم يعينون لهم مرشدين معظمهم من العبيد الاتراك والتركمان يديرون الامور عنهم الى ان يبلغوا سن الرشد وكانوا يستون هؤلاء المرشدين "اتابك".

لم يطل الوقت على هؤلاء "الاتابك" حتى استنظفوا الحكم فزالوا السلطان الصغير واسسوا سلالات استقلت بحكم المناطق وعرف عهدهم بعهد "الاتابك" فازداد التفكك في الدولة السلجوقية.

مصائر الخلفاء العباسيين

استعرضنا في الصفحات السابقة الادوار الاربعة التي مرت بها الخلافة العباسية واحوال الخلفاء التسع والثلاثين الذين تعاقبوا على الحكم خلال خمسمائة وثمانية اعوام من قيام الدولة العباسية عام ٧٥٠ الى ان قضى عليها هولاءكو خان المغولي عام ١٢٥٨ وغايتنا من ذلك ان نتبين النظرية السياسية التي تصرف هؤلاء الخلفاء بموجبها خلال ذلك الزمن الطويل.

لا شك ان مصير الخلفاء يعطي اشارة واضحة عن طبيعة النظرية السياسية التي قادت خطاهم ومن صلاحها لمعالجة الاحداث التي صادفوها. في الدور الاول الذي سميناه الدور الفارسي تعاقب تسع خلفاء ابتداءً بابي العباس السفاح وانتهاءً بالنواثق. من هؤلاء قتل اثنان : قتل موسى الهادي الخليفة الرابع، قتلته والدته الخيزران لما اراد حرمان اخيه هارون من ولاية العهد. وقُتل محمد الامين ابن هارون، الخليفة السادس للسبب نفسه اذ اراد حرمان اخيه المأمون من ولاية العهد كما اوصى والدهما هارون.

اما في الدور العباسي الثاني الذي سميناه الدور التركي فقد تعاقب ثلاث عشرة خليفة ابتداءً من المتوكل وانتهاءً بالمتقي.

من هؤلاء عشر خلفاء قُتلوا أو خُلِعوا أو شُيِلت ميونهم وألقوا في الشوارع يستعطون، واليكم التفصيل.

الخليفة العاشر المتوكل ابن المهدي قتله ابنه المنتصر بالتعاون مع القواد الأتراك.

الخليفة الحادي عشر المنتصر الذي قتل والده، خلعه القواد الأتراك بعد سنة.

الخليفة الثاني عشر المستعين ابن المعتصم أجبره القواد الأتراك على خلع نفسه ومبايعة المعتز ابن المتوكل الذي بادر إلى قتله.

الخليفة الثالث عشر المعتز ابن المتوكل قبض عليه الجند فخلع نفسه واستخلف المهدي ابن الواثق. وبعدما فعل ذلك ضربه ثم قتله.

الخليفة الرابع عشر المهدي ثار عليه الأتراك واحضروا أبا العباس أحمد ابن المتوكل وكان محبوساً فبايعه الناس وقتلوا المهدي ثاني يوم البيعة.

الخليفة الثامن عشر عبد الله ابن المعتز تولى الخلافة ليوم واحد ثم قتل.

الخليفة التاسع عشر المقتدر ابن المعتضد قتله أمير الأمراء مؤنس المظفر وهو عبد خُصي عيّنه المعتز.

الخليفة العشرون القاهر ابن المكتفي وأخو المقتدر غضب عليه القواد الأتراك فخلعوه وسلكوا عينيه فصار يستعطي في شوارع بغداد.

الخليفة الواحد والعشرون أحمد الراضي ابن القاهر قتله الجند.

الخليفة الثاني والعشرون المتقي ابن القاهر عزل وسُتِل القواد عينيه.

في الدور العباسي الثالث أي دور آل بويه تعاقب أربع خلفاء هم المستكفي والمطيع والطائع والقادر. أما الخليفة القائم فقد أنهى عهده في ظل آل سلجوق.

من هؤلاء، أمر أمير الأمراء ممر الدولة البويهية بعزل المستكفي الخليفة الثالث والعشرين وسمل عينيه.

الخليفة الخامس والعشرون الطائع قبض عليه بهاء الدولة وخلعه ونصب مكانه القادر ابن المتقي.

اي انه من اربع خلفاء عزل آل بويه وقتلوا اثنين.

في الدور العباسي الرابع اي دور آل سلجوق تصرف السلاطين باحترام وتقدير اكبر للخلفاء وقد توالى منهم تسع ابتداءً بالقائم وانتهاءً بالناصر. من هؤلاء قتل السلطان مسعود السلجوقي الخليفة المسترشد وابنه الخليفة الراشد. وكانت الدولة السلجوقية قد شارفت على الاقوال. وكان المستعصم اخر خلفاء بني العباس وقد قتله هولاءكو خان لما احتل بغداد عنوة.

خلاصة هذا العرض انه من تسع وثلاثين خليفة قُتل او عُزل او سُحِلَتْ عيون سبع عشرة خليفة اي نسبة ٤٢,٥ بالمائة. ونادرا ما حصل هذا في تاريخ الشعوب. فما هي النظرية السياسية التي سادت المجتمع الاسلامي وسمحت بحدوث هذه الاحوال؟

لنستمع الى الفقيهين ابي الحسن الماوردي (٩٧٤-١٠٥٨) وابي حميد الغزالي (١٠٥٨-١١١١) اللذين عاصرا تلك العهود وبرزا هذه الوقائع.

النظرية السياسية لابي الحسن الماوردي

ابو الحسن الماوردي (٩٧٤-١٠٥٨) فقيه شافعي عاصر عهد آل بويه بكامله اذ عاش اربعة وثمانين عاما وتولى لديهم مناصب قضائية وسياسية، ونقل في مدن الخلافة واطلع على احوالها ثم استقر في بغداد وعاش القتال المتكرر بين السنة والشيعة، وشاهد فتن الدعاة الاسماعيليين واستفحال امرهم في مختلف انحاء الخلافة، ورأى الحنابلة يقاتلون الاشاعرة ويضطهدونهم، واطلع على سوء الاحوال الاقتصادية في المدن والريف، وفقدان انضباط القواد والجند وسطوتهم على الاهالي وعجز الخليفة والسلاطين عن حفظ الامن حتى صار العيارون والسطار يفرضون الضرائب على السكان وينهبون ويسرقون علانية دون رادع. ورأى القتال يدور بين السلاطين فينزح بعضهم بعضا فتبور الزراعة وتهدم القرى وتمتطي التجارة. ولم تكن هذه احداثا عابرة بل تلازمت مع عصر بني بويه بكامله.

كان ابو الحسن مطلعاً ايضاً على احداث الدور التركي السابق حيث

قتل القواد الاثراك والجنود او مزلوا عشر خلفاء من مجموع ثلاث عشرة خليفة ولم يشابه هذا الوضع المضطرب الا مقتل ثلاث خلفاء راشدين من اصل اربع.

بالاجمال، تميّز العصر الذي عاش فيه الماوردي بانتشار الفوضى والاضطراب الداخلي، وبنشاط الدعوة للاسماعيلية المحلية والواقعة من مصر، فكيف عالج ابو الحسن الماوردي هذه الاوضاع في نظريته السياسية التي يتضمنها كتابه "الاحكام السلطانية".

ينطلق الماوردي من الفكرة بان الخلافة واجبة شرعا لانها "خلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا" فلا يجوز ان يوجد مجتمع اسلامي دون امام، واهم ما شغله هو الحفاظ على وحدة "الامة الاسلامية" التي ترتبط برباط ديني - اخلاقي تمثله الشريعة وتجسده الامامة الجامعة. لكنه اصطدام بواقع قائم فالامامة في عهده لم تعد جامعة اذ وُجد في زمنه ثلاث خلفاء متعادين : عبد الرحمن الثالث الاموي في اسبانيا وخلفاؤه، والمعز لدين الله الفاطمي في مصر وخلفاؤه، والخلفاء العباسيون في المشرق. وكان هدف الفاطميين الاول تهديم العباسيين باعتبارهم اقتصبوا الخلافة من آل البيت اصحابها الحقيقيين.

وواقع اخر هو ان وحدة الامة الاسلامية كانت مفقودة ضمن الخلافة العباسية نفسها. فكيف يمكن الكلام عن "الخلافة الجامعة للامة الاسلامية" وقد اصبح الامام الخليفة موظفا متواضعا يُعيّن ويُعزل ويُقتل بمشيئة السلطان الاعتيادية. وابن الوحدة في بلاد يتقاتلها السلاطين ويقتسمونها ويتحاربون عليها فتسيل دماء الاهالي الساكنين وتتلغ مزروعاتهم وتُنهب اموالهم ومتاجرهم وتُحرق بيوتهم، يطبق كل سلطان في منطقته ما شاء من التدابير والاجراءات الاعتيادية، في حين يقف الخليفة، المسئول شرعا عن حفظ البلاد وصيانة العباد، متفرجا لا يملك من امره شيئا؟

لقد رجع ابو الحسن الماوردي الى نظرية الخلافة التي شرحناها بتفصيل في الفصل الثالث فقال ان الخلافة فاقية باسلووين : بالاستخلاف اي ان يسمي الخليفة من يريد ان يخلفه، او باختيار "اهل الحل والعقد" الذين يسميهم "اهل الاختيار".

بعد المرحلة الأولى التي هي اما الاستخلاف او الاختيار، يشدد ابو الحسن الماوردي على الخطوة الثانية وهي "البيعة" فيقول : "إذا اجتمع اهل الحل والعقد للاختيار وتفحصوا احوال اهل الامامة الموجودة فيهم شروطها، قدموا للبيعة منهم اكثرهم فضلا واكملهم شروطا ومن يسرع الناس الى طاعته ولا يتوقفون عن بيعته" (١٢٢).

بعدها تجري البيعة اي ياتي الناس ليعلموا موافقتهم على من اختاره "اهل الحل والعقد"، او على الذي استخلفه الخليفة السابق فتصبح البيعة ملزمة للشعب، وطاعة الخليفة واجبة عليه في كل امر مهما بلغ ظلمه إلا اذا خرج عن الدين (راجع موضوع الطاعة في الفصل الثالث).

لقد شاهد الماوردي قتل خليفة وعزل خليفة آخر قبل ان يستخلفا احدا. فقد قتل السلطان معز الدولة (٩٤٦) الخليفة المستكفي ونصب بعده الخليفة المطيع. ثم شاهد السلطان بهاء الدولة يخلع الخليفة الطائع وينصب الخليفة القادر. وكان الحدثان فرصة نادرة ليخبرنا الماوردي عن وضع نظريته موضع التطبيق فيما يتعلق بدور "اهل الحل والعقد" في اختيار الخليفة الجديد وتنصيبه. فمن هم الذين شكلوا اهل الحل والعقد في عهدي السلطانين معز الدولة وبهاء الدولة حين تنصيب الخليفة المطيع ثم الخليفة القادر، وكم كان عددهم، وهل مثلوا مختلف المناطق والمذاهب، ومن دعاهم للاجتماع، واين اجتمعوا، وما هي اسماء الذين كانوا صالحين لتنصيب الخلافة واستعرضوهم ثم اختاروا منهم المطيع وبهاء القادر، وما كان مدى حرية "اهل الحل والعقد" واستقلالهم في اختيار الاصلح للخلافة، وهل كان للسلطان البويهي دور في هذا الاختيار، وكيف تم الاختيار، بالاكثورية ام بالاجماع ام باسلوب آخر، اي كيف كانت آلية عمل "اهل الحل والعقد". وكيف كان المجتمعون يفضون خلافتهم اذا حصلت؟

غريب ان يسكت الماوردي عن ايراد هذه التفاصيل في حين انه يجعل "اهل الحل والعقد" الركن الاساسي في نظريته السياسية ويبنى عليها شرعية الامامة كوكالة عن الامة الاسلامية.

تفسير ذلك ان نظرية "اهل الحل والعقد" نظرية خيالية وهبية ليس لها سند في الواقع الاسلامي ولم يلتفت اليها السلطانان معز الدولة وبهاء الدولة

أو غيرها من الخلفاء والسلاطين. وإذا استثنينا اللجنة التي جمعها الخليفة عمر بن الخطاب ورتبها بشكل يستبعد حصول علي بن أبي طالب على الخلافة (راجع الفصل الرابع)، لا نجد في التاريخ الإسلامي ذكراً لاجتماع أهل الحل والعقد في أي عهد قديم أو حديث. أما البيعة فلم تكن إلا تغطية لمر واقع وهو سوق الناس إلى اظهار القبول بمن تسلط على الحكم والخلافة.

أما قول بعض الكتاب "بان البيعة عقد وكالة بين الأمة وحاكمها المنتخب، وأنه عقد مشروط خاضع لرقابة الاصيل" فليس أكثر من تخريج فقهي استخدمه المحدثون لتقريب الممارسة الإسلامية من النظرية الديمقراطية المعاصرة وهي محاولة ليس لها أساس في التاريخ الإسلامي. فإين الترتيب الدستوري الذي ينظم مراقبة الأمة لتصرف خلفائها وحاكمها، ومن هم المراقبون، وكيف يعارضون عملهم، وكيف ينفذون قراراتهم على الحاكم الذي يخالف شروط العقد. ليس في الشريعة أو في التعامل شيء من ذلك. وقد رأينا كثيراً من الخلفاء والحكام يُقتلون ويُعزلون على أثر ثورات دينية ومذهبية وحروب وفتن داخلية، على يد سلاطين وقواد وجنداء، لكننا لم نسمع أو نقرأ أنه وجدت مؤسسة سياسية مكلفة بمراقبة الحكام وتنفيذ شروط البيعة لو كانت البيعة تعني حقيقة "عقد وكالة مشروط بين الأمة وحاكمها خاضع لرقابة الاصيل".

مما ليس له تفسير في نظرية أبي الحسن الماوردي أيضاً غياب أي بحث يتعلق بتنظيم انتقال السلطة من خليفة إلى آخر، ومن سلطان إلى خلفه مع أنه عاش في عصر مضطرب فحمل الولايات من تتقاتل السلاطين وتنازعهم على الحكم. فكيف يمكن لنظرية سياسية أن تُغفل موضوعاً خطيراً كهذا وكان الماوردي اعتبر الفوضى التي رافقت ولاية الخلفاء والسلاطين على مدى العصور قضاءً منزلاً لا راد له وتعاملاً إسلامياً طبيعياً.

ولا نرى الماوردي اهتم بالتناقض القائم بين خليفة سني وسلاطين شيعية كل منهم يعمل لتغليب مذهبه.

لقد أراد الماوردي من بحثه، وهو موظف لدى سلاطين آل بويه، أن يوفق بين نظرية الخلافة الجامعة التي لم يمد لها وجود والمتمثلة بشخص الخليفة الذي فقد عملياً كل سلطة، وبين السلطة الفعلية التي اغتصبها

السلاطين ومارسوها مستقلين في مناطقهم يصدرون اوامر وقرارات تتعلق بحياة الناس بما يوافق مصالحهم ويمرر نفوذهم وقوتهم. اما الشريعة فاصبحت مبدأ سلبياً بمعنى ان الحاكم كان يحاول ان لا يخالف اوامرها لكنه لم يعد يقتدي في سلوكه بتعاليمها اذا حالت دون تحقيق مظامعه. فبأي حق اذن يحكم السلطين 'الامة الاسلامية' او اجزاء منها؟ واذا كانوا مختصين لهذا الحكم فهل يعني ذلك ان الامة الاسلامية التي اسسها الرسول لم يعد لها وجود؟

هذا ما اراد الماوردي وبعده ابو حميد الغزالي تلافيه. فقال الماوردي ان باستطاعة الخليفة تفويض سلطته الى امير. وهذا التفويض قد يجري رضائيا او نتيجة اغتصاب وتسلط يستولي بواسطته السلطان على الحكم فيقبل الخليفة بالامر الواقع ويعترف بالسلطان. والمرض من ذلك المحافظة على الاساس القانوني والشرعي للحكم الواقعي بكونه مستمداً من الخليفة الذي يحتفظ نظريا بسلطانه السياسية والادارية وان توقف عن ممارستها عمليا.

مقابل هذا التفويض يتوجب على السلطان ان يعترف بضرورة استمرار النلافة، وان يظهر طاعته للخليفة، وان يحافظ على الشريعة ويطبق احكامها. ولم يلتفت الماوردي الى تناقض هذه النظرية الوهمية مع الواقع الحقيقي بان السلطان هو الذي كان يعين الخليفة ويقتله ويعزله ولم يكن يحتاج الى تفويضه ليتولى السلطة.

لقد جعل الماوردي محور نظريته حضن الناس على طاعة الخليفة والسلطين مهما اساءوا إلا ان يخرجوا عن الدين. وهو بذلك يتابع الفكر الاسلامي الذي شرحناه في الفصل الثالث وسردنا الآيات والاحاديث التي تدعو الى الطاعة. وقد استمر الفقهاء يذهبون الناس الى ذلك في مختلف المهور حتى رسخت الاستكانة في النفوس وساد الاعتقاد لدى المؤمنين ان سلسلة الحاكم المسلم ضرورة ارادها الله بصرف النظر عن كيفية حصوله عليها او طريقة ممارستها. ولا تعلم هل قال الفقهاء بذلك عن قناعة ام تزلفا لاسحاب السلطان فقد قوالى على المسلمين خلفاء وسلطين كان يجب ان تكون مقاومتهم لا طاعتهم واجبا دينيا.

من مظاهر هذه الاستكانة والتقية التي عمت بين الناس بعض الاقوال

الشائعة في البلاد الشامية مثل : "كل من اخذ امي صار ممي"، و"اليد التي لا تقدر عليها، يوسها وادعي عليها بالكسر".

مقابل هذا الحضر على الطاعة المطلقة يدهشنا في النظرية السياسية الاسلامية غياب اي بحث في حريات الناس وحقوقهم وكيفية صيانتها والمحافظة عليها تجاه ظلم الخلفاء والحكام وتعسفهم، وما اكثر ما تعسف الحكام وظلموا وقتلوا وصادروا.

في عهد الماوردي والغزالي ظهر فن كتابي جديد في تأليف تقدم نصح عملية للحكام. فكتب "الاحكام السلطانية" وقوانين الوزارة وسياسة الملك، و"نصيحة الملوك" للماوردي تبحث في تنظيم الدولة الاداري اكثر مما تبحث في النظرية السياسية ومع ذلك اعتبرها الباحثون كتابا سياسية. ومثل ذلك كتاب "نصيحة الملوك" للغزالي وغني عن القول ان "النصائح للحكام" التي تضمنتها هذه الكتب بقيت طوباوية كالخطب التي تُلقي في اماكن العبادة يسمعها الناس ويَعْجَبُون بها لكن قل من يعمل بموجبها.

نظرية ابي الحميت الغزالي (١٠٥٨-١١١١)

من غرائب الصدق ان ابا الحميد الغزالي وُلد في العام الذي توفي فيه ابو الحسن الماوردي وكان ذلك في عهد آل سلجوق السنة. عاصر الغزالي السلاطين ملكشاه ابن الب ارسلان، وبركياروق ابن ملكشاه، واخاه محمداً، وعاصر الخلفاء القائم والمتدي والمستظهر. وتعتبر الغزالي المنظر السياسي لآل سلجوق. وقد ذكرنا شيئا عن سيرته في الفصل السادس.

من مؤلفاته : احياء علوم الدين، وتهافت الفلاسفة، والاقتصاد في الاعتقاد، ونصيحة الملوك، التي سار فيه على منوال الماوردي في وعظ الحكام عن طريقة الحكم الفضلى.

أكد الغزالي كالماوردي ان وجود الامامة ضرورة للمسلمين، وان اهم واجبات الامام هو تطبيق الشريعة لانها الرباط الذي يجمع الامة الاسلامية ويوحدّها وينظم حياتها الدنيوية والزمنية ويضمن لها السعادة في هذه الدنيا والاخرة. وقال ان السلطة في الامة الاسلامية هي ولاية من الله خاضعة لمشيئته

وهذا يستتبع وجود امام مطاع. اما من يكون، وما هي صفاته، وكيف يستولي على السلطة فان الغزالي، تمشياً مع ظروف عصره وسيطرة السلاطين على الخلفاء، اعتبر كل ذلك امورا ثانوية وافتي بأنه يمكن التخلي عن شروط الفقهاء السابقين المتعلقة بصفات الامام وطريقة تنصيبه وضرورة أن يكون تقياً عادلاً نزيهاً اذا كان التمسك بهذه الشروط يؤدي الى اختلاف الامة. بذلك اصبحت الشرعية تحتاج الى شرطين فقط : حيابة الامام على قوة عسكرية كافية تمكنه من القبض على السلطة والبقاء فيها، وان يكون مسلماً، اما درجة تمسكه بالاخلاق الاسلامية فمتروكة للغيب، واعلم الغزالي ايضاً ان الضرورة تضفي الشرعية على ما كان يعتبر في الاحوال العادية غير شرعي، كما قال ان اية امامة هي افضل من غيابها، واية سلطة افضل من توزيع الاراء (١١)، اما بالنسبة للحكم السياسي فقال ان اي حاكم، ولو كان مختصاً بالحكم بقوة السلاح والتأمر ومهما كان مصدر سلطته، فهو افضل من الغوضى التي تنشأ في حال غيابه. (١٢)

ان الخشي ما يخشاه الغزالي على الامة الاسلامية هو توزيع الاراء وتنازعها واختلافها وانقسامها. ولقد أدرك ذلك يرضى لها ان يحكمها حاكم ظالم ومختص، لكن الغزالي عاصر السلطان بركياروق (١٠٦٢-١١٠٥) وشاهد حروبه مع اخوته واعمامه وادرك ان السلاطين الذين يدعوا المسلمين الى طاعتهم طاعة مطلقة تجنباً للخلاف كانوا هم اكبر مصدر لاختلاف الاراء وتفكك الامة وانتشار الفوضى وفقدان الامن، فكيف يوفق بين نظريته وبين الواقع الذي ماشه؟

اما في موضوع الطاعة للحكام فقد ذهب الغزالي الى ابعاد ما قاله الماوردي. فقد دعا الى طاعة الحاكم الظالم وعدم جواز عزله اذا كان ذلك يؤدي الى اختلاف الاراء والنزاع. فالاساس عنده ان تبقى الامة ساكنة راضية قائمة بما يحل بها من خلفائها وسلاطينها لا تحرك ساكنها لئلا تتنازع وتتفرق ففي ذلك كل البلاء حسب رأيه. لكنه حاول ان ينطلي إلحاحه على الطاعة والاستكانة المطلقة بنصيحة لا تؤذي السلاطين والخلفاء فقال انه على المسلم ان يتجنب صحة الحكام الظالمين، ويجب عليه ان يوجههم بالكلام اذا كان ذلك لا يجلب عليه مضرة، او بالسكوت اذا كان الكلام يمكن ان يحرض

على الاضطراب والثورة. فوضع السلامة الشخصية فوق مبدأ مقاومة الظلم. اما العمل على ازالة حاكم جائر واستبداله بحاكم عادل فيبدو من فحوى تعاليم الغزالي انه امر مردول.

لما صعب على الغزالي الادعاء بان السلطان السلجوقي يستمد سلطته من الخليفة في حين كان السلطان هو الذي يعين الخليفة ويعزله، فانه طلع بالنظرية القائلة بان وجود سلطان قوي الى جانب خليفة ليس له شيء من السلطة هو ضمانه لتمكين الخليفة من الدفاع عن الاسلام ونشره في العالم. وهذا منطق غريب : يريد خليفة ضعيفا والى جانبه سلطان قوي لكي يتمكن السلطان الضعيف من الجهاد ونشر الاسلام بواسطة السلطان المقتصب، فما الحاجة الى الاثنين معا؟ ولماذا لا يكتفي بسلطان قوي يتولى الجهاد، بل لماذا لا يدعو المسلمين الى تنصيب خليفة قوي دون حاجة الى سلاطين، لعله ادرك ان الدعوة الى الطاعة المطلقة حتى للحكام الظالمين قتلت في نفوس المسلمين حافز الانتفاض على الظلم وامكان قيامهم بتنصيب خليفة قادر.

لقد عاصر الغزالي الحروب الصليبية مدة ستة عشر عاما ايام السلطانين بركياروق واخيه محمد فلا نراه حثهما على الجهاد، كما لا نرى هذين السلطانين القويين قد ساعدا الخليفة المستظهر او المسترشد على القيام بأولى واجباتهما وهو الجهاد ضد الغزاة الصليبيين حسب نظرية الغزالي القائلة ان السلطان القوي هو ضمانه لتمكين الخليفة من الدفاع عن الاسلام ونشره، بل نراهما انشغلا بالحروب بين بعضهما، ثم حارب السلطان محمود الخليفة المسترشد بدلا من ان يساعده على محاربة الصليبيين. وخلفه اخوه السلطان مسعود الذي حارب الخليفة الراشد ايضا وقتله، ولم يلتفت الى واجب الجهاد فانهارت نظرية الغزالي في الواقع العملي.

نظرية بدر الدين ابن جماعة (١٢٤١-١٢٢٢)

مع بدر الدين ابن جماعة نخرج من العصر المباسي ونتابع تطور للنظرية السياسية الاسلامية في العهد اللاحق وهو عهد المماليك (١٢٥٠-١٥١٧). والمماليك، كما يدل اسمهم، جنود من العبيد الاتراك والشراكسة، قتلوا خليفة الملك الصالح ايوب عام ١٢٤٩ وعينوا احدهم سلطانا مكانه. ثم نقلوا الى

القاهرة احد العباسيين الذين نجوا من فلك هولاكو خان لما احتل بغداد (١٢٥٨) واصلوه خليفة عام ١٢٦١ أملا أن يكسبهم الخليفة العباسي شرعية للحكم الذي اغتصبوه.

مع المالك سقط كل ادعاء ان السلطة تنتقل بطريق "الاستخلاف" او باختيار "اهل الحل والعقد"، وصارت القوة العسكرية المجردة من اية تغطية شرعية هي التي توصل القائد الى الحكم ويبقى فيه الى ان يقوم قائد اخر يجمع حوله قوة عسكرية اكبر ويغتصب السلطة بصرف النظر عن كفاءته السياسية والادارية.

مالج ابن جماعة الاوضاع المستجدة في كتابه "تحرير الاحكام في تدبير اهل الاسلام" فقال ان وجود الحاكم ضرورة دينية اذ بدونه لا يوجد عدل في الارض، وهو "ظل الله" وطاعته واجبة دينا ايضا كان، اي انه لم يعد من الضروري ان يكون الخليفة من قریش.

فاذا قام من يطالب بالامامة وليس لديه الصفات اللازمة واجبر المسلمين بالقوة وبواسطة جيوشه على الاعتراف به دون بيعة او استخلاف، فان سلطته تصبح شرعية وطاعته واجبة للمحافظة على وحدة المسلمين. وهذا واجب وان كان الحاكم شريرا. فاذا تسلط احدهم بهذا الشكل ثم قام اخر وتقلب عليه بقوة عسكرية فان طاعة الثاني تصبح واجبة ويجب ان يكون المسلمون "مع اي حاكم يستولي على السلطة". (٢٦١)

كذلك لم يعد من الضروري الاهتمام بكيفية وصول الحاكم الى السلطة بالاختيار او بالاغتصاب فطاعته واجبة في الحالتين حتى تبقى الامة متماسكة ومتضامنة. واذا استولى سلطان على بلاد بالقوة فعلى الخليفة ان يفوض اليه الامور وان يدعو الرعية لطاعة الحاكم الجديد لئلا تنقسم الامة وتضعف. فاذا اخطأ السلطان وظلم فلا يجوز خلع لئلا تضطرب الامة (٢٦٢).

هذه النظرية، كما نرى ، هي خطوة اوسع، بعد الماوردي والغزالي، في تمييز الحكم العسكري الاغتصابي القائم على القوة المادية مجردا من اي سند شرعي او اخلاقي.

نظرية تقي الدين ابن تيمية (١٢٦٢-١٣٢٨)

ولد ابن تيمية في حرّان في العراق، ودرس في دمشق التي اقامها هرباً من الزحف المغولي، وتوفي سجيناً بأمر من سلطان المماليك في القاهرة. ويُعتبر ابن تيمية من أشهر الفقهاء الحنابلة وأحد المتابعين الفكريين للحركة الوهابية التي قامت في الجزيرة العربية في منتصف القرن الثامن عشر. من أهم مؤلفاته "السياسة الشرعية" و"منهاج السنة". وقد أوردنا في الفصل الثالث بعض تعاليمه الدينية - السياسية ونضيف إلى ذلك أنه تخطى عن ضرورة وجود إمامة جامعة شاملة لجميع المسلمين، واعترف بشرعية قيام إمارات متعددة تجاورها مع مقتضيات عصره، وأوصى المسلمين بوجوب طاعة حكامهم كواجب ديني حفاظاً على تطبيق الشريعة، وقد سار في موضوع الطاعة على ما قاله قبله الغزالي والماوردي وابن جماعة.

* * *

ملحق الفصل

تسلسل الخلفاء العباسيين

- ١ - عبد الله أبو العباس السفاح (أخو إبراهيم الإمام ٧٥٤-٧٥٥.
- ٢ - أبو جعفر المنصور أخو السفاح ٧٥٤-٧٧٥
- ٣ - محمد المهدي ابن المنصور ٧٧٥-٧٨٥
- ٤ - موسى الهادي ابن المهدي ٧٨٥-٧٨٦
- ٥ - هارون الرشيد ابن المهدي ٧٨٦-٨٠٩
- ٦ - محمد الأمين ابن هارون ٨٠٩-٨١٢
- ٧ - أبو العباس المأمون ابن هارون ٨١٢-٨٢٢
- ٨ - المعتصم ابن هارون ٨٢٢-٨٤٢
- ٩ - الواثق ابن المعتصم ٨٤٢-٨٤٧
- ١٠ - المتوكل ابن المعتصم ٨٥٧-٨٦١
- ١١ - المنتصر ابن المتوكل ٨٦١-٨٦٢
- ١٢ - المستعين ابن محمد ابن المعتصم ٨٦٢-٨٦٦
- ١٣ - المعتز ابن المتوكل ٨٦٦-٨٦٩
- ١٤ - المهتدي ابن الواثق ٨٦٩-٨٧٠
- ١٥ - المعتمد ابن المتوكل ٨٧٠-٨٩٢
- ١٦ - المعتضد ابن الواثق (أخو المعتمد) ٨٩٢-٩٠٢
- ١٧ - المكتفي ابن المعتضد ٩٠١-٩٠٨
- ١٨ - عبد الله ابن المعتز توفي بالخلافة يوما واحدا ٩٠٨

- ١٩ - المقتدر ابن المكتفي ٩٠٨-٩٢٢
- ٢٠ - القاهر ابن المكتفي وأخو المقتدر ٩٢٢-٩٢٤
- ٢١ - الراضي ابن القاهر ٩٢٤-٩٤٠
- ٢٢ - المتقي ابن القاهر وأخو الراضي ٩٤٠-٩٤٤
- ٢٣ - المستكفي ابن المكتفي ٩٤٤-٩٤٦
- ٢٤ - المطيع ابن المقتدر ٩٤٦-٩٧٤
- ٢٥ - الطانع ابن المطيع ٩٧٤-٩٩١
- ٢٦ - القادر ابن المكتفي ٩٩١-١٠١٣
- ٢٧ - القائم ابن القادر ١٠٣١-١٠٧٥
- ٢٨ - المقتدي ابن القائم ١٠٧٥-١٠٩٤
- ٢٩ - المستظهر ابن المقتدي ١٠٩٤-١١١٨
- ٣٠ - المسترشد ابن المستظهر ١١١٨-١١٢٥
- ٣١ - الراشد ابن المسترشد ١١٢٥-١١٣٦
- ٣٢ - المقتفي ابن المستظهر ١١٣٦-١١٦٠
- ٣٣ - المستنجد ابن المقتفي ١١٦٠-١١٧٠
- ٣٤ - المستضيء ابن المستنجد ١١٧٠-١١٨٠
- ٣٥ - الناصر ابن المستضيء ١١٨٠-١٢٢٥
- ٣٦ - الظاهر ابن الناصر ١٢٢٥-١٢٢٦
- ٣٧ - المستنصر ابن الظاهر ١٢٢٦-١٢٤٢
- ٣٨ - المستعصم ابن المستنصر ١٢٤٢-١٢٥٨

مراجع الفصل السابع السياسة في الدولة العباسية

- ١ - احمد امين، ضحى الإسلام، ج ٢، ص ٢٢.
- ٢ - حني، فيليب، تاريخ العرب، ص ٤٠٢.
- ٣ - المصدر السابق، ص ٢٦٤.
- ٤ - المصدر السابق، ص ٢٦١.
- ٥ - المصدر السابق، ص ٢٦١.
- ٦ - المصدر السابق، ص ٢٦٤.
- ٧ - طه حسين، حديث الأربعاء، ص ٤٧٤.
- ٨ - حني، فيليب، سبق ذكره، ص ٢٦٦ وما بعدها.
- ٩ - الطبري، ج ٢، ص ٧١٢، ٧١٤، وابن الأثير، ج ٦، ص ١٤١.
- ١٠ - حني، سبق ذكره، ص ٢٦٤.
- ١١ - The Lands of the Eastern Caliphate,
pp. 9-12
- ١٢ - حني، سبق ذكره، ص ٢٢٢.
- ١٣ - المصادق التيهوم، صوت الناس، مجلة ثقافة مزورة، ص ١٢٦.
- ١٤ - عبد الرازق، علي، الإسلام وأصول الحكم، ص ٨٤.
- ١٥ - حني، فيليب، تاريخ العرب، ص ٥٦٢.
- ١٦ - صلاح الدين هسيولي، رسالة الفكر السياسي عند الماوردي، ص ٢٠.
- ١٧ - حني، فيليب، سبق ذكره، ص ٢٦٦.
- ١٨ - المصدر السابق، ص ٥٧٠.
- ١٩ - Lewis, Bernard, The Political Language
of Islam, pp. 47, 48
- ٢٠ - حني، فيليب، سبق ذكره، ص ٥٧.
- ٢١ - عبد الرازق، الإسلام وأصول الحكم، ص ٨٥.
- ٢٢ - حني، فيليب، ص ٥٧٥ و ٥٧٦.

- ٢٢ - الماوردي، أبو الحسن، الأحكام السلطانية، ص ٥.
- ٢٤ - القزالي، أبو الحميد، الاقتصاد في الامتناع، ص ١٠٧ و ١٠٨.
- ٢٥ - المصدر السابق، ص ١٠٥.
- ٢٦ - ابن جماعة، بدر الدين، تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، ص ٢٧٥.
- ٢٧ - المصدر السابق، ص ٢٦٢ و ٢٦٤.

* * *

الفصل الثامن

الفتوحات والانظمة السياسية

مقدمة

ما علاقة الفتوحات الاسلامية ببحثنا عن "النظام السياسي في الاسلام"؟ لقد رسخ في اذهان المسلمين على مدى قرون ان الاسلام الذي ينظم علاقة المسلم بربه (العبادات)، وعلاقة المسلم بمجتمعه وبالأفراد الآخرين (المعاملات)، ينظم ايضا شئون الحكم والسياسة والادارة. وهذا اعتقاد يتفق فيه اكثر المسلمين من سنة وشيعة وقد عبّر عنه فقهاء كثيرون من المذاهبين. ان الاسلام من ناحية المعتقدات والايان من اهم الاديان التوحيدية يمتاز ببساطته ووضوحه، وهو ككل دين يزود الانسان بمستوى من القيم الاخلاقية ملزمة للفرد والمجتمع، تبيّن الصواب من الخطأ، والصالح من المنكر. وهذا واضح ومفصل في الاسلام ومقبول من جبهة المسلمين. وقد عبّث "الاخلاقيات الاسلامية" حتى تاتر بها السكان غير المسلمين في المجتمعات الاسلامية.

لقد تابعنا مسيرة الحكم الاسلامي خلال عهد الخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين فلم نر الا حكما فرديا مطلقا يتصرف فيه الخليفة او السلطان بمشيئته ما دام لا يخالف احكام الشريعة، وما على الرعية الا الرضوخ والطاعة حتى للحكام الظالمين. يقول الاستاذ سيد قطب في ذلك وهو من رُعاء "الاخوان المسلمين" في مصر: "فعلت الموجة الاموية فعلها في تصوّر الحكم حتى انتهت به ايام العباسيين الى نظرية الحق الالهي المقدس الذي لا يُنازَع".^{١١} ولو بما امكن تسمية هذا الحكم المطلق باسم "الحكم بمشيئة الله" لولا ان اربابه فشلوا ايضا بوضع نظام لتسلسل الحكم وكانهم تعبدوا ترسيخ

الفوضى في الحياة السياسية الإسلامية.

إن التاريخ السياسي للإسلام لا يقتصر على زمن الخلافة الذي استعرضناه في الفصول السابقة وشمل أدوار قوة الخلافة وانحطاطها، إذ قد نشأت أيام الخلافة وبعدها دول عديدة ممتدة من الهند إلى إسبانيا حكمت باسم الإسلام، وسيكون بحثنا ناقصا إذا قصرنا في استكشاف ما إذا كانت هذه الدول التي قامت ضمن إطار الخلافة أو خارجها قد طورت نظاما سياسيا ذا صفات خاصة يمكن وصفه بأنه نظام إسلامي، وننبه إلى ما يلي :

أولا : أن غرضنا من هذا الاستعراض ينحصر في الاطلاع على الأنظمة السياسية التي قامت في هذه الدول ولا يتمرض لنواحي الحكم الأخرى من إدارة وقضاء ومال وغيرها.

ثانيا : أننا حصرنا استعراضنا بنحو عشرين دولة رئيسية في التاريخ الإسلامي نشأت في أقطار وشعوب مختلفة ومتباعدة لا يجمع بينها إلا الإسلام. ولم نجد من المفيد أن نتعرض للدويلات العديدة التي قامت واندثرت في فترة زمنية قصيرة.

ثالثا : أن استعراضنا للدول التي اخترناها لا يشكل تاريخا لها لأنها حصرنا اهتمامنا كما قلنا بالاطلاع على أنظمتها السياسية ولم نتعرض لادواراتها الثقافية والحضارية وقد كان لبعضها باع طويل في هذه الميادين.

نضيف إلى هذه التحفظات أنه إذا دعت بعض الفئات الآن إلى نظام سياسي تنسبه إلى الإسلام يختلف جذريا عما مارسته الدول الإسلامية خلال قرون، فإن دعوتهم تفتقر إلى سند تاريخي يدعمها ولا تتعدى أن تكون نظرية سياسية يحق لهذه الفئات أن تسعى إليها لكن لا يجوز لها الادعاء أنها تمثل النظرية السياسية الإسلامية.

الفتوحات

يُجمل أكثر المؤرخين الانتشار الإسلامي في العالم تحت عنوان 'الفتوحات الإسلامية'. ويحلو لبعضهم أن يسميها 'الفتوحات العربية' ربما لأن العرب بدلوها وإن كان دورهم تقلص ثم زال بعد مائة عام أو أكثر قليلا.

ولعل بعض الأتراك يسمونها 'الفتوحات التركية' نظرا للدور الهام

والطويل الذي قامت به القبائل التركية المختلفة في غزو بلاد جديدة وإنشاء دول فيها.

يُقسم عهد الفتوحات برأينا إلى دورين رئيسيين، الأول دور الفتوحات العربية التي بدأت بالخليفة عمر بن الخطاب واستمرت في عهد الخلافة الأموية، والثاني دور الفتوحات التركية - المغولية التي بدأت في العهد العباسي ودامت إلى نهاية الدولة العثمانية.

دور الفتوحات العربية

فتوحات الخلفاء الراشدين

بدأت الفتوحات في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وكانت الجيوش مؤلفة بكاملها من رجال القبائل العرب يمتطون الخيول والجمال. وكانت طريقتهم في القتال هي الهجوم في صف طويل وامطار اعدائهم بالنبال والجريد ثم الارقذاد الى خط معين سابقا، ثم يتكرر هذا الهجوم الى ان يكتشفوا ضعفا في الجبهة المعادية فيركزون عليه ثم يشتبكون بالسيوف والرماح.

كان سلاح العرب السيف والرمح والقوس والنبال والجريد ولم يكونوا بذلك اضعف عتادا من اعدائهم، كما ان قبائل الحدود العربية كانت خبيرة بأساليب الروم والفرس الحربية فقد قاتلت مع هذا الجانب او ذاك قرونا طويلة، كانت ميزة الجيوش العربية قدرتها على التحرك السريع، وما انها كانت هي المهاجمة فقد كان لها ان تختار مكان المعركة وزمانها. وقد جرت بعض المعارك المهمة على حدود الصحراء، وهي موطن العرب، بحيث امنوا الهجوم على مؤخرتهم وضمنوا استمرار امداداتهم. وفي المعارك المهمة ندر ان كان العرب اقل عددا من اعدائهم.

فتح بلاد الشام

سلمت دمشق لخالد بن الوليد في 2 سبتمبر (أيلول) 635، على صلح اعطى خالد فيه لسكان دمشق 'أمانا على انفسهم، واموالهم، وكنائسهم، وسور

مدينتهم، لا يهدم، ولا يسكن شيء من دورهم، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء والمؤمنين لا يعرض لهم الا بخير اذا اعطوا الجزية". (١١)
وصالح اهل حمص على مثل ذلك. (١٢)

لكن احترام نصوص هذا العهد لم يدم طويلاً. فقد استولى المسلمون على نصف الكنيسة الكبرى في دمشق المعروفة باسم كنيسة مار يوحنا المعمدان وحولوها الى مسجد. وفي عهد الخليفة الوليد ابن عبد الملك (٧٠٥ - ٧١٥) صادروا النصف الثاني لما رفض المسيحيون بيعه، وضموه الى المسجد وغطوا الفسيفساء على جدرانها بالكلس لانها تشل حياة السيد المسيح، فتشكل بذلك المسجد الاموي الشهير.

كانت جيوش الروم مؤلفة من خليط من الشعوب لا يشعرون بولاء كبير للامبراطورية البيزنطية التي انهكتها الحروب الطويلة مع بلاد فارس واستنزفت مواردها. وكان السكان المحليون غير مكترئين بدولتهم، وحيثما معادين لها.

تابع المسلمون تقدمهم فاشتبكوا مع جيش الروم في معركة اليرموك يوم ٢٠ اغسطس (آب) ٦٣٦ فانتصر المسلمون وتخلي الامبراطور هرقل عن سوريا.

بعد معركة اليرموك استسلمت القدس الى الخليفة عمر شخصياً سنة ٦٣٨، وسقطت قيسرية وغزة سنة ٦٤٠ وبقيت عسقلان وطرابلس آخر معاقل الروم تقاومان الى سنة ٦٤٥.

في سنة ٦٣٦ عين الخليفة عمر معاوية بن ابي سفيان حاكماً على سوريا وكان ذلك اللبنة الاولى في بناء الدولة الاموية. وقد بنى معاوية اسطولاً غزاً به جزيرة قبرص سنة ٦٤٩ فاستسلمت. وفي سنة ٦٥٢ اغار اسطول الروم على الاسكندرية بقصد استعادتها فتصدى له عبد الله بن ابي سرح والي مصر باسطول مصري ورده.

لكن الانتصارات على الامبراطورية البيزنطية بقيت جزئية واقتصرت على السواحل الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط، وامتدت شمالاً في الداخل الى ما دعاه العرب منطقة "الجزيرة" وهي الاراضي السهلية الخصبة ما بين الفرات ودجلة واشهر مدنها الموصل بجوار بقايا مدينة نينوى، وحماد على مجرى

ديجلة الاعلى، والرقعة على نهر الفرات، ونصيبين، ويقبض منابع النهرين الجبلية مناطق متنازع عليها تتعرض للغزو من الفريقين.
شكلت جبال طوروس حداً طبيعياً بين العرب والروم وكان الفريقان يتبادلان الغزوات سنوياً تقريباً عبر ممراتها دون ان يتغلب فريق على آخر.

فتح بلاد فارس

لم يستطع الخليفة عمر ان ينظم حملة كبيرة على بلاد فارس الا بعد انتصاره في معركة اليرموك وفراغه من بلاد الشام. فجهز جيشاً بقيادة سعد بن ابي وقاص وارسله الى العراق حيث اشتبك مع جيش كسرى في معركة القادسية في حزيران (يونيو) ٦٢٧ فتراجع الفرس واستولى المسلمون بعد شهر على المدائن عاصمة ملوك الساسانيين على شاطيء دجلة.

احتل المسلمون ما بين ٦٢٧ - ٦٢٩م جميع اراضي ما بين النهرين، وهنوا مدن البصرة والكوفة كمسكرات للجند فاصبحت جميع البلاد التي تسكنها الشعوب السامية، اي فلسطين، وسوريا، وما بين نهري الفرات ودجلة، واشور، وبابل، في قبضة المسلمين.

استمر الفرس بالمقاومة وكانت اهم المعارك بعد القادسية معركة نهاوند سنة ٦٤١ التي فتحت امام العرب الهضبة الابرانية.

بعد معارك مستمرة انسحب الملك يزديجرد اخر الملوك الساسانيين الى مدينة مرو التي تقع الان في تركستان السوفياتية حيث توفي سنة ٦٥١. ووقعت بناته الثلاث سبيها فارسلن الى المدينة وعوملن معاملة خاصة. اخذهن علي بن ابي طالب فزوج احدهن شهر بانو لابنه الحسين فولدت له زين العابدين. وزوج اختها كيهان لعبدالله ابن عمر ابن الخطاب، وزوج الثالثة لمحمد ابن ابي بكر.

في السنة التالية لوفاة الملك يزديجرد استولى المسلمون على مرو وبلغ هرات فانهى فتح بلاد فارس وبعض ما حولها وقضى على الدولة الساسانية. تابع العرب فتوحاتهم فاستولوا على اذربيجان وارمينيا وكرجستان وجيلان وجرجان وطبرستان على بحر قزوين. كما استولوا على كردستان وعاصمتها كرمشاه وعلى مدن همدان والري ومشهد واصفهان.

أهم المناطق الفارسية بالنسبة للتاريخ العربي هي بلاد خراسان موطن أبي مسلم الخراساني الذي كان حاضرا أساسيا في انتصار الدعوة العباسية. وقد شرحنا في الفصل السادس مدى اعتماد العباسيين على الفرس وخصوصا على أهل خراسان.

كانت خراسان في ذلك الزمن أوسع كثيرا بالمساحة من خراسان الحالية. فقد ضمت ما هو الآن شمال شرق أفغانستان، وامتدت شمالا إلى نهر جيحون وصحراء خوارزم، وشرقا إلى مقاطعة باداخشان. ومن مدنها نيسابور، وطوس، ومرو، وهرات، وبلخ التي تقع على نهر بالاسم نفسه وكانت لمدة من الزمن أيام العباسيين عاصمة خراسان.

كان نهر جيحون في القديم يشكل الحد بين الشعوب الإيرانية والشعوب الطورانية وكان العرب يسمون بلاد الطورانيين "ما وراء النهر" إلى أن خرج الطورانيون (الأتراك) من موطنهم في آسيا الوسطى وانتشروا واستولوا على بلاد فارس وغيرها فزال الحد القديم.

ما بين نهر جيحون أو (أكسوس) حسب التسمية اليونانية القديمة أو (أورداريا) حسب التسمية الحالية، ونهر سيحون (جاكستارتس) حسب التسمية اليونانية وسيرداريا اسمه الحالي. تقع المدن الإسلامية المهمة : سمرقند وبخارى كلاهما على نهر الصفد، وإلى الشرق في منطقة نهر سيحون نجد منطقة فرغانة قرب الحدود الصينية وعاصمتها مدينة طاشقند (شاش) على نهر سيحون، والنهران العظيمان يصبان في بحر آرال الذي سماه العرب بحر خوارزم.

في خلافة عثمان بن عفان أنشأ العرب سنة ٦٥٤ إمارة في تغليس (اسمها الروسي حاليا تبيلسي) في منطقة جورجيا ما بين البحر الأسود وبحر قزوين. وفي زمن الأمويين (٧٢٧) تغلبت القوات العربية على تحالف قبائل بدوية من الخزرج في شمال بلاد القوقاز ودمرت عاصمتهم.

أثناء هذه الفتوحات هاجرت قبائل عربية كثيرة إلى البلاد الجديدة وتوطنت فيها بجانب السكان الأصليين.

يجب أن نلاحظ الفرق بين استيلاء العرب على بلاد الشام واستيلائهم على إيران. فقد تخلى البيزنطيون عن بلاد الشام بعد مقاومة خفيفة لكنهم

أوقفوا الامتداد الاسلامي نحو بلادهم مدة طويلة اذ لم تسقط القسطنطينية الا سنة ١٤٥٢، اما الفرس فقد قاوموا الزحف العربي مقاومة شديدة في البداية واضطر العرب الى التغلب على الولايات واحدة بعد اخرى. لكن ايران بعد هزيمتها استكانت للحكم الاجنبي من عربي وتركبي ومغولي اجيالا طويلة. كان الفتح العربي في بدايته هشا اذ كان كثير من سكان البلاد والمدن يقبلون الاسلام ويخضعون للحكم العربي لكن ما ان تمسح الجيوش او تضعف السلطة المركزية حتى يعودوا الى عاداتهم ومعتقداتهم السابقة. يدل على ذلك كثرة الثورات والفاقل في هذا الدور.

فتح مصر

ننتقل في الفتوحات العربية من الشرق الى شمال افريقيا. ففي سنة ٦٤٠ هاجم عمرو بن العاص مصر واستولى على الاسكندرية احدى اشهر مدن الامبراطورية البيزنطية واسس مدينة الفسطاط كمعسكر للجند. ويبدو ان الاقباط سكان مصر لم يناصروا حكومتهم البيزنطية ضد العرب نظرا للخلافات المذهبية بين الاقباط سكان البلاد وبين القسطنطينية. حافظ العرب في البداية على الوضع الراهن وعقد عمر بن العاص معاهدة مع سيروس مطران الاسكندرية تعهد فيها بالمحافظة على الكنائس المسيحية وعلى وضع السكان مقابل دفع مبلغ سنوي. وكان العرب اقلية عنصرية ودينية صغيرة.

مكتبة الاسكندرية

كانت المكتبة مع متحفها أشهر مؤسسة ثقافية في العالم الاغريقي اسستها وتعهدها سلسلة طويلة من الابطرة البطالسة منذ القرن الثالث ق.م. سفت المكتبة ان تكون شاملة للعارف اليونانية ومعارف المناطق المجاورة فضمت كتباً مترجمة من لغات بلاد البحر الابيض المتوسط وبلاد الشرق الاوسط والهند. ويقال ان المكتبة كانت تحوي خمسمائة الف مخطوطة تبحث في علوم اليونان من ايام هوميروس وما بعده بما فيها علوم الرياضيات والفلك والجغرافيا والطب والفيزياء والفلسفة. وكانت الاسكندرية مركزا علميا

ونيسيا في الدولة البيزنطية.

تقول بعض الروايات ان العرب حين استولوا على الاسكندرية دمروا مكتبتها ورموا محتوياتها في النيل باعتبار ان القرآن يحوي جميع العلوم ولا حاجة لهم بغيره. وينفي المسلمون هذه التهمة بشدة. وتقول مصادر اخرى ان المكتبة دُمرت في عهد الرومان اثناء الحرب الاهلية التي جرت في عهد الامبراطور اوريلييان في اواخر القرن الثالث بعد الميلاد أي قبل دخول العرب الى مصر بزمان طويل.

حافظ العرب ايضا على نظام الضرائب البيزنطي الذي يتضمن ضريبة على الارض وعلى الافراد. وبقي الموظفون الاقباط قائمين على ادارة مصالح الدولة. وعلى ذلك فان الفتح في البداية لم يغير كثيرا في الحياة اليومية للسكان المصريين وقد عزل العرب انفسهم عن السكان المحليين في البداية واقاموا في معسكرات خاصة وبقيت اللغة اليونانية اللغة الرسمية للدولة الى سنة ٧٠٦ كما بقيت اللغة القبطية هي اللغة المحكية.

لكن هذا الوضع لم يدم طويلا. فقد انتقلت قبائل عربية برمتها الى مصر في خلافة عثمان بن عفان وبعده، كما سح الخليفة الجديد للعرب باستملاك الاراضي فزادت الكثافة العربية.

تقدم العرب من مصر جنوبا وغربا. ففي سنة ٦٥١ - ٦٥٢ احتلوا بلاد النوبة وفرضوا على اهلها اتفاقية تقضي بدفع ضريبة سنوية والقبول بان يمارس المسلمون الاسلام وينشروه بين السكان. ثم تقدم العرب غربا في شمال افريقيا. بعد ذلك سادت مصر فترة فلول واضطرابات. وبعد نحو قرن ونصف قام الاقباط وبعض القبائل بثورة ضد الحكم العباسي فسار الخليفة المأمون الى مصر على رأس جيش وتغلب على الاقباط سنة ٨٢٠ فكان ذلك عاملا هاما في سرعة انتشار الاسلام بين السكان.

بعدما بدأ الخليفة المعتصم بادخال العبيد الاتراك في حرسه الخاص صار الخلفاء بعده يسلّمون حكم المقاطعات وقيادة الجيوش، طوعا او كرها، الى قواد اتراك. وفي عصر الانحطاط الذي بدأ بعد الخليفة المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١) لم يعد باستطاعة الخليفة ان يدفع رواتب القواد والجنود الاتراك فصار يمنح القواد قطاعات* يجبرون منها الضرائب لدفع هذه النفقات، من ذلك ان

الخلافة المعتمد (٨٧٠ - ٩٠٢) منع مصر كإقطاع لقائده التركي بابه الذي عين ابن زوجته احمد بن طولون وكيلا عنه في مصر. ولم يلبث هذا ان استقل بحكم مصر واستولى على سوريا (١٧٩) وأقام الدولة الطولونية (٨٦٨ - ٩٠٥) وجرى ما يماثل ذلك في الاقاليم الاسلامية الاخرى.

الدول المصرية

بقيت مصر ٢٢٠ سنة خاضعة مباشرة لحكم الخلفاء الامويين ثم العباسيين. لكنها منذ سنة ٨٩٨ توالى عليها الدول التالية :

١ - الدولة الطولونية (٨٦٨ - ٩٠٥) دامت ٢٧ سنة وعاصرت الخليفتين المعتمد والمعتضد في بغداد.

٢ - الدولة الاخشيديية (٩٢٥ - ٩٦٩) دامت ٢٤ سنة عاصرت آل بويه.

٣ - الدولة الفاطمية (٩٦٩ - ١١٧١) دامت ٢٠٢ سنة وعاصرت البويهيين والسلاجقة وبداية الحروب الصليبية.

٤ - الدولة الايوبية (١١٧١ - ١٢٥٠) دامت ٧٩ سنة عاصرت السلاجقة وانتصرت على الصليبيين وقضت على الدولة الفاطمية.

٥ - دولة المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧) دامت ٢٦٧ سنة من احتلال هولاكو خان لبغداد الى استيلاء الاتراك العثمانيين على مصر.

٦ - الدولة العثمانية في مصر (١٥١٧ - ١٧٩٧) دامت ٢٨١ سنة الى الاحتلال النابوليوني.

٧ - الاحتلال الفرنسي (حملة نابليون) (١٧٩٨ - ١٨٠٥) دام ٧ سنوات.

٨ - محمد علي الالباني وسلالته (١٨٠٥ - ١٩٥٢) دام ١٤٧ سنة.

٩ - الحماية الانكليزية (١٨٨٢ - ١٩٢٢) دامت ٤٠ سنة.

١٠ - الجمهورية المصرية (١٩٥٢ - ...).

يلاحظ ان جميع هذه الدويلات الاسلامية في مصر كان يحكمها الى سنة ١٩٥٢ حكام من جنسيات تركية وكردية ولبانية وشركسية ليس بينهم مصريون او عرب الا الفاطميين. وقد اهتمت جميعها بالشأن المحلي الداخلي ومن توسع منها فعل ذلك على حساب مناطق اسلامية اخرى (سوريا

وفلسطين) انتزعهما من حكامها وضما اليه.

فتوحات الخلافة الاموية

تابع الامويون الفتوحات ووسموها فاجتازت الجيوش المتمركزة في خراسان نهري امو داريا وسير داريا ودخلت آسيا الوسطى بلاد الطورانيين القبائل التركية واستولت على بخارى وسمرقند وطاشقند وبلاد خوارزم على بحر آرال وفرغانة القريبة من الحدود الصينية.

وانحدر العرب جنوبا الى مقاطعة السند واحتلوها سنة ٧٢٤ في خلافة هشام بن عبد الملك واقاموا فيها واليا يحكم باسم الخليفة الاموي. والسند مقاطعة كبيرة وخصبة تمتد جنوبا الى بحر العرب وتقع على شاطئها مدينة كراتشي وهي الان جزء من باكستان.

تقدم العرب ايضا في البنجاب وكشمير لكن المقاومة الهندية صدتهم. بقيت السند وشمال غربي الهند نحو ثلاثة قرون تحكمها سلالات مسلمة محلية تعترف بسلطة الخليفة في دمشق ثم في بغداد الى ان تغلبت عليها في القرن الثاني عشر موجات غازية تركية ثم مغولية قادمة من آسيا الوسطى.

فتح شمال افريقيا

تقدم القائد الاموي عقبة بن نافع من مصر سنة ٦٧٠ ودخل تونس التي كان يسميها العرب "افريقيا" واسس فيها مدينة القيروان فحلت محل مصر كقاعدة للتوسع غربا. وتقدم عقبة من القيروان سنة ٦٨٢ حتى وصل الى مدينة سوس جنوب مراكش لكن قبائل البربر قاومته وقتلته فترجع العرب الى برقة.

بعد محاولات دامت عشرين سنة تمكن موسى ابن نصير والي الخليفة الوليد، من اخضاع كامل اراضي شمال افريقيا حتى مدينة طنجة للسيطرة الاموية ما بين ٧٠٢ - ٧١١ مستخدما في الجيش قبائل بربرية اعتنقت الاسلام. وترك قائده طارق بن زياد من البربر واليا على طنجة لادارة البلاد ومتابعة نشر الاسلام بين قومه.

بقي الحكم الأموي في شمال إفريقيا بين مد وجزر نحو مائة سنة تكررت في أواخرها ثورات السوارج مستهزين ضعف الدولة الأموية فتراجع الجيش إلى القيروان سنة ٧٤٠ في عهد الوليد الثاني ولم يستطع الأمويون استعادة ما خسروه. وقامت في شمال إفريقيا ممالك للخوارج والمسنّة منها مملكة الأدرسيين (٧٨٩ - ٩٢٦) التي بنت مدينة فاس، ومملكة عبد الرحمن ابن رستم (٧٨٧ - ٩١١). ومملكة بني الأغلب (٨٠٠ - ٩٠٩) الذين جعلوا القيروان عاصمتهم وشمل حكمهم تونس وشرق الجزائر، وهي البلاد التي سكنها العرب بكثافة، كما استولوا على جزيرة صقلية. وكانت هذه الممالك تترافق اسمياً بالخليفة الأموي ثم بالخليفة العباسي.

فتح اسبانيا (٧١١ - ١٢١٢)

تقول المصادر العربية أن طارق بن زياد حاكم طنجة وأحد القواد البربر لدى موسى ابن نصير، عبر المضيق المعروف الآن باسمه مع جيش قليل العدد من البربر، وأحرق السفن التي عبر بها ثم اشتبك مع جيش رذريق (رودريك) ملك القوط سنة ٧١١ فتغلب عليه وقتل رذريق في المعركة وانتهت دولة القوط.

أما المصادر الغربية فتقول أن فتح اسبانيا كان بدعوة من القوط بسبب خلافات داخلية. إذ لما توفي ويثيرا ملك القوط (٧٠٠ - ٧١٠) اغتصب العرش رودريك رئيس فريق ثاني فاستنجدت عائذة ويثيرا بالمسلمين في شمال إفريقيا ليساعدوهم على الإطاح به فجاء طارق بن زياد تلبية لطلبهم.

بعد مقتل رذريق بقي القوط بدون رئيس يوحدهم ويقودهم فسهل على طارق اجتياح البلاد. سار إلى طليطلة واحتلها ودهش من أنه لم يلق مقاومة من الأسبان. في السنة التالية جاء موسى بن نصير على رأس جيش عزم واحتل مريدة وساراغوسا في شمال اسبانيا. وبعد مدة قصيرة سقطت معظم البلاد الأسبانية تحت الحكم العربي وبعود سبب استسلام اسبانيا لجيش لا يزيد عدده عن بضعة عشر ألفاً إلى الخلافت التي مزقت المجتمع الأسباني وإلى التنافس بين ملوكها الذي منعهم من الاتحاد في وجه الغزاة.

معركة بواتييه ٧٣٢

اجتاز عبد الرحمن الغافقي حاكم قرطبة في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (٧٢٤ - ٧٤٢) جبال البيرينيه التي تفصل بين اسبانيا وفرنسا وهاجم منطقة اكريتين في جنوب غرب فرنسا. وهنا تختلف الروايات بعضها يقول انها كانت غزوة صيفية تهدف الى الغنيمه ولا تقصد الاحتلال، ويقول اخرون انها كانت هجوماً قري مصير اوربا. على كل حال وصل الجيش الى مدينة بواتييه واشتبك مع قوة شارل مارتيل الذي كان الحاكم الفعلي للممالك الفرنكية فقتل عبد الرحمن الغافقي في المعركة وتراجع جيشه وكان ذلك اخر هجوم قام به المسلمون على الاراضي الفرنكية كما كان اقصى ما وصلوا اليه في غرب اوربا وان بقيت غزوات الحدود مستمرة.

وقد خلّد الشاعر الفرنسي رولان معركة بواتييه في قصائد انتشرت في اوربا وغناها الناس وعرفت باسم 'اغاني رولان'.

ما بين ٧١١ و ٧٥٦ كان يحكم اسبانيا ولاة يعينهم الخليفة في دمشق. لكن الدولة الاموية زالت سنة ٧٥٠ واستولى العباسيون على الخلافة وحاولوا ان يقتلوا جميع من يمكن ان ينافيهم من بني امية. لكن اميرا من الامويين يدعى عبد الرحمن نجا من القتل وتسلل سرا عبر شمال افريقيا حتى وصل الى قرطبة حيث اعلن استقلال امارته وبه بدأ العصر الأموي.

تُقسم فترة الحكم الأموي في الأندلس (٧٥٦ - ١٠٣١) الى دورين : دور الامارة المستقلة (٧٥٦ - ٩٢٩)، ودور الخلافة الاموية (٩٢٩ - ١٠٣١) وكانت عاصمتها قرطبة. وفي الدورين بلغت الحضارة العربية في اسبانيا أوجها في الاداب والعلوم والفنون على اختلافها.

توفي عبد الرحمن الداخل عام ٧٨٨ وتعاقب بعده علي الحكم هشام الاول (٧٨٨ - ٧٩٦)، الحكم الاول (٧٩٦ - ٨٢٢)، عبد الرحمن الثاني (٨٢٢ - ٨٥٢)، ومحمد الاول (٨٥٢ - ٨٨٥)، والمنذر (٨٨٦ - ٨٨٨)، وعبد الله (٨٨٨ - ٩١٢) ثم جاء عبد الرحمن الثالث (٩١٢ - ٩٦١) الذي اعلن نفسه خليفة عام ٩٢٩ فوحد المقاطعات الاسلامية ووصلت الدولة الاموية في عهده الى قمة القوة والحضارة والاهداع كما ان عاصمته قرطبة صارت اكبر مدينة في اوربا وارقاها حضارة ومدنية.

درج الحكام الامويون على مشترى العبيد الصقالية وهم صفار السن ودفعهم الى اعتناق الاسلام ثم تدريبهم على الجندية او على الشئون الادارية اسوة بما كان يفعله خلفاء العباسيين مع العبيد الاتراك.

وفي عهد عبد الرحمن الثالث زاد عددهم من اربعة الاف الى اربعة عشر الفا وتحسن وضعهم الاجتماعي والسياسي مع الزمن حتى اصبح لهم سلطة ونفوذ. وكان على عبد الرحمن ان يوفق بين سياسته وبين طبيعة جيشه المؤلف من عرب ومن افراد قبائل بربرية وعبيد صقالية.

خلف عبد الرحمن الثالث ابنه الحكم (٩٦١ - ٩٧٦) وكان عهده مماثلا لعهد ابيه في الرفعة والازدهار وفي زمنه انتهى بناء جامع قرطبة الكبير (٩٧٦) الذي ما زال لثرا رائعا من اثار الفن الاسلامي.

بعد الحكم بدأ الحكم الاموي يضعف وازداد عليه الضغط الاسباني وسادت فترة من القلاقل ادت الى عزل الخليفة هشام الثاني سنة ١٠٠٩. ومنذ ذلك التاريخ الى انتهاء دور الخلافة الاموية سنة ١٠٢١ برز الصقالية كاحدى القوى الرئيسية الثلاث التي تحكمت باختيار الخلفاء وعزلهم، الى جانب البربر والعرب.

ثم سادت فترة فوضى بعد عام ١٠٢١ وصارت الصدامات مستمرة بين العرب والبربر والجنود الصقالية دون ان تستطيع احدى الفرق ان تلغي الاخرين وتخضعهم لها. توافق ذلك مع مسعى امراء المقاطعات للتحرر من السلطة المركزية ابتداءً من سنة ١٠٠٩ ثم تنازعهم وتحاسدهم الذي ادنى الى حروب بينهم. ولم يختلف هذا عما كان يجري في المقاطعات البويهية والسلجوقية في المشرق فقد كانت الطبيعة واحدة رغم بعد المسافات وقلة الاتصالات.

الهجوم الاسباني المعاكس

بعد الفتح الاموي سنة ٧١١ برزت بضع دول مسيحية في شمال اسبانيا مدفوعة بمامل حماية نفسها والتمداء الديني للفرقة المسلمين، كان اهمها ممالك اراغون وكاستيل وليون التي تمتد ممالكها مجتمعة من البحر المتوسط الى شمال البرتغال على المحيط الاطلسي.

في تفكير أكثر العرب ان الاحتلال الاسلامي لاسبانيا يمتد ٧٨١ سنة من تاريخ دخول طارق بن زياد (٧١١) الى سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢. والحقيقة ان الفتح الاسلامي ورد الدول الاسبانية المسيحية عليه بقي في حالة مدّ وجزر طيلة قرنين من الزمن او اكثر. فالدول المسيحية الاسبانية كانت مختلفة فيما بينها تنافس على الزعامة والنفوذ ولم تولد كتلة متحدة الا في القرن الثالث عشر. وقد رأينا ان خلافات مماثلة كانت مستشيرة في الجانب الاسلامي ما بين العرب والبربر والصقالبة. وبين دول الطوائف التي كانت تتقاتل فيما بينها وتستنصر احيانا بالاسبان ضد بعضها. ومع ذلك كان يمكن للمسلمين طلب النجدة من اخوانهم في شمال افريقيا وقد طلبوها بالفعل مرتين لرفع الخطر المسيحي : طلبوها من المرابطين في القرن الحادي عشر، ومن الموحيدين في القرن الثاني عشر. ومع ذلك كان زحف الممالك المسيحية مستمرا لا يتوقف وان كان تقدمه بطيئا في البداية.

المرابطون (١٠٨٥-١١٢٦)

استولى المسيحيون على مدريد (١٠٨٢) وعلى طليطلة (١٠٨٥) فاستنجد المسلمون بدولة المرابطين في مراكش (١٠٦٢ - ١١٤٧). قامت حركة المرابطين في المغرب (١٠٤٥) بين قبائل البربر الصحراوية وخاصة قبيلة صنّاجة اللثمة التي تشبه قبيلة الطوارق حاليا. برز منهم يوسف ابن تاشفين الذي ما بين ١٠٥٤ الى ١٠٩٢ استولى على المغرب وعلى غرب الجزائر الى حدود مدينة الجزائر وجعل عاصمته مدينة مراكش واتخذ لقب "أمير المسلمين" وبقي يعترف بالخليفة العباسي في بغداد.

دخل يوسف ابن تاشفين اسبانيا سنة ١٠٨٥ على اثر سقوط طليطلة بدعوة من الحكام المسلمين، فوقف الزحف المسيحي موقفا لكنه بسط سيطرته على الدويلات الاسلامية وضمها الى مملكته. خلفه ابنه علي ابن يوسف (١١٠٦ - ١١٤٢) فوثق العلاقات بين المغرب واسبانيا ونشر الحضارة الاندلسية في بلاده.

عاد الزحف للمسيحي يتقدم رغم وجود المرابطين فاستولوا على ساراجوسا (١١١٨) وعلى لاريدا (١١٢٦)، ثم تعرض المرابطون لمصاعب في

اسبانيا وفي المغرب في بداية القرن الثاني عشر، فقي اسبانيا لم يستطع الاسلام ان يوتد بين العنصرين العربي والبربري وكانت الصدامات تتزايد مع ضعف السلطة المركزية. وفي المغرب ضعفت سلطة المرابطين عندما قامت ثورة الموحيدين في جبال الاطلس حوالي عام ١١٢٥ فانسحب المرابطون من اسبانيا وكانت مدة اقامتهم فيها اربعين سنة من ٨٥-١٠ الى ١١٢٥.

الموحدون (١١٧٠ - ١٢٦٩)

ينتسب الموحدون الى قبائل البربر الجبلية في حين كان المرابطون يعتمدون على بربر الصحراء. وبدا للموحدون حركة اصلاح دينية قادها محمد بن تومرت ضد المرابطين ودامت ثورتهم اثنين وعشرين سنة حتى سقطت العاصمة مراكش بيدهم سنة ١١٤٧ وانتهت دولة المرابطين.

خلف محمد تومرت عبد المؤمن الذي اتخذ لقب خليفة وبسط سيطرته على المناطق الافريقية حتى حدود طرابلس الغرب فكانت اكبر مملكة ظهرت في شمال افريقيا، وهكذا برز في العالم الاسلامي لأول مرة اربع خلفاء في وقت واحد يتنازعون لقب الخلافة وسلطتها وكل يدعي انه الخليفة الشرعي : خليفة اموي في الاندلس، وخليفة من البربر في مراكش، وخليفة فاطمي اسماعيلي في القاهرة، وخليفة عباسي في بغداد لا يملك من امره شيئا. خلال ذلك، وابتداء من انسحاب المرابطين نحو سنة ١١٢٥، سادت المناطق الاسلامية في اسبانيا فترة اخرى من الفوضى والاضطراب، فالتجأ المسلمون مرة اخرى الى اخوانهم في شمال افريقيا فلباهم الخليفة ابر يعقوب يوسف (١١٦٢ - ١١٨٤) من الموحيدين ودخل اسبانيا نحو عام ١١٧٠ فبسط سيطرته على الاقاليم الاسلامية واوقف الزحف المسيحي.

لكن الخليفة الناصر (١١٩٩ - ١٢١٤) الذي جاء بعد ابي يعقوب يوسف تعرض لهزيمة كاسحة على يد حلف اسباني مؤلف من ممالك ليون وكاستيل ونافار واراغون في موقعة لاس نافاس دي تولوزا عام ١٢١٢ اذنت الى انسحاب الموحيدين من اسبانيا فكانت مدة اقامتهم فيها ٤٢ سنة من ١١٧٠ الى ١٢١٢. ولم يطل الامر بالموحيدين حتى خسروا مقاطعاتهم في شمال افريقيا بالتتابع لحكام محليين فذهبت تونس (١٢٣٦) ومنطقة تلمسان في

الجزائر (١٢٢٩) واخيرا مراكش (١٢٩٩). وبذلك انتهت اكبر دولة عرفها المغرب.

بعد انسحاب الموحدين سادت المناطق الاسلامية في اسبانيا فترة اخرى من الفوضى استغلتها الممالك المسيحية لتحرير البلاد من الحكم الاسلامي وكان تقدمها في هذه الفترة سريعا وصاعقا.

سقطت جزيرة مايوركا (١٢٢٩)، والعاصمة قرطبة (١٢٢٩)، وفالنسيا (١٢٢٨) ومرسيا (١٢٤٢)، واشبيلية (١٢٤٨)، وقادس (١٢٦٢)، وبقيت غرناطة ليس لانها استطاعت المقاومة بل لانها اعترفت بسيادة ملكة كاستيل وكانت تدفع لها جزية سنوية.

خلال هذه الفترة اتحدت مملكتا اراغون وكاستيل اقوى الدول المسيحية في اسبانيا بزواج فردينان ملك اراغون مع ايزابيلا ملكة كاستيل (١٤٦٩). ولم يطل الوقت حتى صمّم الملكان على تحرير ما تبقى من اسبانيا فهاجموا إمارة غرناطة واستولوا عليها يوم ٢ يناير ١٤٩٢ وبذلك انتهى الوجود السياسي الاسلامي في اسبانيا.

بقي الوجود البشري. وقد انتهز الاسبان ثورة قام بها السكان المسلمون (١٤٩٩ - ١٥٠٠) فاحمدوها وخيروا السكان بين اعتناق المسيحية وبين الطرد من البلاد. وقد قبل الكثيرون الدين المسيحي وبقوا في حين هاجر الكثيرون ايضا ومعهم الجزء الاكبر من الجالية اليهودية الى افريقيا الشمالية وبذلك انتهى الوجود البشري الاسلامي

ملخص تاريخ الوجود الاسلامي في اسبانيا :

٧١١ - ١٠٠٩	(٢٩٨ سنة)	حكم بني امية الفعلي.
١٠٠٩ - ١٠٨٥	(٧٦ سنة)	عهد فوضى (ملوك طوائف).
١٠٨٥ - ١١٢٥	(٤٠ سنة)	حكم المرابطين.
١١٢٥ - ١١٧٠	(٤٥ سنة)	عهد فوضى (ملوك طوائف).
١١٧٠ - ١٢١٢	(٤٢ سنة)	حكم الموحدين.
١٢١٢ - ١٢٥٠	(٣٨ سنة)	استعداد الاسبان كل الاراضي التي

احتلها المسلمون عدا اماره غرناطة.
 سقطت غرناطة اخر اماره اسلامية.
 يتضح من هذا الملخص ان الحكم الاموي العربي دام في اسبانيا ١٩٨ سنة،
 وان عهود الفوضى دامت ١٢١ سنة في فترتين فصلت بينهما سيطرة
 الرابطين،
 وان البربر من مرابطين وموحدين حكموا ما مجموعه ٨٢ سنة،
 فيكون المجموع العام للحكم الاسلامي في اسبانيا من ٧١٦ الى ١٢٥٠
 نحو مئسمائة سنة على اختلاف اشكاله.

جزر البحر المتوسط

قبرص، صقلية، مالطا، سردينيا

ليس ادلّ على قوة المسلمين البحرية ما بين القرن السابع والحادي
 عشر من احتلالهم جزر البحر الابيض المتوسط الكبيرة ذات الهمية
 الاستراتيجية الفائقة. وهي قبرص وصقلية ومالطا وسردينيا.
 فقبرص قريبة جدا من سواحل الدولة البيزنطية (٩٠ كلم). تهدد برّ
 الروم، وكذلك سردينيا بالنسبة للبر الايطالي. اما صقلية ومالطا فانهما في
 وسط المتوسط وفي اضيئ مكان منه بين القدم الايطالي المتوغل جنوبا في
 البحر، وبين الشاطيء التونسي فتتحكم الجزيرتان بالمنافذ البحرية وبسير
 الاساطيل والسفن التجارية في الاتجاهين بين شرق البحر وغربه.
 وقد احتل المسلمون هذه الجزر جميعا في العهد الاموي ما بين منتصف
 القرن السابع والثامن وخسروها عدا قبرص في القرن الحادي عشر.

قبرص (٦٤٩ - ١١٦١)

احتل معاوية والي الخليفة عثمان بن عفان في دمشق جزيرة قبرص
 سنة ٦٤٩ وبقيت في حوزة العرب الى ان سقطت سنة ١١٩١ بيد ريتشارد
 الاول (قلب الاسد) ملك الانكليز الذي كان يقود الحملة الصليبية الثالثة في
 اخر زمن حكم السلطان صلاح الدين الايوبي (١١٧٢ - ١١٩٢). وقد منح

الملك ريتشارد الجزيرة الى ملك القدس المخلوع هي دي لوسينيان مقابل تنازل هذا لريتشارد عن حقه بالادعاء بعرش القدس. وكان صلاح الدين قد استولى على المدينة في ٢ اكتوبر ١١٨٧ لكن العرش بقي شاغرا ينظر الاقربج يتنازع عليه هي دي لوسينيان مع كونراد دي مونتفرات. بقيت قبرص في حوزة سلالة هي دي لوسينيان نحو اربعماية وخمسين سنة الى ان احتلها العثمانيون سنة ١٥٧٢. لكنهم اضطروا سنة ١٨٧٨ الى تسليم ادارتها الفعلية الى الانكليز بموجب اتفاق مع السلطان وبقيت بيد هؤلاء الى ان استقلت عام ١٩٦٠.

صقلية (٨٢١ - ١٠٦١)

منذ ان دخل العرب شمال افريقيا شكلوا تهديدا مباشرا لجزيري صقلية ومالطا وجنوب ايطاليا. فجزيرة صقلية يفصلها عن البر التونسي نحو مائة كيلومتر. ويفصل مالطا نحو ضعف المسافة.

كانت الجزيرتان تابعتان للامبراطورية البيزنطية وقد قامت في صقلية ثورات صمب على الدولة اخمادها فطلب قائد الاسطول البيزنطي مساعدة بني الاغلب في تونس فلبوا طلبه ونزلوا في ميناء مازارا عام ٨٢٧. لكنهم بدلا من نصرة من استعان بهم تابعوا تقدمهم واحتلوا معظم الجزيرة ودخلوا العاصمة باليرمو سنة ٨٢١ وصارت صقلية مقاطعة تابعة للاغالبة. ولما تغلب الفاطميون على الاغالبة انتقلت الجزيرة الى حكمهم (٩١٠).

نزحت جماعات كثيرة من شمال افريقيا الى صقلية وتوطنت فيها كما اسلم قسم من السكان المحليين فاصبحت الجزيرة سياسيا وحضاريا جزءا من العالم الاسلامي ازدهرت فيها الحضارة والفنون الاندلسية. ومن ناحية عسكرية اصبحت صقلية القاعدة الرئيسية للغارات على الملاحة في البحر وعلى شواطئ ايطاليا الجنوبية والوسطى. ففي سنة ٨٤٦ دخلت حملة بحرية نهر التيبر ونهبت كاتدرائية بطرس وبولس في روما. بعد ثلاث سنوات (٨٤٩) جرت محاولة معاقلة لكن القوات الايطالية تغلبت على الاسطول المهاجم وردته.

نجح المسلمون ايضا باقامة قاعدة لهم على مصب نهر كاريغليانو في

جنوب إيطاليا استخدموها لغزو المدن والاذيرة الفنية في الداخل مع تخريب واسع للمدن والقرى، وبقيت هذه القاعدة بيد المسلمين الى عام ١١٥. احتلوا ايضا جزيرة سردينيا وهددوا منها شواطئ إيطاليا الوسطى. وبقيت بيدهم الى ان استعادتها اساطيل جنوا وبيزا في القرن الحادي عشر. بعد قرن من الحكم الاسلامي (١٠٤٠) قامت نزاعات داخلية بين امرائهم في صقلية فطلب امير مقاطعة سيراكيوز مساعدة النورمانديين، كما سبق لقائد الاسطول البيزنطي ان طلب مساعدة الاقلية قبل قرنين وكانت النتيجة ماثلة. فقد دخل روجر الاول قائد النورمانديين مدينة مسينا سنة ١٠٦١ ولم ينصر حليفه بل تابع زحفه على باليرمو فاحتلها سنة ١٠٧٢ واكمل احتلال الجزيرة عام ١٠٩١. وجرى للمسلمين في صقلية ما جرى في الاندلس فقد هاجر قسم من السكان الى شمال افريقيا، وتنصرت الباقون وزال بذلك الوجود الاسلامي من الجزيرة.

مالطا (٨٧٠ - ١٠٩١)

تقع جزيرة مالطا نحو مائة كيلومتر جنوب صقلية وعلى بعد مايتي كيلومتر من البر التونسي وهي عبارة عن مجموعة جزر، ثلاث منها مأهولة واربعة صغيرة غير مأهولة. تقول الروايات ان السفينة التي ركبها القديس بولس متوجها الى روميه تحطمت على شواطئ مالطا سنة ٦٠ فاقام بولس فيها مدة ويشير بالسكان فتنصروا.

احتل المسلمون مالطا بعد اربعين سنة من احتلال صقلية (٨٧٠) وبقيوا فيها الى ١٠٩١ عندما اخرجهم منها روجر الاول بعدما انتهى احتلال صقلية ولم يعد مالطا بعد ذلك الى الحكم الاسلامي، فقد تولى عنها النورمانديون لمنظمة (Hospitalliers) او "فرسان سان جون" الذين استخدموها ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر قاعدة للهجوم على التجارة العثمانية في المتوسط.

انهى نابليون دور الفرسان باستيلائه على الجزيرة اثناء حملته على مصر. وعندما دمر الاسطول البريطاني المراكب الفرنسية في موقعه ابو قير

(١٧٩٨) طلب سكان مالطة حماية بريطانيا ويقوا تحت حكمها الى ان نالوا استقلالهم سنة ١٩٦٤.

نرى مما تقدم ان انتهاء الحكم الاسلامي في اسبانيا بعد معركة ١٢١٢ التي ادت الى انسحاب الموحدين من البلاد وعودتهم الى المغرب، سبقه تطور مماثل شمل الوجود الاسلامي في جميع جزر المتوسط.

دول الخلافة العباسية (٧٥٠ - ٨٦١)

نتنقل من الفتوحات المروية - البربرية، في شمال افريقيا واسبانيا الى المشرق وإلى الخلافة العباسية التي شكلت مرحلة تاريخية لنقل سلطة الخلافة، من العرب الى الفرس لبرهة قصيرة، ثم الى الاتراك والمغول لقرون عديدة. لعل اول ما يجب تكراره هو اختلاف الاتجاه العام بين الدولتين الاموية والعباسية في امور اساسية. فبينما اعتمد بنو امية على العنصر العربي، وحققوا غيهره، كان الفرس السند الاول لبني العباس الذين اهتموا بالعنصر العربي واستبعدوه.

وبينما اتجهت الدولة الاموية غربا الى البحر المتوسط وشمال افريقيا وجنوب اوربا واسبانيا، اتجهت الدولة العباسية شرقا الى ايران وآسيا الوسطى وبلاد "ما وراء النهر".

وفيما نرى الامويين فتحوا بلادا جديدة في شمال افريقيا وجزر البحر المتوسط واسبانيا، لا نجد للدولة العباسية انجازا في موضوع الفتح فهم لم يزيّدوا كثيرا في رقعة الاراضي التي استولى عليها العرب من عهد الخليفة عمر بن الخطاب الى اخر العهد الاموي وانصرف جهدهم الى تثبيت وضعهم. وقد بحثنا ذلك في الفصلين السادس والسابع.

ما بين سنة ٨١٩ الى ٩٤٥ ظهرت اربع دويلات فارسية في المشرق قبل اجتياح القبائل التركية للمنطقة، هي الدول السامانية، والطاهرية، والصفورية، والبويهية. كما ظهرت دولتان عربيتان هما الحمدانيون والفاطميون. بعض هذه الدول عثرت فترة زمنية تدل على رسوخ وثبات في الحكم كالدولة الفاطمية والبويهية، والسامانية الى درجة ما. اما بعضها الاخر فكان ظهورها كلمحة برق في الافق.

شولة آل سامان (٨١٩ - ١٠٠٥)

ينتسب آل سامان الى سامان خودة احد ملاكي الاراضي في منطقة بلخ وهو فارسي اعتنق الاسلام وخدم اخفاده الخليفة المأمون باخلاص فعينهم ولاية على اربع مناطق هي سمرقند وفرغانة وشاش وهرات.

توسع السامانيون بعد ذلك الى "ما وراء النهر" سنة ٨٧٥ ثم تغلبوا على الصفريين في خراسان سنة ٩٠٠، وعلى طبرستان التي تقع على الشاطئ الجنوبي لبحر قزوين واقاموا امارة شبه مستقلة وجعلوا عاصمتهم بخارى. اتعش السامانيون الاقتصاد وحصوا طرق التجارة للمتجهة عبر آسيا الى الغرب فازدهرت مدن بخارى وسمرقند وهرات وقد دل على ذلك ان النقود الفضية السامانية اصبحت العملة المتداولة في البلاد المجاورة.

لبنى السامانيون مطالب الخلفاء في بغداد فكانوا يحمون الحدود الشمالية من غزوات القبائل التركية، ويوفرون للخلفاء امدادا متواصلا من العبيد الاثراك لاستخدامهم في الجيش فيجتنون من هذه التجارة ربحا مهما ويقيمون شعائر المذهب الرسمي للدولة معتزلين بولائهم للخليفة فيصبحهم شرعية حكم مناطقهم، ويميزون ذلك بنشر الاسلام بين القبائل التركية على الحدود.

من ناحية ثانية، اصبحت بخارى وسمرقند وهرات مراكز ثقافية مهمة احييت مجد الدولة الساسانية وضاهت بخارى بغداد كعاصمة ثقافية للإسلام. وفي عهد السامانيين وبتشجيعهم عادت اللغة الفارسية والادب الفارسي الى البروز بعد افول دام قرنين واخذت اللغة الفارسية شكلها الجديد الذي استمر مع تغيير قليل الى يومنا هذا. بالاضافة الى ذلك بعث السامانيون شعور الاعتزاز بالتاريخ الفارسي القديم فعبر عن ذلك الشاعر الشهير الفردوسي في ملحمة شاه - نامه (كتاب الملوك) التي وصف فيها شعرا امجاد الفرس القديمة وختمها سنة ٤٠١٠ في مدينة طوس بخراسان.

منذ ايام السامانيين وفي الاجيال اللاحقة لم تعد الثقافة تعني ان المثقف يجب ان يتكلم ويكتب باللغة العربية وحدها فقد عادت اللغة الفارسية الجديدة تستعمل كلغة ثانية للثقافة العالية، بل انها استعملت وحدها كلغة العلم في الدولة الغزنوية وفي دول الاسلام الهندية.

ارتكبه السامانيون نفس الخطأ الذي ارتكبه الخلفاء العباسيون فاستخدموا العبيد الأتراك في الجيش واكثروا منهم فلم يلبثوا ان تسلطوا على الحكم، وتفاقمت هجمات التباثل التركية من آسيا الوسطى واغثيل عباس الثاني اخر السامانيين سنة ١٠٠٥ فاقسم قواده البلاد وزالت الدولة السامانية لكن اللغة الفارسية بقيت حية ومنتعشة. وقد دامت الدولة السامانية ٨٦ سنة.

الدولة الطاهوية (٨٢١ - ٨٧٢)

اسس هذه الدولة القائد الفارسي طاهر ابن الحسين الذي انتصر على الامين لصالح اخيه المأمون. وقد فكر المأمون، بعد الصعوبات التي لاقاها والده هارون الرشيد في ضبط اوضاع خراسان، ان افضل وسيلة لتثبيت حكم الخلافة في المناطق الشرقية هي ان يعين على خراسان قائدا مشهورا يضبط تلك المناطق.

كان طاهر من الولاى العرب فتولى اماره خراسان وجعل عاصمته في مرو اولا ثم في نيسابور ومدت حكمه الى حدود الهند وتمتعت عائلته بعدد باستقلال فعلي عن بغداد الى ان خلفتهم الدولة الصفرية. وكانت مدة الدولة الطاهوية ٥٢ سنة.

الدولة الصفرية (٨٦٩ - ٩٠٠)

اسس هذه الدولة ليث الصفار وهو فارسي لا يعرف اللغة العربية صنعته نحاس (يصنع الاراني التحاسية) وموطنه منطقة بلوخستان. استولى على منطقته ثم طرد الولاى الطاهري من نيسابور وضم الى حكمه مناطق اخرى فاعترف بالخليفة المعتمد به واليا على خراسان واصفهان وفارس وسيستان والسند.

ثم حاول ليث ان ينتزع بلاد ما وراء النهر من آل سامان فانكسر وخسر سلطته على مناطقه. ودامت الدولة الصفرية ٣١ سنة.

دولة آل حمدان (٩٠٥ - ١٠٠٤)

هي دولة عربية تنسب الى حمدان ابن حمدون موطنها في شمال العراق

وسوريا لمنطقة الجزيرة عاصرت الدولة البويهية والدولة الفاطمية. تولى اولاد حمدان وظائف لدى العباسيين فكان ابو الهيجاء عبد الله واليا على الموصل (٩٠٥ - ٩٢٩) ووضع اساس الدولة الحمدانية، وتولى اخوه الحسين قيادة عسكرية.

أخذت الدولة اتجاها استقلاليا في ولاية ناصر الدولة ابن عبد الله (٩٢٩ - ٩٦٩) الذي توسع غربا في سوريا واحتل حلب وحمص (٩٤٥) لكن الحمدانيين خسروا الموصل لما حققها عضد الدولة البويهي بالعراق، وبذلك انتقل ثقلهم الى سوريا.

برز في سوريا الأمير سيف الدولة (٩٤٢ - ٩٦٧) في عهد الخليفة المستكفي وجعل مقره حلب. في عهده نشطت الآداب العربية ولازمه الشاعر الشهير المتنبّي (٩٤٨ - ٩٥٧) ومدحه بقصائد خلّدت.

مضى سيف الدولة أكثر أيام حكمه في رد الغزوات البيزنطية من الشمال في حين كان عليه أن يقاوم أيضا زحف الفاطميين الذين استولوا على حلب (١٠٠٤) فانتهت الدولة الحمدانية وكانت مدة دوامها ٩٩ عاما.

الدولة الفاطمية (٩٠٩ - ١١٧١)

هي الدولة العربية القارية التي قامت خلال العصر العباسي وكانت معادية لهم.

ينسب الفاطميون الى فاطمة الزهراء ابنة النبي وزوجة الإمام علي بن أبي طالب وهم يتبعون المذهب الإسماعيلي الشيعي وقد عملوا للقضاء على الخلافة العباسية لأنهم أنكروا شرعيتها الدينية والسياسية.

سكن زعمائهم بلدة سُلّمية السورية الواقعة شرق حماه ومنها نشروا دعوتهم. ثم غادر سُلّمية أحد زعماء الدعوة المسمى عبيد الله عام ٩٠٥ إلى شمال أفريقيا، وهناك تمكن مع مريديه من الانتصار على الأغلبية واستولى على ما يعرف الآن باسم تونس وشرق الجزائر واتخذ لقب الخليفة عبد الله المهدي وجعل عاصمته القيروان.

وقد أنشأ الفاطميون خلافة شيعية توصلت في عهد الخليفة المعز لدين الله إلى بسط سيطرتها على المغرب والجزائر وتونس وجزيرة صقلية ووصل

جوهري الصقلي قائد المعتز إلى البحر الأطلنسي. إلا أن أنظار الفاطميين وافندتهم كانت متجهة إلى الشرق وهدفهم القضاء على الخلافة العبسية. عند وفاة كافور الأخشيد في مصر عام ١٠٦٩ أرسل المعز قائده جوهري فاستولى على مصر وأسس مدينة القاهرة عام ١٠٧٢ فنقل المعز عاصمته إليها وبنى فيها جامع الأزهر. في عهد المعز وابنه العزيز (١٠٧٦ - ١١٠١) وسع الفاطميون ملكهم فاستولوا على سوريا والحجاز والجزيرة واليمن، واعترفت مقاطعة السند الهندية بسيادتهم وتولى الحكم فيها دعاة أسماييون. وفي عهد المعز سمعنا الشاعر ابن هاني الأندلسي يثبت كون الخليفة يحكم بمشيئة الله لا عن طريق البيعة وإرادة المسلمين فمدحه قائلا :
 ما شئت لا ما شاعت الأقدار فاحكم فانت الواحد القهار
 أنتم أحياء الإله وآله خلفاه في أرضه الأبرار
 شرفت بك الأفاق وانقسمت بك الأرزاق والأجيال والأعمار
 انتهت الدولة الفاطمية بتغلب صلاح الدين عليها في مصر وإنشاء الدولة الأيوبية سنة ١١٧١.

دور الفتوحات التوكية

تابعنا في الصفحات السابقة الفتوحات العربية - البربرية - الإسلامية على الشاطيء الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط وفي أسبانيا. وننتقل الآن إلى فتوحات مختلفة من حيث الشعوب التي قامت بها وهي الشعوب التركية - المغولية، ومن حيث منشأها الجغرافي في آسيا الوسطى ثم اتساعها إلى الهند شرقا وإلى روسيا وبلاد أوروبا الشرقية غربا. بالحقيقة فإنه يصعب فهم التاريخ الإسلامي دون معرفة الدور الذي لعبته هذه الشعوب التي سيطرت منذ القرن الحادي عشر على البلاد الإسلامية في آسيا الوسطى والهند وإيران والعراق وسوريا ومصر لقرون طويلة، وأنشأت في هذه المناطق دويلات كثيرة قضت على النفوذ العربي والفارسي سياسيا وثقافيا وبدأت عهدا جديدا من الفتوحات وصلت فيه إلى أواسط أوروبا ولم يكن فيه للعرب والفرس دور يذكر.

ويمكن التأكيد انه منذ بداية القرن الثاني عشر أصبح الاسلام السني
توكيا، كما صار الاسلام الشيعي يعدنذ ايرانيا فارسيا.

استولى الاتراك على هذه البلاد الشاسمة باسلوبيين : اسلوب اغتصاب
الحكم من الداخل عن طريق الجنود الاتراك العبيد ضمن الدولة، واسلوب
القوة العسكرية للقبائل التركمانية والمغولية الزاحفة من آسيا الوسطى وبلاد
المغول التي اكتسحت كل ما امامها.

بعدها دشّن الخليفة المعتصم العباسي (٨٢٢ - ٨٤٢) سياسة استخدام
العبيد الاتراك في الجيش انتشرت هذه العادة في جميع انحاء العالم الاسلامي
واصبحت علامة مميزة للمجتمعات الاسلامية.

كانت النتيجة السياسية لهذا التصرف واحدة في جميع الاحوال. فقد
استغل العبيد قوتهم العسكرية وسيطروا على اصحاب السلطان الشرعي.
وهكذا رأينا انه بعد المعتصم اصبحت الخلافة نفسها فريسة للقواد الاتراك
الذين صاروا يعزلون الخليفة ويقتلونه لاتفه الاسباب.

وقد جرى شيء مماثل في جميع الدول الاسلامية التي قامت في الهند
وآسيا الوسطى والشرق الاوسط ومصر.

في القرن الحادي عشر وما بعده بدأ الغزو التركي المباشر للبلاد
الاسلامية حين نزلت موجات متلاحقة من القبائل التركية البدوية من آسيا
الوسطى الى الشرق الاوسط واستولت على بلدانه. وقد شكل رؤساء هذه
القبائل الطبقة العسكرية الجديدة التي انجبت حكام الهند وايران وبلاد ما
وراء النهر والعراق وسوريا ومصر والافاضل.

استغرق دخول الاتراك في الاسلام، ومثلهم المغول، زمنا طويلا. وكان
للمصوفيين فضل كبير في ذلك اذ انه من منتصف القرن الثاني عشر كانت
الطرق الصوفية قد انتشرت في مختلف ارجاء العالم الاسلامي وخلقت شعورا
روحيا مفعما بالحيوية استولى على خيال البدو والحضر وعزز فكرة الجهاد
لنشر الدين مع ما يرافقه من غنينة متوقفة في حال الانتصار.

ان استيلاء الاتراك والمغول على جميع اراضي المسلمين في آسيا الوسطى
والشرق الاوسط ومصر واقامة دول جديدة على انقاض دول اسلامية سابقة مع
ما رافق ذلك من تخريب وتدمير وسفك دماء المسلمين موضوع مهم لكننا لا

نأخذ منه إلا ما يعيننا على تبين أشكال الأنظمة السياسية التي سادت في تلك الدول.

مواطني الأتراك والمغول

تشكل آسيا الوسطى مواطن القبائل البدوية التركية - المغولية، وهي منطقة شاسعة تمتد من بحر قزوين غرباً إلى شمال غربي الصين ومنغوليا شرقاً ومن جنوب سيبيريا شمالاً إلى شمال إيران وأفغانستان جنوباً. ينتسب الأتراك والمغول إلى العائلة اللغوية المدمومة 'التاي' (Altai) نسبة إلى سلسلة الجبال في آسيا الوسطى التي تمتد نحو ١٦٠٠ كيلومتراً وتنتج من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي ابتداءً من صحراء غربي المغولية إلى سهول سيبيريا الغربية مخترقة أراضي صينية ومغولية وسوفييتية. تتألف عائلة 'التاي' اللغوية من ثلاث مجموعات هي المجموعة التركية، والمجموعة المغولية، ومجموعة المانشو الصينية، وتضم المجموعات الثلاث نحو أربعين لغة يتكلمها نحو مائة مليون شخص.

تتألف المجموعة التركية من اللغة التي يتكلمها سكان تركيا وجوارها وهي أشهر لغات هذه المجموعة وتضم لغات سكان ازبكستان وأذربيجان وكازاخستان وتركستان، ويدعمي حالياً بعض الأتراك المتحمسين للقومية الطورانية أن جميع هذه الشعوب يجمعها جنس واحد ولغة مشتركة. لكن الواقع أن هذه اللغات التركية، كاللغات السامية، وإن انتسبت إلى أصل واحد، فإن التفاهم بين متكلميها صعب إن لم يكن مستحيلاً. ويصح القول نفسه من اللغات المغولية، أما لغة المانشو فتكاد تكون منقرضة.

ديانة هذه الشعوب : كان رجال الدين في القبائل التركية

والمغولية يدعون 'شامان' (Shamans). والشامان هو من يستطيع أن يتحدث في نفسه حاله غشوة أو غيبوبة يتصل خلالها بعالم ما فوق الطبيعة ويخبر الآخرين بما سمع أو رأى وما يجب أن يفعلوا. وقد مارس رجال الشامان نفوذاً واسعاً على المجتمعات التركمانية والمغولية. وفي القرن الثالث عشر اعتنق كثير من المغول المجاورين للصين الدين البوذي.

الدول لتركوية

الدولة الغزنوية (٩٦٢ - ١١٥٠)

في منتصف القرن العاشر استولى عبد تركي سابق يُسمى الباتيجين على مدينة غزنة (في أفغانستان حالياً) ثم خلفه عبد آخر باسم سوبكتجين الذي مدّ سلطته الى كابل والسند.

خلفه ابنه الشهير محمود الغزنوي الذي حكم من ٩٩٨ - ١٠٢٠ فاستولى على منطقة البنجاب وتوغل في الهند لكن حروبه كانت تستهدف الغنيمة لا تأسيس دولة. في زمنه ازدهرت عاصمته غزنة وصارت مركزاً مهماً للاداب الفارسية.

بدأت عناصر الاحتلال تظهر بعد وفاته في عهد ابنه مسعود مما شجع علاء الدين حسين من منطقة غور في أواسط أفغانستان، وهو أمير مغولي، على مهاجمة البلاد فانتصر على مسعود قرب مدينة مرو (١٠٤٠) ودخل غزنة ونهبها.

قبل ان نستعرض مع الدولة الغورية التي تنقلنا الى الهند، يستوقفنا دخول القبائل التركية من آسيا الوسطى.

السلجقة الاقراک (١٠٥٥ - ١١٩٤)

يشكل تاريخ السلجقة بداية سيطرة القبائل التركية على الشرق الادنى والارسط. وكان آل سلجوق العائلة الحاكمة لقبائل أوغوز التركمانية التي أذنت بها الهجرات والمنازعات في آسيا الوسطى وجنوب شرق روسيا في القرن العاشر الى النزوح بقيادة رتيستها سلجوق الى المنطقة السفلى لنهر سيحون (سير داريا) وهناك اعتنقت الاسلام ربما على يد الصوفييين.

انقسمت غزوات السلجقة الى قسمين : قسم دخل ايران وبلاد المشرق الاسلامية واستولى على معظمها، وقسم دخل الأناضول أي اراضي الدولة البيزنطية وبدأ المد التركي الذي انتهى بالقضاء على الامبراطورية البيزنطية واحتلال القسطنطينية سنة ١٤٥٢.

السلجقة في الشرق الأوسط

استخدم آل سامان، وهم إيرانيون، القبائل السلجوقية في الدفاع عن حدودهم اسوة بما فعله الخلفاء كما ذكرنا، فلما انهارت دولة السامانيين اسكن محمود الغزنوي السلجقة في مناطق خراسان الحدودية ليدفع شر القبائل التركمانية الاخرى. بعد ذلك بزمان قويت شوكة السلجقة فقام اثنان من احفاد سلجوق الاول، شاغري بك وطغرل بك، بسعيان لتأسيس حكم مستقل. ساعدهما على ذلك نبلاء الفرس السنة ورجال الدين المعارضين لانتشار المذهب الشيعي الذي كان يؤيده اسراء آل بويه والدولة الفاطمية في مصر وسوريا.

وقد بحثنا عهد السلجقة المشرقيين في الفصل السابع.

السلجقة في الاناضول

راينا ان معركة مانزيكرت التي انتصر فيها الب لرسلان على الامبراطور البيزنطي سنة ١٠٧١ فتحت الاناضول امام زحف القبائل التركية البدوية فدخلها فرع ثاني من السلجقة عملوا كجنود مرتزقة في البداية لدى القواد البيزنطيين الذين كانوا يتنافسون على عرش القسطنطينية. لكنه لم يحل الزمن على هذه القبائل حتى استولت تدريجيا على الاناضول ووصلت الى بحر ايجه وعاشت فسادا في البلاد، كما يفعل البدو في كل بلد يحلون فيه، فحولوا الاراضي الزراعية الى مراعي للمواشي ونهبوا المدن، ونهبوا الممران وعطلوا الحياة الطبيعية. لكن الصليبيين استطاعوا ان يعيدوهم الى الداخل لمدة من الزمن عام ١٠٩٧ حيث اقام آل سلجوق ما عُرِف باسم 'سلطنة الروم' التي ازدهرت فيها الاداب واللغة الفارسية وانتشرت الطرق الصوفية التي مالت اليها القبائل التركمانية

لم يمض وقت طويل حتى انفصلت ولايات عن هذه السلطنة، وبقيت القبائل التركمانية تثير القلاقل، وكان على سلطنة الروم ان تقاوم ايضا هجمات بيزنطية وصليبية، ثم اشتبكت السلطنة سنة ١٢٣٠ بمعركة مع اماره خوارزم تلاها معركة مع المغول خسر فيها السلجقة سيادتهم واصبحوا مقاطعة مغولية.

دولة خوارزم (١٠٧٧ - ١٢٢٢)

تشغل منطقة خوارزم الآن جزءا من جمهورية الأوزبك والتركمان السوفياتية أسس سلالتها عبد تركي اسمه الفوستيجين غرشاي عتته ملكشاه السلجوقي حاكما على خوارزم سنة ١٠٧٧ واستمرت سلالته على هذا الوضع إلى أن انهارت الدولة السلجوقية فاستقلت خوارزم وأثنا علاء الدين محمد (حكم من ١٢٠٠ - ١٢٢٠) امبراطورية قصيرة العمر امتدت من الهند شرقا إلى الأناضول غربا بما في ذلك منطقة بهري جيحون وسيحون (سيبر داريا). انتهت هذه الدولة بهجوم مغولي كاسح سببه أن علاء الدين محمد أمير خوارزم أمر سنة ١٢١٨ بقتل بعثة أرسلها جنكيز خان لإقامة علاقات تجارية معه. وفي رواية أخرى أن حاكم مدينة أوتزار في خوارزم نهب قافلة تجار يتمتعون بحماية جنكيز خان وقتل أفرادها وامتنع علاء الدين عن الاعتذار وتقديم تعويض مقبول.

مهما كان السبب فقد سار جنكيز خان سنة ١٢٢٢ على رأس جيش للانتقام. في هذه الحرب اكتسب المغول سمعة الإرهاب والبطش الفظيع فقد دمروا المدن والقرى والحقول وقنواث الري وذبحوا السكان وخرّبوا البلاد العامرة : بخارى وسمرقند وهرات وطوس ونيسابور وقتلوا سكانها، وهرب علاء الدين إلى جزيرة في بحر قزوين حيث توفي.

دولة المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧)

عندما استولى السلطان الكردي صلاح الدين الأيوبي على مصر (١١٩٦)، تبع التقليد العسكري السائد من أيام الخليفة المعتصم وأدخل في جيشه فرقة من العبيد الأتراك إلى جانب العناصر الحرة من عرب وأتراك وأكراد وغيرهم، وجرى خلفاؤه على مجراه فكان السلطان الصالح أيوب (١٢٤٠ - ١٢٤٩) أكبر مشجري للعبيد الأتراك ليحصى نفسه وبلاده من منافسيه الأيوبيين ومن هجمات الصليبيين.

بعد وفاته حصل صراع على خلافته، كالعادة في الدول الإسلامية، فقتل للقواد الأتراك المماليك خليفته وعيّنوا أحدهم سلطانا. من ذلك الوقت ولاكثر من ٢٥٠ عاما حكم مصر وسوريا عبيد أو أولاد عبيد لا يتكلمون العربية

ويقول طبقة غريبة تتسلط بالقوة على شعوب عربية اللسان والثقافة.
يُقسم تاريخ المماليك الى حقبتين حسب جنس العبيد الذين سيطروا :
الحقبة الاولى (١٢٥٠ - ١٢٨٢) تُنسب الى المماليك من أصل تركي وسُمّوا
البحرية لان ثكناتهم كانت على الشاطئ.ء. والحقبة الثانية (١٢٨٢ - ١٥١٦)
تُنسب الى المماليك من أصل شركسي وسُمّوا البرجية لان ثكناتهم كانت
داخل القاهرة.

بعدما قضى هولاكو خان المغولي على الخلافة العباسية ودمر بغداد، نقل
المماليك أحد أفراد العباسيين الى القاهرة عام ١٢٦١ بامل ان يُكسبهم الخليفة
العباسي شرعية للحكم الذي اغتصبوه. وبطبيعة الحال لم يكن للخليفة أية
سلطة فعلية. ولم يتعبد المماليك، كديريهم من السلاطين، بأي مبدأ للقبض
على السلطة الا مبدأ القوة المادية للجزدة، فالقائد الذي يحصل على تأييد
الجيش كان يحكم بصرف النظر عن كفاءته السياسية والادارية، وقد توالى
على الحكم في عهد المماليك الذي دام ٢٦٧ سنة ٤٥ سلطانا.

كانت أهم انجازات المماليك تغلبهم على من بقي من الصليبيين،
ونجاحهم في صدّ غزوة هولاكو خان في موقعة عين جالوت (١٢٦٠). لكنهم لم
يستطيعوا ان يحموا سوريا من غزوة تيمورلنك المغولي سنة ١٤٠٠.

جاءت نهاية المماليك على يد السلطان العثماني سليم الاول (١٥١٢ -
١٥٢٠) الذي تغلب عليهم سنة ١٥١٦ وهزمهم في معركة مرج دابق شمال
حلب وقتل السلطان قانصوه الغوري واستولى على سوريا ومصر.

من اسباب سقوط المماليك انهم بقوا جسا غريبا في البلاد التي
حكموها فلم يخالطوا السكان ولم يتكلموا العربية. وفي الفن العسكري لم
يتعلموا استعمال البارود ومدافع الميدان كسلاح في المارك واستخدموه فقط
في حصار المدن.

بعد انتصار السلطان سليم اصبحت مصر وسوريا ولايات في الدولة
العثمانية لكن المماليك بقوا محافظين على مكانتهم في مصر كطبقة سياسية
ذات نفوذ الى ان استولى محمد علي باشا الالباني على ولاية مصر ودمر
لزماتهم مذبحه في القاهرة (١٨١١) اكملها ابنه ابراهيم باشا بطرد الناجين
منهم واخراجهم من مصر العليا.

دور الفتوحات المغولية

كان المغول قبائل بدوية وثنية تتوطن السهول الشمالية الشرقية في آسيا الوسطى وما وراءها ولم تكن القبائل موحدة تحت زعيم واحد حتى ظهر لديهم جنكيز خان وقادهم في حركة توسع عالمي اوصلتهم الى داخل الصين شرقا والى روسيا وبلاد الاسلام غربا. لكنهم اكتسحوا البلاد الاسلامية كوثنيين ولم يعتنقوا الاسلام الا فيما بعد.

وقد ذكرنا ان صلات لغوية وعنصرية جمعت بين المغول والأتراك. وقد تارجح تاريخ المغول بين نزاعات داخلية، وبين محاولات توحيد الصفوف عندما يبرز زعيم قوي. ابرز قبائلهم في التاريخ : التتار، والقبائل "الذهبية"، وقبائل الشاغاتاي.

نستطيع ان نرى اثر المدول على الاسلام في فترتين : الفترة الموشية عندما دمروا بقيادة جنكيز خان واولاده كل من عارض توسعهم، وبدأت الفترة الثانية عندما اعتنقت بعض قبائلهم الاسلام وقامت بنشره في الهند وجنوب روسيا.

محمد تيموجين (جنكيز خان ١١٥٥ - ١٢٢٧)

ولد تيموجين قرب بحيرة بايكال في منغوليا وكان زعيما لقبيلة صغيرة لكنه استطاع بالحيلة قارة، وبالحرب تارة اخرى ان يخضع خصومه من رؤساء القبائل واحدا بعد اخر وغايته ان يضمن مؤخرته قبل ان يبدأ توسعه. بعد معارك شديدة مع قبائل التتار القوية تغلب عليهم ويقال ان قتل منهم كل من زاد طوله عن محور درلاب المربعة. وفعل ما شابه ذلك مع القبائل التي قاومته فاصبح مرهوب الجانب في محيط لا يخضع الا للقوة فدان له جميع المغول وجعل منهم أمة واحدة أعلنته سنة ١٢٠٦ زعيما عالميا (جنكيز خان) على جميع قبائل المغول.

بعد تأكده من ثبات قاعدته بدأ حملات عسكرية مدت سيطرته غربا الى روسيا، وشرقا الى شمال الصين فاحتل بكين سنة ١٢١٥ وأسس ابنه قبلاي خان فيها مملكة دُميت "يوان" دامت الى عام ١٢٦٨، ثم هاجم دولة

خوارزم تقع الآن في جمهورية ازبكستان السوفياتية، فدمرها تدميرا شاملا فيما احتل قواده ايران وآسيا الوسطى. وتعتبر جنكيز خان بنظر المؤرخين فاتحا وغازيا من اعظم القادة العسكريين في تاريخ الحروب. قبل وفاته قسم جنكيزخان مملكته بين اولاده الاربعة : اوغوداي، وجوشي، وشاغاتاي، وتولوي.

سمى ابنه اوغوداي 'الخان الاكبر' وجعله متقدما على اخوته واعطاه شمال مقاطعة سينكيانغ الصينية وغرب منغوليا، واعطى ابنه جوشي الغرب المستد الى روسيا، وحصل شاغاتاي على ايران وجنوب سينكيانغ، وحاز تولوي على شرق منغوليا.

توفي اوغوداي عام ١٢٤١ وحصل بعده نزاع على الزعامة فغاز مونغيك ابن تولوي بلقب الخان الاكبر عام ١٢٤٨.

دولة 'وكلاء الخان' (ايل خن) (١٢٥٦ - ١٢٥٢)

قاد جيوش مونغيك في الشرق الاوسط اخوه هولكو (١٢١٧ - ١٢٦٥) وهو حفيد جنكيز خان فاجتاز نهر أموداريا سنة ١٢٥٦ وقضى على الحصن الاسماعيللي في قلعة الاموت في جبال الديلم وأنهى السيطرة الاسماعيلية، وثبت قبضته على ايران وجعلها قاعدة توسعه. كان هدفه ان تمتد فتوحاته حتى يصل الى البحر المتوسط لتشمل الامبراطورية المغولية جميع البلاد من الصين الى سواحل سوريا ولبنان لكن المماليك حالوا دون ذلك كما رأينا.

في ذلك الوقت كانت الدولة السلجوقية في اواخر ايامها فزحف هولكو خان على بغداد وطلب من الخليفة المستعصم ان يستسلم فرفض واجاب على الطلب بكبرياء وتعجرف مع علمه بانه لا يملك القوة لمنع الاحتلال. حاصر هولكو المدينة ودخلها عنوة في ١٠ فبراير ١٢٥٨ وقبض على الخليفة المستعصم وقتله ودمر المدينة والعراق. وفي رواية ان المستعصم قُتل دحسا بالارجل. بعد مائة عام جاء غازي مغولي اخر هو تيمورلنك اعاد تدمير بغداد وقتل سكانها.

سار هولكو من العراق الى سوريا فدخل حلب ودمشق ووصل الى

شاطيء المتوسط ثم أرسل موفدا الى القاهرة (١٢٦٠) يطلب خضوع سلطان الماليك قُطز فرد هذا بقتل المبعوث النفوي فلم يعد بدء من الحرب. وقعت المعركة في عيين جالوت قرب مدينة الناصرة في فلسطين فانتصر للماليك. وانشغل هولاكو بنزاع على السلطة داخل الامبراطورية المغولية فانسحب عائدا الى اواسط آسيا وسلمت مصر من الاحتلال وان بقيت بلاد الاسلام الى شرق مصر وسوريا تحت حكم الوثنيين.

أسس هولاكو خان دولة عُرفت باسم "ايل خان" التي تعني بالفارسية "وكلاء الخان" الذين كانوا يدينون بالطاعة للخان الاكبر في الصين، وجعلوا قاعدتهم في أذربيجان وعاصمتهم تبريز. اظهر هولاكو تسامحا دينيا واسعا شمل جميع الاديان وجعل قانون "الياسا" قانون البلاد عوضا عن الشريعة او الى جانبها.

توالى على الحكم أربعة سلاطين هم : اباغا، وأرغون، وغزآن، وأوجيتو. وشمل حكمهم وادي دجلة والفرات وإيران وجزءاً من أفغانستان ومن البنجاب، ويقوا على ولايتهم للخان الاكبر في الصين الى حين وفاة قبلاي خان قبلوا وينفردون بالسلطة.

دولة 'وكلاء الخان' تحتنفق الاسلام

في سنة ١٢٩٥ قرر السلطان الثالث غزآن ان يجعل الاسلام دين الدولة. والسبب في ذلك ان المغول بعدما عاشوا فترة غير قصيرة في محيط اسلامي، استساغوا حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم وتعاليمهم ولم يعد لديهم سبب لرفضهم فأسلم السلاطين والامراء وقواد الجيش وعلية القوم وتبعهم الشعب على عادة تلك الايام حسب القول الشائع "الناس على دين ملوكهم" وهكذا عاد الاسلام الى مكانته في ايران وبلدانها.

كانت هذه الدولة على خصومة مع الماليك ومع العثمانيين في الاناضول رغم انتماء حكامها الى عروق متقاربة. ولم يطل الزمن حتى ظهرت على دولة "ايل خان" عواض الاضطلال ونشأت فيها عدة دويلات اقليمية اضمحلت تدريجيا بعد عام ١٢٢٥.

"القبيلة الذهبية" (١٢٢٧ - ١٢٨٠)

قلنا ان بلاد الغرب الممتدة الى روسيا كانت من حصة جوشي ابن جنكيز خان فجعل عاصمته على نهر الفولغا قرب مدينة فولغوغراد الحالية. خلف جوشي ابنه باتو خان (توفي سنة ١٢٥٥) الذي شكّل ما عرف باسم "القبيلة الذهبية" (The Golden Horde) نسبة الى خيمته الذهبية اللون. في سنة ١٢٢٥ انتخب باتو قائدا عاما للقسم الغربي من الامبراطورية المغولية واركلت اليه مسئولية الاستيلاء على روسيا ولوكرانيا، فهاجم مدينة كييف ودمرها واحرقها، وكانت المدينة الرئيسية في روسيا بذلك الوقت. وتم استيلاؤه على كامل الاراضي الروسية بحلول سنة ١٢٤٠. في السنة التالية تغلبت قبائله على قوات اوروية متعددة وبسطت سيطرتها على بولونيا وبوهيميا وهنغاريا ووادي نهر الدانوب فامتدت حدود مملكة باتو خان من جبال الالپس التي تشكل حدود روسيا الاوروية الى جبال الكاربات في اوربا الشرقية، مع امتداد عميق في سيبيريا الجنوبية. اما في الجنوب فكانت حدوده البحر الاسود وجبال القوقاس وشمال ايران التي كان يحكمها المغول التابعون للخان الاكبر.

اسلام المغول

بعد باتو خان وفي عهد خليفته بيرك (١٢٥٧ - ١٢٦٧) بدأت قبائله تدخل في الاسلام اي في زمن سبق بقليل اعتناق دولة "وكلاء الخان" الدين الاسلامي. وانشأ بيرك علاقات وثيقة مع الممالك في مصر الذين يمتون بالاصل مثله الى قبائل الكيبتشاك التركية. وصلت قوة "القبيلة الذهبية" الى اوجها في عهد عبد الله خان اوزبك (١٢٦٢ - ١٢٤١) وكانت الطبقة الحاكمة مؤلفة من مغول مسلمين يتكلمون اللغة التركية في حين كان السكان روس مسيحيين. بعد وقت قصير بدأت الامبراطورية المغولية الواسعة بالانهيار. تجزأت اولاً الدولة التي انشأها هولاكو خان في ايران وجوارها الى امارات متفرقة سنة ١٢٢٥ وتغلّبت سلالة مينغ الصينية سنة ١٢٦٨ على سلالة يوان التي اسسها قبلاي خان الشهير. وانهزمت "القبيلة الذهبية" في روسيا سنة ١٢٨٠ في

معركة مع حلف روسي تزعمته موسكو، ولم يبقَ للمغول المسلمين وجود في روسيا الا في ثلاث امارات هي قازان واستراخان وشبه جزيرة القرم. وهكذا تقلصت الامبراطورية المغولية الى مواطنها الاصلية مع بضع امارات خارجية متفرقة.

الغزو المغولي الثاني : تيمورلنك (١٣٣٦ - ١٤٠٥)

في القرن الذي شاهد زوال الامبراطورية المغولية ظهر فاتح مغولي اخر هو تيمورلنك الذي نشأ مسلماً قرب مدينة سمرقند واستطاع ان يملن نفسه اميراً على قبيلة المغول المنسوبة الى شاجاتاي ابن جنكيز خان. اشتهر تيمورلنك في حروبه بهمجية وبربرية فاقت ما فعله من سبقه من الفاتحين. ويختار الذين يؤمنون بالتضامن الاسلامي في امره لانه وجه جميع حملاته العسكرية ضد دول وشعوب اسلامية في بلاد آسيا الوسطى وافغانستان، وايران، واذربيجان، والعراق، وسوريا، والافغانستان، وروسيا والهند. كما ان جميع حكام الدول الذين حاربهم وقتلهم كانوا مظن من اصل تركي او مغولي. فهو لم يستهدف نشر الاسلام ولا اعلاء شأن العنصر المغولي - التركي اذ قتل ودمر دون تمييز وكأنه ولاء لحل بالاسلام. ولم تنجُ الامارات المغولية في روسيا من نغمته فقد سار في مناطق "القبيلة الذهبية" ودمر مدنها واحدة بعد اخرى فقتل عليها وسهل على الروس استعادة بلادهم فيما بعد. ولم تسلم منه الا امارة شبه جزيرة القرم الذي تحالف حاكمها المغولي معه. ثم استدار تيمورلنك نحو الدولة العثمانية فتغلب على سلطانها بايزيد الاول في معركة انقرة (١٤٠٢) واسره فمات في السجن بعد سنة. وقفل تيمورلنك عائداً الى بلاده. وبما ان الشريعة الاسلامية لم تنص على طريقة انتقال الحكم فان كل امير من اولاد تيمورلنك واحفاده كان يعتبر، حسب التقليد التركي والمغولي، ان من حقه ان يملك من امبراطورية تيمورلنك ما يستطيع. من هؤلاء كان ظاهر الدين بابور ملك فرغانة الذي خسر ملكه لا هاجمه محمد شيبان خان، احد احفاد جنكيزخان وحاكم قبائل الازبك في ما وراء نهر سبير داريا وتغلب عليه سنة ١٥٠٦ فوجه جهوده الى الهند كما سنرى.

الأتراك والمغول في الهند

ذكرنا أن العرب احتلوا منطقة السند وشمال غرب الهند سنة ٧٢٤ وقيمت هذه المناطق نحو ثلاثة قرون تحت حكم أمراء مسلمين محليين يعترفون بسيادة الخلافة الأموية ثم العباسية.

الدولة الغورية (١١٩٢ - ١٢٠٥)

بعد انهيار دولة السلاجقة وتنازع الأمراء الأتراك على وراثتها برز منهم محمد الغوري منتصرا فارسل قائده قطب الدين إيبك في حملة على الهند فتغلب على الأمراء المسلمين المحليين واحتل دلهي سنة ١١٩٢ وجعلها قاعدته. ثم قرض الغوريون سلطتهم على مدن البنجاب والسند وسهل نهر الغانج. لكن حملة من خوارزم هزمت محمد الغوري سنة ١٢٠٥ ثم اغتيل في السنة التالية في مدينة لاهور فكان ذلك بداية النهاية للدولة الغورية.

الدولة الخالجية (١٢٩٦ - ١٢٩٨)

برزت بعد ذلك سلالة تركية أخرى استولت على سلطنة دلهي هي دولة الخالجيين. اشتهر منهم علاء الدين الخالجي (١٢٩٦ - ١٣١٦) وكان حاكما عاقلا وخذ الإدارة وفتح أبواب الحكم لنبلأ الهند الذين أسلموا ليجمع حكمه أكثر تمثيلا للشعب، ووسع حدوده جنوبا في المناطق الهندية. توفي علاء الدين سنة ١٣١٦ وتلى ذلك كالعادة نزاعات على السلطة بين أولاده. انتصر منهم غياث الدين طغلق وتولى الحكم (١٣٢٠ - ١٣٢٥) فضم إليه منطقة البنغال التي كانت مستقلة تحت حكم أمراء مسلمين آخرين. خلفه ابنه محمد بن طغلق الذي بسط سلطته على جزء كبير من أراضي الهند لكن هذا السلطان لم يدم طويلا فقد غزا تيمورلنك الهند واحتل دلهي سنة ١٣٩٨ ودمرها وقضى على الدولة الخالجية ثم انسحب عائدا إلى آسيا الوسطى حيث توفي سنة ١٤٠٥. حكم الهند باسم تيمورلنك أحد قواده ثم استقلت سللته بالحكم، كما قامت على انقاض الدولة الخالجية إمارات إسلامية متعددة.

الامبراطورية المغولية في الهند (1526 - 1761)

بعد نحو قرن من الانحلال ومن الدويلات الاسلامية المتفرقة عاد احد احفاد تيمورلنك ليقوم الامبراطورية التي دامت قرنين من الزمن وهو ظاهر الدين بابر (1493 - 1520) ملك فرغانة الذي ذكرناه وهو السليل الخامس لتيمورلنك من جهة والده، والليل الرابع عشر لجنكيز خان من ناحية والدته.

بعد أربع محاولات فاشلة، تمكن بابر من التغلب على سلطان دلهي باستعصاله البارود والمدافع ودخل المدينة سنة 1526. ثم احتل مدينة اgra. ومد سلطانه على أكثر الامارات الاسلامية الباقية وتوفي سنة 1530. خلفه ابنه همايون فنارعه الوراثة اخوته وغيرهم من المدعين لكن الحكم استقر له بعد أربع سنوات من القتال وتوفي بعد ذلك بستة.

السلطان اكبر "الكبير" (1556 - 1605)

خلف همايون ولده السلطان اكبر وكان ملكا حكيما منفتح العقل سمي لتحقيق رؤياه للهند كمجتمع متسامح تتحد فيه مختلف الجماعات الدينية والقومية وتعيش في سلام وتآلف تحت حكمه. كانت أكثر حملاته العسكرية ناجحة. في سنة 1556 عقد مؤتمرا للامراء الهنود في شمال غربي الهند وافقوا فيه على عقد حلف ودي والامتراف للسلطان اكبر بالسيادة.

توسع السلطان اكبر بحدود في منطقة غوجارات فوصلت حدوده الى البحر وهناك وجد التجار البورتغاليين الذين عقدوا سلاما معه.

في السنتين التي تلت ذلك استولى السلطان اكبر على بهار والبنغال وضم اليه افغانستان وكشمير وجنوب السند الى مصب نهريها. ثم استولى على بلوخستان ومدينة قندهار الستراتيجية التي تتحكم بالطريق بين افغانستان والهند. بعد ذلك توسع في الولايات الجنوبية.

قسم السلطان اكبر ممتلكاته الى خمس عشرة منطقة ادارية غطت ثلاثة ارباع القارة الهندية. ضمن هذا الترتيب الاداري كان يوجد في مختلف انحاء

الامبراطورية عدد من الولايات يتمتع امرؤها بدرجات متفاوتة من السلطة والمكانة داخل مناطقهم.

ادرك السلطان اكبر ان مملكته المولفة من اجناس واديان ومذاهب كثيرة لا تستطيع ان تعيش بسلام وقآلف اذا لم يقبـع سياسة متسامحة وعادلة. فمقد لذلك مجلسا دينيا عام ١٥٧٥ دعا اليه ممثلين من المسلمين والهندوس والنزورواستريين والمسيحيين والبراهمة وغيرهم بقصد اكتشاف ارضية هامة تجمع بينهم. وعلى اثر دراسة قارنت بين الاديان والمذاهب اقتنع السلطان اكبر ان كل واحد منها يحوي شيئا من الحقيقة لكن ما من واحد منها يحوي الحقيقة بكاملها.

في سنة ١٥٧٦ اصدر قرارا اتخذ لنفسه بموجب الحق بان يفسر الشريعة الاسلامية عندما تختلف الاراء حول معاني القرآن. وسعى لانهاء تدخل رجال الدين بشئون الدولة. لكن هذا التدبير لم يرض طبعاً الفقهاء ورجال الدين.

أكد السلطان اكبر ايضا ما مارسه الخلفاء والامراء المسلمون قبله من ان الملك هو مثل الله على الارض لكنه اضاف انه يجب ان يكون حاكماً حياديا متسامحا مع جميع الاديان، ناشراً السلام في اراضيه عاملاً لرفاه كل طبقات الشعب.

في سبيل تحقيق هذه الرؤيا نزع السلطان اكبر عن الاسلام صفة دين الدولة وشمل برعايته جميع المذاهب، وسمح بالتبشير والدعاية الدينية وبانتقال الانسان بحرية من مذهب الى اخر. من معتقداته ان محمداً كان نبيا لكنه لم يكن النبي الوحيد او اخر الانبياء او اعظمهم. واقتبس كثيرا من معتقدات الهندوس والفرس وعاداتهم.

تبعا لذلك ألغى اكثر القوانين الاسلامية ضد غير المسلمين وعُدل القوانين الشخصية للمسلمين والهندود على السواء ليوثق بينهم بقوانين مشتركة. ثم سعى الى توحيد شمال الهند ثقافيا. جعل اللغة الفارسية اللغة الرسمية الوحيدة. وفي عهده ظهر الاندماج في فن البناء والموسيقى والرسم بين الحضارتين الاسلامية والهندية.

لقد اراد السلطان اكبر من هذه الاصلاحات ان يحقق الوحدة

الاجتماعية بين عناصر مملكته لكن عصره لم يكن بعد مستعدا لقبول برنامج مثالي كهذا.

ازعج السلطان اكبر في اواخر ايامه ثورة ابنه البكر سليم عليه في مدينة الله اباد. لكن سليم ثاب واعتذر فسامحه والده وعينه خليفته الشرعي. وتوفي اكبر بمرض سنة ١٦٠٥.

نظرا لما ذكرناه من معتقدات اكبر وسياسته فانه من الصعب اعتباره ملكا مسلما.

بعد وفاة اكبر بدأت ظاهرة جديدة بين الحكام المغول والمسلمين. فقد اعتدنا ان نرى الاخوة واولاد العم يتقاتلون لوراثة الحكم لان الشريعة تركت الموضوع حائرا، ولان الفقهاء خلال عشرة قرون لم يستطيعوا اصدار نظام مستقر للوراثة.

اما الظاهرة الجديدة فهي استعداد الاولاد لقتل ابيهم استعجالا للحكم. تجلى ذلك بين خلفاء اكبر. وقد راينا ان سليم ثار على والده السلطان اكبر ثم ثاب فعيّنه والده خليفته الشرعي. وما كاد يستلم الحكم (١٦٠٥ - ١٦٢٧) ويتخذ لقب جاهنجير حتى ثار عليه ابنه البكر خسرو لكن هذا هُزم قرب مدينة لاهور وشملت عيناه جزئيا ومول انصاره بقسوة كما قُتل زعيم السيخ الذي ناصر خسرو فحدث ذلك شرخا دائما بين الدولة المغولية وطائفة السيخ.

تابع جاهنجير سياسة والده في التوسع الجغرافي وفي التسامح الديني والتآلف الاجتماعي وصار يستطيع الادعاء انه ما خلا منطقة لاسام في شمال شرق الهند فان جميع مناطق الهند الشمالية أصبحت بحوزته.

في السنين الاخيرة من ملكه ثار عليه ابنه خروام (١٦٢٢) لما شعر بان والده يفضل عليه اخاه شهريار وقامت حرب داخلية دامت ثلاثة اعوام انهزم بنتيجتها خروام واستسلم لوالده الذي سامحه وعينه خليفته الشرعي.

توفي جاهنجير بمرض سنة ١٦٢٧. وفي عهده بلغت الفنون درجة عالية من التقدم. ومع انه، كوالده، لم تكن له ثقة كاملة بمقائده اي دين، فانه كان على العموم مسلما متحررا.

تولى خروام الحكم واتخذ لقب 'شاه جهان' (١٦٢٨ - ١٦٥٨) وكان قد

قتل اخاه خسرو خنقا (١٦٢٢) وفنك بجميع الامراء من عائلته الذين كان يمكن ان ينافسوه الحكم. رغم هذا الفعل الدموي فقد كان شاه جهان من ناحية اخرى حاكما متنفذا ومتسامحا رعى العلماء والشعراء الذين نظموا باللغة الفارسية والسنسكريتية والهندية، وكان هو ايضا شاعرا مرموقا، اكثر ما يذكر به شاه جهان بناء تاج محل وهو المدفن الذي بناه قرب مدينة اغرا تذكارا لزوجته "ممتاز محل" التي توفيت اثناء الوضع سنة ١٦٣١ واستغرق بناء تاج محل اثنين وعشرين سنة من ١٦٣٢ - ١٦٥٢ وهو اية في فن البناء.

قبل وفاته (١٦٥٨) اوصى شاه جهان بان يخلفه ابنه الاكبر دارا، لكن اولاده الثلاثة الآخرين، اورانغزيب ومراد وشجاع، عارضوا قرار والدهم. ونجح اورانغزيب باغتيال اخويه مراد وشجاع وحبس والده شاه جهان في حصن اغرا حيث توفي سنة ١٦٦٦ واعلن اورانغزيب نفسه امبراطورا (١٦٥٨ - ١٧٠٧).

تبع اورانغزيب سياسة اسلامية متشددة واتخذ دور المدافع عن الاسلام التقليدي فممن "محتسبا" لمراقبة اخلاق الناس وضمان طاعتهم للتعاليم الاسلامية فيما يتعلق بالقمار والشرب والصلاة والصوم والعلاقات الجنسية. ثم عكس سياسة من سبقوه تجاه رعاياه غير المسلمين فاعاد فرض "الجزية" ومنع بناء معابد جديدة او تصليح معابد قديمة للطوائف الهندية، واصدر اوامر بهدم جميع المدارس والمعابد الهندية ومنعهم من تعليم دينهم واقامة شعائره. وضاعف الضرائب على الهنود ورفعها عن المسلمين، وشجع الهنود على اعتناق الاسلام بمنحهم مساعدات وهدايا وتوظيفهم في دوائر الدولة. واضطهد الشيعة والصوفيين وكان طموحه ان يجعل الهند دولة اسلامية صرفة.

كان اورانغزيب ايضا شكوكا كثير الظنون باقرب الناس اليه. فبالاضافة الى قتل اخوته، سجن اولاده الثلاثة فتوفي اكبرهم في السجن وكذلك احدى بناته.

ادت سياسته المتعصبة الى ثورات متلاحقة شارك فيها ابن اورانغزيب الثالث الذي فرّ بعدئذ الى ايران. وبذلك بدأ انحلال الامبراطورية المغولية. خلف اورانغزيب ابنه الثاني باهادور شاه ١٧٠٧ سنة ١٧٠٧ بعدما

قتل اخويده. وتابع سياسة والده المتعصبة وتوفي سنة ١٧١٢. ما بين ١٧١٢ و ١٧٦٠ توالى على الحكم سبعة ملوك ضعفاء وكانت وفاة كل ملك مناسبة لحروب بين الورثاء والمذميين فتداعيت الامبراطورية واستعاد الامراء الهنود قوتهم وتوسعوا حتى تقلصت الدولة المغولية بحلول عام ١٧٧١ الى مدينة دلهي وجوارها.

لقد تبسطنا نوعا ما في وصف الامبراطورية المغولية في الهند لانها ابرزت ظواهر جديدة في الحكم الاسلامي. اولها ان هذا الحكم يمكن ان يتأرجح ما بين التسامح المطلق في عهد السلطان اكبر وابنه جاهنجير وحفيده خان جهان، وبين التعصب المفرق في التقليد في عهد اورانغزيب وابنه شاه علم دون ان يوجد ضابط سياسي يمنع التطرف في الاتجاهين. الظاهرة الثانية لنا اعتدنا ان نرى انهاء واخوة الخلفاء والامراء والسلطين المسلمين يتقاتلون فيما بينهم على للورثة بعد وفاة كل حاكم وكان ذلك من اهم اسباب انهيار الخلافت والدويلات. وكل ذلك لان الاسلام لم يستطع ان يضع نظاما واضحا لانتقال الحكم بصورة شرعية وسلمية الى هذا الوقت. الا ان الظاهرة الجديدة في الدولة المغولية في الهند هي اقدام الطامعين بالحكم من اولاد السلطان على قتل والدهم استمجالا للحكم، او اقدام الحاكم على قتل اولاده او سجنهم استبعادا لشرهم. وقد سار بعدهم سلاطين بني عثمان على ما يشابه ذلك. الظاهرة الثالثة هي ان الحكام المسلمين في الهند كانوا مقطوعي الصلات مع الخلافت الاسلامية في دمشق وبغداد والقاهرة واسبانيا فلم يحدث تفاعل سياسي وحضاري معها. الظاهرة الرابعة ان الحكام المسلمين الاتراك والمغول بقوا غرباء في المحيط الهندي الذي سيطروا عليه فلم يمتزجوا به اذ كان يفرق بينهم الدين واللغة فقد كانت الطبقة الحاكمة تتكلم التركية الى ان جعل السلطان اكبر اللغة الفارسية لغة البلاط والثقافة، ولم يتخذ احدي اللغات الهندية.

يلاحظ ايضا ان حكام الهند المسلمين تنكروا للغة العربية فلم يكن لها وجود في بلادهم مع انها لغة الاسلام، وعندما اختاروا لغة اخرى للثقافة

اختاروا الفارسية وليس العربية.

الهند تحت الاحتلال الانكليزي

إذا كان المسلمون من عرب وإيراك ومغول قد غزوا واحتلوا أجزاء من الهند فإن الدول الأوروبية بدأت تنازعهم احتلالهم منذ بداية القرن الخامس عشر عندما وصل فاسكودي غاما البورتغالي بالبحر إلى شاطئ الهند الغربي وإقام عليه مراكز محصنة للتجارة.

تبعه الهولنديون عام ١٥٩٨ ثم الإنكليز (١٦٠٠) ثم الفرنسيون (١٦٦٤) بشكل شركات تجارية. وكان العصر عصر نزاع وحروب في أوروبا شكلت المستعمرات في الشرق وفي القارة الأميركية سبباً غير رئيسي من أسبابها، بعد مساومات ومقايضات خرجت بريطانيا الدولة الأقوى في الشرق وبدأت عملية الاستيلاء على الهند حتى ضمتها بكاملها إلى إمبراطوريتها بما فيه الولايات الإسلامية والهندية. ودام الحكم الإنكليزي إلى عام ١٩٤٧ حينما حصلت الهند والباكستان على الاستقلال.

لقد المعنا في الصفحات السابقة بأكثر الفتوحات الإسلامية من عربية وفارسية وبربرية وتركية ومغولية ولم يبق إلا ذكر الدولة العثمانية وهي أطول الدول الإسلامية بقاءً وأوسعها أساساً، وأوسعها انتشاراً.

لكننا نتوقف قليلاً أمام الدولة الصفوية في إيران التي عاصرت الدولة العثمانية وهي، وإن لم تقم بفتوحات، فقد أنشأت حالة جديدة في منطقة الشرق الأوسط استمرت إلى هذا اليوم لأنها نمت وجداناً وطنياً فارسياً موحداً بين الفئات العنصرية واللغوية الكثيرة في إيران استمر حياً إلى ثورة الإمام الخميني التي تحاول أن تفرق هذا الشعور الوطني المميز في حركة إسلامية جامعة.

الدولة للصفوية (١٥٠٢ - ١٧٢٢)

ينحدر الصفويون من الشيخ صفي الدين (١٢٥٢ - ١٣٢٤) الأردبيلي بمدينة في شرق أذربيجان تبعد ستين كيلومتراً عن بحر قزوين) الذي كان رئيس الطريقة الصفوية المعروفة باسم "الصفوية". وقد انتقلت هذه الطريقة

من المذهب السني الى المذهب الشيعي (الامامية) بنهاية القرن الرابع عشر بتأثير خلفاء الشيخ سني الدين.

في بداية القرن السادس عشر كان بدو التركمان في الاناضول يقاومون محاولات العشائيين لاختضاعهم ومالوا الى الطرق الصوفية وإلى الدعوة الشيعية كود فعل ضد المؤسسة الاسلامية السنية. وقد استمالهم الشيخ اسماعيل رئيس الطريقة الصفوية ومؤسس الدولة التي سرفت بهذا الاسم وتمكن بمساعدتهم من التغلب على قبائل الاوزك السنية واحتل مدينة تبريز.

بمدها اعلن الشيخ اسماعيل نفسه شاهاً على اذربيجان وعلى ايران عام ١٥٠١ وقضى السنين العشر التالية في اخضاع باقي المقاطعات الايرانية، ثم ضم اليه المقاطعات العراقية بما فيها بغداد والموصل، وعلن المذهب الشيعي كالدين الرسمي للدولة الايرانية وفرضه على جميع السكان، وقد حكم الصفويون كممثلين للامام الثاني عشر واستمدوا شرعيتهم من هذا الادعاء.

ولما كان يوجد علماء شيعة في العراق ولبنان اكثر مما كان يوجد في ايران فقد اسس الصفويون مدارس عديدة استدعوا اليها العلماء من البلدين.

يمكننا النظر الى الدولة الصفوية بانها تحقيق لاقصى طموحات الحركة الشموبية التي قامت في العصر العباسي. فقد اعطت الايرانيين طابعا دينيا يميزهم الى الابد عن العرب والأتراك الذين يجاورونهم، وساعد ذلك من جهته على ابراز الشخصية الوطنية الايرانية بثقافتها ولغتها وادابها كشخصية متميزة ومستقلة عن العالم السني الذي يحيط بها.

كان الشاه اسماعيل نشطاً في نشر الدعوة الشيعية فاكثرت من الدعاة بين قبائل التركمان في الاناضول مما سبب قيام ثورات متلاحقة ضد الحكم العثماني.

ردا على ذلك شن السلطان سليم الاول (١٥١٢ - ١٥٢٠) حملة عنيفة ضد القبائل التركمانية في شرق الاناضول واعلن انه يقوم بجهاد مقدس ضد اعداء الدين فقتل منهم اعدادا كبيرة ثم توجه سنة ١٥١٤ نحو اذربيجان فالتقى مع جيش الشاه اسماعيل في موقعة شالديران شمال شرق بحيرة "فان" في شرق الاناضول مستخدماً المدافع والبارود فهزم الايرانيين الذين

كانوا يستخدمون الرماح والنبال. في السنوات التالية تابع السنيون العثمانيون في الغرب وقيائل الأوزبك في الشمال الشرقي ضغطهم على الصفويين الذين خسروا كردستان وديار بكر وبغداد فنقلوا عاصمتهم من أردبيل الى موقع أكثر أمنا في اصفهان.

شاه عباس (١٥٨٨ - ١٦٢٩) : بدأ شاه عباس الاول (الكبير) اصلاحاته بتحديث الجيش وكلف بذلك ضابطا بريطانيا هو سير روبرت شيرلي فنظمه حسب الاساليب الأوروبية وسأحه بالاسلحة الحديثة بما فيها المدافع والبارود. في سنة ١٥٩٨ اوقع هزيمة كبرى بقيائل الأوزبك واستعاد خراسان. وفي سنة ١٦٠٢ وما بعدها اشتبك بعدة معارك مع العثمانيين فانتهصر واستعاد منهم الأراضي التي كانوا يمحوها بما فيها بغداد. في زمنه وصلت ايران الى منزلة الدول الكبرى وانتعشت تجارتها مع الدول الغربية والهند وتواردت الوفود والبعثات الدبلوماسية من سائر الجهات الى اصفهان التي أصبحت من أجمل المدن في ذلك العصر. وظهر الصفويون تسامحا دينيا تجاه الأديان الأخرى.

بعد وفاة شاه عباس (١٦٢٩) دامت الدولة الصفوية نحو قرن لكنها كانت فترة انحطاط استولى في نهايتها قائد تركي على الحكم تحت اسم نادر شاه وعزل الشاه الصفوي طاهماسب الثاني (١٧٢٢)، وحاول ان يعيد المذهب السني الى ايران فلم ينجح ثم غزا الامبراطورية المغولية في الهند وحاد منها بغنائم هائلة منها "عرش الطاووس" وعاسة "كوهي نور". وفي النهاية ثار عليه جتده لقساوته وقتلوه سنة ١٧٤٧.

السلالة القاجارية (١٧٩٦ - ١٩٢٥)

مع نهاية الدولة الصفوية ثم مقتل نادرشاه سادت فترة فوضى في ايران انتصر بنهايتها زعيم قبيلة قاجار التركمانية السنية اغا محمد وبسط سيادته على البلاد وأعلن شاهها سنة ١٧٩٦ وجعل طهران عاصمته. في عهد خلفه بدأ التوسع الروسي جنوبا. ففي حربيين (١٨٠٦ - ١٨١٢) و (١٨٢٦ - ١٨٢٨) احتل الروس جورجيا وإرمينيا وشمال أذربيجان.

وجاءت نهاية السلالة القاجارية لما اجتمع المجلس الوطني الايراني في اكتوبر ١٩٢٥ واعلن عزل اخر شاه قاجاري وتنصيب رضا شاه بهلوي. وهكذا بعد احد عشر قرنا من الحكم العربي والتركي والمغولي قطعتها فترة ٢٥٠ عاما من الحكم الصفوي الايراني، وجدت ايران نفسها عام ١٩٢٥ محكومة من ملك فارسي شيعي يتكلم اللغة الفارسية.

♦ - ♦

الفصل التاسع

الفتوحات العثمانية

(١٢٠٠ - ١٦٨٢)

بعد انتصار السلطان الب أرسلان السلجوقي على الجيش البيزنطي في معركة مانزيكورت (١٠٧١) زحفت مجموعات ضخمة من قبائل أوغوز التركمانية البدوية على شرق الأناضول وأواسطها مدفوعة برغبة الجهاد لنشر الإسلام والمكاسب التي ترافق الغزو فدمروا مناطق واسعة وحولوا الأراضي الزراعية العامرة إلى مراعي لمواشيهم.

وقد ذكرنا أن السلجقة أقاموا دولة في الأناضول إلى جانب دولتهم في العراق وإيران قضت عليها جيوش جنكيزخان (١٢١٢) وفرضت السيادة المغولية على أمراء القبائل التركية.

برز من هؤلاء نحو سنة ١٢٠٠ عثمان أمير منطقة بيتونيا في شمال غرب الأناضول التي تجاور بحر مرمرة والبوسفور والبحر الأسود. استولى عثمان على المناطق المجاورة وأخضع القبائل التركية فكان المؤسس للدولة العثمانية التي دامت مدة أطول من أية دولة إسلامية أخرى.

كانت الصفة الحربية العسكرية هي الغالبة في تاريخ بني عثمان والدولة التي أنشأوها التي كان دأبها التوسع بحروب متواصلة على أربع جبهات.

كانت جبهتها الأولى داخلية ضد قبائل التركمان في الأناضول ودامت الحملات ضدهم نحو قرنين حتى تم إخضاعهم تماماً.

وكانت الجبهة الثانية في الشرق ضد الدولة الصفوية الشيعية التي لقيت دعوتها ومقائدها استجابة لدى أعداد كبيرة من قبائل التركمان البدوية في الأناضول. وكانت المعارك بين الدولتين غير حاسمة وقد نجح الصفويون بصدّ تقدم العثمانيين نحو آسيا الوسطى.

أما الجبهة الثالثة فكانت في الجنوب استهدفت مناطق إسلامية هي

سوريا وفلسطين ومصر والحجاز.

وكانت الجبهة الرابعة والأهم هي الجبهة الغربية في أوروبا حيث كانت الحروب مستمرة طيلة ستة قرون (١٢٠٠ - ١٩١٢) ويمكن ان نقسم الى قسمين واضحين : فترة التوسع والانتصار ما بين عام ١٢٠٠ الى نهاية القرن السابع عشر، وفترة التقلص والانحسار من القرن السابع عشر الى القرن العشرين التي خسر فيها العثمانيون جميع ممتلكاتهم الأوروبية والروسية وارتدوا الى الاناضول مع مساحة صغيرة عبر البوسفور. وفيما يلي بعض التفاصيل.

في عهد خلفاء عثمان : اورهان (١٢٢٤ - ١٢٦٠) ومراد الاول (١٢٦٠ - ١٢٨٩) وبايزيد الاول (١٢٨٩ - ١٤٠٢) استولى العثمانيون على معظم اراضي الاناضول، لكن اتجاههم منذ البداية كان نحو الغرب الاوربي. في سنة ١٢٥٤ استولوا على غاليبولي على الشاطئ الاوربي من الدردنيل وجعلوها قاعدتهم للتوسع في أوروبا. وفي سنة ١٣٦١ استولى مراد الاول (١٢٦٠ - ١٢٨٩) على مدينة ادرنه وجعلها عاصمته، وهي تسيطر على الطريق الرئيسي لغزو البلقان مما مكنه من الاستيلاء على مكدونيا وراقيا وبلغاريا واجزاء من صربيا. وقد شكل امراء البلغار حلفا ضده لكنه تغلب عليهم في موقعة كوسوفو سنة ١٢٨٩ التي قُتل فيها.

خلفه ابنه بايزيد الاول (١٢٨٩ - ١٤٠٢) الذي انتصر على حملة صليبية في نيكوبوليس على نهر الدانوب (١٣٩٦) فمنحه الخليفة العباسي في القاهرة لقب سلطان تقديرا لعمله. وانهى بايزيد اخضاع الامراء الاتراك في شرق الاناضول. ثم هاجمه تيمورلنك واشتبك معه في معركة انقرة (١٤٠٢) التي خسرها بايزيد لان جزءا من جيشه تخلى عنه بحجة انه ترك واجب الجهاد وتقارب مع البيزنطيين، فلم يصمد معه الا اتباعه من الاقطاعات المسيحية.

والحقيقة ان النفوذ المسيحي في البلاط العثماني كان قويا خلال القرن الرابع عشر فقد تزوج السلطان اورهان ابن عثمان الاميرة ثيودورا ابنة الامبراطور البيزنطي يوحنا السادس التي انجبت له مراد الاول. وهذا تزوج بدوره اميرات يونانيات وبلغاريات، كما تزوج السلطان بايزيد الاول الاميرة ديسبينا ابنة الامير الصربي لازار. وكانت كل اميرة تجلب معها حين زواجها

اتباعا ومستشارين الى البلاط العثماني وبتأثيرهم تخلى سلاطين آل عثمان عن عاداتهم البدوية واقتبسوا العادات البيزنطية في بلاطهم واسلوب معيشتهم. اعداد تيمورلنك سلطة الامراء الاثراك في الاناضول ونغوذ رجال الدين لكن الحكم العثماني في اوروبا بقي سالما من تأثيره.

اختلف اولاد بايزيد الاربعة على الخلافة وتقاتلوا فانصر محمد (١٤١٣ - ١٤٢١) على اخوة وقتلهم. ولما كان رجال الدين قد ناصروه في حربه فانه اعطى الدولة طابعا اسلاميا تقليديا. خلفه مراد الثاني (١٤٢١ - ١٤٥١) الذي احتل مدينة سالونيك (١٤٣٠) وغزا باسطوله مراعيء تجار البندقية في بحر الادرياتيك وبحر ايجه ثم صدّ حملة نظمها بابا روما واشترك فيها البيزنطيون وهنغاريا والبندقية. واشتبك الطرفان في موقعة فارنا على البحر الاسود (١٤٤٤) فانصر مراد.

حين وفاته (١٤٥١) بدت حدود المملكة حتى جنوب الدانوب مضمونة وكان الامبراطورية العثمانية في اوروبا وجدت لتبقى.

نتوقف هنا لنبحث موضوعين اثرا في مسيرة الدولة العثمانية وتطورها. اولهما يتعلق بالتنظيم العسكري، والثاني يتعلق باسلوب تسلسل الحكم، وهي المشكلة الدائمة في انظمة الحكم الاسلامية التي لم تجد حلا. كانت الدولة العثمانية دولة عسكرية تضع في اول اهدافها التوسع المستمر، والسيطرة على شعوب جديدة واستنزاف مواردها، ونشر الاسلام فيها.

التنظيم العسكري

في القرن العثماني الاول من عثمان الى مراد الثاني كانت قوتان تتجاذبان الامبراطورية في اتجاهين متعاكسين. لقد حاز النبلاء الاثراك خلال تلك الفترة على ممتلكات واسعة في الاناضول وفي البلاد الاوروبية المفتوحة وكانوا يشكلون قوة سياسية كبرى بمساعدة رجال الدين والتقليديين.

مع ان مراد الثاني وصل الى الحكم بمساعدة هذه الفئات، فانه بدأ يتضامق من نفوذهم وسمى لاقامة قوة مقابلة فاتجه الى الجياعات غير التركية. ولما كان الفتح بموجب الشريعة الاسلامية يستتبع رقا فان مراد بدأ يأخذ

الذكور المسيحيين وهم صغار السن من بلاد البلقان ويدخلهم في الاسلام، ونظم منهم فرق مشاة عرفت باسم الانكشارية اصبحت مع الوقت عماد قوة الجيش. وبما ان جنود هذه الفرق كانوا عبيداً لشخص السلطان وليس لهم ولاء لغيره، فانه شعر بالاطمئنان نحوهم ثم عزز مكانتهم بمنحهم اقطاعات في اكثر الاراضي الجديدة المفتوحة فنانسوا القوى التقليدية السابقة وازداد عددهم كثيراً.

كان كل توسع جديد في اوروبا يزيد مدد الانكشارية وبالتالي يعزز نفوذهم فصار قوادهم يرغبون بان تستمر الحروب وتتوسع، في حين كان الامراء الاتراك ورجال الدين يريدون لها ان تتوقف حتى يحدوا من قوة الانكشارية.

خلف محمد الثاني (1451 - 1481) السلطان مراد الثاني فطوّر نظام الانكشارية الذي ادخله سلفه. اصدر امراً بانه يجب على جميع اعضاء الحكومة والموظفين وضباط الجيش وجنوده سواء كانوا اتراكا، او من بلاد البلقان، احراراً او عبيداً، مسلمين او مسيحيين، ان يصبحوا عبيداً شخصيين للسلطان. ومن ذلك الوقت لم يعد بوسع احد ان يتوظف في الحكم او الادارة او الجيش الا اذا قبل وضع العبودية فاصبحت الطبقة الحاكمة بكاملها مستعبدة نظرياً للسلطان وملزمة بالولاء لشخصه.

لكن حظ العثمانيين مع الجنود العبيد الانكشارية لم يختلف عن حظ الحكام المسلمين السابقين مع جنودهم العبيد من الاتراك. فبعد فترة من الزمن قويت شوكة الانكشارية وشعروا انهم صاروا العنصر المرجح في توازن القوى الداخلية يتحكمون بتنصيب السلطان وعزله ويتصرفون بمقدرات الدولة ويمنعون تحديث الجيش الى ان تمكن السلطان محمود الثاني (1808 - 1829) من تدبير مذبحة قضى فيها عليهم سنة 1826 وانشأ جيشاً حديثاً يتقاضى رواتبه من الدولة.

قضية تسلسل الحكم

منذ قيام الاسلام شكلت قضية تسلسل الحكم مشكلة رئيسية لم تجد لها حلاً على مدى الاجيال. فالشريعة كما رأينا لم تتعرض لهذه الناحية،

والفقهاء لم يستنبطوا مبدأ مقبولا ومحددا. فبعضهم دعى الى الشورى دون ان يحدد ميكانيكيته التي اسلوب ممارستها، فبقيت دعوتهم طوباوية في اطار النظريات، وبعضهم ايتد الحكم المطلق بمشيئة الخليفة او السلطان، وكانت نتيجة هذا الضياع اننا نادرا ما نرى في تاريخ الشعوب الاسلامية عربية كانت او فارسية او تركية او مغولية انتقالا سلميا للحكم بموجب قاعدة واضحة مسلم بها بل بالعكس فقد خلفت وفاة الحكام فتنا واغتيالات وقتل وتورات في اغلب الاحيان.

لم يختلف الحال في عهد العثمانيين حتى جاء محمد الثاني (١٤٥٦ - ١٤٨١) وابتكر حلاً غريباً. لم ينشر قانونا للوراثة اذ قد يكون ذلك مخالفا للشرعية، لكنه عالج الموضوع من ناحية عملية وان كانت بربرية فادخل تقليدا سار عليه هو ومن بعده من السلاطين يقضي بقتل جميع اخوة السلطان القانم لانهم هم الذين يحتمل ان ينازعوا اولاد السلطان على الحكم، بحيث يبقى تسلسل الحكم للاولاد.

فلما جاء السلطان سليم الاول (١٥١٢ - ١٥٢٠) طور تقليد الوراثة ولم يكتف بقتل اخوته بل قتل جميع اولادهم السبعة، ثم قتل اربعة من اولاده وترك ابنه سليمان الوريث الوحيد.

وقد سار سلاطين بني عثمان على ما يشابه ذلك الى نهاية الخلافة وان صاروا اكثر ليونة فاستبدلوا القتل بوضع اخوتهم ومن يشككون بمطامعهم أسرى في القصور ودوائر الحريم وبمزاجهم عن الاتصال بالناس.

نعود الى الفتوحات العثمانية. اهم ما اشتهر به محمد الثاني انه استولى على القسطنطينية وجعلها عاصته (١٤٥٣) بعدما كانت الامبراطورية البيزنطية قد تقلصت الى حدود المدينة وضواحيها. وقد قُتل الامبراطور قسطنطين اخر امبراطور بيزنطي على اسوار المدينة وهو يدافع عنها. بعد ثمان سنوات (١٤٦١) سقطت مدينة طرابزون في شمال شرق تركيا على البحر الاسود وكانت اخر معقل بيزنطي فزال الامبراطورية البيزنطية التي دامت نحو الف عام.

وقد هزل المسلمون لهذا الانتصار لانه ازال آخر قوة مسيحية في بلاد المشرق. بعد ذلك اخضع محمد الثاني خانات التتار في شبه جزيرة القرم

الذين اعترفوا بالسيادة العثمانية، كما سيطر على منطقة الموريا في اليونان وعلى البوسنة وألبانيا ووصل إلى بحر الأدرياتيك.

خلفه ابنه بايزيد الثاني «المادل» (١٤٨١ - ١٥١٢) وكان متدينا متأثرا باتجاه العلماء والفقهاء وكبار الموظفين المواليين لهم ومعارضاً لميول أبيه الغربية. من ذلك أنه أزال من القصور الرسوم التي كلف والده الفنانين الايطاليين برسمها، وأعاد الاوقاف الخيرية التي كان محمد الثاني قد ضمها إلى أملاك الدولة.

في زمنه أقام شاه اسماعيل الدولة الصفوية في إيران (١٥٠٢) وكان قسم كبير من القبائل التركمانية في شرق الأناضول قد قبل دعوته الشيعية وشكلوا القسم الأكبر من الجيش الصفوي. وقد ثارت هذه القبائل في الأناضول على الحكم العثماني (١٥١١) فحاربها بايزيد وفتك بها وعزز حكمه في الأناضول وفي البلقان وباقي المناطق. وفي سنة ١٥١٢ تنازل عن الحكم لابنه سليم.

السلطان سليم الفاتح

اشتهر السلطان سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠) بأخذه الخلافة من آخر خليفة عباسي في القاهرة بعدما قهر الماليك في معركة مرج دابق شمال مدينة حلب (١٥١٧) واستولى على سوريا وفلسطين ومصر والجزائر فتضاعفت مساحة الامبراطورية العثمانية. وحاول أن يضم إيران فوجه حملة ضخمة (١٥١٤) ضد الدولة الصفوية لم تحقق غايتها وبقي شاه اسماعيل سيداً في بلاده.

أدهى السلطان سليم أن الخليفة العباسي المغلوب على أمره والذي قبض عليه في القاهرة جبر الخلافة له. ثم احتل الحجاز وضم إليه مدينتي مكة والمدينة فذاع صيته وأرتفعت مكانته بين المسلمين، واتخذ السلطان التركي من ذلك الوقت لقب «الخليفة» و «خادم الحرمين الشريفين».

مع احتلال مصر والحجاز أصبح البحر الأحمر بحيرة عثمانية وسيطر العثمانيون على تجارته.

السلطان سليمان القانوني

خلف السلطان سليم ابنه سليمان الملقب 'بالقانوني' (١٥٢٠ - ١٥٦٦) الذي وصلت الدولة في عهده الى اقصى امتدادها ويعتبر عهده العصر الذهبي للدولة العثمانية.

في زمنه كان العثمانيون يسيطرون على شواطئ البحر المتوسط الشرقية والجنوبية : سوريا ولبنان وفلسطين ومصر وليبيا وتونس والجزائر عدا مراكش، بالإضافة الى جزيرتي مالطة وركريت. وكان القراصنة من ليبيا والجزائر يهاجمون الملاحة الأوروبية بتشجيع من السلطان.

في الغرب شمل حكم السلطان سليمان الدول التي تعرف حاليا باسم رومانيا وبلغاريا واليونان وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا ويوغسلافيا والباتيا على بحر الادرياتيك بما فيه جزيرة كورفو وجزر اخرى صغيرة. وحاصر مدينة فيينا عام ١٥٢٩ ثم ارتد عنها دون نتيجة.

في الشرق انتزع للسلطان سليمان العراق من الدولة الصفوية الشيعية ودخل بغداد (١٥٣٤) واستولى على الشاطيء الغربي من الخليج الفارسي الكويت واربو ظبي لكن الصفويين وقفوا سدا منيعا حال دون امتداد الزحف العثماني الى ايران وآسيا الوسطى.

في الشمال اصبح البحر الاسود وبحر ازوف بحريتين عثمانيتين تحيط بهما اراضي تركية من جميع الجهات بما في ذلك شبه جزيرة القرم وجزء من القوقاس.

بعد عهد سليمان القانوني بدأت عوامل الانحلال تنخر تدريجيا في الدولة. ومع الوقت فشئت الرشوة والفساد والحسومية ومحاباة الاقارب في دوائر الحكم واصبحت طريقة حياة اشتهرت بها السلطنة العثمانية في اليهود المتأخرة.

محمد الرابع وحصار فيينا الثاني

مع ذلك بقيت للعثمانيين قوة كافية ليقوموا بمحاولة ثانية للسيطرة على الامبراطورية النمساوية. ففي عهد محمد الرابع (١٦٤٨ - ١٦٨٧) ساصرت قوة

عثمانية مؤلفة من ثلاثماية الف جندي مدينة فيينا في شهري يوليو وسبتمبر ١٦٨٢ بتأييد ضمني من ملك هنغاريا واستطاعت ان تخترق خطوط الدفاع الخارجية للمدينة وبدأت تحفر انفاقا تحت الاسوار الداخلية فهرب الامبراطور من المدينة. تجاه هذا الخطر نجح البابا ايفوسنت الحادي عشر بتشكيل قوة مؤلفة من ملك بولونيا سوييسكي، وشارل دوق لورين وامراء بافاريا وساكسوني ومقاطعات المانية اخرى، استطاعت ان تتغلب على المهاجمين وتفك الحصار فكانت اخر محاولة عثمانية للتوسع في اوروبا.

لم يوقف هذا المجهود العسكري الضخم الذي قام به السلطان محمد الرابع تقهقر الدولة العثمانية رغم جهود اصلاحية متاخرة كالقضاء على الفرق الانكشارية عام ١٨٢٦ في عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩) وانشاء جيش حديث تحت ادارة ضباط اوروبيين. ففي مدة قرنين تقلصت الامبراطورية العثمانية العاتية وانحصرت في اراضيها الاسيوية مع مساحة صغيرة في اوروبا عبر الدردنيل تضم مدينة ادرنة كما خسرت جميع المناطق المفتوحة في اوروبا والشرق الاوسط وشمال افريقيا والبحر الاحمر والخليج الفارسي.

قيام 'توكيا الفتاة'

بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) وتقلص مساحتها الى تركيا الاسيوية حدث انقلاب عميق في تركيا بتأثير الحركة الوطنية الطورانية التي دعيت باسم جمعية 'تركيا الفتاة' بزعامة الضابط مصطفى كمال الذي اتخذ لقب 'أتاتورك' الذي يعني 'ابو الاتراك'. وقد اعتقدت هذه الحركة ان الاسلام هو سبب تاخر الاتراك وان لا امل للشعب التركي بمواكبة الحضارة الحديثة المتغلبة بالعلوم والفنون والقدرة الحربية الا بالانفصال عن الاسلام واقتباس الانظمة الغربية. لذلك الغت الخلافة واقامت مكانها جمهورية علمانية فصلت ما بين الدين والدولة مخالفة بذلك ما قال به الفقهاء المسلمون من اتحاد الدين والدولة في الاسلام، وتخلت عن الشريعة الاسلامية ووضعت قانونا مدنيا مستمدا من القانون السويسري، وادارت ظهرها للشرق المسلم واتجهت بكليتها الى الغرب. وقد انضمت

الجمهورية التركية العلمانية بعد الحرب العالمية الثانية الى الحلف العسكري الاطلسي وشكلت احد اركانها الرئيسية، كما قدمت طلبا للانضمام الى السوق المشتركة الاوروبية مما يعني اندماجها الكامل بالمجتمع الاوروبي الغربي.

قبل الختام يجب ان نورد ملاحظتين تتعلقان بوضع العرب في الدولة العثمانية، اولهما انها كانت اول دولة تركية اعتمدت اللغة التركية في مراسلاتها وادابها ولم تلجأ الى اللغة العربية او الفارسية كمن سبقها من الاتراك الذين تسلطوا على المنطقة.

والملاحظة الثانية، انه في عهد استعمارها للبلاد العربية انحدرت اللغة العربية الى ادنى درجات الانحطاط، وقد وصل الامر بالعثمانيين ايام تركيا الفتاة الى انهم كانوا يرسلون معلمين امراك الى المدارس الرسمية في البلاد العربية ليعلموا التلاميذ اللغة العربية بركاكة تركية.

وقد سكنت العرب المسلمون عن هذا التردّي وقبلوه على مدى اجيال مع انهم حملة القرآن الكتاب العربي المبين، ولم ينهض باللغة العربية ويعيد اليها مكانتها واشراقها ويبيمت ماضيها المجيد وآدابها الا المسيحيين في جبل لبنان في القرن التاسع عشر لانهم كانوا فحوروا نسبيا من الحكم العثماني المباشر.

قبل ان نختم هذا الفصل، فلحق به اللاتحة التالية بتسلسل سلاطين آل عثمان من عثمان الاول مؤسس الدولة الى عبد المجيد الثاني الذي قامت في عهده الجمهورية التركية العلمانية، وكان عدد السلاطين اربعة وثلاثين فعاقبوا على الحكم مدة ٦٤٢ سنة.

سلاطين آل عثمان

١٢٨١ - ١٣٢٥	١ - عثمان الاول
١٣٢٥ - ١٣٦٢	٢ - اورخان
١٣٦٢ - ١٣٨٩	٣ - مراد الاول
١٣٨٩ - ١٤٠٢	٤ - بايزيد الاول (ابن مراد)
١٤٠٢ - ١٤٢١	٥ - محمد الاول (ابن بايزيد)
١٤٢١ - ١٤٥١	٦ - مراد الثاني
١٤٥١ - ١٤٨١	٧ - محمد الثاني (استولى على القسطنطينية)
١٤٨١ - ١٥١٢	٨ - بايزيد الثاني
١٥١٢ - ١٥٢٠	٩ - سليم الاول (تغلب على المماليك واستولى على العراق وبلاد الشام ومصر)
١٥٢٠ - ١٥٦٦	١٠ - سليمان الاول (الكبير) حاصر فيينا ١٥٢٩
١٥٦٦ - ١٥٧٥	١١ - سليم الثاني
١٥٧٥ - ١٥٩٥	١٢ - مراد الثالث
١٥٩٥ - ١٦٠٢	١٣ - محمد الثالث
١٦٠٢ - ١٦١٧	١٤ - احمد الاول
١٦١٧ - ١٦٢٢	١٥ - مصطفى الاول وعثمان الثاني
١٦٢٢ - ١٦٢٣	١٦ - مصطفى الاول (اغاد الانكشارية تنصيبه)
١٦٢٣ - ١٦٤٠	١٧ - مراد الرابع
١٦٤٠ - ١٦٨٧	١٨ - محمد الرابع (حاصر فيينا الثاني)
١٦٨٧ - ١٦٩١	١٩ - سليمان الثاني
١٦٩١ - ١٦٩٥	٢٠ - احمد الثاني
١٦٩٥ - ١٧٠٢	٢١ - مصطفى الثاني
١٧٠٢ - ١٧٢٠	٢٢ - احمد الثالث
١٧٢٠ - ١٧٥٤	٢٣ - محمود الاول

- ٢٤ - مصطفى الثالث ١٧٥٧ - ١٧٧٢
- ٢٥ - عبد الحميد الاول ١٧٧٢ - ١٧٨٩
- ٢٦ - سليم الثالث ١٧٨٩ - ١٨٠٧
- ٢٧ - مصطفى الرابع ١٨٠٧ - ١٨٠٨
- ٢٨ - محمود الثاني (فتك بالانكشارية) ١٨٠٨ - ١٨٣٩
- ٢٩ - عبد المجيد الاول ١٨٣٩ - ١٨٦١
- ٣٠ - عبد العزيز (اخو عبد المجيد) ١٨٦١ - ١٨٧٦
- ٣١ - عبد الحميد الثاني (عزل عام ١٩٠٩) ١٨٧٦ - ١٩٠٩
- ٣٢ - محمد الخامس (ابن عبد الحميد الثاني) ١٩٠٩ - ١٩١٨
- ٣٣ - محمد السادس وحيد الدين (عزل) ١٩١٨ - ١٩٢٢
- ٣٤ - عبد المجيد الثاني (ابن عم وحيد الدين) ١٩٢٢ - ١٩٢٤
- كان اخر خليفة عثماني توفي في باريس
بعدما اعلنت الجمهورية التركية العلمانية.

الفصل العاشر

ردّ أوروبا على الفتوحات الاسلامية

كان من الطبيعي ان يردّ الأوروبيون على الفتوحات الاسلامية ذات الطابع الديني والاعتدائي بنظرهم. فقد احتل المسلمون مناطق مسيحية واسعة في الشرق الاوسط وشمال افريقيا في القرنين الثامن والتاسع واهمها البلاد المقدسة في فلسطين، بالإضافة الى احتلال اسبانيا في اقصى غرب أوروبا، ثم التغلب على الامبراطورية البيزنطية وإزالتها من الوجود، وإخيرا في سلسلة تلك الفتوحات، احتلال مناطق واسعة من روسيا، وبلاد البلقان بكاملها. فليس من الغريب ان تسعى أوروبا لرد هذا الاعتداء ودحره اذا شعرت بقدرتها على ذلك.

حدث هذا الرد في فترتين متباعدتين، بدأت الفترة الاولى في اواخر القرن الحادي عشر واحتوت حدثين مهمين هما : استعادة الاسبان لبلادهم وخروج المسلمين منها وهو ما بحثناه في الفصل السابق، والحدث الثاني هو الحملات الصليبية التي قام بها الأوروبيون ما بين عامي ١٠٩٥ و ١٢٩١ اي خلال قرنين من الزمن لاستعادة الاراضي المقدسة. وكان الدافع لهذين الحدثين العاطفة الدينية بالدرجة الاولى وان امتزجت بالنسبة لتحرير اسبانيا بالعاطفة الوطنية.

اما الفترة الثانية للرد الأوروبي فبدأت في القرن السادس عشر واتخذت مجريتين : حررت روسيا بلادها من اخر اثار الاحتلال المغولي ثم اتجهت جنوبا وشرقا فاحتلت مناطق اسلامية واسعة شملت اجزاء من ايران وآسيا الوسطى بكاملها، اما المجري الثاني فاستهدف تحرير أوروبا الشرقية من الاحتلال العثماني ولم تفت هذه الفترة الا بزوال مؤسسة الخلافة (١٩٢٤) وإعادة

الأتراك الى المنطقة الآسيوية مع قطعة صغيرة على البر الأوروبي. وفي هذه الفترة امتزج الدافع الديني مع الشعور الوطني في الشعوب الأوروبية التي تارت على الاحتلال العثماني.

الحملة الصليبية (١٠٩٥ - ١٢٩١)

بعد خمسة قرون من سقوط الامبراطورية الرومانية وروما (٤٧٦) تحت هجمات القبائل الجرمانية والسلافية التي دمرت الحضارة الرومانية، وبعد اربعة قرون من احتلال القبائل البدوية العربية للاقطار البيزنطية في سوريا ومصر وشمال افريقيا ثم اسبانيا، عنت أوروبا منذ القرن العاشر روح دينية مسيحية غذتها الكنيسة التي كانت المؤسسة الوحيدة التي خرجت في أوروبا من فوضى الهجمات البربرية محتفظة بكيانها وتنظيمها الكهنوتي لتنتقل الى شعوب العالم الغربي بعض مدنية العصر الروماني. وكان من الطبيعي لهذا السبب ان تمارس الكنيسة نفوذا كبيرا على المؤمنين باعتبارها الملائكة الروحي والزمني الوحيد لهم.

في اواخر القرن الحادي عشر كانت الاخبار فرد من المشرق عن اضطهاد السلاجقة الأتراك للمسيحيين، والتعديلات على الحجاج الأوروبيين الوافدين الى القدس، وتدنيس الأماكن المقدسة في فلسطين، ثم تهديد المسلمين للامبراطورية البيزنطية وللقسطنطينية عاصمة النصرانية الشرقية، واحتلالهم لانتاكية (١٠٨٥) وهي من اهم مراكز النصرانية.

رداً على كل ذلك دعا البابا اوربان الثاني الى مؤتمر عقد في مدينة كليرمونت الفرنسية (١٠٩٥) حث فيه المسيحيين على انقاذ بيت المقدس.

ما بين ١٠٩٥ و١٢٩١ سارت ثمان حملات مسيحية نحو الاراضي المقدسة عرفت باسم "الحروب الصليبية" لان رسم الصليب كان بارزاً على صدور المحاربين.

احتل الصليبيون مدينة الرها - (لورق) سنة ١٠٩٨ واستعادوا انتاكية في السنة نفسها ثم دخلوا القدس في ١٥ يوليو (تموز) ١٠٩٩ واحتلوا الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط الممتد من انتاكية الى عسقلان في جنوب فلسطين واقاموا امارات مستقلة في الرها وانتاكية وطرابلس وبيروت ومكا كما اقاموا

مملكة القدس وأنشأوا قلاعاً كثيرة على طول الساحل لحمايتهم من الغارات البحرية.

تصدى للصليبيين عماد الدين زنكي (١٠٨٤ - ١١٤٦) وهو قائد تركي عينته السلطان السلجوقي محصود والياً على الموصل ثم اعتدت سلطته إلى شمال سوريا وحلب. وأوكل إليه السلطان مقاومة الصليبيين. وكان عماد الدين زنكي معاصراً للخليفة العباسي المسترشد.

في سنة ١١٤٤ استعاد عماد الدين منطقة الرها بعد ٤٦ سنة من احتلالها فكانت أول منكسة للقوات الصليبية مما دعا البابا اوجينيوس الثالث لتجريد الحملة الصليبية الثانية التي قادها الامبراطور كوفراد الثالث الألماني والملك لويس السابع الفرنسي اللذان جمعاً قواتهما في القدس ثم تقدما عام ١١٤٨ على رأس خمسين ألف جندي وحاصروا دمشق.

في ذلك الوقت خلف عماد الدين ابنه نور الدين محصود (١١٤٦ - ١١٧٤) الذي دجج برفع الحصار عن دمشق واحتل المدينة سنة ١١٥٤ فانتهت الحملة الصليبية الثانية بالفشل.

دور صلاح الدين الايوبي (١١٢٧ - ١١٩٢)

يُلقب أيضاً باسم "الملك الناصر صلاح الدين". ولد في تكريت على نهر الفرات في عائلة كردية وجيهة. بعد ولادته انتقل والده نجم الدين ايوب إلى مدينة حلب ودخل في خدمة السلطان عماد الدين زنكي. نشأ صلاح الدين في بعلبك ودمشق ثم التحق بعمه القائد اسد الدين شيركوه الذي كان يعمل بخدمة السلطان نور الدين محمود والذي قام بثلاث حملات على مصر التي يحكمها الفاطميون. بعد وفاة شيركوه سنة ١١٦٩ عين السلطان نور الدين محمود صلاح الدين قائداً للجيش السورية ووزيراً على مصر.

بعد سنتين (١١٧١) تغلب صلاح الدين على الخلافة الفاطمية الشيعية وانهاها واعاد مصر إلى المذهب السني فاصبحت مصر بكاملها تحت حكمه. وبعد وفاة السلطان نور الدين (١١٧٤) استقل صلاح الدين بالحكم وأسس السلالة الايوبية التي دامت ٧٩ سنة.

ما بين ١١٧٤ و ١١٨٦ تمكن صلاح الدين من يسط سيطرته على مصر

وسوريا وفلسطين، واحتل حلب وشمال العراق سنة ١١٨٢ ووجد قوات المسلمين فأصبحت القوات الصليبية تواجه جبهة عريضة متحدة. تقدم صلاح الدين بعد ذلك نحو القدس واشتبك مع الصليبيين في معركة حطين قرب بحيرة طبريا (٤ يوليو ١١٨٧) فكانت خسائر الصليبيين فادحة مما مكن المسلمين من احتلال القدس (٢ أكتوبر ١١٨٧) بعد ٨٨ سنة من بقائها في يد الصليبيين، واحتلوا أيضا المدن الفلسطينية : عكا ويافا ونابلس والناصرية وقيصوة وعسقلان بالإضافة الى صيدا. لكن صور والمعازل الصليبية الأخرى إلى الشمال بقيت سالمة.

كان لسقوط القدس وقع هائل في أوروبا فدعا البابا غريغوار الثامن للحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩) التي قادها الامبراطور الألماني فردريك بربروسا واشترك بها ملك فرنسا فيليب الثاني وملك انكلترا ريشارد الأول لقلب الأسد، وكانت أكبر الحملات. توفي الامبراطور فردريك غرقا في السنة التالية لكن الحملة تابعت مسيرتها فاحتل الملك ريشارد جزيرة قبرص البيزنطية ثم تعاون مع ملك فرنسا على حصار عكا التي استعادوها في شهر يوليو ١١٩١. لكن الحملة فشلت في الوصول إلى القدس. عندها عقد الملك الانكليزي مع السلطان صلاح الدين اتفاقية لمدة خمس سنوات سمحت للأوروبيين بالحج إلى القدس، وعاد الملك ريشارد إلى بلاده عام ١١٩٢ وهكذا انتهت أكبر حملة صليبية دون أن تحقق غرضها.

أما السلطان صلاح الدين فعاد إلى عاصمته دمشق حيث توفي بعد سنة. بعد سبع سنوات من سقوط القدس دعا البابا اينوسنت الثالث إلى الحملة الصليبية الرابعة (١١٩٨) وكان غرضها مهاجمة مصر باعتبارها ركن المقاومة الإسلامية. لكن هذه الحملة حادت عن قصدها فهاجمت القسطنطينية (١٢٠٤) ونهبتها واتشأت فيها دولة لاتينية دامت ستين سنة. ومع أن البابا استنكر عمل هذه الحملة فانها لوقمت شرخا في التعاون المسيحي وعمقت الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية.

بعد ثلاث سنوات دعا البابا نفسه إلى حملة خامسة ضد العالم الإسلامي كان عمادها الفرنسيون والألمان الذين احتلوا دمياط في مصر سنة ١٢١٨ لكن فيضان النيل أوقف الزحف نحو القاهرة وانتهت الحملة مهددة لمدة تسع

سنوات. وكانت هذه آخر حملة صليبية نظمها بابا روما. بعد ذلك قاد الامبراطور فردريك الثاني الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٩) وتبعه الملك لويس التاسع الفرنسي بالحملة السابعة سنة ١٢٤٨ ضد مصر ففشلت كما فشلت الحملة الخامسة.

عاد الملك لويس بعد ٢٢ سنة الى تجديد الحملة الثامنة. لكنها ما كادت تحط في تونس حتى اصابها وباء مات فيه الملك واكثر الجيش. خلال هذه الحملات الصليبية الفاشلة وسيئة التنظيم، استولى العبيد الاتراك والشراكسة في الجيش المصري على الحكم وقضوا على الدولة الايوبية واقاموا في مصر وسوريا ما عرف بدولة "المماليك" (١٢٥٠ - ١٥١٧) فانتقلت اليهم مهمة صد الصليبيين. وقد ذكرنا ان المماليك صدوا هجوم هولاكو خان على سوريا في موقعة عين جالوت (١٢٦٠) فتفرغوا بعدها لحرب الصليبيين وكانت جهودهم ناجحة.

استولوا على انطاكية عام ١٢٦٨، وسقطت طرابلس (١٢٨٩)، وهما (١٢٩١)، وكانت اخر معقل صليبي وهكذا انتهت القصة الصليبية في بلاد المشرق بعد ان دامت ١٩٦ عاما ولم تخلف الا المزارع والفرقة وبقيت فلسطين والقدس من ذلك التاريخ في يد المسلمين الى ان خسروها في حربهم مع اسرائيل عام ١٩٦٧.

يلاحظ في الحملات الصليبية التي عددها باختصار انها كانت سيئة التنظيم، بعيدة عن مصادر تمويلها، متعددة القيادات، للقائمين بها اهداف مختلفة، قابلتها ابتداء من تولي السلطان صلاح الدين القيادة، جيوش من اهل البلاد خبيرة بالارض والمواقع، موحدة تحت قيادة واحدة بثت في المقاتلين حماس الجهاد للدفاع عن الدين والبلاد في وجه جيوش اجنبية وقد وقعت مهمة الدفاع ضد الصليبيين على عاتق سوريا وفلسطين ومصر ولم تشارك الخلافة العباسية والدول الاسلامية في شمال افريقيا وفي آسيا الوسطى بالمارك. وقد ذكرنا في الفصل السادس انه عندما بدأت الحملات الصليبية توجهت وفرد متعددة من البلاد التي احتلها الصليبيون الى بغداد لطلب نجدة الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي فلم تحظ بأي اهتمام.

أثار الحروب الصليبية

حتل كتاب مسلمون الحروب الصليبية معاني بعيدة تمبر عن شعور شعبي. فقالوا أنها كانت أول صدام بين جبهة اوروبية متحدة نوعا ما وبين الاسلام، وانها سبب سوء العلاقة المستمرة بين المسيحية والاسلام. من هؤلاء الكاتب السيد محمد اسد وهو من أصل يهودي بولوني اعتنق الاسلام وعاش فترة في الحجاز أيام الملك عبد العزيز ثم مقل الباكستان في الأمم المتحدة وترجم القرآن الى الانكليزية. يقول السيد اسد في كتابه "الطريق الى مكة"، وغيره من الكتاب المسلمين، ان الحروب الصليبية "سببت العلاقة بين أتباع الديتين وكانت شراً فكرياً مستديماً لأنها غذت الفكر الأوروبي الذي يزدري الاسلام، (١) وأن ما يفكر به الغربيون ويشمرونه عن الاسلام تابع من الانطباعات التي تكونت لديهم أثناء تلك الحروب، كما انها شجعت مسيحيي اسبانيا على استعادة بلادهم من الاحتلال الاسلامي" (٢) وهذا برأيه على ما يظهر، عمل منكر.

يناقش الغربيون هذا المنطق ريردزون عليه بما يلي :

يلاحظون أولاً، ان ذلك يعني بأنه لو لم يحاول الأوروبيون استعادة الاراضي المقدسة، ولو قبلوا بدوام الاحتلال الاسلامي لاسبانيا، ولو سكتوا عن تهديم القبايل التركمانية البدوية للامبراطورية البيزنطية واحتلال اراضيها الذي بدأ قبل الحروب الصليبية وانتهى باحتلال القسطنطينية عاصمة المسيحية الشرقية، ولو رضوا بالذل الذي كان يفرضه السلاطين المسلمون او بعضهم على المسيحيين باعتبارهم اهل ذمة، ولو لم يقاوموا الاحتلال العثماني لاوروبا بعد الحروب الصليبية، لكادت العلاقة بين المسيحية والاسلام على ما يرام، هذا يتوسع وينتشر ويفرض دينه ومفاهيمه على المجتمعات المسيحية، وتلك تتراجع وتنحصر دون ان تبدي مقاومة.

ويتابع الغربيون، ان القول بان الفكر المسيحي يزدري الاسلام منذ الحروب الصليبية لا يتفق مع الواقع. فالمسيحيون في القرون الوسطى بعد تلك الحروب، وفي زمن كانت الكنيسة مهيمنة على الاذهان، انفتحو على الحضارة الاسلامية ودرجوا علوم المسلمين واستفادوا منها وعلموها في جامعاتهم ونوا عليها ولم يزدروها ويهملوها ويرفضوها كما يفعل بعض المسلمين الان

بالنسبة للحضارة الأوروبية،

ويقولون، لماذا نحصل سوء العلاقة بين المسيحية والإسلام، إذا كانت موجودة في هذا العصر، إلى حالة جرت في القرن الثاني عشر ولا فحلتها لسلسلة متلاحقة من الاعتداءات والاحتلالات بدأت في القرنين السابع والثامن على بلاد الشرق الأدنى وشمال أفريقيا وجنوب أوروبا وإسبانيا، ثم تنامت في البلقان وأوروبا الشرقية إلى القرن العشرين. ليس هذا الاعتداء المتواصل والاستعمار الطويل أخرى بأن يكون مسئولاً عن سوء العلاقة؟

ثم أنه إذا كان للحروب الصليبية هذا الأثر الكبير على العقلية الأوروبية فجعلتها معادية للإسلام كما يقول الأستاذ محمد أسد وغيره، إلا يمكن القول أن تأثيرها كان أشد على العقلية الإسلامية إذ خلقت فيها روحاً سلبية رافضة لما جاء به الغرب من تفكير حديث ونظريات سياسية واجتماعية واقتصادية هي في أساس القوة الغربية المشكو منها.

وإذا كان هناك حقاً ازدياد غربي للمسلمين فلماذا فنسب إلى حروب مضى عليها ألف سنة ونسيها الناس ولا ننسب إلى الواقع الحالي أي إلى امتناع كثير من المسلمين من المساهمة بالحضارة الحديثة بحيث عندما يستعرض باحث غربي الدول الإسلامية القائمة وعددها ثلاث وأربعون لا يجد بينها إلا عدداً قليلاً تساهم بنشاط في الحضارة الحديثة وعلومها.

وأخيراً، لعل بعض المسلمين ينسبون التأخر الحالي إلى الاستعمار الغربي الذي شمل مناطق إسلامية عديدة منذ القرن التاسع عشر إلى نهاية الحرب العالمية الثانية. وفي هذا شيء من الصحة. لكن الغربيين يلاحظون أن الشعوب الإسلامية لما زال عنها الاستعمار منذ خمسين سنة، لم يستطع كثير منها أن ينشئ نظاماً عسكياً لحكم متمدن بل رضخت شعوبها لحكومات فاسدة من أهلها تعارس على مواطنيها أساليب من القهر والبطش والاستبداد والامتهان تفوق بشاعتها ما فعله الأجنبي وقد أدى كل ذلك إلى تأخر هذه الشعوب سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، وهذا سبب أخرى للزدياد.

قلنا في بداية هذا الفصل أن الرد الأوروبي على الفتوحات الإسلامية جرى في فترتين : الفترة الأولى هي التي استعاد فيها الأسبان بلادهم، وحارب الصليبيون لاستعادة الأراضي المقدسة. وختمت هذه الفترة بنجاح

السعي الاول وفشل المسعى الثاني.

اما الفترة الثانية من الرد الاوروبي فقد تراكمت مع ظهور عوامل الاحتلال الداخلية في الدولة العثمانية بعد فشل حصار فيينا الثاني سنة ١٦٨٢ واستمرت حتى زوال مؤسسة الخلافة (١٩٢٤) وإعادة الانراك إلى آسيا الصغرى مع احتلال معظم الاقطار الاسلامية في افريقيا وآسيا. فيما يلي سرد مختصر للرد الاوروبي في الفترة الثانية.

الامتداد الروسي إلى آسيا

في بداية القرن الخامس عشر برزت مدينة موسكو كزعيمة للبلاد الروسية ووجدت الامارات الروسية تحت قيادتها. وكان فلاديمير امير مدينة كييف قد اعتنق الديانة المسيحية سنة ٩٨٨ حسب الطقوس البيزنطية وبعده باقي الامراء. وبقي المذهب الاورثوذكسي دين الدولة الرسمي تربطه علاقة وثيقة بالدولة وبالعائلة المالكة الى زمن الثورة الشيوعية.

كان للروس هدفان في توسعهم : هدف تجاري محض تناول منطقة سيبيريا وكان امتدادهم فيها من الغرب إلى الشرق سريعا لا يُضاهي. فحوالي سنة ١٦٢٩ وصلت اول مجموعة صغيرة من الروس إلى الاورثيانوس الهادي بقرب مدينة اوخوتسك الحالية. وبنهاية ذلك القرن توصل الامتداد الروسي إلى احتلال شبه جزيرة كامتشاكا في اقصى شمال شرق سيبيريا فاصبحت سيبيريا بكاملها منطقة روسية.

اما الهدف الثاني للتوسع الروسي فكان حماية انفسهم من الغزوات المغولية والتركية التي استمبدتهم في القرون السابقة. في وقت لاحق امتزج هذا الهدف مع الهدف السياسي - الاقتصادي في الوصول إلى المياه الدافئة في البحر المتوسط والخليج الفارسي والاورثيانوس الهندي للتجارة وللانطلاق من القيد الجغرافي الذي يميّز تحركهم فاصطدموا بمصالح بعض الدول الأوروبية وعلى رأسها بريطانيا.

تولى عرش روسيا امراء من سلالة روريك منهم ايفان الثالث (١٤٦٢ - ١٥٠٥) الذي استولى سنة ١٤٧٨ على مدينة نوفغورود وعلى منطقة اعالي نهر الفولغا فاعترف له امراء الروس بالتقدم عليهم.

خلف ايفان ابنه فاسيلي الثالث الذي تابع توسعه، ثم جاء ايفان الرابع «المخيف» ابن فاسيلي (١٥٢٢ - ١٥٨٤) الذي اتخذ لقب «قيصر كل روسيا» واستولى على اماره قازان المغولية (١٥٥٢) ثم على استراخان فاصبح مجرى نهر الفولغا بكامله في ايدي روسية ولم يبق من الامارات المغولية في روسيا الا شبه جزيرة القرم.

في ذلك الزمن «القرن السادس عشر» استمر التفاعل الالهجاني بين الدولة والكنيسة الارثوذكسية فنشأت ثقافة وطنية موحدة ودولة مركزية قوية تركزت على امتزاج الشعور الوطني والديني مع السلطة الملكية غير المقيدة. وبقيت هذه صفة الثقافة والوطنية الروسية الى زمن الانقلاب الشيوعي.

توفي آخر ملك من سلالة روريك عام ١٥٩٨ فسادت البلاد خمس عشرة سنة من الاضطرابات انتهت عندما انتخب «مجلس البلاد» سنة ١٦١٨ قيصرًا جديدًا هو ميشيل رومانوف (١٦١٢ - ١٦٤٥) الذي أسس سلالة رومانوف المالكة التي حكمت روسيا ثلاثماية سنة الى عام ١٩١٧.

تولى بطرس الأكبر الحكم (١٦٨٢ - ١٧٢٥) لدفع المجتمع الروسي قسرا ليحاكي المجتمعات الأوروبية الغربية التي زارها ونقل منها الى بلاده كثيرا من الصناعات والعلوم، كما أجرى اصلاحات في نظام الحكم والجيش والكنيسة، واستولى على مناطق واسعة حول بحر قزوين.

في عهد الامبراطورة كاترين الثانية (١٧٦٢ - ١٧٩٦) الذي تزامن مع السلطان العثماني مصطفى الثالث نشبت حرب بين البلدين دامت ست سنوات (١٧٦٨ - ١٧٧٤) وانتهت بانتصار روسيا وبمعاهدة كوتشوك كاينارجي (مدينة في بلغاريا) التي وقعها الطرفان في ٢١ يوليو ١٧٧٤ وبموجبها انتهت السيطرة العثمانية على البحر الاسود واستولت روسيا على مواقع في شبه جزيرة القرم التي ضمتها نهائيا بعد تسع سنوات فلم يعد للمغول وجود في روسيا. في ذلك العهد ايضا توسع الروس في السهول شرق جبال الأورال وحول بحر قزوين.

حازت روسيا بموجب المعاهدة ايضا حق انشاء قنصليات ايضا شاعت في السلطنة العثمانية، وحق العبور الحر في المياه العثمانية وفي الدردنيل واليوسفور. بالإضافة الى ميزات تجارية، كما اقرت المعاهدة لروسيا بحق حماية

الرعايا العثمانيين الأرثوذكس في مقاطعات مولدافيا ووالاشيا (رومانيا الحالية) وفي جزر بحر ايجه. وفي وقت لاحق فسرت روسيا هذا الحق بأنه يشمل حماية الأرثوذكس في كل مناطق الدولة العثمانية.

في جهود القياصرة اسكندر الاول ونقولا الاول واسكندر الثاني واسكندر الثالث (١٨٠١ - ١٨٩٤) أي في فترة قرن كامل كان التوسع الروسي في إيران وآسيا الوسطى الاسلامية لا يُرَد.

في سنة ١٨١٢ تخلت إيران لروسيا من شمال مقاطعة أذربيجان وعن شبه جزيرة باكو ثم عن مقاطعة أريغان الإيرانية (١٨٢٨) كما استولت روسيا على جورجيا وجزء من القوقاس. وسنة ١٨٥٧ تخلت إيران لروسيا في عهد الامبراطور اسكندر الثاني (١٨٥٥ - ١٨٨١) عن القسم الغربي من أفغانستان الحالية بموجب معاهدة باريس بما في ذلك مدن بخارى وطاشقند وسمرقند وكيفا والشاطيء الشرقي لبحر قزوين. وسنة ١٨٦٤ تغلب اسكندر الثاني على مقاومة قبائل الشاشان والشركس المسلمين في شمال القوقاس واحتل بلادهم. واستمر الزحف الروسي. ففي سنة ١٨٨١ استولى القيصر اسكندر الثالث (١٨٨١ - ١٨٩٤) على مدينة مرو في أفغانستان وعلى منطقة تاجاكستان والقسم الأكبر من بلاد التركمان في آسيا الوسطى. في المقابل بسطت بريطانيا نفوذها على قسم كبير من بلوخستان فقد كان البلدان يتزاحمان على النفوذ في آسيا.

وفي سنة ١٩٠٧ سوت روسيا وبريطانيا خلافتهما في الشرق الأوسط وانفتتا على تقسيم إيران الى منطقتي نفوذ : لروسيا القسم الشمالي ولبريطانيا القسم الجنوبي، ودركتا المنطقة الوسطى للشاه.

وهكذا شمل الامتداد الروسي ازالة الاحتلال المخولي والعثماني لأراضي روسية كما شمل احتلال أراضي واسعة من إيران والمناطق الاسلامية في القوقاس وأذربيجان بالإضافة إلى بلاد آسيا الوسطى الاسلامية التي تشكل الآن الجمهوريات السوفياتية الاسلامية والتي تزيد مساحتها على مساحة روسيا الأوروبية.

وفي ما يلي لائحة باسماء هذه الجمهوريات وعدد سكانها ضمن الاتحاد السوفياتي حسب احصاء صدر عام ١٩٨٧.

أوزبكستان	١٩ ، ١٠
كازاخستان	١٦ ، ٢٠
أذربيجان	٦٠ ، ٨٠
طاجيكستان	٤ ، ٨
كيرجيزستان	٤ ، ١

المجموع ٤٢ ، ١

(يبلغ مجموع سكان الاتحاد السوفياتي ٢٨١،٧ مليون، وسكان الجمهورية الروسية وحدها ١٤٥،٢ مليون، وسكان أوكرانيا ٥١،٢ مليون).

الامتدادات للقوي في المنطق العثمانية الأوروبية

ننتقل إلى دور آخر من الامتداد الغربي وهو يشمل مناطق أوروبا الشرقية وحوض البحر المتوسط. لم تكن دول أوروبا متفتحة على موقف موحد تجاه الوجود العثماني، فقد أنشأ ملك فرنسا فرانسوا الأول (١٥١٥ - ١٥٤٧) علاقات طيبة مع السلطان سليمان القانوني وحصل على اتفاقية سنة ١٥٢٦ عرفت باسم "الامتيازات" تعطي الفرنسيين معاملة مميزة في أراضي السلطنة كحرية التجول والتجارة مع بقائهم خاضعين للقانون والمحاكم الفرنسية في علاقاتهم مع بعضهم، وامتيازات أخرى في علاقاتهم مع العثمانيين، مع ضعف الدولة العثمانية حازت دول أوروبية أخرى على امتيازات مماثلة ثم توسعت هذه الامتيازات فصارت تشمل في نهاية القرن الثامن عشر حماية الرعايا العثمانيين المسيحيين لتخفيف وطأة معاملتهم كرعايا "ذميين" أي مواطنين من درجة ثانية فازداد بذلك تدخل الدول الغربية في شئون السلطنة الداخلية.

ان حسن العلاقة بين العثمانيين وفرنسا لم يشمل الدول الأوروبية الأخرى، فلما حاول العثمانيون احتلال جزيرة قبرص تصدى لهم "الحلف المقدس" المؤلف من بابا رومية وفيليب الثاني ملك اسبانيا وجمهورية البندقية

واشتبك الفريقان في معركة ليبانتو البحرية في الأدرياتيك سنة ١٥٧١ فتحطم الاسطول العثماني.

ولما حاصر السلطان محمد الرابع مدينة فيينا سنة ١٦٨٢ شكّل البابا لينوسنت الحادي عشر جبهة من ملك بولونيا جان سوبييسكي وشارل دوق لورين وامراء بافاريا وساكسوني ومقاطعات المانية اخرى واجبروا العثمانيين على التراجع.

في القرنين السابع عشر والثامن عشر بدا ضعف الامبراطورية العثمانية واضحا وصار يُرمز اليها في اوروبا باسم "رجل اوروبا المريض". ورافق ذلك مع تيقظ الشعوب المسيحية في الشعوب البلقانية ومع شهية الروس والتسويين للتوسيع فتقدمت الدولتان في الخطوط الاضعف مقارمة. تقدمت روسيا في مناطق البحر الاسود وبحر قزوين ثم في آسيا الوسطى كما مر معنا، وتقدمت النمسا مع مجرى نهر الدانوب وروافده. والدانوب من اهم انهار اوروبا ينبع في الغابة السوداء في ألمانيا الغربية ويجري عبر ما يعرف حاليا باسم ألمانيا والنمسا وتشكسلوفاكيا وهنغاريا ويوغوسلافيا وبلغاريا ورومانيا حيث يصب في البحر الاسود وهو صالح للملاحة على طول مجراه فشكل بذلك طريقا سهلا للاتصال بين جميع هذه المناطق.

ثورة اليونان

كانت اليونان اول منطقة ثارت على العثمانيين سنة ١٨٢١ وساندها رأي عام اوروبي متأثر بما للثقافة اليونانية القديمة من علاقة وثيقة بالحضارة الغربية فانفقت روسيا وبريطانيا وفرنسا في معاهدة لندن (١٨٢٧) وارسلت اسطولا مشتركاً لمساعدة اليونان على تحقيق استقلالها فاشتبك مع اسطول عثماني - مصري في خليج نافارينو في اليونان سنة ١٨٢٧ ودمره بكامله. بعدها أعلن الامبراطور نقولا الاول الحرب على العثمانيين واجتازت جيوشه نهر الدانوب وجبال البلقان ووصلت الى مدينة ادرنة عام ١٨٢٩ وهي قريبة جدا من القسطنطينية فانهارت المقاومة العثمانية ووقع السلطان محصور الثاني معاهدة ادرنة سنة ١٨٢٩ قبل فيها جميع الشروط الروسية فاعلنت اليونان استقلالها سنة ١٨٢٢، وحصلت بلاد الصرب ومقاطعتا مولدافيا

وإليشيا (في رومانيا) على استقلال داخلي، واعتبرت المعاهدة القيصر ضامنا لتنفيذ الاتفاقية. وهكذا أصبح القيصر يشارك عمليا بالسيادة على اتسام كبيرة من أراضي السلطنة في البلقان وحصل على ما يشابه حق الحماية على الولايات الثلاث.

كان لهزيمة العثمانيين والمصريين في معركة نافارينو اثر آخر. فقد طلب محمد علي ياشا والي مصر (١٧٦٩ - ١٨٤٩) من السلطان محمود الثاني ضم سوريا اليه كمكافئة على مناصرته، ولما رفض السلطان زحف جيش مصري على الاناضول وتغلب على الجيش العثماني سنة ١٨٢١ وكاد يدخل اسطنبول لولا ممانعة القيصر نقولا. وتجددت الحرب سنة ١٨٢٩ فتدخلت الدول الأوروبية وتقرر في معاهدة لندن (١٨٤٠) بقاء سوريا ضمن السلطنة والاعتراف لمحمد علي وذريته بحق الولاية على مصر. وقد استمر ذلك حتى حصول الانقلاب العسكري المصري عام ١٩٥٢ الذي اطاح بالملك فاروق آخر سلالة محمد علي.

بعد ظهور ضعف الدولة العثمانية في حرب اليونان وفي الحرب مع المسيبيين ادرك الامبراطور نقولا الاول ان هذه الدولة سائرة الى الزوال وان وراثتها سيكونون روسيا وبريطانيا والنمسا وفرنسا. لذلك كانت روسيا تسعى باستمرار لعقد اتفاق مع هذه الدول لاقتسام الامبراطورية العثمانية. لكنه لما كان كل اتفاق من هذا النوع سيجعل القسطنطينية ومضائق البوسفور والدردنيل من حصة روسيا مما سيفتح الطريق امامها للوصول الى البحر المتوسط وتهديد مواصلات بريطانيا مع مستعمراتها في آسيا، فان سياسة هذه الدولة تركزت على ابقاء المضائق تحت سيطرة السلطنة العثمانية الضعيفة واقتضاء روسيا عنها. اما النمسا التي كانت امبراطوريتها تضم او تجاور شعوبا سلافية فكانت تسعى الى اضعاف النفوذ الروسي لتلا يحرك الشعوب السلافية ضدها.

الاصلاحات العثمانية

في فترة الضعف هذه حاولت الدولة العثمانية اجراء بعض الاصلاحات الداخلية فقضى السلطان محمود الثاني على فرق الانكشارية (١٨٢٦) وانشأ

جيشا حديثا على النمط الاوروبي. وخلفه ابنه السلطان عبد المجيد الاول (١٨٢٩ - ١٨٦١) الذي تابع الاصلاحات فاصدر سنة ١٨٣٩ نخط شريف غولخانه ثم نخط همايون ١٨٥٦ لتحديث اجهزة الدولة. وبسوجبها اميد تنظيم الجيش (١٨٤٢) وفرضت الخدمة الاجبارية، وصدرت قوانين جزائية وتجارية وبحرية، وتأسست محاكم مختلطة من قضاة عثمانيين واروروبيين للنظر في قضايا مدنية وجزائية، وتشكلت وزارة للتعليم مع مدارس ابتدائية وثانوية.

كان لقانون ١٨٥٦ (٢) اهمية عملية ورمزية كبيرة لانه اقر لأول مرة في دولة اسلامية هي مقر الخلافة مبدأ المساواة السياسية والمدنية بين الرعايا المسلمين وغير المسلمين، وألغى رسميا القيود التي فرضتها "عهدة عمر"، وأدان بوضوح مبدأ اذلال غير المسلمين (المادة الثامنة)، كما فتح مناصب الدولة على اختلاف درجاتها امام المواطنين دون تمييز بسبب المذهب او العرق.

خلف السلطان عبد المجيد الاول اخوه السلطان عبد العزيز ثم ابنه السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٩) الذي تابع سياسة "التنظيمات" فاعلن سنة ١٨٧٦ اول دستور لدولة اسلامية ينص على الحريات التي طورتها الدول الاوروبية وعلى انشاء مجلس تشريعي، لكن المجلس ما كاد يجتمع في شهر مارس ١٨٧٧ حتى اصدر السلطان قرارا بحله ثم علق الدستور في فبراير ١٨٧٨.

مع هذه التقلبات في الاتجاه الاصلاحى كانت احوال السلطنة المالية تزداد سوءاً، فقد عقدت السلطنة اول قرض اجنبي سنة ١٨٥٤ وما كاد يحل عام ١٨٧٥ حتى بلغ الدين العام مائتي الف مليون ليرة انكليزية وبلغت الانقاسات السنوية مع الفوائد اثني عشر الف مليون ليرة سنوياً اي ما يزيد عن نصف موارد الدولة. وكانت الدول والبنوك الدائنة في ذلك الزمن تتوقع ان يدفع المدين دينه. ولما عجزت الدولة العثمانية عن السداد اضطرت سنة ١٨٨١ الى قبول رقابة اوروبية مالية على موارد الدولة وخصصت ايرادات معينة لدفع انقاسات الدين من طريق "مديرية الدين العام" التي كانت تستوفي الضرائب المخصصة تحت اشراف اجنبي.

احتدمت المنافسة بين الدول الأوروبية الكبرى على النفوذ في الدولة العثمانية وتعارضت مصالحها مما أدى إلى حرب للقرن (١٨٥٣ - ١٨٥٦) التي تحالفت فيها تركيا وبريطانيا وفرنسا ضد روسيا. وقد انتهت الحرب بمعاهدة باريس (١٨٥٦) التي حاولت إيقاف الزحف الروسي على السلطنة العثمانية والحد من نفوذه حتى يتساوى مع نفوذ الدول الأوروبية الأخرى. ولم يكن هذا المسمى ناجحاً.

لم يمض وقت طويل حتى صار سكان مقاطعتي البوسنة والهرسك سنة ١٨٧٥ وناصرتهم بلاد الصرب والجبل الأسود تثق جميع هذه المقاطعات حالياً في دولة يوغوسلافيا) وسارعت روسيا لمساعدتهم فأعلنت الحرب على العثمانيين في شهر أبريل ١٨٧٧ ودخلت جيوشها رومانيا. وفي شهر يناير ١٨٧٨ انسحبت الجيوش الروسية على شاطئيه بحر مرمرة مقابل مدينة القسطنطينية فاضطر السلطان عبد الحميد الثاني إلى طلب الصلح والقبول بشروط معاهدة سان ستيفانو في ٢ مارس ١٨٧٨.

لكن بريطانيا والنمسا اهتمت على شروط هذه المعاهدة وما حققته لروسيا من مكاسب، فانعقد مؤتمر برلين (١٨٧٨) لإعادة النظر بهذه المعاهدة. جاءت قرارات المؤتمر معادية لروسيا وحرمتها من نتائج انتصاراتها، وأرضت مصالح بريطانيا والنمسا، وحرمت شعوب البلقان من الاستقلال، وغرست بذور ازعاجات مقبلة في المنطقة، لكنها مددت في عمر الدولة العثمانية، ومنعت الأساطيل الحربية (أي الروسية) من عبور مضائق الدردنيل والبوسفور، وسلمت مقاطعتي البوسنة والهرسك إلى الدولة النمساوية خلافاً لرغبة سكانها. فازداد النفوذ النمساوي في البلقان على حساب المصالح الروسية. وهكذا نجحت الدولة العثمانية مؤقتاً من التغلّك بسبب تنافس الدول الأوروبية فيما بينها.

منطقة البحر المتوسط

في القرن التاسع عشر طمعت بريطانيا وفرنسا بالمناطق العثمانية القائمة على شاطئيه الجنوبي فاحتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ واتبعتها بالحماية على تونس سنة ١٨٨١ ثم بالحماية على مراكش سنة ١٩١٢. واحتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢ ثم السودان.

واحتلت إيطاليا ليبيا سنة ١٩١١ فاصبح الساحل الجنوبي للبحر المتوسط بكامله تحت السيطرة الأوروبية.

ثم استولت الدولتان بريطانيا وفرنسا على الساحل الشرقي لسوريا ولبنان وفلسطين، بنهاية الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) تحت نظام الانتداب فاصبح البحر الابيض المتوسط بحيرة اوروبية.

حروب البلقان (١٩١٢ - ١٩١٣)

ناشي الى اخر مرحلة من زوال الوجود الاسلامي في اوربا. كان هدف الحرب رغبة الدول المسيحية الصغيرة في البلقان التي استقلت عن السلطنة العثمانية وهي اليونان وبلغاريا وصربيا والجبل الاسود بتحرير ما تبقى من اراضي مقدونيا واقتسامها. وقد شكلت هذه الدول حلفا واعلنت الحرب على الدولة العثمانية بتأييد روسيا في شهر اكتوبر ١٩١٢. وكان حزب تركيا الفتاة قد استولى على السلطة في تركيا منذ سنة ١٩٠٨ لكنه لم يستطع الصمود امام هجوم الحلفاء الذين استولوا على مقدونيا وحاصروا القسطنطينية في شهر نوفمبر فاستغاث الاثراك بالدول الأوروبية التي وافقت على عقد مؤتمر في لندن (٢٠ مايو ١٩١٣) تقرر فيه تخلي العثمانيين عن جميع الاراضي في البلقان باستثناء القسطنطينية ومساحة صغيرة حولها على الشاطئ الأوروبي تضم مدينة ادرنة. وبذلك خرجت الدولة العثمانية من اخر موقع لها في أوروبا.

يلاحظ ان ردة أوروبا على الفتوحات الاسلامية بدأ رداً دينياً في اسبانيا، وفي الحروب الصليبية، وفي الدفاع عن قبرص، وفي حصار فيينا الثاني في القرن السابع عشر.

وكان هدف الرد الروسي إزالة ما تبقى من الاحتلال المغولي وضمان عدم تكرار الغزوات التي كانت آسيا الوسطى مصدرها. وقد تم ذلك باحتلال كامل تلك المنطقة، ومع ان روسيا القيصرية كانت دولة مسيحية ملتزمة فلا يبدو ان هدفها الرئيسي كان نشر النصرانية في البلاد الاسلامية التي ضمتها. اما في منطقة البلقان الراضحة تحت الاحتلال العثماني، فقد شكّل الدين عنصراً من عناصر الشعور الوطني ولا شك انه لعب دوراً في حروب تحرير

هذه البلاد. لكن هذا الشعور الديني كان مفقودا في سياسة الدول الأوروبية الكبرى في القرن التاسع عشر والعشرين التي تصرفت بدافع مصالحها السياسية والاقتصادية. وقد رأينا ان عصر الامبراطورية العثمانية طال في البلقان نحو قرن من الزمن لان مصالح بريطانيا وفرنسا والنمسا كانت متعارضة مع مصالح روسيا. بل رأينا ان بريطانيا وفرنسا تحالفتا مع الخلافة الاسلامية ضد روسيا المسيحية في حرب القرم وفي الغاء معاهدة سان ستيفانو مما يعني ان الشعور الديني لعب دورا رئيسيا في سياسة الدولتين الأوروبيتين.

ولا يمكن القول ان فرنسا وبريطانيا وإيطاليا انحلت الشاطيء الجنوبي ثم الشاطيء الشرقي من البحر الأبيض المتوسط بدافع ديني فقد كانت المصالح الاقتصادية والمنافسة السياسية واضحة في هذه الاحتلالات وقدمت على اي دافع اخر.

شمل الامتداد الأوروبي دولا اسلامية اخرى خارج أوروبا وبلاد الشرق الاوسط وآسيا الوسطى. فقد حكم الهولنديون اندونيسيا، وحكم الانكليز الملايو والجزير التي حولها، والهند بسكانها الهندوس والمسلمين ولم يخرج الأوروبيون من هذه المناطق الا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وكان الدافع لهذه الاحتلالات تجاريا واقتصاديا.

وهذا يختم بحثنا عن الرد الأوروبي على الفتوحات الاسلامية.

* * *

مراجع الفصل

- ١ - أسد محمد، الاسلام على مفترق الطرق (بالانكليزية) ص ٥٦-٥٢.
- ٢ - أسد، محمد، الطريق الى مكة، (بالانكليزية) ص ٥ و ٧.
- ٣ - شابيرو، لوران وآلبي، السياسة والقلبات في الشرق الاوسط (بالفرنسية) ص ٥٢.

الختامة

تستهدف الأديان تزويد الإنسان بقواعد أخلاقية ثابتة قبيلن له الصحيح من الفاسد، والحق من الباطل، والصواب من الخطأ، وتميز بين العمل الطيب والمنكر، وبين الصدق والكذب، وبين الشرف والرذيلة، وتحثه على الاستقامة وإتباع الطريق القويم في تصرفاته وفي حياته الخاصة والعامة بحيث تصبح للقيم الأخلاقية جزءاً من التركيب النفسي للفرد والمجتمع يمارسها الجميع بعفوية دون الشعور بضغط أو إكراه.

وقد قلنا في المقدمة أن الإسلام من أشد الأديان حرصاً في هذا الزمن على التمسك بأخلاقياته وتقاليده في مجتمعاته مما يؤهله لتقديم نظرية سياسية مستقلة ينبعث منها نظام حكم يختلف عن الأنظمة المعروفة حالياً وقد يتفوق عليها.

تتمحور النظرية السياسية قبل كل شيء حول علاقة المواطن بالسلطة والتوازن الذي يجب أن يسود هذه العلاقة بحيث لا يظفي الحاكم ولا تغلب الرعية نحو القوضى . وأهم ما في ذلك الحريات السياسية والمدنية للمععب وطريقة صياقتها ثم كيفية مشاركة الشعب بالحكم .

عند بحث هذه الأمور تظهر أفكار مختلفة قدمو إلى نظريات متباينة لكنه مهما تعددت الاجتهادات فلا بد في النتيجة من أن يختار المجتمع نظرية فلاهم اوضاعه فينظمها ويسير بموجبها حتى يحل الاستقرار فلا يبقى الوضع عرضة لنزوات الحاكم أو انتفاضات شعبية متهورة وعابرة .

وقد أدركت الشعوب أن الضامن الوحيد لهذا الاستقرار هو المؤسسات السياسية التي تحظى بشرعية شعبية ناتجة عن موافقة المواطنين وقبولهم العلني أو الضمني بحيث تقف هذه المؤسسات بوجه تجاوزات الحكام، وتحول التيارات الشعبية إلى مجاري سياسية سلمية، فتشكل أفنية للحوار بين النوازع المتعارضة

ضمن المجتمع، وبين الحاكمين والمحكومين تفاديا للعنف والفوضى .
تحتاج كل نظرية سياسية الى معالجة المواضيع التالية التي ذكرناها في
خلاصة الفصل الثالث :

اولا : الحريات السياسية والحقوق المدنية التي يتمتع بها الفرد والمجتمع
والضمانات التي تحميها.

ثانيا : حق المواطنين بالمشاركة بالحكم وتنظيم اسلوب هذه المشاركة .

ثالثا : كيفية اختيار الحاكم وتنصيبه ودور الشعب في ذلك .

رابعا : كيفية انتقال السلطة من الحاكم الى من يليه بصورة سلمية
وبموجب قواعد مقررة ومعروفة مسبقا .

خامسا : صلاحيات الحاكم وحدوده في ممارسة السلطة .

سادسا : الضوابط التي تمنع الحاكم من الطغيان على الارواح والاموال
والحريات .

تجاه تأكيد الكثيرين ان الاسلام انشأ بالفعل نظاما سياسيا فذاً مستقداً
من الشريعة مارسه الخلفاء الراشدون فقد حاولنا في الفصول السابقة ان
نستطلع ماهية هذا النظام مما ورد عنه في الاصول، ومن تصرفات الخلفاء
والسلطين .

تضمنت الاصول مبادئ واضحة في التعامل السياسي في بعض المسائل
الهامة .

وفيها اشارات عامة في مسائل اخرى تحتاج الى تفصيل وتوضيح .
وغابت عن الاصول عناصر عديدة من مقومات النظرية السياسية لم يرد
لها ذكر .

اما بالنسبة للاستفادة من التعامل السياسي، فقد استعرضنا الغتوحات
الاسلامية واحوال ٢٣ دولة نشأت عنها قامت في الهند، وفي آسيا الوسطى، وفي
الشرق الارسط والادنى، وفي روسيا واوروبا، وفي شمال افريقيا واسبانيا، ضمت
شعوبا مختلفة باجناسها ولغاتها وثقافات ومواطنها الجغرافية لا يجمع بينها الا
الدين . وكانت كلها تلتزم بالشريعة الاسلامية في حياتها السياسية والاجتماعية .
فهل طورت هذه الدول على مدى القرون الطويلة نظاما سياسيا استمدته من
تعاليم الاسلام ؟

هذا ما حاولنا ان نتبينه في بحثنا فوجدنا الاوضاع التالية :

البداءة

بقي الحكم الاسلامي في جميع عهوده قريبا جدا من البداءة وهي ادنى مراتب التطور الاجتماعي والثقافي والسياسي، فما كاد الغاتحون العرب البدو يتحضرون في القرنين الثامن والتاسع حتى استولى المبيد الاثراك على السلطة في الخلافة العباسية، ثم داهمتهم القبائل البدوية الديلمية والتركية ثم المغولية ابتداء من القرن العاشر مع آل بُؤنه الى القرن الخامس عشر مع تيمورلنك ومن خلفه، وقد احتلت هذه القبائل المساحات الشاسعة في آسيا الوسطى التي تشكل الان الجمهوريات الجنوبية في الاتحاد السوفياتي، وأفغانستان، وبلاد خوارزم، وإيران، وبلاد الشرق الاوسط، والناضول، ثم امتدت الى البلقان وأواسط اوروما، وشرقا الى الهند التي انشأ الاثراك فيها دولا عديدة ذكرناها.

كانت موجات القبائل التركية متتابعة ما تكاد تستقر موجة وتتحضر حتى تأتي موجة ثانية تعيدها الى البداءة. وفعل العرب والبربر مثل ذلك في شمال افريقيا واسبانيا.

بعد العرب والاثراك جاءت موجات القبائل البدوية المغولية مثقلة بجنكيز خان (١١٥٥-١٢٢٧) وحفيده هولاكو خان (١٢١٧) والقبيلة الذهبية في روسيا (١٢٥٥) ثم غزوات تيمورلنك (١٢٢٩-١٤٠٥) الذي دمر جميع الدول الاسلامية واعادها الى الحالة البدائية.

يجب الملاحظة ان القبائل التركية لم تدخل في الاسلام مندخرة ومغلوبة كالشعوب السامية بل قبل بعضها الاسلام وهي في موطنها وبقي كثير منها وثنيا، وكلها دخلت الاقطار الاسلامية غازية فاتحة. اما المغول ففتحوا البلاد الاسلامية وهم وثنيون وفرضوا قانونهم (الياسا) على المسلمين بدل الشريعة ولم يدخلوا في الاسلام الا بعد فترة طويلة، وهكذا وقع للعالم الاسلامي في آسيا الوسطى والشرق الاوسط وشمال افريقيا تحت سيطرة دول وجيوش تركية - مغولية طيلة سبعة قرون.

في مجتمعاتنا البدوية يصعب علينا ان ندرك معنى البداءة وأثرها في المجتمع لظننا اننا ابتعدنا عنها في مدنها وريفنا المستقر، لكن ظننا ليس في

محله لان البدولة لا تزال مستقرة بينما تشكل جزءا من محيطنا وقرائنا في الجزيرة العربية والعراق والاردن وسوريا وليبيا والسودان وتونس والجزائر والمغرب، وأقل من ذلك في مصر. ولا تزال العلاقة بين البدو والحضر في جميع هذه البلاد علاقة عدائية معرضة للانفجار اذا لم تضبطها قوة سياسية قادرة. ومع وجود البدولة يبقى تأثيرها فاعلا في عقلية هذه الشعوب.

وصف ابن خلدون (١٢٢٢-١٤٠٦) البدو العرب الذين دخلوا شمال افريقيا وصفا دقيقا ينطبق على جميع اجناس البدو الى اليوم. قال : "انهم أهل انتهاب وعيث (أي يخربون دون ان يكون لهم فائدة من التخريب) ينتهبون ما قدروا عليه من غير مذابة ولا ركوب خطر ثم يغتزون الى القفر، ولا يذهبون الى المحاربة الا للدفاع عن انفسهم. فكل امر مستصعب عليهم فهم تاركوه الى ما يسهل عنه ولا يعرضون له. اما الاراضي المبسوطة متى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة فهي نهب لهم يرددون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها حتى يصبح أهلها مغلبين لهم الى ان يتقرض عمرانهم.

"وهذه الطبيعة مناقضة للعمران ومناقية له. فغاية الاحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتنقل وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومنافق له، فالحجر مثلا انما حاجتهم اليه لنصبه اثافي للقدر فينقلونه من المباني ويخربونها عليه ويعدونه لذلك. والخشب ايضا انما حاجتهم اليه ليقيموا منه عمدا لخيامهم ويتخذوا للاوقاد منه فيخربون السفك لذلك. فصارت طبيعة وجودهم مناقية للبناء الذي هو اصل العمران.

"وايضا فطبيعتهم انتهاب ما في ايدي الناس، فرزقهم في ظلال رماحهم وليس عندهم في اخذ مال الناس حدة ينتهون اليه بل كلما امتدت اعينهم الى متاع او ماعون نهبوه. فاذا تم اقتدارهم على ذلك بالغلب والملك بطلت السياسة في حفظ اموال الناس وخراب العمران.

"وهم ايضا متنافسون في الرياسة. وقل ان يسلم أحد منهم الامر لغيره ولو كان أباه او أخاه او كبير عشيرته الا في الاقل، فيتمدد منهم الحكام والامراء وتختلف الايدي على الرعية في الجباية والاحكام فيفسد العمران وينتقص.

"وانظر الى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الاوطان كيف تقوض عمرانهم وافقر

ساكنه وتبدلت فيه الارض غير الارض. فاليسن ارضهم خراب الا قليلا من الامصار. وحراق العرب كذلك قد خرب عمران الذي كان للفرس، والشام لهذا العهد كذلك، وافريقية والمغرب لما جاز اليها بنو هلال وبنو سليم منذ اول المائة الخامسة هجرية فالقرن الثاني عشر) وتعمرسوا بها ثلاثماية وخمسين سنة، قد لحق بها الدمار وعاد عمرانها خرابا كله بعد ان كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمراناً تشهد بذلك اثار العموان وتماثيل البناء وشواهد القرى". (١١) انتهى كلام ابن خلدون

فعل البدو الاتراك في بلاد الشرق الاوسط والاناضول منذ القرن الحادي عشر مثلما فعل البدو العرب فقد استعمروا ينهبون المزارعين ويهدمون القرى والمزروعات عاما بعد عام حتى قضوا على العمران وحولوا الاراضي الزراعية الى مراعي لمواشيهم. اما بدو المغول فقد فاقوا في التخريب والتدمير من سبقهم.

لم تتغير طبيعة البدو على مدى العصور فبعد ستماية سنة من وصف ابن خلدون لهم، جاء الفيلسوف والرحالة اللبناني امين الريحاني يصيف في كتاب "تاريخ نجد الحديث" ما شاهده في نجد في فترة الخلاف بين الملك عبد العزيز والاخوان الوهابيين في العشرينات من هذا القرن. قال :

"البدو مثل ذوات الاجنحة طيارون او ان لهم ميزة الزنبق. رفاقك في الطريق اليوم واعداؤك غدا. ولا اظنهم لولا الجنة والحدود يخضعون لرب الكائنات. اما الذين عندهم فكالرداء يلبسونه ردحا من الزمن فيغسلونه مرة او مرتين ثم يلبسونه مقلوبا، ثم ينبدونه وقد تمرق نبذ التواة.

"يقولون : كيف نتوضأ ونحن نيفي الماء للشرب، ولما الصوم والسنة كلها عندنا رمضان، ولما الصلاة وليس لله وقت يسمعا.

"وكانوا كذلك في ولائهم لهذا الامير او ذاك. فما الفرق ورتك بين ابي مقترن وابن هاشم، او بين ابن الصباح وابن الرشيد. كلهم عرب يقيمون في بلاد العرب ويغزون غزو العرب ونحن ان حاربنا مع هذا او ذاك عرب.

"ما تغير العرب من ايام الرسول وايام مسيلة وابي طاهر. دينهم حاجات لتلك الرداءات، وولاؤهم غايات لتلك الخيافات، فلطالما ارتدوا وخانوا

وعادوا فائزين من أيام عبد العزيز الاول (١٧٦٥-١٨٠٢) الى عبد العزيز الثاني (١٨٠٢-١٩٥٢) وهم كما وصفناهم لا يوالون طويلا ولا يعادون طويلا. لا يثبتون ولا يستقيمون في مسراهم او في مفراهم.

البدو سيف في يد الامير اليوم وخنجر في ظهره غدا. مجاهدون اذا قيل غنائم، متمارضون اذا قيل جهاد. يحاربون ما زلوا آمنين على اموالهم وانفسهم، يقرّون شاردين عند اول خطر يلوح لهم*. (٢١) تنتهي كلام الريحاني بوصف البدو وصفا مشابها الكولونيل توماس لورانس في كتابه "عمدة الحكمة السبعة" وهو الذي قاد فريقا من بدو الحجاز والاردن في الثورة العربية الكبرى (١٩١٧) ضد الجيش التركي.

ولما كانت البداوة متلازمة مع الجهل والخراب، ومعادية للمعمران كما رأينا، فان رؤساء هذه القبائل العربية والبربرية والتركية والمغولية حكم اكثرهم البلاد الاسلامية حكما بدائيا قائما على البطش والاستبداد ولم تكن عندهم الاهلية او الرغبة لتكوين نظرية سياسية تضبط تصرفاتهم.

عدم الاستقوار السياسي

من الدول التي استمرضاها وعددها ثلاث وثلاثون، نجد ان خمس دول فقط نفذت اوامر الشريعة بنشر الاسلام بواسطة الجهاد بعد الخلفيتين عمر وعثمان هي : الدولة الاموية، والدولة السلجوقية في الاناضول، والقبيلة الذهبية في روسيا، والدول التركية والمغولية في الهند، والدولة العثمانية في اوربا وروسيا. اما الدول الاسلامية الباقية وعددها ثمان وعشرون فلم تكثرث بالجهاد بل دارت تنهش بعضها بعضا بشراسة ونهم. فالدولة الاموية قضى عليها العباسيون، وهؤلاء وقعوا تحت سيطرة العبيد الاتراك بعد اقل من قرن ثم تحت سيطرة آل بويه وهم شيعة من بلاد الديلم. وهؤلاء تغلب عليهم آل سلجوق الاتراك وحكسوا العباسيين مكانهم الى ان قضى عليهم وعلى الخلافة العباسية هولاكو خان المغولي الوثني، كما قضى جدّه جنكيز خان على دولة خوارزم.

وقامت دولة آل سامان في مناطق تابعة للدولة العباسية وسقطت، كالعباسيين، تحت سيطرة العبيد الاتراك وهجمات للقبائل التركية البدوية

بعدما كانت قضت على الدولة الصفرية التي كانت قضت بدورها على الدولة الطاهرية.

وقضت الدولة الفاطمية على الدولة الحمدانية في شمال سوريا، كما ان الدولات المصرية : الطولونية، والاخشيدية، والفاطمية، والايوبية، والمماليك، قضت على بعضها البعض بالتتابع الى ان جاء العثمانيون واستولوا على الشرق الادنى ومصر وغيرها (١٥١٧).

وجرى شيء مماثل ذكرناه في شمال أفريقيا، وبين دول الطوائف في اسبانيا.

كان من نتيجة هذه النزاعات المستمرة والدموية ان ثمان عشرة دولة دامت اقل من مائة عام، وسبع دول دامت اقل من قرن ونصف، وثمان دول فقط عمرت مايتي سنة او اكثر وكان اطولها عمرا الدولة العثمانية.

ان عدم الاستقرار السياسي الذي تلازم مع البداوة وأخلاقياتها وكان في بعض وجوه احد نتائجها، أدى الى قصر عمر الدول التي قامت وانشغالها الدائم بدفع اذى الطامعين بها من الدول الاسلامية المجاورة، وشغل حكامها عن الاهتمام بموضوع التنظيم السياسي، هذا اذا افترضنا ان بعضهم، كالسلطان اكبر في الهند، كانت عندهم القابلية الفكرية او شعروا بمصلحة لهم في تنظيم حكم يقيّد حرية تصرفهم.

الشوبة بين الشعب وحكامه

من سمات الحكم الاسلامي الغربية بين الشعب وحكامه خلال تاريخه الطويل ما منع قيام الثقة والتعاطف بين الجانبين. فقد فتح العرب بلاد الشام وسكانها اراميون ولغتهم سريانية، وفتحوا بلاد فارس وسكانها ايرانيون ولغتهم فارسية، وفتحوا مصر وهي قبطية الجنس واللغة، وفتحوا شمالي افريقيا وسكانها بربر يتكلمون لهجات مختلفة، وفتحوا اسبانيا ولغتها الاسبانية، وفتحوا آسيا الوسطى وشعوبها ولغاتها تركية، وفتحوا الهند وهي هندية الشعوب واللغات. واشتدت الغربة لان المسلمين عاملوا اهل البلاد بموجب احكام الشريعة، ككفرة او اهل ذمة، وهم كثرة السكان. وهكذا بقيت السلالات الفاتحة من عرب واثراك ومغول تحتفظ بطبقيتها المتعالية على السكان المحليين، وبلغتها وعاداتها

وقتاليدها منموزلة عنهم لا تستزج بهم الا من طريق الاماء والجوارى.
تولد من هذا التعامل ان للشعوب لم تشعر يوما بالولاء لحكامها بل
رضخت لهم مرغمة. وبادلها الحكام شعور الريبة والحذر فاصبح العنف والقسوة
والشدة اسلوب الحكم الوحيد. وبما ان عهد الحكام بالبداءة كان دوما قريبا
فان نهج الاقطار المفتوحة واستنزاف مواردها كان غاية اكثر الحكام فتأخورت
للمجتمعات الاسلاميه ثقافيا وحضاريا واقتصاديا مع كل حاكم جديد. وقد وجد
الحكام في الاصول الاسلاميه التي الحّت على وجوب الطاعة، وعلى وحدة الصف،
وبرزت شعورية العنف، مادة تعينهم على ممارسة السلطة المطلقة على الارواح
والاموال الى اقصى الحدود. وقديما قال الشاعر :

والظلم من شين النفوس فان تجد ذا عفة فلعله لا يظلم
في ظل هذه الاوضاع هل يستغرب استنكاف الحكام المسلمين على
اختلاف اجناسهم وطوال تاريخهم عن وضع نظرية سياسية تضبط تصرفاتهم؟
لقد بقي الحكم المطلق سمة الحكم الاسلامي ثلاثة عشر قرنا الى ان جاء
السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩) واضطر في ظروف غير عادية، الى
اعلان اول دستور في تاريخ الخلافة الاسلاميه يوم ٢٣ ديسمبر ١٨٧٦. وتبع ذلك
انتخاب اول مجلس نيابي في تاريخ الاسلام. لكن هذا التطور الديمقراطي لم
يعمر اذ ما لبثت الخليفة ان انقضى البرلمان سنة ١٨٧٧ ثم علق الدستور في
فبراير ١٨٧٨ وعاد يحكم حكما استبداديا مطلقا الى ان قام الضباط المنتعنين
الى جمعية "مركيا الفتاة" بثورة عسكرية في ٢٣ يوليو ١٩٠٨ اضطرته الى اعادة
العمل بالدستور واجراء انتخابات لمجلس نيابي كان يُعرف باسم "مجلس
المبعوثين".

بذلك كانت الخلافة العثمانية اول دولة في الاسلام تنظم حكمها بموجب
نظرية سياسية واضحة استمدتها من الاصول الديمقراطية الغربية وطوّرتها
حسب حاجاتها في اطار الشريعة.

ثم جاءت الفكرة القومية في بداية هذا القرن تباعد بين المسلمين من
الاجناس المختلفة فتعزز الخلاف بين السنة والشيعة، وبين العرب والفرس
والاكراد، وكانت الحرب بين العراق وايران (١٩٧٩-١٩٨٨) اعنف مظاهره
الحديثة.

خلاصة هذا الاستعراض التاريخي لممارسات الدول الإسلامية أنها لم تقدم نظرية سياسية تحظى بصفات مميزة يمكن أن يبنى عليها المسلمون في هذا العصر ولا يبقى أمام السامعين لاستنباط نظرية سياسية إسلامية إلا الرجوع إلى الأصول وممارسة الاجتهاد.

من المبادئ السياسية الواضحة الواردة في الأصول أن السيادة في الدولة الإسلامية هي للشريعة، وأن الحاكمية لله وحده.

وإن الجهاد واجب ديني لنشر الإسلام بالاقناع أو القوة حتى يعمّ العالم. وأنه يشترط على الجهاد أحكام ذكرناها في الفصل الثالث تتعلق بالفتح، وكيفية معاملة المحاربين والأسرى والمدنيين.

من المبادئ الواضحة أيضاً الأحكام التي تنظم علاقة الدولة الإسلامية بالدول غير الإسلامية حيث قسمت العالم إلى قسمين: أحدهما "دار الإسلام" للمسلمين وهي تنعم بالسلام والهدوء والاستقرار، والآخر "دار الحرب" التي تشمل العالم غير المسلم المهدد دوماً بالحرب حتى يعتنق الإسلام أو يخضع له ويدفع الجزية.

من الأصول أيضاً الأحكام المتعلقة بمعاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية كمواطنين من درجة ثانية.

وفي الأصول حظٌّ على طاعة الحكام وإن ظلموا، ودعوة ملحة إلى وحدة الصف ونبذ الاختلاف بالاراء، واعتبار العنف واللجوء إلى استعماله أمراً مشروعاً لتحقيق الأهداف السياسية.

أما الإشارات العامة في الأصول فأهمها تتعلق بموضوع "الشورى" وما تفرع عنها من اصطلاحات غامضة مثل "أهل الشورى" و"أهل الحل والربط" و"أهل الحل والعقد" دون أن يبين الفقهاء السابقون من تتألف هذه الجماعات، ومتى تجتمع وأين، وما هو عملها، ومن تستمد شرعيتها، بحيث بقي الكلام فيها عاماً لا يفيد ولم يوضع يوماً موضع التطبيق.

وغابت عن الأصول والاجتهادات الماضية شئون سياسية أساسية في تكوين النظرية هي المبادئ الستة التي ذكرناها والتي لا تكتمل أية نظرية سياسية دون إيجاد الحلول لها. وهذه أيضاً تحتاج إلى الاجتهاد.

قلنا في مقدمة الكتاب ان تيارين تقليدي وتحرري يتنازعان المسلمين. اولهما يعتبر عهد الراشدين قمة الكمال السياسي ويريد الرجوع اليه، ويتمسك بالاجتهادات الماضية ويسمى الى تطبيقها في المجتمعات الحالية دون تغيير. اما التيار الثاني فلا يتقيد بعهد الراشدين مع احترامه له، ولا بالاجتهادات السابقة، ويريد العودة الى الاصول لاستنباط النظرية الملائمة لهذا العصر الذي شهد صدور 'شريعة حقوق الانسان' من الامم المتحدة والتزام اعضائها، ومنهم الدول الاسلامية، بتطبيق مبادئها في بلادهم وتعديل قوانينهم المحلية لتتلائم معها.

موقف التقليديين

ان دعوة التقليديين للعودة الى اوضاع القرن السابع، والى الاجتهادات التي تولدت في القرن التاسع تثير الاسئلة التالية التي تحتاج الى ايضاح :
اولا : ما دامت الحاكمة لله، والسيادة للشريعة، فهل للشعب دور في تقرير مصيره في المواضيع التي لم تتعرض لها الشريعة، اي هل له حق التشريع وكيف يمارس هذا الدور، أم ان علماء الدين يفتصبون حق الشعب ويحلون محله بالتشريع عن طريق التفسير والاجتهاد. وهذا ما نصّ عليه دستور الدولة الاسلامية في ايران.

ثانيا : ما موقف الاصوليين من واجب الجهاد حتى يعمّ الاسلام العالم بالاقناع او بالقوة في زمن صارت فيه القوة المتغلبة لغير المسلمين، وصار المجتمع الدولي يحول دون التوسع والاعتداء.

ثالثا : ان قواعد الفتح استتبع قتل المحاربين، واحيانا الاسرى، واسترقاق المدنيين، والاستيلاء على اموالهم كغنيمة او فبيء، في حين ان قوانين الامم المتحدة وانظمتها وشريعة حقوق الانسان التي وقعتها الدول الاسلامية تنقض هذه القواعد كلها. ففي أي مجرى يسير التقليديون؟

رابعا : قسم الاسلام العالم الى 'دار الاسلام' و'دار الحرب' ودعا المسلمين الى جهاد دائم ضد الآخرين حتى يقبلوا الاسلام. وقد أوضح ذلك الاستاذ سيد قطب لما قال ان الصراع العالمي ليس بين الكتلتين الشرقية والغربية، بل

بين الاسلام وبين الكتلتين معا* كما اوردنا في المقدمة. وقد حقق شئ من كلام الاستاذ قطب لما انهارت الانظمة الشيوعية عام ١٩٨٩ في اكثر بلاد العالم ولم يعد يوجد كتلتان متنازعتان فاصبح العالم كله في جانب، بنظر التقليديين، والمسلمون وحدهم في جبهة مقابلة. هذا يعني في الزمن الحاضر ان هدف التقليديين هو الجهاد المستمر بالسلم او بالحرب ضد الدول المسيحية في القارات الاوروبية والاميركية والاورستالية، وضد الدول الوثنية في الشرق الاقصى أي الصين واليابان والهند وتايلاند وغيرها. ويجب ان لا يغيب عنا ان الصين وحدها تعد الف مليون، وتعد الهند ثمانماية وخمسين مليونا، فهل يلتزم التقليديون بتصنيف 'دار الاسلام' و'دار الحرب' ويهيئون للحرب، وهل هذا خيار حقيقي لهم، وما هي حظوظهم في التغلب على هذه الامم الزاخرة بالاف الملايين من السكان وفرض الاسلام عليها؟

خامسا : في القرن التاسع عشر شعرت الدولة العثمانية ان لا بقاء لها اذا لم تأخذ بأساليب المدنية الحديثة، فاصدرت في عهد السلطانين عبد المجيد الاول (١٨٢٩-١٨٦١) وعبد العزيز (١٨٦١-١٨٧٦) سلسلة من القوانين الاصلاحية باسم "التنظيمات" منها "خطي شريف غلخانه" و"الخط الهاميونى" لعام ١٨٦٥.

يهمنا من هذه الاصلاحات موضوعان :

المساواة بين المواطنين : أعلن الخليفة عبد العزيز المساواة الكاملة المدنية والسياسية بين جميع الطوائف الدينية فالغى بذلك "عهدة عمر" وجميع الاجتهادات المتعلقة بها، وأدان بصورة خاصة في المادة الثامنة مبدا اذلال غير المسلمين فخالف القانون بذلك نصا صريحا في الشريعة. فهل يلتزم التقليديون بقانون خليفة المسلمين أم يعودون للشروط العنصرية؟

سادسا : تقنين مصري للشريعة

من جملة الاصلاحات الرئيسية قيام لجنة من كبار رجال القانون بمراجعة النصوص والاجتهادات الحنفية المتعلقة بالاحكام القانونية في الشريعة فاختراروا أفضلها تعبيرا عن روحها، ووضحوها لتيسيرا، وأكثرها توافقا مع حاجات المجتمع المعاصر، فجمعوها ورتبوها وفستقوها بموجب اجتهادهم، أي انهم "قننوا" الشريعة واصدروا خلاصة عملهم فيما عُرف باسم "مجلة الاحكام العدلية" التي أصبحت قانون البلاد تطبقها المحاكم الشرعية في مختلف أرجاء الخلافة على

كافة المذاهب الستية وبقيت سارية المفعول في سوريا الى عام ١٩٤٩ وكانت برأي كبار القانونيين العرب انجازا حقوقيا رائعا.

أفلا يجد المسلمون الآن في هذا الجهد مثالا يُقتدى لعمل مشابه يجري في أواخر القرن العشرين لتقنين الشريعة بما يتوافق مع حاجات هذا العصر؟ وهل يقبل الأصوليون بذلك؟

سأبها : قلنا أن في الأصول إشارات لموضوع "الشورى" ترك تفصيلها للأجيال اللاحقة لتجاري حاجات كل عصر. لكن الفقهاء السابقين لم يستنبطوا الأحكام التي تنظم الشورى وأهملوا الموضوع بكامله ربما لأنه كان يتنافى مع رغبة الخلفاء والسلاطين بالحكم المطلق.

وفي العصر الحاضر، يُكثر التقليديون من ذكر الشورى لكنهم يتجنبون التفصيل فلا نجد لديهم برامج تبين بوضوح نظام الحكم الذي يدعون إليه، وشكل الشورى التي يريدون تطبيقها، بحيث بقيت فكرة ضبابية كما كانت خلال الأربعة عشر قرنا الماضية. وإذا أُخرجوا بالسؤال قالوا "أن القرآن دستورنا" مع علمهم أن القرآن لم يبحث نظام الحكم واسلوبه.

ثامنا : غابت عن الأصول، كما سبق وقلنا، أية إشارة تتعلق بالمبادئ الستة المكملة لأية نظرية سياسية، كما غابت مبادئ شرعة حقوق الإنسان التي تتناول الحريات المدنية والسياسية والتي أصبحت مطلبا ملحا لجميع البشر. ولا نرى للتقليديين رأيا واضحا في هذا الموضوع.

تاسعا : إذا استعرضنا الحركات الإسلامية التقليدية الناشطة حاليا في الأردن ولبنان ومصر والسودان وتونس والجزائر بالإضافة الى الجزيرة العربية، والباكستان نراها اكتفت بالسعي للوصول الى الحكم والدعوة والعمل لتطبيق أحكام الشريعة في مجتمعاتها. لكننا لا نرى لها رأيا واضحا في موضوع النظام السياسي.

عاشرا : لا شك أن التقليديين أهداء للنظرية الديمقراطية عن عقيدة ومقاومون كل ما تمثله من مبادئ وقيم وقد أوردنا آراءهم في المقدمة وفي متن الكتاب. ومع ذلك يستفيدون من الحريات التي توفرها لهم الديمقراطية، ويساهمون في الانتخابات النيابية حيثما سمحت لهم الأنظمة الحكومية سعيا للوصول الى الحكم. فإذا وصلوا يخشون أن تكون الديمقراطية أولى ضحاياهم

لأنهم يستعملونها الآن كمطية لا اقتناعاً بمبادئها وأساليبها. ولا بأس بذلك لأن الديمقراطية تستوعب الاصدقاء والاعضاء. لكن ما يهم الناس هو ان يوضح التقليديون نوع الحكم الذي سيقبضونه اذا نجحوا.

حادي عشر : لكي لا يجري الكلام في فراغ نجد أمامنا الآن أربعة نماذج لحكم إسلامي أصولي أيدها التقليديون وتاصرروها ولا يزالون، وهي تعتبر عن حقيقة تطوراتهم وما يهيئونه للمستقبل. هذه النماذج هي :

الحكم الوهابي السعودي الذي يدعم ويساعد أكثر المنظمات الاصولية ماديًا ومعنويًا.

والتيجربة السودانية عندما تحالف الرئيس جعفر النميري مع الاخوان المسلمين من عام ١٩٧٧ الى ١٩٨٤ وطبق احكام الشريعة.

وحكم الرئيس الباكستاني ضياء الحق الذي نفذ احكام الشريعة في بلد شديد التمسك بالاسلام.

والدولة الاسلامية في ايران،

ومن المفيد ان نتفحص هذه النماذج ببعض التفصيل.

الدعوة الوهابية

ان الدعوة الوهابية هي الحركة الاصولية الوحيدة التي أنشأت دولة لا تزال قائمة بفضل ارتباطها بالعائلة السعودية منذ نشأتها. فهي اذن نموذج يستحق ان نبحثه بشيء من التفصيل.

قام بهذه الدعوة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب من قرية عيينة في وادي حنيفة في نجد الذي استمد مبادئه من فقه الإمام أحمد ابن حنبل. لكنه لاقي مقاومة شديدة من أهل المناطق المجاورة لصرامة تعاليمه فلجأ عام ١٧٤٤ الى قرية الدرعية التي تبعد نحو عشرين كيلومترا عن الرياض حيث رقب به شيخها محمد ابن سعود ووعدته بمناصرته لنشر تعاليمه بشرط ان لا يلجأ الشيخ محمد لتصير اخر. منذ ذلك الوقت دخل آل سعود التاريخ وارتبط مصير الدعوة الوهابية بهم، كما ارتبط مصيرهم السياسي بالدعوة.

ربما ان هذه الدعوة لا تميز بين السياسة والدين فان زعامتها، أي الامامة، تعود حكما الى المتسلط من آل سعود. وعلى هذا كان محمد ابن

سعود الامام الوهابي الاول.

كان اول ما فعله الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحليفه محمد ابن سعود انهما دعيا انصارهما الى الجهاد، ابي الى مهاجمة القرى والقبائل المجاورة ودعوتها الى الالتزام بالتعاليم الوهابية. واعتبروا كل مسلم لا يقبل دعوتهم كافرا يحل قتله ونهب امواله. ومنذ ذلك الوقت تلازم انتشار الدعوة مع تنامي قوة آل سعود القتالية، وترافق انحصارها مع ضعفهم.

في عهد الامام سعود ابن عبد العزيز (١٧٨٨-١٨١٤) اخضع الوهابيون اكثر المناطق النجدية وهاجموا الشيعة في الاحساء وقتلوا بهم. ثم هاجموا شيعة العراق سنة ١٨٠١ فدخلوا كربلاء (بلد الحسين) وقتلوا غالب أهلها في الاسواق والبيوت (نحو ألفي رجل)، وهدموا القبة الموضوعة على قبر الحسين كما أخذوا النصيبة التي كانت على القبر وهي مرصوفة بالزمرد والياقوت والجواهر. وأخذوا جميع ما في البلد من الاموال والسلاح والذهب والفضة وغير ذلك.^(٢٠)

بعدها توجه الوهابيون سنة ١٨٠٢ الى الحجاز فاحتلوا الطائف التي قاومتهم فقتلوا كل ذكر لم يتمكن من الهرب ونهبوا البلد. (٢١) ثم دخل الامام سعود مكة سنة ١٨٠٢ ففعل بها وبأهلها ما فعله بأهل الطائف. "ومنع الامام سعود وصول المحملين السوري والمصري والحج الذي يرافقهما فانقطع عن أهل مكة والمدينة ما كان يصل اليهم مع المحمل من الصدقات والعلائف والصنوبر التي كانوا يتعيشون منها وينتظرونها كل عام. (٢٢) (العلائف والصنوبر هي الاموال الحكومية، وعائدات اوقاف الحرمين، واوقاف سلاطين آل عثمان التي كانت ترافق المحمل وتشكل موردا رئيسيا لاهاشة أهل مكة والمدينة).

كان احتلال الطائف ومكة والمدينة وما فعله الوهابيون بمسكانها من قتل وسفك ونهب، ومنع الحج الشامي والمصري، تحديا لقوى دينية وسياسية ليس الوهابيون في مستواها. فما كان العالم يعير الوهابيين اهتماما لما كانوا يضررون في الجزيرة شرقا وغربا، او يغزون اطراف الشام والعراق فتلك امور متوقعة من البدو، لكنه عندما تصدى الامام سعود لمقدسات اسلامية تحت حماية الخليفة العثماني، كان عليه ان يتوقع رد فعل يناسب عمله.

ردت عليه الدولة العثمانية بواسطة محمد علي باشا واليها في مصر الذي

جرّد حملة أرسلها إلى الحجاز عام ١٨١١ فاحتلته، وقامت سيرها إلى نجد واخضعته، ودخلت الدرعية موطن آل سعود سنة ١٨١٨ فدمرتها وتركها أطلالا. بعد ثمانية عشر عاما (١٨٢٦) عاد محمد علي باشا الذي بقيت قواته في الحجاز فجرّد حملة ثانية على نجد فاحتلها وأقام فيها أماما سعوديا مواليا له.

بعد ثمانين سنة من الاحتلال المصري الثاني استطاع الامام عبد العزيز ابن عبد الرحمن (الملك عبد العزيز) ان يستعيد مدينة الرياض من آل رشيد (١٨٠٢) ويبدأ بتأسيس الدولة السعودية الحديثة.

وجد عبد العزيز امامه حركة وهابية جديدة سُمّي أتباعها "الاخوان" تُدين بنفس العقيدة الوهابية السابقة يتزعمها ثلاثة من أقوى زعماء القبائل البدوية في نجد هم : فيصل الدويش شيخ عشيرة المطير ومنازلها على بعد اربعماية كيلومتر شمال الرياض ومركزه قرية الارطاوية، وسلطان ابن بجاد شيخ عشيرة العتيبة ومنازلها بين نجد والحجاز ومركزه قرية غطخط وهو صهر فيصل الدويش، وضيدان ابن حثلين شيخ قبائل المعجمان في الاحساء. وقد تجتمع في كل واحد من هؤلاء شروط ابن خلدون للزعامة وهي : العصبة البدوية المستندة الى قرابة الدم، وكون الزعيم من اقوى عائلة في تلك العصبة، اضيف الى ذلك مصيبة ديمية ملثفة حول الزعيم. وقد كانت هذه القبائل صناد حركة الاخوان الوهابية التي بنى عليها عبد العزيز مملكته.

في بعض الاقوال ان الامام عبد العزيز هو الذي أسس حركة الاخوان واسكنهم في قرى سميت 'هجر' حيثما وجدت مياه ثم امدتهم بالمال والسلاح. ويقول آخرون ان عبد العزيز وجد الحركة قائمة بين البدو فتزعمها باعتباره امام الوهابية:

لم تختلف عقلية الاخوان ايام عبد العزيز عما كانت عليه قبل مائة سنة في عهد الامام سعود ولم تختلف تصرفاتهم ايضا. فكل مسلم ليس من الاخوان كافر يحلّ قتله ونهبه، وكل البلاد الاسلامية حولهم بلاد كفار يجب حرقها.

عندما قرّر الامام عبد العزيز الاستيلاء على الحجاز هاجم نحو ثلاثة الاف من الاخوان بقيادة سلطان ابن بجاد شيخ العتيبة مدينة الطائف في شهر سبتمبر ١٩٢٤ وامارت فيها ما فعله الوهابيون عام ١٨٠٢ من قتل ونهب. ثم توجهوا الى مكة وفعلوا بها مثلما فعلوا بالطائف. الاطلاع على معلومات ارنو

عن هذه الاحداث، راجعوا كتابنا "آل سعود، ماضيهم ومستقبلهم".
بعد فتح الحجاز واحتكاكه بالدول الاجنبية، وجد الامام عبد العزيز ان
مصلحته تقضي بالتآلف مع عصره ودخول المجتمع الدولي، وهذا يتطلب تغييرا
في مسلكه. لكن "الاخوان" المتمسكين بالعقيدة الوهابية عارضوه واتهموه بالخروج
على الدين في مؤتمرهم الذي عقده في الارطارية عام ١٩٢٦ لراجع قرارات
المؤتمر في كتابنا "آل سعود، ماضيهم ومستقبلهم". ولما لم يستجب لطالبيهم
ثاروا عليه وكادوا ان يطيحوا به لولا المساعدة الانكليزية بالسلاح والمال التي
مكنته من التغلب عليهم وامدام زعمائهم.

بقيت نار الاخوان تستمر تحت الرماد مدة خمسين سنة والبلاد
السعودية تنعم بالاستقرار واموال النفط الوفيرة الى صباح يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٧٩
حين استولى جهيمان العتيبي ورفاقه على المسجد الحرام وتحصنوا به واعلنوا
الثورة على آل سعود واتهموهم بالخروج على الدين وانهم ليسوا سلفيين بالقدر
الكافي. ومن يراجع بيانات جهيمان ورفاقه ويقارنها مع مقررات مؤتمر الارطارية
يجد انها تنبع من مصدر واحد، وان فكرة الاخوان الوهابية ما زالت تتفاعل في
نفوس فريق من الناس.

تمكنت الحكومة بعد حصار خمسة عشر يوما من التغلب على جهيمان
ورفاقه والقضاء على ثورتهم. لكن ما دامت الدولة السعودية تستمر بالترويج
لغاهيم الوهابية كما وضعها الامام محمد ابن عبد الوهاب دون تغيير فهل
يمكنها التاكيد ان جماعة جديدة من "الاخوان" لن تكرر محاولة اغتصاب
الحكم لتطبيق هذه المبادئ؟

ثم كيف يمكن التوفيق بين تشجيع الحركات الاصولية في البلاد الاخرى،
وهي ليست اقل تطرفا وعنفا من جهيمان العتيبي ورفاقه، وبين كبت هذه
الحركات في المملكة السعودية.

ان شرمية الدولة السعودية ما تزال مرتبطة بتطبيق العقيدة الوهابية كما
وضعها ومارسها الشيخ محمد ابن عبد الوهاب، وجاراه فيها الامام سعود الاول،
ثم احياها الاخوان والملك عبد العزيز وساروا عليها في بداية عهده، فلما اعتقدوا
انه غير مسلكه حسب ما فهموه من التعاليم الوهابية، ثاروا عليه وحاربوه. في
سياق هذا التواصل التاريخي يبدو ان ثورة جهيمان العتيبي واتباعه واتهامهم

الحكم السعودي الحالي بالخروج على العقيدة ليست الا حلقة في المسيرة الوهابية السابقة يمكن ان تتجدد .

نحن اذن امام خط ديني متصل عبر ثلاثة قرون من ١٧٤٤ الى عصرنا الحالي يؤمن بعقيدته الوهابية ويصرّ على ان تبقى هي قاعدة التعامل داخليا وخارجيا دون تعديل او تغيير. فاذا وجد تبديلا في اتجاهات حكمه اتهمهم بالكفر وثار عليهم.

من ناحية اخرى، يدرك الحكام السعوديون، وان لم يُعلنوا، ان التعامل الوهابية لم تعد تتلاءم مع تطور المجتمع الداخلي وتشابك مصالح الشعوب ويتصرفون عمليا على هذا الاساس. وهكذا يبقى التناقض قائما بين النظام وما يدعو اليه نظريا، وبين المسلك العملي للحكام. ولا يساعد استمرار هذا التناقض على استقرار الحكم.

نعود الى النظرية السياسية الاسلامية لنرى ماذا قدم لها الحكم الاصولي السعودي في عهده الطويل. ما بين ١٧٤٤ الى ١٩٢٩ كان حكما هذويا صرفا فرض الوهابية على السكان بفزوات وحروب متواصلة، لما انشاء الدولة الاصولية الحديثة فبدأ بعد القضاء على ثورة الاخوان سنة ١٩٢٩ والتفات الملك عبد العزيز لتشبيث ملكه.

انشأ ملكا وراثيا في عائلة آل سعود، ووضع نظاما لانتقال للحكم بالتسلسل بين اولاده من الاكبر الى من دونه سنا فكان اول حاكم مسلم يضع قاعدة لتسلسل الحكم في التاريخ الاسلامي.

والملك السعودي غير مقيد بدستور او قانون في ممارسة سلطته لكنه مقيد عمليا بالمعرف والتعامل. فللعائلة السعودية التي تعدّ عدة آلاف، مجلس عائلي مؤلف من كبار العائلة نادرا ما يتخذ الملك قرارا هاما دون استشارته او استطلاع رأيه. ولا يزال آل عبد الوهاب يلعبون دورا دينيا واداريا مهما وهم على علاقة وثيقة بالعائلة الحاكمة، كما تربط العائلة السعودية بالزواج والمصاهرة والمصالح مع عدد من العائلات النجدية النافذة وتأخذ اراءها بعين الاعتبار في مجتمع لا يزال متصلا بالبداءة.

ثم ان افراد العائلة منبثون في دوائر الحكم والمصالح والقوات المسلحة وينقلون الى كبار العائلة للاتجاهات الشعبية فلا تحصل قطيعة بين الحكم

والشعب.

انه نظام فريد لا ينطبق عليه اسم معروف للأنظمة السياسية فهو يأخذ من الديمقراطية البدوية، ومن الشورى المحصورة في دوائر معينة، وهو ليس 'سلطوياً' authoritarian بمعنى ان الملك يفرض ارادته على الشعب بمحض مشيئته، ولعل أفضل وصف له انه نظام 'أبوي' paternalistic يعتبر فيه الحاكم انه مسؤول عن رفاه وحيته.

وقد برهن هذا الطراز من الحكم في المجتمع السعودي انه قادر على التغلب على الازمات دون عنف. فقد حل أزمة الملك سعود سنة ١٩٦٤ سلمياً بقرار عائلي وفتوى من العلماء، وتغلب على التهديد المصري في الحرب اليمنية بهدوء وحكمة. وفي المجال الداخلي حقق استقراراً اجتماعياً وسياسياً دون اللجوء الى العنف عدا في حالة جهيمان العتيبي. وحقق ازدهاراً اقتصادياً شمل أكثر الطبقات ساعدت عليه إيرادات البترول، ونقل المجتمع في برهة أربعة عقود من بدو شبه كاملة الى وضع متقدم بين الدول النامية. ومن الطبيعي ان يخالف هذا التقدم السريع أخطاء وقجاويزات تبقى مقبولة اذا قورنت بما جرى في أكثر البلاد النامية الأخرى.

لكن للحكم السلفي السعودي وجه آخر. فالسلفية الوهابية تضطهد الحريات الدينية بشكل غير مقبول في عصرنا، وتتدخل في أخص خصائص الحياة والسلوك اليومي للأفراد، وتعاني النساء من ذلك أكثر من الرجال. وتعمل السلفية على تقطويع الأفكار بطرق حديدي منذ نشأة الطفل وطول حياته المدرسية والجامعية وما بعدها فتحرمه من الاطلاع على ما تراه مخالفاً لفكرها بالمراقبة الصارمة لكل ما يقال أو يكتب ضمن البلاد وخارجها فتتجمد العقول في قوالب يصعب التخلص منها، وهذا الكبت لا يتوافق مع أقيام مجتمع راقي ومتمدن؛

والنظام السلفي السعودي، يضيق بالآراء المعارضة، ويحرم الحريات السياسية ويعاقب من يحاول ان يمارسها فيضطروهم الى العمل سراً، وليس ذلك من عوامل الاستقرار.

ان هذه الممارسات ليست خاصة بالنظام السعودي بل هي ملازمة لكل نظام سلفي كما سنرى في النماذج التالية.

التجربة السودانية

يوم ٢٥ مايو ١٩٦٩ قام الجيش السوداني بزعامة جعفر النميري بانقلاب على الحكم المدني واستولى على السلطة باسم "مجلس قيادة الثورة" والذي جميع المؤسسات والمنظمات السياسية وأطلق على السودان اسم "جمهورية السودان الديمقراطية" على عادة الانقلابات العسكرية في ذلك الزمان التي كانت تستوحى الانقلاب المصري.

بعد خمسة أشهر (أكتوبر ١٩٦٩) أُجري المجلس استفتاءً ثبّت جعفر النميري رئيساً للبلاد فشكّل حكومة جديدة حلّت محل مجلس قيادة الثورة وصار "الاتحاد الاشتراكي السوداني" الحزب السياسي الوحيد تشبهاً "بالاتحاد الاشتراكي المصري".

من إنجازات هذه الفترة أن الحكومة تصالحت مع ثوار الجنوب واعترفت لهم بالاستقلال الذاتي باتفاقية أديس أبابا ١٩٧٢ التي أنهت حرباً دامت سبعة عشر عاماً وصار السودان يستطيع أن يواجه جهوده ويخصص موارده للإصلاح الداخلي.

لكن هذه المساعي لم تكن ناجحة واشتدت الأزمة الاقتصادية ورافقتها الاضرابات والاحتجاجات فسمي النميري لحلفاء يناصرونه ووجدتهم عام ١٩٧٧ في "الاخوان المسلمين" رغم أن فئات إسلامية أقوى وأكثر عدداً هي المهدية أو الانتصار، والميرغنية عارضت هذا التحالف فلم يأبه لهما.

تفاوض "الاخوان" ثمناً مرتفعاً لقاء مساعدتهم إذ حصل زعمائهم على مناصب رفيعة وحساسة في الحكم والإدارة، وفي الحزب الوحيد وهو "الاتحاد الاشتراكي" فقد تعيّن زعيمهم السيد حسن الترابي مدعياً عاملاً ثم مستشاراً سياسياً للرئيس وعضواً في اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي، وتولى أعضاء من "الاخوان" أيضاً رئاسة المجلس النيابي، ورئاسة الاستئناف في محكمة الجنايات، ووظائف أخرى عديدة.

وسمح الرئيس "الاخوان" بتأليف منظمات شبه عسكرية ولتدريب الطلاب في جامعة الخرطوم وغيرها على القتال، لكن اخطر ما فعله النميري بتحريض من "الاخوان" أنه أصدر قراراً عام

١٩٨٣ ألفى به اتفاقية أديس أبابا مع سكان الجنوب الذين يعدون ستة ملايين من المسيحيين والوثنيين فعاد القتال بين "جيش تحرير السودان" بقيادة جون غارانغ وبين "الجيش السوداني" في ظروف اقتصادية سيئة لا تسمح للجيش السوداني بالانتصار.

أتبع ذلك باصدار "قوانين ١٩٨٣ الاسلامية" الخاصة بتطبيق الشريعة الاسلامية في شمال السودان وجنوبه ومن بنودها شهادة غير المسلم لا توازي شهادة المسلم. وقد عارض هذه القوانين حزبا الانتصار والبرغنية، وموظفو الادارة واكثر ضباط الجيش، والحامون والاطباء، لكن التمييزي استعان بالدكتور حسن الترابي زعيم الاخوان المسلمين و"الجبهة الاسلامية" ليكون نائبا له وكلفه الاشراف على انشاء محاكم الاسلامية لتطبيق احكام الدين.

استعمل "الاخوان" هذه المحاكم للتخلص من خصومهم وفرض عقوبات "اسلامية" وتنفيذها بسرعة وهكذا حاكموا السيد محمود طه رئيس منظمة "الاخوان الجمهوريين" بتهمة الكفر وحكموا عليه بالاعدام ونفذوا الحكم بظرف يومين فاعطوا مثالا سيئا عن العدالة "الاسلامية" وكانت اول حادثة من زمن بعيد يُعدم فيها انسان بسبب عقيدته الدينية.

وطالب "الاخوان" بحل "الاتحاد الاشتراكي" واستبداله بمجموعات "الامر بالمعروف والنهي عن المنكر" التي شكلوها لتكون جاهزة لتسلم مواقع الاتحاد الاشتراكي. وتقوم هذه المجموعات بمهام "الاحتساب" في المهود الاسلامية الصابقة الذي ذكرناه في الفصل السابع، ونشايه عمل "الطاوعة" حاليا في الدولة السعودية.

تابع "الاخوان" مسيرة العودة الى القرن السابع فالفوا الضرائب والرسوم واستبدلوها بالزكاة فتناقصت واردات الخزينة وشارفت على الافلاس وارتفع الدسم من الخبز وغيره من المواد الضرورية فقامت المظاهرات ضد المحكم وسياسته التي هدمت الاقتصاد وخربت البلاد، وقاد المظاهرات طلبة جامعة أم درمان الاسلامية، كما اشترك الطلاب الجنوبيون مع "الاخوان" في جامعة الخرطوم مما أدّى الى اغلاقها.

نظر العالم الاجنبي من هذه الاتجاهات السلفية ومن نظرتها المتعصبة الى العالم فأوقفت شركات البترول التي تنقب في الجنوب اعمالها، ووقف العمل في

مشروع قناة الري الكبرى، وانقطعت المساعدات المالية الاجنبية. سقط نظام النيميري يوم ٥ ابريل ١٩٨٥ بينما كان في القاهرة عاندا من واشنطن بعد مظاهرات عارمة قامت في الخرطوم شاركت بها منظمات الطلاب والاحزاب والفتيات فقام الفريق عبد الحمن سوار الذهب بانقلاب عسكري شكل بعده الصادق المهدي حكومة ائتلافية كان اول اعمالها تجديد العمل بالقوانين الاسلامية.

كان السودان فرصة فادرة للسلفيين ليثبتوا للعالم ان نظريتهم في الحكم الاسلامي صالحة لهذا العصر، وانها تعالج المشاكل الحياتية للشعوب الاسلامية، وتوفر لها الحرية والكرامة والرخاء.

لكنهم استلموا بلداً موحداً نقسوه، وارقدوا فتنة اهلية كانت اسبابها محولة، وأثبتوا أنهم لا يستطيعون التعايش مع المذاهب الاخرى اسلامية كانت او غير اسلامية.

وتبين ان نظرياتهم الاقتصادية لا تصلح لهذا العصر المتشابك والمعقد فافقروا البلد وأهله.

واستعملوا الارهاب الفكري والديني ضد خصومهم وسخروا اجهزة الدولة ومحاكمها للتنكيل بهم، فنفر الشعب منهم وتوجس بهم شراً فلم يأسف لسقوطهم.

من المؤسف ان الذين تصرفوا في السودان بهذا الشكل هم من زملاء واتباع السادة عبد القادر عودة وسيد قطب وغيرهما ممن نقلنا افكارهم المثالية في صفات الدولة الاسلامية، فاذا الكلام في واد والواقع عند التطبيق في واد اخر سواء بالنسبة للوهابية في الجزيرة او للاخوان المسلمين في السودان.

ثم لابد من التساؤل هل الفضائل والمزايا الاسلامية، وابرار حقيقة الاسلام، لا تتم الا بقطع يد السارق ورجم الزانية واضطهاد غير المسلمين مع ان قوانين الخليفة العثماني قالت بغير ذلك؟

التجربة الباكستانية

كان الاسلام اساس قيام دولة باكستان عام ١٩٤٧ التي انفصلت عن الهند

وأقامت دولة مستقلة لتحافظ على هويتها الإسلامية وعلى تميزها عن الأكثرية الهندية، مدفوعة بحواطف شعبية جارفة، فلا شك إذن بشعورها الإسلامي السائد في جميع طبقات الشعب.

مع ذلك عادت باكستان من نزاعات داخلية عنيفة أدت عام ١٩٧٢ إلى انفصال المناطق الشرقية واستقلالها تحت اسم بانغلادش. على أثر ذلك برز ذو الفقار علي بوتو زعيما وطنيا غير منازع وقوى رئاسة الحكومة عام ١٩٧٢ وكانت ميوله اشتراكية معتدلة.

ما بين ١٩٧٢ و ١٩٧٧ اشتدت النزاعات السياسية الداخلية وتزايدت الصعوبات الاقتصادية فدعا رئيس الوزراء إلى انتخابات نيابية طعن المعارضين بنتائجها وحصل شعب في البلاد فاعلن ذو الفقار علي بوتو بالاحكام العرفية وأوكل ادارتها الى محمد ضياء الحق رئيس اركان الجيش.

كان ضياء الحق مسلما متدينا فلم يلبث ان استولى على الحكم بعد سنة وأعلن نفسه رئيسا للبلاد عام ١٩٧٨، ثم اتهم بوتو بضلوعه في مؤامرة اغتيال احد خصومه السياسيين وحاكمه ونفذ فيه حكم الاعدام عام ١٩٧٩ فظن انه تخلص من منافس سياسي خطر.

بعد ذلك بدأ ضياء الحق برنامجا "لأسلمة" الحياة السياسية والثقافية، فألقى الأحزاب السياسية، وأوقف السياسيين المعارضين لحكمه ولاسلوبه، ومنع الاضرابات العمالية، وفرض رقابة صارمة على الصحافة والنشر وأجهزة الاعلام، وردد الاحكام العرفية الى أمد غير معلوم.

تابع ضياء الحق تنفيذ برنامجا فاصدر قانونا سنة ١٩٧٩ يقضي بتطبيق العقوبات الشرعية في المحاكم، وأجل الانتخابات النيابية دون تحديد موعد لها. في عام ١٩٨١ اصدر دستورا مؤقتا أبقي على الاحكام العرفية ومنحه حق تعديل الدستور. ثم أجرى استفتاء عام ١٩٨٤ أيد سياسته الإسلامية وأنهى الاحكام العرفية.

انتهى عهد ضياء الحق عندما انفجرت الطائفة التي كانت تقفه مع عدد من كبار الضباط وعادت باكستان يمدده إلى الحكم الديمقراطي.

ماذا تفيدنا التجربة الباكستانية عن نظرية الحكم الإسلامي؟

إن الرئيس محمد ضياء الحق، كالرئيس جعفر النميري وكالبنات غيرها

من السلاطين والحكام المسلمين السابقين، استولى على السلطة بقوة الجيش لا بالارادة الشعبية، وعمد في تثبيت حكمه الى اضهاد المعارضين والتفكيك بهم، وإلى الاحكام العرفية، وكبت الحريات على اختلافها، فلماذا يحتاج الاسلام إلى هذه الاجراءات التعسفية كي يسود في شعب اسلامي هو من أكثر الشعوب تمسكا بدينه؟

لقد قبتن بعد وفاة الرئيس ضياء الحق ان حكمه وما سعى اليه كان مكروها من الناس الذين اظهروا شعورهم بدليلين : فقد انتخبوا امرأة لرئاسة الوزارة خلافا لكل التقاليد والاعتبارات التي يتمسك بها التقليديون، وكانت السيدة التي انتخبوها ابنة ذي الفقار علي بونو الخصم العنيد الذي اعدمه ضياء الحق. ولا يبدو ان صفة الباكستان الاسلامية نقصت بهذا التغيير الذي ازال حكما دكتاتوريا عسكريا واعاد الديمقراطية الى البلاد. على انه ليس مؤكدا بعد ان الصراع بين السلفيين الباكستانيين وبين المتحررين للسيطرة قد ختم نهائيا لمصلحة أحد الفريقين.

دولة ايران الاسلامية

هي الدولة السلفية الثانية في العالم الاسلامي هدفت منذ قيامها الى القضاء على فكرة القومية الايرانية واستبدالها بالعقيدة الاسلامية الجامعة. انه الفتح العربي في القرن السابع الذي قضى على الشخصية الايرانية واحتواها في الاسلام يتكرر حدوثه في اواخر القرن العشرين لكن من ضمن المجتمع الإيراني ويبد رجال دين إيرانيين.

يقول وطنيون إيرانيون انهم لم يستكينوا للفتح العربي بل استوهموه وقاوموه من الداخل عن طريق الشعبية أولا، ثم بمنصورة آل البيت واعتناق المذهب الشيعي الذي ميّزهم عن باقي المسلمين واصلهم الى اقامة الدولة الصفوية الشيعية في القرن السادس عشر التي قارمت الدول السنية في جوارها. فتاريخ ايران اذن، منذ الفتح العربي، هو تاريخ الكفاح بمختلف الوسائل، للمحافظة على الشخصية القومية والثقافة الإيرانية من خطر اغراقها في الغضم الاسلامي.

في سنة ١٩٧٩ تشكلت جبهة إيرانية مختلطة من رجال الدين، وسياسيين

ناقمين على الشاه وعلى أسلوب حكمه، ويساريين، وشيوعيين، استطاعت بمساعدة دول غربية أن تجبر الشاه على مغادرة البلاد وتولى زعامة المجموعة آية الله الخميني.

لم يطل الوقت حتى تخلص الامام من حلفائه وأقام الجمهورية الاسلامية معتمدا على طبقة العلماء المنتشرة في ايران في جميع احياء المدن والقرى الريفية والتي استطاعت ان تشير المشاعر الدينية في اوساط الجماهير وتوجهه عداهم في الداخل ضد الطبقات المنتجة والمتعلمة تعليما عسريا وضد الجيش الموالي للشاه، وفي الخارج، ضد الدول الغربية وخصوصا الولايات المتحدة. وقد استطاعت طبقة العلماء ان تخفي عن الجماهير الشعبية ان آية الله خميني قاد ثورته من فرنسا وكان يُصدر بياناته ويرسل الكاسيتات التي تحرض على الثورة الى ايران يعلم الحكومة الفرنسية وموافقتها خلافا لانظمة اللجوء السياسي. وساهمت الاذاعة البريطانية في نشراتها اليومية الموجهة الى ايران باثارة العداء للشاه. أما الولايات المتحدة فلعبت الدور الاول في إزالة الشاه فقد عارضت استخدام الجيش لمقامة الثورة، ثم دفعته الى مغادرة البلاد.

بعدها سيطرت الثورة وقضت على معارضيه ونكلت بهم فهاجر مئات الالوف من المتعلمين ورجال الفكر وأصحاب الاعمال الى الخارج حاملين اموالهم وخبرتهم. وطال التنكيل والاضطهاد بصورة خاصة ضباط الجيش فتضعف كيانه ولما قامت الحرب مع العراق كان ذلك سببا رئيسيا لانكسار ايران.

في العلاقات الدولية اتبعت الثورة منهجا واساليب تخالف ما وضعه المجتمع الدولي وسار عليه منذ بضعة قرون ربما استمدته من نظرية "دار الاسلام ودار الحرب". فقد عاملت جميع الدول غير الاسلامية كأعداء، وحتى بعض الدول الاسلامية كالسعودية. واستخدمت الارهاب خارج بلادها، وخطف المدنيين للاجانب كوسيلة مشروعة في التعامل السياسي.

لما استتب الامر للثورة وضع الامام خميني نظرية سياسية جديدة دعاها نظرية "ولاية الفقيه" مع دستور ينظم شؤون الحكم استمدها من الفقه الشيعي. وقد شرحنا ذلك في الفصل الثالث ولا داعي لتكراره.

مع اهمية ايران وشعبها فان الثورة الخمينية، بعدما أثارت عواطف المسلمين في بدايتها، عادت لتكون حركة شيعية مقتصرة على ايران لان نظرية

'ولاية الفقيه' ليس لها اساس في الفقه السنّي، وقد قامت شعبية الامام الخميني على اعتباره زعيما اسلاميا يتحدثني الدول الكبرى خصوصا الولايات المتحدة، وانه قبل وفاته في يونيو ١٩٨٩ بعث برسالة الى الرئيس السوفياني يقول له فيها ان الاتحاد السوفياني على وشك الانهيار وان الزعيم السوفياني يستطيع ان ينقذ نفسه ويلاده باعتناق الاسلام. «١» رأى الناس بهذا العمل تشبها بما فعله الرسول عندما راسل الملوك.

لكن شعبية الثورة الخمينية تقلصت كثيرا بسبب اجراءاتها الداخلية المتعسفة ضد فئات كثيرة من السكان، وعلاقتها بعدد من المنظمات الارهابية، ومحاولة تصدير ثورتها الى دول الخليج، وتصرفها في مكة في مواسم الحج. أضف الى ذلك الصعوبات الاقتصادية التي تعانيها بسبب محاولتها تطبيق ما تنسبه الى الشريعة من احكام تتعلق بالاقتصاد.

بكل الاحوال فان الثورة الايرانية كما قلنا غير مقبولة في البلاد السنة التي هي موضوعنا وليس لها تأثير في مصير حركاتها الاصولية رغم تشابه الاهداف في فرض المفاهيم الدينية على السكان بالرضا او بالعنف. كما لا نظن ان المعركة بين القومية الايرانية والاتجاه الاسلامي قد حُسمت وقد يكون انتصار المسلمين في ايران مؤقتا.

مواقف المتحررين

عندما بدأت يجمع المعلومات لهذا الكتاب عام ١٩٨٧ في بيروت، قصدت احد الاصدقاء من كبار "الاخوان المسلمين" وأخبرته بما اتوّه ثم قلت له انه توجد في البلاد الغربية جماعات مسيحية تتقيد بحرفية النصوص الدينية ويُطلق عليهم اسم الاصوليين (fundamentalists) اما الذين يلجأون الى التفسير (الاجتهاد) فيسمونهم المتحررين (liberals) وانتم معروفون باسم الاصوليين او السلفيين فماذا تسمي المسلمين الاخرين، هل تستعمل الاصطلاح الغربي وتسميهم متحررين؟

قال لا، لانك اذا سميتهم كذلك فانه يعني اننا نحن غير متحررين.

قلت، ماذا ادعوهم اذن؟

اجاب، "نحن المسلمون".

قلت، أعرف ذلك لكنني أسأل عن تسمية المسلمين الآخرين.
فكرر القول "نحن المسلمون"، فلم أتابع الموضوع.
وقد فهمت من هذا الحديث، وقد أكون مخطئاً، أن "الأخوان" أو
بعضهم، لا يعتبرون من ليس منهم مسلماً وهم بذلك يتبعون الاجتهاد الوهابي
القديم، لذلك لم أجد بداً من استعمال ترجمة الاصطلاح الغربي الشائع.

ليس المتحررون فئة واحدة، فمنهم المشككون بكل شيء كما شكك
أسلافهم في القرنين الثامن والتاسع، هؤلاء لا يقبلون للدين أي دور في الحياة
المعاصرة، وفريق من غير "المبالين" لا يمارسون شعائر الدين ولا يلتزمون
بأوامره ويقولون إن الحاجة إلى الدين لا تتمتع بكونه ثقافة وأخلاقاً، وفريق يرى
في محاولة التوفيق بين النصوص وبين حاجات المدنية الحديثة مضيعة للوقت،
ويشيرون إلى أن محاولة مماثلة جرت في القرون الوسطى للتوفيق بين تعاليم
الكنيسة المسيحية وبين مستجدات العصر عُرِفَتْ باسم scholasticism
فلم تنجح، ولم يتقدم المجتمع الغربي إلا في عصر النهضة للقرن السادس عشر
وما بعده، عندما أخذ العلم والمجتمع منحى مستقلاً عن الدين.

بحسبنا يتعلق بالفريق الذي يسعى للإصلاح من ضمن الدين لا من
خارجه. هؤلاء يحاولون أن يعيدوا تفسير المبادئ الأساسية في ضوء الاوضاع
القائمة والمستمرة التغيير، وفي حين يعارض التقليديون الاجتهاد في أي موضوع
ويتمسكون بأراء فقهاء القرن التاسع وما قبله، فإن المتحررين يقولون إن كثيراً
من تلك الاجتهادات ناثرت بالبيئة الاجتماعية والفكرية السائدة في عصرهم التي
تختلف كثيراً عن بيئتنا، لذلك فإن النتائج التي توصلوا إليها تتباين مع ما
يمكننا التوصل إليه لو بحثنا المسألة نفسها اليوم، لذلك يعتبرون الاجتهاد الذي
يأتي بحلول جديدة واجباً ملحقاً لا غنى عنه وإن خالف الاجتهادات السابقة،
أنهم يسمون إلى التوفيق بين جوهر الاسلام وبين أفضل أفكار الحضارة الغربية
وانجازاتها، ويمتقدون أن الاسلام يستطيع أن يستوعب هذه الأفكار والانجازات
ويتكيف معها ويعطيها محتوى وشكلاً اسلامياً.

يقول المتحررون أيضاً انه عندما يصير التقليديون على القول إن العصر
الذهبي للإسلام انتهى مع الخلفاء الراشدين وأن كل ما جاء بعده كان "إنحرافاً"

عن الدين الصحيح، فكيف يفسترون ان تالقي الاسلام وامجاده في دمشق وبغداد والقاهرة والقيروان ومراكش وقرطبة واصفهان وبلخ وبخارى وسمرقند وغيرها من المدن والامصار فيما يتعلق بنشر الاسلام وتطوير العلوم والفنون والاداب، حصلت كلها في الازمنة التي يعتبرونها منحرفة عن الدين الصحيح؟ وما هو بنظرهم وضع ملايين المسلمين الذين عاشوا الفا وثلاثماية سنة في تلك العهود "المنحرفة" وكانوا يؤمنون انهم يعيشون حياة اسلامية صحيحة، فهل كان اسلام اولئك الملايين ناقصا؟

يقول السيد محمد اسد الذي كان ممثلا للباكستان في الامم المتحدة وترجم القرآن للانكليزية وشرحه، ويوافقه بالرأي أكثر المتحررين : يجب ان نتخلى عن اعتمادنا العميق على ما اعتبره العلماء السابقون "قرارا نهائيا" في الامور الاجتماعية - السياسية، وان نبدأ بمعالجة هذه الامور مجددا في ضوء دراسة حديثة للنصوص. «٨١» أي القرآن والحديث والاجتهادات السابقة.

يستطيع المتحررون ان يتابعوا مسلك الخلافة العثمانية في مجالي القضاء والحياة السياسية حين قُنتت الشريعة في "مجلة الاحكام العدلية"، وأخذت من النظرية السياسية الغربية مبادئ تسلسل الحكم وضعت حريات المواطنين ومساراتهم، وحققهم بالمشاركة بالحكم. لكنهم يواجهون صعوبات شتى. اولها، ان الخلافة العثمانية تصرف بموجب سلطة دينية مركزية لم يكن لها منازع في بلاد الخلافة. وليس للمتحررين سلطة مادية او معنوية ماثلة.

ثانيا، لم يستطيع المتحررون في اي بلد ان ينشئوا تنظيما يجمعهم ولم يتفقوا على برنامج موحد، ويكتفي المهتمون بينهم بالدعوة الى ممارسة الاجتهاد، في حين ان التقليديين ناشطين اجتماعيا وسياسيا في أكثر البلاد العربية يسعون بحماس لفرض مفاهيمهم والتوصل الى الحكم ولا يستبعدون اللجوء الى العنف في بعض الحالات.

ثالثا، لا يرى للمتحررين موقفا فكريا مجتمعا يتصدى للدعوة التقليدية ويناقش آراءها بشكل منظم ومستمر ويدعو المسلمين الى تحديث الاسلام. وكل ما نراه مقالات وكتابات متفرقة في بعض الصحف والمجلات.

رابعا، عندما يدعون الى فتح باب الاجتهاد فان دعوتهم تبقى طوبارية وناقصة لانهم تجنبوا افهام الناس من الذين يراهم يحق لهم الاجتهاد في هذا

العصر، ومن أين يستمدون سلطتهم الدينية والمعنوية.

خامساً، يزيد في صمودات المتحررين ان الذين يشغلون مراكز دينية كبرى في كل دولة، وكانوا يستطيعون ان يشكلوا نقطة الارتكاز لحركة اصلاحية، هم في النظام الاسلامي التابع، موظفون حكومية يتقاضون رواتبهم وأرزاقهم منها مما يقيّد حريتهم بالتصرف وينقص مكانتهم المعنوية بنظر الناس فلا يعودوا قادرين على القيام بهذا الدور حتى لو أرادوا، مع العلم ان كثيراً منهم يميلون الى التقليد لا الى التجديد.

سادساً، ان التقليديين الناشطين اجتماعياً وسياسياً قد أقاموا تنظيمات تنفق الاموال وتضم الانصار المتفرغين من المفكرين والعاملين، وليس عند المتحررين شيء من هذا.

سابعاً، لكل ذلك فان حركة المتحررين التي تدعو الى تحديث النظام السياسي في البلاد الاسلامية عن طريق الاجتهاد مع الالتزام باحكام الشريعة تبدو غير فعالة شعبياً وفكرياً.

ثامناً، نأسف ان نهى هذا البحث بلهجة تشاؤمية (ذاتاً نرى "أهل النقل" الذين انتصروا على "أهل العقل" في القرن التاسع يتجهّون لانتصار جديد في القرن العشرين، ويبقى المسلمون المتطلعون الى الحرية والتقدم حائرين لتقاذفهم الامواج).

• • •

مراجع الخاتمة

- ١ - ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، ص ٢٦٢-٢٦٧ .
- ٢ - الريحاني، أمين، تاريخ نجد الحديث، ص ٢٥٩-٢٦٠ .
- ٣ - ابن بشر، عثمان، عنوان المجد في تاريخ نجد، ص ١٠٦ .
- ٤ - المصدر السابق، ص ١٢٢ .
- ٥ - غالب، محمد أديب، أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي، ص ١١٦ و ١١٨ .
- ٦ - مجلة الايكونوميست، لندن، ٢٠ يناير ١٩٩٠، ص ٢٢.
- ٧ - أسد، محمد، الدولة والحكم في الاسلام، (بالانكليزية) ص ١١، ١٦ .

محتويات الكتاب

المقدمة

الفصل الاول المجتمع العربي في عصر النبوة

مجتمع الجزيرة زمن الدعوة ١٥ : دار الندوة ١٦ : حلف الفضول،
العصبية العربية ١٧ : الاديان في الجزيرة، الوثنية ٢٠ : اليهودية، النصرانية
٢١ : الجاهلية والامية ٢٤ : التواريخ العربية ٢٥ : نسب الرسول ٢٦ : زواج
محمد من خديجة ٢٧ : التختف في مكة ٢٨ : نزول الوحي ٢٩ : كيفية
نزول الوحي ٣٠ : الاسراء والمعراج، حياة النبي العائلية ٣٢ : حادثة عائشة
٣٤ : مراجع الفصل الاول ٣٧.

الفصل الثاني النبي في المدينة

الهجرة الى المدينة، بيعة العقبة ٢٩ : بعض غزوات النبي ٤٠ - ٤٣ :
عهد الحُدَيْبِيَّة ٤٢ : دخول مكة ٤٤ : مراسلة الملوك ودعوتهم الى الاسلام ٤٥ :
سنة الوفود، محمد وأهل الكتاب ٤٦ : محمد واليهود ٥٠ : بنو قُيْنُقَاع،
بنو النضير، بنو قُرَيْظَة ٥٢ : يهود خَيْبَر ٥٢ : يهود فُذَك وراذي القرى
وتيماء ٥٤ : نظرة المسلمين الى الدين اليهودي ٥٤ : محمد والنصارى ٥٥ :
عهد نصارى نجران ٥٥ : نظرة المسلمين الى الدين المسيحي ٥٦ : سورة
التوبة وأهميتها ٥٧ : الطامع السياسية ترافق الدعوة ٥٨ : حجة الوداع ٦١ :
وفاة النبي ٦٢ : اسلوب الدعوة الاسلامية ٦٢ : معاملة الاسرى ٦٥ : مراجع
الفصل الثاني ٦٨.

الفصل الثالث

الاسلام : منابع الدين ومبادئ الحكم

منابع الدين : القرآن ١٧٣ جمع القرآن ١٧٤ ترتيب السور والآيات
١٧٦ الحديث ١٧٧ علم الحديث ١٧٩ سيرة السلف الصالح ١٨٠ الشريعة
١٨١ أهداف الاسلام ١٨٢ تحقيق أهداف الاسلام بواسطة الجهاد ١٨٥
قواعد الفتح : معاملة المحاربين والاسرى والمدنيين ١٨٧ دعوة السكان الى
الاسلام ١٨٨ دعوة السكان الى تسليم بلادهم ودفع الجزية، خيار الحرب ١٨٩
معاملة الاسرى ٩٠ الفتيمة، والفبيء، والصدقة، ٩١ السيادة والحكم،
الخلافة ٩٥ الاسلام دين ودولة ٩٦ اسلوب الحكم الاسلامي، نظرية وراثة
الحكم ١٠٠ نظرية الحكم بمشيئة الله ١٠١ نظرية الشورى في الحكم ١٠٢
معنى البيعة وحقيقتها ١٠٨ الطاعة واجب ديني ١١٠ الاصرار على وحدة
الصف ١١٢ شرعية العنف ١١٤ تبديل النظرية السياسية ١١٨ نظرية
الحكم عند الشيعة ١١٩ إختلاف الشيعة على الأئمة ١٢١ إختلاف الشيعة
حول العقائد ١٢٢ الزيدية او الخمسنية ١٢٢ الاسماعيلية او السبعية ١٢٣
القرامطة ١٢٥ الحشاشون ١٢٦ الاسامية او الأئمة عشرية ١٢٨ غلاة
الشيعة، ولاية الفقيه في جمهورية ايران الاسلامية ١٢١ الاسلام والعلاقات
الدولية ١٢٢ أحكام أهل الكتاب : الشروط العشرية ١٢٣ الذميين وولاية
المسلمين ١٢٩ الخلاصة ١٤٢ مراجع الفصل الثالث ١٤٥.

الفصل الرابع

السياسة في عهد الخلفاء الراشدين

المقدمة ١٥١ خلافة ابي بكر ١٥٢ المعارضة لبيعة ابي بكر ١٥٥
حروب الردة ١٥٦ ابو بكر يضمن الخلافة لعمر ١٥٧ والعبور من خلافة ابي
بكر ١٥٨ خلافة عمر بن الخطاب ١٥٩ السياسة العامة للخليفة عمر ١٦٠

الإقامة الجبرية للصحابية ١١٦١ : عمر وأهل الكتاب، الزهد والتقشف ١١٦٢ : مقتل الخليفة عمر ١١٦٢ : ترتيب البيعة لعثمان، تعيين اللجنة الانتخابية ١١٦٤ : رأي الخليفة عمر في أعضاء اللجنة ١١٦٥ : العبر من خلافة عمر ١١٦٩ : خلافة عثمان ابن عفان ١١٦٩ : عثمان يُعلن فلسفة للخلافة ١١٧١ : أسباب الثورة على عثمان ١١٧٤ : مقتل الخليفة عثمان، العبر من خلافة عثمان ١١٧٦ : نظرية الحق الإلهي، بدء الخلافة الأموية مع عثمان ١١٧٧ : خلافة الامام علي ابن أبي طالب ١١٧٨ : وقعة الجمل ١١٧٩ : النزاع مع معاوية، معركة صفين والتحكيم ١١٨١ : مقتل الامام علي ١١٨٢ : نهاية عهد الراشدين ١١٨٤ : مقام الراشدين والصحابية ١١٨٥ : مراجع الفصل الرابع ١١٨٨ .

الفصل الخامس السياسة في الدولة الأموية

خلفاء بني أمية ١١٩١ : تأسيس الدولة الأموية وخلافة معاوية ١١٩٢ : وضع بلاد الشام ١١٩٢ : تطوّر المجتمع العربي ١١٩٥ : العصية العربية والموالي ١١٩٨ : استخلاف يزيد ٢٠١ : مقتل الحسين ابن علي ٢٠٢ : ثورة عبدالله ابن الزبير ٢٠٢ : خلافة عبد الملك ابن مروان ٢٠٤ : دور الحجاج ابن يوسف ٢٠٥ : خلافة الوليد ابن عبد الملك ٢٠٦ : خلافة سليمان ابن عبد الملك ٢٠٧ : خلافة حمر ابن عبد العزيز ٢٠٧ : خلافة هشام ابن عبد الملك ٢٠٨ : خلافة الوليد الثاني ٢٠٩ : خلافة مروان الثاني وأسباب زوال الدولة الأموية ٢١٠ : الأمويون وآل البيت ٢١٥ : الحياة الاجتماعية والفكرية في العصر الأموي ٢١٦ : الخلاصة ٢١٢ : مراجع الفصل الخامس ٢١٩ .

الفصل السادس تغيّر المجتمع في العصر العباسي

المقدمة ٢٢١ : امتزاج الاجناس والثقافات ٢٢٢ : أثر الجوراري ٢٢٢ : اللقاح العقلي ٢٢٥ : حياة الشرف : الغناء والشراب والشعر ٢٢٦ : أبو نواس، يشار

ابن برد، مطيع ابن أياس ٢٢٢٠: حقاد عجرود، والبة ابن الحيتاب ٢٢٢٠: مشاركة أصحاب السلطان بمنحى الشعراء ٢٢٢٠: الزهد والنديح ٢٢٢٢: الشعوبية: رد الموائ على العصبية العربية ٢٢٢٢: الزندقة ٢٢٢٦: العلوم في العصر العباسي، اللغة العربية ٢٢٢٦: الثقافة الفارسية وأثرها ٢٢٤٢: الثقافة اليونانية وأثرها ٢٢٤٤: النساطرة واليعاقبة: أصلهم ومذهبهم ٢٢٤٥: النساطرة واليعاقبة: دورهم العلمي ٢٢٤٧: المشرجمون ٢٢٤٨: الاتجاهات الفكرية - الدينية ٢٢٥٠: علم الكلام ٢٢٥١: الخوارج ٢٢٥٢: الشيعة، المرجئة، القدرية والجبرية ٢٢٥٤: المعتزلة، قضية خلق القرآن ٢٢٥٥: الصوفية، منشأ الصوفية ٢٢٥٧: جمعية اخوان الصفا وخلان الوفا ٢٢٦٤: المذاهب الفقهية ٢٢٦٥: مدرسة الرأي ومدرسة الحديث ٢٢٦٧: أبو حنيفة ٢٢٦٨: مالك ابن أنس ٢٢٦٩: الشافعي ٢٢٧٠: ابن حنبل ٢٢٧١: بعض علماء وأدباء العصر العباسي ٢٢٧٢: مراجع الفصل السادس ٢٢٨٨.

الفصل السابع

السياسة في الدولة العباسية

الدعوة العباسية ٢٢٩١: سكان الدولة العباسية ٢٢٩٩: الأقاليم الرئيسية في الدولة العباسية ٢٣٠٠: تأسيس الدولة ٢٣٠١: الأدوار الرئيسية في الخلافة العباسية ٢٣٠٢: الدور الأول، الدور الفارسي ٢٣٠٢: الخلفاء في الدور الأول ٢٣٠٤: سلطة الخلفاء في الدور الأول ٢٣٠٥: تنظيم دوائر الدولة ٢٣٠٦: خلافة أبي العباس السفاح ٢٣٠٨: خلافة المنصور ٢٣٠٩: خلافة المهدي ٢٣١٠: خلافة الهادي ٢٣١١: خلافة هارون الرشيد ٢٣١١: البرامكة ٢٣١٢: خلافة الأمين ٢٣١٥: خلافة المأمون ٢٣١٥: خلافة المعتصم ٢٣١٨: خلافة الواثق ٢٣١٨: الازدهار الاقتصادي ٢٣١٩: خلاصة الدور العباسي الأول ٢٣٢١: الدور العباسي الثاني، الدور التركي ٢٣٢٥: الخلفاء في الدور الثاني ٢٣٢٦: المتوكل ٢٣٢٦: المنتصر، المستعين ٢٣٢٧: المعتز، المهتدي ٢٣٢٨: ثورة الزنج ٢٣٢٨: المعتد ٢٣٢٩: المعتضد ٢٣٣٠: المكتفي ٢٣٣١: عبد الله ابن المعتز ٢٣٣١

المقتدر ٢٢٢ : القاهر، الراضي، المقتدي ٢٢٥.
 الدور العباسي الثالث أو دور آل بُويه ٢٢٦ : سلاطين آل بويه ٢٢٨ :
 الخلفاء في عهد آل بويه ٢٢٩ : المستكفي، المطيع ٢٢٩ : الطائع، القادر ٢٣٠ :
 القائم ٢٣٢.
 الدور العباسي الرابع أو دور آل سلجوق، السلطان طغرل ٢٣٢ :
 السلطان الب أرسلان ٢٣٤ : السلطان ملكشاه ٢٣٥ : تفكك الدولة السلجوقية
 ٢٣٦ : الخلفاء في الدور الرابع ٢٣٧ : المقتدي، المستظهر ٢٣٨ : المسترشد،
 الراشد ٢٣٩ : المقتلي ٢٤٠.
 الدور الخامس والآخر للخلافة العباسية، الخليفة الناصر ٢٤٠ : السلاجقة
 والحروب الصليبية ٢٤٢ : دور الاتراك ٢٤٢ : مصائر خلفاء بني العباس
 ٢٤٣ : النظرية السياسية لابي الحسن الماوردي ٢٤٥ : نظرية أبي الحميد
 الغزالي ٢٥٠ : نظرية بدر الدين ابن جماعة ٢٥٢ : نظرية ابن تيمية ٢٥٤ :
 تسلسل الخلفاء العباسيين ٢٥٥ : مراجع الفصل السابع ٢٥٧.

الفصل الثامن الفتوحات والانظمة السياسية

مقدمة ٢٥٩ : دور الفتوحات العربية، فتوحات الخلفاء الراشدين ٢٦١ :
 فتح بلاد الشام ٢٦١ : فتح بلاد فارس ٢٦٢ : فتح مصر، مكتبة الاسكندرية
 ٢٦٥ : الدول المصرية ٢٧٦ :
 فتوحات الخلافة الاموية ٢٦٨ : فتح اسبانيا ٢٦٩ : معركة بوانيه ٢٧٠ :
 الهجوم الاسباني العاكس ٢٧١ : المرابطون ٢٧٨ : الموحدون ٢٧٢ : ملخص
 الوجود الاسلامي في اسبانيا ٢٧٤ : احتلال جزر البحر المتوسط : قبرص،
 صقلية، مالطا، سردينيا ٢٧٥ :
 دول الخلافة العباسية ٢٧٨ : دولة آل سامان ٢٧٩ : الدولة الطاهرية،
 والصفورية ودولة آل حمدان ٢٨٠ : الدولة الناطبية ٢٨١ :
 دور الفتوحات التركية ٢٨٢ : مواطن الاراك والمغول ٢٨٤ : الدول
 التركية ٢٨٥ : السلاجقة في الشرق الاوسط. والافاضل ٢٨١ : دولة خوارزم

٢٨٧ : دولة الماليك ٢٨٧ :

دور الفتوحات المغولية، عهد جنكيز خان ٢٨٩ : دولة وكلاء الخان،
القبيلة الذهبية ٢٩٠ : إسلام المغول ٢٩٢ : تيمورلنك ٢٩٢ :
الاتراك والمغول في الهند ٢٩٤ : الدولة النورية، الدولة الخالجية ٢٩٤ :
الامبراطورية المغولية في الهند، السلطان اكبر ٢٩٥ : الهند تحت الاحتلال
الانكليزي ٤٠٠ :
الدولة الصفوية ٤٠٠ : السلالة القاجارية ٤٠٢ : مراجع الفصل الثامن
٤٠٢ .

الفصل التاسع الفتوحات العثمانية

قباثل اوغوز التركمانية تنزو الاناضول ٤٠٥ : التنظيم العسكري
٤٠٧ : قضية تسلسل الحكم ٤٠٨ : سلاطين آل عثمان ٤١٤ .

الفصل العاشر دولة اوروبا على الفتوحات الاسلاميه

الحملات الصليبية ٤١٨ : دور صلاح الدين الايوبي ٤١٩ : آثار
الحروب الصليبية ٤٢٢ : الامتداد الروسي في آسيا ٤٢٤ : الامتداد الغربي في
المناطق العثمانية الاوروبية ٤٢٧ : ثورة اليونان ٤٢٨ : الاصلاحات العثمانية
٤٢٩ : احتلال منطقة البحر المتوسط ٤٣١ : حروب البلقان ٤٣٢ : مراجع
الفصل العاشر ٤٣٢ .

الخاتمة

٤٣٥

البداوة ٤٣٧ : عدم الاستقرار السياسي ٤٤٠ : الغربة بين الشعب

وحكامه ٤٤١؛ مواقف التقليديين ٤٤٤؛ الدعوة الرهابية ٤٤٧؛ التجربة
السودانية ٤٥٤؛ التجربة الباكستانية ٤٥٥؛ دولة ايران الاسلامية ٤٥٧؛
مواقف المتحررين ٤٥٩؛ مراجع الخاتمة ٤٦٢.

محتويات الكتاب

٤٦٥

فهرس الاسماء

٤٧٢

لائحة المراجع

٤٨٥

فخروس الأسماء

1

ابن رايق ٢٢٢	اباغا (السلطان المنولي)
ابن رشد، أبو الوليد ٢٥٥، ٢٩٩	أبرهة الأشرم ٢١
ابن زهر، أبو مروان ٢٩٠	أبرهيم ابن النبي ٢٥
ابن زيدون ٢٨٩	أبرهيم الامام حفيد عبد الله ابن
ابن سعد، أبو عبد الله ٢٨٠	العباس ٢٠٤
ابن منان ٢٥٤	أبرهيم ابن الاغلب ٢١٢ ٢١٢
ابن سينا، أبو علي ٢٥٥، ٢٨٧	أبرهيم ابن محمد علي الألباني ٢٩٦
ابن طفيل، أبو بكر ٢٩٠	أبرهيم ابن المهدي ٢٢٠
ابن العباس ٢٩	أبرهيم ابن الوليد ٢١٢
ابن عبد ربه، أبو عمر ٢٨١	أبرهيم أبو اسحق الصائبي ٢٥٤
ابن العربي، محي الدين ٢٦٧	أبرهيم الموصلي ٢٤٨
ابن الفارض، شرف الدين ٢٦٧	أبرهيم النخلام ٢٦٢
ابن قتيبة الدينوري ٢٤٨	ابن الأثير، أبو الحسن ٢٩٢
ابن مجاهد ٢٥	ابن باجة ٢٩٠
ابن مسعود، عبد الله ٢٧٢	ابن البواب أو ابن الستري ٢٨٢
ابن مسكويه، أبو علي أحمد ٢٨٦	ابن تيمية، تقي الدين ٨٤ ٩١ ٩٢ ٩٢
ابن المقفع ٢٤٣ ٢٨٤ ٢٤٨ ٢٩٠	٩٧ ١٠٩ ١١٦ ٢٩٢
ابن مقله، أبو علي ٧٥ ٢٤٦ ٢٨٢ ٢٢٢	ابن جماعة، بدر الدين ٢٩١ ٢٦٢
ابن ملجم، عبد الرحمن ٢٥٨	ابن الجوزي، عبد الرحمن ٢٩١
ابن النديم ٢٤٠ ٢٤٦	ابن حنبل، أحمد ٢٢٥ ٢٤٥ ٢٧٤ ٢٧٧
ابن هاني ١٠٢ ٢٨٤ ٩٢	٢١٧
ابن هبيرة ٢٠٢	ابن حزم، أبو محمد ١١١ ٢٨٩
ابن هشام ٢٩	ابن خلدون، عبد الرحمن ١٨ ١١٠
أبو الاسود الدؤلي ٢٢٠ ٢٤١	١٧٣، ٢٧٦
أبو أيوب المورياني ٢٤٧	

- أسد، محمد ١١٢، ٢٢٢
 أسد الدين شيركوه ٤٢٧
 أسكندر الأول ٤٢٤
 أسكندر الثاني ٤٣٤
 أسكندر الثالث ٤٣٤
 اسماعيل ابن جعفر الصادق ١٢٢
 اسماعيل الصفوي ٤٠٦
 أسماء بنت أبي بكر والدة عبد الله
 ابن الزبير ٢٠٥
 أسماء بنت عبد الرحمن ابن أبي بكر
 جد جعفر الصادق ١٤٢
 الاصفهاني، أبو الفرج ٢٨٢، ٢٤١
 الاصمعي ٢٤٥، ٢٨٠
 أبا أحمد القاجاري ٤١١
 أغا خان ١٢٩
 الافشين ٢٤٢
 اغلامون ٢٤٩
 اقليدس ٢٤٩
 أكبر (الكبير) ٤٠٢، ٤٠٤
 ألب أرسلان ٢٤٢، ٤١٢
 البابيجين ٢٩٢
 أم حبيبة بنت أبي سفيان (زوجة
 للنبي) ١٩٢
 أم كلثوم بنت النبي ٦
 أمته بنت وهب (والدة النبي) ٢٦
 أمية ابن عبد شمس ١٨
 أمين أحمد ٢٤، ٦٧، ٧٤، ٨٠، ٨٨
 ١٦٠، ٢٤٥، ٢٤٦
 الأمين (ال خليفة) ٢٣٢، ٢٢٩
 انوسنجين قرشي ٣٩٥
 اوجيتو (سلطان مغولي) ٣٩٩
 اوجينوس الثالث ٤٢٧
 اورانزب (سلطان مغولي) ٤٠٦، ٤٠٧
 اوريان الثاني (البابا) ٤٢٦
 أورهان ابن عثمان ٤١٤
 الاوزاعي، عبد الرحمن ٢١٧
 اوغوداي ابن جنكيز خان ٣٩٨
 آية الله الخميني ١٢٤
 ايقان الثالث ٤٢٢
 ايثان الرابع (الخيف) ٤٢٢
 اينوسنت الثالث (البابا) ٤٢٨
 اينوسنت للعادي عشر (البابا) ٢٤٠،
 ٤٢٦
 ب
 بابل الخرمي ٢٤٢، ٢٤٢
 بافو ابن جوشي المغولي ٤٠٠
 بارسوماس ٢٥٢
 باهادور شاه ابن شاه علم ٤٠٧
 بايزيد الاول ٤٠١، ٤١٤
 بايزيد الثاني ٤١٨
 البحتري، أبو حبة ٢٢٧
 بختيشوع، ابن جورجيس ٢٥٢
 بدوي، زكي ٧
 البرك ابن عبد الله التميمي ١٨٤، ١٨٥
 بركياروق السلجوقي ٢٤٦
 بطرس الاكبر ٤٢٢

- البساسيري، ارسلان ٢٤٢، ٢٤١
 البسطامي، ابو يزيد ٢٦٤
 بشار ابن برد ٢٢١، ٢٢٢، ٢٤٢، ٢١٠
 بشر ابن المعتمر ٢٦٢
 بقا، القائد التركي ٢٢٧
 البنا حسن ٨٧، ٩٧، ٩٨، ١١٢، ١١٧
 بهاء الدولة البويهية ٢٢٨
 بهلوي، رضا شاه ٤١١
 بولس الرسول ٢٨٥
 البويهيون (آل بويه) ٢٢٤
 ت
 تكش ابن ابن الب ارسلان ٢٤٤، ٢٤٦
 تكش حاكم خوارزم ٢٤٩
 تولوي ابن جنكيز خان ٢٩٨
 تياذوق ٢٠٩، ٢١٠
 تيمورلنك ٢٥٢، ٤٠١، ٤٠٢، ٤١١، ٤١٥
 ث
 ثابت ابن قرة ٢٥٤، ٢٥٥
 ثابت ابن يحيى الرازي ٢٤٧
 ثيودورا ابنة الامبراطور يوحنا وزوجة
 اورهان ٢٢٤
 ثيودوسيوس الثاني ٢٥٠، ٢٥١
 ج
 جابر ابن حيان ٢٧٨
 الجاحظ ٢٦٢، ٢٨١
 جالينوس ٢٤٩
 جاهنجير ابن السلطان اكبر ٢٩٦، ٤٠٥
 جبريل ابن يختيشوع ٢١٢، ٢٥٢
 ٢٥٤
 جرير ٢٠٩، ٢١٩
 جعفر ابن النصور ٢٢٥، ٢٠٩
 جعفر ابن يحيى البرمكي ٢١٢، ٢١٢
 ٢١٤
 جلال الدولة ابن بهاء الدولة ٢٢٩، ٢٤٠
 جميل ابن معمر ٢١٨
 جميل بثينة ٢١٨
 جنكيز خان ٢٥٠، ٢٩٥، ٢٩٧، ٤١٢
 جهنم ابن صفوان ٢٦٠
 جورجيو ابن يختيشوع ٢٥٢، ٢٥٢
 جوشي ابن جنكيز ٢٩٨، ٤٠١
 جوهر الصقلي ٢٩٠
 ح
 الحارث ابن الحكم ١٧٢
 الحبيب ابن النضر ابن الجموح ١٥٤
 حبش ابن الحسن ٢٥٤
 الحجاج ابن يوسف ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٧
 ٢٠٨، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢٤٧، ٢٤٦
 حسن ابن بويه، ركن الدولة ٢٢٥
 الحسن ابن سهل ٢٤٧، ٢١٦
 الحسن البصري ٢٦١، ٢٦٢
 الحريري، ابو محمد القاسم ٢٨٥
 الحسين ابن الضحاك ٢٢٢، ٢٢٥
 الحسين ابن علي ٢٠٥، ٢٩٧

- الحلاج، أبو الديك ٢٤٢، ٢٦٢، ٢٦٥، ٢٦٦
 حماد الراوية ٢١٢، ٢١٩، ٢٤٢، ٢٤٨
 حماد الزمرقان ٢٤٢
 حماد عجرد ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٤٢
 حمدان ابن حمدون ٢٨٩
 حمدان لرمط ٢٢٠
 حنين ابن اسحق ٢٥٢، ٢٥٤
 خ
 خالد ابن أسيد ١٧٧
 خالد ابن عبيد الله القسري ٢٠٢
 خالد ابن الوليد ١٦١
 خالد ابن يزيد ٢٠٦
 خالد محمد خالد ٨، ١٥٦
 خزام (شاه جهان) ٤٠٦
 خسرو ابن جاهنجير ٤٠٥، ٤٠٦
 خلف الأحمر ٢٤٢
 الخليل ابن أحمد ٢٢٠، ٢٤٥، ٢٥٤
 خوازمي، محمد ابن موسى ٢٨٠
 د
 داود ابن علي (عم المنصور) ٢٢٨
 دحبل الشاعر ٢٤٢
 دسبينا زوجة هاريزيد ٤١٤
 دوق لورين ٢٤٠، ٤٢٦
 ذو النون ٢٦٢
 ذ
 رأبة العدوية ٢٦٢
 الرازي، أبو بكر ٢٧٦
 الرازي، فخر الدين ٢٩٢
 الراشد (الخليفة) ٢٤٨
 الراضي ابن القاهر ٢٢٢
 رضا شاه بهلوي ٤١١
 رضوان السلجوقي أمير حلب ٢٥١
 الريحاني، أمين، ٢٥٩ - ٢٦٠، ٢٦٨
 ركن الدولة (حسن ابن بويه) ٢٢٥
 روجر الاول النورمندي ٢٨٥
 رومانوف، ميشيل ٤٢٢
 ريتشارد قلب الاسد ٢٨٤، ٤٢٨
 ز
 الزبير ابن العوام (ابن حبة النبي) ١٥٢
 ١٥٩، ١٦٦، ١٧٧، ١٨٠، ١٨٧، ٢٧٤
 الزجاج ٢٤٢، ٢٤٩
 زهاد ابن أبيه ٢٠٠
 زيد ابن ثابت ١٧٤
 س
 سامان خودة ٢٨٧
 سجاح تدعي للنبوة ١٥٢
 سمد ابن ابي وقاص ١٥٢، ١٦٥، ١٧٩
 سعيد ابن العاص ١٧٢
 سعد ابن عباد ١٥٢، ١٥٤، ١٥٥
 ١٥٦
 السقاء مصطفى ١٨٦
 سقراط ٢٤٩
 سلجوق ٢٤١
 سلطان الدولة ابو شجاع ٢٢٩

ط	سليم الاول، ٤١، ٤١٨
ظاهر ابن الحسين، ٣١٥، ٣١٦	سليمان القانوني، ٤١٩
٢٨٨	سليمان ابن عبد الملك، ٢٠٩، ٢٩٨
طاهر اب الثاني الصفوي، ٤١١	سهرورددي، شهاب الدين، ٢٦٦
الطائع (الخليفة)، ٢٣٨	سهل ابن هارون، ٢٤٠
طغرل بك السلجوقي، ٢٤، ٢٤١، ٢٩٤، ٤٢٢	سوميسكي، جان (ملك يولوتيا)، ٤٢٠، ٤٢٦
٤٢٢	سيبويه، ٢٢٠، ٢٤٦، ٢٤٩
طغرل الثالث، ٢٤٥	سيف الدولة الحمداني، ٣٨٩
طلحة ابن صبيد الله، ١٥٢، ١٦٩، ١٧٧، ١٧٣، ١٧٤، ١٨٠	ش
طليحة الاسدي، ٥٦	شافاتاي ابن جتكير خان، ٢٩٨
طه حسين، ١٥٩، ١٦٩، ١٨٨، ١٨٩	شاعري بك السلجوقي، ٢٤١، ٢٦٤
٢٢٢، ٢٤٢	الشافعي، محمد ابن لدريس، ٢٢٥، ٢٧٢، ٢٧٩
ط	شاه جيهان (خرام)، ٤٠٦
الظاهر (الخليفة)، ٢٥٠	شاه عباس، ٤١٠
ظاهر الدين بابور، ٤٠٢، ٤٠٢	شليبي، عبد الحفيظ، ١٨٩
الظاهر بيبرس، ٢٥٠	الشيباني، محمد، ٤٧٥
ع	ص
عائشة، ١٨٠، ٢٠٥	الصادق النيهوم، ٢٢٢، ٢٢٤
العباس، ١٥٢، ١٦٥، ١٦٨، ٢٧٤، ٢٧٩	صالح ابن هارون الرشيد، ٢٢٥
العباس ابن الاحنف، ٢٤٢	صالح ابن قنوس، ٢٤٢
عباس الثاني الساماني، ٢٨٨	صلاح الدين، ٢٥١، ٢٩٥، ٤٢٢، ٤٢٨، ٤٨٤
العباسه اخت هارون، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤	
عبد الحميد الثاني، ٤٢٨	

عبد الرزاق، علي ٢٥٠	عبيد الله ابن زياد ٢٠٥، ٢٠٧
عبد الرحمن ابن صوف ١٥٢، ١٦٥	عبيد الله الفاطمي ٢٢٢، ٢٨٨
١٧٢، ١٧٦	عثمان (التركي) ٢١٢
عبد الرحمن ابن عليج المرادي ١٨٤	عثمان ابن عفان ١٥٢، ١٦٢، ١٦٦
١٨٥	١٧٠، ١٧٤، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ٢٢٨
عبد الرحيم ابن ابي كاليبجار ٢٤٠	٢٨٢
عبد العزيز (السلطان) ٤٢٨	عز الدولة البويهري ٢٢٦
عبد الكريم ابن ابي الموجاء ٢٤٢	عضد الدولة البويهري ٢٢٦، ٢٢٨
عبد الله خان اوزبك ٤٠٠	٢٤١، ٢٨٩
عبد الله ابن الامين ٢٢١	علاء الدين حسين ٢٩٢
عبد الله ابن الزهير ١٥٥، ٢٠٢، ٢٠٥	علاء الدين الخالجي ٤٠٢
٢٠٧، ٢٠٦	سلام الدين محمد ابن ككش ٢٤٩
عبد الله ابن سمد ابن ابي حوث ١٧٤	٢٥٠
عبد الله ابن العباس ٢٩٧	علاء الدين محمد للخوارزمي ٢٩٥
عبد الله ابن علي ٢١٤	علي ابن ابي طالب ١٥٤، ١٥٥، ١٥٩
عبد الله ابن عمر ابن الخطاب ١٦٥	١٦٢، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٢، ١٧٤
عبد الله ابن عمر ابن العاص ٢٧٤	١٧٩، ٢٩٧، ٢٨٦
عبد الله ابن مسمود ٢٤٦	علي البويهري (عماد الدولة) ٢٢٥
عبد الله ابن المنذر ٢٢١، ٢٢١	علي ابن ميد الله (السجاد) ٢٦٧
عبد الله ابن موسى الهادي ٢٢١	علي ابن محمد قائد الزنج ٢٢٩
عبد الله ابو عيسى (ابن التوكل) ٢٣١	عليه بنت الهدي ٢٢١
عبد الله الارقم ١٧٢	علي الرضا ٢١٦
عبد المجيد الاول ٤٢٨	عماد الدولة (علي ابن بويه) ٢٢٥
عبد الملك ابن مروان ١٩٩، ٢٠٦، ٢٩٢	عماد الدين زنكي ٢٥١، ٢٢٧

عمر ابن أبي ربيعة ٢١٨	فردريك (الامبراطور) ٤٢٩
عمر ابن الخطاب ١٥٢، ١٥٤، ١٥٨	فردريك ماربروسا ٤٢٨
١٥٩، ١٦٢-١٦٥، ١٦٥، ١٦٨، ١٦٩	الفردوسي ٢٨٦
عمر ابن سعد ابن أبي وقاص ٢٠٥	الفريزدق ٢٠٩، ٢١٩
عسرو ابن العاص ١٧٤، ١٨٢، ٢٠٠	فرنسوا الاول ٤٢٥
عمر ابن عبد الميز ٢١٩	الفضل ابن سهل ٢٤٧، ٢١٥، ٢١٦
عمرو ابن عبيد ٢٦١، ٢٦٠	فلاديمير، أمير كييف ٤٢٢
عمر الخيام ٢٨٩، ٢٤٤	فيليب الثاني، ملك فرنسا ٤٢٨
عيسى ابن علي، عم السفاح ٢٤٨	ق
عيسى ابن هارون الرشيد ٢٢١	القادر، (الخليفة) ٢٢٨، ٢٢٩
غ	القاسمي، ظافر ١٥٨
الغزالي، ابو الحميد ٢٦٦، ٢٩٠، ٢٢٤	قاسمويه النوري ٢٩٩
غريغور الثامن (البابا) ٤٢٨	الفاهر (الخليفة) ٢٢٢
غزآن (السلطان المغولي) ٢٩٩	القائم (الخليفة) ٢٤٠، ٢٤٢
غني دي لوسينيان ٢٨٤	فتحية ابن مسلم، ٢٠٢، ٢٠٩، ٢١٢
حيات الدين طغلق ٤٠٢	قسطنطين ابن لوقا ٢٥٤
ف	قصي ابن كلاب ١٩٢
الفارابي، ابو النصر ٢٥٥، ٢٨٢	قيس ابن مالمونج (مجنون ليلي) ٢١٩
الفارسي ٢٢٠، ٢٤٩	ك
الفردوسي ٢٨٧	كافرين الثانية ٤٢٢
فاروق (ملك مصر) ٤٢٧	كافور الانشيددي ٣٨٠
فاسيلي الثالث ٤٢٢	الكمامي ٢٢٠، ٢٤٦
فاطمة (بنت النبي) ١٥٢، ٢٨٩	كسوى لغو شروان ٢٥٢
الفراء ٢٤٩	الكندي، يعقوب ٢٥٥

محمد الاول ابن يازيد ٤١٥

محمد الثاني ٤١٧

محمد الرابع ٤٢٦

محمد ابن طغلق ٤٠٢

محمد شيبان ٤٠٢

محمد علي الابياني ٢٩٦، ٤٤٧

محمد النوري ٤٠٢

محمد القاسم (فلاح الهند)

٢٠٢، ٢٠٦

محمود الثاني ٤١٦، ٤٢٧، ٤٢٨

محمود الغزنوي ٣٤١، ٣٩٢، ٢٩٤

محي الدين ابو كاليجار ٣٤٩

٢٤٠

مراد الاول ٤١٤

مراد الثاني ٤١٥، ٤١٦

مروان ابن الحكم ١٧٢، ١٧٧

١٩٢، ٢٠٦

مروان الثاني ٢١٢-٢١٥، ٢١٨

٢٠٨

المسترشد (الخليفة) ٣٤٧، ٤٤٧

المستضيء (الخليفة) ٣٤٨، ٢٤٩

المستظهر (الخليفة) ٣٤٩

المستعصم (الخليفة) ٣٤٥، ٣٥٠

٢٩٨، ٢٩٩

كونراد الثالث ٤٢٧

كونراد دي مونتفرات ٣٨٤

كوزستانس الثاني ٢٠٠

ل

لامانس، هنري ١٥٤، ١٥٤

لويس السابع ٤٢٧

لويس التاسع ٤٢٩

ليث الصقار ٣٢٦، ٣٨٨

ليو الثالث ٢١٠

م

مالك ابن لئس ٧٧، ٢١٧، ٢٢٥

٢٧٥، ٢٧٦

المأمون ٧٣٩، ٢٤٢، ٢٥٤، ٢٥٥

٢٩٢، ٢١٥، ٢١٦، ٢٨٧، ٣٨٨

الملاوردي، ابو الحسن ٢٨٨، ٢٢٤

٢٤١، ٢٥٤-٢٥٩

المبرد، ابو العباس ٢٨١

المتنبي، ابو الطيب ٢٨٢

التقي (الخليفة) ٢٢٢

المتوكل ٢٢٨، ٢٥٢، ٢٠٢، ٢٢٥

٢٢٩

الحاسي ٢٦٢

محمد ابن السطاح ٢٣٥، ٢٦٠

محمد ابن عبد الملك الزيات ٢٤٢

المري، أبو العلاء ٢٤٢، ٢٤٥، ٢٨٧	الشمير (الخليفة) ٢٢٧
ممر الدولة (أحمد زين بويه) ٢٢٥	السكراني (الخليفة) ٢٢٧
المعز لدين الله الفاطمي ٢٩٠	المستنجد (الخليفة) ٢٢٧، ٢٤٨
معن ابن مائدة الشيباني ٢٠٢	المستنصر (الخليفة) ٢٥٠
المغيرة ابن شعبة ٢٠٠	مسمود ابن محمود المرزوقي
المغرض إلى الله ابن المعتضد ٢٢٠	٢٩٢، ٢٤١
المقتدر ٢٢٨، ٢٢١	المعزدي، أبو الحسن ١٧٢،
المقتدي ٢٤٦	٢٨٢
المقتفي ٢٤٨	مسلم ابن الوليد ٢٢٢
المكتفي ٢٢١	مسيلة (مذممي النبوّة) ١٥٧
ملكشاه، جلال الدين ٢٤٢، ٢٤٤	مسيلة ابن عهد الملك ٢٠٩
٢٩٥	مصطفى الثالث ٤٢٢
المنصور ٢٢٥، ٢٢٧	مصطفى كمال ٤٢٠
المنصور، أبو جعفر ٢٢٩، ٢٤٢، ٢٤٢	مصب ابن الزبير ٢٠٧، ٢٠٦
٢٥٢، ١٧٥، ١٧٧، ٢٠١، ٢٠٩، ٢١٤	الطبع (الخليفة) ٢٢٧
المهتدي ٢٢٨	مطبع ابن أبياس ٢١٢، ٢٢١،
المهدي ٢٤٢، ٢٧٥، ٢٩٠	٢٢٥، ٢٢٤
المهلب ابن أبي صفرة ٢٠٢، ٢٠٨، ٢٥٨	معاوية ابن أبي سفيان ١٧٥-١٧٩
مؤنس الظفر ٢٢١، ٢٢٢	٢٨٢
موسى ابن جعفر الصادق ٢٢٩	معاوية الثاني ١٩٢، ١٩٤، ٢١٨
موسى ابن نصير ٢٠٨، ٢١١	المتز (الخليفة) ٢٢١، ٢٢٨
موسى الهادي ٢١٢، ٢٤٢	المتنصم ٢٩٢، ٢٢٥، ٢٩٥
موتفكي ابن تولوي ٢١٨	المعتضد ٢٢٠
ميسون زوجة معاوية ١٩٩	المتنصم ٢٢١، ٢٢٩

ن

- نابوليون بوناپارت ٢٨٦
غادر شاه ٤٦٠، ٤٦١
ناصر الدولة السعداني ٢٨٩
نقولا الأول ٤٤٤، ٤٤٧
نور الدين محمود ٤٤٧
الناصر (الخليفة) ٢٤٩
نافع ابن الأزرق ٩٠٨
نسطور يوس ٢٥٠، ٢٥١
نصر ابن سيار ٢٠٢، ٢٤١،

٢٦٤

- نظام الملك ٢٤٢، ٢٤٧
نور الدين محمود ٢٥١

هـ

- الهادي ٢٤٢، ٢٧٥، ٢٦٢
هارون الرشيد ٢٥٢، ٢٥٤
٢٦٢، ٢٧٥، ٢٦٦-٢٦٤
هشام ابن عبد الملك ١٩٩، ٢١١
الهمداني، يدبع الزمان ٢٨٥
٢٤١
همايون باهور ٤٠٢
هولاكو خان ٢٩٨
الوائق ٢٦٢، ٢٠٢، ٢١٨
واصل ابن عطاء ٢٦١

الواقدي، أبو عبد الله ٢٨٠

- والبة ابن الحبيب ٢٢١، ٢٢٤
وصيف (القائد التركي) ٢٢٧
الوليد الثاني ١٩٩، ٢٠٤، ٢١١،
٢١٢، ٤٦٢، ٢٢٤، ٢٠٢
الوليد ابن عبد الملك ٢٩٧
الوليد ابن حقية ١٧٥
الوليد الثاني الأندلسي ٢٧٧
الوليد ابن يزيد ٢٤٢

ي

- يحيى ابن خالد البرمكي ٢٤٢
يحيى ابن زياد ٢٢٤
يحيى ابن زهد ٤١٢
يزيد الثالث ٢٠٤، ٢١٢، ٢١٨
يزيد ابن معاوية ١٩٢، ١٩٤،
١٩٩، ٢١٧
يزيد ابن المقنن المدبري ٢٠٤
يزيد ابن الوليد ٢١٨
يعقوب ابن داود ٢٤٧
اليقوي، أحمد ٢٤٧، ٢٨١
يوحنا ابن البطريق ٢٥٤
يوحنا ابن حدي ٢٥٤
يوحنا ابن ماسويه ٢٥٤

لائحة المراجع

في بحثي عن مصادر لهذا الكتاب، قضت الظروف ان اتنقل بين بيروت وباريس ومونتريال ما بين ١٩٨٧ و ١٩٩٠ وكنت حينها حطت اقصى المكتبات العامة والجامعية ومراجعة ما تحويه عن موضوع الكتاب.

وجدت فيها مراجع مفيدة لكن صادفت مشكلة هامة. فدور النشر في بيروت والقاهرة وغيرهما من المدن العربية تناولت كثيرا من المصادر القديمة والحديثة وأعادت طبعها وترتيبها بأحجام وأشكال مختلفة وقسمتها احيانا الى اجزاء غير متساوية العدد.

ربما اني راجعت أعمال بعض المؤلفين في عدة طبعات بحكم تنقلي، فان اشارة الحواشي في كتابي الى رقم الصفحات في المصادر قد لا تدل في بعض الاحيان على مكان الفقرة المقتبسة اذا اراد القارئ الرجوع اليها واستعمل نسخة اخرى من المصدر ذاته.

بمهد هذا التنبيه، اقدم لائحة بأهم المراجع العربية والاجنبية التي استعملت بها.

- ١ - ابن الاثير، أبو الحسن عز الدين
الكامل في التاريخ (١٠ اجزاء)
دار الكتاب العربي بمصر ١٩٨٢
- ٢ - ابن تيمية، تقي الدين
السياسة الشرعية في اصلاح الرعية
دار الكتاب العربي بمصر ١٩٦٩
- ٣ - ابن جماعة، بدر الدين
تحرير الاحكام في تدبير اهل الاسلام
- ٤ - ابن خلدون، عبد الرحمن
المقدمة
دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٢
- ٥ - ابن عبد ربه

- المعتد الفريد
- ٦ - ابن قيم الجوزية
شرح الشروط العمرية، تحقيق الشيخ صبحي الصالح
دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١
- ٧ - ابن هشام، أبو محمد ابن أيوب الحميري
السيرة النبوية، دار القلم، بيروت
- ٨ - أبو نواس، الحسن ابن هاني الحكم لديوانه
دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٨٢
- ٩ - الاصفهاني، أبو الفرج
الافقاني، ٢٠ جزء
دار الفكر للجميع، بيروت ١٩٧٠
- ١٠ - أمين، أحمد
زعماء الإصلاح في العصر الحديث
مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٨١
- ١١ - أمين، أحمد
ضحى الاسلام (٣ أجزاء)
دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٣٢-١٩٣٩
- ١٢ - فجر الاسلام (جزءان)
مطبعة الاعتماد، القاهرة ١٩٢٨
- ١٣ - يشار ابن برد (ديوانه)
الشركة التونسية للتوزيع، تونس ١٩٦٧
- ١٤ - البلاذري، أحمد ابن جابر البغدادي
فتوح البلدان
مطبعة الموسوعات، القاهرة
- ١٥ - البناء، حسن
مجموعة الرسائل
المؤسسة للاسلامية للطباعة والصحافة والنشر
بيروت ١٩٨٤

- ١٦ - البيضاوي، عبد الله ابن عمر
انوار التنزيل واسرار التأويل
لأعيد طبعه في بيروت دون ذكر الناشر
- ١٧ - تفسير الجلالين
جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي
دار المعرفة، بيروت
- ١٨ - الجبرتي، عبد الرحمن
مجانب الآثار في التراجم والاخبار
دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، جدة ١٩٧٥
- ١٩ - جلال، أحمد محمد
فكرة الدولة في الاسلام
الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون
الرياض ١٩٨٦
- ٢٠ - حتي، فيليب
تاريخ العرب (المطول)
دار الكشاف للطباعة والنشر، بيروت ١٩٥٤
- ٢١ - الحريري، أبو موسى
قسن ونبي
دار لاجل المعرفة، لبنان ١٩٨٥
- ٢٢ - حسين، طه
حديث الاربعاء (٢ أجزاء)
دار الكتاب اللبناني
بيروت ١٩٨٠
- ٢٣ - حسين، طه
الفتنة الكبرى، عثمان
دار المعارف بمصر ١٩٥١
- ٢٤ - حسين، طه
الفتنة الكبرى، علي وينوه، دار المعارف بمصر

- ٢٥ - حوئي، سعيد
دروس في العمل الاسلامي
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع
حلب ١٩٨١
- ٢٦ - خالد محمد خالد
رجاء أبو بكر
دار المعارف، القاهرة
- ٢٧ - خالد محمد خالد
وداماً عثمان
دار المعارف، القاهرة
- ٢٨ - خالد محمد خالد
في رحاب علي
دار المعارف، القاهرة
- ٢٩ - خربوطلي، علي حسني
الاسلام والخلافة
رسائل، صلاح الدين البسيوني
الفكر السياسي عند الماوردي
دار الثقافة للنشر والتوزيع
القاهرة ١٩٨٢
- ٣٠ - رضا محمد رشيد
الخلافة أو الإمامة العظمى
مطبعة المنار، القاهرة
- ٣١ - الريحاني، أمين
تاريخ نجد الحديث
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت ١٩٨٠
- ٣٢ - الريحاني، أمين
ملوك العرب

- دار الريحاني للطباعة والنشر، بيروت
- ٢٤ - الرئيس، رياض نجيب
المسيحيون والعروبة
مؤسسة رياض الرئيس للكتب والنشر
لندن ١٩٨٨
- ٢٥ - السعيد، رفعت
حسن البنا
دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٩
- ٢٦ - السيرة الحلبية
الامام علي ابن برهان الدين الحلبي
المكتبة الاسلامية، بيروت
- ٢٧ - شامية، جبران
آل سعود، ماضيهم ومستقبلهم
مؤسسة رياض الرئيس للكتب والنشر
لندن ١٩٨٧
- ٢٨ - الطبري، أبو جعفر محمد ابن جرير
تاريخ الرسل والملوك
دار المعارف بمصر ١٩٦٠
- ٢٩ - عبد الرازق، علي
الاسلام واصول الحكم
دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٢٥
- ٤٠ - للمجلاتي، منير
عقيدة الاسلام في اصول الحكم
دار النفائس، بيروت ١٩٨٥
- ٤١ - للعظم، صادق جلال
نقد الفكر الديني، دار الطليعة، بيروت ١٩٦٩
- ٤٢ - عودة، عبد القادر
الاسلام واوضاعنا السياسية

- المختار الاسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة
- ٤٢ - مودة، عبد القادر
المال والحكم في الاسلام
المختار الاسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة
- ٤٤ - الغزالي، أبو حميد
الاقتصاد في الاعتقاد
الغزالي، محمد
- ٤٥ - نظرة على واقعنا الاسلامي
دار ثابت للنشر والتوزيع، القاهرة
- ٤٦ - فضل الله، حسين
الاسلام ومنطق القوة
المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والطباعة، بيروت
- ٤٧ - القاسمي، ظافر
نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الاسلامي (جزءان)
دار النفائس، بيروت
- ٤٨ - القرآن الكريم
طبعة دار المعرفة، بيروت
- ٤٩ - القرطبي، أبو عبد الله محمد الانتصاري
الجامع لاحكام القرآن
دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، مصر ١٩٩٧
- ٥٠ - قطب، سيد
العدالة الاجتماعية في الاسلام
منشورات دار الشروق، بيروت ١٩٨١
- ٥١ - قطب، سيد
معالم في الطريق، دار الشروق، بيروت ١٩٨٢
- ٥٢ - قطب، سيد
معركة الاسلام والرأسمالية
دار الشروق، بيروت ١٩٨٢

- ٥٢ - الكواكبي، عبد الرحمن
طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد
المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت
- ٥٤ - لاغا، محمد علي
الشورى والديمقراطية
المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٢
- ٥٥ - لوك بارسكو وفيليب كاردينال
رايهم في الاسلام
دار الساقي ، لندن
- ٥٦ - المتنبى، أبو الطيب (ديوانه)
دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٨٢
- ٥٧ - محفوظ، محمد
الذين ظلموا، التنظيمات الاسلامية في مصر
مؤسسة رياض الرئيس للكتب والنشر ١٩٨٨
- ٥٨ - النفيسي، عبد الله فهد
عندما يحكم الاسلام
الناشر : طه، لندن
- ٥٩ - النفيسي، عبد الله فهد
في السياسة الشرعية، دار الدعوة، الكويت ١٩٨٤
- ٦٠ - النفيسي، عبد الله فهد
الكويت والراي الاخر، دار الدعوة، الكويت
- ٦١ - النيهوم، صادق
صوت الناس
مؤسسة رياض الرئيس للكتب والنشر، لندن ١٩٨٧
- ٦٢ - هيكل، محمد حسين
حياة محمد
مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٨

Bibliography

- AJAMI, Fuad. *The Vanished Imam*. London: Cornell University Press; 1986.
- ASAD, Muhammad. *Islam at the Crossroads*. Gibraltar: Dar Al Andalus Ltd; 1982.
- ASAD, Muhammad. *The Message of the Quran*. Gibraltar: Dar Al Andalus Ltd; 1980.
Note: English translation and explanation.
- ASAD, Muhammad. *The Principles of State and Government in Islam*. Gibraltar: Dar Al Andalus Ltd; 1980.
- ASAD, Muhammad. *The Road to Mecca*. Gibraltar: Dar Al Andalus Ltd; 1980.
- BANNERMAN, Patrick. *Islam in Perspective*. London: Routledge; 1988.
- CHABRY, Laurent & Annie. *Politique et minorités au Proche-Orient*. Paris: Maisonneuve & Larose; 1984.
- CHAMIEH, Jébran. *Record of the Arab World*. Beirut: The Research and Publishing House; 1966-1973.
- The Concise Encyclopedia of Islam*. London: Stacey International; 1989.
- Encyclopaedia Britannica*. Chicago: Encyclopaedia Britannica Inc.; 1988.
- HOURANI, Albert. *Arabic Thought in the Liberal Age 1798-1939*. Cambridge: Cambridge University Press; 1984.
- JANSEN, G.H. *Militant Islam*. London: Pan Books; 1979.
- KEPEL, Gilles. *The Prophet & Pharaoh, Muslim Extremism in Egypt*. London: Al Saqi Books; 1985.
- LAMANS, Henri. *L'age de Mahomet et le Sira*.
- LAMANS, Henri. *Le Triumvirat*.
- LEWIS, Bernard. *The Political Language of Islam*. Chicago, Ill.: University of Chicago Press; 1988.
- MITCHELL, Richard. *The Society of Muslim Brothers*. London: Oxford University Press; 1969.

- MOTTAHEDEH. The Mantle of the Prophet. New York:
Pantheon Books; 1985.
- NAHAVANDI, Houchang. Le Grand Mesnonge. Paris:
Nouvelles Editions Debrese; 1984.
- NAHAVANDI, Houchang. Iran, Anatomie d'une Revolution.
Paris: SEGEF; 1983.
- PROCTOR, Harris (ed.). Islam & International Relations.
London: Pall Mall Press; 1965.
- LE STRANGE, G. (ed.). The Lands of the Eastern
Caliphate. London: Cambridge University Press;
1905.

To: www.al-mostafa.com